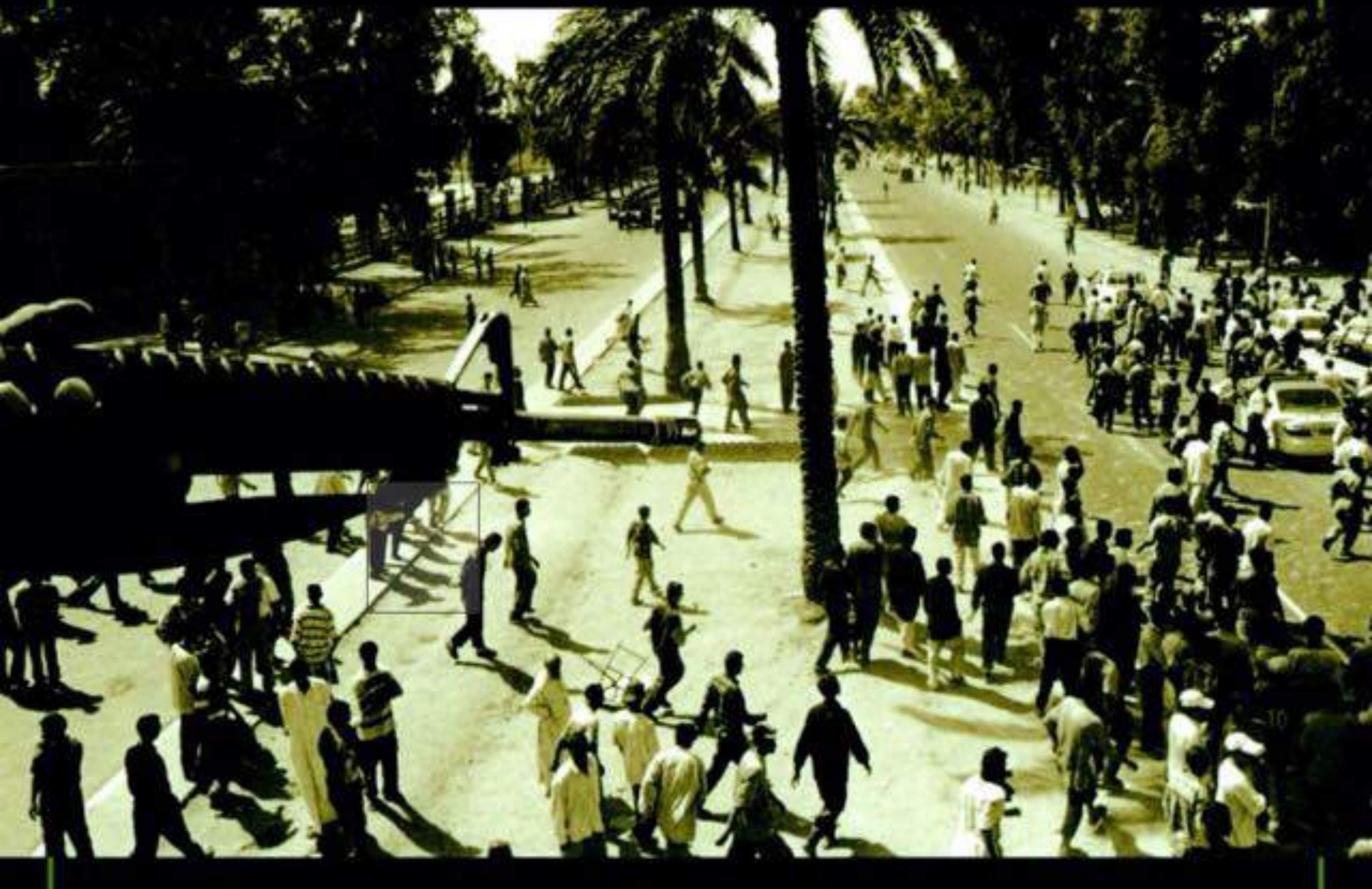
بوابة الحشاشين

أمريكا في العراق

جورج باكر

نقلته إلى العربية
مها سليمان



العبيكان
Obeikan

بوابة الحشاشين
أمريكة في العراق

بوابة الحشاشين

أمريكة في العراق

جورج باكر

فرار، ستراوس وجيروكس

نيويورك

نقلته إلى العربية

مها سليمان



Original Title

THE ASSASSINS' GATE

AMERICA IN IRAQ

GEORGE PACKER

ISBN-13: 978-0-374-29963-7

ISBN-10: 0-374-29963-3

Published by Farrar, Straus and Giroux, 19 Union Square West,

New York 10003 (U.S.A.)

ISBN 3 - 990 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى 1431هـ ـ 2010م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574/ 2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1431هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جورج باكر

بوابة الحشاشين./جورج باكر

مها سليمان.- الرياض 1431هـ

514ص: 16.5× 24سم

ردمك: 3 - 990 - 54 - 9960 - 978

1 - الولايات المتحدة - الأحوال الاجتماعية   2 - الحضارة الأمريكية

أ. سليمان، مها (مترجم)   ب. العنوان

ديوي: 917,303   1431 / 1778

ردمك: 3 - 990 - 54 - 9960 - 978   رقم الإيداع: 1778 / 1431

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

إشادة بكتاب
بوابة الحشاشين

«كتاب ممتع جدًا؛ يقدّم باكر صفحة تلو أخرى من الوصف الحي لاحتلال العراق الذي تم دون تنظيم وبتخطيط ضعيف ونفذ بإجرام. حين نقرؤه نرى الهوة الشاسعة بين الأفكار المجرّدة وبين الواقع الملموس».

– فريد زكريا، The New York Times Book Review (مراجعة الغلاف)

«إن باكر هو خليط نادر: فهو صحافي ممتاز، ومحلل رفيع الثقافة وكاتب بارع... لقد قدّم لنا تاريخاً جديراً بالملاحظة لحرب العراق، وهو عمل فيه تحليل دقيق ونقل إخباري ممتاز وشفقة عميقة».

– غراي كاميا، Salon.com

«إنه رواية تم تركيبها بلباقة وروايتها ببلاغة لأصول الحرب ونتائجها، وهو إنساني بعمق وحيوي بشكل مثير».

– ديفيد كرتز-فيلان، Los Angeles Times Book Review

«لقد نجح [باكر] في إيجاد كتاب ليس فقط مناسباً، وإنما مميز ومحرّض أيضاً. وقد قدّم، باستخدام نقل الأخبار من أرض المعركة وموهبة سرد القصة، تفاصيل حية وتحليلاً متوازناً جعلته واحداً من أفضل المؤرخين الإخباريين لحرب العراق».

– يوناتان لوبو، San Francisco Chronicle

«ينتقل [باكر] برشاقة بين مسببي الحرب وضحاياها... إنه كتاب أساسي لأي شخص مهتم بمعرفة كيف غاصت الولايات المتحدة في رمال الشرق الأوسط المتحركة».

– The Boston Globe

«[هذا الكتاب] هو أكثر كثيراً من مجرّد تحقيق حول الفشل. إنه وصف يستحوذ على الانتباه للحرب والفوضى، وهو يقدم صوراً غنية للعراقيين العاديين، الذين لا نعرف عنهم إلا القليل من التقارير الإخبارية اليومية».

– باتريك كوليكان، The Seatle Times

«إنه أكثر رواية كمالاً وشمولاً وقوة تمت كتابتها حتى الآن عن حرب العراق... إن الصور التي رسمها للعراق في السنة ونصف السنة التي أعقبت الغزو مليئة وحية ومهلكة تماماً... لقد قام باكر بشيء أكثر قيمة من كتابة قصة خيبة أمله. فقد صوّر بألوان صافية خيبة أمل شعب كامل».

– كيث غيسين، New York

«إن باكر هو قاصٌّ بارع».

– كريس توينسينغ، The Nation

«أكبر نقاط القوة في كتاب بوابة الحشاشين لجورج باكر هي أنه يسمع كلا الرأيين بإنصاف. لقد كتب السيد باكر دون تحيّز– ولكن ليس دون غضب– وصفاً لحرب العراق، سيقف في مصافّ روايات تاريخية مثل Fire in the Lake، A Bright Shining Lie، وHell in a Very Small Place. وهو يجعلنا نصحو في تأمله لحدود القوة الأمريكية. لا غنى عنه بوصفه كاتباً يصف التاريخ المعقّد للعراق والولايات المتحدة. وليس هناك أفضل منه بوصفه اختبارًا للتعارض بين الغطرسة والنوايا الطيبة».

– توم بيسيل، The New York Observer

«إنه رواية رائدة متقنة من الدرجة الأولى وتحليل دقيق جدًّا».

– Men's Journal

«لقد كتب باكر كتابه بوضوح كبير، واعتمد على تجربته بوصفه واحداً من أفضل مراسلي The New Yorker في حدّة الملاحظة. والأشخاص الذين كتب عنهم– المحافظون الجدد في واشنطن، والبيروقراطيون في سلطة الائتلاف المؤقتة، والعراقيون العاديون

الذين قلبت حياتهم رأساً على عقب بفعل قرارات اتخِذت في مكان آخر - يتحدثون إلى القارئ بأصواتهم».

- بيتر غالبريث، The New York Review of Books

«إذا وصفنا كتاب [باكر] الجديد بأنه بارع ومكتوب بشكل جيد (وهو كذلك بالفعل) لا نكون قد قلنا عنه الكثير... لن تنقل قصاصات الكتاب ما يغطيه، وتنوع الصور والأحداث التي يسجلها. ولا يمكننا أن نقوم بأكثر من الإشارة إلى دقة النثر وضبطه».

- سكوت ماكيمي، Newsday

«أفضل ما كتب حتى الآن عن حرب العراق».

- آدم كيرش، The New York Sun

«يصف السيد باكر بشكل رائع الطريقة التي يفكر فيها المحافظون الجدد الذين بدؤوا بالتأثير على السياسة تجاه العراق في الحقبة التي سبقت الحرب، وكذلك آمال وحجج حلفائهم العراقيين المختلفين في المهجر... وأفضل ما قام به هو تصوير نفسية العراقيين، وتأرجحهم بين التحرير/ الاحتلال... يتعاطف السيد باكر معهم بكل أنواعهم، ويرسم مجموعة مميزة من الشخصيات المحدّدة بوضوح».

- The Economist

«اقرأ كتاب جورج باكر، بوابة الحشاشين إن لم تكن قد قرأته بعد... لقد أصاب [باكر] فيه كبد الحقيقة».

- كولونيل لورنس ويلكرسون، رئيس الأركان السابق لوزير الخارجية كولن باول

«إن رواية باكر شائقة ومحزنة ومثيرة للغضب، كأنك تشاهد حادث حافلة بالتصوير البطيء... إن كتاب بوابة الحشاشين ببساطة لا غنى عنه».

- جيروم ويكس، The Miami Herald

«إنه بأهمية كتاب مايكل هير Dispatches، ويتميز بفوريته».

- Kirkus Reviews

«يسرني أن أجد كتاباً يسعى للتوازن والإنصاف والفهم في استعراض أسباب الحرب الدائرة في العراق ومسارها... إنه فحص مقلق، ولكنه مؤثر بشكل عميق للصراع الذي يبدو بعيداً عن الحل».

– جاي فريمان، Booklist

«أفضل كتاب قرأته في عام 2005...تجمع كتابة [باكر] فهماً مختلفاً لأكثر صحف السياسة الخارجية غموضاً، بالإضافة إلى قصص من وحي تجربته في البلاد».

– ستيفن إيليوت، La Weekly

«تحليل منقول بشكل رائع للحرب في العراق».

– GQ

«إنه التركيب الأغنى والأكثر إثارة لنقل الأخبار والتفكير الحريص الذي يأتي من واشنطن أو بغداد حول الصراع... بحث دقيق وبارع في التوقعات المتضاربة للعراق، كيف تم التخطيط للحرب، والحطام الرهيب للمجتمع العراقي».

– روبرت روبي، The Bultimore Sun

«هذا هو أول كتاب عظيم فعلاً عن حرب العراق».

– The Washington Monthly

«يخلط جورج باكر، الكاتب في The New Yorker، نقل الأخبار في المشهد والتحليل المدروس في رواية كثيرة التفكير للحرب غير المنجزة في العراق وأثرها على الأمريكيين والعراقيين. إنه يفرح بنهاية صدام، بينما يشكك في حرب ذات جذور عميقة في التاريخ، لكنها بعيدة عن أن تكون حتمية».

– بوب مينزيشيمر، USA Today

«لطالما كان الجدال في العراق بحاجة إلى شخص واقعي بما فيه الكفاية، وحساس بشكل مناسب، لتسجيل كل تعقيداته. وفي كتاب جورج باكر يتم تلبية هذه الحاجة... يتمتع باكر بشعور صادق بما تحمّله العراقيون وما يتحمّلونه، وهو يكتب بتعاطف رائع. وأفكاره ليست

مكبوتة وليست اقتحامية: إنه يرحب بوضوح بنهاية صدام، وفي الوقت ذاته لديه شكوك كبيرة حول حكمة الحرب، وهو باستمرار يختبر نفسه وفقاً لتجربته».

– كريستوفر هيتشنز، Publishers Weekly

«في وسط حرب أثارت آلاف الأسئلة، أعطانا جورج باكر كتاباً رائعاً ومؤثراً وأساسياً يقدم الإجابات. يقطع جورج باكر، الذي كان شاهداً عن قرب للمناقشات التي سبقت الحرب والمذبحة التي حدثت في زمن الحرب، ويأخذنا في رحلة لا تنسى تبدأ في طريق للنوايا الطيبة، وتنتهي على طريق من الدموع المدمّرة. إذا أردت أن تفهم كيف أصبحت الحرب ورطة، ومن هم الناس الذين عانوا عواقبها، فعليك أن تقرأ هذا الكتاب».

– سامنثا باور، Pulitzer Prize- winning author of

«A Problem from Hell : America and the Age of Genocide»



حورج باكر

بوابة الحشاشين

جورج باكر محرر دائم لمجلة النيويوركر (The New Yorker) ومؤلف العديد من الكتب، منها دم الليبراليين (Blood of the Liberals) (FSG، 2000)، الحائز على جائزة روبرت إف. كنيدي لعام 2001. وهو محرر المقتطفات الأدبية: المعركة هي من أجل الديمقراطية (The Fight is for Democracy). وقد حازت تقاريره المرسلة من العراق على إحدى جوائز نادي الصحافة عبر البحار (Overseas Press Club). وهو يعيش في بروكلين.

بقلم جورج باكر أيضاً

كتب لقصص حقيقية

The Village of Waiting

Blood of the Liberals

روايات خيالية

The Half Man

Central Square

كمحرّر

The Fight is for Democracy

Winning the War of Ideas in America and the World

الإهداء

إلى لورا

المحتويات

تمهيد

في ظل قوس مرتفعة مصنوعة من الحجر الرملي، كانت مركبة قتالية من نوع برادلي، وفصيلة من الجنود الأمريكيين من الفرقة المدرعة الأولى يقومون بحراسة النقطة الرئيسة لدخول المنطقة الخضراء الشاسعة، شديدة التحصين على طول الضفة الغربية لنهر دجلة، حيث سلطة التحالف المؤقتة تحكم العراق القابع تحت الاحتلال. عندما وصلت إلى بغداد في صيف عام 2003 وشاهدت القوس أول مرة، افترضت خطأً أنها إحدى البوابات الأثرية للمدينة التي بنيت في زمن الخلفاء لردع الغزاة الفرس. وكان الجنود الأمريكيون يشيرون إليها باسم بدا أنه مأخوذ مباشرة من قصص ألف ليلة وليلة، فقد كانوا يسمّون القوس بوابة الحشاشين.

في الصباح الباكر قبل أن تشتد حرارة أشعة الشمس، كانت حشود من العراقيين تجتمع عند بوابة الحشاشين. كان بعضهم يبحث عن عمل، بينما كان آخرون يحتجّون ويرفعون لافتات تقول: «الرجاء إعادة فتح مصانعنا»، «نود رؤية السيد فراولي». وكان المتظاهرون يأتون بقضاياهم إلى هنا، وكانوا أحياناً يتحولون إلى مشاغبين. سلّم رجل نسخاً من قائمة مطبوعة باللغتين الإنكليزية والعربية وعنوانها «أسماء ضحايا إعدام عائلتي». وكان الكثير من الناس يحملون رسائل موجهة إلى ل. بول بريمر الثالث، كبير المديرين المدنيين في العراق. بعد الإطاحة بالنظام القديم، وتطهير سلطات حزب البعث، وتحويل ناهبي الوزارات إلى هياكل جوفاء، لم يكن معظم العراقيين يعرفون إلى أين يأخذون مظالمهم واستدعاءاتهم، وأين ينزلون عبء تواريخهم الشخصية. وهكذا، تماماً كما كان المتضرعون لخليفة بغداد القديمة. فقد كانوا يجلبونها مباشرة إلى بوابة الاحتلال الأمامية. ولكن كان لدى عدد قليل من العراقيين أوراق اعتماد تخول لهم دخول المنطقة الخضراء، وكذلك ندر وجود المترجمين عند البوابة. وكان العراقيون يقفون عند أحد جانبي لفات من الأسلاك الشائكة، وهم يومئون ويحاولون شرح سبب حاجتهم لدخول المنطقة الخضراء، بينما كان

يقف على الجانب الآخر الأمريكيون في مناوبات، مدة كل منها اثنتا عشرة ساعة لحراسة نقاط التفتيش، وهم يحمون أجسادهم بدروع واقية؛ لمنع العراقيين من الدخول.

في أحد أيام شهر تموز/ يوليه خرجت امرأة نحيلة ترتدي حجاباً ورديا شاحباً من بين الجموع، ودفعت إلي برسالة مكتوبة بخط اليد. كانت مدرّسة تناهز الثلاثين من العمر، وتضع نظارة على عينيها، وقد طلت وجهها بطبقة غليظة من مسحوق أبيض، بينما كانت تعابير وجهها رزينة لدرجة مبالغ فيها، وكأنها أشبه بممثلة إيمائية تؤدي دور الأسى والحزن. كانت الرسالة المكونة من 18 صفحة تطلب مقابلة مع «السيد السفير الأمريكي المحترم الرحيم، (باول بريمار)». وحوت الرسالة قدراً كبيراً من النصح بوجوب تسليح الشعب العراقي؛ كي يستطيع المحاربة ضد رجال العصابات. وكانت المدرسة التي كان يقل طولها عن خمسة أقدام، تريد تصريحاً بحمل رشاش من طراز AK - 47 والعمل، جنباً إلى جنب، مع الجنود الأمريكيين ضد الوحوش الذين كانوا يحاولون إعادة الطاغية، أو جلب قمع ذي أسلوب إيراني. وقد أبرزت لي التصريح المزيف بحمل السلاح، الذي يوضح رغبتها. وقد تركت وظيفتها بوصفها مدرّسة للغة الإنجليزية في مدرسة للبنات في الحي الشيعي الفقير المسمّى مدينة الصدر، بدلاً من الرضوخ لإملاءات المسلمين الأصوليين الذين تولوا زمام الأمور بعد الإطاحة بصدام، وأمروا المدرّسات بتسميم عقول البنات ضد الأمريكيين.

وقالت المدرّسة: «في البداية، عامل الأمريكيون الشعب العراقي معاملة حسنة. ولكن لاحقاً، لكون العراقيين وحوشاً ويهاجمون الأمريكيين ويقتلونهم، سيكون لهذا تأثير سيئ على نفسية الأمريكيين ومن ثَمَّ سوف يعيشون في مزيد من العزلة عن الشعب العراقي». وقالت: إن لديها معلومات جاءت من أوثق مصدر في بغداد، ومن الأطفال في الشوارع، بأن الطاغية وأتباعه يقطعون رؤوس الأمريكيين (كان هذا قبل سنة تقريباً من أول عملية قطع رأس معروفة في العراق). وقد جعلتها القصص مريضة، وقالت: إنها تعاني صعوبة في النوم، وإنها توقفت عن الأكل بشكل شبه تام.

وعرج خارج الرتل رجل يحمل عُكّازةً، وكانت ضمادة تلف يده اليسرى، إذ كانت إبهامه مبتورة. شرح للمدرسة بالعربية أن والده كان قد قتل بصاروخ في الحرب العراقية الإيرانية، وأنه هو قد أصيب بالشلل نتيجة حادث سيارة في أثناء فراره من الكويت عند نهاية حرب

الخليـج، وأنه في مرحلة ما كان قد فقد قطعة الورق التي تخوّل له بالحصـول على رعاية في المشفى. والآن وقد بـات زمام الأمور بيد الأمريكيين، شـعر بأن لديه الجرأة بطلب نسـخة أخرى، ولهذا جاء إلى بوابة الحشاشين. وقد أجهش الرجل بالبكاء، وكان غير حليق وفي حالة يرثـى لها، فأخبرته المدرسـة بألا يحزن، وبأن يثـق في الله وأن يتكلم مع الجنود الأمريكيين عند نقطة التفتيش. وعاد أدراجه ليقف في الصف.

واصـلت المدرسـة كلامها قائلة: «من فضلك، سيدي، هل بوسـعك مساعدتي؟ يجب أن أعمل مع الأمريكيين؛ لأن صـدام حسين حطم نفسـيتي. ليس أنا فقط، بل جميع العراقيين. تدمير نفسي».

كان حديثنا موجزاً، وكان يمكن أن يكون أقصر لو أفلح سائقي ومترجمي اللذان اعتقدا أن المـرأة كانـت مختلة العقل تماماً، في إبعادي عنها في البدايـة. وقد رأيتها مرة أخرى بعد سـتة أشهر: فقد حصـلت، بطريقة ما، على وظيفة مترجمة للجنود الأمريكيين الذين كانوا يدققـون في الهويات ويفتشـون الناس الذين يدخلون المنطقة الخضـراء عـبر نقطة تفتيش أخرى. وقد غدت ممتلئة الجسم وحصلت على نظارة شمسية أنيقة المظهر.

نادراً ما أفكر في شأن العراق دون أن أتذكر المدرسة، وهي واقفة خارج بوابة الحشاشين؛ والحدة المباغتة في تحديقها وكلامها، والشـعور بأنه كان فيها فجأة جنون وحقيقة. في ذلك الصـيف الأول بعد وصـول الأمريكيين، كان لدى العراق حلم من نوع قوي وواقعي ومشوش، انجرف في ضـوء الشـمس الأصـفر بلا هوادة؛ فقد انهارت حيرة الحياة العادية وبهجتها، وبدأ يحدث شـيء اسـتثنائي خارج عن المألوف، ولم يكن أحد يعرف ماهيته ومساره، ولكنه كان أهم من أي شيء آخر، ولم يكن هناك متسع من الوقت.

علمت لاحقاً أنني كنت مخطئاً بشـأن بوابة الحشاشين؛ إذ لم تكن قديمة، فقد شيّدها صـدام قبل سنوات في محاكاة تتسـم بالفخامة والعظمة لبوابات بغداد القديمة. ولم تكن بوابة للحشاشـين، فيما يخص العراقيين، فلم يعرف أحد منهم سـبب هذه التسـمية، بل إنهم أبدوا انزعاجاً بعدئذ. وقد سـموها بشـكل عادي باب القصر، حيث إن الطريق الذي يمـر تحت القوس يؤدي إلى قصـر صـدام الجمهـوري، على بعد ميل واحـد أو نحو ذلك،

حيث مقر سلطة الاحتلال. أما تسمية «بوابة الحشاشين» فقد جاءت من كنية أطلقها الجنود المتمركزون هناك، التابعون لفرقة ألفا (Alpha): كان اختراعاً أمريكياً لنصب تذكاري اصطناعي عراقي، تسمية خاطئة لسراب. اشتكى العراقيون من الطريقة التي أعاد العسكريون الأمريكيون تسمية طرقهم السريعة ومبانيهم، وأعادوا رسم خطوط محافظاتهم. وقد أعاد ذلك إلى أذهانهم أن شيئاً غريباً وقوياً قد فرض عليهم دون موافقتهم، وأن هذا الشيء لا يتناسب بسهولة مع الحياة التي كانوا يعرفونها دائماً؛ وأنه يزعج ويغضب، على الرغم من أنه قد خلّصهم من لعنة رهيبة. وكان التشابك يتطلب من كلا الجانبين، حصافة وصبراً، وهما عاملان لم يكونا متوافرين بالفعل في ذلك الصيف.

لقد التصق اسم «بوابة الحشاشين» بالأمريكيين في العراق، وفي نهاية المطاف ببعض العراقيين كذلك. كان الحشاشون الأصليون زنادقة مسلمين من القرن الثاني عشر، وقيل: إنهم كانوا يتعاطون الحشيش في حدائق من متع الدنيا قبل أن يخرجوا للقتل، وقد جعلوا من الاغتيال مشهداً علنياً للغاية، لدرجة أنه أصبح نوعاً من الانتحار أيضاً. كان الحشاش ينقض على هدفه عند ظهيرة يوم الجمعة في المسجد وهو يحمل سكيناً، وكان يعرف أنه سيلقى حتفه أيضاً. وعلى مرّ الزمن في العراق، مع تصاعد العنف، واختفاء بوابة الحشاشين خلف أبراج مراقبة وجدران من الكتل الخرسانية المقاومة للنسف، وحين بدأ كل شيء في التدهور، أصبحت التسمية اسماً على مسمى بطريقة مثيرة للذكريات تتسم بالغرابة. تخيلت مسافراً أجنبياً يسير تحت وهج الشمس، عبر البوابة الأمامية لمدينة قديمة ذات أسوار، اعتقاداً منه بأنه في أمان وموضع ترحيب في هذا المكان غير المألوف، دون أن يعلم أن أخطاراً خفية تتربص به في الداخل. في أوقات أخرى، كان الأجنبي هو الذي كنت أراه بمنزلة الحشاش الذي يصوّب سلاحه من عليائه إلى القوس.

إن الطريق الذي أوصل أمريكة إلى بوابة الحشاشين طريق طويل، ولم يكن مباشراً قط. إن قصة العراق قصة أفكار حول دور الولايات المتحدة في العالم، والأفراد الذين تصوروا تلك الأفكار وعملوا بموجبها. إنها قصة ذات جذور عميقة في التاريخ، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي شيء حتمي بشأن الحرب، وإن وقوعها ذاته لا يزال يذهلني بشدة أحياناً. في

أثناء إعداد التعزيزات التي لا مجال لنقضها تقريباً استعداداً للحرب، لم أجد قط أن من السهل الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالحرب، وكانت الطريقة التي دار فيها الجدل في البلد تبدو غير ملائمة كلياً للمدى الذي كنا نوشك على الغوص فيه. ذهبت أولاً إلى العراق، ثم كنت أعود باستمرار؛ لأنني أردت أن أرى عبر التعابير التجريدية، ما كانت الحرب تعنيه في حياة الناس. أحسست في ذلك الصيف من عام 2003 أنه لم يكن هناك شيء ثابت ومحدد بعد، وكانت أهم الصراعات هي تلك التي تدور في أذهان العراقيين والأمريكيين على السواء. وقد يكون معنى الحرب هو مجمل الطرق كافة التي فهم بها أحدهم الآخر، والحدث الذي أقحمهم معاً. إنه في النهاية سيلخص الملايين من هذه اللقاءات التي تتم عن طريق المصادفة، الشبيهة بذلك اللقاء عند بوابة الحشاشين.





1

حرب غير منجزة

إبان حرب الخليج في سنة 1991، بدأ رجل يسمي نفسه سمير الخليل في الظهور على البرامج الإخبارية للتلفزيون الأمريكي. كان الاسم مستعاراً، وكان الرجل يشيح بوجهه دائماً عن آلة التصوير، كما كان يضع شعراً مستعاراً (باروكة) لإخفاء هويته. كان سمير الخليل قد ألف كتاباً حول العراق في ظل صدام حسين عنوانه «جمهورية الخوف» (Republic of Fear). وقد كتبه في ثمانينيات القرن العشرين عندما كان العراق في حالة حرب مع إيران، وكان آلاف الرجال يموتون في خنادق وحقول ألغام حدود البلدين الطويلة، وذلك باستخدام الغاز السام، وفي هجمات من الأمواج البشرية، وفي قتال يعيد للذاكرة مذابح الحرب العالمية الأولى، غير أن هذه الحرب كانت أكثر حداثة، تؤججها بطريقة القرن العشرين إيديولوجيات استبدادية: في العراق صنف عدواني من القومية العربية، وفي إيران دكتاتورية ثورية من رجال الدين. كان كفاحاً مميتاً بين الخوف والإيمان. قتل أو جرح أكثر من مليون رجل في الحرب العراقية الإيرانية في المدة 1980 – 1988. أما في أمريكة فلم يكد يكون ملحوظاً من أحد.

في خلفية هذه الفاجعة، قام سمير الخليل الذي كان يعيش في كمبريدج بولاية ماساشوستس، وكان بإمكانه الوصول إلى مجموعة واسعة من المصادر العربية في مكتبة وايدنر في جامعة هارفرد، بأبحاثه وألّف كتابه «جمهورية الخوف»، وهو كتاب مكثف يستولي على ذهن القارئ، إذ يحلل بتفصيل مستمر تاريخ دكتاتورية صدام وطبيعة حزب البعث العربي الاشتراكي، ويوضح مدى التشابه بين الحركات الاستبدادية الأوروبية، من النازيين والفاشيين والشيوعيين، وبين نظام صدام. وعند الانتهاء من قراءة الكتاب، يفهم القارئ السبب الذي جعل مؤلفه يبحث عن ملجأ، متخفياً وراء اسم وشعر مستعارين.

احتاج سمير الخليل إلى ثلاث سنوات ليعثر على ناشر للكتاب. وحين ظهر الكتاب أخيراً في سنة 1989، ظل موضع تجاهل، كما كان متوقعاً إلى آب/أغسطس 1990 عندما غزا صدام الكويت، ووضع العراق في مركز وعي الأمريكيين. وفجأة أصبح كتاب «جمهورية الخوف» من أكثر الكتب الثانوية مبيعاً.

ومع اقتراب نهاية حرب الخليج في أوائل آذار/مارس 1991، وتقهقر القوات العراقية خارج الكويت، ظهر سمير الخليل في العلن في منتدى عقد في جامعة هارفارد وكشف النقاب عن اسمه المستعار. كان اسمه الحقيقي كنعان مكية، وهو ابن أحد أبرز المهندسين المعماريين في العراق، ومن والدة بريطانية؛ كما أن كنعان هو أيضاً مهندس معماري مدرّب، وقد أدار أعمال شركة والده في لندن ذات مرة. وقد قرر مكية الكشف عن هويته؛ لأن الأحداث في بلده الأم كانت تأخذ منعطفاً كارثياً، إذ كان الشيعة في جنوب العراق والأكراد في شماله، بتشجيع من الرئيس جورج بوش الأب الذي دعا العراقيين للتمرد ضد صدام، يُذبحون بالآلاف على يد وحدات النخبة الباقية من جيش صدام وشرطته السرية. وكانت طائرات الهليوكوبتر العراقية تستغل شروط وقف إطلاق النار لقتل المدنيين من الجو، أو كانت تلقي بالمتمردين المشتبه فيهم من الجو؛ ليلقوا حتفهم. وفي المنتدى الذي عقد في جامعة هارفرد، حث مكية بوش على وقف المذبحة وإنهاء الحرب بالتحرك نحو بغداد وإسقاط النظام.

لم تتحول حرب الخليج الثانية مثلما كان يأمل كنعان مكية، فقد احتفظ صدام بالسلطة، وسرعان ما فقد بوش سلطته، واختفى العراق من أذهان معظم الأمريكيين. ولكن طوال العقد الممتد بين نهاية حرب الخليج الثانية وصبيحة 11 أيلول/سبتمبر 2001، ظل العراق مصدر إزعاج، وكان يذكر بعمل غير منجز. رصف صدام مدخل أحد الفنادق بفسيفساء لوجه بوش؛ كي يجبر النزلاء على المشي فوق ملامح رئيس أمريكي؛ ولما كان صدام بحاجة إلى مزيد من الشعور بالارتياح، حاول التدبير لقتل بوش في أثناء زيارة له للكويت. وأمر بأن يبني مهندسوه المعماريون مسجداً فخماً، أحد أكبر المساجد في العالم، وكانت مآذنه على شكل المدفع الرشاش AK - 47، وأطلق عليه اسم مسجد أم المعارك. بدا وكأن (صَدّاماً) كان يدعي النصر في النهاية. وقد فعل شيئاً مشابهاً بعد الحرب مع إيران، التي انتهت دون أي منتصر، ولكنها كانت مثقلة بأخطاء في التقدير، وأدت إلى خسائر كارثية. وكان

صـدام قد أمر بصـب يدين عملاقتين وصـهرهما تشبهان يديه، تمسـكان بسيفين ضخمين يتقاطعان بشكل قوس نصر على طرفي ساحة العرض العسكري في وسط بغداد، على بعد ميل واحد تقريباً من بوابة الحشاشـين. وقد تم غرز خوذ القتلى من الإيرانيين المرشـومة بثقوب الرصاص، في الساحة المرصوفة تحت الأقواس، بحيث تسحقها الدبابات العراقية، ويدوسها الجنود العراقيون بأقدامهم في أثناء الاستعراض الاحتفالي السنوي.

بدت هذه المشـروعات للعالم أشبه بأوهام سخيفة مضحكة، ولكن كان لدى صدام وجهة نظر: لقد سـبق أن شـن مرتين حربين عدوانيتين ضد بلدين مجاورين، ومع ذلك لا يزال في السـلطة وهو الحاكم المطلق، وأي شـخص يحاول الإطاحة به من الداخـل كان يدفع الثمن النهائي. واسـتمر صدام من عاصـمته ذات النصب التذكارية المتسـمة بالعظمة والفخامة في التهكـم علـى القوة الأعظـم والغرب والأمم المتحـدة وتحديها، وهذا التحـدي جعل منه بطلاً في نظر جيل الشـباب والمثقفين عبر العالم العربي. وفي عام 1994، هدد بغزو الكويت مـرة أخرى. وتناوش جنوده مع الطائرات الحربيـة الأمريكية والبريطانية، التي كانت تقوم بدوريـات في مناطـق حظـر الطيران التـي أقامها الحلفاء عبر شـمال العـراق وجنوبه، في خطوة جاءت بعد فوات الأوان لحماية الأكراد والشـيعة. وعلى مدى سـنوات، لم يصـب أي صـاروخ عراقي أو قذيفة مدفع عراقي مضـاد للطائرات أي طائرة تابعة للحلفاء مما يدعو للتسـاؤل حول: هل كانت لديهم أوامر بعدم إصـابتها؟. ومع ذلك، كانت الاشـتباكات عبارة عـن تذكرة لعالم ظن أن صـدام قد منـي بالهزيمة، وكأنه يقـول: لا أزال هنا. أما العقوبات التي فرضـتها الأمم المتحدة على العراق، التي دمرت الطبقة الوسطى، ويقدر أنها ضاعفت نسـبة الوفيات بين أطفال العراق، فقد أصـبحت انتصـاراً دعائياً لصدام في أذهان العرب وبعض الأوروبيـين. وقد حقق مفتشـو الأمم المتحدة نجاحاً ملحوظاً في النصـف الأول من تسعينيات القرن العشرين في الكشف عن برامج الأسلحة غير التقليدية العراقية وتفكيكها، ولكن المفتشـين اضطروا لمغادرة العراق حرصاً على سلامتهم، بعد أن رفض صدام السماح لهم بالوصـول إلى مواقع الأسـلحة، مما جعل إدارة كلنتون ترد بهجمات بصواريخ كروز في كانون الأول/ديسمبر 1998؛ ثم أوصد صدام الأبواب في وجه المفتشين. وبحلول نهاية العقد، بدا أن هزيمة صـدام النكراء في الكويت قد أصـبحت على الأقل انتصـاراً معنوياً له، إن لم يكن للشعب العراقي، فقد تحدى أمريكة دون التعرض لعواقب.

ظل مصيرا البلدين متشابكين؛ أمل وجيز وخيبة أمل قاسية، وكراهية وليدة دعاية لا هوادة فيها، وإذلال ودمار. كان كل هذا على الجانب العراقي، بينما على الجانب الأمريكي ارتددنا إلى حالة عدم الاهتمام التي نتميز بها.

بعد أن سطع نجم كنعان مكية في الوسط الإعلامي، عاد إلى حياته الخاصة، ونشر مزيداً من الكتب، بما في ذلك دراسة للسيوف المتقاطعة في بغداد سماها (النصب التذكاري: فن وابتذال ومسؤولية في العراق)، وكتاب آخر بعنوان «قسوة وصمت» استنكر فيه بشكل انفعالي خيانة القوى الغربية والعالم العربي للعراقيين في أثناء حرب الخليج، بل إنه كتب رواية حول القدس في القرن السابع، وكانت قصة عن العلاقات الفكرية بين المسيحيين واليهود وأوائل المسلمين، إبان بناء المسجد الأقصى قرب قبة الصخرة، وهي قصة تسامح نسبي وتعددية واستنارة في تباين لاذع مع الأيديولوجيات الدينية لعصرنا الحالي. درّس مكية دراسات شرق أوسطية في جامعة برانديس (Brandeis)، وأشرف في جامعة هارفارد على تجميع وترجمة مجموعة نفيسة من وثائق رسمية خرجت من شمال العراق بعد حرب الخليج (أرشيف عن الأنفال، وهو الإبادة التي تعرض لها الأكراد في المدة 1987 - 1988). كان يعمل في شقة صغيرة قرب جادة ماساشوستس، مليئة بكتب باللغة العربية عن الإسلام وتاريخ المنطقة. كان يوجد على أحد الجدران ملصقة للفنان بن شان (Ben Shahn) تمثل شخصاً وجودي المظهر بشكل مميز، مع عبارة مقتبسة من رجل إنكليزي من القرن التاسع عشر، اسمه جون فايكوانت مورلي (John Vscount Morley) تقول: «إنك لم تهدِ إنساناً؛ لأنك أخمدت صوته».

كنت أعيش في كامبريدج في أثناء تلك السنين. لم يكن بالأمر غير العادي رؤية رجال شعث يضعون نظارات يمشون حول ميدان هارفارد، وهم مستغرقون في التفكير. بعضهم أساتذة وبعضهم مشردون. في منتصف تسعينيات القرن العشرين، بدأت ألحظ بين هؤلاء المشاة رجلاً ذا رأس كبير آخذًا في الصلع، وسماته رقيقة، شارد الذهن، كان يبدو دائماً أنه في عجلة من أمره. وربما بعد سنة، أدركت أن هذا الرجل كان المغترب العراقي ومؤلف كتاب «جمهورية الخوف» سمير الخليل، كنعان مكية. كان على نحو ما أستاذاً ومشرداً على السواء. كنت دائماً أشعر برعشة قلق حين أراه: فقد بدا

رأسه البارز في جادة ماساشوستس هدفاً سهلاً فيما لو كان هناك عملاء من المخابرات العراقية في كامبريدج.

ذات يوم عرّفته بنفسي، وبعد ذلك كنت أنا ومكية نتناول القهوة في الساحة مرتين في السنة. أخبرني أنه بعد حرب الخليج كتب، هو وغيره من المغتربين العراقيين وثيقة، اسمها ميثاق 91، تماماً على غرار ميثاق 77 الذي أعدته المجموعة المنشقة التشيكية التي كان فاسلاف هافل أحد مؤسسيها. كان مكية شيئاً لم أقابل مثله قط، فهو منشق عربي على نمط هافل أو سولجنستين. كان ميثاق 91 إعلاناً يدعو إلى عراق ديمقراطي وعلماني «جمهورية تسامح». ذات مرة، حين كنا أنا وهو نتحدث عن النسبية التي استولت على الفلسفة السياسية الليبرالية، قال فجأة بطريقته الآسرة المباشرة، وابتسامته الاعتذارية: «إنني خلاصي». وتماهى مع عصر التنوير في أوروبة في القرن الثامن عشر. وقال: إن حقوق الإنسان شيء مطلق ينبغي أن يكون أساساً لعالم عربي جديد، ولعراق جديد.

إن قدر المغتربين هو الحلم والانتظار والتعفن. ولكن مكية لم يكن يتعفن، فقد كانت لديه كتبه ومشروعاته. تحت السلوك الحائر قليلاً كانت تكمن شدة شرسة، بل عناد. وبدا من غير المرجح أن يحدث ميثاق 91، والمؤتمر الوطني العراقي، الذي هو المنظمة السياسية للمغتربين (التي كان مكية عضواً في جمعيتها)، جمهورية التسامح. وفي الوقت نفسه، بدا أن سلطة صدام وحزب البعث، أسوة بالاتحاد السوفياتي فيما مضى، أو نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيَّة، سلطة دائمة، وقفل حديدي. لم تكن معجزات عام 1989 والثورات الديمقراطية في تسعينيات القرن العشرين من أجل العراق، الذي كان ينتمي لجزء غريب ومرعب من العالم، تقوم فيه الحكومات والشعوب بأمور مفزعة بشكل روتيني، وليس فيه منفذ للنور أو الهواء. كنت أشعر بشيء من الحرج وأنا أجلس مع مكية، وأصغي لأفكاره وآرائه. وكان من المحرج أن يجابهني هذا الذكاء وهذه المثالية، وأن أتعاطف مع آماله دون أن أملك أي شيء لأعرضه عليه بالمقابل، لو حتى الأمل. ولكنه كان يمنع أن يكون العراق تعبيراً تجريدياً بالكامل. لولا كنعان مكية والقهوة التي كنا نتناولها دون انتظام، لما خطر ببالي قط مستقبل العراق.

في أثناء السنوات الفاصلة بين حرب الخليج و11 أيلول/سبتمبر كان اسم العراق لا يرد في الصفحات الأولى من الصحف إلا فيما ندر. ولكن كانت هناك قصة أخرى بدأت تبرز، أكثر رقة من الحرب، ولكنها لا تقل أهمية عنها، ألا وهي تطور أفكار معينة حول أمريكة ومهمتها في العالم. فقد بدت حرب العراق بمنزلة حرب أفكار، ومن أجل فهم كيف وصلت أمريكة إلى العراق ولماذا؟ على المرء تتبع مصادرها.

في 8 آذار/مارس 1992 أي بعد سنة تقريباً من تخلي كنعان مكية عن اسمه المستعار والكشف عن اسمه الحقيقي للحض على الإطاحة بنظام صدام، نشرت صحيفة نيويورك تايمز مختارات من مسوَّدة وثيقة قام بتسريبها مسؤول في وزارة دفاع الرئيس بوش، كان على ما يبدو مصاباً بالجزع. وقد سميت الوثيقة البالغة 46 صفحة، توجيه التخطيط الدفاعي، وهي بيان سياسية يوجز إستراتيجية أمريكة السياسية والعسكرية بعد الحرب الباردة. وقد كتبها زلماي خليل زاد وآبرام شولسكي، اللذان أصبحا لاعبين من الدرجة الثانية في حرب العراق في عهد الرئيس بوش الابن. وقد تم إعداد هذا التوجيه بتكليف من وزير الدفاع ديك تشيني، وأشرف عليه مساعد الوزير للسياسات، بول وولفوفيتز. وقد أكد الطموح الفكري للتوجيه سمعة وولفوفيتز، بوصفه مفكراً كبيراً.

أعلنت المسوَّدة في مطلعها «هدفنا الأول هو منع بروز منافس جديد». فالولايات المتحدة ستحافظ على قوتها المتفوقة في أرجاء الكرة الأرضية وستثبط عزيمة المنافسين المحتملين، وذلك عبر إبقاء الإنفاق الدفاعي عند مستويات عليا. ويحتمل أن يبرز أولئك المنافسون في أوروبة وفي أي مكان، على الرغم من تحالفات أمريكة القائمة منذ أمد طويل مع الديمقراطيات الغربية. وقد ورد ذكر ألمانية واليابان على أنهما مشتبه بهما على نحو خاص. وقال كاتبا الوثيقة: «أسوة بالتحالف الذي عارض العدوان العراقي، ينبغي توقع أن تكون التحالفات المستقبلية تجمعات لغرض معين، لا تدوم غالباً مدة أطول من الأزمة الجاري مجابهتها». ولم يرد أي ذكر للأمم المتحدة أو أي منظمة دولية أخرى. وعوضاً عن ذلك، وصفت الوثيقة عالماً من الأخطار وصراعات القوة يتعين أن تظل أمريكة فيه القوة الأعظم، وذلك من أجل أمنها هي، ومن أجل الاستقرار في سائر أنحاء العالم.

كانت الوثيقة واحدة من تلك المذكرات البيروقراطية الداخلية، أشبه بالورقة الشهيرة رقم 68 الصادرة عن مجلس الأمن القومي في عام 1950 التي توجز إستراتيجية حرب باردة عدوانية، تنبئ بتحول تاريخي كبير. وبعد أن نشرت صحيفة نيويورك تايمز التسريب، جادل الرئيس بوش في بداية الأمر بأن الآثار المترتبة عليها بعيدة المنال كلياً، ومن ثم أمر المسؤولين في البنتاغون بإعادة كتابتها. وعندما نشرت الوثيقة في شهر أيار/مايو، اختفت منها لغة التفوق؛ وقدّم التعديل الذي خفت حدة لغته أصواتاً مطمئنة حول التعاون والتحالفات. وقدمت الصحافة القضية بوصفها قضية تظهر وزير الدفاع الناضج والمتزن ديك تشيني، وهو يكبح جماح تفكير وكيل الوزارة وولفوفيتز المعارض. ولدى تفهم طبيعة الأحداث بعد وقوعها، تبدو الرواية صعبة التصديق. وإن وثيقة عام 1992 بما تتضمنه من لغة حول السيطرة الأمريكية والائتلافات المخصصة لأغراض معينة، والحرب الاستباقية لمنع تهديدات من أسلحة غير تقليدية، تدل بدقة غريبة، بما فيها صياغة الجمل الرئيسة على إستراتيجية الأمن القومي لعام 2002 للرئيس بوش الثاني، وهي الإستراتيجية التي وضعت الأساس لما أصبح يسمى مبدأ بوش، والاختبار الأول له الذي كان حرب العراق. وعكست هذه الوثيقة الثانية أفكار نائب الرئيس تشيني.

كانت المذكرة التوجيهية للتخطيط الدفاعي صدعاً طفيفاً لا يكاد يرى، وتحول مع مرور الوقت إلى كسر عميق. ولم يكن تنظيف الوثيقة المسربة من أجل تقديمها لعامة الناس مجرد رد على التنقيحات الضعيفة السابقة، إذ تكمن بين محرري الوثيقة والرئيس الذين يعملون تحت إمرته هوة فلسفية، هي من الاتساع بمكان، بحيث لا يمكن أن يردمها تنقيح بضع عبارات. كان بوش الأب ينتمي إلى مدرسة الفكر السياسي لنكسون - كيسنجر. وفي لغة السياسة الخارجية، كان بوش الأب «واقعياً»، مما يعني أنه كان يؤمن بالمحافظة على ميزان القوى بين الدول التي كانت تتصرف من منطلق مصالح ضيقة التحديد. فيما يخص الواقعيين، كانت العبارة الرئيسة هي «المصلحة القومية الحيوية». وفيما يخص المسؤولين الذين يعتنقون هذا المذهب، لم يكن انهيار الاتحاد السوفياتي مناسبة كي توسع أمريكة سيطرتها العسكرية لتغطي الكرة الأرضية كاملة. كان الأمر مدعاة للقلق؛ لأنه أحدث خللاً

في ميزان القوى. حتى إن أحد أصحاب المذهب الواقعي كتب مقالة عنوانها «لماذا سنفتقد الحرب الباردة قريباً؟». كان التيار الرئيس للحزب الجمهوري مُسَخّراً لهذا الخط من الفكر، وبعد الحرب الباردة بدا زعماؤه غير متأكدين من النهج الذي عليهم اتباعه، خاصة حين هزم بل كلنتون جورج بوش. ومع وجود ديمقراطي في البيت الأبيض، بدأ حكماء جمهوريون يدعون إلى تخفيض الوجود الأمريكي حول العالم. وكرهوا غزوات الرئيس الجديد في هوامش الجغرافية السياسية مثل هاييتي والبلقان. كما أبغضوا على نحو خاص الحديث عن حقوق الإنسان والديمقراطية، بوصفها أسباباً لبذل هذه الدماء والأموال في الخارج، إذ عدّ الواقعيون أن هذه أوهام وتخيلات خطرة. وأن ما تفعله الأنظمة الأجنبية لمواطنيها ضمن حدودها الخاصة ليس من شأن الولايات المتحدة.

في أثناء مدة رئاسة بل كلنتون، دفعت هذه النظرة الحزب الجمهوري قريباً من عزلته القديمة التي سادت السنوات قبل بيرل هاربر. ولكن طوال تسعينيات القرن العشرين، تدفق تيار آخر من الأفكار جنباً إلى جنب مع هذا الاتجاه السائد أو تحته، وكان تياراً هادئاً في بادئ الأمر، لكنه أخذ يستجمع قوته لاحقاً.

سوف تظل حرب العراق مرتبطة دائماً مع مصطلح «المحافظين الجدد»، والارتباط في غاية الإحكام، لدرجة أننا نسينا تاريخ الكلمة، فالمحافظون الجدد موجودون منذ أواخر ستينيات القرن العشرين، عندما راقبت مجموعة صغيرة من المفكرين الليبراليين، تعود أصول أكثرهم إلى الطوائف اليسارية لثلاثينيات القرن العشرين، حقبة فييتنام، وسلطة السود، والثورة الطلابية، تتجلى للعيان تدريجياً. لقد راقبوا برعب، وفي حين أخذ ليبراليون آخرون يتحولون إلى حمائم أو راديكاليين، تحولوا تحولاً حاداً نحو اليمين. عرّف أحدهم المحافظ الجديد بأنه ليبرالي هاجمته الحقيقة. كان الشغل الشاغل للسياسة الخارجية لدى المحافظين الجدد من الجيل الأول (السيناتور هنري «سكوب» جاكسون، نورمان بودهورتز، إيرفنغ كرستول، دانييل باتريك موينهان) هو الشغل الشاغل ذاته لدى جيل ترومان – آتشيسون من الليبراليين: الشيوعية. ولم تلقنهم الكارثة في فييتنام الدرس بأن أمريكة قد تخطَّت حدودها بشكل مأساوي، وأنها بحاجة لأن تعرف حدود قوتها. وبدلاً من ذلك،

خلصوا إلى استنتاج مفاده أن أمريكة قد أخذت تترنح. وجادلوا بأن إحجامنا عن القتال لم يؤدِّ إلا إلى تشجيع الاتحاد السوفياتي على التوسع إلى أن يقع نصف الكرة الأرضية أو أكثر من ذلك تحت سيطرة الحكم الشيوعي. ومع تعثر الأوضاع في سبعينيات القرن العشرين (محادثات الحد من الأسلحة الإستراتيجية، والانفراج، وسقوط سايغون مع الإخلاء المذل من سطح السفارة الأمريكية، والثورة الإيرانية، وأزمة الرهائن، والغزو السوفياتي لأفغانستان، وحركات التمرد في أمريكة الوسطى) بلغ ذعرهم حداً ينذر بكارثة. حذر المحافظون الجدد في صفحات مجلة Commentary (التعليق)، وفي البيانات التي نشرتها مجموعتهم المسماة اللجنة المعنية بالخطر الحالي، من أن القوة الأمريكية قد غدت ضعيفة على نحو استفزازي. كان التكيف مع الإمبراطورية السوفياتية هو إحدى علامات الانهزامية وليس الواقعية. كانت نبرة هذه التحذيرات ناشئة عن دوافع أخلاقية ورؤيوية، وموشاة بغضب موجه إلى الليبراليين المغفلين (كثير منهم أصدقاء وزملاء سابقون للمحافظين الجدد) الذين فقدوا أعصابهم في ستينيات القرن العشرين. كانت النبرة شخصية، وإلى حد ما طبيعية؛ فهي تدين ببعض الشيء للصيغة اليسارية للكفاح التاريخي العالمي، الذي ترعرعت في كنفه أعداد كبيرة من المحافظين الجدد في باكورة حياتهم.

في نظرتهم العالمية المتجهمة، لم يكن هناك مجال كثير لحقوق الإنسان خارج الكتلة السوفياتية، ولا سيما عندما وضع الرئيس كارتر الحديث عن حقوق الإنسان في محور سياسته الخارجية. وقد بدا هذا الكلام خطيراً حقًّا في نظر المحافظين الجدد؛ لأنه يضعف أنظمة صديقة (نيكاراغوة، جنوب إفريقية، إيران) قد لا يعجبنا سلوكها (فقد كانت فاسدة وتعذّب مواطنيها وتقتلهم) ولكن بقاءها أساس لمقاومة الشيوعية. في عام 1979، نشرت جين كيركباتريك، وهي من المحافظين الجدد، مقالة في مجلة Commentary بعنوان «الدكتاتوريات وازدواجية المعايير» جادلت فيها بأن نزعة مناصري حقوق الإنسان لإضعاف أصدقاء أمريكة، وإفساح المجال أمام أعدائنا قد قلبت الإستراتيجية الكبرى ومبادئ الأخلاق رأسًا على عقب. قد يكون أصدقاؤنا أشراراً، ولكن أعداءنا أسوأ منهم، والفرق بينهم هو الفرق بين السرطان الحميد والسرطان الخبيث. وتقضي مهمة أمريكة

بمنع أصدقائنا المتسلّطين من أن يصبحوا أعداء مستبدّين، يلقون بشعبهم بالكامل في سجون أبدية لا يمكن فتحها أبداً من الداخل. لقد استرعت المقالة انتباه ريغان، وفي العام الآتي تم تعيين كيركباتريك منصب سفيرة لدى الأمم المتحدة في ظل الرئيس المنتخب الجديد.

وجد المحافظون الجدد في ريغان نصيراً لهم. أوضح انتخابه وسياسات إدارته المستوحاة جزئياً من أفكار رجال مثل بوهورتز (Podhoretz) وكريستول (Kristol) للمحافظين الجدد أن الأفكار يمكن أن تؤدي إلى القوة، وأن القوة تحتاج إلى أفكار. لم يأتِ هذا الدرس بشكل طبيعي، فقد كانت بداية حياتهما في الطوائف اليسارية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين دراسات في العبث السياسي، ازدادت حدّة بسبب عجزهما، وكانا يقومان بها وكأن نيويورك هي سانت بيترسبورغ وتوليدو كييف، وكأن أمريكة ذاتها كانت على شفا ذروتها الجدلية من الثورة. ولكن هذه النزاعات علمت المشاركين على الأقل بأن يأخذوا أنفسهم وأفكارهم على محمل الجد. وأن يتعاملوا مع الصراع الفكري بوصفه امتداداً للصراع السياسي حتى التسليحي. في سنة 1980، آتى التدريب الطويل الذي قضيا فيه سنوات شبابهما ثماره.

أضاف ريغان إلى أفكار المحافظين الجدد بخصوص القوة الأمريكية نوعاً من عنده: خططاً لطيفة. ولم تكن هذه الخطط مجرد تغير في المزاج، إذ إن شخصية ريغان وشعوره بالارتياح إزاء مصطلح التفاؤل الأمريكي الصريح، أعطيا وجهة النظر العالمية المرتكزة على المجابهة وجهاً مبتسماً، أوحى بشيء أعلى من القتال المخيف. وقال ريغان: إن القوة الأمريكية كانت قوة من أجل الخير في العالم، هذا في وقت كانت ذكرى قنابل النابالم، وهي تلهب أدغال فييتنام الجنوبية لا تزال تجذب الرأي المحترم في أمريكة وفي أماكن أخرى بقوة. في عام 1976، كسب ريغان معركة في المؤتمر الجمهوري ضد قوى المؤسسات للرئيس فورد ووزير خارجيته القاسي هنري كيسنجر بوضع فقرة رئيسة في برنامج الحزب تنص على إدخال «مبادئ أخلاقية في السياسة الخارجية»، ويعني هذا لأعداد كبيرة من الأمريكيين، بمن فيهم الجمهوريون، «عدم التدخل فيما لا يعنينا». وفي أفضل الأحوال، يعني

هذا المصطلح مساندة المنشقين في الاتحاد السوفياتي أو تشيلي. لكن ريغان كان يعني شيئاً أهم بكثير: وهو مجابهة الشيوعية وهزيمتها في سائر أنحاء العالم. وعلى الرغم من أنه خسر معركة الترشيح لصالح فورد في عام 1976، فقد كسب الحرب لصالح روح حزبه.

في عام 1981، وهي السنة الأولى لرئاسة ريغان، كان إليوت أبرامز، معاون وزير خارجية ريغان لشؤون أمريكة اللاتينية ولاحقاً لشؤون حقوق الإنسان، الذي كان يتصف بشخصية عدوانية، قد كتب مذكرة يجادل فيها أن على الإدارة ألا تكتفي بمعارضة الشيوعية، وإنما ينبغي أن تدعم الديمقراطية في الدول الشيوعية وغير الشيوعية على السواء. وقد ناقضت المذكرة وجهة النظر الأقسى التي أعربت عنها قبل سنتين جين كيركباتريك في مجلة يحررها نورمان بودهورتز، والد زوجة أبرامز. وانطلاقاً من ميول شخصية وحسابات إستراتيجية، اعتنق ريغان في خطابه فكرة دعم الديمقراطية. في عام 1982، تحدث ريغان أمام البرلمان البريطاني في ويست مينستر، وقدم رؤية للديمقراطية تمتد عبر الكرة الأرضية. وقد ألهمت كلمات ريغان جيلاً جديداً من المسؤولين الشباب الدائرين حول شمس ريغان.

كان روبرت كاغان أحد هؤلاء، وهو ابن أستاذ التاريخ اليوناني في جامعة يال (Yale). وكان في عمري نفسه تقريباً، ولكننا تعلمنا الدرس المعاكس من اللحظة التاريخية لسنواتنا المبكرة. بعد فييتنام، فإنني (وكل من عرفته) كنا نخشى التجاوز الأمريكي، بينما كان كاغان (وجيل المحافظين الجديد) يخشون الانسياق الأمريكي. قال كاغان حين التقينا في واشنطن في أوائل عام 2004: «حين كنت في الجامعة في أواخر سبعينيات القرن العشرين، أذكر أننا كنا جميعاً نعتقد أن أولئك الهيبيين المناوئين للحرب، الذين جاؤوا قبلنا كانوا سخيفين بعض الشيء. ولم تكن تلك الطريقة التي ينبغي اتباعها بشكل ما. لقد بلغت سن الرشد حقًّا بعد فييتنام. كانت السبعينيات تجربتي التكوينية بالمعنى الأوسع؛ لأن ذلك الوقت -بقدر ما رأيت على الأقل- كان الضعف الأمريكي هو الذي أدى إلى هذه الكوارث كلها: إيران، أفغانستان، نيكاراغوة. الضعف فقط وإحراج جيمي كارتر».

وهكذا أصبح كاغان في العشرينيات من عمره جندياً في ثورة ريغان. في البداية، كتب خطابات لوزير الخارجية شولتز، ثم ساعد في تطوير سياسة نيكاراغوة تحت إدارة إليوت

آبرامــز. ولكــن في المعارك الصــغيرة بالوكالــة في أواخر الحرب البــاردة، كان الخيار بين نوعين من البشــاعة المسلحة. صــنع ثوار نيكاراغوة آباء مؤسسين غير مقنعين، وحين وافق العســكريون في الســلفادور على إجراء انتخابات في عام 1983، مارســت إدارة ريغان لعبة مزدوجة: فقد ولّدت العملية الديمقراطية، وضمنت النصر لرجلنا في سان سلفادور، خوزيه نابليــون دوراته. وعلى الرغــم من انخراط كاغان الوثيق في سياســة نيكاراغوة، فقد خرج ســالماً لم يمسسه سوء من فضــيحة إيران كونترا التي لطخت آبرامز بإدانته بشهادة الزور (وقــد صــفح عنه لاحقاً الرئيس بوش الأب). من الناحيــة العملية، بدت المبادئ الأخلاقية في السياســة الخارجية أقل إلهاماً من المدينة المضــيئة على الهضبة. ولم تكن سياسة إدارة ريغان بشأن العراق مختلفة عن سياسة هنري كيسنجر؛ وهي مساندة النظام البعثي باسم المصلحة القومية، حتى حين كان النظام يرتكب جرائم إبادة ضد الأكراد.

ومــع ذلك، فقد اســتولت الفكرة واللغة على أذهان المفكرين الأصــغر ســناً، مثل كاغان: لم تكن مناهضــة الشــيوعية ســوى نصــف نظرة عالمية؛ أما النصــف الآخر فقد كان مثالية ديمقراطيــة، وإيمانــاً بالقــوة التحويلية للقيــم الأمريكية. وعنــد نهاية العقد، بعــد أن ترك ريغان ســدّة الرئاســة، انهارت الشيوعية في أوروبة؛ وفي السنة اللاحقة، في عام 1990، خسر الساندنســتيون النيكاراغويّون الســلطة في انتخاب ديمقراطي؛ وفي عام 1991، شــاهد كاغان انهيار الاتحاد الســوفياتي عن كثب في موســكو، حيث كانت زوجه تعمل دبلوماسية. أثبت كل هــذا للريغانيــين أن التاريخ كان إلى جانبهم. ولكن الحرب البــاردة انتهت ولم يعد معظمهم يعرف كيف يفكر بشأن أمريكة والعالم، وبدأ المحافظون الجدد في الانجراف تدريجياً.

وبعد بضع سنوات، في الصمت والغموض النسبيين اللذين اكتنفا عهد كلنتون، بدأ كاغان في نشــر سلسلة مقالات توجز رؤيته للسياسة الخارجية، لما بعد الحرب الباردة. وقد ظهرت المقالات في مجلة (Commentary) لســان الحال الداخلــي لحزب المحافظين الجدد. ولكن بحلول منتصــف التســعينيات، تغيرت النبرة وكذا بعض المضــمون. كان الذي شكل كاغان، الابــن العقدي لريغان، هو تجربة نيكاراغوة (التي وصــفها في كتابــه ATwilight Struggle على أنها نجاح كبير أحرزته سياســة ريغان الخارجية) وليس فييتنام، بالإضافة إلى انهيار

الشيوعية. لقد كان رجل الثمانينيات وليس الستينيات؛ وكانت نبرته نبرة إثبات لا تحذير. في أثناء محادثتنا، وضع كاغان مصطلح «المحافظ الجديد» جانباً، وحين سألته: هل تساءل قط إن كان ليبرالياً، أجاب قائلاً: «أنا ليبرالي. في السياسة الخارجية أنا ليبرالي. إن التقليد المحافظ في السياسة الخارجية هو التقليد الواقعي المحافظ». تمسك التقليد الليبرالي، في سلالة كاغان، بسياسة خارجية ناشطة تعكس المُثل والمصالح الأمريكية، وهي تنحدر من هاملتون عبر جون كوينسي ولنكولن (كانت الحرب الأهلية قضية محورية، عندما اعتنق الاتحاد «سياسة خارجية» ليبرالية إزاء الرقيق في الجنوب)، وثيودور روزفلت، وويلسون، وترومان، وكينيدي وتصل في النهاية إلى ريغان.

كان الحزب الجمهوري هو الهدف الحقيقي لمقالات كاغان في مجلة (Commentary) التي نشرت بين المدة 1994 و1997. وكان ينظر بقلق إلى ابتعاد الحزب عن مذهب الفاعلية في السياسة الخارجية بعد نهاية الاتحاد السوفياتي. وكان يشاهد رفاقه المثاليين من سنوات ريغان الواحد تلو الآخر، وهم يتخلون عن التزامهم السابق بالديمقراطية العالمية تحت ضغط السياسة الحزبية، أو تحول الظروف العالمية أو آرائهم المتغيرة، إلى أن بقي روبرت كاغان الشخص الوحيد الذي يساند، مثلاً، غزو هاييتي نيابة عن حكومتها المنتخبة. وحيثما وجّه نظره، سواء في إدارة بوش الأول أو في معارضة الكونغرس لبيل كلنتون، كان الجمهوريون في حالة من التراجع منهك القوى. كان زعماء هذه السياسة الخارجية، مثل السيناتور جون ماك كين، يحذرون من أنه من شأن التدخلات في حروب صغيرة قذرة مثل البوسنة قد تؤدي إلى ورطة، وهو تحذير كان يبدو صادراً عن ديمقراطي ليبرالي لا يزال يتعافى من صدمة فييتنام المروعة (وليس من بطل حرب لم تكن الصدمة له مجازية أبداً). ودون ريغان والاتحاد السوفياتي ليركّز أفكاره، فقد الحزب التركيز، فارتدّت أفكاره إلى واقعية مشوبة بالحذر. وقد حذّر حكماؤه بشأن «التجاوز الإمبريالي» واستشهدوا بالعبارة التي لا غنى عنها من سنوات نكسون - كيسنجر: «المصلحة القومية الحيوية». وهذا كثير فيما يخص المبادئ الأخلاقية في السياسة الخارجية. فإذا كان اليوغوسلاف أو الرونديون عازمين على ذبح أحدهم الآخر، وإذا كانت الصومال تغوص في الفوضى، بينما شعبها يتضور جوعاً، فلعلّ معالجة هذه الأحداث غير السارة خارج نطاق سلطتنا، وهي بالتأكيد خارج نطاق اهتمامنا.

شنّ كاغان هجوماً تحليلياً قوياً ضد هذا الجبن. وجادل بأن نهاية الحرب الباردة لم تكن

لحظة مناسبة للانسحاب وإنما للتوسع. ينبغي ألا تنعى أمريكة فقدان ميزان القوى، وإنما بدلاً من ذلك ينبغي لها استخدام قوتها التي لا منافس لها حول العالم بأسره؛ سعياً لتحقيق مصالحها وقيمها التي تسير جنباً إلى جنب على نحو شبه دائم. ليس هناك ركن من أركان الأرض من البعد أو الغموض بمكان بحيث يسمح له بأن يسوء بشكل خطير، أو يحرم من الآثار الخيّرة للهيمنة الأمريكية، ألا وهي الديمقراطية والسلام المستقر. إن كاغان، في سعيه إلى إحياء روح ريغان، بلغ قدراً أبعد إلى ثيودور روزفلت و«الفكرة بأنه ينبغي أن يكون للشعب الأمريكي يد في تشكيل مصير الجنس البشري، وأن أداء دور كهذا يضفي الشرف، وينبغي اكتساب الحق لنيل هذا الشرف». فيما يخص كاغان، كان توسع الديمقراطية حول العالم يتعلق بمصير أمريكة القومي بقدر ما كان يتعلق بالقيام بأشياء حميدة للناس غير السعداء في بلدان أجنبية. قد تكون القيم عالمية، ولكن بلداً واحداً يمكنه تأمينها. كان كاغان يعبرّ عن نوع من القومية لا تختلف كثيراً من حيث طموحها عن القومية البريطانية لعبء الرجل الأبيض الخاص بكبلنغ (دون الأمتعة العنصرية)، والبعثة المتمدّنة الفرنسية (دون الأمتعة الدينية)، والسلام الروماني العتيق (دون إمبراطورية فعلية).

إن هذا النوع من الإخلاص الوطني غريب على واقعية نكسون وكيسنجر وبوش الأب، كما كانت غريبة على يوطوبية الليبراليين الولسونية الذين يؤمنون بالقانون الدولي. ومع أن هؤلاء الليبراليين أيّدوا العديد من التدخلات ذاتها في التسعينيات، فقد نبذهم كاغان بوصفهم «معسكراً من الأمميين آخذاً في الانكماش ليس في صفّهم سوى (النزعة الإنسانية) الوهمية». وعلى نقيضهم، كان كاغان قومياً، ولم يكن يؤمن بأن إدارة كلنتون سوف تنفذ الدعوة إلى العظمة. كتب كاغان يقول: «إن الجيل الحالي من الزعماء الديمقراطيين ليس لديه الرغبة في زعامة العالم». والأمل الوحيد يكمن في الجمهوريين. وكانت مهمته تطهير الحزب من الواقعية وإعادة الأهداف الأسمى للرئيس السابق العظيم الذي كان آخذاً في الاختفاء في أفول الشيخوخة في مكان ما على الساحل.

ذكرت إحدى مقالات كاغان المسوَّدة الأصلية لتوجيه التخطيط الدفاعي، وأعرب عن أسفه لرفضها. كانت مجالات التقارب بين مذكرة البنتاغون الداخلية ومقالات الصحيفة جلية: فقد كان كبار المسؤولين الجمهوريين، والمفكرين في السياسة الخارجية من المحافظين

الجدد يرسمون خططاً كبيرة متماثلة للحزب والبلاد. ولكن كانت هناك اختلافات، ربما لم تكن جلية جدًّا آنذاك، ولكنها برهنت على أنها حاسمة بعد بضع سنوات، حين أصبحت هذه الخطط والأفكار السياسة الخارجية للرئيس بوش الابن، وأرست الأساس لحرب ثانية ضد العراق. على الرغم من إقرار الوثيقة بانتهاء الحرب الباردة، فقد كانت وثيقة محاربين باردين، هم متشددو السبعينيات الذين رفضوا التسوية مع الاتحاد السوفياتي.

كان بول وولفوفيتز عضواً في الفريق الشهير B، وهو مجموعة خبراء خارجيين عيّنها في عام 1967 جورج بوش مدير وكالة الاستخبارات المركزية لمراجعة الأنشطة الاستخبارية على الاتحاد السوفياتي، وهي المجموعة التي توصلت إلى استنتاجات تنذر بكارثة بخصوص قدرات الاتحاد السوفياتي ونواياه، تفوق استنتاجات المسؤولين في إدارتي نكسون وفورد لحقبة ما قبل الانفراج. وكانت الوثيقة المحررة في عام 1992 بتوجيه من وولفوفيتز (على الرغم من ادّعائه بأنه لم يقرأ المسودة قبل أن تتسرب)، إلى حدّ كبير استمراراً للتفكير المحافظ الجديد الذي أنتج اللجنة المعنية بالخطر الحالي. كانت الأجواء تنذر بالشر دائماً. وكانت التهديدات تلوح دائماً في الأفق؛ فعلى الرغم من أن الاتحاد السوفياتي لم يعد موجوداً، اكفهرّت المشاهد النيرة التي كانت تضيء في أثناء سنوات ريغان مرة أخرى. فيما يخص مسؤولين مثل وولفوفيتز، كانوا دائماً في عام 1979، وماذا كانت التهديدات الجديدة؟ كانت تشمل الجميع، وكل مكان: الحلفاء الأوروبيين، والدكتاتوريات العربية، الإرهابيين المسلمين، المنتفضين الروس، الشيوعيين الصينيين، والكوريين الشماليين، ناشري الأسلحة. وماذا كان العلاج؟ القوة الأمريكية، في كل مكان، ولكن ليس في قضية القيم الديمقراطية.

وقد أبدت الوثيقة أصولاً «انتشار أشكال الحكومات الديمقراطية والنظم الاقتصادية الحرة» ولكن على سبيل الإشارة فقط. وعندما يتعلق الأمر بالشرق الأوسط يكون «هدفنا الإجمالي هو أن نبقى القوة الخارجية المسيطرة في المنطقة، وأن نحافظ على قدرة الولايات المتحدة والغرب على الوصول إلى نفط المنطقة. كما أننا نسعى لزيادة ردع العدوان في المنطقة، وتعزيز الاستقرار الإقليمي، وحماية رعايا الولايات المتحدة وممتلكاتها، وحماية إمكانية وصولنا إلى الأجواء والممرات البحرية الدولية». هذه هي لغة الواقعية وليس الريغانية. إنه ميزان القوى دون توازن، وتواصل الوثيقة قائلة: «أما فيما يخص باكستان، فإن علاقة

الجدد يرسمون خططاً كبيرة متماثلة للحزب والبلاد. ولكن كانت هناك اختلافات، ربما لم تكن جلية جدًّا آنذاك، ولكنها برهنت على أنها حاسمة بعد بضع سنوات، حين أصبحت هذه الخطط والأفكار السياسة الخارجية للرئيس بوش الابن، وأرست الأساس لحرب ثانية ضد العراق. على الرغم من إقرار الوثيقة بانتهاء الحرب الباردة، فقد كانت وثيقة محاربين باردين، هم متشددو السبعينيات الذين رفضوا التسوية مع الاتحاد السوفياتي.

كان بول وولفوفيتز عضواً في الفريق الشهير B، وهو مجموعة خبراء خارجيين عيّنها في عام 1967 جورج بوش مدير وكالة الاستخبارات المركزية لمراجعة الأنشطة الاستخبارية على الاتحاد السوفياتي، وهي المجموعة التي توصلت إلى استنتاجات تنذر بكارثة بخصوص قدرات الاتحاد السوفياتي ونواياه، تفوق استنتاجات المسؤولين في إدارتي نكسون وفورد لحقبة ما قبل الانفراج. وكانت الوثيقة المحررة في عام 1992 بتوجيه من وولفوفيتز (على الرغم من ادّعائه بأنه لم يقرأ المسودة قبل أن تتسرب)، إلى حدّ كبير استمراراً للتفكير المحافظ الجديد الذي أنتج اللجنة المعنية بالخطر الحالي. كانت الأجواء تنذر بالشر دائماً. وكانت التهديدات تلوح دائماً في الأفق؛ فعلى الرغم من أن الاتحاد السوفياتي لم يعد موجوداً، اكفهرّت المشاهد النيرة التي كانت تضيء في أثناء سنوات ريغان مرة أخرى. فيما يخص مسؤولين مثل وولفوفيتز، كانوا دائماً في عام 1979، وماذا كانت التهديدات الجديدة؟ كانت تشمل الجميع، وكل مكان: الحلفاء الأوروبيين، والدكتاتوريات العربية، الإرهابيين المسلمين، المنتفضين الروس، الشيوعيين الصينيين، والكوريين الشماليين، ناشري الأسلحة. وماذا كان العلاج؟ القوة الأمريكية، في كل مكان، ولكن ليس في قضية القيم الديمقراطية.

وقد أبدت الوثيقة أصولاً «انتشار أشكال الحكومات الديمقراطية والنظم الاقتصادية الحرة» ولكن على سبيل الإشارة فقط. وعندما يتعلق الأمر بالشرق الأوسط يكون «هدفنا الإجمالي هو أن نبقى القوة الخارجية المسيطرة في المنطقة، وأن نحافظ على قدرة الولايات المتحدة والغرب على الوصول إلى نفط المنطقة. كما أننا نسعى لزيادة ردع العدوان في المنطقة، وتعزيز الاستقرار الإقليمي، وحماية رعايا الولايات المتحدة وممتلكاتها، وحماية إمكانية وصولنا إلى الأجواء والممرات البحرية الدولية». هذه هي لغة الواقعية وليس الريغانية. إنه ميزان القوى دون توازن، وتواصل الوثيقة قائلة: «أما فيما يخص باكستان، فإن علاقة

عسكرية بناءة بين الولايات المتحدة والباكستان ستكون عنصراً مهماً في إستراتيجيتنا لتعزيز الظروف الأمنية المستقرة في جنوب غرب آسية وآسية الوسطى». لم يخطر على بال محرري الوثيقة احتمال أن يكون الوصول المستمر للنفط والعلاقات الطيبة مع الدكتاتوريين المسلمين قد تكون في نهاية المطاف سبباً لعدم الاستقرار أو لما هو أسوأ من ذلك، ولم يرد أي ذكر مطلقاً لفرصة الديمقراطية في هذه المنطقة الخطرة.

هنا، تفرّق كاغان والمتشددون في البنتاغون كل في طريق. لم يرَ كاغان أي ضوء بين الأمن والاستقرار والديمقراطية. وقد وجهت أحد مقالاته في (Commentary) هجوماً مباشراً ضد جين كيركباترك لما قدمته من تساهل للدكتاتوريات اليمينية في المجلة ذاتها قبل سنة ونصف السنة. ما جدوى نظام دولي إذا كان لا يؤدي إلى الحرية؟

كان هناك خلاف آخر بين كاغان والمتشددين في البنتاغون، إذ لم يكن المتشددون يستخدمون التحالفات والمؤسسات الدولية فيما إذا كانت تقف في طريق حرية أمريكة في التصرف. مع أن كاغان لم يكن من محبي الأمم المتحدة، لم يصر على رفض الأممية؛ وكان يبدو أحياناً أشبه بديمقراطي من عهد ترومان، حتى إنه استند إليها بوصفها مصدراً مهماً للنفوذ الأمريكي.

في عام 1996، نشر كاغان وصديقه وليام كريستول، الذي كان آنذاك محرر مجلة روبرت مردوخ الجديدة (The Weekly Standard) مقالة في مجلة الشؤون الخارجية (Foreign Affairs) بعنوان «نحو سياسة خارجية ريغانية جديدة». وكانت المقالة دمجاً لمقالات منشورة في (Commentary) لتصبح بياناً مثيراً، مع كريستول، والرئيس السابق للأركان دان كويل ومخبراً جمهورياً داهية، مما أضاف إلى أسلوب كاغان التحليلي لمسة معلق على الشؤون السياسية. يصعب التفكير بلحظة أقل مواتاة من صيف عام 1996 لإصدار بيان حول السياسة الخارجية. فقد كانت الإنترنت وحماس سوق البورصة يتسعان بسرعة. وكان السباق الرئاسي في حالة غفوة. كان المرشح الجمهوري روبرت دول يحاول الادعاء، حسبما كتب كاغان وكريستول «أن هناك اختلافات فعلاً في السياسة الخارجية بينه وبين الرئيس، مع أن المظاهر كانت عكس ذلك». في عام 1996، فيما يخص معظم الأمريكيين، فقد اختفت بقية العالم.

ومع ذلك، كان كاغان وكريستول يدعوان أمريكا إلى فرض «هيمنة عالمية خيّرة». وكانا يتمتعان بميزة عن آبائهما المحافظين الجدد تتمثل في أنهما سبق وأن شاهدا جماعات صغيرة مصممة تكتب مقالات مولعة بالقتال، في مجلات غامضة، تؤثر في السلطة في واشنطن. لم يكن ثمة سبب للتفكير في أن هذا لن يحدث ثانية، مع الانضباط والمثابرة، وربما مع قليل من الحظ. كان الهدف الأول هو أن تسيطر أفكارهما على الحزب الجمهوري أو أن تستعيده، ثم في غضون بضع سنوات، على الأمة، وبعد ذلك، العالم. هذا هو الدرس الذي استوعبه اليمين الأمريكي بالكامل ومارسه منذ ستينيات القرن العشرين؛ إن الأفكار مهمة. فالجهود المركزة التي تبذلها حفنة من واضعي النظريات المنظمين يمكن أن تكسب الحرب السياسية عندما تكون المعارضة مرتبكة، ويكون البلد محتاراً. ولكن يتعين عليهم أن يكونوا راغبين في خوض معارك على مدى سنوات، بل حتى عقود، وغالباً ما يخسرونها.

في العام الآتي، 1997، ساعد كاغان وكريستول في تأسيس مشروع القرن الأمريكي الجديد، (PNAC)، وهو عبارة عن جماعة ضغط من المحافظين البارزين في مجال السياسة الخارجية بروح اللجنة المعنية بالخطر الحالي. كان المشروع يضم دونالد رمسفيلد، ووولفوفيتز، وأبرامز، وريتشارد بيرل، ووليام بينيت، وجيمس وولسي؛ وإن أكثر من نصف عدد الأعضاء المؤسسين تولى مناصب رفيعة في إدارة جورج دبليو بوش. وفي 26 كانون الثاني/ يناير 1998، وضعت الجماعة (PNAC) نفسها على الخارطة في شكل رسالة مفتوحة موجهة إلى الرئيس كلينتون تحثه على جعل تغيير نظام الحكم في العراق سياسة الأمة. كتب موقعو الرسالة دون تردد في إحراج الرئيس: «إن السياسة الراهنة، التي يعتمد نجاحها على صمود شركائنا في الائتلاف، وعلى تعاون صدام حسين، هي سياسة غير ملائمة على نحو خطير». وبعد نشر الرسالة، توجه رمسفيلد ووولفوفيتز وبيرل وواحد أو اثنان آخران من الموقّعين عليها إلى البيت الأبيض لمناقشة موضوع العراق مع ساندي بيرغر – مستشار كلنتون لشؤون الأمن القومي، وقال بيرل: إنهم عادوا «ينتابهم شعور من الفزع من ضعف إدارة كلنتون». لم تحدد الرسالة بالضبط كيفية الإطاحة بصدام وحزب البعث؛ إذ كان الموقعون مختلفين حول الوسائل. ولكن في غضون بضعة أشهر صدَّق الكونغرس الجمهوري بأغلبية ساحقة على

قانون تحرير العراق ووقعه الرئيس الديمقراطي بتردد (إذ كانت تحاصره قضية مونيكا لوينسكي). وهكذا أصبح تغيير نظام الحكم في العراق سياسة أمريكية رسمية.

لماذا أصبح العراق القضية الأولى للصقور؟ فهذه القضية لم تحظَ بأي اهتمام خاص في توجيه التخطيط الدفاعي، ولم تكد تذكر في كتابات كاغان وكريستول. بعد سنة من الرسالة التي وجهت إلى كلنتون، في عام 1999، حلت كوسوفو محل العراق بوصفها الشغل الشاغل لمشروع القرن الأمريكي الجديد (PNAC). ومع ذلك، بحلول عام 1998 بدأ صدام يفلت من القيود المفروضة عليه بعد حرب الخليج، وينجو منها دون عقاب. وكانت العقوبات الاقتصادية تتفكك، وبدأت بعض الدول الأوروبية، ولا سيما شركاء العراق التجاريون البارزون، وهما فرنسة وروسية، تحدث ضجة بشأن رفع العقوبات كلياً. جرى سحب مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة من العراق لأسباب أمنية، بعد أن رفض صدام مواصلة التعاون معهم؛ ثم منعهم من العودة إلى العراق. كان صدام بلغة السياسة الخارجية «يفلت من عقاله» بشكل متزايد حراً على ما يبدو في مواصلة برامج الأسلحة غير التقليدية التي كانت رغبته منذ أمد بعيد.

لعل أهم اسم في رسالة مشروع (PNAC) كان بول وولفوفيتز الذي كان العراق يشغل ذهنه منذ أواخر السبعينيات حين كان موظفاً متوسط المستوى في وزارة دفاع كارتر، وأوعز إليه وزير الدفاع هارولد براون، بإدارة ما أصبح مشروعاً متكهناً بالمستقبل يدعى دراسة الطوارئ المحتملة المحدودة. بدأ وولفوفيتز في استعراض التهديدات للمصالح الأمريكية خارج أوروبة، وانتهى به الأمر بالتركيز على نفط الخليج العربي ولاسيما احتمال غزو يقوم به العراق للاستيلاء على حقول نفط الكويت أو السعودية. إن تفكير وولفوفيتز حمله إلى ما هو أبعد كثيراً من تحليل الحرب الباردة التقليدية، ولم تلقَ الدراسة حماساً لدى وزارة الدفاع التي أهملتها. وقد حوّلت الثورة الإيرانية في عام 1979، والحرب العراقية الإيرانية التي أعقبتها، السياسة الأمريكية في الخليج تجاه العراق، حتى حين كان صدام حسين يعزز سلطته الكاملة ويمارسها بوحشية استثنائية ضد شعبه، وكذلك ضد العدو الإيراني. ما من سبب يدعو إلى التفكير في أن وولفوفيتز الذي شغل مناصب مختلفة عديدة تحت

إدارة ريغان وإدارة بوش في الثمانينيات، قد خالف الميل إلى العراق. لقد كان شاغل دراسة الطوارئ المحتملة المحدودة هو التهديدات الإستراتيجية لنفط الخليج العربي، وليس طبيعة الأنظمة الاستبدادية العربية.

ولكن وولفوفيتز كان أكثر أصالة من دونالد رمسفيلد الذي أثناء مهمة دبلوماسية في عام 1983 اشتهر بمصافحة يد صدام، أو ديك تشيني الذي أمضى العقد في الكونغرس، وهو يعارض التشريع الخاص بحقوق الإنسان، أو جورج بوش الأب الذي أشاح بوجهه عندما سحق الجيش الصيني حركة شعبية في ميدان تيانانمن. لقد تربى وولفوفيتز على مُثل في أسرة جاك وولفوفيتز، وهو أستاذ رياضيات في جامعة كورنل فرّت عائلته من مناهضة السامية في بولندة في عام 1920، بينما العديد من أفراد العائلة ممن تخلفوا قد هلكوا في ظل حكم النازيين. ترعرع بول وولفوفيتز، وهو يقرأ مؤلفات أورويل (Orwell) وكتاب هيروشيما من تأليف جون هيرسي، وكتب مكتبة والده عن الحرب والمحرقة (هولوكوست). كان الجو في منزل وولفوفيتز جدياً من الناحية الأخلاقية، وطموحاً من الناحية الأكاديمية، مسخّراً لليبرالية منتصف القرن التي كانت تمجد ذكرى روزفلت وتدعم سياسة ترومان المناهضة للشيوعية، من الناحية السياسية.

عندما التحق وولفوفيتز بجامعة كورنل في أوائل الستينيات، حيث عاش في بيئة محفوفة بالضغوط العاطفية أو الاجتماعية تدعى تلورايد هاوس (Telluride House)، وقع في مدار البروفسور آلان بلوم الذي كانت السياسة في رأيه تطرح وتجيب عن أعمق الأسئلة حول غرض الحياة البشرية وقيمتها، الذي أصبحت محادثاته في المنزل في وقت متأخر من الليل أسطورية.

في رافلشتاين (Ravelstein)، وهو التقدير المفرغ في قالب روائي الذي نشره صاؤول بللو (Saul Bellow) في عام 2000، يبدو وولفوفيتز متخفياً بشكل خافت على أنه فيليب غورمان (Philip Gorman)، وهو موظف حكومي مسؤول رفيع المستوى، يحب مهاتفة مدرسه السابق (بلوم/ رافلشتاين) ويعلمه بأحدث المعلومات الداخلية من مجالس الحكومة، وهو حريص دائماً على الاحتفاظ لنفسه بأسرار الدولة. كان لدى رافلشتاين معلوماته السرية الخاصة

به؛ الحقائق الأسمى للروح البشرية التي تعود إلى زمن الإغريقيين. «كان من المهم تكييف آخر قرارات حرب الخليج التي اتخذها سياسيون محدودون مثل بوش وبيكر، لتصبح صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة للقوى الفاعلة، ولتصبح التاريخ السياسي للحضارة. وحين قال رافلشتاين: إن غورمان الشاب كان لديه فهم للسياسة الكبرى، كان يدور في ذهنه شيء من هذا القبيل».

ولكن في كورنل، ظل وولفوفيتز بعيداً نوعاً ما عن جذب بلوم المغناطيسي؛ فقد كان بالفعل حصيفاً بما فيه الكفاية ليدرك أن بلوم كان شخصية مسببة للخلاف. طوال حياته المهنية، كان لدى وولفوفيتز موهبة سحر أشخاص ذوي نفوذ، وأن يحظى برعاية غيره دون أن يصبح مصدر تهديد. كان دائماً فتىً طيباً من النوع الذي يعلّق البالغون أحلامهم عليه، وكان يتمتع بنقاوة طالب في اللاهوت اليهودي، مع أن ثقافته كانت علمانية بالكامل. لقد نظم رحلة مع أصدقاء؛ لينضم إلى المسيرة في واشنطن عام 1963، ولكن حين جاء الاجتماع المناهض للحرب إلى كورنل في آخر فصول وولفوفيتز الدراسية في عام 1965، شكل هو واثنان آخران اللجنة المعنية بتقديم الدعم للولايات المتحدة في فيتنام، ورفعوا لافتات في اجتماع مضاد بسيط. إن وولفوفيتز، شأنه تقريباً شأن كل مهندس آخر لحرب العراق، تجنب الخدمة العسكرية في فيتنام، وكان ذلك في حالته عبر التأجيل الدراسي. وقد شرح ذلك فيما بعد ديك تشيني الذي قام بالتأجيل خمس مرات: «كانت لدي أولويات أخرى في الستينيات غير الخدمة العسكرية». جون بولتون، الذي التحق بالحرس الوطني أسوة بجورج دبليو بوش كان أكثر صراحة: «أعترف أنه لم تكن لدي رغبة في الموت في حقل من الأرز في جنوب شرق آسية». وقال أحد رفاق وولفوفيتز في تلورايد هاوس الذي احترف أيضاً سياسة المحافظين الجدد: «لدى وولفوفيتز اقتسام مفعم بالعمل للمصلحة العامة. إن بول مواطن صالح». عندما توفي آلان بلوم بمرض الإيدز في 1989، واتصل زميل يعمل لدى وزارة الدفاع لتعزية وولفوفيتز، ظل وكيل وزارة الدفاع لشؤون السياسات يتحدث على الهاتف مدة خمس وأربعين دقيقة حول مغزى أن يعيش المرء حياة مستقيمة وهادفة، مثلما فعل أستاذه القديم.

كان أحد أفعال التحدي التي قام بها مواصلة دراسات التخرج في العلوم السياسية في شيكاغو، حيث كان ليوشتراوس (Leo Strauss) أستاذ بلوم يدرّس، بدلاً من دراسة

الكيميـاء البيوفيزيائية في معهد ماساشوشـتس للتقنية، وهو مـا كان يريده وولفوفيتز. وقد حـدّد القرار مسـار حياته بعد ذلك. ولكن بعـد أن ترك وولفوفيتز البيئـة الأكاديمية ليعمل لدى الحكومة، ومع انتقاله من عمل إلى عمل أفضل تحت إدارة نكسون وفورد وكارتر وريغان وبوش، لم يسـمح قط لعواطفه الفكريـة أو الأخلاقية بأن تتجاوز حصـافته المهنية إلى حدّ بعيـد. في العقدين الأولين مـن حياته المهنية، عُرف وولفوفيتز بأنـه تقني ونظري بارع لديه آراء متشـددة حتماً، ولكن ليس واضـع نظريات محارب. وفي منتصـف الثمانينيات، عندما كان فرديناند ماركوس يتشـبث بالسـلطة في مانيلا بعد سـرقته للانتخابـات، وكانت إدارة ريغـان تناقش ما الذي يجب عمله إزاء ذلك، أجرى ليسـلي غيلب (Leslie Gelb) مراسـل صـحيفة نيويـورك تايمز مقابلات مـع جميع كبار المسـؤولين، بمن فيهـم وولفوفيتز، وكان آنذاك يشغل منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون شرق آسية. كتب غيلب يقول: إن هناك إجماعاً في الإدارة على وجوب رحيل ماركوس. وحالما ظهر المقال، اتصـل وولفوفيتز ليشـكو بأنه لم يقل شـيئاً من هذا القبيل. وعندما كانا لا يزالان يتحدثان، دقق غيلب في ملاحظاته وأدرك أن وولفوفيتز كان محقاً: فقد سـار بمحاذاة الخـط ولكنه تجنب تخطيه بحذر. كان ريغان نفسه ما زال متردداً، وإذا كان هناك إجماع بين الآخرين، فلم يكن وولفوفيتز مستعداً بعد لأن يوصـف على أنه جزء من الإجماع. ولكن بعد انقضاء بضع سنوات، عندما أصبحت حكمـة إجبار ماركوس على الرحيل أمراً محققاً، وجد غيلب بالمصـادفة مقالة في صـحيفة واشنطن بوست عرّفت وولفوفيتز بأنه كان القوة المحرّكة وراء طرد ماركوس. لكن وولفوفيتز كان آنذاك مسروراً بأن ينسب الفضل إليه.

لعل الديمقراطية وحقوق الإنسـان كانتا مادتي ثقافته الأخلاقية، ولكنهما لم تؤديا دوراً مركزيـاً في حياته المهنية المبكرة في الحكومة. وربما جاءت نقطة تحول ما في الأيام الأخيرة مـن حرب الخليج في عام 1991. فالقرار بإنهاء الحرب قبل تدمير فرق الحرس الجمهوري العراقي والسـماح لطائرات صـدام الهليكوبتر بالتحليق بعد وقف إطلاق النار، أدى بشـكل مباشـر إلى قتل عشـرات الآلاف من الشـيعة والأكراد الذين ثاروا ضـد نظام الحكم. وقد راع ذلك وولفوفيتز، وكيل وزارة الدفاع لشـؤون السياسـات في وزارة تشـيني، وجادل بشدة مطالبـاً بأن تسـتأنف الولايات المتحـدة عملياتها لوقف هجمات طائـرات الهليكوبتر. ولكن

تشـيني، ومعه جميع كبار المسؤولين في الإدارة، لم يريدوا تفويض السلطة الميدانية للجنرال نورمان شـوارزكويف، أو المجازفة بتقسـيم العراق؛ حيث خرج صدام من الكويت وكان ذلك هـو الهدف. واسـتناداً إلى السـيرة الجماعية الممتازة التي أعدها جيمسـ مان بعنوان ثورة الفلكان (إله النار عند الرومان) (Rise of the Vulcans)، قال أحد مسؤولي وزارة الدفاع الأمريكية لتشـيني: «تعلـم، بإمكاننا تغيير الحكومـة وإقامة ديمقراطية». فردّ تشـيني بأن السعوديين سوف يعترضون. وهكذا، تم السماح بسحق الانتفاضة العراقية.

أخبرني ريتشـارد بيرل أنه عنـد انتهاء حرب الخليج كان وولفوفيتز «يريد القضـاء على نظام صدام، وليس القضاء عليه فحسب، وإنما كان يعتقد في وجود أساس قوي لفعل ذلك». لا يوجد دليل على أن وولفوفيتز جادل في ذلك الحين أو حتى فكر أنه كان ينبغي للولايات المتحدة الإطاحة بصـدام؛ والواضح هو أنه كان يريد إعطاء العراقيين أنفسهم فرصة القيام بذلك. ولكـن في الأعـوام التي أعقبت هزيمة الرئيسـ بوش، حين أصـبح وولفوفيتز خارج الحكومة أخيراً، وكان يشـغل منصـب عميد كلية جون هوبكنز للدراسـات الدولية المتقدمة، ظل يعود إلى العمل غير المنجز في العراق، وكأن الأحداث الرهيبة التي أعقبت وقف إطلاق النار بقيت تقضّ مضـجعه. وفي اجتماع خاصـ في مبنى الكونغرس في كابيتول هل، ناقض بشـكل قاطع وزير الخارجية الأسـبق، جيمس بيكر (وبالمصـادفة نائب الرئيس المسـتقبلي ديك تشـيني) الذي كان يدّعي أن السعوديين كانوا قد جادلوا في حينه ضد دعم الانتفاضة؛ خشية أن تكسب إيران موطئ قدم في العراق. فقد أصرّ وولفوفيتز قائلاً: «كنت موجوداً في تلك الرحلات، إن هذا هراء». ولكنه اعترف في عنوان لأحد مقالاته بأن «النصـر جاء في غاية السـهولة»، وأن الولايات المتحدة قد هدرت فرصـة مساعدة العراقيين في التخلص من الدكتاتور. تشير هذه الكتابات إلى ذهن منقسم متشنج غير حاسم: فقد كان وولفوفيتز يريد التخلص من صدام، ولكنـه مع ذلك قبل السـبب الجوهري لعـدم القيام بذلك في عـام 1991. لم يوافق قط على الموقـف القائل: إنـه كان ينبغي للتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة أن يسـتولي على بغداد ويحتل العراق. والسؤال الواضح هو: ماذا بعد؟ إنه سؤال لم يفلح وولفوفيتز في الرد عليه.

بحلول عام 1997، كان يجادل بأن سياسة الاحتواء التي كانت تتبعها إدارة كلنتون مآلها الإخفاق، بينما استمرت العقوبات في إلحاق الضرر والأذى بالعراقيين العاديين، وكان صدام

يشـكّل مصدر تهديد من جديد. في نهاية ذلك العام، اشترك وولفوفيتز وزلماي خليل زاد في تحرير مقالة في صـحيفة (The Weekly Standard) بعنوان «أطيحوا به». فقد أصـبح تغيير نظام الحكم لصـالح عراق ديمقراطي موقف وولفوفيتز الرسـمي، وفي الشـهر اللاحق، في رسالة مشروع القرن الأمريكي الجديد، تبنى الموقف المحافظون الجدد البارزون في السياسة الخارجية، الذين كانت شهيتهم للقضاء على صدام أقوى بالكاد من الرغبة في ضرب إدارة كلنتون. وسرعان ما انتقل معظمهم إلى اهتمامات أخرى، ولكن فيما يخص وولفوفيتز، بات العراق الآن هاجساً يسيطر على تفكيره، ولم يتوقف قط عن الكتابة أو الحديث عنه.

كان ريتشـارد بيرل هو الاسـم المهم الآخر الذي ورد في رسالة مشـروع القرن الأمريكي الجديد. كان بيرل شخصـاً غـير مهذب، وقليل الحذر ومطلق العنـان لأهوائه بقدر ما كان صـديقه القديم حصـيفاً ومجداً. (وإرضاء لجميع رغباته الفرنسـية، كان لدى بيرل منزل في جنوب فرنسـة وحجرة جلوس في تشـيفي تشيز، مليئة بكتب الطهو الفرنسية). كان بيرل ووولفوفيتـز يعـرف أحدهما الآخر منذ صـيف عام 1969 عندما عملا معاً في واشـنطن في اللجنة ذات الاسـم المتواضـع للحفاظ على سياسـة دفاعية حصـيفة، بتوجيه من عملاقي الحـرب البـاردة، ديـن أتشيسـون (Dean Acheson) وبـول نتـزه (Paul Nize). أجـرى الطالبان الخريجان الشـابان أبحاثاً، وكتبا مذكرات لأعضـاء الكونغرس المتعاطفين؛ دفاعاً عن النظام المضاد للصواريخ البالستية، وهي المذكرات التي استرعت انتباه السيناتور هنري «سـكوب» جاكسون برتشارد بيرل، وكان جاكسون الديمقراطي من واشنطن الصقر المحبّذ لدى المحافظين الجدد الأوائل إلى أن بدأ ريغان في الصـعود في عام 1976. انضـمّ بيرل إلى العاملين لدى جاكسـون، ولم يعُد بعدها إلى مواصـلة دراسـاته العليا. وطوال السـبعينيات، تخصص في العثور على موهبة فكرية وربطها بنفوذ واشنطن، بالنيابة عن سياسات الحرب الباردة المتشددة. وذات مساء، سمع برنارد لويس الأستاذ في جامعة برنستون يلقي محاضرة رائعة حول الشـرق الأوسـط؛ وفي اليوم الآتي ذكر بيرل اسم لويس إلى جاكسون، ولم يمضِ وقت طويل حتى جرى تقديم الأسـتاذ إلى عالم صـانعي السياسـات، وأصبح مستشاراً لدى جاكسـون حول قضايا الشرق الأوسـط فضلاً عن دانيال باتريك موينهان، الذي كان آنذاك سـفيراً لـدى الأمم المتحدة. كما وظف بيرل شـابّين غير معروفين يدعيـان دوغلاس فيث،

وإليوت أبرامز للعمل لدى السيناتورين جاكسون وموينهان. وعندما ألمحت بشكل شبه مازح إلى أن حرب العراق بدأت في مكتب سكوب جاكسون، قال بيرل: «ثمة مقدار ضئيل من الصحة في ذلك». كان ريتشارد بيرل هو مديرها، وكانت تفصله درجة عن أي شخص ذي أهمية. وكان يجسّد أكثر من أي شخص آخر المتمرد المحافظ الجديد، المتيقن يقيناً مطلقاً من نفسه وأفكاره، وكان يضم دائماً كوادر جديدة إلى القضية، وينصب كمائن حرب عصابات متكررة على المؤسسة، ويعد العدة للاستيلاء على السلطة المطلقة.

جاء أهم اتصال أجراه بيرل بعد موت جاكسون، حين ذهب في وزارة الدفاع في عهد ريغان، واكتسب سمعة التشبث بآراء صارمة بلا تردد حول نوايا الاتحاد السوفياتي، حتى عندما كان هذا الأخير يضعف بشكل واضح وينفتح في عهد غورباتشوف. (حتى إن بيرل كتب رواية تقول: إن مسؤولاً كبيراً في مجال الحد من الأسلحة أنقذ رئيساً أمريكياً من التنازل عن كل ترسانة الأسلحة النووية في المفاوضات مع السوفييت، كما ادّعى بيرل بأنه فعل مع ريغان في ريكجافك) . وفي عام 1985، في أثناء حفل في واشنطن، قام ألبرت وولزتتر (Albert Wolhstetter) بتعريف بيرل بأحد المغتربين العراقيين الحائز على درجة الدكتوراه في الرياضيات النظرية من شيكاغو، ويدعى أحمد الجلبي (Ahmad Chalabi). وكان وولزتتر أحد المنظّرين الصقور في مجال الحرب الباردة، وكان بيرل قد واعد ابنته في المدرسة الثانوية في لوس أنجلوس، وكان موجه وولفوفيتز في شيكاغو، الذي جمع بيرل وولفوفيتز معاً في واشنطن في صيف عام 1969.

إبان وقت رسالة مشروع (PNAC) في كانون الثاني/ يناير 1998، كان بيرل يعرف على وجه التحديد كيف يمكن الإطاحة بصدام، وذلك بوضع أحمد الجلبي على رأس جيش من المتمردين العراقيين ودعمه بالقوة العسكرية الأمريكية وبالأموال النقدية.

في عام 1996، كان بعضهم في محيط بيرل قد بدؤوا بالتفكير فيما قد تعني إزالة صدام حسين من الشرق الأوسط. وخلصوا إلى استنتاج مفاده أن ذلك سيكون مفيداً جدًّا لإسرائيل. ترأس بيرل مجموعة دراسية مؤلفة من ثمانية أمريكيين موالين لحزب الليكود الإسرائيلي، منهم دوغلاس فيث الذي كان قد عمل تحت إمرة بيرل في إدارة ريغان، وديفيد وورمسر

(David Wurmser) مؤلف الورقة التي أنتجت برعاية المجموعة (أعار بيرل اسمه دون قراءة الورقة إطلاقاً). بعد ذلك، كانت المجموعة راضية بما فيه الكفاية عن عملها لدرجة أنها أرسلت الورقة إلى رئيس وزراء إسرائيل المنتخب حديثاً، بنيامين نتنياهو. «انفراج كامل: إستراتيجية جديدة لتأمين المملكة» تدعو إسرائيل للتحرر من السياسة الاقتصادية الاشتراكية، وأعباء عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية. كتب وورمسر قائلاً: إنه بدلاً من الانسحاب من الأراضي المحتلة مقابل وعود بالسلام مشكوك فيها، ينبغي أن تنقل إسرائيل المعركة إلى الفلسطينيين ومسانديهم العرب، وأن تنشئ إعادة تنظيم للقوى في الشرق الأوسط من شأنه أن يضمن أمن إسرائيل. وقد أدى العراق دوراً مركزياً في هذا التصور، وإن يكن خيالياً تماماً. حلمت الورقة بإعادة الأسرة الهاشمية الأردنية (التي تمّ خلعها من العرش العراقي في عام 1958، عام الانقلاب الجمهوري ورحيل الجلبي) للحكم في بغداد. والملكية بدورها، على الرغم من كونها مسلمة سنية، سوف تنتصر على شيعة العراق لكون «الشيعة يوقرون في المقام الأول عائلة النبي، التي ينحدر منها مباشرة الملك حسين الذي يجري دم النبي في عروقه».

وبمساندة من الشيعة، فإن الهاشميين المعاد تتويجهم «يمكن أن يستخدموا نفوذهم على النجف لمساعدة إسرائيل في إبعاد الشيعة في جنوب لبنان عن حزب الله وإيران وسورية». وعندئذ، فإن الفلسطينيين، إذ يصبحون معزولين وبمفردهم، ما عليهم إلا القبول بالمطالب الإسرائيلية. وهكذا، عادت المملكة التي ابتدعها تي. إي. لورنس وغيره من المسؤولين البريطانيين بعد الحرب العالمية الأولى للمحافظة على الحكم الاستعماري، ولنزع فتيل مشكلة القومية العربية، تطفو على السطح عام 1996 بوصفها المفتاح شبه الخفي والغامض الذي سوف يفتح تقريباً أقفال كل مشكلة عويصة من الشرق الأوسط المعاصر: النزاع العربي - الإسرائيلي، والإرهاب الجهادي ومقاومة حزب الله، واعتماد أمريكا على النفط من المملكة العربية السعودية الوهابية، والاستبداد البعثي العلماني لصدام حسين.

لقد أسهب وورمسر في شرح نظريته في كتابه الذي صدر في عام 1999 وعنوانه «حليف الطغيان: إخفاق أمريكا في إلحاق الهزيمة بصدام حسين» (Tyranny's Ally: America's

Failure to Defeat Saddam Hussein) الـذي نشـره معهـد المشـروع الأمريكي، وهو فريق خبراء استشـاري، كان وورمسر يعمل باحثاً مختصاً فيه. من شأن الإطاحة بصدام زعزعة اسـتقرار كل من سـورية وإيـران، وعزل حماس، والجهاد الإسـلامي، وحـزب الله، وإعادة تنظيم الشرق الأوسط برمّته، بحيث لن تعود إسرائيل بحاجة إلى التفاوض مع الفلسطينيين بخصـوص الأراضـي المحتلة، مع أن هذا لم يرد ذكره صراحة قط، وكأن المؤلف كان يخشى من أن يعبّر عما يجول في خاطره بغاية الوضوح. إن كتاب حليف الطغيان الذي كتب مقدمته ريتشارد بيرل، وأثنى على بيرل والجلبي، وفيث، ولويس، والعديد من مفكري حرب العراق، هـو كتاب غريب وغني بالمعلومات. ويبـدو، وكأن طالباً في الدراسـات العليا كان يحاول فيه بانفعال محموم، تطبيق المفاهيم نصف المهضومة التي تعلمها في صف مع ليو شتراوس، على موضـوع بحث تعلمه في صـف مع برنارد لويس. ثمة اتجاه خفي من الارتياب العميق بالعالم الحديث: فالحداثة أعطتنا الكلياتية، ولذلك يجب إلغاء الحداثة. كان وورمسـر يريد إعادة العراق إلى القيم التقليدية، ولا سيما التقاليد الدينية الشيعية (التي لم يكن يعرف عنها أي شـيء قط). وكتب قائلاً: «إن جذور العنف هي هجوم راديكالي عمره قرن من الزمان على النخبة التقليدية في العالم العربي. فقد تولى أنصـار الأيديولوجية العلمانية امتياز صـياغة وإعادة صـياغة الجنس البشـري وفقاً لمفهومهم للكمال». وقد استشـهد برواية «الشياطين» (Demons) المناهضـة للثورة من تأليف دوستويفيسـكي؛ فقد كانت الآراء السياسـية التي يتبناها وورمسـر وبعض الأنصـار الآخرين للتدخل الأمريكي في الشرق الأوسط، أقرب إلى الفاشستية الدوستويفيسكية الدينية منها إلى الليبرالية العلمانية لجون ستيوارت ميل. فهي تجاهر بالديمقراطية، ولكنها كانت في العمق مناوئة لعصر التنوير.

قبل أسـابيع قليلة من بداية الحرب العراقية، وصـف لي أحد مسؤولي وزارة الخارجية ما سـماه «النظرية التي تحرّك الجميع»: تضم إسرائيل الأراضي المحتلة، ويحصل الفلسطينيون على الأردن، ويعاد الهاشـميون الأردنيون إلى عرش العراق. وبحلول ذلك الوقت، كان العديد من موقعي الورقة، بمن فيهم فيث وبيرل ووورمسر يشغلون مناصب رئيسة في إدارة بوش الابن، حيث كانوا يصوغون الحرب الوشيكة للإطاحة بصدام.

هل يعني هذا أن عصبة موالية لحزب الليكود تسللت إلى المجالس العليا للحكومة الأمريكية واسـتولت على جهاز السياسـة الخارجية الأمريكية لخدمة المصـالح الإسرائيلية (كما ادّعى

بعض منتقدي الحرب بدلاً من معالجة حسناتها وجهاً لوجه)؟ هل المحافظ الجديد كلمة تعني يهودياً (حسبما اشتكى بعض أنصار الحرب، بدلاً من مجابهة منتقديهم وجهاً لوجه)؟ لعل أمن إسرائيل كان بالنسبة لفيث وورمسر المحرك الرئيس. ولكن بالنسبة لآخرين مثل وولفوفيتز، كان العراق يمثل أشياء مختلفة - كان يمثل حرباً غير منجزة، وطغياناً عربياً، ونشر أسلحة، وتهديداً إستراتيجياً للنفط، وضعفاً أمريكياً، وعجز الحزب الديمقراطي وقد أصبح تغيير النظام هناك الجائزة الكبرى في السياسة الخارجية. وقد ردّ صحفي إسرائيلي بارز هو آري شافيت (Ari Shavit) على نظرية المؤامرة بهذه الطريقة: اليهود تجذبهم الأفكار. كان أول من طرح فكرة إعادة ترتيب الشرق الأوسط عبر الإطاحة بصدام حسين هي مجموعة من صانعي السياسة والمفكرين اليهود القريبين من حزب الليكود. وعندما بحث الرئيس بوش الابن عن طريقة للتفكير بخصوص حقبة مجهولة بدأت في 11 أيلول/سبتمبر 2001، كان هناك طريقة موجودة مسبقاً.

عارض معظم الليبراليين الأمريكيين حرب الخليج في عام 1991، إذ إن فرصة هجوم بري يشنه نصف مليون جندي (على الرغم من أن الأمر يتعلق هنا بصحراء لا بأدغال) لمست أكثر الأماكن حساسية، حيث ظلت آخر حرب برية أمريكية بمنزلة ذكرى استعراض عضلات. وقد أدى هذا القلق دوراً ليس بالقليل في الأصوات «المعارضة» لقرار الحرب التي أدلى بها اثنان من أعضاء مجلس الشيوخ الشبان ممن كانوا من المحاربين القدماء في تلك الحرب السابقة، وهما بوب كيري وجون كيري. لقد حولت فييتنام معظم الديمقراطيين المولودين بعد الحرب العالمية الثانية بمن فيهم أنا إلى حمائم. ومع ذلك، فإن الشريط المصور الذي يظهر فيه كويتيون ممتنون، وهم يلوحون لأرتال من القوات الأمريكية، وهي تتدفق عبر العاصمة المحررة أحدث فجوة جريئة في نظرتي العالمية. فقد كان الجنود الأمريكيون هم الأبطال. وفي شمال العراق، بعد الانتفاضة الكردية، طاف رجال الميليشيات الذين يعرفون بالبشمركَة في سيارات ألصق على زجاجها الأمامي صور جورج إتش. دبليو بوش. وقد كان هذا شيئاً جديداً.

لقد خلط العقد الذي أعقب حرب الخليج كل الأمور، وقلب العديد من الحقائق القديمة على رؤوسهم. وإن توليفة انتهاء الحرب الباردة، ونشوب حروب إبادة جماعية ونزاعات إثنية في أوروبة وإفريقية، واستلام رئيس أمريكي من الحزب الديمقراطي، كل ذلك جعل من

الممكن لليبراليين التفكير في استخدام القوة الأمريكية للمرة الأولى منذ سنوات كينيدي، بل حتى الدفاع عن استخدامها. كان في هذا التفكير شيء أكثر قليلاً من موالاة حزبية متزمتة، ولكن كان فيه مثالية أيضاً، حيث إنه جذب فكرة قوية ظهرت من إحدى أكبر حركات القرن العشرين، ألا وهي حركة حقوق الإنسان. ومفاد الفكرة أنه ينبغي عدم السماح للحكومات بالإساءة لمواطنيها على نطاق جماعي؛ وأن السيادة لا تسوغ الاغتصاب والتعذيب والقتل والإبادة الجماعية؛ وأن من مصلحة العالم وواجبه أن يضع حدّاً لهذه الجرائم. وقد بات هذا النوع الجديد من الحرب يعرف بالتدخل الإنساني، وفي هذا البلد (أمريكة) اكتسب مناصروه اسم المتدخلين الليبراليين، أو باختصار، الصقور الليبراليين.

كانت الأمم المتحدة هي المؤسسة المفضّلة لدى الليبراليين للقيام بالتدخل. لكن بحلول سنة 1994، أظهرت البوسنة ورواندة، اللتان جرت فيهما إبادتان جماعيتان في ذلك العقد، أن الأمم المتحدة لم تكن أهلاً للمهمة – فقد بدا أن جهودها لم تقم بشيء إلا استمرار المذابح وتعريض المدنيين الأبرياء لخطر أكبر. على الرغم من أن فرانكلين روزفلت تصوّر الأمم المتحدة منظمة مناهضة للفاشية، فقد تم تأسيسها بوصفها هيئة للدول ذات السيادة؛ ومع تولّي ليبيا لدورها رئيساً للجنة حقوق الإنسان، لم تكن الأمم المتحدة الأداة المثالية لوضع حدّ للأعمال الوحشية. كما أن الدول الأعضاء في مجلس الأمن، ولا سيما الولايات المتحدة، لم تعطِ الأمم المتحدة، الدفعة اللازمة. وأخذت الأمم المتحدة والدول الغربية تتقاذف المسؤولية عن هذه المآسي، بشكل أشبه بخطة شركة قابضة. ولكن في رأي العديد من المواطنين، بمن فيهم الليبراليون الأمريكيون، كان النزف الدموي الجاري بلا توقف في هذه الأماكن البعيدة بحاجة إلى ردّ، وإذا لم يكن الردّ يأتي من الأمم المتحدة أو الدول الأوروبية، فلا بد أن يأتي من القوة الأعظم.

دون اتحاد سوفياتي أو حرب باردة، لم تحمل هذه التدخلات رائحة «مصلحة إستراتيجية حيوية». الشيء الذي لم يجعل البوسنة ورواندة وهاييتي وكوسوفو جديرة بقوة أمريكية في أعين المحافظين (حيث قال وزير الخارجية جيمس بيكر بخصوص البوسنة «ليس لنا في تلك المعركة ناقة ولا جمل») جعل استخدام القوة أكثر قابلية للتحقيق لدى الليبراليين. شنّ القلة من الجمهوريين المؤيدين للتدخل (بمن فيهم بول وولفوفيتز) الذين عدوا

المصلحة القومية وانتشار حقوق الإنسان أمرين لا ينفصمان، هجوماً على الليبراليين بسبب أحلامهم اليوطوبية. وسخر كاغان قائلاً: «يا لها من نزعة خيرية واهية!». ولم يكن تأييد بعض الليبراليين والمحافظين للسياسات العسكرية في تسعينيات القرن العشرين يعني أنهم بدؤوا من المكان نفسه؛ كما لم يعنِ أنهم لن يلتقوا معاً بعد سنوات قليلة».

ومرة أخرى قام الحزب الجمهوري، انطلاقاً من مبدأ إستراتيجي جزئياً وانطلاقاً من ولاء حزبي مجرد أيضاً، بكل ما بوسعه لتقييد يدي كلنتون والحيلولة دون استخدام الجيش الأمريكي للمشاركة في حروب بعيدة غامضة أو لتوفير الأمن في العواقب الوخيمة المحتومة. كانت هناك مصطلحات أكثر ازدراء من قبل الجمهوريين من «بناء الأمة». وحسبما لاحظ كاغان، أحد المنشقين القلائل، في عام 1995 «في أثناء سنوات قليلة، انتقلت أمريكة عبر مرآة إلى عالم مقلوب رأساً على عقب، حيث كان (بعض) الديمقراطيين الليبراليين يدعون إلى اتخاذ إجراء عسكري أمريكي، في حين حذّر الجمهوريون المحافظون من المستنقعات والمصائد والاستعمار الجديد، ومن «فييتنام أخرى». وكانت النتيجة رئيساً ديمقراطياً حذراً ومضطرباً تعرضت بادراته الفاترة القليلة تجاه الزعامة الدولية النزعة لهجوم وتقييد من قبل معارضة جمهورية في الكونغرس».

فيما يخص الحمائم الدائمة، كانت أول رشفة من هذا الشراب المسمّى التدخل الإنساني تحمل إثارة خاصة، فقد نشأت الدراما وشدة حرارة الجدل في قرار الذهاب أو عدم الذهاب إلى الحرب. في هذه اللحظة، كانت مؤهلات الفرد المعنوية على الخط. لقد كان نوعاً من الخيار الوجودي وبياناً للقيم، ازداد قوة لكونه غير تقليدي من الناحية السياسية وأحياناً جريئاً أيضاً. ولم يجعل شيء من هذا القرارات أقل جدية أو أقل صدقاً، ولكن السؤال عما قد يحدث لاحقاً نزعَ إلى الذوبان في سحابة الهدف السامي. ولأن الصقور الليبراليين استجابوا للأزمات الإنسانية، فقد قلّ احتمال أن يفكروا في شكل العالم في غضون عشرة أعوام أو عشرين عاماً، وإن الإجابات بعيدة المدى التي قدموها، مثل المحاكم الجنائية الدولية، وقرارات الأمم المتحدة وقوات التدخل الإقليمية، كلها بدت أشبه بأمنيات نبيلة،

وليسـت إجابات عملية. كان عليهم مراراً وتكراراً اللجوء إلى الحل الذي كانوا يشـعرون أنه الأقل مدعاة للارتياح -أي القوة الأمريكية-.

لم تدرج العراق قط في قائمة القضايا التي تهم الصقور الليبراليين في تسعينيات القرن العشـرين. فقد كان العراق أزمة إنسانية في عام 1988، عندما ارتكب صدام إبادة جماعية ضد الأكراد عند نهاية الحرب العراقية الإيرانية، وفي عام 1991، عندما ذبح صدام الشيعة والأكـراد الذين ثـاروا عند نهاية حرب الخليـج. لم يطالب أحد بتدخل عسـكري للإطاحة بالنظام البعثي آنذاك، باستثناء كنعان مكية وقلة من الأصوات الأخرى، إذ إن الفكرة لم تكن قد ترسـخت بعد. يمكن أن يجادل المرء طبعاً بأن كل يوم في العراق في ظل حكم صـدام كان أزمة إنسانية. وقد وثقت منظمة مراقبة حقوق الإنسان (Human Rights Watch) وغيرها من المنظمات الجرائم الهائلة التي ارتكبها حزب البعث توثيقاً بغاية الدقة. ولكن دون أعين وسـائل الإعلام، ودون تقارير عن القبور الجماعية، وخشية أن تسفر الحرب في العراق عن خسـائر كبيرة في الأرواح، اسـتطاع الديكتاتور الذي كانت يداه ملطختين بالدم أكثر بكثير من يدي سـلوبودان ميلوسـوفيتش أن يتجنب السـلوك الذي لا هوادة فيه لمؤيدي التدخل في التسـعينيات. ربما كان العالم العربي نوعاً ما بعيداً عن متناول حقوق الإنسـان، أما البوسنة والهرسك فلم تكونا كذلك. وربما كانت مسألة الحرب أكثر تعقيداً «للتواقين للعمل الإنساني الواهي»، لحقيقة أنه كانت للولايات المتحدة مصالح إستراتيجية في المنطقة (النفط)؛ ولأن قضـية العراق كانت تنطوي على أسـلحة غير تقليدية، فضـلاً عن القتل الجماعي. على أي حال، انتهت سـنوات حكم كلنتون، ولم يكن هناك شـعور بوجوب متابعة الإنجاز الذي تحقق في البلقان في بلاد ما بين النهرين، أو في أي مكان آخر. فقد كان الصقور الليبراليون دائماً أقلية، حتى في صفوف الديمقراطيين.

لقد أثارت الحروب الصغيرة غير الحاسمة في التسعينيات الأسئلة الرئيسة لعالم ما بعد الحرب الباردة، ولكنها أخفقت في الإجابة عنها: ما علاقة حقوق الإنسـان بالأمن القومي؟ ما الذي ينبغي على الولايات المتحدة أن تفعله بخصـوص التهديدات التي يصـرّ العالم على تجاهلها؟ هل من الضـروري أن تجيز هيئة دولية الحرب؟ ما هي حدود السيادة؟ هل يمكن تحقيـق الديمقراطية بالقـوة؟ من يتولى مسـؤولية بلد مهزوم بعد حرب مـا؟ وأهم من كل ذلك: ما هو الدور الذي ينبغي لقوة الولايات المتحدة المتفوقة أن تؤديه في صياغة الإجابات؟

ظلت هذه الأسئلة عالقة بلا إجابات مع دخول القرن الجديد. وسرعان ما جعلتها الإدارة الجديدة في واشنطن بؤرة اهتمامها فيما يتعلق بالعراق.

بحلول عام 2000، لم يبدِ الرئيس كلنتون العاجز الضعيف أي دلالة على أنه يريد التصرف بشكل حاسم مع عراق متمرّد عاصٍ. كان قرار تحرير العراق على الورق، لكنه لم يكن في قلب كلينتون. ثم أصبح العراق القضية الأولى للمحافظين الجدد، لأن سياسة كلنتون الخاصة بالعقوبات والهجمات الصاروخية من حين لآخر بدت واهية، وأيضاً لسبب أهم: هو أنهم كانوا يرون في العراق حالة اختبار لآرائهم بشأن قوة أمريكة وزعامتها العالمية. كان العراق يمثّل أسوأ إخفاق في تسعينيات القرن العشرين، والفرصة الأولى للقرن الأمريكي الجديد. في منتصف الحملة الرئاسية سنة 2000، نشر كاغان وكريستول طلقة إنذار على شكل مجموعة مقالات لاذعة، وربما تواقة إلى الماضي بعنوان الأخطار الحالية. كانت المجموعة عرضاً لأفكار مقالاتهما السابقة، التي تصل إلى طول كتاب، وضمت الإسهامات العديد من الشخصيات البارزة لما أخذ يصبح كتلة حاسمة من رأي صقري النزعة في مجال السياسة الخارجية.

كانت مقالة ريتشارد بيرل تقطر سخرية، حيث ادّعى أن قصف كلينتون للمنشآت العراقية في كانون الأول/ديسمبر 1998 كان موضع سخرية، حيث عدّ مجرد صرف للأنظار في وسط جلسات استماع للاتهام، «لم يكن له تأثير دائم» (وهو توكيد دحضته مجموعة استطلاع العراق بعد الغزو، التي وجدت أن الضربات الصاروخية ساعدت في القضاء على ما كان متبقياً من منشآت أسلحة صدام الكيماوية). ودون ذكر صديقه أحمد الجلبي بالاسم، اقترح بيرل أن يكون المؤتمر الوطني العراقي بزعامة الجلبي بمنزلة الرافعة التي يمكن لأمريكة بوساطتها تحرير العراق من قبضة صدام. وأخيراً، خرق بيرل آخر المحرّم وتطرق إلى إمكانية قيام أمريكة بدور عسكري. «بصفة ملاذ أخير،...... ينبغي لنا حشد قواتنا البرية في المنطقة؛ كي تكون لنا القدرة على حماية ومساعدة القوى المناهضة لصدام في الجزأين الشمالي والجنوبي من العراق».

أما مقالة بول وولفوفيتز فقد كانت أكثر حصافة بكثير، حيث كانت محاولة من ناحية أخرى لتطبيق مبادئ جرى تعلّمها في أثناء الحرب الباردة على العالم الجديد، مع أخطاره الجديدة الكثيرة. على الرغم من أن هذا الديمقراطي السابق كان محل ازدراء من

الديمقراطيين بالقدر نفسه، كتّاب المقالات الأخرى في الكتاب، إلا أن وولفوفيتز غير مستعد نفسياً لتوكيد هيمنة أمريكة الخيرية عبر الكرة الأرضية. حتى إنه نظر بقلق إلى الصدمة التي حوّلت عدداً كبيراً من الليبراليين إلى دعاة سلام. وكتب وولفوفيتز يقول: «لا نستطيع تجاهل الحقيقة المزعجة بأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية قد تجعل بعض الدول مهيأة للديمقراطية بشكل أفضل من غيرها. وكان وولفوفيتز قد عمل مدة محددة سفيراً لدى أندونيسية، وكان موضع إعجاب واسع (بينما كان معظم المحافظين الجدد الآخرين قد أمضوا حياتهم المهنية كاملة في واشنطن). وقال: «من الغرابة بمكان، أننا نسينا على ما يبدو الدرس الذي كان ينبغي أن نتعلمه من فييتنام، حول حدود القوة العسكرية بوصفها أداة لبناء الأمة. إذ إن تعزيز الديمقراطية بحاجة إلى الانتباه للظروف المحددة، ولتغييرات قوة الولايات المتحدة. وبسبب ماهية الولايات المتحدة، وما هو ممكن، لا يمكننا التورّط في تعزيز الديمقراطية، أو في بناء الأمة بوصفها ممارسة للإرادة. علينا الاستمرار بالتفاعل والموارنة، وليس الفرض. في هذا الصدد، فإن تجارب ما بعد الحرب العالمية الثانية مع ألمانية واليابان تقدم إرشادات مضللة لما هو ممكن الآن، حتى في مدة من التفوق الأمريكي».

وهكذا، فإن بول وولفوفيتز في عام 2000 -الذي يبدو كخبير حصيف في مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي- ذات الرجل الذي سوف يكتسب في غضون بضع سنوات لقب «وولفوفيتز العرب» بعد أن أخفق في تعلّم كل ما ذكره أعلاه في العراق. ليست هناك أفكار نقية وخطوط مستقيمة في تاريخ الأحداث الكبرى. أخبرني كاغان أنه عندما يبدل صانعو السياسات وجهات نظرهم، «يكون ذلك عادة بسبب تغير الظروف، أو أنهم يتعرضون للإهانة من شخص في السلطة». في حالة وولفوفيتز، ربما كان يسعى لاقتناص وظيفة في إدارة المرشح الرئاسي الجمهوري البارز، بوش الابن، الذي عمل وولفوفيتز لديه مستشاراً للسياسة الخارجية في أثناء الحملة الانتخابية، الذي أوضح أن الحملات لتحويل العالم وفقاً لصورة أمريكة لن يكون عمله. يمكن العثور على دليل بوش للعالم في مقالة نشرتها مجلة Foreign Affair ليست مقالة كاغان وكريستول في عام 1996، وإنما مقالة في العدد الصادر في كانون الثاني/ يناير 2000 بقلم عميدة إحدى كليات جامعة ستانفورد كوندوليزا رايس التي دعت إلى عودة واقعية القوة العظمى لنكسون وكيسنجر ووالد بوش.

ولكن بعد الانتخاب الذي كان موضع خلاف، عندما أخذ فريق الأمن القومي لبوش الأصغر يتخذ شكله، وُجدت في الحكومة أسماء محافظين جدد كان يعرف أحدهم الآخر منذ سنوات داخل السلطة وخارجها، وأصبحت أفكارهم عن العالم لما بعد الحرب الباردة محط الأنظار في أثناء التسعينيات: وولفوفيتز، فيث، وورمسر، وشولسكي، وستيفن كامبوني، وغيرهم في البنتاغون؛ كمساعد وولفوفيتز السابق آي. لويس «سكوتر» لبي، وجون هانا، ووليام ج. لوتي في مكتب نائب الرئيس تشيني؛ وستيفن هادلي، وإليوت أبرامز، وزلماي خليل زاده في مجلس الأمن القومي؛ وجون بولتون في وزارة الخارجية؛ وبيرل، وكنيث آدلمان وآر جيمس وولسي في الهيئة الاستشارية لسياسة الدفاع. وكان راعياهم تشيني ووزير الدفاع الجديد دونالد رامسفيلد. كان رامسفيلد قومياً عدوانياً حادّ الطباع من حقبة الحرب الباردة. كما أن تشيني، صنيعة رامسفيلد وزميله وصديقه في أثناء إدارات عديدة، فقد كان من الطينة ذاتها.

لقد عمل العديد من هؤلاء المسؤولين على مستويات متوسطة في إدارة ريغان، حيث كانوا يعتنقون مثالية الصقور مثله. وقد أعطاهم انهيار الشيوعية وظهور الولايات المتحدة بمظهر القوة العظمى الوحيدة في العالم شعوراً بالانتصار التاريخي. ثم أمضوا سنوات التسعينيات وهم يراقبون عودة إدارة بوش الأولى إلى المثالية الضيقة، وانتقال إدارة كلنتون من أزمة لأخرى، مما بدّد ما حققه ريغان من انتصار. لقد شقوا مسيرتهم الطويلة عبر مجموعات خبراء استشاريين، ومجلات متخصصة بالسياسات، وكانوا يستخدمون أفكارهم ويتقنون هجماتهم. وها هم يعودون الآن إلى السلطة متمردين، تحتقرهم البيروقراطية الوطيدة، والمعتدلون الأكثر حذراً في حزبهم، (بمن فيهم وزير الخارجية الجديد، كولن باول)، والديمقراطيون المهزومون المنهكون. وكانت ثقتهم في أعلى عليين، وكل ما كانوا بحاجة إليه هو مهمة تسند إليهم.

سألت روبرت كاغان كيف انتقلت أفكاره من صفحات مجلة (Commentary) إلى جهاز السياسة الخارجية لإدارة بوش. لم يلقِ لي بالاً، وقال: إن الأمر لم يكن كذلك. «لقد كان 11 سبتمبر/أيلول نقطة التحول ولا شيء آخر. لم يكن بوش يفكر في ذلك في 10 سبتمبر/أيلول.

ألم يكن لأفكار المحافظين الجدد أي شأن في ذلك؟

تنهد كاغان. «هذا ما أريد قوله، هل أبقينا على قيد الحياة طريقة معينة للنظر إلى السياسة الخارجية الأمريكية في وقت لم تكن لها شعبية فيه؟ أجل. أعتقد أنه ربما تحتاج إلى أناس يقومون بهذا؛ كي يكون لديك شيء ما ترجع إليه. وبطريقة ما، يكون لديك عندئذ موقف جاهز للعالم».



2

أذهان محمومة

في ربيع عام 2002، التقيت بكنعان مكية في إحدى جلساتنا غير المنتظمة لتناول القهوة، في مقهى يقع في ميدان هارفارد. وكنت آنذاك قد انتقلت من كامبريدج إلى نيويورك. حيث هرعت في صباح يوم 11 سبتمبر/ أيلول، 2001 في الجادة الخامسة، وقبالتي أرتال من الرجال والنساء يغطيهم الرماد، كانوا يتدفقون إلى المكان الذي كان يجثم فيه برجا مركز التجارة العالمي، وعبرت جسر بروكلن في خروج جماعي لعمال حمر الوجوه، بينما كان الدخان والغبار يصعدان نحو السماء.

وبعد ستة أشهر، وبعد حرب في أفغانستان، كان مكية يتحدث عن حرب أخرى، هذه المرة في العراق. كانت تلك هي الحرب التي دعا إليها دون جدوى في عام 1991، حرب للإطاحة بصدام حسين.

في يناير/ كانون الثاني 2001، في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي في ظل الإدارة الجديدة، قدّم المسؤولون إلى الرئيس المنتخب الجديد خططاً للتخلص من صدام وفقاً لقانون تحرير العراق عام 1998 الذي كان قانوناً رمزياً إلى حدّ كبير (على الرغم من أن هذا لن يظهر إلا بعد ثلاث سنوات، في رواية سردها بول أونيل (Paul O'Neill) أحد المطلعين على بواطن الأمور، وأول وزير للخزانة في حكومة بوش، ولم يبقَ في منصبه طويلاً). وفي شهر إبريل/نيسان، في أول اجتماع عقدته الإدارة حول الإرهاب، وجد ريتشارد كلارك، المسؤول البارز في مكافحة الإرهاب في ثلاث إدارات، أن المسؤولين الثلاثة الذين عيّنهم بوش، ولا سيما بول وولفوفيتز، نائب وزير الدفاع، كانوا مهتمين بالتهديد من دول مثل العراق، أكثر كثيراً من التهديد من عصابة الجهاديين العالمية الغامضة التي لا تنتمي لدولة معينة، المسماة القاعدة. وقد نقل كلارك لاحقاً عن وولفوفيتز قوله: «إنني لا أفهم بالضبط لماذا بدأنا نتحدث عن هذا الرجل بالذات ابن لادن. إنك تعطيه أكبر من حجمه.

فهو لا يمكنه فعل كل هذه الأشياء مثل الهجوم على نيويورك عام 1993، ليس دون رعاية من دولة». كان وولفوفيتز يعني العراق. لما كان مسؤولون مثله ممن قد حاربوا -وبرأيهم- ربحوا الحرب الباردة بسياساتهم المتشددة، فإنهم، وقد عادوا إلى السلطة، لا يزالون يرون عالم الأخطار من منطلق دول عدوة ذات صبغة عسكرية شديدة. لم تغير سنوات التسعينيات تفكيرهم. وكانت تلك السنوات في نظرهم سنوات ضائعة. في ظل إدارة كلنتون، كان التركيز قوياً للغاية على العولمة والمؤسسات الدولية والتهديدات غير الخطرة، التي لا حدود لها مثل الفقر والنزاع الإثني.

ثم جاء 11 سبتمبر/ أيلول. ففي غضون دقائق من فراره من مكتبه في وزارة الدفاع المدمرة، أخبر وولفوفيتز معاونيه أنه يشك في تورط عراقي في الهجمات. وبعد وقت قصير من الساعة الثانية بعد الظهر، بينما كان الهواء في مانهاتن السفلى، وعلى طول نهر البوتوماك لا يزال يعج بالدخان اللاذع، دوّن مساعدون لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد ملاحظات في وقت كان رئيسهم يعقد اجتماعاً في المركز الوطني للقيادة العسكرية: أفضل المعلومات السريعة. قرّر: هل من المناسب ضرب صدام حسين في الوقت نفسه أيضاً، وليس فقط أسامة بن لادن. اضرب على نطاق واسع، سواء الأمور ذات الصلة، أو التي ليس لها صلة. في عصر ذلك اليوم ذاته، اتصل ديفيد فروم (David Frum) أحد كتبة خطابات بوش، الذي تم إجلاؤه من البيت الأبيض والتجأ إلى مكاتب معهد المشروعات الأمريكي، هاتفياً بريتشارد بيرل، أحد أشد أنصار تغيير نظام الحكم في العراق الموجودين في واشنطن. حث بيرل فروم من منزله الذي كان يقضي فيه إجازته، في جنوب فرنسة قائلاً: «مهما يقول الرئيس، عليه أن يوضح أنه يعدّ المسؤول عما حدث ليس الإرهابيين فحسب؛ وإنما كل من يؤوي هؤلاء الإرهابيين». وفي تلك الليلة، في خطاب متلفز ألقاه من البيت الأبيض، عمل بوش بنصيحة بيرل حرفياً ومن ثم أسهب قائلاً: «إن بقية العالم إما أن يكون مع أمريكة أو مع الإرهابيين. وفي اليوم الذي أعقب الهجمات، حسب ريتشارد كلارك، أمر بوش فريقه المختص بمكافحة الإرهاب معرفة: هل من الممكن وجود أي صلة للعراق؟». انظروا إن كان لصدام علاقة بما حدث، أو كانت له صلة بأي شكل من الأشكال».

ردّ كلارك قائلاً: «ولكن، سيدي الرئيس، إن القاعدة هي التي فعلت هذا». قال بوش: «أعرف، أعرف ولكن ... انظر إذا كان صدام متورطاً. فقط انظر. أريد معرفة أي ذرة معلومات».

بعد مرور ثلاثة أيام، في اجتماع أزمات في كامب ديفيد، ظل وولفوفيتز يتطرق إلى العراق بأنه أهم هدف للرد الأمريكي الأولي، إلى أن أسكته الرئيس في النهاية. ستكون أفغانستان أولاً، ولكن فكرة ضرب العراق كانت موضع أخذ وردّ، ولم يكن بوش غير متقبل للفكرة، وعلى أي حال، فقد حصل وولفوفيتز على قدر وافر من الوقت للإعراب عن رأيه علناً، مما سبب امتعاضاً لوزير الخارجية كولن باول. في 17 سبتمبر/ أيلول، بعد ستة أيام من الهجمات، قال بوش لمجلسه الحربي: «أعتقد أن العراق كان متورطاً».

قال روبرت كاغان: «هذا ما أعتقده إلى أن أقتنع بخلافه. قد يكون بول هو الذي طرح الفكرة، ولكن كان بوش منذ البداية يفكر بشأن العراق. أعتقد أن العراق كان يشغل دماغ بوش. كيف يقوم بول الذي هو نائب وزير دفاع، ولا ينسجم مع وزير الدفاع، ولا يجتمع على انفراد مع الرئيس سوى مدة لا تكاد تذكر، بمحاربة عملاق مثل باول، أظن أنه كان الشخص الذي يلي الرئيس من حيث قوة التأثير. وهذا ما كان الرئيس يريد فعله».

وافق ريتشارد بيرل، صديق وولفوفيتز مدة تتجاوز ثلاثة عقود. قال: إن أنصار تغيير النظام في العراق لغاية 11 سبتمبر/ أيلول غير قادرين على كسب التأييد داخل الإدارة. «لقد كان ليوم 11 سبتمبر/ أيلول تأثير عميق في تفكير الرئيس، أكثر من الحجج أو المواقف التي كنت أتمسك بها أنا أو بول، أو أي شخص آخر قبل ذلك. لقد بدأ العالم في 9/11 ولم يكن هنالك تفكير في هذا الأمر من قبل. ولكن كانت هناك، في المستويات العليا من موظفي الأمن القومي، مجموعة من الناس ذوي التاريخ الفكري الواضح، الذين يستطيعون إعطاء أهواء الرئيس الجديدة إستراتيجية ومذهباً ونظرة عالمية. وقد حذر بيرل، أسوة بكاغان، من نشر أعداد كبيرة جدًّا من الأوراق في مجلات غامضة، تعالج السياسة الخارجية. إن ما كان يهم هو من يتولى زمام مناصب السلطة. قال لي بيرل في عصر يوم من فصل الشتاء، في حجرة جلوس منزله الواسع في ضواحي واشنطن: «الناس مهمون، والأفكار مهمة فيما يتعلق بالناس. ولكن الأفكار ذاتها، دعنا نوضحها على النحو الآتي: لو أن (بوش) كان قد زود إدارته

بمجموعة من الناس من اختيار برنت سكوكروفت (Brent Scowcroft) وجيم بيكر، وهو أمر كان يمكن أن يحدث، لكان الأمر مختلفاً عندئذ؛ لأنهما لم يكونا سيدخلان في أذهان تلك المجموعة الأفكار التي أدخلها الأشخاص الذين انتهى بهم المطاف في مناصب مهمة. فالأفكار لا تكون مهمة إلا عندما تستقر في أذهان الناس الضالعين مباشرة في عملية صنع القرار».

كان تشيني ورامسفيلد الشخصيتين الرئيستين اللتين عيّنهما بوش. ولم يجلب أي من الرجلين تفكيراً أصلياً استثنائياً لمناقشة دور أمريكة في العالم بعد 11 سبتمبر/أيلول، وكان نفوذهما يكمن في المنصب وقوة الشخصية. رامسفيلد، الذي كان وزير دفاع جيرالد فورد، كان رجل أعمال مدة تناهز ربع قرن، وكان أكبر اهتماماته عند عودته إلى الحكومة هو الدفاع الصاروخي، وبشكل أعم، تحويل المؤسسة العسكرية إلى قوة قتالية عالية التقانة. كان مقاتلاً بيروقراطياً متفوقاً، ولكن إذا كانت لديه أي آراء يؤخذ بها في مجال السياسة الخارجية، فقد احتفظ بها لنفسه. في أثناء حرب أفغانستان التي أعقبت 11 سبتمبر/أيلول، أصبح أكثر وجوه الإدارة ظهوراً، حيث كان يتولى شؤون الصحافة بقدر كبير من التباهي، وعندما سقطت طالبان بطريقة أسرع وأسهل مما توقع الخبراء، أصبح رامسفيلد العبقري الإستراتيجي الذي لا يجرؤ أحد على الشك فيه. ولكن عاقبة تلك الحرب قدمت مفتاحاً لتفكير الإدارة بشأن عراق ما بعد الحرب: كان الالتزام الأمريكي بتأمين وإعادة بناء أفغانستان واهياً للغاية لدرجة أن حكومة حميد كرزاي لم تكن تسيطر إلا على القليل من الأراضي خارج كابول.

في ديسمبر/ كانون الأول 2003، قال لي جوزف بيدن (Biden)، الديمقراطي من ديلاوير الذي رأس لجنة العلاقات الخارجية في عام 2002، «كان رهاني منذ أول يوم -وآمل أن أكون مخطئاً- هو أن العنصر المسيطر لهذه الإدارة سيكون الواقعيين الجديدين، تشيني ورامسفيلد، اللذين لم يعودا ملتزمين ببناء الأمة أكثر من التزام هذه الطاولة بالذهاب إلى المنزل معي في جيبي الخلفي. ومن ثم، فأنا أنظر إلى أفغانستان بوصفها أنموذجاً. إنها اللوحة التي يرسم عليها مستقبل العراق». لم يكن أحد في المستويات العليا من الإدارة أقل اهتماماً بمستقبل العراق من دونالد رامسفيلد. ومع ذلك، فقد طلب تولي شؤون العراق ما بعد الحرب وحصل عليها، وعهد بها إلى معاونيه الأكثر حماساً عقدياً، الذين وضع فيهم ثقةً عمياء، كالتي أعطاها الرئيس لرامسفيلد.

كان تشـيـني هو لغز الإدارة الكبير، فلم يكن لدى أحد رؤية أشد غموضاً وتمسكاً بنظرية هوبز[1] إزاء الشؤون الدولية باستثناء رامسفيلد. ولكنه كان يتمتع بموهبة الاحتفاظ بأفكاره لنفســه، ولكونــه وزير دفاع بوش الابن، بــدا علناً على الأقل، أنه يتمســك بآراء الجمهوريين المعتدلة نفســها، أســوة برئيســه. وعلى عكس وولفوفيتز، لم يســاوره قط أي شــك في حكمة الكيفيــة التي انتهــت إليها حرب الخليج. قــال كنيث آدلمــان (Kenneth Adelman)، زميل تشــيني وصديقه القديم، الذي عرّفه برامســفيلد لوولفوفيتز «لم يُعد تشيني النظر في ترك صَـدّام في منصــبه في عام 1991. فقد كان ذلك يضايق بول وليس ديك». وأضاف آدلمان أن تشيني لم يكن ينخرط على نحو خاص في مناقشات السياسة الخارجية في التسعينيات. فقد انتقد تشــيني انتقاداً حاداً التدخلات التي تمت في ســنوات حكم كلينتــون، وفيما عدا ذلك كان منهمكاً في تسيير أعمال الخدمات النفطية لشركة هاليبرتون العملاقة في دالاس، حيث دعا، لأســباب جشــعة واضــحة، إلى رفع العقوبات عن إيران. ولم يظهر اسمه قط في رسالة مشروع القرن الأمريكي الجديد.

وعندمــا عاد تشــيني إلى الســلطة ليشــغل منصــب نائــب الرئيس، لم يكــن العراق من الموضــوعات ذات الأولوية على جدول أعماله في الشــهور الأولى من عام 2001، كما لم يكن نشر الديمقراطية حول العالم مدرجاً في جدول أعماله. ولكن يوم 11 سبتمبر/ أيلول تأكّدت لتشــيني نظرته الرئيســة حول طبيعة العالم. وقد حملت خطاباتــه، بعد الهجمات الإرهابية شــعوراً بالارتياح لوجود عدو عالمي من الحجم نفســه: الشــيوعية أخيراً. وقد وضــع توجيه التخطيط الدفاعي لعام 1992 الذي كتبه مســاعدو تشــيني الســابقون، الذين عادوا جميعاً للعمل في إدارة بوش الجديدة، الإطار لسياســة خارجية لما بعد 11 ســبتمبر/ أيلول قبل عقد من الزمن. وقد خرج تشــيني الآن عن غموضــه الذي خلقه لنفســه، وظهر أنه الأب الروحي لتلك السياسة، وأنه أشد المتشددين بشأن العراق. على الرغم من أنه لم يقحم الأمة قط في تغييره لتفكيره، فقد عكس موقفه بشأن نهاية حرب الخليج، وقال رتشارد بيرل عن تشيني: «كان يوم 11 ســبتمبر/ أيلول نقطة تحول بخصــوص تحمل خطر ترك صَدّام وشأنه. ولست

(1) تقول نظرية الفيلســوف الإنكليزي هوبز: إن للناس حقًّا رئيســاً في الحفاظ على الذات، والسعي لتحقيق غايــات ذاتيــة، ولكنهم يتخلون عــن هذه الحقوق لحاكم مطلق من أجل مصــلحة الســلامة والســعادة المشتركتين (المترجم).

متأكداً من المسـافة الفاصـلة بين عربة الديمقراطية هذه والقطـار الذي يجرها». ومنذ أن وضع تشيني (صَدّاماً) والعراق نصب عينيه، لم يغض الطرف عنهما قط.

أسـوة برامسـفيلد، أحاط تشـيني نفسه بواضـعي نظريات مسـاعدين له. لكن بخلاف رامسـفيلد، أبـدى بعد 11 سـبتمبر/ أيلول اهتماماً جديـاً بما كانوا يفكـرون فيه، فقد دعا مفكرين إلى البيت الأبيض للحديث عن مسـتقبل العالم العربي الإسلامي. وأبدى استمتاعاً بالإسـتراتيجية الكبرى (دون أن يتخلى عن مقته لتفاصـيل إعادة الإعمار بعد الحرب التي غرق فيها كلينتون). ومع ذلك، ظل دوره في صياغة السياسات مضللاً لكل من التقاه تقريباً. وقـد قال مسـؤول رفيع المسـتوى كان يتعامل أحياناً مع تشـيني وموظفيـه: «لم أرَ في حياتي شخصـاً مثله. كان يأتي إلى الاجتماعات، ويجلس فيها، ولا ينبس ببنت شـفة، أو أنه يسـأل سؤالاً أو سؤالين جيدين حقًّا، لم يكونوا يظهرون موقفهم أو وجهة نظرهم، إلا من حين لآخر عندما تضـايقهم باستمرار بخصوص شـيء مثل تايوان، ولكنهم غالباً ما يموّهونه بطريقة رائعة. وبعد أربع وعشرين ساعة، أو ثمانٍ وأربعين ساعة، أو ست وتسعين ساعة، نعتقد أنهم قد اتخذوا قراراً، وفجأة يتم تنفيذ سياسة تناقض ذلك القرار بمئة وثمانين درجة».

إلى أن توقفـت الدعـوات الموجهـة إلى بايـدن للبيت الأبيض بخصـوص حشـد ما يلزم للحرب مع العراق، كان رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ يجتمع مع الرئيس في المكتب البيضـاوي، وكان بوش يصغي إليه ويهز رأسه، متظاهراً بأنه مقتنع بحجج بايدن من أجل إرسال مزيد من القوات إلى أفغانستان، أو تخصيص مزيد من الأموال لتأمين مواد نووية روسـية، بينما كان تشيني يجلس صامتاً وبلا حراك، «وكأنه ضفدع أمريكي كبير على لوح خشبي». وفجأة، كان نائب الرئيس يفتح فمه وينقّ قائلاً: «كلا، سيدي الرئيس، هذا ليس صـحيحاً». وسـرعان ما ينتهي الاجتماع ويدرك بايدن أن حججه قد ذهبـت أدراج الرياح. وقـد اعـترف بايدن، قائلاً: «لم أحسـن تقدير قوة تشـيني». لم تأتِ قوته فقـط من اعتماد رئيس جديد على نائبه الذي يفوقه خبرة، وإنما من شخصـية تشـيني. كان لتشيني ما دعاه ليزلي غيلب، الرئيس السـابق لمجلس العلاقات الخارجية، «حضـوراً قوياً على الطاولة. فهو ثاقـب الرأي، سـريع التفكير، ومجادل جيد، أفضـل من رأيت حتى الآن. وهو أفضـل كثيراً مـن الديمقراطيـين». وقال غيلب: إن تشـيني وغيره مـن كبار المسـؤولين في إدارة بوش هم

«أشد قسـوة كثيراً» مقارنة بالديمقراطيين. إنهم يرعبون الديمقراطيين ومؤسسة السياسة الخارجية، بالطريقة نفسـها التي مارسـتها «لجنة الخطر الحالي» في أواخر السـبعينيات، وذلك بالحديث عن تهديدات. «إن قسـوة تشـيني جعلت منه نصـيراً حزبيـاً رائعاً. لم يكن يريد الفوز فقط، وإنما كان يريد تدمير المعارضة أيضاً».

إذا كان تشـيني ورامسـفيلد البيروقراطيـين مـن الـوزن الثقيـل، فقـد كان وولفوفيتز العقـل المفكـر الرائـد لسياسـة ما بعـد 11 سـبتمبر/ أيلـول. ففي الأسـابيع التـي أعقبت الهجمـات الإرهابية، حدث تقارب مثير للدهشـة بـين الرئيس النفطي السـابق، الذي كان السـيد المسـيح فيلسـوفه المفضـل، الذي كان يمكن أن يسـخر من سـجله الأكاديمي الذي لم يكـن جيـداً، حيـث لم يكـن يهمّـه لمجرد أنـه من عائلـة بوش، وبـين نائب وزيـر الدفاع اللامـع في إدارتـه، وهو يهودي علماني حائز على شـهادة البكالوريوس مـن جامعة كورنل، وشـهادة الماجستير في العلوم السياسـية من جامعة شـيكاغو، وكان متأثراً بألبرت وولزتتر (Albert Wohlstetter)، وليـو شـتراوس (Leo Strauss) وآلان بلـوم (Allan Bloom). كان بوشـ ووولفوفيتـز -أصـبحا متحرريـن الآن مـن السـلطة الخانقـة لبوشـ الأب- ينظـران إلى العـالم بالطريقة نفسـها. وكانـا يعتقدان بوجود الشـر، وكانـت لديهما أفكار مسـيحية بخصـوص ما ينبغي لأمريكة القيام به حيال ذلك الشر. وقد قال بوش الابن ذات مرة عن صَدّام: «لقد حاول قتل والدي»، ولكن فيما يخص العراق، كان بوش هو الذي اغتنم الفرصة للتخلص من عبء أوديبوس؛ ليثبت أنه سيد نفسه، وأنه أقدر من والده على التعامل مع عدو قديم.

في يناير/كانـون الثـاني 2002، في أول خطاب له عن حالة الاتحاد، وضـع بوش علامة للسـنة القادمة: فقد أعلن أن العراق ينتمي إلى «محور الشـر». وفي شـهر فبراير/شباط، أصـدر أمـراً إلى الجنرال طومـي فرانكس من القيـادة المركزية بالبـدء في نقل قوات من أفغانسـتان إلى الخليج. وفي مارس/آذار، قاطع اجتماعاً بين كوندوليزا رايس مستشـارته لشـؤون الأمـن القومي، وثلاثة من أعضـاء مجلس الشـيوخ، قـال الرئيس: «تبّاً لصَـدّام. سـنتخلص منـه». وبحلول أوائل ربيع عام 2002، قبل سـنة كاملة من الغـزو، كانت الإدارة تتجه إلى الحرب بعناد.

طوال فصــل الربيع، بدأ ريتشارد هاس (Richard Haass) مدير تخطيط السياسات في وزارة الخارجية يســمع مزيداً من «حديث البيروقراطيين» عـن حرب، ولكنه لم يأخذه على محمل الجد، إلى أن ذهب في شـهر يونيو/حزيران لرؤية كوندوليزا رايس في البيت الأبيض من أجل اجتماعهما المعتاد حول القضـايا الرئيســة في السياســة الخارجية. عندما أتيا إلى موضـوع العراق، بدأ هاس يقدم لوزارة الخارجية أسـباب شكوكه بخصوص حرب. قاطعته رايسـ قائلة: «وفّر كلامك لنفسـك. فقد اتخـذ الرئيس قراره بالفعـل». كانت تلك مفاجأة لهاس. بإمكان كل شـخص في المناصب العليا للإدارة أن يسرد حجج كلا الطرفين عن ظهر قلب؛ ولكن السـؤال هو كيف يقومها؟. وقد تم وضـع السياسة الآن دون إجراء أي تقويم لها. قـال هاسـ: «لقد كان ذلك تراكماً. كان نقطة تحوّل. لم يتم اتخاذ قرار، وإنما حدث قرار، ولا يمكنـك أن تحدّد متى أو كيف حدث؟».

حـين اجتمعنا لتنـاول القهوة، لم يكن مكية على علم بهذا بعـد. ولكن كان هناك حديث غير مؤكد. كان قد تحدث قبل لحظات في مؤتمر في جامعة برانديس حول العالم الإسـلامي والغرب بعد 11 سبتمبر/ أيلول. وقد طرح مكية في المؤتمر إمكانية تغيير النظام في العراق، غير أن المشاركين الآخرين أخبروه بأن الحديث في هذا الموضوع خارج الحدود. وكان التوافق بين المفكرين «التقدميين» قد تحدد أيضاً: من غير المسموح التطرق للحرب مع العراق. وقال مكية بطريقته الدمثة المضـطربة: «لن يسـمحوا لي بالحديث عن الموضـوع». وقد حيّره هذا الموقف بدلاً من إغاظته. لقد بدا مقطوع النفَس بعض الشيء، وكأنه كان يكبت انفعاله. كان هناك شـيء ما يحدث. كان الحلم الوحيد الذي سعى لتحقيقه سنوات عديدة في كامبريدج يلتقـي فجـأة مع التاريـخ، لا تتكرر هذه الفرص كثـيراً في الحياة، وكان مكية مصـمماً على تحقيق أقصى استفادة من هذه الفرصة. كان على اتصال بالفعل مع أعضاء في الإدارة، في مكتب نائب الرئيس والبنتاغون. كانوا يتقبلون حديثه عن الديمقراطية في العراق.

لماذا قامت الولايات المتحدة بغزو العراق؟ لا يزال من غير الممكن التأكد، ويبقى هذا أكثر شـيء لافتاً للأنظار بشـأن حرب العراق. قال ريتشـارد هاس: إنه سوف يذهب إلى قبره دون معرفة الإجابة. لقد كان ذلك شيئاً أراد بعض الناس القيام به. قبل الغزو، لم يكن الأمريكيون يجادلـون فقـط حول: هل ينبغي حـدوث حرب؟، وإنما حول الأسـباب التـي ينبغي أن تحدث

لأجلها؛ ما هي الدوافع الحقيقية لإدارة بوش، وما ينبغي أن تكون؟. منذ الغزو ونحن نتجادل، وسوف نستمر في الجدال سنوات قادمة. إن العراق هو راشومون الحروب.

للإجابة صلة بالحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. ولكن ما هذه الصلة على وجه التحديد؟

بدأ النقاش حول العراق، بينما كانت جراح الهجمات الإرهابية لا تزال تنزف، مروراً بشتاء عام 2002، وحتى الربيع، بينما كانت طواقم الحفريات تعمل على مدار الساعة طوال اليوم في رفع ركام المباني المفجرة، شاركت في محادثات لا نهاية لها تناولت كيف تغير العالم، وكيف لم يتغير؟. بعد سنوات من السياسة الحزبية التافهة والمريرة، أعاد 11 سبتمبر/ أيلول فتح أسئلة كبيرة على نحو مربك وتحرري على السواء. وكان أحد الردود الطبيعية هو الانكفاء في مواقف مألوفة، وقد فعل أناس كثيرون هذا في أمريكة. ولكن الأوقات الاستثنائية تقتضي تفكيراً جديداً. لقد بدأ للتو البحث عن بوصلة لتلك الحقبة، وكنت منجذباً لأولئك الذين يفكرون بجرأة وجسارة.

كان أحد هؤلاء هو الكاتب بول بيرمان (Paul Berman) الذي كان يعدّ نظرية حول ما يسمى الآن «الحرب على الإرهاب». كان بعض تفكيره يجري بصوتٍ عالٍ عند منتصف الليل، في أثناء تناول الطعام والشراب في مطعم صغير في حي بروكلن، حيث كنا نعيش نحن الاثنين. كان بيرمان، وهو في أوائل الخمسينيات من عمره، يعيش وحيداً في شقة قريبة تغص بأعداد قديمة من مجلة Anarcho Syndicalist Review، ومجلدات أصلية من الأدب الفرنسي والفلسفة. كان يقطن فوق بقالية فلسطينية تبعد مسافة قصيرة عن أتلانتك آفينو، حيث توجد جالية شرق أوسطية راسخة، وفيها محال سورية لبيع التحف القديمة، ومطاعم يمنية، ومكتبات تحوي كتباً في الأدب العربي، بما في ذلك أعمال بعض كبار المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين. وبعد 11 سبتمبر/أيلول، بحث بيرمان في مكتبات الحي، وبدأ يقرأ مؤلفات سيد قطب، زعيم الإخوان المسلمين المصريين الذي أعدمه عبد الناصر شنقاً في عام 1966. ألهمت كتابات سيد قطب عن الإسلام والغرب والجهاد العالمي غيره من المفكرين الإسلاميين، كالفلسطيني عبدالله عزام الذي ألهم بدوره أسامة بن لادن. (في أواخر الثمانينيات، كان المقرّ الرئيس للمنظمة السلفية للقاعدة، مكتب

الخدمة الأفغانية، يشغل مخزناً في 566 أتلانتك آفينو، بجوار متجر مغربي لبيع الأقمشة؛ كما كانت هناك أيضاً مساجد راديكالية على أتلانتك آفينو تتبع الشيخ المصري الضرير عمر عبد الرحمن، الزعيم الروحي للجهاد على نطاق العالم، الذي أدين في عام 1995 بتهمة التآمر لنسف جسور نيويورك وأنفاقها، إلى أن تم إغلاقها بعد 11 سبتمبر/ أيلول).

أكّدت أفكار سيد قطب النظرية التي بدأ بيرمان بتطويرها، ومفادها: إن الشبان العرب الذين قادوا تلك الطائرات الأربع إلى موت رؤيوي لم يكونوا نتاج عالم آخر، ولم يكن ما دفعهم لذلك التقاليد الإسلامية، أو فقر العالم الثالث، أو صِدَام الحضارات، أو الإمبريالية الغربية. لقد كانوا عصريين وكانت الأيديولوجية التي تمسكوا بها هم وملايين غيرهم عبر العالم الإسلامي من نتاج العالم الحديث، أو الغرب في واقع الأمر، إنه الخيال الجامح للقوة الثورية والمذابح الجماعية التي دفعت الألمان والإيطاليين والإسبان والروس (وملايين غيرهم عبر العالم) في القرن الماضي إلى أعمال مماثلة من الموت الرؤيوي. كان لهذه الإلديولوجية اسم: الاستبدادية. وكان كبار مفسّريها هم أورويل (Orwell)، وكامو (Camus)، وكويستلر (Koestler)، وآرندت (Arendt)، وسولجنستن (Solghenitsyn). كان مزاجها قد انكسر بحلول عام 1989، أما في العالم الإسلامي، الذي تخلّفت فيه الحداثة أجيالاً متعاقبة، فقد كان المرض ينتشر. كان بيرمان يقول: إن الحركة الإسلامية هي حركة ينبغي أن يكون الغربيون قادرين على إدراكها، إلا إذا أعمى أبصارهم الإيمان بالعقلانية التي لا ينبههم لوجودها سوى حادثة بحجم 11 سبتمبر/ أيلول. وحتى في ذلك الوقت، يبقى الدافع لعدم الرؤية هو الغالب.

إن الاستبدادية هي ثورة ضد الليبرالية. والإجابة عنها هي الليبرالية، أي الأفكار الليبرالية (لم يكف بيرمان قط عن الحديث عن حرب الأفكار)، ولكن أيضاً الليبرالية المسلحة، ليبرالية دون حلم بالفردوس. كان بيرمان من جيل عام 1968، وكان لا يزال يتحدث بولع عن رفاقه في الحركة النقابية الفوضوية الصغيرة. ولكن بحلول عام 1989، عقد صلحاً مع الليبراليين، وأصبحت سياسته قريبة من سياسة بعض الليبراليين في أثناء السنوات الأولى من الحرب الباردة، ألا وهي مناهضة الاستبدادية ومناصرة الديمقراطية. وفي العقد الذي خلف ثورات 1989، قلّ وضوح هذه السياسة بعض الشيء. كانت الكوارث

الإنسانية في إفريقية، والمناوشات في مناطق حظر الطيران فوق شمال العراق وجنوبه، كلها أشياء يصعب فهمها من منطلق حركة التاريخ الهيغلية[1] (Hegelian) إزاء حرية الإنسان. حتى حروب الفاشية الصربية كانت تبدو هزات ارتدادية، تتجه من آخر مكان في أوروبة، ولم تتلقَّ الأنباء من الخارج. بعد 11 سبتمبر/ أيلول، وجد بيرمان (وسواه من بين الليبراليين واليساريين واليمينيين) طريقه للعودة إلى القرن العشرين، عصر الأيديولوجية وما أحدثته من إثارة فكرية هائلة. وفجأة، عادت الحياة إلى جميع كتب التاريخ الحديث، والسياسة التي تعج بها شقة بيرمان بالإضافة إلى الكتب الجديدة التي ألفها أمثال سيد قطب.

لقد انكب بيرمان على مشروعه بضراوة. لا بد أنه قضى أسابيع طويلة لم يخرج فيها من شقته. لقد سمى مشروعه «واجباً حربياً»، لم لا، وقد أصبحت نيويورك خطاً أمامياً؟. اعتقد بيرمان اعتقاداً راسخاً أن من واجب المفكرين رأب الصدع الذي أصاب للتونسيج عالمنا. في رأيه، تكمن الإجابة في الأدبيات والفلسفة بالقدر نفسه من السياسة فضلاً عن الخطط. ذات ليلة، لدى مغادرته موقعه مدة طويلة بما فيه الكفاية للمشاركة في وجبة متأخرة في أحد المطاعم الصغيرة، أعلن قائلاً: إذ وجدت نصاً أصلياً!» كان من تأليف كامو المتمرد (The Rebel)، مع عنوان ثانوي قصة قصيرة حول رجل ثائر (An Essay on Man in Revolt). لم يكن الإرهاب العدمي بالشيء الجديد؛ لقد عاد الخاطفون إلى الثورة الفرنسية، فقد كتب كامو «هنا، القتل والانتحار جانبان من النظام نفسه»، ومن ثم أعطى بيرمان عبارة توحي بالفكرة العامة للكتاب، كانت نوعية محادثته في تلك الليالي مملة، ومع ذلك مثيرة بلا جدال، تحت وطأة وسواس مسوغ. كان الارتعاش بادياً عليه تقريباً نتيجة اكتشافاته، على الرغم من أن العمل كان شاقاً ومثبطاً للعزيمة، وكان بيرمان شخصاً مولعاً بتقويم الذات الصارم، كان يطلب شطيرة اللحم والجبن والنبيذ الأحمر (كانت جميع النادلات يعرفنه) وكان ينقر بإصبعه على الطاولة لحناً لا يسمعه إلا هو (كان يعزف فيولا الجاز)، أو كان يهز الإصبع نفسها في الهواء على سبيل التوكيد، وكان يبدأ سرداً لروايات فكتور هوغو، وتفجيرات العدميين الروس في أواخر القرن التاسع عشر، التي قد توصلنا، على المنحنى العنيد لتفكير بيرمان، إلى أحدث الهجمات الانتحارية في القدس، وآخر بلاغ ألقاه ابن

(1) الهيغلية هي فلسفة هيغل التي تضع الحقيقة النهائية في الأفكار بدلاً من الأشياء، وتستخدم الجدلية لفهم فكرة مطلقة خلف الظاهرة (المترجم).

لادن من جبال كوش الهندوسية. وكنت أستمع إليه وأطرح من حين لآخر سؤالاً مشككاً، وأنا معجب بتفانيه في مشروعه (من سواه كان يحاول حقًّا حل هذا الشيء؟)، وكنت متعاطفاً في أغلب الأحيان، لكنني كنت قلقاً أيضاً بشأن نزعة بيرمان إزاء الحركات الفكرية الكاسحة المزيلة للتمييز. فما علاقة نظريته مثلاً بالعراق؟

لم يكن من الصعب رؤية أن حزب البعث العربي الاشتراكي في بغداد كان استبدادياً، وقد أوضح مكية هذا في كتابه جمهورية الخوف، وكان النظام يمسك بزمام السلطة عبر عبادة الزعيم، ونشر الرعب عبر أعمال العنف التي لا تنتهي ضد مواطنيه، ووكالات الأمن المتشابكة الموجودة في كل مكان، والحروب العدوانية المتواصلة، ومناخ التفكير التآمري وجنون الاضطهاد إزاء الأعداء الصهاينة والإمبرياليين. يبدو أن (صَدّاماً) قد شكل نظام حكمه على غرار كتاب أورويل (Orwell) بعنوان 1984، مئة بالمئة حتى شارب الأخ الكبير (Big Brother's Mustache). كان بطله هو ستآتين، الذي كان صدام يشبهه أكثر من أي دكتاتور آخر في العالم. كان ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث في دمشق في أوائل الأربعينيات، (الذي يوجد قبره في بغداد)، متأثراً تأثراً عميقاً بأيديولوجية النازية. ولكن البعثية -أسوة بأسلافها الأوروبيين- كانت علمانية بالاسم فقط. فقد كانت مناوئة لأنظمة الحكم والإيديولوجيات الإسلامية. وكانت علائم التفسخ والانحلال بادية عليها. وقد ولت أيام قدرتها على تحريك جماهير الشعب إلى حالات مسعورة من الحقد والعنف. إذن، ما سبب خوض حرب ضد العراق من أجل محاربة القاعدة؟

أجاب بيرمان بالقول: لأن البعثية أحد «الأنظمة الاستبدادية المسلمة»، أما القاعدة فهي إسلامية، والحرب ضد الإرهاب ليست مجرد عمل بوليسي أو حملة عسكرية. كانت، «حرباً فكرية»، أسوة بالحرب ضد الفاشية والحرب الباردة. كان النصر يتطلب أن يتخلى ملايين الناس عبر العالم الإسلامي عن الأفكار السياسية الفتاكة. وسيكون ذلك عملاً طويلاً، شاقاً ومعقداً. ولكن من شأن الإطاحة بصدام وإقامة ديمقراطية عراقية تكون رأس جسر إلى الشرق الأوسط توضح أن الولايات المتحدة تقف إلى جانب العرب ليبراليي التفكير مثل كنعان مكية وضد الاستبداديين وأفكارهم. ومن شأن تغيير نظام الحكم أن يوضح أننا أيضاً، قادرون على المحاربة من أجل فكرة الحرية، فقد كان استعداد الديمقراطية

الليبرالية للدفاع عن نفسـها والمحاربة من أجل مبادئها دائماً موضـع شـك. كان ألكسـيس دي توكفيل (Alexis de Toqueville) قلقاً بشـأنها؛ كما استهزأ بها هتلر وموسوليني: وهذا ما فعله ابن لادن مؤخراً. ولكن أكبر توكيد لهذا الاسـتعداد قدمه لنكولن في غتشـبرغ، حيث أقسم إن أمة (ليست أمته هو فقط، أي أمة) «تؤمن بالحرية وتكرس نفسها للفكرة القائلة: إن جميع الناس قد خلقوا متساوين» يمكن أن تدوم طويلاً.

لم يكـن هذا نـوع التفكير الـذي يجعل المرء متحمسـاً للانضـمام إلى مجلس العلاقات الخارجية. لم يكن بيرمان مهتمّاً على نحو خاص بالإسـتراتيجية العسـكرية، أو بالقضـايا المتعلقة بالسياسـات. وكان مـن المرجح العثور على إجابات لما حدث في 11 سـبتمبر / أيلول في كتابات دستويفسـكي وكامو، وكذلك في مؤسسـة بروكينغ أو في صـفحات مجلة Foreign Affairs (الشـؤون الخارجيـة). وكان يرد بشـكل عميق على الحدث (كانـت أحاديثنا حتى وقـت متأخر مـن الليل تعود وتتطرق إلى حجم الدمار على ضـفة نهر الشـرق، وإلى الدليل المروّع على طموح الإسلاميين) وكذلك على ارتفاع شاهق من التعابير المجردة، حيث تصبح التفاصيل مجرد ذرات.

كانت مدة السـنة ونصـف السـنة الفاصـلة بين الهجمات الإرهابية وغزو العراق مليئة بأفكار عدائية كبيرة. أسوة بالثورات الليبرالية في عام 1848، أو الثورة البلشفية عام 1917، أو الربيع اليوطوبي في عام 1968، فقد أعطت أحداث 11 أيلول/سبتمبر المفكرين السياسيين الكثـير من العمل. طوال عام 2002، بينما كانت إدارة بوشـ تنتهج طريق المواجهة الحتمية مع صَدّام، ظهر في الوقت نفسه، خارج جدران السلطة، صخب من المناظرات بشأن الحرب القادمـة، وطبيعة العدو، ودور أمريكة في العالم. وقـد كانت الآراء حامية الوطيس عبر تنوع مذهل من العقول.

اسـتطاعت بعضـ هذه العقول الوصـول إلى المناصـب العليا في الحكومـة. برنارد لويس (Bernard Lewis)، البريطاني الأصل والأستاذ الفخري البارز في الدراسات الشرق أوسطية في جامعة برنسـتون، الذي قدمه ريتشارد بيرل إلى واشنطن الرسمية في أوائل السبعينيات، أصـبح الدليـل الرئيس لصـقور الإدارة إلى العالم العربي. جنباً إلى جنـب مع فؤاد عجمي، العالم الدمث اللبناني المولد في مدرسـة جون هوبكنز للدراسـات الدولية المتقدمة، التي كان

صـديقه بول وولفوفيتز عميداً لها في أثناء التسـعينيات. في عام 2002، جرى استدعاء لويس وعجمي للاجتماع مع ديك تشيني. أخبرا نائب الرئيس ما يستطيع الجميع قراءته في كتب مثل كتـاب (What Went Wrong?) (أيـن كان الإخفاق؟) من تأليـف لويس وكتاب The Dream Palace of the Arab (قصر أحلام العرب) من تأليف العجمي. إن العالم العربي والإسلامي الذي كان عظيماً ذات يوم هو رجل مريض، مصاب بدكتاتوريات فاسدة، وشعوب مضطهدة، وإيديولوجيـات متطرفة، ونظريات مؤامرات مذعورة، وتخلف ثقافي واقتصـادي. ظلت هذه الحضـارة عقوداً، بل قروناً من الزمن تتخلف، بينما تقدّم الغرب وبقية العالم نحو الحداثة. وكان هذا الانهيار مصدر إذلال وغضب لملايين من العرب والمسلمين غير العرب. في السنوات الأخـيرة، أنتج المرض تهديداً امتد أبعد من حدود المنطقة. وقد سـاعد النفوذ الأمريكي في إبقاء العالم العربي في حالة من الانحدار، وذلك بدعم أنظمة الحكم الاستبدادية المتصلبة؛ ولا يمكن عكس مؤشـر هذا الانحـدار إلا إذا قطعت أمريكة صـلتها بتاريخها في المنطقة؛ إذ ليـس بمقدور العرب إنقاذ أنفسـهم مـن ورطتهم التاريخيـة، وإنما هم بحاجة إلى صـدمة أجنبية عنيفة لتهزهم. ومن شأن الإطاحة بنظام الحكم العراقي أن يقدّم هذه الصدمة.

كتب عجمي في أوائل عام 2003 يقول: «إضـافة إلى الإطاحة بنظام حكم صَـدّام حسين وتفكيك أسـلحته الفتاكـة، يجب أن يكون الباعث المحرك لمسـعى أمريكي جديد في العراق، وفي الأراضـي العربية المجاورة، هو تحديث العالم العربي». ينبغي صرف النظر عن الضجة التـي لا مفر منها من جانب العرب وعدها «غضـب شـارع» لعـالم عربي محبط من «الحالة الفطرية لثقافة ما زال عليها أن تتحمل المسؤولية الكاملة عن الجراح التي أنزلتها بنفسها». كان عجمي الذي يستخدم في كتاباته الإيقاعات القديمة ومفردات من يتوق للماضي، يقترح مشـروعاً أمريكياً بحجم المهمة الاسـتعمارية البريطانية في الشرق الأوسط: «قيادة مشروع إصـلاحي يسـعى إلى تحديث المشهد العربي وتحويله. وسـيكون العراق نقطة البداية، ويقع وراء العراق تقليد سياسي واقتصادي عربي وثقافة كانت كروبها وإخفاقاتها ظاهرة بقسوة».

كان عجمي ولويس خبيرين مختصّـين بالمنطقة. وقد انضـمّ إليهما في مناصرة الحرب القادمة ضـد العراق مزيج من غير المتخصصـين من كتّاب وصـحفيين وأساتذة وناشطين. بـادئ ذي بـدء، كان هنـاك روبرت كاغـان، الذي كان هو ووليام كريسـتول قـد دعما جون

ماكين مرشحاً «للعظمة القومية» في أثناء انتخابات الجمهوريين الأولية عام 2000؛ وكانت دعوة بوش الابن إلى «التواضع» والمصالح المحددة بشكل ضيّق في السياسة الخارجية تمثل كل شيء جادل كاغان ضده في أثناء التسعينيات. ولكن بعد 11 سبتمبر / أيلول، بدأ بوش يظهر على أنه محافظ جديد، وأصبحت صحيفة The Weekly Standard نصيره الصحفي الأكثر نفوذاً وتأثيراً، حيث كانت تتمتع العلاقة المميزة نفسها التي كانت بين صحيفة New Republic السابقة، وبين وودرو ويلسون عندما زج بأمريكة في الحرب العالمية الأولى. في عام 2002، كتب كاغان وكريستول يحثان على التدخل العسكري في العراق بوصفه جزءاً من إعادة إصرار أمريكة على الزعامة العالمية: «إن فشل الولايات المتحدة بالمجازفة، وتحمل المسؤولية في التسعينيات مهّد الطريق لأحداث 11 سبتمبر / أيلول». ما من شيء أقل من بقاء «الحضارة الليبرالية» نفسها كان يعتمد على عمل أمريكي في العراق.

في صيف عام 2002، كتب كاغان مقالة طويلة سماها «الأمريكيون من كوكب المريخ، والأوربيون من كوكب الزهرة» سرعان ماهربت من الصفحات الغامضة لمجلة Policy Review وأصبحت موضوع نقاش مكثف على جانبي الأطلسي (وقد تم نشر المقالة لاحقاً في كتاب عنوانه «عن الفردوس والقوة» (Of Paradise and Power)). بعد أن كان قد أرسى الكثير من الأعمال التمهيدية الفكرية في التسعينيات للسياسة الخارجية الحازمة للإدارة الأمريكية، وصف كاغان الآن حقبة جديدة افترقت فيها أمريكة وأوروبة. فقد بدأت أوروبة التي أضعفتها حروب القرن العشرين، تسعى إلى التعاون والسلام عبر مؤسسات متعددة الأطراف مثل الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة. أما أمريكة، التي أصبحت في أوج الزعامة العالمية، فهي قوية بما فيه الكفاية؛ لتواجه بمفردها الوحوش في الغابة خارج معسكر الغرب المتمدن. ستستخدم أمريكة القوة؛ لأنها قادرة على ذلك، وينبغي ألا تتوقع مساندة من أوروبة. الزهرة، المريخ؛ كانت، هوبس؛ الفردوس، القوة؛ لم تعد أوروبة وأمريكة تعيشان في العالم ذاته، كما فعلتا في ظل تحالف الحرب الباردة، ويستحسن أن يعترف الجميع بذلك. كانت مقالة كاغان موجزاً فلسفياً لاستقلالية السياسة الخارجية.

كان هناك معهد المشروعات الأمريكي، وهو عبارة عن فريق خبراء استشاري تمتد مجساته عميقاً داخل الإدارة. في حلقات دراسية وفي ورقات، بدأ زملاء المعهد المقيمون في تطوير نظريات كبيرة عن إمبراطورية أمريكية لا تضاهى وغير اعتذارية، وأقوى من

أي إمبراطورية أخرى في التاريخ، تنشر الديمقراطية بالقوة، وتؤمن المصالح القومية عبر تصدير القيم الوطنية، بدءاً بالعراق. أعلنت دانيال بلتكا (Danielle Pletka)، إحدى نواب رئيس معهد المشروعات الأمريكي، والمساعدة السابقة للسيناتور جيسي هلمز (Jesse Helms): «عليك أن تبدأ من مكان ما. هناك دائماً مليون عذر لعدم فعل شيء كهذا». كتبت بلتكا شهادة القوة التي قدمها كاسبار واينبرغر، وزير دفاع ريغان، إلى الكونغرس في أغسطس/ آب 2002، التي تضمنت هذه الكلمات: «يقول الناس: إن الفوضى ستحدث. إنني لا أتفق مع هذا القول، ولكن علي الاعتراف صراحة أن الفوضى ستكون أفضل من صَدَّام».

كان هناك فكتور ديفيز هانسون، وهو مزارع عنب مكافح في وادي كاليفورنية الأوسط، وأستاذ للتقليديات في جامعة ولاية فرسنو. أورد هانسون في كتاباته العلمية نظرية تقول: إن أثينا أصبحت أعظم قوة عسكرية في البحر الأبيض المتوسط؛ لأن جنودها كانوا من مزارعي ومواطني «اليومان» (Yeoman): كانوا يقاتلون على أنهم رجال أحرار من أجل إقامة جمهورية، وليس على أنهم عبيد يقاتلون من أجل طاغية؛ وكانوا يحاربون بتعقل وليس بالخرافات، مما أعطاهم تفوقاً في ميدان المعركة. وقد أصبح هذا التزاوج بين الأيديولوجية الديمقراطية والقوة الإبادية مفتاح نجاح الحضارة الغربية على مدى القرون الآتية، وصولاً إلى الإمبراطورية الأمريكية، بوساطة مهمتنا لإرساء الديمقراطية وقوة أسلحتنا الهائلة. في الأشهر التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول، على صفحات المجلة المحافظة (National Review)، كان تفسير هانسون لأثينا قبل الحقبة التقليدية يجعل منه مؤيداً عنيفاً لاستخدام قوة الولايات المتحدة الساحقة في كل مكان في العالم قد يكون لنا فيه أعداء. استرعت كتاباته انتباه نائب الرئيس تشيني وأكسبت الأستاذ – المزارع الكئيب الميال إلى البلاغة المحرضة على الحرب دعوة للعشاء في البيت الأبيض.

لم يكن حضور أستاذ الآداب اليونانية والرومانية لتناول العشاء مع إدارة بوش أمراً غير اعتيادي. فقد كان عدد من المحافظين الجدد -كان أبرزهم وولفوفيتز وكثيرون غيره في مناصب صنع القرار في إدارة بوش، وسابقاً في إدارة ريغان- من تلاميذ ليو شتراوس أو تلميذه آلان بلوم. هاجر شتراوس من ألمانية في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين وانتهى

بـه المطاف في جامعة شـيكاغو يدرّس أفلاطـون، وزينوفون، ومايمونيدس، ومكيافيللي، وسينوتزا، ونتشه جيلين من الأمريكيين الشبان المسحورين. كان مشروع شتراوس الفكري هو التشكيك في المذهب المادي الراضي وعلمانية الغرب الحديث، وإعادة طلابه للحصول على حكمة أعمق وقراءات عن كثب للأعمال السياسية التقليدية بدءاً باليونانيين. وقد أدّت شـدته البيداغوجية وخيبة أمله بما رآه نسـبية، أو حتى عدمية الفكر الليبرالي إلى تحويل أجيال عديدة من الطلاب الذين سـبق أن اسـتمالتهم اضطرابات سـتينيات وسبعينيات القرن العشرين إلى نوع من التشاؤم الثقافي، إلى أعضاء في طائفة شتراوس.

لقـد صـادفت هذه الطائفة وأنا في السـنة الأولى من دراسـتي في جامعة يـال في أواخر السـبعينيات. في القاعـات التي يدرّس فيها أسـاتذة شتراوسـيون شـبّان، وكان أسـلوبهم الاجتماعـي الصـعب وابتسـاماتهم الغامضـة الباهتة، تعطي المـرء إحساسـاً بوجود هيئة سـرية من الفهم لا يسـمح إلا لقلة مختارة بالانتسـاب إليها. كانوا يدرّسون المواد التقليدية بترجماتهم (صـيغة بلوم لكتاب الجمهوريـة (Republic) لأفلاطون، مثـلاً) لأن العبارات الصحيحة للأفكار الرئيسة كانت تكشف عن معانٍ مستورة- فن الإخفاء الذي كان موضوع كتاب شتراوس لعام 1952 بعنوان (الاضطهاد وفن الكتابة) (Persecution and the Art of Writing). جادل شتراوس بأن المفكرين كتبوا بروح معدة لفئة قليلة، على مستويات مختلفة، تقصـياً غير مقيّد للحقيقة المتاحة لأشـد القراء حكمة، وبحثاً أشد حرصاً ومسؤولية لعامة الناس؛ لأن الفلسـفة خطرة على السلطة، وفي نهاية المطاف، على الفيلسوف نفسه، حسبما اتضـح لسـقراط. أراد شتراوس إنقاذ الفلسـفة من الاعتدال المريح لعصـر التنوير. وأعاد فتح أسـئلة عن الحقيقة والسياسـة والروح التي بدا أنها استقرت بفعل العلوم العقلانية قبل وقت طويل من القرن العشـرين. وفي هذا البلد، تمسّـك أتباع شتراوس المتحمسون بتعاليمه وشـوّهوها، وكانوا يزيلون كل سـخرية في السـعي إلى حملتهم الأمريكية الفاضلة بصلابة، والغريبـة ضـد انزعاج العـالم الحديث وقلقه، الذي لم يكن الفسـاد فيه ليصـل إلى ما هو موجود في الجامعة نفسـها. في جامعة يال، كان هؤلاء الأتباع -وكلهم ذكور تقريباً- يضعون ربطات عنق فراشـية الشكل، وينضمون لنوادٍ تحمل أسـماء توحي بالأرستقراطية ويبرزون عموماً جوّاً من المعرفة الخاصة و«الامتياز».

في عام 1981، استخدم وولفوفيتز، تشارلز فيربانكس، أحد الأساتذة الشتراوسيين في جامعة يال، للعمل مع الكادر المسؤول عن تخطيط السياسات في وزارة الخارجية في إدارة ريغان. وعلى مدى العقدين الآتيين، حين اكتشف الشتراوسيون والجامعة الأمريكية أنهم متنافرون بشكل متزايد، تحوّل الشتراوسيون ونفوذهم إلى واشنطن، وانتشروا في سائر أنحاء أرخبيل المنشورات المحافظة، والجماعات المناصرة، ومجموعات الخبراء الاستشاريين، والمؤسسات. مع الصعود الجمهوري في الكونغرس وانتخاب بوش الابن، أصبح الشتراوسيون (وعلى نحو أعم المحافظون الجدد) الحبل الشوكي الفكري غير المرجح للحزب في السلطة. وقد اقترنت النظرة النخبوية المنتجة في أوروبة للعالم الحديث إلى حدّ ما بالميول السياسية المشرقة الأمريكية بالكامل للرأسمالية الانتصارية والولاء الثقافي، والقومية المغالية في الوطنية، تحت حكم أكثر الرؤساء مناهضة للفكر على الأقل منذ حكم وارن ج. هاوردنغ. أمريكة هي سدوم (Sodom) وهي نور العالم - الأمل الأخير لفكرة الحق الطبيعي القديمة.

لاحظ مارك ليلا (Mark Lilla)، الأستاذ في لجنة جامعة شيكاغو المعنية بالفكر الاجتماعي، حين كان يدرّس شتراوس ذات يوم، قائلاً: «كل غريب يلقي نظرة عاجلة على مجلة من مجلات المحافظين الجدد اليوم يستغرب كيف يمكن لهذه الأفكار الأخروية والرؤيوية بخصوص أمريكة أن توجد في عقل واحد، دون بذل جهد ما نحو المصالحة. ومع هذا، تروق هذه الأفكار للشتراوسيين السياسيين، الذين تنبض قلوبهم بلا انتظام لكل من سوسا[1] Sousa وفاغنر[2] Wagner» وتابع ليلا بطريقة مملة ساخرة: إن مناسبات المحافظين الجدد في واشنطن اتخذت مظهر عرض كرنفالي مهووس، حيث كان بين «مفكري نيويورك الأكبر سناً، وأساتذة في المهجر من جامعات صحيحة سياسياً، والحالمين الاقتصاديين، ومتحمسي تيدي روزفلت، ودعاة التدريس المنزلي، والبروتستانت الإنجيليين، وكاثوليك القداس اللاتيني، والليكوديين، وشخصيات من راديو الصدمات»، شتراوسيون موجودون «يشرحون الصلة المنطقية بين الفلسفة القديمة، وأحدث بيان صحفي صادر عن معهد المشروعات الأمريكي. قد يحتاج الأمر إلى عبقري هزلي، وأرستوفانس[3] أمريكي، للاستحواذ على غرابة هذا العالم الصغير».

(1) (Sousa) هو جون فيليب سوسا، قائد فرقة موسيقية وملحن أمريكي (المترجم).

(2) (Wagner) هو رتشارد فاغنر، ملحن ومؤلف موسيقي ألماني (المترجم).

(3) أرستوفانس هو أكبر شعراء اليونان الهزليين، كان يهجو رجال الدولة والفلاسفة والشعراء والشعب، حتى الآلهة. لهذا حظر حكام أثينا تمثيلها في حياته (المترجم).

في أثناء مقابلة أجراها معه أحد الصحفيين بعد شهر من سقوط بغداد، سخر بول وولفوفيتز، تلميذ شتراوس سابقاً، من فكرة وجود صلة شتراوسية بحرب العراق، وقال: «إنها نتاج أذهان محمومة. ما أعنيه هو أني أخذت منهجين رائعين من ليو شتراوس بصفتي طالب دراسات عليا. ولا أجد الفكرة القائلة: إن لهذا أي صلة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة إلا فكرة مثيرة للضحك».

لا يمكن عد ليو شتراوس، الذي ظلمه أتباعه ونقاده على السواء، الذي ولد في عام 1899 ومات في عام 1973، مسؤولاً عن غزو العراق. فالمحافظون الجدد لا يجتمعون سرّاً بعد ساعات في مبنى وزارة الدفاع، أو في مكاتب مؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات لإمعان النظر في نسخ عليها الكثير من الخطوط التوكيدية من كتاب Natural Right and History (الحق الطبيعي والتاريخ) بحثاً عن توجيه للإطاحة بصدام. ليست هناك مؤامرة شتراوسية. قال ريتشارد بيرل: «الناس في واشنطن لا يقرؤون الكتب».

ولكن المحافظين الجدد، سواء داخل الحكومة أو خارجها، يمتلكون حقًّا عادات ذهنية مشتركة، ذات عواقب بعيدة المدى في العالم الحقيقي. إن هذه الأذهان المحمومة موحّدة في الجرأة واليقين. فلما كنا محاطين بأعداء يفتقرون للقوة والحيوية في الوهن العميق للمؤسسات الأمريكية من جامعات ووسائل إعلام وبيروقراطيات ومحاكم، يحتضنون حقيقة لا يمتلك أي شخص غيرهم الشجاعة أو الخيال لرؤيتها. إنهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم متمردون، يحاربون ضد مؤسسة ليبرالية مرهقة يعوزها الوضوح المعنوي للدفاع عن نفسها، فضلاً عن البلد - ولم يتبقَّ لديها مبادئ للدفاع عنها. إنهم طليعة الديمقراطية.

ولكن أليست «الطليعة» مرتبطة تاريخياً باليسار؟ أليست الزعامة الرئيسة للثورة؟

في الواقع، فإن دعاة الحرب الكثير منهم كانوا يشبهون بشكل غامض طلائع الصراعات السابقة. قام دانيال كوهن بندت (Daniel Cohn Bendit)، الذي كان يعرف بداني الأحمر (Dany the Red) في مايو/أيار 1968 حين كان زعيماً شاباً للثورة الطلابية في باريس، وأصبح منذ ذلك الحين عضواً في البرلمان الأوروبي، بمناقشة ريتشارد بيرل قبل أسابيع قليلة من الغزو. وقد قال داني الأحمر لأمير الظلام: «تتصرف حكومتكم مثل البلشفيين

في الثورة الروسية. أنتم تريدون تغيير العالم بأسره!» من الممكن أن نتصور أن هذا التشبيه راق لبيرل. فالفكر الرؤيوي، ورغبة مجموعة صغيرة تمتلك فكرة كبيرة لدفع التاريخ في اتجاه جديد على نحو مثير، لا ينتمي حصراً إلى اليسار ولا إلى اليمين؛ بل إنه غالباً ما يكون صفة لأفراد يهاجرون من قطيع لآخر دون تريث؛ لتناول حقائق عديمة الطعم تحت سماء الاعتدال القاتمة. لقد كان المحافظون الجدد الأصليون يساريين في يوم من الأيام، لم يكونوا ليبراليين عاديين من أتباع أدلاي ستيفنسون (Adlai Stevenson)، أو جون إف. كنيدي (John F. Kennedy)، وإنما كانوا من أتباع تروتسكي ولفستون وشافت، ودخلاء غيرهم من عالم دفيئة مفكري نيويورك في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته، أخبرني المناقش البريطاني المحترف كريستوفر هتشنز (Christopher Hitchens) «ذلك الجمهور»، مجموعة المحافظين الجدد، يوجد في مكان ما في قشرة دماغهم اسم ليون تروتسكي. لو كنت لأقول «كرونتسادت» لترينت لوت (Trent Lott)، فلا أعتقد أنني سأحصل على الكثير لقاء عنائي، وذلك في إشارة إلى تمرد البحارة الروس في عام 1921، الذي أخمدته قوات تروتسكي. ولكن لو كنت لأقول «كرونتشادت» إلى بول وولفوفيتز، أعتقد أنه سوف يدرك تماماً ما أتحدث عنه».

لعل هذا يفسر سبب مجيء العديد من أبرز صقور العراق من اليسار. كان أبرزهم هتشنز نفسه. بعد الهجمات الإرهابية، اختلف مع رفاق مثل نعوم تشومسكي (Noan Chomsky) وإدوارد سعيد، وتخلى عن زاويته الطويلة الأمد في مجلة (الأمة) (The Natiom)، وأصبح مؤيداً علنياً لبوش، وتأهب لخوض معركة مع ما سماه «الفاشية الإسلامية».

قد يكون هتشنز لطيفاً ومتعقلاً في السر، بقدر ما كان محتقراً لاذعاً في العلن وفي المطبوعات. عندما جلست معه لتناول الغداء قرب شقته في واشنطن في أواخر عام 2002 -وكان غداء باهظ الكلفة دام طوال بعد الظهر- بدا وكأنه وجد شبابه في اليسار الجديد. فقد حل المؤتمر الوطني العراقي التابع لأحمد الجلبي محل الحركة الاشتراكية الثورية، وكان هتشنز مستمتعاً بالحرب القادمة. وقال: «لدي شعور يفوق ما اعتدت عليه في الستينيات حين كنت أعمل مع الثوريين. هذا هو ما أفعله الآن إنني أساعد حركة سرية يائسة جدًّا، مما يذكرني بأيامي الأفضل على نحو مثير للأسى والشفقة. فأنا لا أرى التلويح بلافتة مذكور

عليها شـعارات صَـدّام حسين مثل: «لا للحرب على العراق»، مما يخلط بين العراق وصَدّام، وهو ما يريده – سياسة ثورية».

إن الإطاحـة بصـدّام بزعامة أمريكية سـتكون «ثـورة من أعلى» – وهـي عبارة ابتكرها ليون تروتسـكي بعينه، ليصف تركيز سلطة سـآتين في أيدي اللجنة المركزية الشيوعية. لقد كان تروتسـكي يقصـد بها السـخرية، وأنا على يقين تماماً أن هتشـنز لم يقصد ذلك. لقد حـوّل كل القوة البلاغية التي وجهها ذات يوم ضـد مؤسسـة السياسـة الخارجية المحافظة ضد الإسلاميين واليساريين المناهضين للحرب. ولوّح باحتقاره للدين مثل تلويحه بمسدس، وخصوصاً تجاه إيمان الجهاديين المولع بالقتال. توعد هتشنز قائلاً: «تريد أن تكون شهيداً؟ إنني هنا لأمد يد المساعدة».

لقد وجد هذا العلماني المناضـل نفسه الآن أخاً في السلاح مع مسيحيين إنجيليين ويهود أرثوذكس نيابة عن الديمقراطية الليبرالية في العالم العربي والإسلامي. وإذ أمضى هتشنز معظم حياته يهاجم السياسـة الخارجية الأمريكية، فقد توصل إلى استنتاج مفاده أنه «بعد أن ينجلـي الغبـار، لن تبقى ثورة قائمة إلا الثورة الأمريكيـة، إن الأمركة هي أكثر قوة ثورية في العـالم. وفي كل البلـدان تقريبـاً فإن أكثر الأشـياء التي يمكن القيام بهـا ثوريةً هو تبني الأمريكيين». كنت دائماً من أتباع بين «Paine ite». كان هتشـنز يتطلع إلى شـرب الشمبانيا في بغداد مع رفاقه العراقيين في يوم عيد الحب عام 2003.

كان المؤمنـون على كل من اليمين واليسـار يقترحون أحد أشـد المنعطفـات جرأة في تاريخ السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة: لإقامـة «رأس جسـر مـن الديمقراطية العربية في الشـرق الأوسـط»، بقوة السلاح كما سماها بول بيرمان. وضـع دمغة سياسية وعسكرية أمريكية، مع حكومة صـديقة وقواعد دائمة في قلب المنطقة، حيث تحصـل القاعدة على معظم مجنديها. وإحضـار صـندوق الاقتراع وبرنامج الشـؤون العامة إلى مـدن واهنة لفحتها الشـمس، وإلى صـحارى قبلية. (ما أتفـه الهدف النهائي لهذا الحماس كله!) تكمـن جاذبية هذه الفكرة في جرأتهـا؛ إذ مـن شـأنها، أن تخـرج التاريخ من هوة سـحيقة بدفعة قوية واحـدة. كما أن من شـأن الحرب في العراق، عبر رد فعل تسلسـلي، إضعاف دكتاتوريات الشرق الأوسط وتقويض إيديولوجيتها الفتاكة والبدء في نشـر بلسـم الديمقراطية الليبرالية. إن الطريق إلى القدس،

والرياض، ودمشق، وطهران تمر عبر بغداد. أما الإصرار على معالجة حالة الشرق الأوسط الراهنة المريضة والخطيرة بحذر، فسيكون أمراً تافهاً ولا يحتمل. فمن لا يختار قطع أحد الأطراف بدلاً من الإصابة بالغنغرينا؟ بالإرادة والدهاء، تستطيع أمريكة أن توجه ضربة قوية إلى الإرهاب والاستبداد والتخلف، وتتخلص من أصعب مشكلات المنطقة.

إن أفكاراً بهذه الضخامة تجذب تحالفات غريبة. لقد نما التزاوج المؤيد والمعارض على السواء باختلاط غريب، حتى أصبح التفكير بمنطق اليسار واليمين بدلاً من منطق المؤيدين والمعارضين للتدخل، أو الثوريين والواقعيين أمراً غير مجدٍ. فقد وجد الواقعيون المحافظون من المؤسسة الجمهورية أنفسهم يتفقون بالرأي نفسه مع اليساريين المناوئين للإمبريالية، والانعزاليين من أقصى اليمين، بينما أصبح المحاربون القدماء الليبراليون في الحرب الإنسانية حلفاء مضطربين لصقور الإدارة. تورط برنت سكوكروفت مع غور فيدال وبات بوكانان؛ وصحا مايكل إغناتيف ليجد نفسه قريباً من بول وولفوفيتز. تساءل بيرمان إن كان هو وأنصار الإدارة يريدون الشيء ذاته؟ فقد قال ذات ليلة في شقته: «لست متأكداً مما إذا كنا نتكلم اللغة نفسها؛ لأنني لا أعرف كيف أحكم على لغة المحافظين الجدد. إذا كانت اللغة صادقة، وإن كانت هناك مثالية في صفوف المحافظين الجدد تردد وتعكس على نحو ما لغة أنصار التدخل الليبراليين للتسعينيات، حسناً، سيكون هذا شيئاً جيداً. صحيح أن مذهب المحافظين الجدد هو يساري المنشأ، وإذا اتضح أن هذا هو الحال -وهو أمر يساورني شك بالغ بشأنه- أي أن بعض المحافظين الجدد سوف يعودون إلى جذورهم الفكرية السابقة، فإن ذلك سيكون رائعاً». ولكن في حال حدث أن انطلقت هذه الطائرة الحربية فإن «أنصار التدخل الليبراليين للتسعينيات» لن يكونوا من موجهي الدفة. لذلك فإن نوايا الإدارة بالغة الأهمية. قال بيرمان: «إن الحكم على ما يفكر فيه موظفو الإدارة أمر في غاية الصعوبة. لم يسمحوا لنا أن نعرف في أي النقاط هم صادقون وفي أيها هم منافقون».

غير أن صدق الإدارة لم يكن هو المسألة الأكثر أهمية. كانت هناك مسألة معرفتها وحكمها، فقد سبّب نفاد صبر اللوبي المؤيد للحرب مما كانت عليه الأمور الإزعاج حتى لبعض المؤيدين، فإذا كانت الحرب ضد الإسلامية الراديكالية يجب أن تكون في نهاية المطاف حرباً من أجل الليبرالية، عندئذ ينبغي عد تاريخ الغرب ذاته تحذيرياً. لقد أخبرني ليون فيسلتير

(Leon Wieseltier)، المحرر الأدبي لصحيفة (New Republic) (الجمهورية الجديدة) أن الليبرالية لم تظهر فجأة في يوم حارق من شهر يوليو/ تموز في فرنسة في عام 1789». وإنما كانت «انفجاراً عنيفاً» بعد قرون من النزاع داخل الدولة الخاضعة لحكم رجال الدين (البيوقراطية) والدولة الخاضعة لحكم فردي مطلق (الأوتوقراطية). فالليبرالية، بتعريفها، صعبة ومزعزعة للاستقرار. وينبغي عدم القيام بها بحماسة تبشيرية. وإن محاولة جلبها بقوة إلى الشرق الأوسط الثيوقراطي والأتوقراطي من الخارج، اعتماداً على الإيمان بأن الناس حيثما كانوا يتوقون إلى الحرية، نهايةُ القصة، فهذه فكرة غير ليبرالية جوهرياً. قال فيسلتير: «إذ كان ثمة شيء ليس في الليبرالية وقت له، فهو النظرة الخاصة بالأخرويات، فالليبرالية هي في جوهرها نظرة للعالم، مناوئة للأخرويات. والآن بعد أن صحا مختلف الناس على الحقائق السياسية والفلسفية القاسية لمعظم العالم، فإن الفكرة القائلة: إنه على الولايات المتحدة إرسال قواتها إلى مكان لإصلاح العالم مرة واحدة وإلى الأبد هي فكرة حمقاء. إنهم يريدون إجابة نهائية ويريدون الانتهاء من المسألة. وليس هناك إجابة نهائية. هناك تقدم بطيء ثابت وغير منتظم نحو عالم أكثر احتراماً وديمقراطية». وعلى الرغم من ذلك، أيد فيسلتير الحرب، ليس استناداً فقط إلى الأسس التي قدمتها الإدارة لشنها، وهي: التهديد الذي تشكله ترسانة صدّام من الأسلحة غير التقليدية وتاريخه في استخدامها.

طوال عام 2002، لم يكن المسؤولون الذين كانوا مكلفين بالفعل بوضع سياسات بشأن العراق يتحدثون عن الحضارة الليبرالية أو الثورة من الأعلى. فلم يكن من الواضح أبداً أن الدائرة المحيطة ببوش كانت تشارك المفكرين في الحرب من خارج الحكومة الأحلام والرؤى. لقد عرّفت إدارة بوش أساس الحرب بشكل واضح ومحدّد، بدءاً بالتحذير الذي وجهه الرئيس في خطابه عن حالة الاتحاد، حيث قال: «لن تسمح الولايات المتحدة لأنظمة الحكم الأشد خطراً في العالم بأن تهددنا بأشد أسلحة العالم فتكاً». إذا كانت الحرب ستقوم، فستكون الأسباب قياسية وليست أخروية: لقد حصل صدّام على أسلحة دمار شامل، وما زال يسعى للحصول عليها؛ وقد استخدمها ضد مواطنيه في الماضي؛ وقد يعطيها الآن إلى القاعدة أو إلى جماعة إرهابية أخرى؛ والإرهابيون يريدون تدمير الولايات المتحدة. لذلك على الولايات المتحدة نزع أسلحة صدام أو الإطاحة به.

لقد أشار خطاب الرئيس الذي ألقاه بخصوص «محور الشر»، بعد أسابيع فقط من سقوط حكم طالبان في أفغانستان، إلى المرحلة الآتية في الحرب على الإرهاب، والأساس لاتخاذ إجراء آخر، حيث وسع الخطاب مسرح الحرب بشكل مثير، ولكنه فعل ذلك على أسس ضيقة نسبياً. لقد أخبر وولفوفيتز صحافياً أجرى معه مقابلة، بعد سقوط بغداد بأن أسلحة الدمار الشامل كانت أقل قاسم مشترك: «الحقيقة هي أنه لأسباب لها علاقة كبيرة ببيروقراطية حكومة الولايات المتحدة، فقد وقع اختيارنا على القضية الوحيدة التي يمكن أن يتفق عليها الجميع، ألا وهي أسلحة الدمار الشامل». لمّح وولفوفيتز بأنه كانت لديه أفكار أكبر، وهي إعادة ترتيب القوة والنفوذ الأمريكيين في الشرق الأوسط، بعيداً عن المملكة العربية السعودية، وباتجاه عراق ديمقراطي، وذلك في مستهل جهد لتطهير المنطقة برمتها من أنظمة حكم وإيديولوجيات قاتلة، وهو أمر كان سيعدّ قضية أوسع كثيراً من أسلحة الدمار الشامل وأقرب إلى حجج الأشخاص ذوي النفوذ خارج الإدارة، مثل برنارد لويس وفؤاد عجمي وروبرت كاغان، ولما كان هذا يرتكز على نظرية معقدة ومجردة، فإن إقناع عامة الناس به أمر أصعب.

في أثناء تلك السنة، ظلت أسلحة الدمار الشامل السبب الجوهري الذي لجأت إليه الإدارة لشن حرب كانت على الأرجح قد قررت القيام بها منذ نوفمبر/تشرين الثاني 2001. (كانت هناك عبارة متكررة عبرت عن الكلام الدبلوماسي الخادع مدة ما قبل الحرب التي دأب المسؤولون على استخدامها حتى وصلوا إلى شفير الغزو، وكأن الإدارة كانت تُجرّ بالرغم منها إلى عداوات مع العراق، وكانت تبذل كل ما بوسعها لتفاديها، «هل أصبحت الحرب ضرورية ومتى......») .. وبعد أن استقر الرأي على أن تكون أسلحة الدمار الشامل سبباً للحرب وهل ستكون هناك حرب، ومتى التزمت الإدارة بحدود حجّتها. في يوليو/ تموز 2002، قدّم سير ريتشارد ديرلاف (Richard Dearlove)، رئيس الاستخبارات الخارجية في بريطانية، تقريراً إلى طوني بلير وكبار مسؤوليه عن اجتماعاته في واشنطن، واستناداً إلى مذكرة سرية أعلن عنها في عام 2005، أخبر سير ريتشارد زملاءه قائلاً: «لقد أصبح الإجراء العسكري الآن حتمياً. يريد بوش إزالة صدام، بإجراء عسكري، والمسوغ لذلك الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل معاً. ولكن الاستخبارات والحقائق كانت تركز حول

السياســة: إذ إن مجلس الأمن القومي ضــاق ذرعاً بالمســار الذي تسلكه الأمم المتحدة، ولم يكن متحمســاً لنشــر مواد عن ســجل نظام الحكم العراقي. لم تجرِ ســوى مناقشة قليلة في واشنطن عن عواقب وتبعات إجراء عسكري».

لذلك، حين بدأت في أواخر صــيف وخريف عام 2002 حملة قوية لإقناع الشعب الأمريكي بالحاجة إلى شن حرب استباقية ضد العراق، كان الخطاب يتسم بكثير من الاحتجاج، فقبل ســنة تماماً، كان ينظر إلى العراق على أنه دولة خارجة على القانون بدأت تتهرب من القيود الدولية، ويحتمل أن تشــكل تهديــداً للمنطقة، أو على نحو أبعد، للولايات المتحدة في غضــون خمســ ســنوات أو نحو ذلك. الآن وفجــأة يجب عدم إضــاعة أي يوم. في أواخر أغســطس/ آب، فاجأ ديك تشــيني كولن باول وغيره من المتشــككين بخصــوص العراق، حين صرّح أمام المحاربين القدماء في الحروب الأجنبية، بأن نظام صــدام حسين يمتلك -بلا شك- مخزوناً احتياطياً من الأســلحة الكيماوية والبيولوجية، وأنه «أعاد بناء» برنامجه في مجال الأســلحة النووية. وفي غضــون ســنة، يمكن لصدام أن يمتلك ســلاحاً نووياً، ولم يخجل تشيني من أن يلمّح بأن الدكتاتور العراقي قد يسلّم سلاحاً نووياً إلى القاعدة.

لم يكــن من المهــم عدم وجود دليل قوي لدعم التكهن بيوم القيامة، لقد أصــبح التهديد المحتمل المتوســط إلى الطويل المدى «خطراً جسيماً ومتزايداً». وقد ابتكرت كوندوليزا رايس تعبيراً مجازياً منذراً بالشر، واستخدمه في خطاب أشبه بإعلان حرب في سنسناتي في شهر أكتوبر/ تشرين الأول: الدليل القاطع في شكل سحابة فطر. استمرت حملة الإقناع في مغالاة بلاغيــة، وذلك بإمالة متعمدة للحقائق الملتبســة باتجاه واحد، وبالغمز واللمز بأن ما تعرفه الإدارة يفوق ما يمكنها الكشــف عنه. تم انتقاء وإبراز معلومات استخبارية متضاربة، وغير دامغة لتحليل أسوأ حالة محبذة لدى البيت الأبيض. أكدت كوندوليزا رايس في مقابلة تلفازية أن شــحنة من أنابيب الألومنيوم التي شــك الخبراء في وزارة البيئة بإمكانية استخدامها في أجهزة الطرد المركزي لتخصــيب اليورانيوم، لا تصــلح إلا لهذا الغرض. واستمر مسؤولون كبــار، بمن فيهم الرئيس في الاستشــهاد بوثائق تســجل بيع يورانيوم الكعكة الصــفراء من النيجر إلى العراق، مدة طويلة بعد أن ثبت أنها وثائق احتيالية. وكانت مجموعة من المدنيين في البنتاغــون، بتوجيه من دوغلاس فيث ووليام لوتــي، تغربل معلومات بدائية حول احتمال

وجود روابط بين صدّام والقاعدة، وذلك بهدف الوصول إلى النتيجة المرغوب فيها، التي لم تقدمها مجموعة الاستخبارات الرسمية، بما فيها وكالة استخبارات الدفاع التابعة للبنتاغون. أما خارج الحكومة، فقد حذر دعاة الحرب مثل بيرل وكريستول وكاغان بأن الوقت آخذ في النفاد. بدا الأمر، وكأن الإدارة كانت تعمل على مدار الساعة للحيلولة دون وقوع هجوم نووي على بيرل هاربر، ولتثبت في الوقت ذاته أن الهجوم يوشك أن يحدث. لم يكن المرء بحاجة إلى خبرة خاصة في مجالي الاستخبارات أو الانتشار ليخامره الشك فيما يجري. لقد حصرت الإدارة نفسها في اتخاذ قرار بالتوجه إلى الحرب قبل أن تعرف بالضبط سبب ذلك.

حتى عندما كان بوش ومجلس وزراء حربه يعرضون قضيتهم المحددة بخصوص العراق، وضعوا إستراتيجية كبرى بعيدة المدى لاستخدام القوة الأمريكية في العالم. وبدأ الرئيس توضيح هذا في سلسلة خطابات ألقاها أمام الأكاديميات العسكرية. وقد صنفتها رايس في وثيقة أعدت تحت إشرافها بعنوان: «إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية». كانت المسودة الأولى التي خطها ريتشارد هاس في غاية الطول والاعتدال، بحيث لم تناسب ذوق رايس التي أوكلت تنقيحها إلى فيليب زيليكو (Philip Zelikow)، الأستاذ في جامعة فيرجينيا، الذي كان زميلها في مجلس الأمن القومي في عهد الرئيس بوش الأب. أنتج زيليكو بياناً قصيراً وبليغاً بالمبادئ مع نص جديد حول الحرب الاستباقية، وعندما نشرت الوثيقة في سبتمبر/ أيلول، اتخذت بمنزلة مسوغ للحرب ضد العراق، وكأن تلك الوثيقة البيروقراطية السابقة شبه المنسية، وهي توجيه التخطيط الدفاعي عام 1992، التي تم إعدادها قرب نهاية إدارة الرئيس بوش الأول، كانت قد وضعت في ثلاجة لحفظها في أثناء المنفى الطويل لسنوات كلينتون، ليعيد إحياءها بعد عقد من الزمن إثر أحداث 11 سبتمبر/ أيلول في عهد رئاسة بوش الابن اللاعبون ذاتهم الذين سبق أن كتبوا النص الأصلي، ووجهوه ووافقوا عليه. لقد أعلنت الوثيقة الجديدة مبدأ بوش الجديد، بعد «بروح دولية أمريكية مميزة تعكس وحدة قيمنا ومصالحنا القومية». وسوف تسعى إلى تعزيز «ميزان قوى يحبذ حرية الإنسان». وبدا أن بوش ومستشارته للأمن القومي رايس كانا يتقاسمان الفرق بين واقعية والد بوش ومستشاره للأمن القومي برنت سكوكروفت، موجه رايس، ومثالية المحافظين

الجدد الصاعد نجمهم حالياً. ولكن في واقع الأمر، فإن اللغة الطنانة للوثائق الجديدة، بل أكثر من ذلك، جوهرها، أوضحت قطيعة حاسمة مع مؤسسة السياسة الخارجية، فقد تم التخلي عن «ميزان القوى»؛ في الحقبة الجديدة، لم تعد سياسات الحرب الباردة القديمة بخصوص الاحتواء والردع مطبقة. ولم يكن ممكناً ردع الدول المارقة والإرهابيين العالميين. وسوف تضمن أمريكا، المتفوقة بلا منازع، السلام جزئياً عبر استباق تهديدات للسلام، وسوف تفعل ذلك ضمن الإطار الدولي القائم، إن أمكن، ولكن مع «تحالفات لغرض معين مع المستعدين لذلك» إن لزم الأمر، أو حتى بمفردها. القوة الأمريكية لم تجعل أمريكا فوق الحق، إن أمريكا على حق بحكم كونها أمريكا. غير أن القوة الأمريكية تؤازر الحق عبر الكرة الأرضية: ومن هنا جاء اختلاف الإستراتيجية الجديدة لما بعد 11 سبتمبر/ أيلول عن الإستراتيجية القديمة السابقة للحرب الباردة، الخاصة بتوجيه التخطيط الدفاعي: فبعد الهجمات الإرهابية، لم يعد بوسع القوة الأعظم في العالم أن تظل محايدة إزاء السياسات المتبعة داخل بلدان أخرى، حيث قد يعاني «الاستقرار» انحلالاً خطيراً. سوف تعزز أمريكا الآن بشكل فاعل الحرية حول العالم. «الحرية» هي الكلمة الرئيسة لوثيقة 2002، التي تنص خطوطها الافتتاحية على ما يأتي: «لقد انتهت الصراعات الكبرى للقرن العشرين بين الحرية والاستبدادية بانتصار حاسم لقوى الحرية، ونمط واحد مستدام للنجاح الوطني: الحرية والديمقراطية وروح المبادرة الحرة».

لقد انتصر نهائياً المذهب المحافظ الجديد، في صراعه الطويل من أجل روح الحزب الجمهوري والسياسة الخارجية الأمريكية. والفرصة الأولى لاختبار المذهب كانت آتية سريعاً، في العراق.

باستعادة أحداث الماضي، من الأسهل رؤية الدودة في التفاحة، وبذرة المتاعب المستقبلية. لقد سبق أن عملت جميع الشخصيات البارزة في وزارة حرب بوش في مستويات رفيعة في إدارة سابقة واحدة على الأقل؛ وقد خدم بعضها في ثلاث أو أربع إدارات. ما من معاصر ديمقراطي يمكنه الادعاء بأي شيء أشبه بخبرة تلك الشخصيات. مع حساب سنواته في الكونغرس، فقد كان ديك تشيني من المتنفذين المطلعين على بواطن الأمور تحت كل رئيس جمهوري منذ عهد نيكسون. امتدت حياة بول وولفوفيتز العملية في الحكومة عبر كل إدارة،

من نكسون إلى بوش الابن، باستثناء سنوات كلينتون. كان مستشارو بوش الابن في مجال السياسة الخارجية ذوي خبرة واسعة جدًّا، وكانوا يثقون بأنفسهم بشكل عدائي، وكانوا بشكل خاص لا يصلحون للتعامل مع عواقب مبدأ بوش ونتائجه.

لقد التحقوا بالحكومة في أعقاب تبعات الصدمة النفسية في فييتنام، وقد انصهروا كما انصهر صقور الحرب الباردة، وكرسوا حياتهم المهنية لاستعادة القوة العسكرية الأمريكية، وإبرازها حول العالم. كان الشيء الوحيد الذي يتعين على أمريكة أن تخشاه، في العقود الثلاثة من حياتهم العامة، هو عودتها إلى حالة الضعف. ولكن بعد انتهاء الحرب الباردة، لم يشتركوا في مناظرات التسعينيات حول الحرب الإنسانية، والمعايير الدولية، وبناء الأمة، والترويج للديمقراطية. لم يكن لديهم الكثير ليقولوه حول التهديدات الأمنية الجديدة التي لا حدود لها. كالدول المخفقة، والنزاع الإثني، والفقر، و«الأسلحة النووية السائبة» في روسية ما بعد الشيوعية، والإرهاب العالمي. كانت سياسة كلينتون الخارجية عديمة الفاعلية؛ وقد قالوا لأنفسهم فور عودتهم إلى السلطة: إنهم سوف يفعلون كل شيء على نحو مختلف. وأعرب تشيني، أشد المتشددين، عن رفض مُزْدَرٍ لكل تدخل جرى في ذلك العقد. لم يشكل رامسفيلد فكرة جديدة منذ معارضته الحد من الأسلحة، حين كان وزير الدفاع في أثناء رئاسة جيرالد فورد. وكان يساور باول ورايس تشكك عميق في التزامات عسكرية بلا نهاية نيابة عن المثل «الرقيقة». تولى بوش الرئاسة دون أي فضول بشأن العالم، وإنما كان لديه فقط شك في أن سلفه قد ورط أمريكة في العديد من الأماكن شديدة الغموض التي لا تشكل أهمية للمصالح القومية.

أما وولفوفيتز فقد كان الوحيد من بينهم الذي أيد التدخلات في البوسنة وكوسوفو، ولكن نظرته العالمية تركته غير مستعد للتعامل مع تنظيم بلا دولة، يعتنق أيديولوجية الجهاد العالمي، أو حتى الاعتراف به. وعندما أرغم 11 سبتمبر/أيلول الخيال على التصارع مع شيء جديد راديكالياً، وصل مستشارو الرئيس في مجال السياسة الخارجية إلى ما كانوا يعرفونه دائماً. فالتهديد، كما رأوه، كان يكمن في دول عدوة جيدة التسليح. وكانت الإجابة كالمعتاد هي القوة العسكرية والإرادة لاستخدامها.

3

المغتربون

في نيسان 2002، بينما كان البنتاغون غارقاً في التخطيط للحرب، أدركت وزارة الخارجية أن من الأفضل البدء في التفكير في مرحلة ما بعد الحرب. فبدأ مكتب وزارة الخارجية لشؤون الشرق الأدنى بتوظيف مغتربين عراقيين ذوي خبرة في مجالات مختلفة وتنظيمهم في سبع عشرة لجنة لإعداد تقارير حول موضوعات ذات أهمية لإدارة العراق بعد صدّام، تقارير فنية حول موضوعات كالكهرباء والصحة والعدالة الانتقالية والشرطة. وكان من بين أولئك العراقيين الذين دعتهم الخارجية للمشاركة في مشروعها حول مستقبل العراق كنعان مكية. لكنه رفض.

كان مكية يدعو علناً إلى الإطاحة بصدام منذ أن تخلى عن اسمه المستعار في نهاية حرب الخليج في آذار 1991، لكنه لم يكن يثق في موقف الخارجية الأمريكية من الموضوع كاملاً. كان يرى أن موظفي الخارجية، وخاصة المستعربين في مكتب شؤون الشرق الأدنى، مجرد حصونٍ لحماية وضع الشرق الأوسط – ذلك النوع البيروقراطي الذي كان دائماً يفضّل ترك صدّام في الحكم لأجل «الاستقرار». كان مكية يعتقد أنهم مساومون بمجاملتهم للحكام الديكتاتوريين العرب السنة في الشرق الأوسط، وأنهم لا يؤمنون بإمكانية تحقيق الديمقراطية العربية. وفي ضوء المستجدات الخطيرة التي حملها الحادي عشر من أيلول، كانوا جزءاً من المشكلة. الآن حين لم يعد تغيير النظام في العراق مجرد سياسة أمريكية رسمية، ولكن محلاً للضغط والتخطيط المكثفين في واشنطن، كان مكية قلقاً من أن الخارجية –ووكالة الاستخبارات الأمريكية المتعاطفة فكرياً– ستحاول توجيه هذه السياسة نحو «شخص مثل مشرّف، شخص ذي عقلية إصلاحية، وثقافة غربية، شخص من النوع العسكري»، في قالب الجنرال الباكستاني الذي استلم السلطة عام 1999. أو بعبارة أخرى، حليف قوي (وليس ديمقراطية). لم يرد مكية أي دور من هذا النوع في تغيير النظام. لم يكن مكية يثق بـ«ميسّر» مشروع مستقبل العراق بالتحديد، وهو موظف في المكتب اسمه توماس

ووريك. وقد سمع مكية ووريك، في أحد الاجتماعات في ديترويت يثني على جنرال عراقي سابق وصف الديمقراطية بجيش يعمل بشكل جيد.

أخبرني مكية في وقت لاحق من تلك السنة بأن «بعض الناس يتحدثون عن تغيير ديمقراطي»، مشيراً إلى المحافظين الجدد في البنتاغون، وفي مكتب نائب الرئيس الذين دعموا صديق مكية أحمد الجلبي، بعبع الخارجية الأمريكية، بحماس. لكنهم فقط بعض الناس، وهناك آخرون يعتقدون أن هذا كله كوم من القمامة، وأنه ليس إلا سخافة. «إنهم موجودون بالفعل. إنهم في وزارة الخارجية، كما أنهم في وكالة الاستخبارات المركزية الآن. وهم لاعبون أقوياء جدًّا».

بدأت ورشات العمل المختلفة لمشروع مستقبل العراق بالاجتماع في تموز. وفي أوائل آب، أخذ مكية عائلته للتخييم خارج واشنطن العاصمة. وفي أحد الأيام وجد الوقت للمغامرة والذهاب من المخيم إلى العاصمة، حيث قابل موظفي الخارجية، بمن فيهم رئيس مكتب العراق في شؤون الشرق الأدنى، وهو موظف خارجي سابق اسمه ريان كروكر. فوجد أن الخطاب قد تغير: فالمسؤولون يتحدثون الآن عن الديمقراطية في العراق. فهل سيعيد مكية التفكير في الأمر؟

قرّر أن يتحداهم؛ ليثبتوا ذلك. وشرح لي فيما بعد: «كنت أحاول أن أوقعهم في شر أعمالهم، وأن أحصل على شيء يمكن أن أمسك به حكومة الولايات المتحدة». فوافق مكية على المشاركة في مجموعة عمل المبادئ الديمقراطية للمشروع، واقترح مناقشة التقرير النهائي للمجموعة في مؤتمر مخطط له للمعارضة العراقية في المنفى. فوافق الأمريكيون برحابة صدر. كانت اللجنة تضم اثنين وثلاثين عراقياً، معظمهم قد أُرسلوا ممثلين للأحزاب والمجموعات السياسية المختلفة في المنفى. «كان بعضهم سياسيين مأجورين»، قال مكية مضيفاً: إن هذا كان يناسب الخارجية الأمريكية التي أرادت وثيقة غير محرجة، لا تقدم خيارات صعبة، ولا تحرج أحداً. «كنت أكره أن أكتب ذلك في اللجنة. فأنا لم أكن سياسياً في الواقع. سأقوم بهذه الأمور، وأقول هذه الأشياء التي يعتقد الناس أنها لا تقال، وليكن ما يكون. هذا ما يعجب العراقيين الذين يدعمونني فهذه طبيعتي، وهذا ما تدور حوله جميع كتبي بشكل أو بآخر. لن أتوقف عن فعل ذلك. لكنه لن يجعلني سياسياً بالفعل، للسبب نفسه».

لم يكن مكية مهتماً بآراء معظم أعضـاء اللجنة. كانت كلمة «شامل» تثير أعصابه. وكما ذكر أحد مستشـاري وزارة الخارجية الأمريكية عن المشـروع، في خطاب رسمي معتدل: «لم يكـن مكية يهتم بالبروتوكولات القياسـية للعمل في اللجنة». بدلاً مـن ذلك، ترك هو واثنان من أصـدقائه وزملائه المقربين - رند رحيم، مدير مؤسسـة العراق القائمة في واشـنطن، وسـالم الجلبي، المحامي في لندن وابن شـقيق رئيس المؤتمر الوطني العراقي - الآخرين في الخارج، واسـتولوا على كتابة التقرير، وكانوا طوال الوقت يقاومون ضـغط وزارة الخارجية لإصـدار شـيء معتدل من الناحية السياسـية. وكانت المجموعة الصـغيرة تعمل ضد التيار لإعـداد مخطط تفصـيلي لنقل العراق من حكم الحزب الواحـد إلى الديمقراطية. لم يكن مكية يسعى إلى وثيقة من النوع الذي يمكن أن تنتجه اللجنة.

«إنـه المهندس المعماري الذي بداخلي»، قـال مكية وهو يقدم الشـاي الياباني البارد في كامبريدج في أوائل كانون الأول. وقبل عقد مضـى، كان مكية قد اعترف قائلاً: «المهندسون المعماريون مصابون بجنون العظمة».

كان هذا أيضـاً التروتسكي[1] السـابق الذي بداخله. ذلك أن اسـم ليون تروتسكي كان في مـكان مـا بداخل مكيـة -في مكان غير بعيد- ومعـه الفكرة التروتسـكية عن قائد فكري طليعـي، يرغـم التاريخ علـى التحرك في الاتجاه الـذي يريد. غادر مكية بغـداد عام 1967 للدراسـة في معهد ماساشوسـتس للتقنية، وفي الصيف بعد السـنة التمهيدية استلمت الفئة الأكثر تطرفاً في حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة بانقلاب - ربما يكون أقل الأحداث ملاحظة وأسـرعها نسـياناً بين الأحـداث اليوتوبية الكثيرة التي حدثت عـام 1968، وكانت تحمل فكراً طالب بانحلال الهوية الفردية بشكل كامل في «العروبة» الشاملة للدولة، وهو فكر وصفه البعثيون أنفسهم بأنه شكل من أشكال الحب. وما لبث أن أعقب ذلك إعدام أشخاص مشـتبه بأنهم جواسـيس صـهاينة أمام الحشود الكبيرة في سـاحة التحرير في بغداد، ووقع العراق في مدة من الخوف امتدّت خمساً وثلاثين سنة، لم يعد مكية في أثنائها إلى بلده قط.

انضـم مكية إلى السياسة اليسـارية في المهجر في أكثر نقاطها خيالاً -بوصفه اشتراكياً ثورياً من الشـرق الأوسط-. أثّرت فيه حرب الأيام السـتة والقضية الفلسطينية، كما أثرت

(1) نسبة إلى تروتسكي وهو مناضل شيوعي (المترجم).

في جيل كامل من الشباب العرب، وكان مكية مدة من الزمن عضواً في الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين. لكن الصراع كان صراعاً طبقياً حسب تحليله ورفاقه الماركسيين. كانوا يرون أن العمال في المصانع والمزارع التعاونية الإسرائيلية يمكن أن يضعوا أيديهم في أيدي العرب المضطهدين للتخلص من نير الإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية. لكن في سياسة الشرق لم تكن هذه إلا وجهة نظر الأقليّة، مما يعني أن مكية كان يتبع رافداً منفصلاً عن الموجة العظيمة للقومية العربية التي تدفقت في الستينيات. (أما فيما يخص الإسلام السياسي، فلم تكن للموجة التي أتت بعد ذلك، عندما ظهر ضعف وفساد الأنظمة القومية، علاقة بمكية العلماني الملحد بشدة). وعلى الرغم من ذلك فقد رمى مكية وزوجه الإيرانية المولد، بنفسيهما في عالم سياسة المهجر، أولاً في كامبريدج، وبعد ذلك في لندن، بوصفهما ناقدين فدائيين للقوى الغربية، ولا سيما الولايات المتحدة.

كانا يتابعان الأحداث التي تدور في وطنهما من بعيد، في أثناء سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين: بينما تحوّلت حركة التحرير الفلسطينية إلى الإرهاب، وانجرفت لبنان في حرب أهلية تشابهت فيها جميع الفصائل في البربرية، ووقعت إيران تحت سلطة الملالي الثيوقراطية الذين فرضوا حكماً من الرعب، وتم جرّ العراق وإيران إلى حرب لم يبدُ أن لها نهاية، وأزهقت حياة جيل كامل في كلا البلدين. وفي نقطة ما من هذه الأحداث، تغير تفكير مكية.

قال مكية: «لم يعد بمقدوري أن ألوم الولايات المتحدة على ذلك»، ربما كان هذا تحولاً زلزالياً في تفكيري، لم يكن مجرد بعد عن الماركسية على أساس بعض المبادئ العامة، كلا، لقد كانت تجربة محسوسة بمشاهدة الحرب الأهلية اللبنانية، التي لم يكن لها علاقة بالفئات الماركسية. وبمشاهدة الثورة الإيرانية من جديد، هُزمت الفئات الماركسية. وبمشاهدة الحرب العراقية الإيرانية. لم تكن الولايات المتحدة، بل العراقيون والإيرانيون هم الذين كانوا يذبحون بعضهم حتى الموت. لقد كانت فكرة وجود أشخاص هناك في الخارج يبيعونهم الأسلحة محزنة بالطبع، لكنني لن أقلب أولوياتي رأساً على عقب، وأرفض أن أرى من هو المسؤول. لذا كان هذا الشعور بأن العلّة في عالمي بشكل أساس، وليس في الولايات المتحدة، وكان هذا هو التحول الزلزالي في نظرتي السياسية».

كان لهذا التحول مدلولات كثيرة. فإذا كانت العلّة تكمن بشكل رئيس في الجزء الخاص به من العالم، فإن جميع الأسـماء التي تدل على النجاة الجماعية -الماركسـية والقومية والبعثية والإسـلامية- أصـبحت الآن تبدو طرقاً مختلفة تؤدي إلى الجحيم. كانت المنطقة قد حاولت أن تقفز من العصـور الوسطى في القرن الثامن عشـر، إلى عقائد جديدة، معظمها مستورد، دون أن تتمتّع بذلك التغيير العميق، حيث كانت الشـرعية منفصلة عن القوة والإيمان، وكانت حقوق الأفراد مقدّسـة كأسـاس للحكومة. كان التنوير هو ما يحتاجه الشرق الأوسط. في عام 1984، سأل مكية في رسالة إلى صديق يساري: «هل من الممكن أن يكون ماركس اليوم في سياق سياسي شرق أوسطي أقل ثورية من فولتير مثلاً؟» وأصبح مكية تحررياً، حيث عاش حياة شبه هامشـية في نيويـورك وكامبريدج، يدقّق صـفوفاً في الجامعات المحلية، ويقـرأ أعمال أرندت وهوبز ولوك في المكتبات للمرة الأولى، ويعمل بجد على مخطوطة كتابه (جمهورية الخوف).

أما بوصـفه عراقياً على علاقة بالسياسـة، فقد كان مكية شـيئاً نادراً في العالم العربي؛ حيث كان هناك الكثير من المناضـلين التحرريين: لكن لم يكن هنالك إلا قلّة من المنشـقّين. فالشـعور العربي أن العرب ضـحايا للعدو الأجنبي الإمبريالي والصهيوني، لم يترك مجالاً لظهـور مصـري مثل سولزينشـتاين أو سـوري مثـل هافال. لم ينكـر مكية عدالة القضـية الفلسـطينية، إلا أنـه بـدأ يشـعر أنه لا يجـب على العـرب أن يعدّوها مفتاح حل المشـكلات الإقليمية؛ ففلسطين لم تعد القضية الأولى، سواء من حيث الوقت أو الضرورة الأخلاقية. لم يعد الموضـوع الحاسم هو الحرية القومية، وإنما الديمقراطية القائمة على الحقوق، وبشكل أعمق، قيمة الحياة. وعلى الرغم من أن الاستعمار قد انتهى منذ وقت طويل، لم يزل موقف المعارض الديمقراطـي -الناقد للديكتاتوريـة المحلية- يبدو في كثير من الأوسـاط العربية محل شك كالردّة، خاصة عندما يصل إلى الاستنتاج النهائي، كما فعل مكية في نهاية حرب الخليج، حيث تقدّم ودعا أمريكة للإطاحة بالطاغية في بغداد.

بحلول عام 1991، كان مكية قد وصل إلى وجهة نظر مفادها أن خطايا أمريكة في الشرق الأوسـط -التي كان في ذهنه منها الكثير- كانت أخطاء سـببها السهو، وليست متعمّدة. لم تكن أمريكة مؤثرة في المنطقة إلا بصفة محرك قدير للدمى. فسقوط الشاه، وأزمة الرهائن الإيرانية، والمحاولة الفاشلة لإنقاذهم، والتفجير الضخم للقاعدة العسكرية في بيروت الذي

تبعه انسحاب عاجل من لبنان، وأزمة الاختطاف، والصمت الذي قابل إبادة صدام للأكراد بالغاز: عرض تلو آخر للضعف الأمريكي أعدّ صداماً للاعتقاد بأنه يستطيع غزو الكويت بحرّية. كانت الولايات المتحدة قوة محركة للشر في المنطقة ليس بسبب ما كانت تقوم به، وإنما بسبب ما لم تستطع القيام به. كان مكية قد دعا قبل ذلك العرب أنفسهم للثورة لمقاومة عدوان صدام (كان العربي الآخر الوحيد الراغب بالدفع في هذا الاتجاه تاجر سعودي اسمه أسامة بن لادن، على الرغم من أن الأسباب كانت مختلفة تماماً)، لكن هذه المهمة قد تُركت لجيوش القوات الغربية. وبهزيمة الجيش العراقي في انسحاب مهين خلف الحدود على طول «طريق الموت»، ومع تزايد أعداد الشيعة والأكراد الداعين للإطاحة بالنظام البعثي، أصبحت أمريكة في وضع مناسب لتمحو سجلّها المخزي في المنطقة. لكن حرب الخليج انتهت باتفاقية لم تترك صداماً في منصبه فقط، بل سمحت لطائراته المروحية بسحق آلاف العراقيين الذين كانت لديهم بارقة أمل. كانت هذه في رأي مكية خطيئة السهو الكبرى.

بعد الحرب، سافر مكية عن طريق المنطقة الكردية إلى شمال العراق للحصول على ملفات بعثية رسمية لمعركة الأنفال، ومذابح الأكراد في أواخر الثمانينيات، ولتصوير فيلم وثائقي لقناة BBC بعنوان «حقول القتل لصدام». وكان العراقيون والكويتيون في كردستان، وبعدها في لندن يسعون إلى مكية؛ ليروي قصصهم حول الإبادة الجماعية، والاحتلال والقمع الدموي للمتمردين. ولو قام ببساطة بجمعها في كتابه الآتي الذي سماه «القسوة» لما أصبح محوراً للخلاف. لكن غضبه من رضا المثقفين العرب عن جرائم صدام كان شديداً، ولم يكن كتاب «قسوة وصمت»، الذي صدر عام 1993، تأملاً هادئاً، وإنما كان صرخة من القلب. سعى مكية إلى تعرية اعتذارات العالم العربي ووضع الحقيقة السيئة نصب أعين القرّاء. كان تصوير الروائح الكريهة التي تسببها وحشية الإنسان يعمّ شهادة الشهود. كتب مكية «لم يعد من الممكن أن يكون هناك رومانسية أو بطولات مزيفة في العالم العربي بعد الآن. لم يعد هناك إلا إرث الألم الذي يجب توثيقه باستخدام لغة جديدة وأسلوب جديد».

كان كتاب «قسوة وصمت» كتاباً استفزازياً. وكان من بين المثقفين الذين وجّه الاتهام لهم إدوارد سعيد، البروفسور الفلسطيني المولد الذي يدرّس الأدب في جامعة كولومبيا، ومؤلف الدراسة الرائدة «الاستشراق»، التي علّمت جيلاً كاملاً من المثقفين العرب الشباب أن ينظروا

إلى عالمهم بوصفه ضحية للإمبريالية الثقافية الغربية القديمة. إدوارد سعيد الذي كان قد رفض في نثره الأدبي المنمق كتاب «جمهورية الخوف» ووصفه بأنه معادٍ للعرب، الذي ألقى اللوم على الإمبريالية الثقافية الغربية في حرب الخليج، الذي (كما أشار مكية) قد عبّر عن شكه في أن يكون نظام صدام قد أباد الأكراد بالغاز فعلاً. إدوارد سعيد - المفكر العربي البارز في الغرب، الذي كان بطلاً ثقافياً لدى العرب واليساريين الغربيين على السواء - لم يكسب احترام العراقي الأصغر سناً والأقل شهرة. بلغ أسلوب مكية النثري، البسيط والشديد، حد التوبيخ: فقد قال: إن لغة سعيد وأفكاره كانت جزءاً من الحطام الأخلاقي للمنطقة. كان هذا أكثر من خلاف أجيال بين اثنين من الكتّاب العرب في المهجر. فقد كانت المنافسة الأكبر بين نوعين من أنواع السياسة، وبين تفسيرين لدور المفكر ومصدر الهزيمة العربية.

انهال مؤيدو إدوارد سعيد في العالم الأكاديمي بالإساءات على كتاب «قسوة وصمت». أما مكية الذي كان بطبعه نسيج وحده، فقد انسحب من الصورة بقية التسعينيات وتفرّغ لكتابة الرواية التاريخية في شقته المليئة بالكتب في كامبريدج. ازداد اسم إدوارد سعيد شهرة، بينما تلاشى كنعان مكية في الظلام. لكن بعد عقد من الزمن على حرب الخليج، حين برز مكية فجأة بصفة مؤيد شديد الوضوح لحرب جديدة ضد العراق، حرب تنهي ما لم تنههِ الحرب الأولى، عاد سعيد لمهاجمته بغضب، كأن الخلاف بينهما لم يتوقف عن الحركة تحت السطح.

في مقال لإدوارد سعيد في صحيفة الأهرام المصرية، دحض آراء مكية حول الشكل الديمقراطي والفيدرالي للعراق. وبدلاً من ذلك، أراد أن يعرف «من هو وما هي الخلفية التي أتى منها». وأجاب: إدوارد سعيد عن الأسئلة التي طرحها قائلاً: إن مكية رجل فاشل، واهم عديم الشعور، يعيش «بين الدول والثقافات دون أن يكون له التزام واضح بأي منها (عدا مهنته الصاعدة)»، حريص على خدمة أسياده في الحكومة الأمريكية (حيث تخيل إداورد سعيد أنه يشغل منصباً في وزارة الخارجية) تماماً كما كان والده المهندس محمد مكية سابقاً لدى صدّام. (كان هذا صحيحاً، مدة قصيرة في أوائل الثمانينيات، وقد سبّب ذلك خلافاً بين كنعان ووالده استغرق سنواتٍ حتى زال. وكذلك كان صحيحاً أن مكية قد استفاد بشكل غير مباشر عبر أرباح حصة والده في الشركة: فقد استخدم مكية تلك الفوائد لكتابة «جمهورية الخوف». لكن اتهام إدوارد سعيد لمكية أكثر من مرة بأنه قد عمل لدى

صـدام لم يكن صـحيحاً)، وقد كتب إدوارد سـعيد مرّة موافقاً على ميل العرب إلى سؤال أي متحدث، «من وراءه؟» انظر خلف كنعان مكية وستجد ريتشارد بيرل وبول وولفوفيتز ودونالد رامسفيلد. كان هذا كافياً بالنسبة لإدوارد سعيد.

وهكذا، فقد كان هناك نوع من التفكير التآمري في هجوم إدوارد سـعيد، بالإضـافة إلى سيل ملحوظ من الإهانات الشخصية. واستمر الاستعلاء المتحذلق الذي اعتاد إدوارد سعيد التحدث به في التصـاعد. لكن إمكانية أن كنعان مكية قد يكون الوحيد الذي يمثل «الصـوت والمثل لعراق المسـتقبل»، بينما يمر التاريخ بإدوارد سـعيد، وقضـيته، القضية الفلسطينية، التي تحولت إلى أنقاض، كانت سخيفة لدرجة أنها بدت مثيـرة نوعاً من الحزن.

أثار المقال ضجة في عالم السياسة العربية في المهجر. وقد تحدثت إلى مكية بعد صدوره بمدة قصـيرة. لقد كان يسـعى إلى الفكري، وقال: «يعبّر إدوارد سـعيد عن فكر سـائد في الثقافـة السياسـية العربية، التي كانت جزءاً من مرحلة ما بعـد عام 1967، وهو النظر إلى القضية الفلسطينية على أنها تأتي في المقدمة. لكن إذا نظرت إليها من وجهة نظر العراقي، فسيقول لك: هل لديك مليون قتيل؟ كم شخصاً مات في انتفاضتكم الثانية؟ ألف وخمس مئة شـخص؟» وعاد إلى الحديث عن إدوارد سـعيد قائلاً: «أعتقد أنه حقق رقماً كبيراً بالفعل. فسياسـته بالمعنى العميق هي ما نسـمّيه في السياسـة العربية، وباللهجة السـائدة، سياسة رافضـة، وقد يكون هذا هو السـبب العميق لغضبه مني. أنت ترفض، ترفض، ترفض، لكنك لا تعمل شـيئاً لتحسـين الوضـع». لكنني مع ذلك أسـتطيع أن أقول: إن مكيـة كان مجروحاً ومصـدوماً لشـدة هجوم إدوارد سعيد، وكان أسـلوبه الانفعالي حاداً لكنه نظيف، يستهدف الفكـرة وليس الرجل. وكان يميل إلى تقويم النـاس ظاهرياً، وليس البحث عن برامج مخفية أو دوافع غير عقلانية. وتوقع مخاطبته بالطريقة نفسـها، ولأنه كان حسّاساً جدًّا لمصلحته، فقد جعله التاريخ الصـاخب الذي ألقى بنفسـه فيه الآن ضعيفاً. لم يكن مكية مجرّد إنسان بسيط -وهي صفة مقلقة- إذا فكّرنا في المشروع الذي كان على وشك التوقيع عليه.

● في النهاية، من كان وراءه؟

نقل التاريخ مكية من السياسـة الراديكالية اليسارية إلى التحررية، إلى الاعتقاد بأن حقوق الإنسـان، وليس القومية أو الاشـتراكية، هي القضـية الأسـمى، وأنها، في بلده، القضية الثورية

الوحيدة. أما من حيث الانتماء السياسي، فقد ارتبط بالجناح الليبرالي للحزب الديمقراطي. لكن بوصفه عراقياً يعيش في بداية القرن الحادي والعشرين، جعلته قضيته حليفاً للمحافظين الأمريكيين الجدد. قلة منهم كان في عقولهم اسم ليون تروتسكي، لكن الأرجح أن معظمهم يرون رونالد ريغان مَثلهم الأعلى. لم يكن التوافق تاماً. فقد كان المحافظون الجدد يعدون القوة الأمريكية بطريقة مسيحية -أي أنهم كانوا قوميين- لكن مكية لم يكن مهتماً إلا بما يمكن للقوة الأمريكية تحقيقه في العراق نيابةً عن التحرريين المثاليين.

في الأشهر الآتية من عام 2002، قام مكية بعدة زيارات لواشنطن، حيث التقى ببول وولفوفيتز وغيره من المدنيين في البنتاغون، ثم التقى موظفين متشددين رفيعي المستوى في مكتب نائب الرئيس، وبعد ذلك تشيني وكوندوليزا رايس في البيت الأبيض. في هذا الاجتماع كان مكية والموظفون الأمريكيون يتملقون بعضهم ويخمّنون ما في عقول بعضهم. كان الأمريكيون يريدون أن يكسبوا تأييد مثقف عراقي كبير لحربهم، وكانوا يريدون معرفة ما يعتقد مكية أن الجنود الأمريكيين سيجدونه في العراق. أما مكية فقد كان يريد أن يعرف: هل الإدارة الأمريكية ملتزمة برؤيته – رؤية ديمقراطية للعراق؟. قال المحافظون الجدد في البنتاغون وفي مكتب نائب الرئيس ما أراد مكية سماعه بالضبط. وعلى عكس الموظفين البيروقراطيين في وزارة الخارجية، كان يبدو أنهم يشعرون بشكل عاطفي بأن الشرق الأوسط، بدءاً بالعراق، يمكن أن يتغير بالديمقراطية. كان لديهم ما يدعوهم للاعتقاد بذلك، ولم يكن مكية يشاركهم في تلك الأسباب كاملة، لكن كل ما يهمه كان منطقة التوافق.

«إن كان هذا هو الشيء الصحيح الذي يقوم به الأشخاص الخطأ، فأنا سأبقى أعمل معه»، قال مكية عندما سألته إن كان قلقاً من حلفائه الجدد؟ «قد يظهر في النهاية أن هذا هو الحال. لكن السياسة أعقد من ذلك كثيراً. فقد رأيت الكثير من الأشخاص الجيدين فعلاً يقومون بأشياء رهيبة. من الصعب جدًّا الحكم بعد الآن». ورفض مكية طريقة التفكير التي دفعت إلى إنشاء «مدرسة وولفوفيتز» ضد «مدرسة إدارة كلينتون» وأصدر الحكم وفقاً لذلك. «أعتقد أن إحدى الطرق التي ابتعدت بها عن السياسة الأيديولوجية هي أنني أفضّل أن يفكّر الناس فيّ على أنني مفكر أخلاقي أكثر. يجب أن يكون لديك معايير أخلاقية، مبنية بشكل يجعلك غير قادر على القول: إن هؤلاء أشخاص مخطئون، وهؤلاء أشخاص مصيبون. فهذا لم يعد أمراً سهلاً».

كان الاختبار الذي وضعه مكية هو: هل كان أولئك الذين في السلطة يرغبون في القيام بهذا الأمر الأخلاقي: الإطاحة بصدام، وتحقيق الديمقراطية؟. وكان يبدو أن إدارة بوش، بقيادة المحافظين الجدد، جادة فيما يتعلق بكلا الأمرين. فيما يخص رجلاً له تاريخ مكية، كان هذا وعداً بالنجاة، ولم يسأل نفسه إن كان هؤلاء الأمريكيون، أو أي أمريكيين، قادرين على تحقيق أهدافه. لم يتوقف لحظة ليفكر في أن الضرر الذي كانت سياستهم تحدثه لحلف الأطلسي والأمم المتحدة، والفرض المتغطرس للأشخاص الذين يقودون الإدارة، والادعاءات المشكوك فيها حول أسلحة الدمار الشامل، والارتباطات بالإرهابيين، وأفكار رامسفيلد عن التحول العسكري، وتاريخ مجلس حرب بوش وأيديولوجيتهم - أن هذا كله يمكن أن يسهم فعلياً في عدم تحقيق حلمه. لم يستطع مكية أن يعدّ هذه الأمور أكثر من أمور ثانوية مقارنةً بالفرصة الرئيسة.

وعلى طول الطريق، كان مكية يكسب العداوات. في الخلافات الداخلية بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية، حتى عندما استمر في العمل في مشروع وزارة الخارجية حول مستقبل العراق، كان مكية يقف علناً في صف البنتاغون. وقد جرح أسلوبه المهووس في مجموعة العمل للمبادئ الديمقراطية شعور بعض من زملائه العراقيين في المهجر. واتخذ قراراً مصيرياً بربط سمعته بأكثر المغتربين إثارة للجدل.

أحمد الجلبي، سليل عائلة شيعية ثرية وذات قوة سياسية، كان قد غادر بغداد، وهو مراهق عام 1958 بعد الانقلاب القومي الذي أطاح بالملكية. تعلّم في إنكلترة وفي الولايات المتحدة، حتى حصل على دكتوراه في الرياضيات النظرية من جامعة شيكاغو. لكن الجلبي صنع أول ثروة وسمعة له في الأردن، بوصفه مدير مصرف مقرّباً من العائلة المالكة. ارتدى البِدْلات الإنكليزية وربطات العنق الحريرية، وكان معروفاً بذكائه الواسع، إلى أن عرف أكثر بسبب فضيحته المالية. فقد انهار مصرف البتراء الذي يديره الجلبي عام 1989، مما أدى إلى تدمير عدة عائلات عراقية، وهرب الجلبي من عمان إلى لندن بعد صدور أمر القبض عليه مباشرة. وحين التقى به مكية في محافظة صلاح الدين بكردستان العراق، في تشرين الأول عام 1992، في اجتماع تنظيمي للمجلس الوطني العراقي الجديد، كان الجلبي قد أدين مؤخراً غيابياً من قبل محكمة عسكرية أردنية بتهم تتضمن الاختلاس والسرقة

والتزوير وحكم عليه بالسجن مدة اثنين وعشرين عاماً مع الأشغال الشاقة. ادّعى الجلبي أن تلك التهم كانت لأسباب سياسية تتعلق بمعارضته لنظام صدام، الذي كانت الأردن تأخذ منه النفط بأسعار رخيصة. أما المسؤولون الأردنيون فلطالما أصرّوا على أن الجلبي محتال. على أقل احتمال، كان الجلبي مديراً مهملاً في الإدارة وحفظ السجلات، وهي ممارسات استمر بها بوصفه رئيساً للمجلس الوطني العراقي عندما بدأت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، التي أدت دوراً أساساً في إنشاء تلك المنظمة بعد حرب الخليج، بتمويل المجلس بعشرات الملايين من الدولارات. كما ساعدت الوكالة في تحويل أحمد الجلبي من مدير مصرف سيئ السمعة إلى زعيم معارضة. وبعد بضعة أشهر من إدانته في نيسان 1992، كان الجلبي قد شق طريقه إلى قمة السياسة العراقية في المهجر.

لم يهتم مكية بالماضي المظلم، لكنه كان معجباً بعقلية الجلبي. مرة كانا يجلسان على مقعدين متجاورين في رحلة جوية عام 1994، وحين قام الجلبي إلى الحمام، نظر مكية إلى الكتاب الذي كان يقرؤه: مجلّد ثخين حول إعادة إعمار ألمانية بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت تلك بداية لانجذاب متبادل. رأى مكية في الجلبي سياسياً ملكياً متميزاً، نتاج للملكية في المدة التي كان فيها البرلمان والرجال المثقفون العلمانيون يحكمون البلاد. اعترف مكية بأن الجلبي ليس لديه خبرة في السياسة الديمقراطية. لم يكن لارتقائه لمنصب رئيس المجلس الوطني العراقي علاقة بالانتخابات. «أكبر نقاط الفشل لديه هي أنه يشبه شخصية من الشخصيات النموذجية في أدب ت. إ. لورانس في القرن التاسع عشر، خلف الكواليس، ويقوم بسياسة القوة الكبرى. لم تكن السياسة الجماعية تعني له شيئاً». ومع ذلك، أقنع مكية نفسه بأن الجلبي يشاركه معتقداته الليبرالية الديمقراطية. كما كان يعتقد أن المجلس الوطني العراقي، بخلاف الأحزاب القائمة، التي أُنشئت قبل سنوات في صورة حزب البعث، «مفتوح وواضح ولا يعمل بوصفه منظمة سرية. وأنه لا يمكن أن يتآمر». رأى مكية في الجلبي رجل المستقبل، وقائداً للعراقيين ذوي الفكر المستقل الذين حرّروا أنفسهم من إيديولوجيات المنطقة الفاشلة. وقد قال لي عنه مكية: «ليس فيه بقايا من السياسة القومية العربية. إنه لا يفكر بوصفه شخصاً عربياً أو شيعياً أو متديّناً. ولربما يكون هو المرشح الأوفر حظاً من بين أولئك القادرين على قيادة العراق للمضي في الاتجاه الديمقراطي».

كان المجلس الوطني العراقي في بداياته منظمة شاملة للمعارضين العراقيين ضمّت الشيوعيين والملكيين والإسلاميين والأكراد والبعثيين السابقين والضباط العسكريين السابقين والتحرريين المتنوعين بمن فيهم كنعان مكية في تعايش مضطرب وغير منضبط في معظم الأحيان. شق الجلبي طريقه ليصبح رئيس المجلس الوطني العراقي، وفي النهاية حدّد مقرّه في حي نايتبريدج الفخم في لندن. لكن مع محاولات المجلس الانقلابية الفاشلة والهزائم الدامية في منتصف التسعينيات، انقلب الجلبي والمحسنون إليه في واشنطن على بعضهم. ومنذ ذلك الوقت، نظرت وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية إلى الجلبي بشك وازدراء واضحين. وبدأت الوكالة تبحث عن فرسان بيض غيره، وأبعدت الأحزاب الكردية والشيعية والعسكريين السابقين عن قيادة المجلس الوطني العراقي.

كان نوح فيلدمان، بروفسور القانون الذي عمل مستشاراً دستورياً لسلطة الاحتلال في العراق، يصف الجلبي بأنه: «جي كاتسبي لحرب العراق». بعد عام 1996، بدأ الجلبي يعمل على إعادة تشكيل ذاته من جديد. وعلى الرغم من معارضة إدارة كلينتون، تخلى عن جهوده التي تكللت بالفشل للإطاحة بصدام، انطلاقاً من كردستان العراق وأنشأ قاعدة جديدة في واشنطن، بخطة جديدة. وبمساعدة الممثل الأمريكي فرانسيس بروك، النصراني الإنجيلي ومسؤول العلاقات العامة الذي التقى الجلبي للمرة الأولى في لندن، بينما كان يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية، بدأ الجلبي بالتقرب من اليمين الجمهوري. كان ريتشارد بيرل هو من ساعده في تبييض صفحته في واشنطن، حيث عرّفه إلى شبكة من المساندين في مؤسسات مثل معهد المؤسسات الأمريكي، ومشروع نحو قرن أمريكي جديد، وكونغرس غينغريتش. كما أن الجلبي تزلّف لديك تشيني، الذي كان يدير شركة هاليبرتون مع بول وولفوفيتز، الذي رأى في الجلبي مثقفاً ذا فكر مماثل، كما تقرّب إلى محافظين في الكونغرس من أمثال ترينت لوت، وجيسه هيلمز، ونيوت غينغريتش. كان هؤلاء الجمهوريون جميعهم سعداء جدًّا بإلقاء فشل كلينتون في العراق على عاتقه وحده.

وها هو ذا عراقي كان يقول جميع الأشياء الصحيحة. في حزيران 1997، أخبر الجلبي جمهوراً في المعهد اليهودي للشؤون الأمنية، وهي المجموعة التي تبنت المؤتمر الذي صدرت عنه ورقة إستراتيجية «Clean Break» (انفراج كامل) بأن المجلس الوطني العراقي يستطيع

الإطاحة بصدام بمساعدة أمريكية بسيطة وإقامة دولة ديمقراطية ترتبط بروابط صداقة مع إسرائيل. كما كان يبدو أن المجلس الوطني العراقي ينتج مدداً لا ينضب من المنشقين الذين يملكون معلومات سرّية جدًّا عن جهود صدّام لإعادة إنشاء برامج الأسلحة غير التقليدية، ومعسكرات التدريب للإرهابيين. وحين وافق الكونغرس واضطر كلينتون الذي أضعف سياسياً على التوقيع على قانون تحرير العراق، أصبح المجلس الوطني العراقي هو المستفيد من المزيد من ملايين الدولارات في التمويل الحكومي. استفاد الجلبي من التنافس الحزبي في أواخر سنوات إدارة كلينتون في واشنطن بشكل ممتاز، وجعل من نفسه العراقي المفضل لدى الجمهوريين الذين كانوا على وشك العودة إلى السلطة.

لذا، عندما أصبحت إدارة بوش الجديدة جادّة في تغيير النظام، ليس من حيث المبدأ وعبر مجموعات مريبة من مجموعات العراقيين في المهجر، ولكن بإرادة كاملة من الجيش الأمريكي، كان من الطبيعي أن يعود كنعان مكية وأحمد الجلبي أحدهما إلى الآخر. أخبرني صديق لكلا الرجلين: «كان أحمد يريد مفكراً، مفكراً تحررياً ديمقراطياً. فوجد كنعان. وكان كنعان يريد رجلاً قوياً ملتزماً بأفكاره عن الديمقراطية التحررية، فلم يستطع أن يجد إلا الجلبي». ورث مكية حروب الجلبي القديمة مع وكالات الحكومة الأمريكية -وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية- وجعلها حروبه، لكن بخلاف الجلبي، لم يولد مكية سياسياً، وتعامل مع دوره الجديد دون الدماثة والمراوغة الضروريتين.

التقى فيصل إسترابادي، المحامي ذو الوجه الحاد في شيكاغو، الذي كانت عائلته تسكن بالقرب من عائلة الجلبي في بغداد قبل عام 1958، مكية للمرة الأولى في تجمّع للمعارضة في حزيران 2002. قال إسترابادي، الذي كان سيصبح نائباً لسفير العراق لدى الأمم المتحدة في الحكومة الانتقالية لرئيس الوزراء إياد علاوي. «قال لي كنعان: إن العراق لديه ديمقراطي واحد هو أحمد الجلبي»، «فكانت إجابتي: إذا كان هناك ديمقراطي واحد فقط، فهذا كثير من الديمقراطية بالنسبة للعراق. كان مؤمناً بالجلبي لدرجة التطرف، ودعم وجهة نظر المحافظين الجدد، ووجهة نظر وزارة الدفاع، بأن مشروع مستقبل العراق كان سيضعف أحمد الجلبي. وقد عارض المشروع؛ لأن الشبكة الأوسع كانت تضعف أحمد الجلبي، كانت تلك هي الكلمات التي استخدمها».

في شهر حزيران ذاته، قام دوغلاس فيث، وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسية، الذي كان يشرف على التخطيط لعراق ما بعد الحرب، بدعوة إسترابادي إلى البنتاغون. كان لدى فيث سؤال واحد: من الذي يدعمه إسترابادي في المعارضة العراقية؟ وقال لي إسترابادي: «كنت أعرف الإجابة التي أرادها. لكنني قلت: إنني أدعم مبادئ المجلس الوطني العراقي». لم يكن هذا كافياً، ففي أثناء شهر، تخلى عنه المدنيون في البنتاغون، الذين كانوا يتقربون إلى إسترابادي، ومع نهاية السنة أصبحت عداوتهم له ظاهرة. في هذه الأثناء، كان مكية قد غيّر رأيه، وانضمّ إلى مجموعة عمل المبادئ الديمقراطية. وسرعان ما أدرك إسترابادي الذي كان عضواً أيضاً أن مكية، بوصفه رئيساً للجنة التنسيقية، كان يريد السيطرة على كتابة التقرير. انسحب بعض الأعضاء؛ ودُفع ببعضهم خارجاً. استشرت الضغائن التي كانت في الحكومة الأمريكية في المجموعة. في إنكلترة، في الجلسة الرسمية الأولى، ذهل إسترابادي في مساء أحد الأيام لرؤية توم واريك من وزارة الخارجية وسامانثا رافيش من مكتب تشيني يقفان في الممر أمام مطعم كبير في لندن، يصيح أحدهما على الآخر. «كانت تلك هي المرة الأولى التي أدركت فيها مدى عمق الخلافات الشخصية بين المحافظين الجدد، وبين أولئك الذين كانوا يعلمون عم يتكلمون؟».

لم يكن مكية مهتماً بإرضاء الجميع، والوصول إلى إجماع يمكن أن يضمن عدم السماح لأحد بإفساد الأمر. كان مهتماً بالمنتج الديمقراطي أكثر من العملية الديمقراطية لمجموعة عمل المبادئ الديمقراطية. تم تنظيم الآراء المعارضة في حواشٍ سفلية، أو تم تذييلها في نهاية التقرير. وقد أكّد سياسي اقتصادي اسمه عصام الخفاجي التناقض في طريقة مكية في أحد الملاحق:

> تعليق أخير على الإعجاب المبالغ فيه بالنفس، واقتباس تصريحات، أو قرارات محددة -بغض النظر عن سخافتها- التي قام أحد أعضاء لجنة التنسيق بكتابتها أو القيام بها. وهذا، بالإضافة إلى الدور الكنسي للوثيقة التي قرّرت رفض ما لا ينسجم مع وجهة نظرها، يرسل إشارة تحذيرية لنا جميعاً حول ادّعائنا الديمقراطي، ونحن لا نزال في المهجر!

وقال فيصل إستراباذي «يريد كنعان أن يكون العريس في كل عرس، والميت في كل جنازة».

ومع ذلك فإن «التقرير حول التحوّل إلى الديمقراطية في العراق» هو وثيقة خيالية. ولا يمكن أن تكون اللجنة قد كتبته: فقد كان فيه شيء مزعج لكل فرد من أفراد اللجنة؛ لأن مكية لم يخفِ ما تشير إليه أفكاره. فعند مناقشة الفدرالية، وحتمية مشاركة كردستان في الدولة العراقية المستقبلية، ناقش بأن المناطق التي تقوم على الهوية العربية والكردية ستؤدي إلى أمة مرقعة من مواطنين من الدرجة الثانية؛ ولضمان المساواة المطلقة، يجب أن تكون الفدرالية جغرافية وليست عرقية، والعراق الفدرالي لن يكون عراقاً عربياً بشكل رسمي. وحول العلاقة بين المسجد والدولة في عراق ذي أغلبية إسلامية، كتب مكية أن الفصل بين الدولة والمسجد «سيساعد في تحقيق الإمكانيات الإبداعية والروحية الظاهرة في الإيمان الديني عندما لا يكون مقيّداً بالمدّ والجزر السياسي». وهذا البلد العلماني غير العربي يجب أن يكون غير مسلّح، حسب النموذج الياباني، وهكذا لن يكون العراق أمة معتدية بعد الآن، وسيكون غير بعثي، حسب النموذج الألماني، لإزالة الأيديولوجية الاستبدادية من جذورها من الدولة والمجتمع. يجب إجراء محاكمات لجرائم الحرب، ولجنة للحقيقة والمصالحة، ولجنة لحقوق الإنسان. ويجب كتابة دستور تحرري، مع حماية لحقوق الأفراد والأقليات، قبل الانتخابات، وإلا، فإن الديمقراطية ستؤدي إلى استبداد الأكثرية. وأخيراً، لما كانت سياسة المعارضة غير موجودة ضمن عراق صدّام، يجب أن تكون نواة أول حكومة بعد صدام مشكّلة من مؤتمر المعارضة المسجّل في نهاية عام 2002 في لندن. ويجب إعدادها لتولّي السلطة في القسم الأول من العراق الذي تقوم أمريكة وقوات التحالف بتحريره (ويجب أن يتضاعف عدد أعضاء هذه الحكومة المؤقتة في العراق)، يجب تدريب آلاف المغتربين لتشكيل قوة أمنية لفرض القانون والنظام بعد سقوط النظام.

لم يعش مكية في العراق منذ خمسة وثلاثين عاماً، أي طوال سنوات حكم صدام، وفي التقرير حول الديمقراطية، كان يحاول أن يجد طريقة للخروج من كل ذلك التاريخ المخضب بالدماء. وبينما كان المغتربون يحلمون ويعانون، كانوا يستسلمون للتفاؤل أو اليأس، ويغرقون في عدم أهميتهم، ثم يثورون عليها. أخبرت كوندوليزا رايس رند رحيم،

زميلة مكية المقرّبة في أواخر تشرين الثاني أن مشكلة العراقيين المهاجرين هي أنهم «كالبولنديين في لندن»، أي كالحكومة البولندية في المهجر التي لم يكن لها أي تأثير في أثناء الحرب العالمية الثانية. كان المسؤولون الأمريكيون العنيدون يشمّون في العراقيين رائحة عدم المصداقية؛ لم يكن لأولئك العراقيين شأن بالإعداد لحكومات مؤقتة؛ فقد كان العراقيون الحقيقيون داخل البلاد. رفض مكية هذه الخطة، وعندما اتهمه الآخرون بأنه يرفض القبول بحقائق العراق، ألجم. قال مكية: «لا أريد أن أقبلها كما هي». «في النهاية، إنها حقائق سياسية. وهناك حقائق أخرى». من الناحية الفلسفية، كان مكية خلاصياً. كان مستعداً لأن يعتقد أن العراقيين داخل العراق متعطشون لحقائق جديدة، وأنهم هم الذين كان يؤمن بهم أنفسهم، إذا سمحت القيادة لهم برؤية الطريق. أما البلاد العربية الأخرى فقد كانت غارقة في إيديولوجيات معادية للغرب، لكن السنوات الكارثية لحكم حزب البعث كانت قد كوَّنت ما يمكن تسميته بالاستثنائية العراقية. حين قابل مكية رايس في البيت الأبيض، حاول اختصار نصف عمر من التفكير. وأخبرها أن الوعي السياسي للعراقيين قد انحرف عن جيرانهم العرب بشكل مهم. فبينما كان العالم العربي والإسلامي ينتقد الولايات المتحدة لتدخلها في الشؤون العراقية الداخلية، كان العراقيون ينتقدون الولايات المتحدة لعدم التدخل بشكل كافٍ. لهذه الأسباب، قال: «يمكن تخيّل نوع جديد من السياسة في العراق». فالعراق مؤهل بشكل فريد ليصبح أول دولة عربية ليبرالية. كان التقرير حول الديمقراطية محاولة من مكية لإحداث النتيجة المطلوبة.

في مساء بارد في أواخر عام 2002 قال لي مكية في شقته في كامبريدج: «لكن التقرير هو مجرد ورقة في نهاية المطاف، ومن الدوافع الأقل أهمية وراء ذلك أن هناك عالماً من الناس في الخارج يشككون عميقاً في قدرة هذا البلد على الوصول إلى الديمقراطية. وأعلم جيداً في العمق أن لديهم أسباباً جيدة تدعوهم للشك. لست في الواقع وردياً ولست ساذجاً، كما يبدو في بعض الأحيان بخصوص هذا الموضوع. لكن يبدو لي، لأجل التاريخ، أنه من المهم أن يكون لدينا مجموعة من العراقيين الذين يخرجون وثيقة محترمة يمكن أن تؤخذ بجدّية، ويتم أخذها وتذكرها ومخضها واستخدامها على أنها نوع من أنواع الاختبار، ونوع من أنواع المقاييس التي يمكن بوساطتها قياس التقدّم في الأمور فيما بعد. وفي النهاية، فقد أنتجها

عراقيون، بحيث يمكن للعراقيين أن يرفعوا رؤوسهم ويخرجوا إلى العالم ليقولوا: لقد كنا نريد ذلك. لم تكن مجرد لعبة كلمات. لقد حاول بعضنا على الأقل».

في أواخر تشرين الثاني، دعي مكية للظهور في ندوة بجامعة نيويورك. كان جميع المشاركين الآخرين في الندوة -من خبراء أكاديميين وصحفيين تحرريين ودبلوماسي إنكليزي سابق- معارضين للحرب في العراق. شرح البروفسور مايكل والتزر، العالم والمفكّر السياسي الذي ألّف كتاب (الحروب العادلة والظالمة)، بطريقته الرقيقة المترددة أن الحرب في العراق لا يمكن أن توصف بأنها حرب عادلة. فليس هناك تهديد وشيك يستحق التدخل، وليست هناك أزمة إنسانية تبيح التدخل. كان الوقت المناسب للإطاحة بصدام هو عام 1988، عندما أباد قرى كردية كاملة بالغاز، أو في عام 1991، عندما ثار العراقيون على النظام، أو حتى في عام 1998، عندما تحدّى صدام العالم وطرد مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة. أما الآن، وقد بدأت جولة جديدة للتفتيش حالياً، ومع العملية الدبلوماسية الجارية في الأمم المتحدة، ومع منطقة حظر الطيران لحماية الأكراد في الشمال، فما هو السبب العادل للحرب؟»، قال والتزر: «ليس هناك مجزرة جماعية الآن». «هذا هو الصندوق الذي نحن فيه». وجادل والتزر بأن الإدارة في واشنطن تفكّر في حرب استباقية وليس حرب تدخل، وليس هناك أساس لنظرية الحرب العادلة في خيار حرب مماثلة. لا يزال الاحتواء جارياً، حتى لو كان العراقيون من بين أولئك الذين يتم احتواؤهم. والتزر، الذي كان مؤيداً متحمساً للتدخلات في البلقان في التسعينيات، الذي لم يكن لديه أوهام حول طبيعة النظام في بغداد، بدا غير سعيد باستنتاجه. لكن الأمر كان كذلك. ووافق الآخرون واحداً تلو الآخر. واستقرّ المدرّج المزدحم بالناس في إجماع مريح.

كان مكيّة آخر المتحدثين. وكان يرتدي جاكيتاً أسود اللون وقميصاً رمادياً مفتوح الياقة. انحنى نحو الأمام في ابتسامة اعتذارية وقال: «أخشى أنني سأقدّم ملاحظة مخالفة». وقال: إن النقاش كان نقاشاً أمريكياً أنانياً. فلم ينجح المشاركون الثلاثة الآخرون في الندوة في أخذ العراقيين أنفسهم في الحسبان، (الذين سيدفعون الثمن الأعلى في حال حصول الحرب، الذين تريد معارضتهم المنظمة الحرب بالإجماع). ووصف مؤتمر المعارضة المخطط له في أوائل كانون الأول، ثم انتقل إلى الحديث عن الانقسام داخل إدارة بوش. في ذلك الوقت

كان عدم الثقة قد وصــل إلى حدّ أن البنتاغون ومكتب نائب الرئيس كانا قد أرســلا ممثلين لحضور اجتماعات مشــروع مستقبل الدولة في العراق. وقال: «الدعم الأقوى للديمقراطيين والمســتقلين يأتــي من هؤلاء الصــقور». «لدينا دعــم أولئك الذين يدعــون إلى الحرب، بول وولفوفيتز، والوزير رامســفيلد ومكتب نائب الرئيس. أما كولن باول المتعقل فمن الواضح أنه غير مهتم بذلك، ولا يريد أن تكون له علاقة بنا». نعت مكية باول بأنه «مسترضٍ».

وبعد أن زعزع فئات الحضــور المستقرّة، مضــى مكية يصف رؤية الديمقراطية المذكورة في التقريــر. قال مكيــة: «هذه مادة راديكالية مــن العالم العربي»، «إنها مادة ناســفة». كاد ينتهي، وأصــبح صــوته أقوى، وأصــبح في الغرفة طاقة مفاجئة لا أســاس لها. وحصــل على انتباه الجميع. «إن المعارضــة العراقية هي شيء جديد في السياسة العربية. يمكن تشجيعها أو سحقها. لكن فكّروا فيما تفعلونه إذا قمتم بسحقها. إنني أسند قضيتي الأخلاقية إلى ما يأتي: إذا كانت هناك أقل فرصــة لما قلت: إنه يحدث، إذا كان الاحتمال خمســة إلى عشــرة بالمئة، فإن عليكم التزاماً أخلاقياً. وأنا أقول: قوموا بذلك».

انفجرت القاعة بالتصفيق. بدا المشاركون الآخرون في الندوة مذهولين. فمقابل الأسباب المعقولة لهؤلاء الأشخاص المتعقلين، كان مكية يقدّم شيئاً أكثر إثارة- كان يقدم وجه الأمل، مهما كان ضعيفاً.

قال والتزر: «الإجابة صعبة جدًّا».

كان ذلــك صــعباً؛ لأن رجلاً مثــل والتزر، لم يرد أن يقف في طريق حلم شــخص كمكية. لم يكــن يريــد أن يكــون في الجانب الآخر لقضــية أخلاقية كبيرة. وقد قــال لي والتزر فيما بعد: «لن أنضــمّ إلى حركة معارضة للحرب يمكن أن تقوّي صدّاماً»، وعندما سألته: هل من الممكن أن توجد حركة معارضــة للحرب لا تقوّي صــدّاماً؟، اعترف قائلاً: «يصــعب جدًا أن نفكر في الشكل الذي يمكن أن تكون عليه حركة كهذه».

لكن بحلول شــتاء 2002 - 2003، أصبحت هناك حركة معادية للحرب فعلاً، في الولايات المتحدة والعالم، وكانت تنمو بسرعة كبيرة، مع الزيادة الكبيرة المؤلمة وطقوس الدبلوماسية في الأمم المتحدة، حتى اســتوعبت طيف المعارضــة كاملة، من لافتــات المجموعات المتطرفة

التـي تقول: «لا لسـفك الدم من أجل النفـط» إلى الدعوات المعتدلة للتفتيش عن الأسـلحة، وتطبيـق القانـون الدولي، التي قامت بها منظمة Moveon. org ذات الجمهور الواسـع على شبكة الإنترنت. على الرغم من أن الرسالة كانت بسيطة، كرسائل معظم حركات الاحتجاج: أوقفوا الحرب. كانت هذه الكلمات تمحو كل الأسئلة الصعبة التي تثيرها فكرة الحرب على العراق. وفيما يخص الحركة المعارضة للحرب، كانت الأخلاق في صفّها بشكل كامل.

التقيت أكثر وجوه الحركة جاذبية في ذلك الشتاء في غرفة صفراء زاهية ترتفع طابقين عن شارع West 57 في مانهاتن، وهي غرفة صغيرة لدرجة أن ساكنها احترق بأنبوب التدفئة عندما اسـتدار في السرير، وكان يستطيع أن ينتقل إلى مكتبه دون أن يلامس الأرضية. كان إيلي باريسـر، وهو شـاب طويل ملتحٍ في الثانية والعشـرين من عمره، يمضي ساعات طويلة كل يوم على مكتبه، وهو منحنٍ فوق جهاز الحاسـوب المحمول، في إعداد إسـتراتيجية نيابةً عـن موقـع Moveon. org ويوجّه السـير الإلكـتروني لحركة آنيّة جمع جـزءاً منها في جهاز الحاسـوب الخاص به. وجمعتُ في ثلاثة أشـهر أعداداً كان جمعها يحتاج إلى ثلاث سنوات في حرب فييتنام.

كان والدا بريسر المطلقان، اللذان ربّياه في الريف في مين، محاربين قديمين من الستينيات. أما بريسـر فكان شـيئاً آخر: كان يصـف نفسـه بأنه وطني، وكان مهذّباً ومتعقلاً جدًّا، لديه نسـخة من الدسـتور على رف مكتبته، وكان قلقاً حول أثر الحرب في سمعة أمريكة في العالم. كان يبـدو أنه موجود، حتى لا تسـتطيع بقية البلد رفض الحركة المعارضـة للحرب بوصـفها ظاهرة هامشـية للمسالمين والمنكرين الشباب. قال لي بريسر: «أنا لا أدري ما المنطقي في أن نخاطر بكل ما نخاطر به، سـواء من حيث وضـعنا العالمي، أو من حيـث أرواح جنودنا، لأجل فكرة غامضـة، يظن أولئك الأشـخاص أنها يمكن أن تكون أفضـل دون ذلك الرجل؟». كانت هذه الفكرة الدقيقة ستصـنع قضـية، وحرّكت ملايين الأمريكيين. لكن أول ما يلاحظ فيها أنها محافظة بشـكل أساس. كان الاحتواء يحافظ على الوضع مع تصوّر الفضيلة الأمريكية. يعود بريسـر من جهة أبيه إلى اليهود الصـهاينة الذين ساعدوا في إقامة تل أبيب، ومن جهة أمه إلى اشتراكيين بولنديين. لكن معاداة الفاشيين التي ميّزت الشباب في اليسار تحوّلت، في صـحوة فييتنام والحركة الخضـراء، إلى نظرة عالمية أكثر حذراً، غالباً ما تصل في التطبيق

إلى الانعزالية. لم تكن الحرب التي اندلعت في زماننا ضد الفاشيين -في البوسنة وكوسوفو- مذكورة أو ملحوظة لدى جيل بريسر من الناشطين. وعندما سألت بريسر إن كانت رغبات العراقيين أنفسهم يجب أن تؤخذ في الحسبان، أجابني: «لا أظن أن هذا يتعلق بهم بالدرجة الأولى، والأكثر أهمية بقدر ما يتعلق بنا، وبالطريقة التي نعمل بها في العالم».

كان ذلك أكثر صدقاً من كثير مما سمعته في صباح 15 شباط 2003، في التجمّع المعارض للحرب الذي تم بالقرب من مبنى الأمم المتحدة. كان يوماً بارداً في نيويورك، لكن مئات الآلاف من الأشخاص لم يخشوا البرد (كما خرج الملايين في أنحاء العالم)، وملؤوا First Avenue من شارع 51 إلى شارع 72. خلف المنصّة المؤقتة، قدّم بريسر نفسه إلى دين كوسينيتش، رجل الكونغرس الديمقراطي من كليفلاند، الذي كان يلمّح إلى أنه قد يشنّ حملة معارضة للحرب وللرئيس. صرّح كوسينيتش، الذي صعد إلى المنصّة بعد بريسر قائلاً: «أثبت إيلي أننا في حقبة جديدة من النشاط ذي الجذور الخضراء. فأساس الوحدة البشرية ليس إلكترونياً فقط - الوحدة البشرية تسبق الوحدة الإلكترونية، ثم تقدمت بها أكثر. ويمثّل إيلي (المدّ المتقدّم) الذي قال إيمرسون: إنه «يوجد لنفسه حالة خاصة به. والسؤال هو الإجابة ذاتها)».

كانت روح إيمرسون في First Avenue. وهناك نوع قديم جدًّا من المحتجّين، كثورو صديق إيمرسون مثلاً، أو جون براون، اللذين كان يحترمهما، أو الأحدث كالإخوة بيريغان- الذين كانوا يرون السياسة بمنزلة تعبير عن الأخلاقيات الشخصية، الذين يعني لهم التفكير الإستراتيجي نوعاً من الخطيئة. وحالما تتم الإجابة عن السؤال الضميري الأساسي، لا يعود هؤلاء الأخلاقيون مهتمين كثيراً بالتفاصيل أو النتائج. وكما يقول ثورو: «إنهم لا يحضرون مؤتمرات تحضيرية، ولا يقومون بتسويات، ولا يستخدمون السياسة». كما أن لهذه الروح ميلاً إنجيلياً كذلك، وكانت تعود إلى الرئيس بوش بقدر ما تعود إلى خصومه المعارضين للحرب، الذين كانوا يعكسون صورة أحدهم للآخر في النظر إلى العالم عبر عدسة التقاطب الأخلاقي، لذلك لم تكن فكرة أن الحرب قد تقوّي وضع صدّام ذات أهمية. سألت ليسلي كاغان، مؤسسة المجموعة التي قامت بتنظيم التجمّع، إن كان المتحدّث الذي يريد أن يقدّم

بوضوح ملاحظات مؤيدة لصدام، سيمنع من الصعود إلى المنصّة. فقالت: «نحن نحاول أن نحذف الناس».

كان إيلي بريسر يرتدي بذلة وربطة عنق، وحين حصل على تسعين ثانية على المنصّة كاد يثب على أصابع قدميه في الهواء القطبي، ولم يستطع أن يخفي ابتسامته وقد أعلن إيلي للحشد المشجّع في First Avenue: «مقابل كل شخص موجود هنا، هناك مئة آخرون لم يستطيعوا الحضور». «أنا أعرف ذلك، فقد تلقيت رسائل إلكترونية منهم. إنهم من الأمريكان العاديّين الوطنيين السائدين». كان معظم المتحدّثين الآخرين أكثر تشدّداً، وأخذ الحدث في بعض الأحيان نبرة تجمّع تضامن مع العراقيين، والفلسطينيين، وكأن مصالحهم كانت واحدة. صرخت شابّة من تجمّع Def Poetry Jam: «نرسل حبّنا إلى الشعراء في العراق وفلسطين. فَلْتَبْقَوا بأمان!» أما فكرة أنه لم يكن في العراق أمان ولا حتى شعراء، وأن العراقيين، مع أنهم لا يرحبّون بتهديد القنابل، قد يكونون واقعيين بما فيه الكفاية؛ ليقبلوا الحرب على أنها أملهم الوحيد للتحرّر من الاستبداد، فقد كانت حرفيّاً غير موجودة. وغنّت ريتشي هافنز أغنية «الحرّية»، كما غنّتها في Woodstock، لكنني لم أستطع إلا أن أتساءل: لمن؟ كان المحتجّون يرون أنهم يدافعون عن العراقيين من القدر الرهيب الذي كانت الولايات المتحدة تستعدّ لإيقاعه بهم. لِمَ قد يريد العراقيون الحرب؟ كانت افتراضات الحركة تقوم على براءة أخلاقية، -مع عدم القدرة على تخيّل الرعب الذي يعيش فيه العراقيون- والرغبة بأن تجري الأشياء الجيدة جميعها معاً، وبالدفاع الكامل. ولأن الحرب شر، فلا بدّ أن يكون منع الحرب خيرًا.

في ذلك الشتاء، عاش الأمريكيون مدة تردد لا تحتمل؛ فقد كان كل واحد منهم يعلم في قرارة نفسه أن الحرب آتية. لكن القوى العظمى كانت تمثل دراما مصطنعة لتحاول تجنّب الحرب، وفي الفاصل الذي بدا أبدياً، انتعش نوع من الهستريا الكلامية على جميع الصعد. وكان أي شخص يطرح أسئلة شرعية تماماً حول الحرب يصبح مجاملاً، ووسمت أمم أوروبية كاملة بعار الاسترضاء. وفي كافيتريا الكونغرس، كانت البطاطا المقلية توصف بأنها بطاطس الحرية. وسبّبت حمّى الحرب اندفاعاً لهرمون التستوستيرون في أشخاص لم

يكونوا مقاتلين طوال حياتهم، واكتشفوا فجأة تشرشل الذي بداخلهم. وفي هذه الأثناء، كان يقين الرئيس بوش المتصلب يجعل خصومه يصوّرونه على أنه واحد من وحوش العدوان في التاريخ، ويقولون: إنه مضلل من قبل الصهاينة ومسمم بشهوة النفط. سافر السياسيون ونجوم السينما إلى بغداد وجذبتهم الدعاية البعثية. بقي بعضهم دروعاً بشرية، وكانوا يبذلون جهدهم للمحافظة على وحش حقيقي من وحوش العدوان في السلطة على شعبه المكمم الأفواه.

وسط هذا الضجيج، كان من الصعب التفكير بوضوح. سمح الكثير من الناس للتشابهات التاريخية أن تقوم بالتفكير عنهم. وفي النهاية وصلوا إلى حدثين مشابهين. قال لي ليون وايسلتير مؤلف كتاب (الجمهورية الجديدة): «لطالما فكّرت أن الناس في جيلنا، ربما في السنوات الخمسين الأخيرة في أمريكة، قد عملوا وفقاً لمشهدين رئيسين: أحدهما الحرب العالمية الثانية، والآخر هو حرب فييتنام. ويمكن أن تقسم المعسكرات حول استخدام القوة الأمريكية إلى أولئك الذين يستخدمون أنموذج الحرب العالمية الثانية، الذين يستخدمون أنموذج فييتنام». فيما يخص وايسلتير، كان المشهد الرئيس هو الحرب العالمية الثانية؛ لأن والديه قد نجوا منها في أوروبة. «لاتزال الحرب العالمية الثانية تجعلني أبكي. أما الأشخاص الذين يرون فييتنام على أنه مشهد رئيس -وهم كثر- فأتوقع أن قلة منهم فقط كانت تفكر بالطريقة ذاتها. كانوا يشعرون بنوع من العزلة التي يشعر بها المجروح أو المصدوم».

لكن الحرب العالمية الثانية وفييتنام لم يكونا دليلين موثوقين إلى العراق. كان توسّل ميونخ والاسترضاء من جهة، أو خليج تونكين والخداع من جهة أخرى، يبدوان طرقاً لإنهاء الخلاف وليس لإثارته. ودارت أكثر نقاشاتي حول الحرب حرارة وتشويشاً عندما كنت وحدي. كنت أبحث وأكتشف الأسباب الكثيرة المقنعة التي تجعل الحرب خياراً غير حكيم، ولا أجد في النهاية إلا أن صداماً كان لا يزال في السلطة، يعذّب شعبه ويتحدّى العالم. لم تكن حرب الإدارة هي حربي - لقد كانت حرباً مندفعة، وغير صادقة، وفيها تحيز لا يغتفر، ومدمّرة للتحالفات - لكن الاعتراض على المؤلفين وعلى طرقهم لم يبدُ سبباً كافياً للوقوف في طريقهم. فالإنسان لا يحصل على خيار الآخرين للحرب. ولأصف وضعي، كنت أنتمي إلى المعسكر الصغير غير المهم لليبراليين المؤيدين للحرب بشكل متناقض، فقد كنت

أدعم الحرب بالقدر نفسه الذي دعم به جمهور الناخبين آل غور. وقد اتخذت هذا الموقف انطلاقاً من التدخلات التي جرت في العقد الأخير في هاييتي، والبوسنة، وكوسوفو. كانت حرب العراق تدور حول شيء آخر غير حقوق الإنسان والديمقراطية، لكنها يمكن أن تقدّم فوائد مماثلة. كنت أريد إطلاق سراح العراقيين السجناء؛ كنت أريد أن أرى ديكتاتوراً قاتلاً يعزل من السلطة قبل أن يرتكب جرائم جماعية جديدة؛ كنت أريد أن أرى إن كان للمجتمع المنفتح فرصة للتجذّر في قلب العالم العربي. وأكثر من أي شخص آخر، كان كنعان مكية يوجّه تفكيري، وكنت أجد من الأسهل دائماً، أن أتخيل النتيجة السعيدة عندما أسمعه.

قبل الحرب، كان ما لا يقل عن ثلاثة ملايين عراقي يعيشون في المهجر، وفي الأسبوع الثاني من كانون الأول 2002 بدا أن معظمهم قد ظهروا في فندق لندن هيلتون ميتروبول. كان فندقاً جديداً فخماً على امتداد شارع إدغوار، على مقربة من محطة بادينغتون. كانت المصاعد والممرات البراقة تعجّ بالمئات من رجال الدين، والملكيين والضباط السابقين ورؤساء الأحزاب ورجال الأعمال، والمثقفين، والمخططين، الذين كانوا يشكّلون المعارضة العراقية في المهجر. كانوا بعمائمهم وعباءاتهم، وكوفياتهم أو بذلاتهم الرسمية، يحتشدون في مظهر تآمري، ويستحمّون بأضواء الكاميرات، ويلصقون هواتفهم الخليّوية بآذانهم، وقد لفت نظري أنهم لا يشبهون المستقلّين ذوي الفكر التحرري، الذين كان كنعان مكية يتحدث عنهم. كان بعضهم يشبه المسؤولين السمان من الجمهوريات السوفياتية في وسط آسية. أما رجال الدين الشيعة الملتحين بمظهرهم المهيب، فقد كانوا يذكّرون بكلمتي «الفتوى» و«الرجم». أما النساء القلائل جدًّا، فقد كان بعضهن مغطى بالحجاب الكامل.

كان الأمريكيون متناثرين بينهم، وقد اندسّوا بينهم بشكل ضعيف. كان هناك مبعوثون حذرون من وكالات حكومية مختلفة، وشخصيات أقل حذراً من جماعة تغيير النظام في واشنطن، وكان هناك فرانسيس بروك، مدير العلاقات العامة ذو الابتسامة المتعجرفة، الذي كان يعمل لدى الجلبي. كما كان هناك راندي شوينمان، الذي كان في السابق مساعداً لترنت لوت، وأصبح الآن في لجنة تحرير العراق، ودانييل بليكتا، الذي كان في السابق من بين الموظفين في لجنة العلاقة الخارجية لجيس هليمز، وأصبح الآن نائب رئيس معهد المؤسسات الأمريكي. وكانت هناك لوري ميلوري، الباحثة المستقلة الخرقاء، تبيع نسخاً من كتابها

الـذي ادّعـى إثبات ثورّط العـراق في تفجير مركز التجارة العالمي عـام 1993، وحمل تعريفاً بالكتاب من باول وولفوفيتز، كما كان هناك شـاب قصـير نحيل يرتدي بذلة رسـمية، اسمه تشـارلز فورسـت، ويدور قرب الجدار، وقد بدا أنه يملك بعض المعلومات السـرية الخطيرة. كان تشـارلز فورسـت يعمل لدى منظمة ذات تمويل حكومي في واشـنطن، تعدّ لرفع قضـية قانونية ضـد صدّام حسين، لكن طريق مهنته عبر أعمال حكومية متعددة في الشرق الأوسط بدا غطاءً لقصـة جاسـوس، صاح تشـارلز فورست: «فجأة أصـبح الناس يرون هذه المنطقة برمتها تهديداً لنا. فهي مشـتعلة كلها، وتشـكّل خطراً علينا»، «لقد آن الأوان، ويجب أن يتغير كل شـيء». كان هناك السـيناتور سـام براونباك، وهو مسـيحي محافظ من كنساس، يعقد مؤتمراً صحفياً مرتجلاً مع قادة أحزاب المعارضة، الذين قارنهم بجفرسون وآدم وفرانكلين. صـرّح السيناتور براونباك: «الديمقراطية صعبة، لكنها حتماً الشكل الوحيد للحكومة، الذي يسـمح للناس بالتقدّم»: «لقد دعـا القدر هؤلاء القادة إلى حمل العـبء الثقيل لإعادة إحياء أمة». تحرك هؤلاء الأمريكيون عبر الحشد من عراقيي المهجر بحماس أخاذ وملفت كحماس التبشيريين بين المهتدين.

تم عرضـ فيلم عـن رواية غراهام غرين حول شـاب أمريكي في سـايغون لديه رف من الكتـب حول الديمقراطيـة ورأس مليء بأفكار بريئة إلى حد خطر، يعمل تحت غطاء لإيجاد «قـوة ثالثة» يمكن أن تغير صـورة فييتنام في أمريكة. كان فيلـم (الأمريكي الهادئ) جاهزاً للتوزيع بعد الحادي عشر من أيلول مباشرة، لكن مخاوف ميراماكس من أن يظن أن الفيلم غير وطني أخّر إطلاقه أكثر من سنة. لكن اتضح فيما بعد أن ذلك التوقيت كان هو الأفضل. كنت حذراً من معاداة غرين لأمركة، التي كانت شكلاً من أشكال التكبر البريطاني، وحالته النفسـية المتعبة، وحبّه للكاثوليكيين الغارقين في جحـور الأفيون. ومع ذلك، ففي عام 1955 كان يرى أن القدرة الأمريكية على ارتكاب الأخطاء والجرائم متناسـبة مع براءته وصلاحه الذاتي. كان من المسـتحيل عدم التفكير في هؤلاء المتطرفين الجدد بوصفهم الجيل الأحدث من الأمريكين الهادئين.

في فنـدق لندن هيلتـون ميتروبول، كان كنعان مكية يبدو غريـب المظهر، حيث كان يبدو أشـعث في أكمام قميصـه، وحذائه الجلدي، كان حليق الوجه كعادته. كان السياسـيون من

الأحزاب الكردية والشيعية والضباط السابقين يشتكون من أن مظهر مكية غير الرسمي يفتقد إلى الاحترام. وأسوأ من ذلك كله كانت الصراحة التي تحدّث بها مكية عن الحاجة إلى تجاوز «السياسة القديمة» للأحزاب العرقية.

كان يريد أن يصوّت المؤتمر مع تقريره أو ضدّه، وكان يخشى أن تقدّم بعض الأحزاب الأكثر عدداً -وخاصةً الأحزاب الشيعية غير السياسية- عروضها المعدّة بعجالة لتسبق عرضه. كان قد أمضى الأيام التي سبقت المؤتمر محاولاً إقناع كوندوليزا رايس ومبعوثها إلى المعارضة العراقية، زلماي خليل زاد، أن هناك تمثيلاً زائداً للأحزاب التقليدية، وأنه من الواجب إنقاص عدد الأعضاء المستقلين في المجلس الوطني العراقي، الذين يشبهون في تنوّعهم وأفكارهم العراقيين داخل العراق. كما أرسل قائمة بأربعين أو خمسين اسماً إلى خليل زاد، كتب في رسالته: «نحن المستقلين... جماعة صاخبة وعنيدة وصعبة»، «لكننا أقوياء فيما يتعلق بالقيم الرئيسة التي نريد أن نرى العراق بها، وهي قيم تعلمناها في النهاية من الغرب. وقد سخّرت ربع قرن من عملي حول العراق لنشر هذه القيم بين العرب».

كان خليل زاد، المفكر في وزارة الدفاع ومساعد ولفوفيتز مدة طويلة، الذي أعدّ (دليل التخطيط الدفاعي) الذي أثار الجدل عام 1992، في لندن للتأكد من أن المعارضة العراقية العنيدة تقدّم للعالم وجهاً موحّداً. لم تكن سياسة الإدارة حول العراق بعد الحرب واضحة أبداً، لكن خليل زاد أعلم العراقيين بأنه لن يتم اختيار حكومة مهجر أو «سلطة انتقالية» في لندن. ومع ذلك كان مكية هنا، مع مسانديه الأقوياء في البنتاغون، وفي مكتب نائب الرئيس، يرفض أن يمارس اللعبة، ويصر أنه هو وأصدقاؤه وزملاؤه المستقلون يمثلون الوجه الحقيقي للعراق، وأن الأحزاب التقليدية «ستصبح حتماً أكبر عقبة أمام النهضة الاقتصادية والسياسية للعراق التي أعلم أن الحكومة الأمريكية ترغب في رؤيتها تحدث». كان مكية والمؤتمر الوطني العراقي قد أقنعوا أنفسهم نوعاً ما بأن العدو الأكبر للعراق المحرّر سيكون البيروقراطيين في وزارة الخارجية، والسياسيين الأكراد والشيعة.

كان هناك شخص غاضب يناور خلف الكواليس. سأل ضابط من مجموعة العسكريين السابقين: «من هو كنعان مكية لكي يقترح هذه الأسماء؟». كان الجلبي عائداً من طهران،

بعد أن أبرم اتفاقاً مع الأحزاب الكردية والشيعية؛ لتشكيل حكومة مؤقتة على الرغم من الأمريكيين. ثم ثار المندوبون السنّة بشأن قلة أعدادهم. توسّط خليل زاد، الأفغاني الأمريكي الذي كان يفهم طبيعة سوق السياسة الإقليمية، في المسألة: فتمت زيادة أعداد السنة والمستقلين، وخفض أعداد الشيعة. كان مكية يسابق لترجمة تقريره البالغ 329 صفحة (عدا الملاحق وغيرها) وطباعته، على حساب الحكومة الأمريكية بما لا يقل عن ألفي دولار. وكان يتفاوض مع عدوّه القديم من وزارة الخارجية على السعر. قال مكية وهو يتنهّد: «أستطيع أن أعدك»، «لا أحد يريد أن ينفق المال على هذا».

كان مكية أسوأ عدو لنفسه بوصفه سياسياً. فقد كان يستخدم في الشجار الأسلوب الجدّي الشديد الذي جعل كتابته قوية جدًّا، وجعل الجميع بمن فيهم أصدقاؤه يهزّون رؤوسهم. ربما كان في أعماقه في مياه السياسة العراقية الخطيرة: كان كاتباً، وكان يفكر لنفسه، لم يكن يهتم بالتحالفات والاتفاقيات قط. وكان في عام 2002 أراح نفسه بدخول التيار، ثم انغمس فيه، وانجرف معه. كان يريد أن يتحكم في مساره التاريخي، لكن كما كتب راندولف بورن عن المثقفين الأمريكيين الذين ذهبوا للحرب في أوروبة عام 1917، ولديهم أسمى الدوافع الإنسانية، «إن كانت المسألة هي التحكم في الحرب، فمن الصعب أن نرى كيف يمكن لطفل يجلس على ظهر فيل مجنون أن يكون أكثر تأثيراً في إيقاف الوحش من الطفل الذي يحاول إيقافه من الأرض». كان مكية متغطرساً، ومثالياً، ومتهوراً، وشجاعاً. ماذا كان بإمكانه أن يفعل غير ذلك؟

ذات مساء، التقى مكية وصديقه سام الجلبي في بلومسبيري، على مقربة من بيت أهل مكية، مقابل المتحف البريطاني في كافيتريا بجانب مكتبة الشرق التي كانت تديرها أرملة إنكليزية عجوز، وحيث كان مكية يحب أن يتجول أيام شبابه. كان الجلبي، الذي يظهر من شكل رأسه وبروده الغامض المقصود ابن شقيق من هو، أقرب المعاونين لمكية في إعداد التقرير، لكن في أثناء تناول الكابوتشينو قال لمكية: إن صراحته كانت تؤذي قضيتهم. اعترض الأكراد بشدة على اقتراح فدرالية غير عرقية، مما يعني نهاية لتجربتهم للحكم الذاتي على مدى عقد من الزمن. لقد ناضلوا بشدة للحصول على اعتراف ووضع مساوٍ للعرب، ولن

يتنازلوا عن ذلك دون قتال. كما أن رأي الحزب الشيعي عن القسم المتعلق بالدين والدولة لم يلتمس بعد. أما السنَّة فكانوا الأكثر غضباً. لم يكن هناك شمولية.

أومأ مكية برأسه، وقال: «لقد بدأت أكره كلمة الشمول هنا، أعرف أن هذا سيعني أقل قاسم مشترك. ولن يقال شيء له معنى». كان يتعرّق، وكان العرق يرسم خطاً عميقاً في جبهته. لم أره متوتراً بهذا الشكل من قبل، بدا منهكاً. وكان هاتفه الخليوي الذي حصل عليه مؤخراً، يربكه. بدا أن أشهر العمل والضغط الذي يتحمله بإرادته، والعاصفة التي تدور حوله قد ألقت عليه إجهاداً لا يطاق.

«قال الجلبي، الذي كان يعمل محامياً في اندماج الشركات والاستملاك: إنهم ينظرون إليك بوصفك متطفلاً يفرض عليهم شيئاً. لنركز على أجزاء الوثيقة التي يمكن للآخرين أن يتبعوها: حقوق الإنسان، العدالة الانتقالية».

«إنهم يريدون الخروج من هذا الأمر أسرة واحدة كبيرة سعيدة. إنهم يريدون إظهار الوحدة والتأييد للأمريكيين. وأنا أريد أن أكسب شيئاً ملموساً». كان مكية يريد أن تلتزم المعارضة بمجموعة من المبادئ وتقوي يد الأمريكيين قبل أن يبدأ إطلاق النار، وتأخذ الحرب مجراها. «لكنني أخشى أننا نخوض معركة خاسرة».

أصرّ الجلبي قائلاً: «لا أريد أن أستسلم، أو أنسحب من الوثيقة»، «لكن عليك أن تلعبها كلعبة».

نظر مكية إلى الجلبي بعجز، وقد بدا الضيق على وجهه. «أظن ذلك».

أصرّ الجلبي على مكية أن يخفف من انفعاله، فَلاَن.

في مساء ذلك اليوم، ذهبت إلى مكاتب المجلس الوطني العراقي في نايتسبريدج الفخمة. في الطابق العلوي، كانت مجموعة من الموظفين الشباب المتأنقين تلتف حول رجل أصلع مكتنز يجلس على أريكة، ويجيب عن الرسائل الإلكترونية، بينما يستمع إلى مقطوعة موسيقية لألبينوني Adagio in G Minor على أسطوانة ليزرية. كان ذلك الرجل هو أحمد الجلبي. وكان يرتدي بذلة بنية مقلمة بخطوط رفيعة، ولها صفان من الأزرار وربطة عنق صفراء من

الحرير، وقد ربطها ربطة ويندسور. نظر إلي، ورحّب بي بابتسامة مهيبة، كانت تعبيره العام الدائم، لم يكن هناك وقت للحديث؛ فقد كان عائداً قبل برهة قصيرة من طهران ولديه عمل سيستمر إلى الليل.

ذهبت في جولة قصيرة في السيارة مع الجلبي ومكية وآخرين. تلقى مكية اتصالاً على هاتفه الخليوي: كان يتكلم عن جلال طالباني، أحد القائدين الكرديين. «إنه ماركسي، غروشوماركسي»، قال الجلبي ضاحكاً: «لا تعجبك مبادئي؟ لدي مبادئ أخرى».

التفت إليّ نبيل الموسوي، اليد اليمنى لجلبي. كان رجلاً طويلاً وسيماً، عمل سابقاً مديراً لمطعم بيتزا، وكان يرتدي «كنزة» ذات قبة عالية وجاكيتاً، وله لحية خفيفة مشذبة بعناية. «المستقلون هم المرحلة الأكثر تقدماً بين سياسة الماضي وسياسة المستقبل، وأنا لا أعني بسياسة الماضي الأحزاب التقليدية فقط، وإنما وزارة الخارجية أيضاً، بتفكيرها المتهكم أن العرب لا يمكنهم الحصول على الديمقراطية، وأنهم بحاجة إلى شخص قوي ليحكمهم». وهنا هدأ الجدال، لكن كان من المثير قضاء ساعة في الدائرة الداخلية للجلبي والشعور باليقين المنعش، الشعور بمجموعة من النخبة تقود موجة ضخمة من التاريخ إلى مستقبل يعود إليهم.

قد يكون عالم العراقيين في لندن من صنع كونراد: وهو مالك مقهى كان مؤسساً للجنة الصداقة بين العراق وإسرائيل التي كانت محظورة في كلا البلدين، والمحرر الصحفي الذي احتفظ بصورة مع صدام من الماضي، وكان يخطط لإنشاء جريدة اسمها بابل تايمز عندما يعود إلى بغداد، والصحفيين العاطلين عن العمل الذين كانوا يعملون بمحافظهم الجلدية، والجلسات الإستراتيجية حول الحمّص والكباب في كافيتريا لندن الخارجية، والمحادثات المغمورة بالحنين في غرف الجلوس عند احتساء الشاي ليلاً، والدسائس المريرة بين الرجال الذين كان بعضهم يعرف بعضهم الآخر بشكل جيد، بعيداً عن موطنهم الأصلي، وكانوا متشابهين أكثر مما يعرفون. لقد ظلوا نصف حياتهم ينتظرون حدوث هذا الحدث الهائل. كان ذلك عائداً للأمريكيين.

وصل مصطفى القديمي إلى لندن عام 1999 ولم يكن يحمل إلا درفة نافذة منقوشة من بيت عائلته في أحد أحياء بغداد القديمة. عندما التقيته كان في الرابعة والثلاثين من عمره، لكن وجهه الضعيف المنهك، وشعره الذي تغطيه البقع الرمادية جعلاه يبدو أكبر عشر سنوات. قال لي مصطفى بنبرة عادية: «لدي قصة مأساوية». لقد ولد في عائلة من التجار الشيعة الأثرياء، لكن البعثيين صادروا المنزل، ثم الشركات، وأخيراً بدؤوا باعتقال إخوة مصطفى الذين انضموا، كآلاف الشيعة، إلى حزب الدعوة المستلهم من الخميني في أوائل الثمانينيات. وحتى مصطفى كان مشتركاً في حزب الدعوة، وعندما تم اعتقال أصدقائه الثلاثة وقتلهم، هرب من بغداد عن طريق الشمال. كان ذلك في عام 1988، حين كانت عملية الأنفال على أشدّها. ائتمنت عائلة من اللاجئين الأكراد من إحدى القرى المدمّرة مصطفى على ابنتهم ذات السنوات الخمس، لكن في طريقه إلى الحدود التركية كانت طائرة مروحية من سلاح الجو العراقي تطير على ارتفاع منخفض، وأجفلت الحصان الذي كان يركبه مصطفى والفتاة. فسقطت الفتاة وماتت بين يديه «إنها صورة لا أستطيع أن أمحوها من رأسي».

كانت عائلة الفتاة قد رحلت إلى طهران، حيث وجدهم مصطفى ونقل إليهم الخبر الرهيب. أظهرت له السنة التي أمضاها في إيران الثيوقراطية «الوجه الحقيقي للفكر الإسلامي». لم تذكره بشيء كما ذكرته بالنظام في بلده؛ حتى إنه سجن مدة أربعين يوماً بعد نشر مقال في الجريدة عدّ أن فيه كفراً. وبعد عام 1989، بدأ مصطفى عقداً من التجوال. فقد ذهب من إيران إلى سورية، ولبنان، وأخيراً إلى الجزر اليونانية، حيث عمل نادلاً في أحد المنتجعات. وذات يوم في منتصف التسعينيات، كان من النزلاء جورج بوش الأب، وبينما كان يقدم الطلبات لمائدة الرئيس السابق، استجمع مصطفى الشجاعة الكافية ليتقدم ويسأله: لماذا تركت الحكومة الأمريكية صداماً في السلطة ليذبح العراقيين المتمرّدين بعد حرب الخليج عام 1991؟. وعندما التقيت به، كان لا يزال في انتظار الإجابة. وفي لندن، عمل مصطفى حمّالاً في فندق، لكنه سرعان ما وقع في دائرة المجلس الوطني العراقي، والتقى كنعان مكية، الذي حوّلت كتبه عقل مصطفى، وأكملت تطوّره إلى ديمقراطي ليبرالي.

لم أعرف تماماً كيف كان مصطفى يكسب لقمة العيش (كانت زوجه تنتظر مولودهما الأول). كان له صلات مع إذاعة أوروبة الحرّة وجريدة المجلس الوطني العراقي الأسبوعية، وكان مكتوباً على بطاقة عمله «مؤسسة شؤون العراق المستقبلية». قبل شهرين كان في دمشق، تعرّف أحد سائقي سيارات الأجرة على لهجته، وقال له: «مبروك. فالأمريكيون قادمون لمساعدتكم. لنأمل أن يأتوا لمساعدتنا بعد ذلك». وأكّد لي مصطفى أن هذا هو رأي الشارع العربي، وليس الرأي العدائي في وسائل الإعلام العربية. قال مصطفى: «مشكلة العرب هي أننا نعيش على تاريخنا». «والتاريخ كذبة كبيرة». كان مصطفى خجلاً من إنكليزيته، لكن كان لديه طريقة ساخرة من اللغة. كل ما كان يعنيه، هو أن يكون الرئيس القادم للعراق امرأة أو رجلاً بلا شارب. لقد خسر في المهجر كل شيء تقريباً. فقد ماتت أمه التي لم يرها منذ عام 1988، في بغداد بعد أشهر قليلة من بداية الحرب التي كان من الممكن أن تجمعهما من جديد. كان مصطفى أحد الفارّين من الديكتاتورية الذين علّقوا حياتهم كلها في انتظار سقوط النظام. أمضى يوماً كاملاً يدور بي بسيارته في الجزء العراقي من لندن، وهو يصرّ على دفع كل التكاليف. وعند الوداع، قبّل خدّي بحرارة، ووعدني أن نلتقي قريباً في بغداد. كان من المستحيل ألا أتمنى ذلك أيضاً.

في القاعة الكبرى في فندق لندن هيلتون ميتروبول، كان مكية يجلس إلى طاولة طويلة بجانب أحمد الجلبي وبعض شخصيات المعارضة الأخرى أمام حشد من الصحفيين. وكان غياب قادة الأحزاب العرقية واضحاً. كان مكية قد وعد بألا يقول شيئاً، وكان عند كلمته مدة. لكن عندما بدأ الصحفيون بتوجيه الأسئلة إليه، وصف ما كان في التقرير، واحتدّ كالعادة. «إنه يحمل فكرة جديدة تماماً لا توجد في أي مكان من العالم العربي المسلم. هذا شيء هائل، شيء لا يصدّق. نحن نتحدّث قبل كل شيء عن فكرة ديمقراطية، ليست فقط حكم أكثرية، فكرة ديمقراطية حول حقوق الأقليات، وحقوق المجموعات، وقبل كل شيء حقوق الأفراد».

انتشرت التمتمة بين الصحفيين، وانتشرت موجة من الإثارة. من هو هذا الرجل؟ إنه لا يبدو كطابور المتحدّثين الذين كانوا يدندنون طوال عطلة نهاية الأسبوع.

قـال مكية: «على فكرة، إنهـا وثيقة حرب». «فنحن ننوي أن نحـارب من أجلها على أساس المؤتمر».

عندما انتهت الجلسـة، تحلّق الصحفيون حول مكيّة. أسرع إلى القاعة هوشيار زيباري، قائد أحد الأحزاب الكردية، وكان غاضـباً محمرّ الوجه، وكان يخبر كل من يسـتمع إليه أن وثيقة مكية ليس لها سلطة على المؤتمر.

سـألت زيبـاري فيما بعد عن رأيـه في أفكار مكية حـول الفدرالية، والأحـزاب العرقية، والسياسة القديمة والجديدة. كان زيباري (الذي سيصبح فيما بعد وزير الخارجية القدير للحكومة العراقية الجديدة، وأول كردي يشـغل هذا المنصـب في تاريخ العراق) رجلاً غليظ الطباع له شـارب أسود كثيف. كان يضحك في أثناء السؤال، لكنه ظل يضربني على صدري وهو يتحدث. وقال زيباري: «نحن متجذرين في البلاد، نحن الذين عانينـا. ماذا فعل كنعان مكيـة، أنا أقدّر عمله الفكري، لكنه ليس سوى رياضـة فكرية».

فقلت: «إن مكية يحاول أن يتفرغ له بجدية».

قـال أمريكي يرتدي بذلة زرقاء، كان يـدور حولنا ونحن نتحدث: «إنه الوحيد». لقد كان ذلك الرجل هو ديفيد ل. فيليبس، المسـؤول في مجلس العلاقات الخارجية، وكان قد تشـاور مع وزارة الخارجية حول مشـروع مسـتقبل العراق. «ليس التقرير وثيقة سياسـية، إنه ليس مخططاً. وإذا أصـبح كذلك، فإنه سـيكون محل خلاف». انتقد فيلبس مكية بحدّة لاحتكار كتابة التقرير، ومن ثم الضغط بشدة لفرض أحكامه. كانت أفكاره عالية جدًّا، وكانت تسبق وقتها كثيراً، بحيث يصـعب أن تتاح لها فرصـة كي تتحقق قريباً. «العراقيون غير مستعدّين لسياسة جديدة. فالتركيبات القبلية والتجمعات العرقية، تعني الكثير للعراقيين. إنها مهمة. هذا ليس مختبر برانديس».

انتهى مؤتمر لندن بتعابير الوحدة والدعم لذلك الشيء الغامض المسمّى الديمقراطية في العراق، لكن لم يتم تشكيل حكومة مؤقتة، كما أن تقرير مجموعة عمل المبادئ الديمقراطية، الذي تمت طباعته وتوزيعه، مع مئات الصـفحات من الملاحق والمعارضات، لم تتم مناقشته رسـمياً قط. وفي واشنطن، شكر المسـؤولون المجموعة لمشورتها، ووضعوا التقرير الذي طالما

سعت وزارة الخارجية للحصول عليه جانباً. كان مكية قد تحداهم لإثبات وجهة نظرهم، وهم يتحدّونه الآن.

استمرت الحركة في اتجاه الحرب بالتقدم نحو الأمام، سواء بالمبادئ الديمقراطية أو دونها. استفزّ مكية قسماً كبيراً من المعارضة العراقية، لكن كان لا يزال له مؤيدون أقوياء في واشنطن. في 10 كانون الثاني 2003، تم إيصال مكية ورند رحيم، وطبيب من عائلة سنّية بارزة في تكريت يدعى حاتم مخلص إلى المكتب البيضاوي لاجتماع مع الرئيس وتشيني ورايس وخليل زاد، سألهم بوش عن قصصهم الشخصية، لكن المغتربين قضوا أيضاً جزءاً كبيراً من الوقت، وهم يشرحون لبوش أن هناك نوعين من العرب في العراق هم السنة والشيعة. كانت فكرة المعارضة العراقية ذاتها تبدو جديدة عليه. لفت نظر مخلص أن بوش لم يكن مركّزاً على المسائل الرئيسة لمستقبل الجيش العراقي، واجتثاث حزب البعث والحكومة الانتقالية. «لكننا كنا نرى بعينيه، وكنا سنذهب للحرب». احتفظ تشيني بأفكاره لنفسه؛ كان يبدو متوتراً. كان من الواضح أن الإدارة لم تكن قد استقرّت بعد على خطة حول مرحلة بعد الحرب.

حاول مكية أن يثبت وجوده. وحثّ هو ورحيم الرئيس على إعلان حكومة مؤقتة للعراقيين في المهجر قبل الحرب. قال مكية: «لقد تم غسل دماغ العراقيين في الداخل. وستكون حكومة المهجر مستعدّة لاستلام السلطة عند حدوث التغيير». أخبر مكية الرئيس بأن تحركاتهم ستغير صورة أمريكة في العالم العربي، تلك الحرب قد تكون قوة للتقدّم والديمقراطية، قال مكية: «سيرحّب الناس بالقوات، وسيستقبلونها بالسكاكر والورود».

وافق مخلص، لكنه أضاف: «إذا لم تكسب قلوبهم في البداية، إذا لم يحصلوا على منافع، فبعد شهرين قد ترى مقديشو في بغداد». كما قدّم مخلص للرئيس تحذيرين آخرين: إن حكومة المهجريين لن تكون مقبولة من قبل العراقيين داخل البلاد، كما أن حلّ الجيش العراقي سيغيّر من طبيعة القوات الأمريكية هناك، من محررين - كما قال بوش: إنه يريدهم أن يكونوا - إلى محتلّين. سأل بوش إن كان العراقيون يكرهون الإسرائيليين؟ ومن جديد قدّم مكية ومخلص، اللذان كانا زميلين في المدرسة الثانوية اليسوعية في منتصف الستينيات،

رأيين متناقضين، فقال مكية: إن العراقيين يركّزون كثيراً على الظلم الواقع بهم؛ أما مخلص فقد أصرّ على أنهم قد تربّوا وتعلّموا في المدارس على أن يكونوا معادين للصهيونية. كما اختلف مكية ومخلص أيضاً حول طبيعة المجتمع العراقي. فقال مخلص: إنه لا يزال قبلياً بقوة؛ أما مكية فجادل قائلاً: إن العراقيين قد أصبحوا في أثناء السنوات الخمسين أو الخمس والسبعين الماضية مواطنين مهندسين وأطباء، قادرين على تشكيل دولة حديثة. لم يتبع أحد في القاعة التناقض الواضح بين هذا التفاؤل وبين رؤية مكية لأمّة مغسولة الأدمغة.

غادر كل من العراقيين الاجتماع مقتنعين أن بوش يرى الأمور بالطريقة التي يراها. قال مخلص لاحقاً: «اعتقدت أن بوش فهم من أين أتيت. في ذلك الوقت، كنت مقتنعاً تماماً أن العراق سيصبح جنّة».

خرج مكية من البيت الأبيض وأعلن أنه «متأكد تماماً» من إخلاص الرئيس للديمقراطية العراقية.

وبعد شهرين، في منتصف آذار، ظهر نائب الرئيس تشيني في برنامج لقاء الصحافة، وأخبر البلاد أن القوات الأمريكية ستلقى الترحيب بوصفهم محررين في العراق.

ألحّ تيم روسيت عليه: «إذا لم يكن تحليلكم صحيحاً، وإذا لم نعامل معاملة محررين، بل غزاة، وبدأ العراقيون بالمقاومة، خاصة في بغداد، فهل تعتقد أن الشعب الأمريكي مستعدّ لمعركة طويلة، مكلفة ودامية تؤدي إلى خسائر أمريكية كبيرة؟».

لم يكن تشيني قلقاً، فقد قال بطريقته المكبوتة المهدّئة: «حسناً، لا أظن الأمر سيصبح بهذا الشكل، تيم، لأنني أؤمن بالفعل بأن العراقيين سيرحبّون بنا بوصفنا محرّرين. لقد تحدّثت مع كثير من العراقيين في الأشهر الأخيرة بنفسي، ودعوتهم إلى البيت البيض. التقيتهم أنا والرئيس، مجموعات وأفراداً مختلفين، أشخاصاً سخّروا حياتهم من الخارج؛ ليحاولوا تغيير الأمور داخل العراق. ومنهم كنعان مكية، العراقي المدرّس في برانديس، لقد كتب كتباً عظيمة عن الموضوع، وهو يعرف البلاد عن قرب، وهو جزء من المعارضة والمقاومة الديمقراطية. القراءة التي حصلنا عليها عن شعب العراق هي أن قضيتهم الأساسية أنهم

يريدون التخلص من صدام حسين، وأنهم سيرحّبون بالولايات المتحدة، بوصفها محررة عندما نأتي للقيام بذلك».

عند سماع هذه الكلمات، شعر فيصل إسترابادي، المحامي في شيكاغو، بأن قلبه يتحطم. «كنت أعلم أن من أمضى أربعة عقود في المهجر لا يعرف ما يجري في العراق. لم أكن أعلم، ولم يكن كنعان يعلم. الفرق الوحيد هو أنني كنت أكثر حذراً. كان دائماً يقطع وعوداً يعلم أنه لن يستطيع الوفاء بها». كان مكية يعلم أن «السكاكر والورود» لا يعقل أن تكون الردّ، قال إسترابادي: «لكنه كان يعلم أيضاً أن بوش لم يكن يعرف بشكل أفضل. كان يريد فقط أن يدخل بوش إلى العراق. كما كنا نريد جميعاً».

كان تشيني محقاً في أمر واحد: كتب مكية كتباً عظيمة حول الموضوع، ففي كتابيه: (جمهورية الخوف) و(قسوة وصمت)، نظر دون تردّد إلى العراق الاستبدادي ونتائج إرهاب البعثيين، والحطام البشري الذي أنتجه، ومظهره ورائحته. وبعد حرب الخليج، عندما أعدّ مكية والمعارضون الآخرون الميثاق رقم 91 الذي يحدد مبادئ التعايش لعراق جديد، استلم مكية رسالة شديدة اللهجة من صديق قديم، كان صادقاً وشجاعاً بما فيه الكفاية لإعادة طبع كتاب (قسوة وصمت): «أعتقد -وأرجو أن تسمح لي بقول ذلك- أن الأفكار التي وردت في الميثاق تصدر من برج عاجي ارتفع عالياً نحو السماء، لدرجة أننا نحن الواقفين في الأسفل لا نكاد نستطيع أن نرى أو نسمع من أين تأتي. نحن نرى أن مجتمعنا اليوم قد أصبح كما في عام 1984. ليس هناك من يتذكر أو يجرؤ أن يتذكر معنى كلمات مثل «الحرية» أو «الديمقراطية» أو «الأخوّة» أو «الإنسانية». لم يعودوا يعرفون ما هي «حقوق الإنسان». أعني، ما علاقة هذا بهم؟!... إن همّهم الوحيد هو النجاة والحياة، كالخراف».

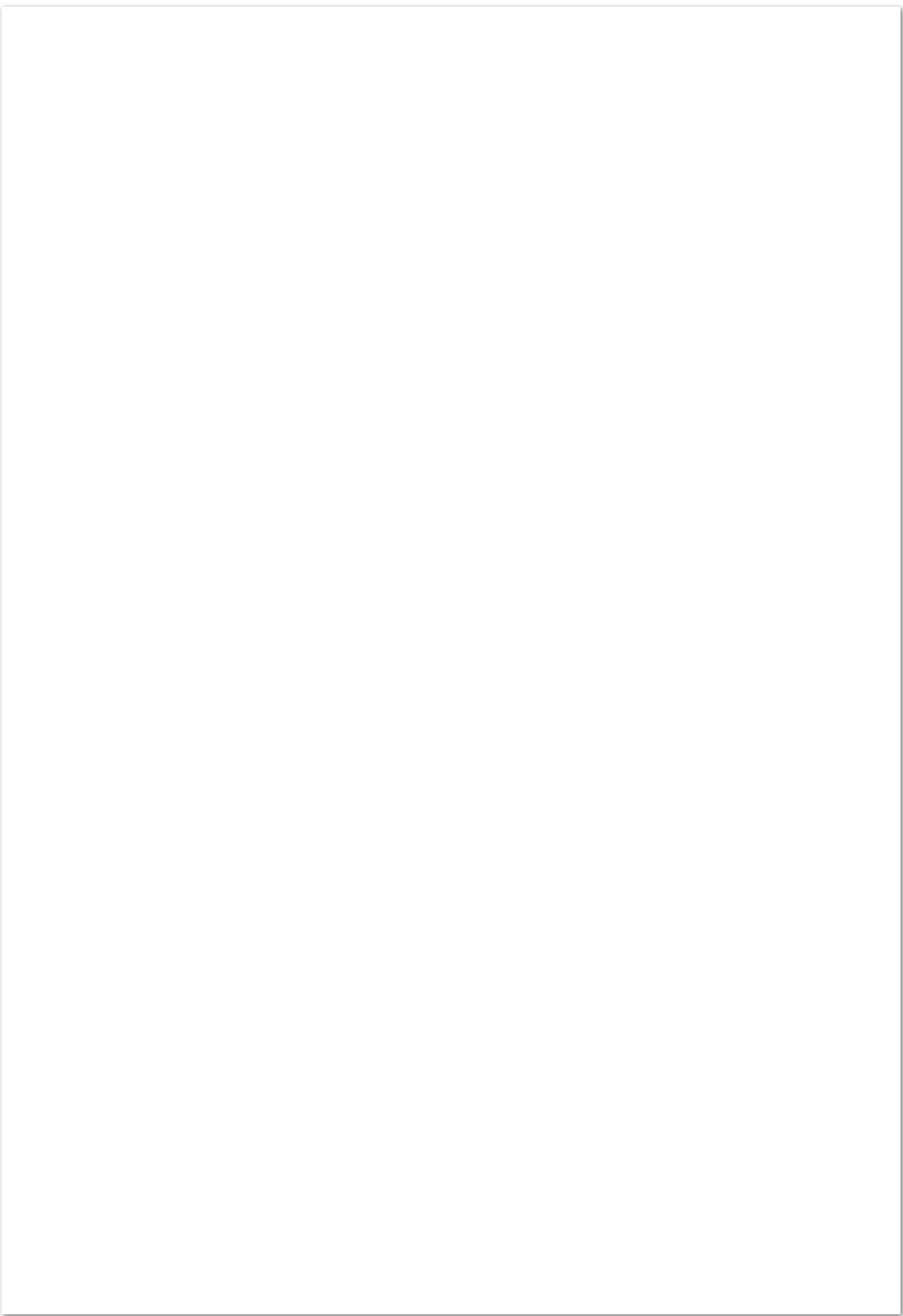
كان مكية يعرف هذا كله، وحين عبر الجبال المليئة بالثلوج، في أواخر كانون الثاني، على طول الحدود بين إيران وكردستان العراق مع مجموعة صغيرة ضمّت أحمد الجلبي، والتقى رفاقاً قدامى في مدينة صلاح الدين الكردية، وهدّد رجل لا يعرفه حياته ذات ليلة، أرسل مكية رسالة إلكترونية إلى بعض الأصدقاء يصف فيها الحادث. وكتب فيها: «هذه هي المادة الإنسانية الخام التي تريد أن تصنع الديمقراطية لها. كل يوم في الأسابيع الخمسة

الأخيرة من رحلاتي، كنت أمرّ بأشخاص مدمّرين ومجروحين، أشخاص يتنفّسون الوطنية والطائفية دون أن يعلموا، وأشخاص شوفينيين ومشككين بالعراقيين الآخرين. هذه هي حقائق الحياة للجيل القادم في هذه الأرض الفقيرة المدمّرة. لا تفكر حتى في العودة إليها بعد التحرير، إن لم تكن مستعدّاً للتعامل مع تلك الحقائق».

ذكرتني قراءة هذه الكلمات بالصوت الذي سمعته أولاً قبل أن ألتقي مكية -صوت كتبه التي لا تعرف الخوف-. كان مكية يعرف بوصفه كاتباً ما أصبح العراق عليه. لكنه لا يزال الآن يؤدي دوراً رئيساً في دراما تاريخية عظيمة، في حدث على مستوى ضخم وجريء لدرجة أن أحداً لم يستطع أن يتخيل المدى الكامل للنتائج. لقد أصبح سياسياً، وكتب في رسالته الإلكترونية من كردستان: «السياسة هي القاضي الأكثر قسوة في العالم». (...).

كل ما كان يحلم به طوال حياته أصبح فجأة في متناول يده. لن تتاح له فرصة ثانية، ولم يكن مستقبله مؤكداً، فقد شخص الأطباء مرض مكية، وأكدوا أنه مصاب بالشكل نفسه من اللوكيميا التي قتلت إدوارد سعيد. لذا جعل نفسه ينسى ما كان يعرفه مدة طويلة بما فيه الكفاية ليقول بضع كلمات لرئيس الولايات المتحدة ستصبح ذات يوم صفة ظاهرة في نعيه.

كان صوت القنابل الأولى تسقط على بغداد، صوتاً مبهجاً. وبعد ثلاثة أسابيع، في 9 نيسان، جلس مع الرئيس في البيت الأبيض، وشاهد تمثال صدام حسين يسقط على الأرض في ساحة الفردوس ببغداد، وبكى. وبعد ذلك بدأت المشكلات.



4

خطط خاصة

في صيف عام 2003، كان شاب أمريكي يدعى أندروب. ن. إردمان، من روشستر نيويورك، يعمل في الطابق الثاني من القصر الجمهوري، على الضفة الغربية لنهر دجلة في وسط بغداد، لدى سلطة التحالف المؤقتة. كانت على باب المكتب لافتة كتب عليها: «وزارة التعليم العالي والبحث العلمي». لقد كان إردمان الموظف في وزارة الخارجية الذي يبلغ السادسة والثلاثين من عمره، الحائز على شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة هارفرد، مستشار الوزير العراقي، وفعلياً كان هو الوزير.

كان درو إردمان رجلاً طويلاً، عريض المنكبين، حيث كان يمارس رياضة التجذيف سابقاً، حادّ الذقن، ذا شعر قصير رمادي اللون، كثيف الشاربين، مما كان يضفي على وجهه شكل موظف بريطاني استعماري من حقبة عام 1925 (إلى أن اختفى شارباه في وقت ما من الصيف). لم يكن ينام إلا بضع ساعات في الليل، في عربة مقطورة مشتركة خلف القصر. كان أول ما يفكر فيه إردمان عندما يستيقظ كل صباح قبل السادسة دون منبه هو: سايغون، تباً. كان زميله في الغرفة، وهو بريطاني اسمه فيليب يسأله: «كيف حالك اليوم دكتور إردمان؟» وكان إردمان يجيبه: «يوم آخر في الجنة». كان القلق بشأن كل ما عليه القيام به في أثناء اليوم يلاحقه قبل أن يبدأ اليوم.

عندما قابلت إردمان في منتصف تموز، كان غاضباً من اجتماع كان لا يزال قد حضره في وقت سابق من ذلك اليوم، وحاول فيه ألا يهين رئيس إحدى الجامعات، عندما سأله عن معنى «ميزانية التشغيل» في وسط الجلسة الخامسة أو السادسة التي يناقش فيها الموضوع. وقبل ذلك بأسبوعين، كان أحد أفراد الحماية الخاصة بإردمان، المتخصص جيفري ويرشو، البالغ من العمر 22 عاماً، قد قتل بطلقة أطلقت عن قرب في رأسه، بينما كان ينتظر؛ إردمان ليخرج من أحد اجتماعاته في جامعة بغداد، وقد ساعد إردمان في إخلاء الجندي المحتضر.

لقد جعلتني ملامح إردمان وبنيته الرياضية أستعدّ للقاء بيروقراطي إنكليزي مهذّب. لكنه بدلاً من ذلك، كان يتأمل، وهو مستلقٍ على سريره النقال في العربة المقطورة، يعبث بسكين الجيش السويسري، وقد رفع قدميه على حقيبة عسكرية صوفية، وامتلأ مكتبه بزجاجات مياه الشرب، وعلب الطعام الجاهز الفارغة، وكتب عن الشرق الأوسط لم تقرأ بعد. كان يتحدث بجمل تأملية طويلة، غالباً ما تقطعها أفكار أو توضيحات ثانوية، ثم تحل محلها نبرة أسرع وأكثر تفجراً، عندما يبدأ في الحديث عن شيء أغضبه أو أبهجه. وكما وصف إردمان نفسه، فقد كان حاد المزاج يمكن استنزاف أعصابه بسرعة.

لقد تمت سرقة الوزارة التي كان مسؤولاً عنها، شأنها شأن جميع المباني الحكومية الأخرى تقريباً، ونهب كل ما فيها حتى الأسلاك والأنابيب، حتى إن المبولات قد اقتلعت من جدران الحمامات. كان الموظفون ذوو المناصب الرفيعة في الوزارة، وكذلك رؤساء الجامعات العراقية، جميعاً من الأعضاء البارزين في حزب البعث، وقد تم فصلهم. وقد قتل أحدهم، وهو رئيس جامعة بغداد ذو السمعة السيئة، وكان طبيباً، في عيادته، بينما كان يكتب وصفة طبية. لقد نهبت جميع صفوف الجامعات ومكتباتها في العراق، كما سرقت آلاف الكتب وأجهزة الحواسيب، وحتى النوافذ نزعت من إطاراتها، وتركت المكاتب رأساً على عقب في مهب الريح بين الغبار وحطام الزجاج. كان إردمان يحاول إنهاء السنة الدراسية المضطربة، وكان الطلاب يقدّمون امتحاناتهم في صفوف أشبه بالفرن لشدة الحرّ دون أجهزة تكييف أو مراوح أو إضاءة ثابتة.

بعد انهيار الدولة العراقية، لم يكن هناك شيء يمكن أن يحل محلّها.

كنت أريد أن أعرف كيف أعدّت دراسة التاريخ درو إردمان للقيام بالعمل الذي كان يحاول إنجازه في بغداد؟ ما هي القياسات التاريخية التي كانت في ذهنه؟ البريطانيون في العراق المحتل؟ أم الأمريكيون في ألمانية المحتلة؟ خطرت في ذهن إردمان فكرة جعلته يسخر من نفسه، وقال: «أنا رمز تاريخي، ولا أستطيع التفكير بطريقة تاريخية. لقد مرت علي أوقات لم أذكر فيها ما فعلت قبل ثمانٍ وأربعين ساعة. أنا أحاول إنه كاختبار لنفسي. هل أستطيع أن أتذكر ما فعلت أمس؟ في النهاية أستطيع التذكر، لكن ذلك كان يتطلب مني

جهداً. أعتقد أن هذا ليس بالوضع الجيد. يجب أن تكون قادراً على تذكر ما قمت به في أثناء الأربع والعشرين ساعة الأخيرة».

من الكتب المفضلة لدى إردمان، الذي كان يحاول أن يجد وقتاً لقراءته من جديد في بغداد كتاب للمؤرخ الفرنسي مارك بلوش بعنوان: «الهزيمة الغريبة»، وهذا الكتاب يعدّ بمنزلة مراجعة أولى للحسابات بعد الهزيمة الفرنسية في الحرب الخاطفة التي شنّها النازيّون في ربيع عام 1940. كان بلوش قد خدم في الجيش الفرنسي في الحربين العالميتين، ثمّ انضمّ إلى المقاومة قبل أن يقوم النازيون بأسره وتعذيبه ثم إعدامه. وفي أثناء حديث إردمان عن عمله في العراق، استشهد أكثر من مرة بمقطع من كتاب الهزيمة الغريبة، كان قد وضع عليه إشارة في كتابه القديم ذي الغلاف الورقي، كتب بلوش: «إن أبجدية مهمّتنا، هي تجنّب هذه المصطلحات المجرّدة الكبيرة في محاولة لاكتشاف الحقائق الملموسة المخبأة وراءها، وهي البشر».

كانت الفوضى القاتلة التي أعقبت الغزو الأمريكي للعراق عبارة عن قصة من مصطلحات مجرّدة وحقائق ملموسة، وكانت بين هذه المصطلحات والحقائق مسافة أكبر من ثمانية آلاف ميلٍ تفصل بين واشنطن وبغداد، ومع ذلك، فقد نتج عن أفكار مهندسي الحرب عواقب مدمّرة ملموسة كالمكاتب المدمّرة، والقنابل محلّية الصنع. يجب فهم هذه العواقب قبل كل شيء فيما يتعلق بحياة البشر، العراقيين والأمريكيين، الذين تمّ الإلقاء بهم جميعاً في التاريخ العنيف للحرب.

قبل الذهاب إلى الحرب، كان درو إردمان قد قام بالعديد من الأبحاث التاريخية ذات الصلة. وقد ساعده المقطع الذي أخذه من كتاب الهزيمة الغريبة في إعداد أطروحته التي قدّمها إلى جامعة هارفارد، التي كانت بعنوان: «بحث الأمريكيين عن النصر في القرن العشرين». وهذه الأطروحة تبحث في كيفية تغيّر مفهوم تحقيق الأهداف السياسية بطرق عسكرية في أذهان الأمريكيين في أثناء هذا القرن. فقد كانت الهوّة بين القوة العسكرية والسياسة، مشكلة تعاود الظهور عند التحوّل من حالة الحرب إلى السلم، في أثناء القرن، وأصبح ردم هذه الهوّة هدف الجهد الواعي المتنامي. وقد أظهر إنشاء معاهد، مثل الكلية الحربية العسكرية، الأمن القومي وهيئة تخطيط السياسة في وزارة الخارجية الأمريكية،

الإدراك المتزايد لدى المستويات العليا في الحكومة والجيش بأن عواقب الحرب عملية معقدة، لا تقل أهميتها لتحقيق النصر النهائي في المعركة عن أهمية النصر على أرض المعركة قال إردمان: «إن اللغة التي نعيشها اليوم حول إستراتيجية الخروج هي عبارة عن (كليشة)، كما أن التركيز على اللعبة النهائيةَ «كليشة» أخرى إن تلك «الكليشات» حديثة، وهي جزء من التطوّر التاريخي».

اختتمت أطروحة إردمان بردّ الفعل تجاه فييتنام وظهور مذهب باول حول «القوة الحاسمة». كتب إردمان: لكن هذا المفهوم الأخير، لم يعد الحل الوحيد والنهائي لمشكلة تحقيق النصر أكثر من المفاهيم السابقة التي كانت سائدة في القرن العشرين (كما أظهر التدخل في البلقان، حتى عندما كان يكتب ذلك). لقد كانت عملية التعلّم في القرن العشرين متقطعة ومترددة. كتب إردمان: «لذلك فقد كان الأمريكيون -قادة ومواطنين على حدّ سواء- غير مهيّئين لتخيّل عواقب استخدام القوّة عندما حلّت الأزمة الآتية، كما يحصل بالتأكيد في هذا العالم المأساوي».

كانت الأطروحة استكشافية وغير حاسمة، وقد أظهرت اهتماماً بالغاً بالنماذج والقيم التي شكّلت تفكير الأمريكيين حول الحرب والسلم. لم تكن الأطروحة من النوع الذي يكتب للحصول على عمل. وكان إردمان يصفها دائماً بأنها «فاشلة».

حصل إردمان على درجة الدكتوراه عام 2000 وترك العمل الأكاديمي فوراً. لم تكن اهتماماته تصب في هذا المجال. وكان في شخصيته شيء من معاقبة الذات والهوس. ليس قضاء العمر في تحليل التاريخ العسكري كافياً؛ إنه من الأكاديميين الذين عليهم معرفة كيف سيتصرفون لو وجدوا تحت إطلاق النار. كان في نسخته من كتاب الهزيمة الغريبة نصّ آخر عليه إشارة لفت نظري إليه: «المشكلة الحقيقية لدينا نحن الأساتذة هي أننا منغمسون في مهماتنا اليومية. يستطيع معظمنا القول ببعض العدل: إننا كنا عمالاً جيّدين. فهل من الصحيح أيضاً أن نقول: إننا كنّا مواطنين جيّدين؟».

في أوائل عام 2001، كان إردمان يوشك على السفر إلى كوسوفو لستلُّم العمل الأول الذي استطاع الحصول عليه -«أي شيء، أكياس معبأة بالحبوب. إلى هذا الحد أريد أن أكون

بعيداً عن العمل الأكاديمي»- عندما وردت إليه مكالمة من ريتشارد ن. هاس، الذي كان قد تم تعيينه حديثاً مديراً لتخطيط السياسة في وزارة الخارجية الأمريكية من قبل كولن باول. كان هاس قد درّس مرة مع مستشار إردمان في أطروحته، إرنست ماي، وقد سمع باسم إردمان من فيليب زيلكو، المدرّس بجامعة فرجينيا، الذي كان زميل رايس في الولاية الرئاسية الأولى لبوش. بحلول حزيران، كان إردمان في واشنطن، يعمل في مكتبه، حيث كان قد أجرى مسبقاً أبحاثاً مكثفة لأطروحته. في هارفارد كان متخصصاً في أيزنهاور، ودخل الحكومة بالروح القديمة للسياسي المستقل. قال إردمان: «إن في هذا بعض الإفراط في التفاؤل»، «لكنّ هناك تقليد سابق في أوساط السياسة الخارجية بعدم التحزّب، خدمة للمصلحة الوطنية».

في 11أيلول 2001، كان إردمان في مكتبه في وزارة الخارجية يكتب مُسوَّدَة وثيقة سياسية عن دور أمريكة في العالم، وكان في الواقع في وسط جملة تتحدث عن تهديد إرهابي، عندما رنّ الهاتف: كانت زوجه، تخبره عن الهجمات على مركز التجارة العالمي. كان تأثير ذلك في حياة إردمان شديداً، ليس فقط في كمية وكثافة العمل الحكومي الذي يقوم به (فقد كان مكلفاً بإعداد ملف ضد الإرهاب في التخطيط السياسي)، وإنما في شعوره بأن ما كان يفعله يمكن أن يحدث فرقاً: «لقد أكّد حكمة قراري في ترك العالم الأكاديمي».

في صيف عام 2002، عندما أصبحت الحرب ضد العراق سياسة غير معلنة للإدارة الأمريكية، طلب هاس من إردمان كتابة تحليل لإعادة الإعمار، بعد الحرب في القرن العشرين، في خمس عشرة صفحة مفردة السطور ومصنفة، وهذا حجم كبير فيما يتعلق بمذكّرة من مذكرات الخارجية الأمريكية- طبّق إردمان أفكاره في مذكرته على سلسلة من الحالات المدروسة من الحربين العالميتين، مروراً بالصراعات الأحدث في البوسنة وكوسوفو. كان من استنتاجاته الرئيسة أن النجاح بعيد المدى يعتمد الدعم الدولي. أما في المدى القريب، فشرح لي ذلك عندما التقاني في بغداد: «الأمن هو أساس كل شيء»، وهذا كان يعتمد جزئياً على وجود عدد كافٍ من القوات: «كان ذلك هو اهتمام المشروع، أما ما كان يهمّني فهو: هل نحن مستعدّون للقيام بما تتطلبه مرحلة ما بعد الحرب؟ ليس علم الصواريخ بالتحديد».

وفي ذلك الخريف وزّع باول مذكرة على تشيني ورامسفيلد ورايس، وقد قال عنها إردمان: «ربما لا صلة لها بالموضوع. وربما لم تقرأ».

أما العمل الفعلي فقد كان في مكان آخر؛ ففي أيلول، تقريباً في الوقت الذي كانت مذكرة إردمان تمرّ به شكلياً في واشنطن، على الطرف الآخر للنهر المطلّ على البنتاغون، كان مكتب مديرية الشرق الأدنى والخليج الشمالي في جنوب آسية، يعدّ ملحقاً في المكاتب الفارغة في الطابق الأعلى من موقعه في الطابق الرابع، فالمساحة الإضافية تلائم وتفصل الناس المتدفقين، الذين تمّ إحضارهم للعمل في التخطيط للعراق، سميت الوحدة الجديدة مكتب الخطط الخاصة. وكانت تحت إشراف دوغلاس فيث، وكيل وزارة الخارجية للسياسة، ونائبه ويليام لوتي. كان فيث، المحامي في واشنطن، خارج الحكومة نحو عقدين من الزمن؛ فقد تمّ طرده عام 1983 من قبل ويليام كلارك مستشار الأمن القومي لدى ريغان، ثم أعاده ريتشارد بيرل إلى البنتاغون. كانت أنشطة فيث وكتاباته السياسية مكرّسة بشكل كبير لدعم السياسات المتشدّدة لحزب الليكود، كان يدين بعمله الجديد المهم إلى صديقه ومديره السابق بيرل، الذي رفض أن يشغل المنصب، ثم أوصى رامسفيلد بهذا الرجل غير المعروف نسبياً. فقال رامسفيلد لبيرل: «حسناً، سآخذ فيث، والأفضل أن يكون جيداً كما قلت»، وهكذا فقد تولّى دوغلاس فيث هذا المنصب الحساس الخاص بعراق ما بعد الحرب في الإدارة الأمريكية، وبعد الغزو، سيدّعي أن اسم الخطط الخاصة المبهم كان ضرورياً: «في ذلك الوقت، كانت تسمية المكتب بمكتب التخطيط العراقي يمكن أن يختصر من جهودنا الدبلوماسية». لكن هذا التسويغ لم يفسّر سبب إحداث مشروع وزارة الخارجية عن مستقبل العراق علناً، دون نتائج عكسية، لماذا لم يكن من الممكن رؤية جهود التخطيط لما بعد الحرب تهديداً محتملاً، يقوّي يد الإدارة الأمريكية في الأمم المتحدة؟!.

لكن فيما يخص مكتب الخطط الخاصة، لم تكن السرّية مناسبة فقط، بل كانت ضرورية أيضاً. حتى يمكن للمرء أن يقول: إنها كانت ضرورية لأسباب غيبية. كان الرجل الذي أتى به فيث ولوتي لإدارة العملية هو أبرام شولسكي، المساعد السابق لبيرل، والمستشار السابق في مجلس خبراء وزارة الدفاع الأمريكية، في مكتب التقويم. كان شولسكي، زميل وولوفوفيتز في السكن في كورنل وشيكاغو، قد كتب مقالاً قصيراً عام 1999 باسم «ليو شتراوس وعالم

الاسـتخبارات (التي لا يقصـد بها الذكاء)» «Leo Strauss and the World of Intelligence (By Which We Do Not Mean Nous)». كان شولسـكي يعتقد أن كتابات أسـتاذه السـابق ليو شـتراوس، أدوية مفيدة لتصلّب جماعة الاستخبارات الأمريكية، فبدلاً من الاعتماد على الإحصائيات وعلم الاجتماع التي تقوم على معايير عالمية، ينبغي لمحللي الاستخبارات العودة إلى الفلسـفة السياسـية العملاقة، مثـل Thucydides الذي فهم أن طبيعـة الأنظمة تختلف بشكل جوهري. (فكلمة «نظام» المترجمة من كلمة politeia اليونانية تشير إلى نماذج المجتمع وقادته؛ وقد لا يكون من قبيل المصـادفة أن إرشـادات الإدارة حول السياسـة في العراق، قد أصـبحت «تغيـير النظـام»). لا يمكن فهم الاسـتبداد في صـورة للديمقراطية، كمـا أن ميل المحللـين الموجودين للمحاولة (المعروف باسـم «صـورة المرآة») تضـمن أنهم سـيخفقون في إدراك الطبيعة الأساسية لنظام كنظام آية الله الخميني حين يحقق تقدماً. يعتمد المستبدّون الخداع، مما يجعل عمل المحلّل أكثر صعوبة، لكنه أكثر متعة من الناحية الفلسفية، وهذا يعيد إلى الذهن علاقة فكرة شتراوس بالكتابة المبطنة أو المخفيّة في النصوص السياسية العظيمة: «تحذّر وجهة نظر شتراوس حتماً من أن الحياة السياسية قد تكون مرتبطة بالخداع ارتباطاً وثيقـاً»، كتب شولسـكي: «إنها تقـترح في الواقع أن الخـداع هو المعيار في الحياة السياسـية، والأمل بعدم قول شيء من التوقعات، وبتحقيق سياسة قادرة على التنفيذ هو الاستثناء».

وليس من البعيد عن هذه النظرة إنشـاء مكتب يخفي عمله خلف اسـم مبهم عمداً، مثل «الخطط الخاصة». هناك صورة مرآة لنوع آخر يحدث هنا: ليس خطأً رؤية عدوّك انعكاساً لنفسك، ولكن الخطأ محاولة أن ترى عدوّك كما يرى نفسه، إلى أن تصبح انعكاساً له. «حين تنظر إلى هاوية»، كتب نيتشـه، الذي يكرهه الشتراوسيون، «فإن الهاوية تنظر إليك أيضاً». وقد حدث شـيء كهذا بالفعل في مكتب فيث قبل إعداد الخطط الخاصـة، في وحدة سابقة، هي وحدة تقويم مكافحة الإرهاب؛ كان وولفوفيتز هو صـاحب فكرة هذه الوحدة، وهي تعود إلى عام 1976 والفريق ب، مجموعة الخبراء الخارجيين (الذين عينتهم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، التي كانت تضم وولفوفيتز)، التي أتت باستنتاجات تحذيرية أكثر بكثير حول السوفييت من وكالات الاستخبارات. أما هذه المرة، فقد كان الهدف هو جمع معلومات استخباراتية، حول أسلحة الدمار الشامل والإرهاب، وإمكانية ارتباطها بالعراق. قاد العملية

ديفيد ورمسر، مؤلف كتاب (Tyranny's Ally) «حليف الطاغية»، وورقة إستراتيجية «Clean Break» «انفراج كامل» التي انبثقت عنه. قام ورمسر وشريكه، ف. ميشيل معلوف، الذي خدم تحت إدارة بيرل، وفي وزارة الدفاع في عهد ريغان (جميع الطرق المؤدية إلى الخطط الخاصة تعود إلى بيرل)، بجمع بيانات عادية، معظمها من منشقّين قدّمها المؤتمر الوطني العراقي، لإثبات فرضيته: بوجود صلات لصدام بالقاعدة، وأنه من الممكن أن يسلّم أسلحة الدمار الشامل إلى الإرهابيين. كان ورمسر ومعلوف يعملان بشكل استنتاجي وليس بشكل استقرائي: أي أن الفرضية صحيحة؛ وأن الحقائق ستظهر لتؤكدها، بل أكثر من ذلك، فقد كانت معظم البيانات مشكوكاً فيها، أو حتى تم رفضها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة الاستخبارات الدفاعية، ومكتب وزارة الخارجية للاستخبارات والأبحاث، ووزارة الطاقة. فقد كان المدنيون في وزارة الدفاع الأمريكية يرون أن الطرق التي استخدمتها وكالات الاستخبارات مشكوك فيها بشكل عميق، وكان للمحللين بشكل عام سجل طويل من الفشل في الشرق الأوسط. كانت هناك حاجة ملحّة لطريقة جديدة، تبدأ بالاعتماد على الفلسفة السياسية، بدلاً من معطيات علم الاجتماع.

في الوقت الذي كان فيه فيث ولوتي يجهزان مكتب الخطط الخاصة، كان ورمسر قد تحرك سلفاً للعمل لدى جون بولتون، وكيل وزارة الخارجية لمراقبة التسلّح والأمن الدولي، الموظف الوحيد رفيع المستوى، في وزارة الخارجية، من المحافظين الجدد. (سيؤول مصير ورمسر إلى مكتب نائب الرئيس، مما يشير إلى أن الحركة الجانبية في إدارة بوش قد تكون أكثر أهمية من الحركة العمودية). في النهاية تم إلغاء التصريح الأمني لمعلوف. لكن عمل وحدتهم الاستخباراتية، التي تمّ حلّها، قد دمج في الخطط الخاصة، بشكل نقاط على الأوراق السياسية وصفحات power point، ثم أرسله لوتي وشولسكي مباشرة إلى البيت الأبيض، حيث كان للمحافظين الجدد حلفاء لدى كبير موظفي تشيني، آي. لويس «سكوتر»، وليبي، ومدير مجلس الأمن القومي للشرق الأوسط لدى رايس، وإيليوت أبرامز. ومع غزو هذه الطرق الجديدة للتحليل الاستخباراتي المتطلبات القديمة المتعبة للتدقيق، فقد سمحت هذه الصورة للموظفين ذوي العقليات المتشابهة التي انتشرت في جزر مهمة، عبر أرخبيل الأمن القومي «لنتاج» الاستخبارات، وتأثيره في السياسة لإيجاد طريقه إلى العملية العادية

بين الوكالات، التي يمكن فيها لمن لم يتغير أن يكون من بين المشـاركين، ويمكن أن يعترض. كانت طريقة كافية للعمل، لو كنت تعلم ماذا تريد أن تحقق.

يصـعب أن تحدّد بدقّة؛ فطوال فصـلي الخريف والشـتاء من ذلك العام، استمر مكتب الخطط الخاصـة بالتخطيط. وقد ادّعى لوتي فيما بعد وجود مئات الصفحات من الوثائق، لكنهـا لم تنشـر قط. كان لوتـي، النقيب السـابق في البحرية، ومسـاعد نويـت غينغريش، ومستشـار تشيني من المؤيّدين المتحمّسين للحرب ضد العراق، وهو شخص ذو مزاج هوسي في بعض الأحيان، بحيث يمكن أن يبكي علناً؛ حماسـاً للموضـوع. وذات مرة، نعت الجنرال المتقاعد أنتوني زيني، الرئيس السـابق للقيادة المركزية، ومبعوث بوش إلى الشرق الأوسط، بالخائن بسـبب إبدائه شـكوكاً عن الحرب ضـد العراق. وكان زملاء لوتي يسـمّونه «Uber Luti». كان الهدف الرئيس للمكتب تحت قيادته هو وشولسـكي الألطف، هو إدارة المعلومات والتحكم في السياسـة. وكان شولسـكي يوجّه الكتابة لمذكرات حول العراق، وأسـلحة الدمار الشامل والإرهاب وفقاً لنقاط حديث يتم الإشراف عليها بحزم.

وظّف مكتب الخطط الخاصـة خبراء في شـؤون الشـرق الأوسـط؛ للتفكير في سياسـة العراق بعد الحرب، من بين هؤلاء الخبراء، كان مايكل روبن، الباحث الإيراني الشـاب في معهد المؤسسـات الأمريكي الذي ألقى محاضـرات في جامعات القدس وكردستان العراق. وكذلك هارولد رود الذي يدعمه برنارد لويس الأسـتاذ بجامعة برنسـتون الذي أُحضر من مجلس الخبراء الداخلي، التابع لوزارة الدفاع، مثل شولسكي. كان رود وروبن مقربين جدًّا من الجلبي، والمؤتمر الوطني العراقي، وحين زار أحد أعضاء المؤتمر الوطني العراقي وزارة الدفاع الأمريكية، وجد رود في مكتب وضعت على جدرانه أحاديث نسبت إلى محمد، وكانت قـد جمعت بعـد وفاته بمئة عام. كان رود يفكّر في أن من طرق تغيير الشـرق الأوسـط، أن تقوم إيران بتغيير الأحرف الفارسـية إلى الرومانية، كما فعل أتاتورك باللغة التركية. سأل العراقي: «لكن كيف ستقوم بذلك هارولد؟». فأجاب رود «إنه مفهوم».

بدأ رود دراسـته للإسلام بالسنة، كما أخبر أحد الأصدقاء، لكنه سرعان ما قرّر أنها تفتقد إلى مادة فكرية، ليس فيها مجال للتفكير الأصـلي. ثم التقى فؤاد عجمي وغيره من

العرب الشيعة، وحين بدأ بقراءة علوم الدين والتشريع الشيعية وجد رود ديناً للمثقفين، مثل اليهودية. كما أنه اشترك في الفكرة، التي قدّمها كتاب ورمسر، عن إعادة المملكة الهاشمية في العراق، بحيث يتسلَّم الأمير الحسن، شقيق الملك حسين العرش، ويكون الجلبي رئيساً للوزراء، وبهذا يعود العراق إلى الحكومة التي كانت قبل عام 1958، بزعامة شيعية. حتى إن رود قارن الجلبي مرة بالحكيم: «في البداية لم يصدّقه الناس، لكنهم أدركوا حكمته فيما بعد».

كان تقارب الأفكار والاهتمامات والمشاعر، بين بعض الأمريكيين اليهود والعراقيين الشيعة من الحبكات الثانوية الأكثر فضولية لحرب العراق، وقد وجّه أحد المسؤولين الأمريكيين مرة هذا السؤال بشكل مباشر إلى صديق عراقي: «هل تساءلت يوماً عن سبب رغبة يهودي أمريكي متدين بمساعدة الشيعة في العراق؟» وأجاب عن سؤاله بنفسه بقصة. لقد حاول هو وزوجه إنجاب طفل بصعوبة، فتوجه إلى الحَبْر؛ ليسأله إن كانت المعالجة المتقدمة تقع ضمن تعاليم اليهودية المتشددة. فقدّم الحبر مباركته. لكن المسؤول أراد معرفة تسويغه، وشرح له الحبر ذلك. وعندما ذهب المسؤول إلى الشرق الأوسط في أثناء حرب العراق، وجد رجل دين شيعياً، وسأله السؤال ذاته، فكان التسويغ الديني هو التسويغ ذاته أيضاً. وجدتها! هذه التجربة أكدت اعتقاده بأن الشيعة واليهود، الأقليات المضطهدة في المنطقة، يمكن أن تقوم بعمل معاً، وأن الشيعة العراقيين التقليديين (على عكس النوع الثيوقراطي الأممي الذي أسر إيران) يمكن أن يقودوا إلى إعادة توجيه العرب نحو أمريكة وإسرائيل.

ارتقت هذه الفكرة في السلسلة السياسية في البنتاغون. وذات مرة قال دوغلاس فيث لمكية: «أنتم الشيعة في العراق لديكم فرصة تاريخية. افعلوا كل ما بوسعكم، لكن لا تتحدثوا عنه». وكان عدم الحديث عن ذلك يناسب المفهوم الشيعي للتقيّة -النفاق دفاعاً عن الإيمان، والكذب المسموح به على الغرباء لحماية الفئة الدينية المضطهدة-. كما فسّرت التقيّة الاسم المضلل والعمل المخفي لمكتب الخطط الخاصة الذي كان مكاناً للفئة المضطهدة الأخرى التي وصلت حديثاً إلى السلطة، المحافظين الجدد.

ولكن تدليلهم للشيعة العراقيين لم يمتد ليشمل العالم العربي والإسلامي كله، الذي كان مفكرو البنتاغون يرونه مرضاً لا فرصة. وكان هارولد رود يذكر بارتياح أن بعض أصدقائه

المسلمين قد نشؤوا خجلين مما وعظوا به باسم عقيدتهم، لدرجة أنهم كانوا يترددون في أخذ أطفالهم إلى المسجد. وقد خرج أحد الموظفين الحكوميين الذي كان يتعامل بين حين وآخر مع فيث ورود والآخرين، بتشبيه لموقفهم تجاه الإسلام: «إن شعورهم نحو المسلمين يشبه مكافحة الإنجيليين في الجنوب للمثليين، فهم يشعرون أنهم أناس يجب إنقاذهم، لكن فقط إذا تصرفوا حسب شروطنا. كره الخطيئة، ومحبة المخطئ».

من بين هؤلاء المضاربين الأيديولوجيين، كان أحمد الجلبي سياسياً متمرساً، وأصبح دليلاً لهم في مشروع تحويل العراق. قال أحد زملاء الجلبي: «كانوا يظنون أن أحمد الجلبي كان مخلصاً لمبادئ المجموعة». «كانوا شباناً مثقفين، لكنهم لم يكونوا أذكياء سياسياً. فخدعهم أحمد بسهولة».

لكن ماذا بشأن المهمة الشاملة للتخطيط للعراق بعد الحرب؟ كان مستقبل الخارجية الأمريكية في مشروع العراق يكافح، وكانت مجموعة عمل بين الوكالات تجتمع بشكل منتظم برعاية مجلس الأمن القومي؛ لكن لم تكن هناك بعد سياسة لمرحلة ما بعد الحرب. كم ستبقى الولايات المتحدة في العراق؟ هل سيكون العراق تحت احتلال عسكري أمريكي أم تحت إشراف دولي؟ متى سيتم تشكيل حكومة عراقية جديدة، وكيف؟ ومن سيديرها؟ كانت الصحافة تخمّن، لكن لم يكن أحد يعلم بالفعل؛ لأن إدارة بوش لم تكن تستطيع أن تقرّر. سمحت رايس وستيفن هادلي، مستشارة الأمن القومي ونائبها، أن تبقى الأسئلة مفتوحة، بينما أخفقت الدبلوماسية في الأمم المتحدة، وتدفقت القوات إلى الشرق الأوسط، وكانت الحشود تجتمع للحرب بشكل لا يمكن التراجع عنه.

في عام 1997، وقع الرئيس كلينتون وثيقة غامضة سميت قراراً رئاسياً توجيهياً 56، أنشأتْ مجموعة تخطيط بين الوكالات «لإدارة عمليات الطوارئ المعقدة». وصل القرار 56 إلى حد الاعتراف بأن عمليات حفظ السلام التي جرت في تسعينيات القرن العشرين، لم تتم بشكل جيد، وأن التدريب المكثف والتخطيط المبكر كانا ضروريين، وأن هذه الجهود كانت بحاجة لتنسيق رفيع المستوى، على مستوى المسؤول الثاني في الوزارات والوكالات المهمة. وبعد أن استلم الرئيس بوش منصبه بازدراء واضح لحفظ السلام، كان أول توجيه وقّع عليه في 13 شباط 2001، يلغي نظام مجموعات العمل بين الوكالات الذي

وضـعه كلينتون، وخفض مستوى مجموعة «عمليات الطوارئ» إلى مستوى بيروقراطي كان سيضعف بالتأكيد، وهذا ما حدث.

في أوائل عام 2003، أعدّ رائد في البحرية من العاملين في مجلس الأمن القومي، مذكرة حلّـل فيهـا مسـتويات القوة، وحجـم السـكان في عمليات حفظ السـلام السـابقة، وإذا تم استخدام كوسوفو أنموذجاً، فسيلزم نصف مليون جندي لتأمين العراق. رأت رايس المذكرة (وليس من الواضـح إن كانت قد أرتها لبوش)، لكنهـا لم تؤثر في التخطيط. اختلفت وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، بشأن كل موضوع يتعلق بمرحلة ما بعد الحرب، من دور المنفيين في حكومة انتقالية، إلى دور الأمريكيين في توفير الأمن، «كان هذا أهم الأشـياء التي لم تحدث في العـراق، وحدثت في كوسـوفو»، قال موظـف في البنتاغون لديه خـبرة في كلتا العمليتين: «لم يجـبر مجلس الأمن القومي الوزارتين على تسـوية خلاف معـروف كان عميقاً جدًّا بين الوكالتين. كانوا كأنهم يغطون الخلافات بالأوراق، بدلاً من التعامل معها». بالنظر إلى المدة التي سـبقت الحرب، حدّد ريتشـارد هاس إخفاقاً في عمل رايس بوصـفها مستشارة للأمن القومي. «ليس مستشـار الأمن القومي وسـيطاً نزيهاً فحسـب، بل موازناً نزيهاً أيضاً. ومن عمله إثارة نقاشـات، ربما لا تدور بين الناس الجالسـين حول الطاولة، فماذا لو كانت هناك آراء أفضـل لم يتم تقديمها؟» وقد أثبتت رايس، التي كانت مسـؤولة عن تنسـيق السياسـة، أنهـا أكـثر مهارة في الثنـاء على الرئيس مـن مهارتهـا في إلزامه باعتبار مدى النقاشـات وحلّهـا بطريقة كاملـة. في اجتماعه مع العراقيين المنفيين في أول كانون الثاني، عندما بدأت مشـكلات العراق بعد الحرب بالظهور، التفت بوش إلى رايس، وقال: «سيقوم جيش إنساني باللحاق بجيشـنا إلى العراق، صـحيح؟» فأكدت رايس ذلك، وقالت: صـحيح، لكنها نظرت لأسفل بطريقة توحي بأنها كانت تعرف كم كانت الإجابة غير مناسبة.

في تشرين الأول 2002، تقدّم ليسلي جيلب، رئيس مجلس العلاقات الخارجية، إلى رايس وهادلي باقتراح للمسـاعدة؛ حيث يشـكّل المجلس ومجموعتا تفكير أخريان هما: مؤسسـة التراث، ومركز الدراسـات الإسـتراتيجية والدوليـة، ائتلافاً لجمع قائمـة بالخبراء الذين يمكنهم تقديم حقائق وخيارات لمرحلة ما بعد الحرب، وسـيكون عملهم مرضياً من الناحية السياسـية، حيث يأتي من تنوع فكري، ولايصـر على خطة واحدة يمكن أن تضـع الإدارة في

الزاوية. قالت رايس: «هذا هو ما نريده بالضبط». «فسنكون مشغولين جدًّا، بحيث لا يمكننا أن نقوم بذلك بأنفسنا». لكنها لم تكن تريد مشاركة مؤسسة التراث التي كان لها موقف ناقد لفكرة الحرب ضد العراق. «ليقم بذلك معهد المؤسسات الأمريكي».

أما كريس ديموث، رئيس معهد المؤسسات الأمريكي الذي يستمد منه المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية الدعم والكثير من الموظفين، فلم يقبل ولم يرفض الفكرة حين طرحها جيلب، وفي 15 تشرين الثاني، اجتمع ممثلو مجموعة التفكير مع رايس وهادلي في مكتب رايس بالبيت الأبيض؛ ذهب جون هامر من مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، وهو يتوقع إقناع رايس بالفكرة، لكن الاجتماع كان غريباً منذ البداية: فقد بدا أن رايس لم تهتم إلا بديموث، وكما لو أن البيت الأبيض كان يحاول أن يبيع شيئاً لمعهد المؤسسات الأمريكي وليس العكس، فعندما بدأ جيلب بوصف فكرته، عبر مكبر صوت الهاتف من نيويورك، قاطعه ديموث قائلاً: «انتظر لحظة. ما كل هذا التخطيط والتفكير للعراق بعد الحرب؟» والتفت إلى رايس قائلاً: «هذا بناء أمة، وقد قلت: إنك ضد ذلك. قلت ذلك في الحملة، وكذلك قال الرئيس. هل يعلم الرئيس بأنك تفعلين ذلك؟ هل يعلم كارل روف بذلك؟».

لم تكن رايس تستطيع التوقيع دون معهد المؤسسات الأمريكي. وبعد أسبوعين اتصل هادلي بجيلب ليخبره بما كان جيلب يعرفه سلفاً: «لن نتابع في ذلك». وفسّر جيلب فيما بعد، «إنهم يظنون أن تلك الأشياء جميعها ستقف في طريق ذهابنا للحرب».

بدت رايس منذ بداية حكم إدارة بوش مهزومة أمام الرجال الذين يفوقونها خبرة، الذين أصبحوا الآن نظراءها البيروقراطيين. كانت رايس موظفة متوسطة المستوى، وخبيرة بالشؤون السوفياتية في مجلس الأمن القومي في عهد بوش الأب، وبعدها حصلت على الوظيفة الثانية في ستانفورد، فقد كانت سيرتها الذاتية صغيرة جدًّا مقارنة بالسيرة الذاتية لتشيني ورامسفيلد وباول، وفي أثناء السنتين الأوليين من عملها مستشارة للأمن القومي، لم يكن هناك شيء يوحي بأنها ستصبح مساوية لهم. ففي قضية تلو الأخرى - إيران، كورية الشمالية، وفوق كل شيء العراق- كانت القرارات السياسية لا تتخذ أبداً أو لا تناقش قبل اتخاذها. بدا أن إنجازاتها الوحيدة كانت قربها من الرئيس، ودفاعها المضبوط

والعنيد عنه. في الخارجية الأمريكية التي خسرت الكثير من تلك المعارك السابقة، كان هناك شعور بأن تشيني ورامسفيلد يدحرجون رايس. كما بدأ ريتشارد أرميتاج، نائب باول، يسمي مكتبها بـ «العاطل عن العمل». وقد وجد أحد المسؤولين رفيعي المستوى في الإدارة الأمريكية صعوبة في الموافقة بين رايس التي يعرفها على أنها امرأة متألقة، وبين أدائها الذي بدا ضعيفاً في المكتب. وقد قال: «إنها تحضر جميع المكونات الصحيحة، خُلق العمل، أي شيء يتم اختياره لدفع العمل، سواء أكان اندفاعاً جنسياً أو من أي نوع، إنها تملك ذلك. يقول الرومان: إن هذا هو (الطموح). إنها ماهرة فيما يتعلق بالتحايل على الناس للحصول على ما تريد؛ لذا فمن الصعب علي أن أراها مديرة غير كفأة».

ومع مرور الوقت، بدأ هذا المسؤول يتساءل إن كان مظهر الضعف مضللاً؟ وبنهاية المدة، حين تم تعيين رايس بدلاً من باول وزيرة خارجية، كان المسؤول يتمتع بتقدير مختلف تماماً لعملها مستشارة للأمن القومي. في هذه الحالة، كانت رايس تعلم تماماً ما تفعله بالفشل باتخاذ القرارات عبر العملية بين الوكالات، والسماح بدلاً من ذلك لتشيني ورامسفيلد بالقيام بالجولات النهائية حول تلك العملية. «إما أنها كانت متواطئة مع الرئيس ونائبه، وإلى درجة ما مع وزير الدفاع، أو أنها كانت تستخدم وزيري الدفاع والخارجية لأهداف نائب الرئيس والرئيس». بعبارة أخرى، لم تكن رايس تخيّب آمال رئيسها. كانت تلبي رغبته بطريقة سريعة بشكل خاص. «كم هو أفضل أن تجعل قراراتك تتخذ بطريقة تصبح فيها سهلة التنفيذ، بدلاً من أن تكون صعبة التنفيذ، بدلاً من أن يكون لديك مجلس للأمن القومي، فيه مستشار الأمن القومي متواطئ؟ وأن تشد الصوف حول عيني وزير خارجيتك؟».

وفي النهاية، لم يكن مجلس العلاقات الخارجية ومركز الدراسات الإستراتيجية والدولية فقط، ولكن من هم من مجالس الخبراء في السياسة الخارجية والعسكرية- مؤسسة راند، وكلية الجيش العسكرية، والمعهد الأمريكي للسلام، ومعهد الدراسات الإستراتيجية القومية التابع لوزارة الدفاع - قدموا تقارير لافتة للنظر بسبب الإجماع في آرائهم؛ فالأمن وإعادة الإعمار في العراق بعد الحرب تتطلب أعداداً كبيرة من القوات مدة طويلة، وسيكون التعاون الدولي ضرورياً. كان هذا هو استنتاج درو إردمان أيضاً. «هذا هو المنطق فقط»، قال راي

سلفاتور جينينغز من المعهد الأمريكي للسلام، الذي كتب تقريرين منفصلين. لكن أياً من التوقعات لم تصل إلى البنتاغون أو المكتب البيضاوي.

أما توماس إي. وايت، وزير الحربية إلى أن طُرد بعد الغزو، قال فيما بعد: «في وزارة الدفاع كانت القضية الأولى أنه علينا أن نضبط هذا الأمر، لذا فإن أي شخص آخر مشتبه فيه، والشيء الآخر هو أن في أذهاننا أن هذه المهمة ستكون بسيطة، ويمكن إدارتها؛ لأنها ستكون حرب تحرير، ولذلك فإن إعادة الإعمار ستكون قصيرة الأجل».

على الرغم من أن نصيحة الخبراء كانت مهمة ويمكن أن تحدث فرقاً، فلم يكن مرحّباً بها. ففي البنتاغون، كان المسؤولون في مكتب عمليات السلام والاستقرار (الذي كان سابقاً مكتب حفظ السلام الذي كان كلمة سيئة في البنتاغون أيام رامسفيلد) مستبعدين بشكل منظم من اجتماعات التخطيط بشأن العراق، كما تم تجاهل مذكراتهم. وعلى الرغم من وجود متاعب في مهمة إعادة الإعمار في أفغانستان وترقّب الأخرى في العراق، فقد كان البنتاغون يخطط لإغلاق معهد حفظ السلام التابع له في كارليسل بنسلفانيا. في منتصف شباط 2003، قدّم رامسفيلد خطاباً في نيويورك بعنوان «ما وراء بناء الأمة». قال فيه: إن عمليات إعادة الإعمار بعد الحرب التي تمت في تسعينيات القرن العشرين قد أنتجت ثقافة تبعية، وإن العراق سيتبع أنموذجاً جديداً، الحد الأدنى مما فعلته الولايات المتحدة في أفغانستان. كانت تجربة المتخصصين في حفظ السلام في هاييتي والبلقان وتيمور الشرقية، مسؤولية فعلية في نظر المخططين للعراق. «كانت القيادة العليا في البنتاغون قلقة جدًّا بشأن معرفة موثوقية مدة ما بعد الصراع»، قال مسؤول في وزارة الدفاع: «لأنك لو كنت فيث أو وولفوفيتز لكان همّك الوحيد هو تحقيق الحرب». أمضى هذا المسؤول وزملاؤه، الذين كانوا متفرغين للعمل في الإعداد لتلك الطوارئ، شهوراً وهم يعدّون للحرب في حالة شديدة من ضعف المعنويات، ومع ذلك لم يكن أي منهم راغباً في الكلام بصوت عالٍ بما فيه الكفاية، داخل المبنى خماسي الأضلاع أو خارجه، للحصول على انتباه رامسفيلد. ومن كان يفعل ذلك كان يري الآخرين الثمن الذي يمكن أن يدفعوه لقاء ذلك.

في شباط، ظهر الجنرال إريك ك. شينسكي، رئيس هيئة أركان الجيش، أمام اللجنة العسكرية في مجلس الشيوخ، وسئل عن متطلبات القوات. وقد حاول جاهداً ألا يجيب عن

السؤال: لأنه كان عليه أن يكون مدركاً للعواقب، وأخيراً قال شينسكي: إنه، بناء على خبرته في حفظ السلام في البلقان، فإن العراق سيكون في مرحلة ما بعد الحرب بحاجة إلى ما يقارب مئة ألف جندي». وقد دفع هذا التقدير وولفوفيتز للاتصال هاتفياً بوايت، وزير الحربية. «كان هائجاً؛ لأننا في الجيش لم نضع إليه»، قال وايت: «لم يقدّم حججاً أو أسباباً. كان رأيهم دينياً بطبيعته إن الأمور كانت ستجري كما قالوا: إنها ستجري». وبعد عدّة أيام، ظهر وولفوفيتز أمام لجنة الموازنة وصرّح أن تقدير الجنرال شينسكي «ليس دقيقاً جدًّا». وفسّر نائب الوزير، «من الصعب إدراك أن توفير الاستقرار في العراق، بعد صدّام، سيحتاج إلى قوات أكبر من القوات اللازمة لتنفيذ الحرب نفسها، ولضمان استسلام قوات الأمن التابعة لصدام وجيشه. يصعب تخيّل ذلك».

كان بول وولفوفيتز المهندس الفكري للحرب، وقد عبّر عن قضية الحرب بعاطفة وفصاحة أكثر من أي شخص آخر في الإدارة الأمريكية، وكان غالباً يتحدّث علناً حول طبيعة الطغيان البعثي، وعن المواهب المكبوتة لدى العراقيين، التي تنتظر أن تتحرر. ولو سمعته، لشعرت أحياناً أن لديه عشرات الأصدقاء العراقيين المقرّبين، وربما حتى بعض الأقارب في بغداد والبصرة، مرّة قال لمذيع أجرى معه مقابلة وسأله إن كانت الديمقراطية في العراق قد تؤدي إلى حكم إسلامي: «اسمع، نصف العرب من النساء. ومعظم هؤلاء النساء لا يردن أن يعشن في دولة دينية، والنصف الباقي رجال، أعرف الكثيرين منهم. ولا أظن أنهم يريدون أن يعيشوا في دولة دينية». وقد بدا أن هذا كان صعب التخيل أيضاً.

كان وولفوفيتز مهتماً أكثر من بيرل وفيث، ومن المحافظين الجدد في وزارته، وبالتأكيد أكثر من رامسفيلد وتشيني. كان العراق يشكل له أمراً شخصياً. لم يبدُ متأثراً بجداول أعمال أخرى. لم يكن هاجسه التحويل العسكري، ودعم حزب الليكود، وإخضاع الديمقراطيين. ولم يكن صاحب مذهب ديني مسكون بالرؤى الأخروية حول إعادة أراضي الكتاب المقدّس، كان أقرب ما يكون إلى تحرري في المجموعة. كان يطارد هذا الحوت الأبيض سنوات، وكان سيخسر الكثير إذا أخفق في موضوع العراق. وإلا لماذا وجد كل ذلك صعب التخيل؟

سواء وافق على خطة الحرب أم لا، لم يكن وولفوفيتز ليعارض مديره القوي جدًّا بشأن الموضوع الذي كان رامسفيلد يسيطر عليه بقوة، كان وولفوفيتز مؤمناً حقيقياً، لكنه أيضاً

كان بيروقراطياً نجا من حكومات كثيرة، وعند الحاجة كان أكثر من قادر على الانحناء للحقيقة السياسية، في أواخر تسعينيات القرن العشرين، حين كان تغيير النظام في العراق قضيته المميزة، سار وولفوفيتز خلف الفكرة الضعيفة التي تنادي بالإطاحة بصدام على يد عدة آلاف من أتباع أحمد الجلبي؛ لأنه فهم أن الشعب لم يكن يريد توريط عدد كبير من القوات الأمريكية في القضية، والآن حين أصبحت أمريكة على وشك الذهاب للحرب، وإنهاء العمل الذي شعر مدة طويلة أنه بقي غير مكتمل عام 1991، قبل مصطلحات مثل: القوة الخفيفة، والالتزام القليل بمرحلة ما بعد الحرب. وقد أخبر الشعب مراراً أن إعادة الإعمار ستكون رخيصة، وأن تكاليفها يمكن أن تسدد من عوائد النفط العراقي. قال هذا إجابة عن نصيحة خبراء من مديري شركات نفط، كانوا يعرفون حالة منشآت النفط العراقية المهملة. كانت تقديرات البيت الأبيض للتكاليف قليلة لدرجة غير معقولة: ففي نيسان، طلب مكتب الإدارة والميزانية من الكونغرس مليارين ونصف مليار دولار فقط لإعادة إعمار العراق بعد الحرب. وحين تنبأ المستشار الاقتصادي لدى بوش لورنس ليندسي علناً أن الحرب قد تكلف ما يقارب 200 مليار دولار -وهو رقم تبين فيما بعد أنه قليل- عُوقب المخالف الوحيد للإدارة الأمريكية علناً، بالإضافة إلى الجنرال شينسكي بسرعة، وطُرد في النهاية. وأخفت الإدارة الأمريكية عمداً توقع التكاليف الحقيقية للحرب عن الشعب، وعن نفسها أيضاً، عبر التأثيرات المغرية لمجموعة التفكير المغلقة، وسيكون هذا تحولاً تاريخياً رخيصاً جدًّا. كان وولفوفيتز مسؤولاً عن ذلك شأنه شأن أي شخص آخر.

اعتقد وولفوفيتز، شأنه شأن كنعان مكية في قدرة شعب العراق على تغيير مجتمعهم، وصدّق ذلك، مثل مكية، على الرغم من كل ما كان يعرفه عن الشرق الأوسط. حين عُيّن مساعداً لوزير الخارجية لشرق آسية عام 1982، وترك سياسة الشرق الأوسط إلى سياسة آسيوية كان، كما قال وولفوفيتز: «كأنه يخرج من غرفة مغلقة فاسدة الهواء، إلى نور الشمس والهواء النقي». «شعرت أنني أذهب من مكان في العالم لا يعرف الناس فيه إلا كيف يصنعون المشكلات، إلى جزء آخر من العالم يقوم فيه الناس بحلّ المشكلات». وها هو ذا بعد عشرين عاماً قد أصبح مؤيداً لا يكلّ لعراق جديد. لم يجد صعوبة في تخيل وعده، وفي اجتماعات التخطيط، كان يتحدث عن العراق بعد صدام كأنه سيكون مثل بولندة بعد

سقوط الشيوعية، أو مثل «أوروبة الشرقية، لكن فيها عرب»، كما قال أحد المسؤولين. وقد قادته رغبته المتحمّسة في الحرب إلى قبول التنازلات التي كانت بالتأكيد ستعرّض مكاسب الحرب للخطر، وفي النهاية تتحول الصفقات التي يعقدها المرء مع الآخرين إلى صفقات يعقدها مع نفسه.

وذات مرة، في منتصف عام 2002، زار وولفوفيتز كابول عقب حادثة كارثية قامت بها مروحية أمريكية مسلحة من طراز AC-130 بقصف أربع قرى أفغانية، وقتلت أربعين مدنيّاً، بينهم مدعوّون لحفل زفاف. فغضبت حكومة حامد كارزاي الضعيفة، وكانت السفارة الأمريكية قد أرسلت المسؤول السياسي الناطق بالبشتونية لاحتساء الشاي مع الناجين، وحضور الجنازة، والاعتذار. لم يكن هناك شك في أن حياة الأبرياء قد أزهقت؛ كان الشيء الوحيد غير المؤكد هو: هل كان سبب الهجوم هو إطلاق النار الاحتفالي أو ربما نيران مضادة للطائرات من العصابات في المنطقة؟ لكن عندما التقى وولفوفيتز بموظفي السفارة، بدأ باستجواب المسؤول السياسي: «لِمَ تفترض أنه كان هناك حفل زفاف؟ ربما، قال وولفوفيتز: كيف تعرف ذلك؟ كان طالبان قد تنكروا بزي محتفلين كان هذا حدسه بشأن الحادثة. «يجب ألا نكون سلبيين في الاعتذار، يجب أن نكون أكثر ثقة». استمع الموظفون بإنصات، وكانوا مروّعين. وقد قال لي أحدهم فيما بعد: «كان كأنه يختلق الحقيقة الخاصة به». كان لدى وولفوفيتز عادة خطيرة هي التغطية على الحقائق غير المناسبة؛ لكي يحافظ على صلاحه. وقد قال أحد موظفي الحكومة الذين عملوا معه في موضوع العراق: «بول وولفوفيتز، على الرغم من كل صفاته الجيدة، كان لديه قدرة مؤسفة على خداع نفسه؛ لأنه يعتقد في الأمور بشكل عاطفي جدًّا».

لذا، فقد كان وولفوفيتز هو الذي أنهى أحد النقاشات العلنية المهمة حول أساسات خطة الحرب حتى قبل أن تبدأ، ولم يكن هناك نقاش آخر، كانت رسالته لشينسكي رسالة للجميع داخل ملاك البنتاغون وخارجه، كان جزاء المعارضة الإذلال والانتحار المهني. وقد قال أحد المسؤولين في سلاح القوات الجوية، كان مشاركاً في التخطيط للحرب فيما بعد: «بعد رؤية ما عمله وولفوفيتز، لا أعتقد أن أحداً سيرفع رأسه، ويظهر أي احتجاج حول ذلك».

كانت تحذيرات شينسكي والخبراء والمعارضين في وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومجلس الأمن القومي، والكونغرس، ومجالس الخبراء «صعبة التخيّل» فقد كانت محل شك من الناحية الأيديولوجية، وغير مناسبة من الناحية السياسية، وكانت ضد الفكرة العامة لوزارة دفاع رامسفيلد التي كان هدفها الأكثر أهمية هو التغيير العسكري: لمتابعة نشر قوات الوحدات النشيطة بعد الحرب الباردة وتركيز الإستراتيجية والإنفاق على القوات الخاصة، والقوة الجوّية، وأنظمة الأسلحة المتطورة. وأصبح حفظ السلام -الذي لم يتم تبنّيه بشكل كامل في حكم كلينتون ورفضته إدارة بوش علناً في حملة عام 2000- أثراً غير موثوق لحقبة سابقة. قال توماس وايت: «إن عملية حفظ الاستقرار هي عبارة عن وجود للقوات، ووجود للشرطة وهذه الأنشطة المدنية، وليست من الأشياء الغريبة ذات التقنية العالية، (سيكون لدينا أقمار صناعية، وأسلحة قوية، وسنصطاد هؤلاء الأشخاص في شوارع اليمن الخلفية، إنها قوات على الأرض، وهي غير قابلة للتحويل». كانت أفغانستان، بالقوة الجوية عالية الدقة والعدد الصغير من القوات الخاصة التي تعمل على الأرض مع الميليشيات المحلية، أنموذجاً جديداً رائعاً للحرب. وعند التخطيط لحرب العراق في أثناء عام 2002، ألزم رامسفيلد الجنرال تومي فرانكس من القيادة المركزية بتخفيض قوة الغزو من العدد الأصلي الذي كان نصف مليون (العدد الأقصى في خطة أنتوني زيني، الذي كان قبل فرانك، التي وصفها رامسفيلد بأنها «قديمة وفاسدة») إلى نحو 160.000. وقد تم ذلك جزئياً باختيار وحدات، والتدخل بالبرامج القياسية للانتشار العسكري، للمحافظة على عنصر التخفي، ومتابعة إرسال القوات إلى مسرح الحرب بعد الغزو. ولولا أن فرانكس أبدى بعض المقاومة، لانخفض العدد إلى أقل من 100.000، لكن مراراً وتكراراً، كان الوزير يحصل على ما يريد قهراً.

لم تكن مهمة الخدمات الموحّدة أن تقوم ببساطة بتحية قادتهم المدنيين، والسير إلى الحرب، فقد كان لدى فرانكس، الذي كان معروفاً بأنه يحكم بالخوف، وموظفوه التزام تجاه الرجال والنساء الذين تحت إمرته. ومع ذلك لم يسألوا أنفسهم ما الذي يمكن أن يحدث إذا كان رامسفيلد مخطئاً؟ وما الذي يمكن أن يحصل لقواتهم حين تصبح في العراق، دون القوات أو الحماية اللازمة، إن لم تجرِ الأمور كما هو مخطط لها؟. كانت الخطة (أ) تقضي

بقطع رأس الحكومة العراقية بسرعة. ويؤول الأمن إلى بقية الشرطة والجيش العراقيين، وسرعان ما ستصل القوات الدولية، وستغادر معظم القوات الأمريكية بعد أشهر. لم تكن هناك خطة (ب). وقد استنتج كثير من الضباط في القيادة المركزية، أن على رامسفيلد، مهما كانوا يكرهون العمل معه بسبب عجرفته التي لا تهتم بالآخرين، أن يعرف ما الذي يفعله. كانت سمعته في أوجها، في داخل البنتاغون ولدى الشعب، وكان متألقاً في الأحاديث الصحفية، وقاسياً في اجتماعات الموظفين. أما المخطِّط الحربي من القوات الجوّية، وهو رائد في الاحتياط اسمه غليد تيلور، فقد كان يرى أن نصر رامسفيلد في أفغانستان أساء كذّاب الجيش، الذي كان قد تنبأ بالحاجة إلى أعداد كبيرة من القوات هناك. كان كلام شينسكي يبدو نتيجة للحرب الباردة. هكذا كان المستقبل: سيتم النصر في العراق بالصدمة والخوف. وفي أحد الأيام، قام كولونيل قاسٍ في الجيش، كان قد خدم مع الشرطة العسكرية في البوسنة وكوسوفو، بسحب تيلور جانباً وقال: «أيها الرائد، أنت تخدع نفسك». ففي البلقان كان الكولونيل قد رأى أعداداً مبهمة من الفئات، تتنافس على السلطة في الفراغ الناتج عن الحرب، والأمر ذاته يمكن أن يحدث في العراق: فالبلد يمكن أن يتفكك.

كان الجنرال أنتوني زيني، الذي سبق فرانكس في القيادة المركزية، قد توقع ذلك بالضبط. كان قصف التحالف لأهداف عراقية في كانون الأول 1998 قد هزّ النظام في بغداد، وقد حذّر كل من القادة العرب من فراغ السلطة إذا سقط صدام. ولأن زيني أدرك أن مسؤولية ما بعد الحرب ستقع على عاتق الجيش، فقد بدأ بالعمل على خطة لإعادة إعمار العراق؛ لتواكب خطته للحرب. غطّت خطة «عبور الصحراء» حماية البنية التحتية، وإغلاق الحدود، والأزمات الإنسانية، والسياسة، والاقتصاد، وحتى القضايا الاجتماعية كدور النساء. وقد قال لي زيني: «يجب أن تكون هذه الخطة متصلة مع الخطة العسكرية. في عام 2000 تركت الخطة مع الجنرال فرانكس، لم تكن كاملة، لكنها كانت قد قطعت شوطاً بعيداً». في الأسابيع التي سبقت غزو العراق، شعر زيني، الذي كان قد تقاعد، أن إدارة بوش لم تكن مستعدّة لما كان ينتظرها بعد سقوط النظام، خاصة مع عدد القوات الذي كان يسمع عنه. فدعا القيادة المركزية قبل الحرب بوقت قصير، وقال: «تعلمون أن عليكم نفض الغبار عن خطة عبور الصحراء، ألقوا عليها نظرة فاحصة». فسأل نائب القائد: «عبور الصحراء؟ ما

هو ذاك؟ لم أسمع بذلك قط». وفي البنتاغون علم زيني أن خطة عبور الصحراء قد رفضت؛ لأن افتراضاتها كانت «سلبية جدًّا»، كان يظن عيبها أنها أعدّت حين كان كلينتون في السلطة، على الرغم من أن الجيش يفترض ألا يكون متحيزاً. قام فرانكس بمحاولة واحدة للاستعانة بنصيحة زيني قبل أن تبدأ حرب العراق. لكن أوقفه شخص أعلى رتبة.

كان المصطلح العسكري لعمليات مرحلة ما بعد الحرب في العراق هو المرحلة 4. استغرق التخطيط للمرحلة 1 (جمع القوات في المنطقة)، والمرحلة 2 (المرحلة الأولية، في الغالب عمليات سرّية)، والمرحلة 3 (الهجوم الرئيس الجوّي والبرّي) الجزء الأكبر من السنة. كانت حرب العراق اختيارية، وقليلة هي الحروب التي أعطت قادتها وقتاً أطول للاستعداد. لكن، بقيت أمور مرحلة ما بعد الحرب التي تظهر في أسفل التقارير عن تقدّم سير العمل من القيادة المركزية للبنتاغون، «فقرات مفتوحة»، تنتظر الإجابة. وبحلول آذار 2003، كان التخطيط للمرحلة 4 بالكاد جارياً. «هناك مشكلة حقيقية بفكرة المرحلة 4، من حيث المبدأ»، أخبرني كولونيل ملازم متقاعد من القوات العسكرية الخاصة اسمه (كاليف سيب): «كانت فكرة أن نهاية المرحلة 3 هي نقطة النصر، هي الفشل الفكري في التخطيط للمرحلة الرابعة». يجب النظر إلى المرحلة 4 بوصفها هدف الحرب، وليس واحداً من آثارها. «لكن على مر السنين، أصبحت المرحلة 4 للمخططين الحربيين الأمريكيين هي المرحلة التي تتم فيها إعادة كل شيء إلى الحاويات البحرية والجوية والبرية، وشحنها إلى فورت ستيوارت، جورجيا». كانت هذه حرباً دون سياسة، على عكس القول المأثور لكلوسويتز. كان فرانكس يصرّ دائماً على أنه قرّر ألا يكرر خطأ الجنرال ويليام ويستمورلاند في فيتنام: وأنه سيخبر المدنيين أن يبقوا بعيداً عن الأمور العسكرية، وسيبتعد عن عملهم. وعندما طرح أحد ضباط القيادة المركزية سؤالاً عن التخطيط للمرحلة 4، قال فرانكس: «السيد وولفوفيتز يهتم بذلك». كانت نظرته إلى الحرب نظرة مهندس محترف، والنتيجة أن فرانكس لم تكن لديه رؤية إستراتيجية لما يلزم، لتحقيق النصر في العراق.

كان لدى الرائد تيلور انطباعٌ بأن فرانكس والمخططين التابعين له في القيادة المركزية، لم يفكروا قط في مرحلة ما بعد الحرب بوصفها جزءاً من مسؤولياتهم. «لم يكن الضغط الذي حصلنا عليه من القيادة المركزية حول المرحلة 4 كافياً بصراحة، كان الموقف كما يأتي:

لا تقلقوا بشأن ذلك إنه من شأن مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، وهو سيهتم بذلك. لكن ما هو مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية؟».

في 20 كانون الثاني 2003، وقّع الرئيس بوش التوجيه الرئاسي الخاص بالأمن القومي رقم 24، وقد وقّعه دون سماع الاعتراضات النشيطة من وزارة خارجيته، ومع ذلك ثبت أنه من القرارات المصيرية لحرب العراق. فالتوجيه الرئاسي رقم 24 -الذي أُعدّ في مكتب الخطط الخاصة- جعل مرحلة ما بعد الحرب في العراق تحت سلطة وزارة الدفاع، وأنشأ وحدة ضمن البنتاغون، لإدارة العراق بعد سقوط النظام مباشرة، كانت هذه الوحدة تسمى مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية.

في تاريخ البيروقراطية الأمريكية كان مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية نوعاً جديداً من المنظمات، وهي تأخذ موظفيها من وكالات حكومية مختلفة، بما فيها وزارات الخارجية، والمالية، والدفاع، والتجارة، ومن المواطنين المستقلين. كما أنها كانت «استطلاعية»، فالفريق يسافر إلى المنطقة، وأخيراً إلى العراق بعد الحرب، ويتصرف مدة غير محددة من الوقت بصفة إدارة للعراق، لكن تحت السلطة العملياتية للقوات البرية، ويرسل التقارير بشكل أساسي لرامسفيلد.

اختار رامسفيلد وفيث لقيادة مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية جنرالاً ملازماً متقاعداً اسمه جاي غارنر. حسب جدول أعمال البنتاغون، كان غارنر خياراً منطقياً: ففي نهاية حرب الخليج عام 1991، أدار غارنر عملية توفير الحماية Provide Comfort، وهي أول عملية تدخّل إنسانية بعد مدة الحرب الباردة، وقد أنقذت حياة آلاف الأكراد في الجبال المغطاة بالثلوج على طول الحدود التركية. ومنذ تقاعده، كان أيضاً متعاقداً ناجحاً لـ Crystal City مع وزارة الدفاع، وعضواً في لجنة رامسفيلد حول الدفاع الصاروخي في أواخر تسعينيات القرن العشرين، وكان من المفضلين لدى المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي، المجموعة التي رعت كتابة ورقة إستراتيجية «انفراج كامل» «Clean Break». لذا فمن وجهة نظر وزارة الدفاع، كان لدى غارنر الخبرة اللازمة، وكان مرتبطاً بالأشخاص المناسبين. قال رامسفيلد لفرانكس: «سيكون رجلي في العراق».

كان غارنـر مـن فلوريدة، وكان رجلاً قصـيراً ضـعيف البنية، سـهل القيـاد، لا يرتدي «الجاكيـت» فوق القميص، ومن الناس الذين يعرفون أسـماء الجميع، ويصـر على مناداته جاي. كان قائداً بالفطرة، مفضـلاً ما سـمّاه أحد موظفيه «إسناد المهمات لمن هم في مرمى البصر»: فيمكن أن تلمع برأسه فكرة فيعطيها أول شخص يقابله. وقد أحاط نفسه بمجموعة مغلقة من كبار العسكريين المتقاعدين، بعضهم كان أيضاً من رفاقه في الصيد. كانوا ينادون بعضهم «بوبا»؛ وكان الآخرون يسمونهم «رعاة البقر الفضائيين»، بعد فيلم كلين إيستوود عن مجموعة من رواد الفضاء، يتم إحضارهم من التقاعد لتنفيذ مهمة أخيرة.

إذا فكـر المـرء بعـراق ما بعد الحـرب بوصـفها عملية إنسـانية محدودة، وليسـن تعهّداً عسـكرياً غـير محـدود، أكثر اتسـاعاً وتعقيداً مـن أي شـيء عرفته الولايـات المتحدة منذ نهايـة الحرب العالميـة الثانية، وجد أن لدى غارنر الفريق المناسـب. لم يكـن غارنر مفكراً معقداً؛ ولم يكن يعرف عن المنطقة إلا القليل، بالإضافة إلى تجربته مع الأكراد. وبينما كان المسـؤولون العسـكريون والمدنيون يتعلمون من العواقب الفوضـوية للتدخلات التي جرت في أواخر تسعينيات القرن العشرين، كان هو يجني المال في القطاع الخاص. وكان من المنطقي فيما يتعلق بوكالة تم منحها حديثاً السلطة بعد الحرب، على دولة لا تنوي القيام فيها بإعادة إعمار سياسي واقتصادي، أن تعيّن رجلاً مثل غارنر للإشراف على ذلك.

كان لديه سـبعة أسـابيع للاسـتعداد. قال مسـؤول في وزارة الدفاع: «هذه هي المدة التي يستغرقها وصل جهاز حاسوب في البنتاغون».

في أوائل شـباط، انتقل مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية إلى مكتب في الطابق الرابـع من البنتاغون، في الحلقة ب. وهكذا أصـبحت تحت مكتب الخطط الخاصـة بطابق واحـد، ومـع ذلك لم يكن هناك أي اتصـالات بـين هاتين الوكالتين اللتـين تخططان لما بعد الحرب ضـمن البنتاغـون، «كان مكتب الخطط الخاصـة يبتعد عن التدخـل في عملنا قدر الإمـكان»، قـال الكولونيل بول هيوز من الجيش، ومسـؤول التخطيط لـدى غارنر: «كان من الصـعب أن نجعلهم يفتحون الباب هناك في الطابق العلوي». وفي أحد الأيام، أحضـر أيب شولسكي، ومايكل روبن شريحة باور بونت تخطط بعبارات عامة جدًّا هياكل الحكم المسقبلية في العراق. قال هيوز: «هذا كل همهم في مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية». وحين

اقترح هيوز على غارنر إعداد خطة سياسية – عسكرية (وثيقة شاملة من النوع المفصّل في توجيه كلينتون البائد رقم PDD56، يعطي مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية الصلاحية لوضع افتراضاتها، ومهمتها، وأهدافها، وأولوياتها، وحالتها النهائية، ثم تقدمها كاملةً للوزارات الأخرى للموافقة عليها) جمّد فيث هذه الفكرة. كان هذا أبعد كثيراً من درجة عمل مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية. لن يكون هناك خطة سياسية – عسكرية، ولا وثائق مفصلة على الإطلاق. بقي كل شيء مهم غير مكتوب.

قسّم غارنر عمليته إلى ثلاثة «أركان»: المساعدة الإنسانية، وإعادة الإعمار، والإدارة المدنية. وجعلته تجربته في شمال العراق يركز على أكثر الأعمال ضرورة، وهو إمكانية حدوث كارثة إنسانية، وسكان مهجّرين، ومجاعة، وانتشار المرض، وأعداد كبيرة من أسرى الحرب، وفوق كل ذلك، هجوم بالأسلحة الكيماوية. كانت الأمم المتحدة تحذّر من إمكانية موت نصف مليون شخص. وإذا كان أي من هذه الكوابيس سيحدث، فإن الغرباء ربما يكونون على علم الآن بكل استعدادات مكتب إعادة الإعمار لها.

في 21 و22 شباط، اجتمع المسؤولون الذين يقارب عددهم المئة في مكتب إعادة الإعمار في جامعة الدفاع القومي في واشنطن، لمراجعة خططهم؛ باللهجة العسكرية لمكتب إعادة الإعمار، سمّى غارنر الاجتماع «مثقب الصخر»، وهو تدقيق بكل ما تم فعله أو معرفته حتى تاريخه، وقد صدم مثقب الصخر بعض المشاركين، ورأوا أنه مشؤوم.

«شعرت بأن الفريق الإنساني كان في محله تماماً، لكن بقية الأمور كانت تطير هنا على غير هدى»، قال أحدهم لاحقاً: «كان كثير منه بعد أن سمعنا من جاي غارنر: (ليس لدينا أي موارد للقيام بذلك، ولدينا خطة والخطة ستكلف ثلاثة مليارات دولار، ولدينا سبعة وثلاثون ألفاً). أو: (نحن نعمل الآن على جمع الإدارة المدنية، هذا هو عملنا، كل ما فكرنا فيه فعلاً هو النفط)». تم تناول خطر النهب، لكن ضباط التخطيط الذين أُرسلوا من القيادة المركزية، كان لديهم تعليمات بعدم الإجابة عن تلك القضايا التي تتعلق «بما بعد الصراع»، وذلك يعود جزئياً إلى أن قوة الغزو كانت تفتقر إلى القوات الكافية لمواجهتها. كما أن خطط إدارة الوزارات العراقية كانت أولية (لم يكن لدى مكتب إعادة الإعمار أي معلومات تقريباً) غُيّر رئيس فريق الإدارة المدنية مرتين: فديفيد كاي، الذي قاد فيما بعد

فريق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، عُيّن بدلاً من القائد الأول مدة يومين، ثم استقال دون أن يخبر غارنر عن السبب، عُيّن تحت إصرار من دوغلاس فيث، من قبل شريك فيث القانوني السابق، مايكل موبز، الذي سبق أن كتب السياسة القانونية لوزارة الدفاع، التي استثنت سجناء غوانتانامو من معاهدات جنيف، وأعلنت مواطنين أمريكيين محددين مقاتلين أعداء ليس لهم حقوق دستورية. وقد اتخذ موبز، المعيّن السياسي، هذا القرار لمنح شركة هاليبرتون، شركة تشيني القديمة، وهي شركة سرّية، رأسمالها سبعة مليارات دولار، عقداً دون استدراج عروض لإصلاح حقول النفط العراقية، بعد الموافقة على ذلك من قبل كبير الموظفين لدى تشيني، سكوتر ليبي. كان من المفترض أن يكون النفط، حتى استقالة كاي، مسؤولية موبز الوحيدة في مكتب إعادة الإعمار. كان رجلاً كتوماً -ظنّه الجميع لطيفاً بما فيه الكفاية- لكنه كان رجل فيث ولم يكن له خبرة ذات صلة بالمهمة التي تنتظره في بغداد على الإطلاق، استنتج أحد الضباط من موظفي غارنر أن موبز لا يستطيع قيادة فصيل؛ فقد التحق بمكتب إعادة الإعمار قبل مثقب الصخر بقليل، ثم سافر مباشرة إلى كردستان العراق للاجتماع بجلبي وبقية المعارضة، وترك واجباته حتى قبل أن يتولاها. في النهاية، تبين أن الإدارة المدنية هي الركن الأكثر أهمية.

في أثناء اجتماع مثقب الصخر، لاحظ أستاذ في مدرسة سلاح البحرية للحرب المتطورة، اسمه غوردون و. رود، كان قد وصف لفريق غارنر على أنه باحث تاريخي، رجلاً يجلس تحته بأربعة صفوف في المدّرج في جامعة الدفاع القومي. كان الرجل يقحم تعليقاته في أثناء عروض الآخرين. قال رود: «لقد أزعجني في البداية، ثم أدركت أنه على اطلاع أكثر منّا. كان قد عمل على الموضوعات المطروحة، بينما كان الرجل الواقف على المنصّة غِرّاً». بدا الرجل «محبطاً؛ لأن لديه خبرة أكثر من أي شخص آخر، لكنه ليس مسؤولاً».

كان ذلك الرجل هو توم ووريك، المنسق الشائك لمشروع وزارة الخارجية عن مستقبل العراق، وكانت إحباطاته قد بدأت للتوّ، وكان غارنر معجباً به في اجتماع مثقب الصخر، لدرجة أنه طلب منه فوراً الالتحاق بمكتب إعادة الإعمار، والذهاب إلى العراق. وبعد نحو أسبوع، بعد أن سحب ووريك ملفاته من وزارة الخارجية إلى مكتب في البنتاغون، سحب رامسفيلد غارنر جانباً في نهاية اجتماع في مكتب الوزير. أخذ رامسفيلد ورقة كانت

علـى مكتبـه، بينمـا كان يخلط الأوراق التي علـى المكتب، ونظر إليها، وقـال: «جاي، هل في منظمتك شخصـان اسـمهما ووريك وأو. سـوليفان؟» كانت ميغان أو. سوليفان متخصصة في الحصارات في مكتب التخطيط السياسي في وزارة الخارجية، وكانت في الثالثة والثلاثين مـن عمرها. «علـي أن أطلب منك أن تخرجهما من فريقك». وعندما بدأ غارنر بالاعتراض لأنهما مهمَّان جدًّا، بحيث لا يريد أن يخسـرهما، قاطعه رامسفيلد قائلاً: «هذه الأوامر من مسـتوى عالٍ، بحيث لا أسـتطيع أن أرفضها». وعلم غارنر فيما بعد أن الأمر جاء من تشيني الـذي كان يحتقـر ووريك ويكره بعض الأشـياء التـي كتبتها أو. سـوليفان، التي كانت تحت حماية ريتشارد هاس صاحب الفكر المعتدل، مما يجعلها موضع شك.

أكّد غارنر لووريك وأو. سـوليفان أنه سـيعيدهما إلى مكتب إعادة الإعمار. حاول القيام بذلك عن طريق هادلي، نائب رايس، لكن الأخير رفض قائلاً: «هذا صـعب جدًّا». أما كولن باول فقد غضب نيابة عن موظفي وزارة الخارجية، واحتجّ للبيت الأبيض والبنتاغون، وأسرّ لغارنر، «أخبرت رامسفيلد أنني أستطيع أن آخذ سجناء أيضاً. كان علي آخذ جميع موظفي وزارة الخارجيـة مـن فريقـك، لكن هذا لم يكن ليحقـق أي هدف، نحن نريـد لك أن تكون ناجحاً». جسّد هذا المأزق ورطة باول في الحرب كلها، حيث كان غالباً ما يخسر لاعبي فريقه في النهاية. استمرّ غارنر في الاحتجاج لرامسفيلد، وقبل الانتشار في الكويت ببضعة أيام قال له رامسفيلد: «أعد الأنثى، ولن يعلم أحد بذلك». وهكذا سمح لميغان أو سوليفان بالعودة إلى مكتب إعادة الإعمار.

أما توم ووريك، الذي كان قد قام بالتفكير للعراق في مرحلة ما بعد الحرب، شـأنه شـأن أي مسـؤول أمريكي، فقد أصـبح من ضحايا الحرب بين الوكالات، ولم يذهب إلى بغداد مدة سـنة. وظـل البنتاغـون يؤجل تعيين بقيـة الموظفين رفيعـي المسـتوى في وزارة الخارجية من ذوي الأيديولوجيات الغريبة والخبرة الطويلة في الشـرق الأوسـط، ولم يكن ذلك علناً، وإنما ببسـاطة لعدم القدرة على الموافقة عليهم. قالت السـفيرة باربرا بودين، وهي مسـتعربة في الخدمة الخارجية، التحقت بمكتب إعادة الإعمار في أوائل آذار: «لم نقدّر الأشـخاص الذين كنـا نلعب معهم. اسـتغرقنا وقتاً لندرك أنهم يـؤدون لعبة مختلفة لها قواعـد مختلفة، وكنا مهيئين للخسارة». وتمت أرشفة التقارير حول مشروع مستقبل العراق. وبعد أشهر التقيت في

بغداد محامياً عراقياً أمريكياً اسمه سرمد الصرّاف، كان قد عمل في مجموعة عمل العدالة الانتقالية، وكان يحمل نسخة من تقريره البالغ 250 صفحة، محاولاً أن يحوز اهتمام مسؤولي الاحتلال. لكن بدا أن أحداً لم يرَ ذلك التقرير.

حتى إن البنتاغون قد استبدل بفريق وزارة الخارجية الأمريكية من المغتربين العراقيين فريقاً خاصاً به، حيث أخذ بعضهم من المشروع واستبعد الآخرين، ووظف أفراداً جدداً من مجموعة دُعيت لسماع خطاب وولفوفيتز في ديربورن، ميشيغان، في أواخر شباط. كان توم ووريك يطوّر علاقة مع العراقيين في ميشيغان مدة لا تقل عن سنة، ولكن كان من الواضح أنه لم يدعَ للاجتماع بوولفوفيتز. حذّر ووريك «رجاله» العراقيين من العمل مع البنتاغون، وكان بذلك يساعد في تأكيد مصيره. تم تجميع العراقيين بإشراف وولفوفيتز باسم مجلس تنمية وإعادة إعمار العراق، ونُظّموا في غرف تنتشر في طابقين من مبنى مكتب مجاور للبنتاغون، تحت حراسة مشددة. كانت الإشارات على الغرف قد كتب عليها: «وزارة الدفاع»، «وزارة الداخلية». وكان لديهم أقل من شهر لتنظيم البنية التحتية المدنية لحكومة انتقالية في بغداد. ضمت المجموعة عدداً من العراقيين المؤهلين، وكان الكثيرون منهم سيتابعون العمل مع الاحتلال. لكن مهمتهم كانت إعادة اختراع العجلة.

كان ريتشارد أرميتاج قد طلب من باربرا بودين أصلاً أن تلتحق بمكتب إعادة الإعمار بصفتها رئيسة للإدراة المدنية. وحين وصلت إلى البنتاغون، كان فيث قد وضع موبز في ذلك المنصب، وقبل نشر القوات بأسبوعين فقط، أعطيت بودين المنصب المفتوح لإدارة بغداد ووسط العراق. وحين جلست مع وولفوفيتز وأمامهما خريطة العراق لتحديد المحافظات التي تضمها المنطقة الوسطى، بدأ وولفوفيتز يفكر في تغيير الحدود الإقليمية برمتها. كأن العراق كان صفحة بيضاء، وعلى محرّريه أن يقوموا بإعادة تكوينه. كان وولوفيتز ينزلق دون أن يشعر في الدور الذي طالما أصر على أن الإدارة لا تريده: دور السلطة الاستعمارية المستبدّة. كان بإمكانه تخيل معاناة العراقيين، وإمكانيات العراقيين، لكنه لم يستطع قط أن يتخيل استياء العراقيين. وقد تساءلت بودين هل يمكن لرجل ذكي مثل بول وولفوفيتز ألا يكون قد سمع باتفاقية سايكس بيكو السرية التي تمت عام 1916 التي قسمت الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق سيطرة بريطانية وفرنسية؟. وكانت تقترح أن إعادة رسم خطوط

العراق من قبل سلطة غربية ليست فكرة جيدة. وقد قالت لوولفوفيتز: «انظر إلى شبكة الطرق. هذا هو النموذج الذي نشأ عبر القرون. هكذا يرى العراقيون أنفسهم».

وإذا كان وولفوفيتز يتقدم نحو الفخامة عشية الحرب، فقد بقي رئيسه غير مهتم إلى حد الإهمال. فحين قدّمت بودين لرامسفيلد عرضاً موجزاً عن إدارة العراق بعد سقوط النظام، أكّدت الحاجة الفورية إلى موظفين حكوميين للتصدي للفوضى، أو المقاومة، لكن رامسفيلد لم يبدِ أي استعجال، فالعراقيون يمكن أن ينتظروا أسابيع أو شهوراً. كان الأهم هو ألا يقوم دافعو الضرائب بتسديد الفاتورة. أما عن إمكانية حدوث الفوضى، فقد اقترح وزير الدفاع أن هذا يمكن أن يستخدم لإقناع دول أوروبة القديمة للمشاركة في القوات.

وبحلول منتصف شباط، أصبح من الواضح لمن ينتبه أن الإدارة لم تكن مهيأة قط للتعامل مع العراق بعد الحرب. كان بعض هؤلاء الناس المنتبهين في الكونغرس. في 11 شباط، ظهر فيث ونظيره في وزارة الخارجية، وكيل الوزارة للشؤون السياسية مارك غروسمان، في جلسة استماع في لجنة العلاقات الخارجية، في مجلس الشيوخ، وحاولا تمثيل جبهة موحّدة. بدت شهادتهما وكأنهما تلميذان يحاولان أن يجيبا عن أسئلة المعلم حول وظيفة قاما بإعدادها معاً، ويصارعان خمس عشرة دقيقة أمام الصف. قال موظف رفيع المستوى في وزارة الخارجية فيما بعد: «لم يكن هناك إجماع، كلما بدأ مارك بالشهادة كان يريد إظهار قدرة الخارجية الأمريكية على التباهي، نحن بحاجة إلى شخص يتمتع بقوة باقية، وقدرة على ألا يتصارع بعنف مع الشخص الذي إلى يمينه». كان غروسمان يحاول جاهداً أن يجعل الأستاذ سعيداً؛ أما الشخص الذي كان إلى يمينه، فقد كان يحاول أن يفوق الأستاذ ذكاءً. وتحت الضغط الغاضب للسيناتور جوزيف بايدين من ديلاوير والسيناتور بول ساربانز من ماريلاند، وضع غروسمان مراقباً للدور الأمريكي في العراق مدة سنتين، وخطط لعملية ذات ثلاث مراحل للحكم الذاتي في العراق، وترك معظم التفاصيل حتى عروض مستقبلية لم تحدث قط. فيما يخص فيث، الذي كان يدير مكتب الخطط الخاصة المسؤول عن التخطيط لما بعد الحرب منذ أيلول الماضي، فقد كانت شكوك الحرب تضع الموضوع كاملاً في عالم الغيب. وقد أخذت إجاباته شكل حِكَم مدرب تأمل بوذي: سيصبح

العـراق ملكاً للعراقيين. أمريكة ملتزمة بالبقاء وملتزمة بالمغادرة. سـنبقى طالما كان هناك حاجة لبقائنا، ولن نبقى يوماً واحداً بعد ذلك.

السـيناتور شـايـ: هل لديكم خطة إسـتراتيجية للخروج، أو نوع من التخطيط إذا تحول هذا إلى كارثة...؟

فيث: الإجابة القصـيرة هي نعم. نحن نخطط لأسـوأ الاحتمالات، وأريد أن أؤكد للجنة أن كل واحد من الـ...

السيناتور شايـ: متى ستطلعوننا على هذه الخطط؟

السـيناتور دود: أخبرني لماذا تعتقد أن بناء الأمة هنا والإمساك بالأمور معاً شيء يمكن تحقيقه في أثناء سنتين، حسب إجابتك للسيناتور فينغولد.

فيث: أولاً، سينـاتور، كانت السنتان إجابة زميلي المحترم، وكيل الوزارة غروسمان.

السيناتور دود: حسناً.

فيث: ولا أظن أنني سأتجرّأ على التنبؤ.

ثم أصـرّ فيث علـى أنه لم تكن هناك أي نية لنقل السـلطة إلى أحمـد الجلبي. أخبرني فيث: «إن فكرة أن لدينا خطة صـارمة للتحول السياسـي فكرة خاطئة، لقد طوّرنا مفاهيم، وتوجيهات للسياسـة، مثلاً: تنظم أكبر قدر ممكن من السلطة بأيدي العراقيين. هذا توجيه للسياسـة. أما فيما يخص أسـماء وجداول زمنية وأدواراً محددة، فلا يفترض أن يملي أحد ذلـك؛ لأنك لا يمكن أن تعرف ذلك؛ هذا كأنك تحاول أن تخبر قائداً محلياً قبل المعركة عن العدد المحدد للأشـخاص الذين عليه أن يسـتعملهم عند بدء القتال. ليس بإمكان أحد أن يعمل وفق خطة صارمة مسبقة».

قبـل يومين أو ثلاثـة من الذهاب إلى الكويـت، قام جاي غارنر بعقد المؤتمر الصـحفي الأول والوحيد له. وحين سـأله أحد الصـحفيين إن كان سيسـلّم السـلطة إلى الجلبي، وإلى المؤتمر الوطني العراقي، أجاب غارنر: «لا أنوي تفويض المؤتمر الوطني العراقي. وليس لدي مرشّح. سيبرز الرجل الأفضل».

وفي تلك الليلة، تلقى غارنر عدة اتصالات هاتفية غاضبة من فيث. وقد وجد غارنر أنه شخص يصعب العمل معه، ومتعجرف ومشتت الذهن، مما جعله يرسل نائبه، الجنرال الملازم المتقاعد رون آدمز، للتعامل مع وكيل الوزارة. ناح فيث على الهاتف قائلاً: «لقد آذيت المؤتمر الوطني العراقي، وسببت الحرج لأحمد».

فارتفع صوت غارنر قائلاً: «حسناً إذاً دوغ، أنت تريد أن تعقد مؤتمراً صحفياً صغيراً في الصباح وتقول: لقد طردنا غارنر؛ لأنه أحرج أحمد الجلبي».

«لا نستطيع أن نفعل ذلك».

«إذاً اغرب عن وجهي».

أما وولفوفيتز، فقد حث غارنر، بأسلوبه المهدئ، على أن يكون ألطف مع المؤتمر الوطني العراقي. منع غارنر من التحدث إلى الصحافة بعد ذلك، وحين اشتكى من الحظر لرامسفيلد، علم أن الأمر قد صدر من البيت الأبيض. حيث جاء أن رئيس مكتب إعادة الإعمار «لا يسمع النغمة السياسية» ويجب أن يبقى تحت السيطرة.

وبحلول أوائل آذار، تخلّت كوندوليزا رايس عن مكتب الخطط الخاصة. ظهر أن موظفي البنتاغون أكثر مهارة في الجدال، وكسب المعارك السياسية من فعل أي شيء، كما أن فكرتهم بتدريب ستة آلاف عراقي من أتباع أحمد الجلبي في قاعدة عسكرية في هنغارية للقتال إلى جانب قوات الغزو الأمريكية باءت بالفشل حين أخفق العراقيون في تحقيقها؛ ففي نهاية التدريب، كانت القوات العراقية الحرة تتألف من سبعين رجلاً. وبعد أن استولوا على الميدان البيروقراطي لمرحلة ما بعد الحرب في العراق، نجح المسؤولون تحت إمرة وولفوفيتز وفيث في الخروج بموجز سياسة واحد حول النفط. كان عرض مويز طويلاً جدًّا وبلا تركيز -كان يتألف من ثمانٍ وأربعين شريحة بدلاً من خمس أو ست كالمعتاد- لدرجة أن رايس قررت أن تنحي مكتب الخطط الخاصة جانباً، وتسلّم قضايا السياسة بعد الحرب إلى مسؤول من وكالتها اسمه فرانك ميلر.

في 10 و12 آذار قبل أسبوع من بداية الحرب قدّم ميلر عرضاً موجزاً لنواب الأمن القومي والمديرين، وأخيراً للرئيس حول عشرات الأمور الخاصة بمرحلة ما بعد الحرب. ذكر فيه

أن اجتثاث البعث سيخرج 1% من أفراد حزب البعث الأرفع مكانة من الخدمة الحكومية؛ سيتم خفيض عدد أفراد الجيش العراقي، ولكن لن يتم حلّه، وسيتم استخدامه للقيام بأعمال عامة؛ سيتم تعيين حكومة انتقالية حسب جدول زمني، مع بقاء بعض الوزارات تحت الإشراف الأمريكي مدة أطول من الوزارات الأخرى. وافق الجميع حتى الرئيس على قرارات اللحظات الأخيرة تلك. ومع ذلك، لم تكن لها أي أهمية في العراق. فقد بدا أنها وجدت ليقال: إن سأل أحد، «نعم، لقد تم عرضها على الرئيس ووقّع عليها».

أراد غارنر الذي كان على وشك على التوجه إلى الشرق الأوسط مع فريق مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، أقل قدر ممكن من التعليمات؛ كانت لديه أفكاره الخاصة به، وكان يرى أن ميلر وإيليوت أبرامز، وموظفي البيت الأبيض «معرقلون في أفضل الأحوال. لقد كانوا شوكة في الخاصرة. مهما كنا نفعل، كانوا يحاولون تحقيق العكس. من وجهة نظري، كانوا مصمّمين لجعلنا نفشل. إنه تصريح قوي، لكنهم كانوا يقومون بكل ما بوسعهم ليسببوا لنا المتاعب». في تلك الأثناء، في البنتاغون، كان فيث يخطط لإرسال الرجلين اللذين قام بتعيينهما، رود وروبن، لمتابعة الرقابة على مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية في الكويت، وإعطاء الجلبي البداية الأفضل في بغداد. وقام المتحدث باسم رامسفيلد، لاري دي ريتا بمرافقة غارنر حيثما ذهب، وحتى عندما كانت الإدارة تستعد لاحتلال دولة أجنبية، ظلت في صراع مع نفسها بشكل ميؤوس منه. لم يكن أحد من المسؤولين يسأل السؤال الأساس الأول: ماذا نفعل إذا ساءت الأمور؟

في 16 آذار، قبل سقوط القذائف الأولى على بغداد، سافر 169 رجلاً من أفراد مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية من واشنطن إلى الكويت. وكان من بينهم أندرو إردمان.

وعلى الرغم من أن إردمان كان قد تخلى عن العمل الأكاديمي، كانت أسباب ذهابه إلى العراق مهنية بشكل أو بآخر. «كان تحليلي أننا في نقطة تحوّل تاريخي حاسمة،كنت أشعر أننا في حدث حاسم، سيكون له تأثير، جيد أو سيئ فينا عقداً من الزمن. فإذا كان التأثير سيئاً، فإن العواقب ستكون أسوأ من فييتنام. وثانياً -لم يكن الأمر مجرد موضوع صواريخ- ستكون مرحلة ما بعد الحرب هي الأكثر أهمية. لذا فإن المقياس المنطقي هو أن مرحلة ما بعد الحرب نقطة تحوّل حاسمة، وعليك أن تعرض المشاركة».

مـن وجهة نظر إردمان، كان صـدام يصـبح تهديداً متزايداً مع الاحتواء الذي أضـعفه طرد المفتشـين وإضعاف العقوبات. كانت تلك الحجة «الواقعية» للحرب، لكن إردمان، شأنه شـأن معظـم الناس، لم يفكر كلياً في أنـواع نظرية العلاقات الدولية. كمـا كان يؤمن بتميز أمريكة، وأن دور أمريكة في شؤون العالم أكبر من مجرد سياسة قوة، وأن الحرية منذ تأسيس الجمهورية الأمريكية كانت مرتبطة بشـكل معقد بالحرية الإنسانية (كان هذا موضوع أحد فصـول أطروحتـه)، وكان اختلافه عـن المحافظين الجدد فيما يفكر فيـه أقل من اختلافه عنهم في طريقة تفكيره. كان يخفف من مثاليته انجذاب عالم التاريخ الطبيعي إلى الحقائق، وشعوره بأن التصرفات الأمريكية في العالم قابلة للخطأ، وترتكب الحماقات أحياناً.

كان عليـه أن يقنع كلاً من رئيسـه، ريتشـارد هاس، وزوجه، التـي لم تكن ترى أن هناك حاجـة للحـرب، أن يدعـاه يذهب إلى العراق. «أعلـم أنني إن لم أفعل، فسـأندم دائماً على ذلك. كما أن زوجي كانت تعلم أيضاً أن ندمي سيأكلني».

طلب إردمان أن يلتحق بفريق الإدارة المدنية، تحت قيادة شـريك فيث القانوني السـابق موبز. وحين وصـل إلى الفيلات التي تقع على شـاطئ فندق هيلتون في مدينة الكويت، حيث اتخذ مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية مقراً له، كانت العملية لا تزال في حالة من الفوضى. وعند الوصول، اختفى غارنر والمقربون منه دون أن ينطقوا بكلمة في الفيلا الخاصة بهم، ولم يرَ بقية أفراد مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية قادتهم مدة يومين. كان لدى رفاق الصـيد ورعاة البقر الفضـائيين همة هائلة، لكنها لم تخرج من مجموعتهم قط. كان الجميـع يحبّون جـاي، لكن أحداً لم يكن يفهم المهمة. أما موبـز، الذي بدا كأنه يرتدي ثياب التصـييف السـاحلية، فقد تم تجميده بعد مشـاورات الجنرالات المتقاعدين. ولم يكن لـدى غارنر أي احتـكاك بالفريق تقريباً. كان غرودون رود، التاريخي العسـكري، قلقاً جدًّا ليتحدث معه عن ذلك. قال رود: «لم نكن نولي انتباهاً كافياً بالإدارة المدنية. فأجاب غارنر: «غوردون، يمكن لذلك أن ينتظر. علينا أن نركز على المسـاعدة البشـرية». في ذلك الوقت، ظن رود أن ذلك الخيار منطقي: أنقذ الأرواح أولاً، ثم قم بإصلاح العراق.

لكن الأمور لم تكن أفضـل كثيراً في ركن المساعدة الإنسانية، بقيادة خبير حفظ السلام جورج وورد. فقد وجدت ميغان أو سـوليفان نفسـها مكلفة بقضـاء اليوم كأنها فرد إضـافي

في سيارة لتحقيق متطلبات أمنية. وكانت تُبعد عن الاجتماعات التي تتم فيها مناقشة أمور سياسية أكبر، من النوع الذي كانت تحيا به في أمريكة؛ حتى إنها لم تكن تستطيع هي وزملاؤها تلقي مكالمات هاتفية. كانت أوسوليفان امرأة جذابة بيضاء البَشْرَة، رشيقة، صهباء من ماساشوستس، يمكن أن تخدع بسخريتها الخفيفة من نفسها، حيث إنها كانت أيضاً طموحة وهادئة تحت الضغط، وكانت لديها موهبة للحصول على مناصب جيدة بشكل محترف (وهذا ما تكرر عند وصولها إلى بغداد).

وكانت قد ألّفت كتاباً حول «العقوبات الذكية» بوصفها زميلة في معهد بروكينغز قبل الالتحاق بوزارة الخارجية (وهذا ما جعل وصولها إلى العراق سهلاً في نظر المحافظين الجدد). كانت العراق إحدى أكبر المشكلات التي واجهتها السياسة الخارجية الأمريكية التي عرفتها أوسوليفان: وكان العراق والشرق الأوسط تعني لها كما كانت أوروبة تعني للجيل السابق. وكانت أسباب دعم أوسوليفان للحرب هي أسباب إردمان نفسها، زميلها في التخطيط السياسي. في أيلول الماضي، كانت أوسوليفان قد أخبرت ريتشارد هاس في أثناء جولة في مركز التسوق أنها تريد -إذا حصلت الحرب- أن تذهب إلى العراق فيما بعد. لكن في بدايات ربيع عام 2003، بعد أن دافعت عن الإدارة الأمريكية في مؤتمرات بأوروبة وتم التغلب عليها مراراً، بعد أشهر من الضغط الذي لا يحتمل، وصلت أيضاً إلى نقطة فكرت فيها ببساطة: فلنقم بذلك فقط، حباً بالله! والآن بدأت الحرب، وكانت في الكويت على بعد سبعين ميلاً من العراق، لكنها كانت يائسة من الوصول إليها.

وفي أحد الأيام في بداية الحرب، رأت أوسوليفان صاروخ Silkworm يطير فوقها وأدركت أنها لو كانت قد عادت إلى التخطيط السياسي في الخارجية الأمريكية لوضعت يدها على جميع أنواع المعلومات الاستخباراتية حول ما كان يحدث في الشمال؛ لكنها، حيث كانت، لم تكن تعلم أكثر مما ترى على قناة CNN. بدأت تسير في منتصف الليل، ويراودها شعور غير مألوف لم تستطع تحديده في البداية، لكنه كان يستهلكها جسدياً. كان ذلك الشعور هو الندم. ظلت مستيقظة تعيد التفكير في القرار الذي أحضرها إلى الكويت.

حتى باربرا بودين التي كانت من أعضاء الفريق المهمّين، تم قطعها عن الحلقة. كانت بودين قد عملت في سفارة بغداد في ثمانينيات القرن العشرين، وتم احتجازها رهينة في

الكويت عدة أشهر بعد الغزو العراقي عام 1990. لكن مدة خدمتها سفيرة في اليمن في عهد كلينتون، كانت مثيرة للجدل: فبعد تفجير USS Cole في عدن عام 2000، اصطدمت مع رئيس التحقيق في FBI، جون أونيل، حول تصرفات فريقه في اليمن، ومنعته من الدخول أخيراً. استقال أونيل من الخدمة الحكومية باشمئزاز، وعمل مديراً للأمن في مركز التجارة العالمي، حيث مات في الحادي عشر من أيلول. كانت بودين بين الأشخاص المهمين في الكويت، وكانت واحدة من القلة غير العسكرية، والمرأة الوحيدة، وبالتدريج وجدت نفسها تختفي من دائرة القادة مثل Cheshire Cat. ولتبقى على اتصال بالخارجية الأمريكية، كان عليها أن تدور حول غارنر والبنتاغون، وتجري اتصالات مكوكية من واشنطن إلى السفارة في مدينة الكويت.

وفي محادثات سرّية، كانت تحث زملاءها في الخارجية الذين منع مكتب فيث تعيينهم على السفر إلى الكويت بتصريح من السفارة، وكانت تقضي ساعات في نصح ومواساة الشبان والشابات الباكين الذين كانوا قد تركوا أعمالاً ممتعة في واشنطن ليسقطوا في الكويت فيما شعروا أنه عطلة سيئة على الشاطئ مدة خمسة أسابيع، وسط التوتر الذي تسببه الإنذارات المتكررة بهجوم بالغاز، والأحياء القريبة، وذل العمل التافه، والتعطل الفكري، والتعتيم على المعلومات، والحيرة لعدم معرفة ما سيفعلونه عند وصولهم إلى بغداد. لم توزّع أي وثائق تخطيط على الفريق؛ ولم تكن هناك حتى مخططات للوزارات العراقية.

في النهاية، أنتج مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية وثيقة واحدة من خمس وعشرين صفحة، مكتوبة بشكل أنيق بعنوان «خطة مهمة موحّدة للعراق بعد الحرب». ولم يتم إرسالها إلى واشنطن للموافقة عليها؛ لذا فقد كانت وظيفتها الحقيقية الوحيدة تاريخية. بدأت الوثيقة بجملة: «سيحكم التاريخ على الحرب ضد العراق ليس بتألق التنفيذ العسكري، وإنما بفاعلية الأنشطة التي تتم بعد الهجمات». وكتب في أعلى صفحة العنوان «مخطط عمل أولي»، وكانت بتاريخ 16 نيسان 2003 - أي قبل سفر أول أعضاء الفريق إلى بغداد، التي سقطت قبل أسبوع، بثلاثين يوماً. قالت بودين: «لم تكن تلك خطة، لقد كانت مخططاً لم يرَ النور، أما (الخطة) فكانت ستصدر من العراق بنهاية شهر آب».

كان غارنر يتحدث عن المكوث في بغداد تسعين يوماً، ثم العودة إلى الديار. وقد صدم هذا أو سوليفان وإردمان وغيرهما لأنه لم يكن واقعياً إطلاقاً. وفي عشاء في مطعم هيلتون مع

اثنين من الموظفين في مجلس الشيوخ كانا قد جاءا من واشنطن، وضع غارنر جدول العمل: إعادة بناء المرافق، تشغيل الوزارات، تعيين حكومة انتقالية، كتابة الدستور وإقراره، إجراء انتخابات. وبحلول شهر آب، ستكون للعراق حكومة مستقلة فاعلة. ساد صمت مصدوم. فقال شخص يجلس إلى الطاولة: «أي شهر آب؟».

كان غارنر يحمل تعليماته من وزارة الدفاع كما فهمها، لكنها كانت غامضة وغير مترابطة. ظل تركيب الحكومة الانتقالية غير معروف؛ كان غارنر يعلم أنه إذا صرّح بأي أسماء، فستقوم جهة أو أخرى من الإدارة المنقسمة بشكل مرير بقتلهم. كان الموضوع الوحيد الذي ظن غارنر أنه قد حصل فيه على موافقة الجميع هو الجيش العراقي: فقد كان قد أوجز للرئيس ورايس ورامسفيلد وولفوفيتز وفيث، ووافقوا جميعاً على خطته بالمحافظة على سلامة الجيش ودفع الرواتب له. كانت هناك مؤتمرات صحفية مصورة يومياً في الكويت مع البنتاغون، وكان المتحدث باسم رامسفيلد، لاري دي ريتا، إلى جانب غارنر دائماً كظله.

في الليلة التي وصل فيها دي ريتا إلى الكويت في أوائل شهر نيسان، عرض له كبار موظفي مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية موجزاً، وحين تحدث نائب قائد جناح إعادة الإعمار، كريس ميليغان من USAID عن الحاجة لإظهار فوائد مبكرة للشعب العراقي، ضرب دي ريتا بقبضته على الطاولة، وقال: «نحن لا ندين لشعب العراق بأي شيء، نحن نعطيهم حرّيتهم، وهذا كافٍ». وبعد عدة أيام، في الوقت الذي أدرك فيه موظفو مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية أن دي ريتا يتمتع بثقة رامسفيلد الكاملة، وقف المتحدث باسم الوزير في اجتماع ضم نحو خمسين شخصاً في قاعة المؤتمرات بالهيلتون، وقال للحضور (الذي ضم عدداً من الموظفين في الخارجية): إن وزارة الخارجية قد تدخلت في البوسنة وكوسوفو، ولن يسمح البنتاغون بأن يتكرر هذا في العراق. «سنقوم بتعيين حكومة انتقالية، وتسليم السلطة لها، ونخرج من العراق بعد ثلاثة أشهر أو أربعة»، أعلن دي ريتا: «سيخرج نحو خمسة وعشرين ألف جندي في بداية أيلول». فيما يخص بول هيوز، رئيس التخطيط لدى غارنر، «بدا ذلك، وكأنهم سيقومون بوضع خمسة أرطال من النفايات في ورق لف الهدايا، ويسلمونها ويقولون: حظاً سعيداً. قد يبدو ذلك لطيفاً، لكنه سيبقى لفة نفايات».

التحق موظفون آخرون في البنتاغون، بمن فيهم هارولد رود من مكتب الخطط الخاصة، بمكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية في الكويت، لكن أحداً لم يستطع معرفة ما يفعلون؛ كانوا كأنهم يعيشون في عالم آخر. مكث رود في «فيلا» مع أعضاء في المؤتمر الوطني العراقي، وهناك كان هو وسالم الجلبي يرسلان مذكرات إلى وولفوفيتز وتشيني. كان رود يحث على التشكيل السريع لحكومة عراقية انتقالية، بقيادة الجلبي والمؤتمر الوطني العراقي. أما بقية أعضاء مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، فقد بدؤوا يفكرون في موظفي وزارة الدفاع الموجودين بينهم بصفة مفوضين، تم إرسالهم إلى الكويت لمراقبة الفريق. وفي أثناء الحديث على العشاء، كانوا ينظرون فجأة إلى كتف من بجانبهم لرؤية من قد يكون مستمعاً إليهم. وأخيراً قال أحدهم: «أليس هذا هو نوع النظام الذين يفترض فينا أن نتخلص منه؟».

بدأ درو إردمان يشعر بأنه يسير على غير هدى، حتى بدأ يبحث عن مهام يسندها لنفسه، وقام مع عدد من زملائه بإعداد قائمة تضم ستة عشر موقعاً حول بغداد على الجيش أن يقوم بتأمينها عند سقوط المدينة. واستعانوا بدليل Lonely Planet. كان المصرف المركزي في أعلى القائمة. ويليه المتحف الوطني. حيث إن له «أهمية رمزية»، كما شرح إردمان.

كانت بقية المواقع وزارات آخرها وزارة النفط. وفي 26 آذار، ذهبت القائمة إلى معسكر Doha، الذي يقع على بعد ساعة من الحدود العراقية. كان فرانكس قد وضع مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية تحت السلطة التشغيلية لقادة القتال على الأرض هناك، بدلاً من أن يتولى المسؤولية المباشرة عن مرحلة ما بعد الحرب بنفسه، وجعل السلطة العليا للقيادة المركزية. قال فرانكس لغارنر: «لا أريد أن أقوم بإدارة جداول مواعيد الحافلات».

زادت المسافة بين مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، ومعسكر Doha في الكويت في أثناء الحرب من عدم وجود تخطيط مشترك للمرحلة الرابعة بين البنتاغون والقيادة المركزية، في أثناء مدة ما قبل الحرب، حتى حين كانت فرقة المشاة الثالثة والقوة البحرية الاستطلاعية الأولى تقطعان مئات الأميال في الصحراء في طريقهما إلى العاصمة العراقية، وهما تتركان أراضي محررة، لكن غير مؤمّنة. كانت الشرطة العسكرية ووحدات

الشؤون المدنية لا تزال بعيدة، وضعيفة جدًّا على الأرض. في اليوم الثاني للحرب، كان أحد المقاولين الشباب المتعاقدين مع USAID، اسمه ألبرت سيفالوس يقف مع مجموعة من ضباط الشؤون المدنية على الحدود العراقية الكويتية، حين التفت إليه أحد الضباط وسأل: «ألبرت، ما هي الخطة للشرطة؟».

كان عمل سيفالوس في مجال حقوق الإنسان. قال له: «ظننت أنك تعرف الخطة».

«كلا، نحن ظننا أنك تعرفها».

«ألم تتحدثوا مع مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية؟».

«كلا، لم يتحدث إلينا أحد».

أراد سيفالوس الهروب. ذكر تلك الحادثة فيما بعد على أنها «عادة لوريل وهاردي. ماذا حدث للخطط؟ هذا سؤال بمليون دولار لا أعرف الإجابة عنه. كان هناك تخطيط، كنت أعلم أن هناك تخطيطاً. لقد رأيته، وكان لي دور فيه. كان من الفشل قبول تلك الخطط أو نقلها إلى حيث تكون مهمة على الأرض».

بعد عدة أسابيع، حين سقطت بغداد وحدث نهب شديد، ذهب إردمان وآخرون إلى معسكر الدوحة، للبحث فيما حصل لقائمة المواقع. فالتقوا عقيداً بريطانياً شاباً في الصحراء، قال: «حسناً، تعلمون، فلم أعلم إلا أمس بتلك المجموعة الكبيرة من الأشياء التي قمتم في مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية بعملها». ورفع الضابط يده قليلاً عن وجهه: «يجب أن تفهم، كنا نركز هكذا على القتال. والآن نستطيع أن ننظر فيما أرسلتموه». سقطت القائمة في مكان ما، في الهوّة البيروقراطية بين مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، والجيش، وقد فات الأوان الآن، كان إردمان يشاهد المواقع تنهب وتحرق على شاشة التلفاز. «هكذا، في عالم صغير، لم تكن العجلات، أو شبكة الاتصالات، أو النغمات، صحيحة»، قال إردمان: «ولا أعرف: هل كان السبب أننا لم نكن نهتم بذلك؟».

في واشنطن، عرض أحد موظفي الحكومة مخاوفه حول النهب على البنتاغون. وأخبر نائب فيث، ويليام لوتي، أن الإدارة الأمريكية كانت بحاجة إلى أن تتعلم الكلمة العربية (منع تجوال)». لم يبدُ لوتي قلقاً؛ وقال: إن الجنرالات في الميدان يعلمون ما يفعلون.

نظر كثير من الأمريكيين إلى سقوط تمثال صدام في ساحة الفردوس ببغداد في 9 نيسان على أنه نهاية مفاجئة ودراماتيكية لحرب مدوية، لقد حدث تحرير العراق بشكل أسرع، وبعدد أقل من الضحايا، وبكمٍّ أقل من الدمار، مما قد يتخيله أي أحد، حتى المتفائلين. لم تحدث أي من الكوارث التي كان مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية قد أعدّ لها (اللاجئين، الأسلحة الكيماوية، حرق حقول النفط، الإصابات الكبيرة للمدنيين) وهذا يعود جزئياً إلى السرعة المذهلة للغزو، ولسقوط النظام. كان العراقيون في مدن كثيرة يحتفلون في الشوارع ويحضنون الجنود الأمريكيين. حتى إن بعضهم رمى الزهور كما تنبأ كنعان مكية.

كان هناك احتفال في واشنطن أيضاً، وكانت هناك موجة من الانتصار والدهشة متحيزة بقدر ما هي وطنية، ولم تبدُ مثل قبلة سعادة لبحّار أو ممرضة في ساحة تايمز بيوم VJ. وفي 31 نيسان، أقام ديك ولين تشيني حفلة عشاء في مقر إقامة نائب الرئيس مع أصدقائهما كين وكارول أديلمان، وبول وولفوفيتز وسكوتر ليبي. كان أديلمان قد تنبأ بأن العراق سيكون «مهمة سهلة»، وشربت المجموعة الصغيرة نخب الرئيس، واستمتعت بطعم النصر على المعارضين (الصحافة وبرنت سكوكروفت وقبل كل هؤلاء كولن باول) كما استمتعت بالنصر على النظام البعثي. وقد صرّحت أهم منشورات المحافظين الجدد Weekly Standard بأن ضعف سنوات كلينتون قد ولّى، وأن العالم قد أصبح عالماً جديداً. كتب محرّر Standard، ويليام كريستول: «لقد أحرزنا في معارك أفغانستان والعراق نصراً حاسماً ومشرّفاً، لكنهما ليستا سوى معركتين». وحذّر زميله ديفيد بروكس، نقلاً عن أورويل قائلاً: «الآن بعد انتهاء الحرب في العراق، سنرى كم من الناس في العالم يستطيعون مواجهة الحقائق غير السارّة». كان بروكس يقصد العرب والأوروبيين ومن يكرهون بوش، فلن يستطيع أي منهم أن يقبل تحرير أمريكة لبلد مسلم. لكن أياً من الكاتبين لم يلاحظ، إن لم نقل لم يواجه، الحقائق غير السارّة التي تظهر على الأرض في العراق، حتى بينما كانوا يعلنون النصر في واشنطن. وقد ذكر رامسفيلد من البنتاغون، الفوضى المتصاعدة في العراق برصانة، وقد تورّد وجهه من نجاح خطته للحرب. وقال المسؤول عن العراق بعد الحرب: «إنها أمور تحدث، وهي غير مرتبة، والحرية غير مرتبة، والناس الأحرار لهم الحرية في ارتكاب الأخطاء والجرائم والقيام بالأمور السيئة».

كانت كلمات رامسفيلد، التي ما لبثت أن أصبحت سيئة السمعة، تشير إلى فلسفة سياسية كاملة. فقد كان وزير الدفاع ينظر إلى الفوضوية ويرى أنها أولى مراحل الديمقراطية. كانت نظرته ونظرة الآخرين في الإدارة الأمريكية، ونظرة الرئيس قبلهم جميعاً، إلى الحرية على أنها عدم وجود القيود. وأن الحرية موجودة في طبيعة الإنسان التي منحه الله إياها، وليس في المؤسسات والقوانين التي وضعها الإنسان. فإذا أزيل طغيان عمره خمس وثلاثون سنة فستنمو الديمقراطية مكانه؛ لأن الناس في كل مكان يريدون الحرية. لم يكن هناك احتمال للدمار النفسي. كان العراقيون خارج التخطيط.

فيما يخص رامسفيلد كانت هذه النظرة مريحة أكثر من أي شيء آخر، حيث لم يكن في عمله ما يوحي بأنه قد فكّر في الموضوع. أما فيما يخص الآخرين، بمن فيهم أولئك العاملون تحت إدارته في البنتاغون، فقد كانت هذه النظرة أمراً مسلماً به، وحين استخدم منتقدوه كلمة «أمر ديني»، كما كانوا يفعلون في الغالب لوصف نهج المحافظين الجدد في نشر الديمقراطية في المنطقة لم يكونوا مخطئين تماماً. كان هذا الإيمان يتحدى التاريخ، والدليل الحي الذي بثته قناة CNN. وقد أدّى إلى تدمير جميع المؤسسات المهمة وإحراقها في الدولة العراقية.

استخدمت إستراتيجية الجنرال فرانكس المبتكرة قوات كافية لاقتحام البلاد، لكنها لم تكن كافية بأي شكل لتأمينها. ومع ذلك، كان من الممكن بجهد منظم إيقاف أكثر الناهبين فظاعة، وتحذير الآخرين بإظهار القوة. لكن هذا لم يحدث. وقد رجا الموظفون في المتحف؛ دون جدوى قائد فصيل قريب من الدبابات أن يوقف إحدى الدبابات عند مدخل المتحف لإخافة السارقين الذين كانوا يسرحون ويمرحون بالتحف الفنية القديمة للبلاد. وقف الجنود دون أوامر بالتدخل، بينما كان الرجال والصبيان يسحبون أجهزة الحاسوب، والطابعات، والمكاتب، والخرازات، والسجاد، وأخيرات التوصيلات والأنابيب من الوزارات، وغيرها من المباني الحكومية، ويأخذونها في الشاحنات، والسيارات، والعربات، وعلى ظهورهم. في السجل الحربي لقائد فرقة مشاة، تزخر الأيام التي سبقت سقوط بغداد بالأحداث. لكن فجأة بعد 9 نيسان، تصبح العناوين مختصرة للحد الأدنى: «ما من شيء مهم يذكر. بقينا

في المطار طوال اليوم نقوم بعمليات الصيانة والإصلاح». كان الأمر كما لو أن الهدف الوحيد هو سقوط المدينة. استخدم مسؤول في الإدارة كان قد خدم في فييتنام عبارة «هدف القادة» أي تفكيرهم الذي وصل عبر السلسلة حتى الجنود على الأرض: «لقد وصلوا إلى هناك فجأة، ولم يكن هناك هدف. لم تكن هناك قواعد للاشتباك. تم ترك كل شيء للمعركة. وجلس القادة دون أن يفعلوا شيئاً حيال ذلك». في تلك الأثناء تجاوز الدمار الذي شهدته المدينة ومؤسساتها المهمة على يد سكان بغداد أنفسهم، الدمار الذي أحدثته التفجيرات ونيران الحرب بكثير. وفيما بعد أصرّ بعض العراقيين على أنهم قد شاهدوا جنوداً لا يسمحون فقط للسارقين، وإنما يشجعونهم، وكأن الفوضى كانت احتفالاً سعيداً بسقوط النظام. كانت هذه وجهة نظر وزير الدفاع. تمت حماية وزارة النفط فقط.

لم يتم إعلان القانون العسكري: ولم يُفرض حظر التجوال مباشرة. لم يقل أحد للعراقيين أن يبقوا في بيوتهم أو يذهبوا إلى أعمالهم. لكن دوغلاس فيث أصرّ علي فيما بعد أن الجيش فرض سلطته منذ البداية. «حين سقطت حكومة صدام، كان سيصبح من الضروري إصدار البيان الأول»، قال فيث: «لكن في التاريخ العراقي، كلما حدث انقلاب، كان أحدهم يصدر بياناً رقم 1. لذلك قررنا أننا لا نريد ذلك، فقد غيرنا الاسم إلى «رسالة حرية». وأشار فيث إلى أن رسالة الحرية أعلنت حتى عن إنشاء سلطة التحالف المؤقتة، التي يفترض معظم الناس أنها بدأت مع وصول بول بريمر في أيار. لكن هذا لم يكن إلا نوعاً من الذكاء القانوني الذي دعا تومي فرانكس مرة للاستنتاج بأن فيث كان «أغبى رجل على وجه الأرض». فلو استلم أحد في العراق بالفعل نسخة وقرأ التصريح الصادر بتاريخ 16 نيسان من القيادة المركزية في قطر من الرجل الذي كان مسؤولاً -الجنرال فرانكس نفسه- لم يكن له أي أثر ملموس في شوارع بغداد. لم تخفَ النتائج على العراقيين، بمن فيهم الخصوم المحتملون. «نحن عاجزون، فيما يتعلق بهم»، قال نوح فيلدمان، أستاذ القانون بجامعة نيويورك الذي ذهب إلى بغداد بصفة مستشار دستوري لسلطة التحالف المؤقتة: «كان مفتاح هذا كله هو النهب. لقد حدث ذلك عندما اتضح عدم وجود نظام. هناك مثل عربي يقول: أربعون سنة من الديكتاتورية خير من يوم واحد من الفوضوية». وأضاف: «هذا أيضاً ما جعلهم يعرفون أن بإمكانهم أن يحاربونا، وأننا لا نشكل قوة ذات أهمية».

حين أمر صدام بإطلاق سراح عشرات الآلاف من المعتقلين من سجن «أبو غريب» وغيرهم من السجناء في تشرين الأول 2002، انطلق سيل السجناء من خلف الجدران دون حراس السجن الذين تم اُكتُسِحوا وتزاحموا حتى قتل عدد من الناس في لحظة الحرية. ولفت نظر الصحافيين الذين غامروا بالدخول إلى السجن الروائح المروعة للناس المحتجزين مدة طويلة. وبعد ستة أشهر، حين اقتحم الغزو الأمركي أخيراً سجن عراق صدام، كان السيل بالشدة نفسها، وكانت رائحة عقود من القمع بالقوة نفسها. وحين رأوا أن أحداً لن يوقفهم، ارتكب المزيد والمزيد من العراقيين الأخطاء وقاموا بأمور سيئة، إلى أن تحولت الفوضى المدنية إلى عنف متفشٍ، ارتكب معظمه عصابات مجرمة من السجناء الذين أطلق سراحهم: سرقة سيارات، وخطف، واغتصاب، وجرائم قتل، وتصفية حسابات من جميع الأنواع، وبعد ذلك بوقت قصير، هجمات متقطعة على القوات الأمريكية. ولا يزال العراقيون يشيرون إلى غنائم النهب بالاسم الذي أطلقه صدام على هذه الحرب: الحواسم.

وأخيراً، قام المحاسبون القانونيون في الإدارة بحسابات تقريبية للكلفة الاقتصادية للنهب في تلك الأسابيع الأولى. كان الرقم الذي وصلوا إليه 12 مليار دولار، مع حذف العوائد المتوقعة من العراق للسنة الأولى بعد الحرب. وستبقى المباني المنهوبة والتجهيزات المفقودة، والسجلات المدمّرة، والبنية التحتية المخربة، ملازمة لكل جانب من جوانب إعادة الإعمار تقريباً. لكن الأضرار المادية كانت أقل كارثية من تلك الآثار التي لا يمكن قياسها. فقد كانت تجربة العراقيين الأولى للحرية فوضى وعنفاً؛ وقد حمل وصول الأمريكيين نهاية حقيقة الإرهاب السياسي، لكنه في الوقت نفسه أطلق العنان لمخاوف جديدة أقل تأكيداً.

أبقت الفوضى غارنر وفريق مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية عالقين في الكويت أسبوعين. لم يكن غارنر قادراً على الحصول على تصريح من فرانكس بالطيران إلى بغداد حتى 21 نيسان، أما معظم الآخرين فقد سافروا برّاً في 23 نيسان في قافلة من عدة مئات من سيارات سوبربان، مجتازين الدبابات المفجرّة وأكواباً من جعب الـ MRE الفارغة، وحشود العراقيين، بعضهم يلوّح، وبعضهم يحدّق بنظرات غير ودّية، وبعضهم مشغول بالنهب، حتى وصلوا في ساعة الازدحام إلى جنوب بغداد. تحركوا إلى داخل القصر الجمهوري على الضفة

الغربية لدجلة؛ لأنه كان في حال أفضل بعد الحرب من أي مبنى حكومي مناسب آخر، على الرغم من أن القصر، حتى لم يكن فيه ماء في البداية ولم يكن فيه كهرباء أو هواتف تعمل أو حتى زجاج للنوافذ. كان كل شيء مكسواً بنصف إنش من الطين الأصفر، وعلى البلاط كانت آثار أقدام الجنود الذين احتلوا القصر قبل أسبوعين. كان هناك لحم متعفن في المطبخ، وكان نصف المراحيض مسدودًا بالفضلات البشرية. وبجانب المرآب، كانت القوات الأمريكية قد حولت سيارات فوكسهول العراقية الحربية إلى قبور غير عميقة. كان من أولى أفكار درو إردمان تركيب زجاج للنوافذ؛ لمنع البعوض من الدخول.

كان غارنر مذهولاً لحجم النهب في بغداد. ففي كردستان عام 1991، كان النهب خفيفاً نسبياً (بالرغم من أنه كان شديداً وعنيفاً في الجنوب). لكن بعد قضاء أربع وعشرين ساعة في بغداد، سافر غارنر إلى الأراضي الكردية، حيث كان يعرف الناس والتضاريس، وتم الترحيب به على أنه بطل. كان لا يزال يخوض الحرب السابقة. التقى بالقائدين الكرديين، مسعود برزاني وجلال طالباني؛ لمناقشة التسليم السياسي، حيث سيشكل الأكراد وغيرهم من زعماء المعارضة الذين كانوا في المهجر -بمن فيهم الجلبي- مجموعة قيادة في بغداد، مع بعض الأشخاص «الداخليين» أي: عراقيين من داخل البلاد. كان المغتربون يحاولون الاتفاق على هيكل للحكم منذ مؤتمر لندن. قال لي غارنر حين زرت مكاتبه القريبة من البنتاغون في خريف عام 2003: «وافترضت في ذلك الوقت، ولا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا، أن هذا كان مجرد تمديد لتلك المحادثات ولكل العمل الذي تم». وحالما أصبح هناك وجوه عراقية لدى الأمريكيين، كان الأمريكيون قادرين على إلقاء المسؤولية إليهم دون التخلي عن السلطة. أطلق غوردون رود، المؤرخ العسكري، على غارنر لقب «القائد العالمي غير الرسمي»، ووصف غارنر تحركاته في العراق، وكأن المكون السياسي قد ترك لمؤسسته، وقد سألت إن كانت تعليماته من البنتاغون، فقال: «لم أتلقَّ أي اتصال من أحد يقول: لا تفعل ذلك، هل تتبعني؟».

لكن الجلبي اختصر الخطة. فحسب السياسي العراقي البارز الذي كان قريباً من المفاوضات، قاوم رئيس المؤتمر الوطني العراقي، والقائد الشيعي محمد باقر الحكيم، الذي قتل في سيارة مفخخة خارج المرقد المقدس في النجف، توسيع مرتبتيهما أكثر من الدائرة

الأصلية. وكان هذا أقرب إلى فكرة وزارة الخارجية الأمريكية لحكومة انتقالية، مقرها خارج العراق: «إذا أصبحت مجموعة مؤلفة من خمسة وعشرين شخصاً تضم خمسين شخصاً فإن تأثيرها سيضعف. إنهم يريدون بشكل رئيس أن يتحكموا بمن سيكون هناك»، قال السياسي: «المغتربون ارتكبوا خطأً كبيراً، فباعتقادهم أن الأمريكيين في صفهم، ظنوا أنهم يستطيعون أن يأتوا إلى بغداد على متن دبابة أمريكية، وأنهم سيحصلون على الشرعية. لكن الأمور لا تجري على هذا النحو. كان فرضهم على العراقيين خطأً فادحاً. فقد كانوا سيعرفون فوراً بوصفهم مندوبين للولايات المتحدة».

كان البنتاغون يواصل المحاولة. ودون إعلام البيت الأبيض أو القادة العسكريين، جعلوا الجلبي وسبع مئة من أتباعه يسافرون -بملابس وأسلحة أمريكية- من شمال العراق إلى الصحراء خارج الناصرية. كانت الفكرة إعطاء الجلبي بداية جيدة في السباق نحو السلطة. وجد الجلبي وأتباعه طريقهم إلى بغداد، وتمركزوا في نادي الصيد الوحيد في منطقة المنصور الراقية (حيث ما لبث هارولد رود أن لحق بالجلبي)، وبدؤوا بالاستيلاء على الأملاك. وانتهى الأمر بإحدى سيارات عدي حسين من طراز فراري إلى أن تركن خارج البيت الذي احتله مساعد الجلبي الوسيم، نبيل الموسوي. وبعد أن ساءت الأمور في العراق، ألقى الجلبي ومكية وحلفاؤهما في الإدارة الأمريكية اللوم على وزارة الخارجية؛ لفشلها في إيقاف النهب، وفرض النظام في بغداد، واتهموها بأنها وضعت الخطط لتدريب ستة آلاف مغترب عراقي. وكان هذا عذراً أكثر من حجة. فقد اختفى الجيش والشرطة العراقيان: «اختفت الدولة»، قال إيردمان: «فإما أن الناس ذابوا أو أنهم أذابوا المؤسسات». كان هذا بالضبط ما زعم المؤتمر الوطني العراقي أنه لن يحدث، وكان الفراغ السياسي أوسع كثيراً من أن يملأه عدة آلاف من المغتربين العراقيين نصف المدرّبين، الذين كان كثير منهم غرباء عن بلدهم سنين أو عقوداً من الزمن، وقام أولئك الذين سافروا مع الجلبي بالمشاركة في أعمال النهب بدلاً من إيقافها، وقد حذّر غوردون رود غارنر من أن القوات العراقية الحرة قد بدأت تصبح «مجموعة من قادة الحرب». فقال غارنر الذي كانت نظرته إلى الجلبي تتغير بسرعة «غوردون، أنا لا أحب هذه الكلمة». أما أهل البلد فلم يستقبلوا المغتربين بصورة حكام طبيعيين للعراق الحر. أما إجابات المحافظين الجدد عن كل سؤال

صعب حول مرحلة ما بعد الحرب، وعبارة الهروب المبدعة التي وضعت في معهد المشروعات الأمريكي، وصحيفة Wall Street Journal ومكتب الخطط الخاصة، فقد انهارت في بغداد، بينما كانوا يشربون النخب في واشنطن.

وفي إحدى الأمسيات قادت باربرا بودين، التي كانت مسؤولة اسمياً عن بغداد، سيارتها في المدينة المدمرة مع الجنرال ديف ماك كيرنان، قائد القوات البرية في العراق، عبر نقطة تفتيش يقوم عليها رجال الجلبي، إلى بيت في منطقة راقية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية، في محاولة لمعارضة خطة البنتاغون بتسليم قريب للسلطة للمغتربين، قد نظمت اجتماعاً لبودين وماك كيرنان مع خمسة عشر أو عشرين رجلاً من رجال الأعمال والأكاديميين والقضاة المحليين. وسرد البغداديون واحداً تلو الآخر قصص حياتهم داخل العراق، في ظل حكم صدام. ثم وصل أحدهم إلى النقطة: «هل يمكن أيها الأمريكيون أن تفرضوا النظام العسكري لو سمحتم؟ هناك فوضى في الخارج. نحن لا نريد استبدادية، لكننا نحتاج إلى سلطة». وبينما كان الاجتماع جارياً، وقد وقف حرس السلطات الأمريكية المدنية والعسكرية في بغداد في الخارج، قام عدد من رجال ميليشيا الجلبي بسرقة سيارة الضيف، والسائق بداخلها، وكأن ذلك كان لتأكيد ضرورة هذا الرجاء.

كانت القوات الموجودة تحت قيادة ماك كيرنان تقف بلا حراك في أثناء نهب بغداد، وكان قد أعطى تعليمات لكبار ضباطه بأن القتال يجب ألا يقطع بالتخطيط لما بعد الحرب، ولم يقم بتعديل التعليمات إلا في 19 نيسان. لكن ما حدث في بغداد أشعر ماك كيرنان أخيراً بخطورة الموقف. وفي اليوم الآتي، كتب أمراً موجزاً يعلن التحالف «سلطة عسكرية» في العراق. وقد نقلت بودين الأمر إلى الخارجية الأمريكية، وذهلت عندما علمت أن هذا الأمر كان هو التأكيد الأول للمسؤولية القانونية، بموجب معاهدات جنيف. كانت خطابات الإدارة الأمريكية عن الحرية قد أصبحت غطاءً للتخلي عن التزاماتها تجاه العراقيين، وكان من شأن ذلك إيجاد ظروف لا بد أن تهدد القوات ذاتها. لكن أمر ماك كيرنان لم يدعمه رامسفيلد في واشنطن، ولا فرانكس في قطر. وأصبح أحد الإخفاقات النبيلة لتلك الأيام الأولى التي لا يمكن أن تعود.

كان الجنرال فرانكس وقادته يريدون الخروج من العراق بأسرع وقت ممكن. علّق رامسفيلد انتشار فرقة الفرسان الأولى في العراق، وأعطى أمراً بانسحاب مستعجل للقوات في منتصف نيسان. وفي أول أيار كان البنتاغون يتوقع أن يصبح مستوى القوات في البلاد أقل من ثلاثين ألفاً بنهاية الصيف، على افتراض أن الدول التي لم تدخل الحرب بعد ستبدأ بالإسهام بقواتها. كان كل شيء سينقلب على مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، الذي كان عبارة عن طاقم هيكلي، وغير منظم، ومعدماً يتألف من أقل من مئتي مدني غير مسلّح يجولون وسط غبار القصر الجمهوري وظلامه؛ بحثاً عن زملائهم؛ لأنهم لم يكن لديهم هواتف يتصلون بها مع بعضهم. كان مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية سيخرج رامسفيلد وفرانكس من العراق. وكانت الفكرة في واشنطن وقطر هي: استلم يا جاي. اتخذ التنسيق العميق الآن شكلاً ملموساً أكثر بوصفه معطلاً للجهود.

لم يكن هناك عدد كافٍ من الحرس العسكري لتوفير الأمن، ولذلك تمكن أفراد مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية من مغادرة القصر، والخروج إلى المدينة؛ للبحث عن عراقيين يمكن العمل معهم. وعلى الرغم من أن خدمة الهاتف كانت سيئة في جميع أنحاء العراق، لم يرَ الضابط العسكري المسؤول عن الاتصالات سبباً يدعو لإعطاء رؤساء الجامعات هواتف تتصل بالأقمار الصناعية. لم يكن هناك مكان قريب بما فيه الكفاية يمكن أن يوجد فيه المترجمون. قال تيموثي كارني، الذي كان ضابط خدمة خارجية استدعاه وولفوفيتز بعد تقاعده للعمل في العراق: إن الجيش ببساطة لم يفهم أو يهتم لما يفترض أن يقوم به مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، «بدا الأمر كما لو أن هؤلاء الناس لا يملكون أدنى فكرة عما كان على جاي غارنر أن يفعله. لم تعطِ أي أولوية للجوانب الرئيسة للمهمة».

دون أي معلومات مهمة تقريباً، حاول إيردمان والآخرون في الإدارة المدنية العثور على أعلى الموظفين رتبة من النظام القديم لا يزالون بخير -ولو لطردهم فقط-، خرج عدد قليل من العراقيين المناصرين إلى أعمالهم على أمل أن يمر بهم مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية. كان استمرار عمل الدولة يعتمد تقريباً على اجتماعات عشوائية في أنحاء المدينة -في المناطق التي لا تكثر فيها الاشتباكات المسلحة- بين بيروقراطيين عراقيين، وبين الغرباء

الواصــلين حديثاً. ويتذكر إيردمان هذه اللقاءات وكأنها حلقة من مسلسل (رحلة النجوم). وكأن العراقيين كانوا يقدمون أنفسهم إلى أناس من كوكب آخر.

أما في واشنطن، فقد كان ميتشل دانييلز، مدير مكتب الإدارة والميزانية، ومساعده روبين كليفلاند مصـممين على تقليل نفقات مكتب إعادة الإعمار والمسـاعدات الإنسـانية، بحيث يمكن المحافظة على التنبؤات المالية الوردية للإدارة الأمريكية لإعادة إعمار العراق، وكانت النتيجة أن الفرق الوزارية في بغداد لم تحصـل مبدئياً إلا على خمسـة وعشـرين ألف دولار لإحياء الإدارة العراقية المدمّرة. حتى هذا المبلغ لم يكن نقدياً - فقد كان التمويل يحتاج إلى طلبات منح تحتاج إلى عدة أسـابيع للحصول على الموافقة. كان إيردمان يتطلع إلى حفنات الدولارات التي قامت بوسـاطتها القوات الخاصـة في أفغانستان بمشروعات كبيرة، وكسبت التعـاون في الأيـام الأولى الحرجة، قبل أن تغلـق تلك النافذة، «إعادة الإعمـار بعد القتال، يجب أن تكونوا قادرين على إرسـال الموارد فوراً»، قال إيردمان: «فالنـاس في الوضـع اليائس يحتاجون إلى المسـاعدة. تلك رؤية واضـحة وضـوح النهار. وإلا فإنهم سيتجهون إلى مكان آخر في حال عدم تقديم المساعدة لهم».

عاد غارنر من كردستان، وهو لا يزال يحاول تنفيذ خطة البنتاغون، وفي 28 نيسان، وقف بقميصه البولو ذي الياقة المفتوحة أمام اجتماع لـ 350 عراقياً في مركز المؤتمرات العراقي، الـذي كان ممتلئاً بالزجاج المكسـور والحطام. لم يكن هناك جـدول أعمال. وقد قرأ مكية، الذي عاد إلى مسـقط رأسـه للمرة الأولى بعد خمسـة وثلاثين عاماً؛ بحثاً حول الحاجة إلى دستور ليبرالي لحماية الحقوق الفردية. وحين انتهى وقف أحد شيوخ العشائر، وقال: «ليس لدي ماء ولا كهرباء ولا أمن، وأنت تتحدث عن دستور؟» وسأل شيخ آخر غارنر: «من المسؤول عن سياستنا؟».

«أنت المسـؤول»، أجاب غارنر. كان في القاعة زفير مسـموع. وقد أدرك نوح فيلدمان، المستشـار الدسـتوري، فيما بعد: «في تلك اللحظة كانوا يفقدون ثقتهم بنا». فالعراقيون الذين كان من الممكن أن تكون أي إشـارة لمبادرة فردية قاتلة لهم في عهد صـدام، كانوا ينتظـرون أن يقـال لهم مـا يمكن أن يحدث بعـد ذلك، ولم يخبرهم أحـد. اقترب رجل

عجوز في حي شيعي من فيلدمان، وسأله: من الذي يدير العراق؟، لكن لم يبدُ أن أحداً كان يعلم.

لكن الأخبار المزعجة كانت تبدأ بالتسرب إلى واشنطن. وفي 6 أيار أعلن بوش أن الدبلوماسي السابق والخبير في مكافحة الإرهاب ل. بول (جيري) بريمر الثالث سيحل محل جاي غارنر في بغداد. (كان رامسفيلد قد أخبر غارنر الذي دهش وجرح، في 29 نيسان، أنه فاشل). يزعم البنتاغون باستمرار أن هذا التغيير كان مخططاً له منذ البداية. لكن الفكرة الأصلية كانت أن يأتي مدني أقل كفاية فيما بعد، بصفة مندوب سام لما سيكون حكومة انتقالية. قال لي بريمر: «كان لدي عشرة أيام للاستعداد للمجيء إلى هنا». كان بريمر مقبولاً لرامسفيلد بوصفه متشدداً، وكان اختياره يمثل هدنة قصيرة بين وزارتي الدفاع والخارجية. لم يقم أحد في الإدارة الأمريكية بتفسير القرار الذي أدى إلى مغادرة غارنر بسرعة، على الرغم من أنه شكّل تحولاً مفاجئاً نحو سياسة أكثر عقلانية. وقد استنتجت باربرا بودين، التي طردها رامسفيلد قبل مجيء بريمر، أنه لم يكن في العالم سوى شخص واحد له المعرفة والنفوذ والتأثير؛ ليشير على بوش أن العراق كان ينزف، وأن هذا النزيف يجب أن يتوقف: هذا الشخص هو طوني بلير.

في 10 أيار سافر غارنر إلى قطر لإطلاع بريمر على الوضع. وحين ذكر غارنر أنه سيكون هناك اجتماع مع القيادة العراقية بعد عدة أيام، نظر إليه بريمر وقال: «ربما لن يحدث ذلك». وجد غارنر بريمر بارداً، وتخيل أن بريمر عدّه الرجل الذي أفسد الأمور في العراق. كانت مدة وجودهما معاً في العراق عصيبة، وكان غارنر مصمماً على أن يجعلها أقصر ما يمكن.

في 12 أيار وصل بريمر إلى بغداد، وهو يرتدي بذلة قاتمة. وكانوا يدعونه «السفير بريمر». وبعد ثلاثة أسابيع، عاد جاي غارنر إلى الوطن بهدوء. وأخذه رامسفيلد إلى البيت الأبيض لمحادثة أخيرة مع الرئيس. كان غارنر قد كتب مذكّرة من صفحتين لبوش ورامسفيلد، بتاريخ 27 أيار، تصوّر العراق على أنه بلد يسير نحو الاستقرار وليس بينه وبين إعادة إعماره كاملاً إلا عدة أسابيع. وقد جعلت هذه الأخبار الجيدة من السهل على بوش أن يشكر غارنر بلطف على العمل الذي قام به. أما غارنر، فقد أكّد بدوره للرئيس أنه قد

اختـار شخصـاً ناجحاً رائعاً عندما اختار بريمر. فقال بوش: «لسـت أنـا من اختاره، وإنما رامسفيلد». كانت هذه الأخبار صدمة لغارنر، الذي لقّبه رامسفيلد مرة برجله في العراق.

استمر الحديث خمساً وأربعين دقيقة، حضر تشيني ورايس النصف الثاني منه، ومع ذلك لم يتسـنَّ للرئيس أن يسـأل غارنر عما كان عليه الوضع بالفعل في العراق، لمعرفة المشكلات التي تنتظرهم في الأسابيع أو الأشهر القادمة. حين عاد غارنر من شمال العراق عام 1991، بعد عملية تأمين الحماية، أجاب عن أسئلة مدة أربعة أو خمسة أيام. أما هذه المرة، فلم يبدُ أن بوش أو تشـيني أو رامسـفيلد أو رايس يعطون أي اهتمام لما كان عليه أن يقوله، ثم داعب الرئيسُ غارنرَ في نهاية الاجتماع بقوله: «هل تريد أن تعمل في إيران في المرة المقبلة؟».

«لا، سيدي، أنا والشباب نحتفظ بجهودنا لكوبة».

ضحك بوش ووعد غارنر والشباب بكوبة. وانتهى الاجتماع. صافح غارنر الرئيس، ثم نائب الرئيس الذي لم يقل شـيئاً طوال الوقت، ورأى ابتسـامة تشـيني الصغيرة الشريرة حين كان يغادر. غادر غارنر ولديه انطباع بأن بوش لا يعرف إلا ما يسمح تشيني بوصوله إلى مكتبه. وفي حزيران 2003 كان أي شـخص يسـتمع إلى محادثة بين المسـؤولين الذين يحملـون المسـؤولية الأكبر في العراق، لا يسـتطيع إلا أن يسـتنتج أن عملية تحرير العراق حققت النصر.

في بغداد، تم حل مكتب إعادة الإعمار ليصـبح ضـمن سلطة التحالف المؤقتة. أما بريمر الذي حصـل على منصب مبعوث رئاسي، بموافقة رسمية، بقرار من مجلس الأمن الدولي، وقائد السـلطة التي لم يحصـل عليها غارنر قط، فقد جعل الناس يعلمون أنه كان مسيطراً على الوضع. كما تم حل الجيش العراقي بسرعة، واستبعاد جميع أعضاء حزب البعث الذين كانوا يشغلون المستويات الأربعة العليا من الخدمة في الحكومة، وسحب السلاح من ميليشيا الجلبي، وتجميد تشـكيل الحكومة الانتقالية. حتى إنه جـرى الحديث عن إطلاق النار على السـارقين، على الرغم من أن هذا لم يحدث. ومدّد البنتاغون انتشـار الفرق التي أرهقتها المعارك. وأصبح ما كان ينظر إليه على أنه تحرير سريع احتلالاً طويل الأمد.

كان درو إيردمـان لا يصـبر على أي انتقاد سـهل للتخطيط. وكان يصـرّ على الظروف الفعلية التي كان على المخططين أن يعملوا بها مردّداً كلمات بطله مارك بلوش. وحين ذكرت

الدليل الذي أعدّه الجيش الأمريكي من أربع مئة صفحة لاحتلال ألمانية، أجاب أنه حسب الوقت الفعلي المتاح، ستكون المقارنة بالعراق عادلة أكثر مع وقت الحرب للاحتلال الفرنسي لشمال إفريقية، الذي تعرض للمشكلات، حتى كاد يكلف الجنرال آيزنهاور عمله. أما فيما يخص العراق فقد كان أي تخطيط أمراً معقداً: كان على الإدارة الأمريكية أن تستعد لتأثيرات الحرب التي لا تزال تدّعي أنها تريد تجنّبها. «كيف كانت العملية الديبلوماسية في الأمم المتحدة ستتم لو قال الناس: إن الرئيس يخرج الناس من وزارتي الزراعة والاقتصاد؛ ليستولي على الدولة العراقية كاملة؟ هذا هو المنطق السياسي الذي يعمل ضد التخطيط المسبق».

لكن فشل الإدارة الأمريكية في الأسابيع التي أعقبت سقوط بغداد الذي حدد مسار العراق بعد صدام، ولا يزال يطارد الجهود الأمريكية اليوم، لم يكن كله نتيجة للمعوقات والأخطاء. لقد كان متعمداً بشكل ما. إذا لم تكن هناك خطة شاملة لما بعد الحرب، فهذا لأن الناس الذين يعنيهم الأمر في واشنطن لم يكن لديهم أي نية للبقاء في العراق. قال مسؤول في وزارة الدفاع: «لم يصدّق رامسفيلد وولفوفيتز وفيث أن الولايات المتحدة ستحتاج إلى إدارة ما بعد الحرب في العراق»، «كانت خطتهم تقضي بتسليم الأمر لهؤلاء المغتربين بسرعة كبيرة، وتركهم يتعاملون مع الفوضى التي ستظهر. كان غارنر رجلاً مغفلاً لإستراتيجية سيئة. كان يفعل بالضبط ما أراده رامسفيلد أن يفعل. كانت تلك إستراتيجية فاشلة».

كان أهم المستفيدين من الإستراتيجية الفاشلة أولئك العراقيين الذين لم يهتموا بالسماح لظهور مجتمع جديد في العراق، بتوجيه أمريكي، من أنقاض عراق صدام. وحين بدا أنهم هزموا، كانوا قد بدؤوا قبلاً بإعادة التجمّع. كتب رائد عسكري اسمه إشعيا ويلسون الثالث، وهو مؤرخ لعملية تحرير العراق في مجموعة بحث شكّلها الجنرال شينسكي، فيما بعد، في دراسة ليست معدّة للنشر: إنه عندما أدرك قادة الجيش في أواخر أيار أن عليهم البقاء في العراق، وبحثوا عن خطة لما بعد الحرب، كانت الإجابة «هي الصمت. لم تكن هناك خطة لمرحلة رابعة». تابع الجنرال فرانكس الرجل المسؤول عن هذا الفشل المغادرة في أيار وتقاعد في الصيف للعمل في مجال إلقاء المحاضرات، وكتابة مذكراته، وجمع الميداليات الرئاسية للحرية، تاركاً وراءه عشرات الآلاف من الجنود الذين كان قد قادهم إلى العراق؛ ليتابعوا

خوض حرب يصعب إحراز النصر فيها، وتابعت دراسة الرائد ويلسون: «في الشهرين أو ثلاثة الأشهر للانتقال الغامض، فقدت القوات الأمريكية تدريجياً الزخم والمبادرة التي كانت قد كسبتها على العدو الذي فقد توازنه. وفي هذا الهدوء قبل العاصفة الآتية، كانت أعين الجيش الأمريكي على الموانئ، بينما كانت أعين الموالين للنظام السابق والمتمردين الناشئين على الشعب. ومنذ ذلك الحين لا تزال الولايات المتحدة وجيشها وتحالفها يمارسون لعبة الغميضة».

ومع ذلك لم يهتز إيمان المخططين بإستراتيجيتهم. في خريف عام 2003، اقترب ديك تشيني من زميله مدة طويلة كولن باول، ووضع إصبعه على صدره وقال: «لو لم تفرض المؤتمر الوطني العراقي والجلبي، لما كنا في هذه الفوضى». لكن تشيني لم يصدّق أن التخطيط لما بعد الحرب سيؤثر في النهاية على أي حال. كان لدى تشيني، شأنه شأن الرئيس، ثقة داخلية في القوة العسكرية الأمريكية وعدم اكتراث معلن لتفاصيل خسائرها البشرية. كتب بوب وودورد في كتابه خطة الهجوم: «كان يظن أن بوش قد أدرك كيفية التركيز على ما هو أساس ومهم، وأين يقضي وقته»، «لم يضِع الرئيس الوقت في الأمور التافهة. ففي الأشهر الـ 16 التي قادت إلى الحرب كان يركز على الخطة العسكرية».

أما ما يتعلق بخطة ما بعد الحرب، فلم يكن هناك داعٍ للقلق؛ فقد كان الرئيس قد سمع سلفاً ما أراد أن يسمعه (من نائبه ومستشارة الأمن القومي، ووزير الدفاع ونواب وزرائه، ومن كنعان مكية وغيره من المغتربين، ومن أنصاره المتحمّسين في مجالس الخبراء وفي الصحافة، ومن ثقته في شمولية الرغبة البشرية بالحرية). ولذلك لم يكن لدى الأمريكيين فرصة للتفكير في الصعوبات الحقيقية، وفي تكاليف تغيير النظام في العراق.



5

الدمار النفسي

اقتحم بعض الناهبين الذين أتوا عقب الغزو الأمريكي، البوابات المغلقة لمشفى الرشاد للمعالجة النفسية الطويلة في الجهة الشرقية لبغداد. وبالإضافة إلى سرقة مضادات الاكتئاب، ومضادات الذهان من الجيل السابق، وأجهزة الصدمات الكهربائية، وآلات الخياطة من العلاج المهني، كما أطلق الناهبون نحو ست مئة من ألف مريض في المشفى يعانون انفصام الشخصية المزمن وحالات أخرى مستعصية وحالات ميؤوس منها. وحين كان المرضى يجولون في الحرية المرعبة لبغداد التي عمّتها الفوضى، اغتُصِب بعضهم وقُتل عدد منهم. وجد مئتان منهم أخيراً طريق العودة إلى بيوتهم، أو أعادهم أفراد أسرهم، والجنود الأمريكيون، وبقايا الشرطة العراقية. كان المشفى يقع على الطريق بين الأسلاك الشائكة والجدار الخارجي لمعسكر عسكري أمريكي، بجانب بحيرة صناعية في امتداد كئيب شبه فارغ للمدينة. وفي اليوم الذي زرت فيه الموقع، بدا المنظر كئيباً ومشؤوماً، وكانت سحب الغبار الذي تحمله الريح تحجب أشعة الشمس.

كان الدكتور باهر بطّي، كبير الأطباء النفسيين في المشفى، رجلاً أصلع ضعيف البنية، في الثالثة والأربعين من عمره، مقطّب الجبين، وله شارب خفيف. وقد أخذني في جولة في المشفى والأراضي التي كانت تذكر بالمصحات العقلية في أفلام الأربعينيات. احتشد المرضى واقتربوا: كانوا رجالاً هزيلين، نصف عراة، حليقي الرؤوس، وكانوا يربّتون ظهري، ويناودونني باللغة الإنكليزية: «سيدي، صباح الخير، كيف حالك، أنا أحبك، مع السلامة»؛ وكانت النساء دون حجاب تهتفن مرحّبات بابتسامات عريضة، أو تجلسن بغير احتشام على الأرض وتدخّنّ، وتحدّقن في الفضاء. كان سقوط النظام قد سبّب نوعاً من اضطراب الكآبة الآتي للصدمة، قال الدكتور بطّي: ليس هنا فقط، لكن في كل أنحاء العراق. لم تكن هذه الأعراض جديدة على العراقيين. لقد كانوا يعانون منها منذ عشرين أو ثلاثين عاماً. «لقد

تدهورت حالتي أنا»، باح لي الدكتور بطّي: «في السابق كنت تعرف أين يوجد الخطر، وتذهب في الاتجاه الآخر. أما الآن فإن الخطر محيط بك».

في ظل النظام القديم، كان الدكتور بطّي يعمل مقابل دولارين أو ثلاثة دولارات شهرياً، ولم يكن هذا غريباً فيما يخص الطبقة الوسطى التي كانت أوضاعها تتدهور في سنوات الحصار. كان لديه زوج وولدان، كان مسيحي الأصل لكن والده كان شيوعياً ملحداً. وكان يخشى من الخطر المتزايد للأصولية الإسلامية. وكان بعثياً حتى وصول الأمريكيين. لكنه قال لي حين بدأت أتطرق إلى الموضوع: «لا، أنا لم أرتكب الجرائم»، كان الدكتور بطّي يشعر بالانعزال المهني عن العالم الحديث وقد جعل هدفه ممارسة ما كان يعرفه عن المعالجة بالحديث والعلاج الجماعي، في بلد لم تكن الرعاية النفسية فيه تختلف دائماً عن طرق شرطة الأمن. شعر أنني إذا أردت أن أفهم الحالة العقلية للعراقيين، بعد عقود من الاستبداد والحرب، والآن الاحتلال، فإنني أحتاج إلى لقاء مرضاه. كان يقوم عدة أيام في الأسبوع بمعالجة أشخاص يعانون أزمات في مشفى ابن رشد التعليمي النفسي، وهي واحة نظيفة تحت حراسة مشددة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، في وسط بغداد.

أخذني الدكتور بطّي عبر المدينة بسيارته من طراز نيسان 1982، التي كانت أشبه بصندوق معدني قديم فيه رقع صدئة، وزجاجه الأمامي متصدّع. كانت بغداد تعجّ بالسيارات والميكروباصات وسيارات الأجرة ذات اللون الأبيض والبرتقالي التي يقودها سائقون ضعاف البنية، ومتعبون، وشابوا قبل أوانهم، فتحوا نوافذها للهروب من حر السيارة الذي لا يطاق إلى دخان السيارات والضجة وحرّ الشارع الذي لا يحتمل أيضاً.

في الغرفة الأولى في مشفى ابن رشد، كان هناك رجل مستلقٍ على جنبه، يشتكي إلى شخص اسمه أحمد أن السارقين يحاولون الدخول. كان هذا الرجل في السابق موظفاً في وزارة الزراعة. في الغرفة المجاورة -التي كانت شبه فارغة، ومطلية بلون أخضر، وبحاجة شديدة للتنظيف، شأنها شأن الغرفة الأولى- كان هناك شاب يجلس متربعاً على السرير كأنه ينتظر وصولنا. كان وسيماً ذا لحية، وكانت عيناه زرقاوين واسعتين، وله ابتسامة مهذبة. كان اسمه إبراهيم، وكان يعتقد أنه النبي إبراهيم. كان قد اعترف قبل يومين بعد أن حاول طعن قريبه قال لي إبراهيم بهدوء، وهو يشير بأصبعه إلى غطاء السرير: «قال

قريبي شيئاً جعلني أشعر كأن ماءً حارّاً ينسكب علي». لقد قال له قريبه: إن على إبراهيم أن يدافع عن شرف المسلمين وأرضهم بقتل الأمريكيين. «كان عليّ أن أجيبه بأن الأمريكيين لن يأخذوا أرضنا، لكنني لم أفعل. إنه تحدٍّ مزيف، ليس المسلمون وحدهم الذين يعرفون عن الشرف والأرض، الجميع يعرف. والعالم كله أرضي. ليس العراق فقط. العالم كله».

قال والد إبراهيم، الذي كان واقفاً بجانب السرير: إن تدهور حالة ابنه بدأ حين كان مراهقاً في أثناء حرب الخليج الثانية، حين كان وحده في المنزل في أثناء قصف قامت به قوات التحالف. وفي عام 1996، حاول إبراهيم الانقلاب على صدام؛ ليصبح الرئيس؛ وقطع نصف الطريق إلى القصر قبل أن يمسك به والده وينقذ حياته بسحبه إلى البيت. لقد أرهقت حالة إبراهيم جميع أسرته. وقبل بداية الحرب بأربعة أيام عادت إليه الأوهام، وأدخل المشفى حتى سقوط بغداد. كان إبراهيم يؤمن بحكومة عالمية واحدة يقودها الأمريكيون. وقد قال: إنهم أظهروا عدلهم بحماية اليهود، وكان يبدو أكثر سعادة كلما تحدّث. لقد حصلوا على حق أن يكونوا شرطة العالم، وحكموا بعدالة. كانت هذه فكرة نادرة في العراق، لم أسمعها قط خارج مشفى ابن رشد التعليمي النفسي.

في الجناح العام، جلس رجل يبدو عليه الحذر، كان في منتصف العمر، أسنانه متآكلة، وكان يدخن في السرير. كان هذا الرجل هو نبيل رحيم، شيعي من أتباع آية الله محمد باقر الصدر المقتول، عم مقتدى الصدر ومؤسس حزب الدعوة الإسلامي. في عام 1980، دقت المسامير في جمجمة الصدر بعد أن أجبر على رؤية أخته تتعرض لاغتصاب جماعي وتقتل على يد المحققين. قال رحيم: «هذا لا يفيد الآن. لقد مات محمد الصدر، وذهبت معرفته. أريد أن أعيش، هذا كل شيء. أريد أن أعيش».

حيثما ذهب، كان رحيم يرى أناساً يتهامسون عنه، وكان يعتقد أنهم من شرطة الأمن. علّق الدكتور بطّي بقوله: «هذا وهم شائع هنا»، أراني المريض حرق سيجارة على كتفه الأيمن؛ ليوضح فكرته. ثم قال الدكتور: إن الأمريكيين بالنسبة له أقل خطورة من شرطة صدام، لكن في النهاية لم يكونوا أفضل منهم؛ لأنهم أتوا ليسرقوا نفطنا.

لم يكن الخلط بين الذعر المسوغ والأوهام التامة سهل التمييز في العراق. حتى الدكتور بطّي كان يجد صعوبة في الحكم على الأمريكيين. في الأسابيع المضطربة التي أعقبت سقوط

النظام لم يعرف أي طريق يسلك؛ خوفاً على سلامته، ولأنه لا يثق في المجموعات السياسية العراقية الجديدة، ولا بقدرة الأمريكيين على إنشاء مجتمع محترم. كان النهب ضربة فظيعة لحلفائهم الطبيعيين في الشرق الأوسط. وكان الناس من أمثاله الآن يترددون في إخراج رؤوسهم. سأل الدكتور بطّي: «هل نحن عاجزون، أم أن الإدارة الأمريكية تشلّ الوضع حتى تستطيع أن تأتي بأفكارها؟» مرة حضر الدكتور بطّي اجتماعاً مع مسؤولي الاحتلال حول موضوع تشكيل منظمات غير حكومية محلية، واستنتج أنه يحتاج أن يكون أصولياً؛ حتى يحصل على التمويل. قال لي وهو يجلس على مكتبه المتقشف في ابن رشد: «شعرت بالبؤس؛ لأن أولئك الأشخاص يقودوننا، ويحكموننا، لكنهم ليسوا سوى بيروقراطيين»، «بريمر يرى أنه يؤدي عمله، لا يفكر في أنه يصنع التاريخ». ومع ذلك فقد أرسل الدكتور بطّي رسائل إلى بريمر وغيره من المسؤولين الأمريكيين تحمل أفكاراً حول تنمية علم الاجتماع في العراق الجديد، وطلباً غامضاً بتبرئته من عضوية حزب البعث (كانت رتبته أقل من أن يعدّ رسمياً من البعثيين المراد اجتثاثهم). لكنه لم يتلقَّ أي ردّ.

كان الدكتور بطّي مع بعض من زملاء الدراسة في المدرسة اليسوعية الثانوية ينشئ منظمة غير حكومية اسمها مجموعة إصلاح وتنمية بغداد. وكان من عروض المنظمة إنشاء مركز جلجامش للتفكير الإبداعي. كتب الدكتور بطّي في النشرة، ربما بشيء من النقد الذاتي:

يعاني عدد كبير من العراقيين كثيراً من انقطاع الاتصال بالعالم المتحضر، إنهم يعانون عدم القدرة على التواصل مع الآخرين، لقد فقدوا الأمل في المستقبل، وهم يشكّون بكل شيء أجنبي، ولا يتمتعون بالكفاية في أدائهم المهني، ولا يشعرون بمسؤولية كافية تجاه المجتمع، ويفقدون القدرة على ممارسة الحرية، ولا يفهمون التطبيق الصحيح للديمقراطية، ولا يستطيعون التعامل مع العمل الجماعي... إلخ. إن إعادة بناء ما دمّرته الحرب يعدّ جهداً بسيطاً إذا ما قورن بمهمة إعادة بناء الإنسان المشوّه.

كان مركز جلجامش للتفكير الإبداعي سيصبح مكاناً يستطيع العراقيون فيه تعلّم مهارات مثل «التفكير المنطقي والعقلاني»، و«كيفية التحاور ومناقشة الآخرين»، و«أسرار التفاوض الناجح». كان من الصعب التفكير في فكرة أفضل لإعادة الإعمار في العراق، لكن الدكتور بطّي كان يواجه صعوبة في الحصول على المال.

أخذني بسيارته من مشفى ابن رشد إلى ناديه، ثم إلى العلوية الذي كان ذات يوم من الأماكن الخاصة، لكنه أصبح رثاً الآن، حيث لا نزال نستطيع أن نحستي كوباً من الجعة (فقد كان الأصوليون يفجرون متاجر المشروبات الروحية في شارع سعدون)، وبعدها إلى منزل أحد زملاء الدراسة في المدرسة اليسوعية. وفي الطريق، كان الحديث يعود بنا دائماً لذكر الماضي. كان الدكتور بطّي قد التحق بحزب البعث شأنه شأن ما لا يقل عن مليون عراقي آخر، لأجل الترقية المهنية. ومع ذلك كان يعتقد أن أفكار الحزب لم تكن كلها خاطئة. كان الدكتور بطّي مدهوشاً؛ لأنني لم أكن أعلم أن الخطين الأزرقين على العلم الإسرائيلي يمثلان نهري دجلة والفرات، حدود دولة إسرائيل الكبرى، أو أن الهرم والعين المرسومين خلف الدولار الأمريكي عبارة عن رمزين صهيونيين، أو أن الصورة التي كانت تحملها إحدى الدبابات الأمريكية الموضوعة قرب بوابة بابل الأثرية تشير إلى الثأر الصهيوني من الأسر البابلي. كانت نظرته نظرة شيوعي لم يترك الحزب إلا بعد أن أعلن اتهام خروتشوف ستآتين: كان يظن أنه حتى عام 1980 كان البعثيون قوة للتقدم، وكان لديهم بعض الأفكار عن الأمة العربية. لكن الثورة أخطأت ببساطة، قال الدكتور بطّي. «كمزرعة حيوانات».

سألت الدكتور بطّي عن الـ 70 عراقياً الذين كان من بينهم 13 يهودياً، شنقوا أمام مئات الآلاف من الناس في ساحة التحرير عام 1969، بعد استلام البعث للسلطة. ألم تكن الثورة فاسدة من البداية؟

قال الدكتور بطّي: «لقد كانوا جواسيس»، وقال بالطريقة التي كان يقول بها كل كلامه، باستهجان لفظي وابتسامة متألمة، كأنه يقول حقيقة غير سارة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهها: «كان أي نظام وطني سيفعل الشيء ذاته».

ملأت حادثة الشنق عدة صفحات في بداية كتاب «جمهورية الخوف». في رواية مكية، كانت تلك الحادثة فألاً سيئاً بوضوح. وكنت قد نظرت إليها بوصفها مسلّمة يوافق عليها كل عراقي يرحب بالتغيير: كانت هذه الفكرة من الأفكار الثابتة التي أحضرتها معي إلى العراق. ومع ذلك فها هو الدكتور باهر بطّي، وهو رجل مثقف من ذوي المهن العليا، من الأقلية العراقية الأكثر تأييداً للغرب، وعلى وعي جيد بالدمار النفسي الذي سببه صدام، ومتعطش للاتصال بالأمريكيين، ومع ذلك فهو يصر على أن أولئك اليهود الثلاثة عشر كانوا جواسيس. أوقفتنا

زحمة السير، ونظرت إليه. فقابل نظرتي والابتسامة ترتجف تحت شاربه. كنت على وشك على مناقشته، ثم أعدت التفكير في الأمر. لم يكن من المهم أن تكون رواية مكية صحيحة. فأنا في العراق منذ ثلاثة أسابيع، وقد بدأت أدرك أن معظم أفكاري حول المكان لن تكون لها فائدة.

كان العراق قلقاً ومتشنجاً، وكأن التحرير قد أنتج فيروساً في الكائنات الحية، وكأن الحمى كانت تشتعل في البلاد. وكان صوت إطلاق النار مسموعاً ليلاً ونهاراً، وكانت شدته تزيد بشكل خاص بعد حظر التجوال الساعة العاشرة، حين لا يخرج إلا من لا يأبه لسلامته. ومن حين لآخر، كانت القنابل أو قذائف الهاون تهز الجدران. كانت قوة النظام الوحيدة هي الجيش الأمريكي، لكن قوافل الهامفي التي كانت تقعقع في شوارع المدينة بسرعة كانت معنيّة بحماية القوة وليس بحفظ الأمن، كما أن هجمات العصابات على الجنود كانت تحدث بمعدل عشرين هجوماً في اليوم في بغداد وحدها.

وحين وصلت في منتصف شهر تموز، كان الصيف يشتعل حرارة. إذ كانت الحرارة تزيد على 120 فهرنهايت في الظهيرة، وفي بعض الأيام كانت تزيد على 130 فهرنهايت. فإذا أخرجت رأسك من نافذة سيارة متحركة شعرت كأنك تشغل مجفف الشعر وتوجهه نحو وجهك مباشرة، أو أنك تقف خلف محرك طائرة نفاثة عند إقلاعها. وإذا لم يوجد ظل، واضطررت للوقوف في الخارج أكثر من عشر دقائق في الضوء الأصفر المُعمي فإنك تشعر أنك بدأت تضعف، وإذا حاولت مواصلة الخروج في أثناء اليوم، فستأتي لحظة نحو الساعة الثالثة تشعر فيها كأنك ثمل، وأنك قد تسقط مغشياً عليك. لم تكن الراحة تأتي إلا بعد حلول الظلام، لكن حتى في الليل كانت الحرارة شديدة لدرجة أن العائلات العراقية كانت تنام على سطوح المنازل، ما لم يجعل إطلاق النار ودوريات الطائرات المروحية ذلك صعباً لشدة الضجيج أو خطراً. قال أحد الجنود مرة: إن إرساله إلى الصحراء العراقية كان أشبه بالوجود في وسط رغيف من الخبز المخبوز، ألقي كعجينة دون أن يكون لديه أي فكرة عما كان يحدث أو أين هو. فيما يخصني، كانت الحرارة العراقية تشبه الاستبداد الحقود الذي لا مفر منه، الذي يجعل كل شيء غبياً وسلبياً.

كانت الكهرباء لا تكاد تعمل نصف الوقت في بغداد بعد الحرب، وكان من الصعب التنبؤ بساعات عملها من حي لآخر. كان العراقيون الذين لا يملكون مولّدات كهربائية يبقون

مستيقظين معظم الليل للتهوية لأطفالهم، وكانوا في الصباح يبدون منهكين. كان مقسم الهاتف متضرراً بشدة بسبب التفجير والنهب؛ لذا كان من النادر إيجاد هواتف تعمل في المدينة وكان القيام بأبسط الأعمال، كالترتيب لعقد اجتماع، يحتاج إلى جهدٍ ضخم (في شهر آب نسّقت إحدى الشركات البحرينية لوضع أبراج بث كافية لخدمة هاتف خليّوي أولية، لم تكن موجودة أيام صدام، لكنها لم تحصل على ترخيص، ولم تستمر إلا يوماً واحداً قبل أن تغلقها سلطة الاحتلال التي كانت لديها شبكة MCI خاصة بها). كما كان هناك نقص في الوقود والغاز السائل، وكانت الصفوف خارج محطات الوقود ممن لا يستطيعون أن يدفعوا أسعار السوق السوداء تمتد ميلاً أو أكثر. كانت الشوارع تغص بالسائقين الغاضبين، وكل منهم رئيس جمهورية بذاته. ولم تعد إشارات المرور تعمل، كما ترك رجال شرطة المرور وظائفهم، وقد قطعت شبكة الطرق الرئيسة الحواجز العسكرية الأمريكية، وإغلاق المنطقة الخضراء الواسعة، مما أعاق جميع الطرق المعتادة. بالإضافة لذلك، مع فتح الحدود، كانت السيارات تتدفق إلى البلاد من الأردن والكويت، في الغالب بشكل غير قانوني. لم يكن هناك شيء أو أحد يضبط المرور، لذا كان كل سائق يضع القواعد الخاصة به، يسابق الآخرين في الشوارع ويدور في الاتجاه المخالف، ويأخذ طرقاً مختصرة فوق الرصيف أو عبر منصفات الطرق السريعة. كان كل تقاطع يمثل لعبة سباق خطرة، أو عقدة كثيفة لمئات المركبات. كان يمكن في وسط زحمة السير أن ييأس أحد السائقين لدرجة أن يخرج ويوجّه السيارات خلفه، وتبدأ العقدة تنحل عدة إنشات في كل مرة. كانت ضجة أبواق السيارات مستمرة. في مشفى المجانين ذاك، لم أكن قادراً على الاهتداء إلى مخطط للمدينة، وهذا يعود في جزء منه إلى أنني لم أقد سيارة، وفي الجزء الآخر لأن شبكة الطرق بعد الحرب لم تكن معقولة. حتى العراقيين أنفسهم كانوا تائهين.

من أولى الأشياء التي لفتت نظري في العراق كانت النظرة التي على الوجوه، فقد لاحظتها حالما عبرت الحدود من الأردن، ورأيت مجموعة من الرجال متجمعين حول أول محطة وقود: فبالمقارنة مع الأردنيين على الطرف الآخر، الذين هم أيضاً عرب، وربما من أفراد قبيلة واحدة، بدا العراقيون فقراء ومهزومين. كانت خدودهم المغطاة بالشعر الرمادي، مجوّفة وجلدية، وكانت عيونهم غارقة، وفي الوقت ذاته سريعة ومترقبة بالطريقة

التي يستخدمها الناس للتنبؤ بالمخاطر واغتنام الفرص المخفية. وقد ذكّروني بالوجوه التي تظهر في الأفلام الواقعية الحديثة عن إيطالية بعد الحرب، والأدوار التي أداها رجال ونساء عاديون يجولون بين أنقاض المدن التي ضربتها القذائف؛ بحثاً عن عمل. حتى «الجاكيتات» البالية التي انتهت «موضتها» منذ وقت طويل، والسجائر المحلية التي تتدلى من شفاههم كانت تبدو كذلك. كان الرجال العراقيون دائماً أصغر مما كنت أخمن عشر سنوات على الأقل، وقد أصبح ذلك نوعاً من النكات الكئيبة. مرة ركبت سيارة أجرة -الفرن الأبيض والبرتقالي المعتاد- وسألني السائق عن عمري؟ وحين أخبرته قال: «اثنان وأربعون عاماً؟ اثنان وأربعون؟» ورسم الرقم بيده على لوحة العدّاد؛ ظناً منه أنه لا بد أن يكون قد أخطأ الفهم للغتي الإنكليزية. «اثنان وأربعون؟» وأشار إلى الساعة الرقمية على العداد التي كانت 5: 41. «هذا واحد وأربعون. أنت، اثنان وأربعون؟» وأخيراً حين قبل ذلك قال بتعجب: «أنت جميل»، ثم قال لي: «أنا عمري ثلاثة وأربعون»، فحان دوري لأصدم، فقد توقعت أن عمره لا يقل عن الستين. وقلت له: إنه جميل أيضاً، لكنه لم يكن كذلك قط. فأشار إلى لحيته التي يملؤها الشيب، وإلى التجاعيد الكثيرة في وجهه، وقال: «العراق ليس جيداً».

ومرة أخرى، قابلت رجلاً عجوزاً يحاول أن يكسب لقمة عيشه ببيع مراوح من القش أمام أحد المطاعم. وعلى الرغم من أنه لا يزال في الخمسينيات، لم يكن لديه إلا سن واحدة. وكان يتمتم: «صدام كلب. لقد أخذ عشر سنوات من عمري». فقد ذهب الرجل إلى السجن لرفضه الذهاب للقتال في الحرب مع إيران. «في عهد صدام، لو كنت أتكلم معك هكذا، لكانت المخابرات قد أتت على الفور وأخذتني». وضحك وهو يرقص من قدم إلى أخرى وبدت السن. «أنا أشعر أنني شاب من جديد. وهذا بفضل الأمريكيين والبريطانيين. أنتم تستطيعون أن تجعلونا جميعاً بشراً من جديد». في الصيف الأول للاحتلال كان لا يزال من الممكن سماع مثل هذه الأشياء.

كانت بغداد مدينة منهارة تضربها الشمس. وكان من الصعب أن نحدد كم من القذارة كانت حديثة، وكم منها جاءت بسبب الإهمال المعتاد. لا شيء في العاصمة تقريباً كان يبدو حديثاً أو خاضعاً لصيانة جيدة. كانت القمامة المكدسة في أكوام كبيرة في الشوارع تبدو أنها لم تُزل يوماً، وقد أخبرني بعض السكان أن أولئك الذين يدفعون للشاحنات فقط هم الذين

يحصلون على الخدمة، بسبب عدم وجود نظام فاعل للنظافة. كان يمكن معرفة المباني المنهوبة عن بعد من النوافذ المكسورة والجدران الخارجية السوداء بسبب النار. وكان عدد هذه المباني أكثر كثيراً من المباني التي قُصِفت في أثناء الحرب، كالقصور وصالات الحفلات في المنطقة الخضراء، أو مبنى الاتصالات الذي يقع على النهر إلى الشمال قليلاً، أو المبنى العالي على الضفة الشرقية الذي كان العراقيون يسمونه «المطعم التركي» الذي كان يؤوي رجال عدي. كان القصف قد أدى عمله بشكل نظيف إلى حد ما: فغالباً ما كان الصاروخ يضرب مركز البناء مباشرةً، مسبباً انفجار السطح والطوابق المتعددة لبناء دُمّر عمداً. كان حطام الحرب، مع الواجهات المثقبة بالرصاص على طول شوارع بغداد الغربية، يضيف إلى المدينة مظهر الانهيار، لكن الضرر الذي أحدثه النهب بدا مؤذياً ومعدياً أكثر، كالفرق بين الجرح العميق وبين تسمم الدم. كان هناك أنقاض في كل مكان، وقد ملأت شوارع الأحياء الشيعية الشرقية والجنوبية الفقيرة برك خضراء من مياه المجاري، وكانت لفات الأسلاك حول المباني المهمة أو نقاط التفتيش الأمريكية، وكانت جدران ارتفاعها أربعة عشر قدماً، قد بدأت بالوصول على متن شاحنات من إيران أو تركية تنصب في وحدات على طول جميع الطرق في المنطقة الخضراء.

كانت هناك طبقة من غبار الصيف تغطي كل شيء، في نهاية اليوم كان حذائي دائماً يصبح بلون واحد هو لون تراب بغداد. بدت المدينة قبيحة التصميم. وحده نهر دجلة لا يزال يتمتع بنوع من العظمة. كان النهر بعرض عدة مئات من الياردات، وعلى كل من جانبيه جدار حجري ينحدر نحو الأسفل بزاوية منفرجة، وتقطع الجدار أدراج كل مئة قدم تقريباً، من الشارع إلى الماء. لم تقطع كل أشجار النخيل والأوكاليبتوس، وبينما كانت الشمس تغيب خلف القبة السطحية للقصر الجمهوري في المنطقة الخضراء والحرارة تهبط قليلاً، كان من الممكن أن تشعر بالرومانسية الرائعة للنهر. لكن السباحة كانت ممنوعة، وكان لا بد من إطلاق نار تحذيري من قبل الجنود الأمريكيين لإخافة الصبيان العراقيين الذي لا يعرفون أو لا يهتمون للقواعد الجديدة وإبعادهم. وكان عدد من السابحين الذين يتجاهلونها يُقتلون.

في الأيام الأولى كنت أشعر باستمرار أنني أنجذب إلى حديقة الحيوانات في بغداد. كانت في وسط حديقة الزوراء، وهي مستطيل من أشجار الأوكاليبتوس المزينة والعشب الجاف

تقع مقابل شارع 14 تموز من فندق الرشيد ومركز مؤتمرات بغداد، وهما المبنيان الوحيدان في المنطقة الخضراء اللذان لا يزال بإمكان العراقيين الوصول إليهما. وفي الطرف الآخر للحديقة من حديقة الحيوان كان نصب الجندي المجهول، صحن طائر قبيح كبير جدًّا من الإسمنت، وبجانبه ساحة الاستعراضات العسكرية، على كل من جانبيها سيف عملاق، وكان السيفان يتقاطعان في المنتصف. كان هذا الجزء من المدينة مهيباً وواسعاً ومهجوراً. وقد كان كذلك أيام حكم صدام - فهذه كانت قصوره، وتماثيله، وعموماً كان العراقيون العاديون لا يسمح لهم بالاقتراب إلا إذا كان لديهم عمل رسمي - لكن حديقة الحيوان كانت مكاناً شعبياً للعائلات، يأتون إليها للتنزه في المساء أو أيام الجمعة.

أما الآن فهي خالية، إلا من شركة المهندسين العسكريين التي كانت تقوم بمشروع متواضع لإعادة الإعمار، والموظفين العراقيين، والحيوانات. زرت حديقة الحيوان عدة مرات، وكانت التجربة مزعجة في كل مرة. كانت الحديقة هي المكان الوحيد في العراق الذي يبدو فيه أن النظام القديم لا يزال موجوداً. فقد كانت الأقفاص تبدو كزنزانات السجن. ففي أحدها دب أعمى شوّه صدره واستلقى يعاني من مرض نفسي. وفي القفص المقبل كلاب وجراء استلقت لاهثة أمام أطباق الماء الوسخ، كتب على اللافتة: «ثعلب SPP كلب. الموطن الأصلي: بريطانية». هزت الجراء ذيولها عندما اقتربت من القضبان، لكن الكبار لم تعد تعلم منذ زمن أنها كلاب. وقد علمت أنها كانت في حديقة الحيوانات؛ لأن صداماً يحب الكلاب، على الرغم من أنهم كانوا يطعمون بعضها للأسود، حين نفد مخزون الطعام في أثناء الحرب.

قلّلت الحرب من عدد الحيوانات بشكل كبير، من 650 قبل الغزو إلى 13 فقط. فقد ذهبت القرود والطيور والعظاءات والنعام: أما الكائنات التي بقيت فقد نجت من المعارك حين سقطت المدينة وكانت إما خطرة جدًّا، أو لا تستحق النهب. وقد وجد جنود فرقة المشاة الثالثة الذين احتلوا حديقة الحيوانات في نيسان بابوناً طليقاً على الأرض: ثبت أنه غير مؤذٍ لهم، لكن حين تم إحضار أحد حراس الحديقة الذي كان مختبئاً في مكتبه، اهتاج الحيوان وهاجمه؛ لذا كان على الجنود أن يطلقوا النار على البابون لإنقاذ البعثي. وبعد أشهر قليلة، حين كانت مجموعة من الجنود يشربون الخمر بعد ساعات عملهم، ويلهون قرب قفص

النمر البنغالي، بدأت يد أحد الجنود تختفي في فم النمر. فأطلق رفاقه النار على النمر وقتلوه.

كان رجل يدعى بريندان ويتينغتون جونز من جنوب إفريقية، من مجموعة محافظة تدعى ثولا ثولا زولولاند، يتعاون في الترميم مع نقيب مرهق من فرقة الهندسة. شعر كلا الرجلين بالإحباط بسبب العاملين في حديقة الحيوانات الذين كانوا يخافون من اتخاذ أي قرار في غياب السلطة المألوفة. أما العراقي الوحيد المسؤول والكفء فقد طرد؛ لأنه بعثي. لذا فقد تولى الأجانب القيادة. قال ويتينغتون جونز: «يجب أن يربح الجيش، شيئاً كبيراً وواضحاً»، «الحديقة كالرئة الخضراء في وسط بغداد - إنها المنطقة الوحيدة الخضراء. وستكون جيدة للعلاقات العامة، وتقدم للأطفال شيئاً يفعلونه». أنفقت سلطة الاحتلال مئة ألف دولار على الترميم الأولي، وعادت حديقة الحيوانات لتفتح أبوابها للعامة في أواخر تموز، باستعراض موسيقي عسكري كبير، على الرغم من أن التعديل الذي تم فيها كان لمجرد إظهارها بمظهر عصري، لكن الأقفاص لا تزال تبدو سجناً للحيوانات. وفي زيارة مقبلة وجدت المكان مهجوراً تقريباً. فقد كان موقعها في قلب المنطقة الخضراء، محاطاً بنقاط التفتيش الأمريكية، مما جعله مخيفاً لكثير من العائلات، كما أن الساعات التي تفتح فيها الأبواب، من العاشرة حتى السادسة، التي تم تحديدها لأسباب أمنية، كانت حارة لدرجة لا تحتمل. جمعت حديقة الحيوان بين قسوة النظام القديم وظلمه، مع بعض من غباء النظام الجديد ولا مبالاته.

كانت المدينة تبدو منكوبة أو تحتضر، أو كأنها قد خرجت من مرض يهدد حياتها. لكن منذ الساعات الأولى، تحت السطح المتداعي للأشياء، كنت أدرك قوة بغداد. لقد جاءت من الخوف المستمر من العنف، ومن التجارب المهمة التي تحدث في كل لحظة من كل يوم: كان العراقيون والأمريكيون يدفعون العراق معاً نحو شيء غير محدد وجديد. أذكر عبور الحدود الأردنية بالسيارة عند شروق الشمس ورؤية أول جندي أمريكي عند أول نقطة تفتيش على الجانب العراقي، وكيف ذهلت أن جميع النقاشات المجردة حول فكرة الحرب قد قادت فعلياً إلى هذا، كان الجندي يرتدي لباساً مموهاً في الصحراء الحمراء غرب العراق، ويتكئ على سيارته قائلاً: «هل يبدو يوماً جيداً؟ من أي جزء من البلاد أنت؟».

قبل مغادرة العراق، تناولت العشاء في بروكلين بيسترو كالمعتاد مع بول بيرمين. وكان باستمرار يشبّه الوضع في بغداد بعد عصر الاستبداد ببراغ عام 1989. وكنت باستمرار أصرّ على أن العراق مختلف بشكل كبير: فهو تحت الاحتلال العسكري، وفيه عنف أكثر بكثير، وشعبه مصدوم أكثر، ويعيش في بيئة أسوأ بكثير. ومع ذلك كان من بين الأسباب التي جعلتني أرغب في الذهاب أنني أردت أن أرى الثمار السياسية والثقافية التي قد تتمخَّض عنها مرحلة ما بعد صدام. كنت أتوقع أن يشارك الشباب في أحزاب سياسية، ويحضروا محاضرات عامة، ويقوموا بقراءات شعرية ومهرجانات أفلام. كنت أتوقع رؤية أشياء مثيرة.

كان معرض الحوار واحة بوهيمية، قرب السفارة التركية، في حي كان بعثياً في الأدهمية شمال بغداد. وقد افتتح بعد حرب الخليج، ولأن صاحبه قاسم السبتي كان نحاتاً صاحب مزاج، وأرضى الشرطة السرية بالسمك المشوي والويسكي، فقد تركت السلطات المعرض وشلّته الضيقة وشأنها. قال لي المالك: «كانت الحكومة تضغط على المسارح والكتّاب»، «أما الفن البلاستيكي فلم يكن هناك ضغط عليه؛ لأن الفن المعاصر لغة راقية. لم يكن البعثيون يفهمونها. كانوا يفهمون الواقعية فقط. لذا كنا نتحرك بحرّية في جزيرتنا هنا».

كانت الرسومات المعروضة في معظمها تجريدية وتأملية. فن المهجر الداخلي. وفي المقهى الخارجي، حيث كان الفنانون والشعراء والرسامون يجلسون لتناول الشاي، سألت أستاذاً في الهندسة المعمارية من جامعة بغداد: أين أستطيع أن أرى في المدينة مسرحية أو فيلماً؟ فأجاب، ليس هناك مكان تستطيع فيه رؤية ذلك. «أنت بحاجة إلى أمن؛ لتستطيع القيام بالخطوة الآتية». الأمن، والكهرباء، والحد الأدنى من الثقة في المستقبل. «لقد أفسد صدام طريقة التفكير. والآن لا ترى شيئاً، في بغداد. كل شيء قد فسد، وما تراه هو فوضى لا تمثل شيئاً؛ لأنها ليست الطريقة الطبيعية التي يعيش بها العراقيون».

لاحظت أن العراق المحرّر لم يبدُ مكاناً سعيداً جدًّا.

قال الأستاذ: «لا أحد يستطيع أن يأتي إليك بالسعادة هكذا»، كان لديه نوع من الصفاء السوداوي. «إنها لا تأتي من الله. هل سمعت الأغاني العراقية؟ إنها حزينة جدًّا. لماذا؟

لأنها كذلك منذ وقت طويل طويل. حتى لو كنت تتحدث عن الحب، وعن النساء الجميلات والأشياء الجميلة، فإنك تنظر إليها على أنها حزينة. لكنها مؤثرة: فهي تؤثر في الآخرين».

سألني الأستاذ عما خطط له الأمريكيون للعراق. فأخبرته بصدق أنني لا أعلم:

قال لي، وقد أصبح نشيطاً فجأة: «أعتقد أنك تحتاج إلى سنوات؛ لتفهم العراقيين». فمثلاً، كان نصف العراق حضرياً ونصفه بدوياً. كانت الشخصية الحضرية ظاهرة حولنا في كل مكان. أما الشخصية البدوية فقد أتت من الماضي السحيق، وكانت هي التي تسبب المشكلات لأمريكا. والشخصية البدوية تفسّر لنا لماذا يصر العراقيون: في البادية، عليهم أن يصرخوا؛ حتى يكون صوتهم مسموعاً. «لقد بذلتم الكثير من الجهود، بماذا؟ حين تأتون لا تفهمون الناس. لا أعلم لماذا. والجميع يسأل السؤال. أيها الجيش، إنه أمر سهل؛ لديكم قوات معقدة دقيقة. لكن ماذا سيكون بعد ذلك؟ هذا هو السؤال. يجب أن يكون لديهم خطة». بدا محتاراً بصدق مما رآه منذ سقوط النظام. «أي شخص يعيش في العراق عليه أن يفهم العراقيين، عليه أن يغير نفسه؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش دون لغة مشتركة بيننا. عليك أن تدفع، وعلي أن أدفع أيضاً» ابتسم الأستاذ ووقف ليغادر. «وصدقني، جميع العراقيين طيّبون ولطفاء وبسطاء».

لم يكن هناك استقبال بالزهور في بغداد. كان ذلك مبكراً جدًّا، والأمور لا تزال غير مستقرة. وربما لم يكن العراقيون أنفسهم مستعدين، أو لم يكونوا قادرين بعد. وفي أحد الأيام، بينما كنت أسير بالسيارة في شارع سعدون في مركز المدينة، لاحظت مسرحاً اسمه الناصر. في الداخل جلس المخرج، واسمه عبد الإله كمال يدخن مع مجموعة من الممثلين في المكتب الأمامي. كان كمال أبيض الشعر زهري البشرة، له شارب أشعث ونظارات للقراءة تتدلى حول عنقه. كان على وشك استئناف أداء المسرحية الناجحة التي كانت تعرض حتى 9 نيسان التي أسماها «خيال نووي»، مع عنوان رأيت بعيني، لم يخبرني أحد. وكانت جميع المقاعد التي تتسع لألفي شخص تمتلئ. فسألته: لماذا لا يقدم شيئاً لم يكن يستطيع تقديمه تحت حكم صدام، شيء جديد مثلاً، هجاء للاحتلال. فرفض الفكرة قائلاً: «لا نستطيع أن نجد قصة محزنة أكثر من الشارع لنجعله مسرحية. مسرحية تعرض في الشارع. بغداد كلها مسرح. ونحن الجمهور. فنحن لا نحتاج لعمل مسرحية».

فقلت له: لكنها ستجمع البيت. وستعطي العراقيين شيئاً يحتاجونه، ستعطيهم الفرصة لرؤية تجربتهم المشتركة عبر رباط الفن.

سأل المخرج: «هل أستطيع أن أتحدث عن بريمر وبوش؟، هل تستطيع أن تعطيني ضمانات؟» وذكر صحيفة أغلقت؛ لأنها تحرّض العراقيين على قتل الأمريكيين. حاولت أن أشرح أن هذا شيء مختلف. وفي النهاية لم أستطع أن أقنع كمال بأن مسرحه لن يُغلق، لكني شعرت أيضاً أن فكرتي جعلته غير مرتاح لسبب أعمق. لقد طلبت تصرفاً يحتاج إلى شجاعة خيالية خارجة على قدرته. وفي النهاية باح لي كمال بأنه قد كتب بالفعل مسرحيته الآتية. واسمها ماسونيكا، وهو اسم يقاطع بين «أمريكة» و«ماسوني» (وهي كلمة كثيراً ما تتردد في العراق لها علاقة غامضة بالصهيونية). وقال: إن المسرحية ستعرض «الشيء المخفي الذي حدث في أمريكة في 11 أيلول».

حين كان صدام يحكم العراق، كانت مكاتب الاستخبارات التابعة لحزب البعث تتعقب باستمرار الإشاعات التي تتجه إلى الشوارع. كانت الوثائق تجمع سنوياً في أربعين مجلداً ثخيناً مما يدل على هوس دولة الشرطة. «سري للغاية - إلى الرئيس عبر مكتب مدير مجلس الأمن. موضوع الإشاعات»، هكذا بدأ أحد التقارير المكتوبة بعد عدة أسابيع من إفراغ صدام للسجون في تشرين الأول 2002. «لقد تم إطلاق سراح السجناء السياسيين، وإعدامهم من قبل الحكومة العراقية». وأعلنت وثيقة أخرى: «إنها تدور حول صراع بين نجلي الرئيس، حفظه الله. وهذا الخلاف عن تسلُّم السلطة. وقد أصيب قصي صدام حسين. تمت مناقشة هذه الإشاعة في جامعة بغداد في كلية إدارة الأعمال. 6 تشرين الأول 2002». ثم ذكر اسم المخبر الذي كان مصدر التقرير. وقالت إشاعة أخرى، مصدرها الحلة: إن آرييل شارون سيقوم بتدمير بيوت فلسطينية في جنين لإضعاف الاقتصاد العراقي، وإن صداماً سيعطي لعرب غير عراقيين، كانوا يعيشون في العراق قبل انتفاضة عام 1991 سيارات بصفة هدايا، وكانت تعرف باسم «ورقة الخزينة والخيانة». كان ملك الأردن يسمح للمعارضة العراقية بالدخول من بلاده ويقدم لهم الدعم. سيأتي الغزو الأمريكي في يوم إعادة انتخاب صدام لإنهاء الاحتفال. سيأتي الغزو يوم 11 أيلول 2002، بعد سنة من الهجمات في أمريكة. ستهاجم أمريكة جميع المساجد في العراق، بحجة أن الحكومة العراقية تخبئ فيها أسلحة

الدمار الشـامل؛ حتى لا تلفت الانتباه. سيهاجم الأعداء العراق بسلاح جديد، نوع من الغاز سيصـاب العراقيون عند استنشـاقه بغيبوبة تسـتمر ثماني ساعات. سـيكون الغزو مختلفاً تماماً عن العمليات العسـكرية الأخرى، وسـيكون على مرحلتين: إحداهما سـرية والأخرى علنية. سـيحدث الغزو في ثلاثة أماكن، لكل واحدة منها اسـم مسـتعار: في الشـمال «قفزة الأرنب» وفي الجنوب «حركة السلحفاة» وفي بغداد عملية خاصة «قلع الأضراس».

نشأت معظم الإشاعات في أحياء فقيرة. وكانت بشكل ما تعبيراً طبيعياً عن تجربة الناس الذين يعيشـون تحت توتر شـديد بانتظار الحرب والخوف مـن قواعدهم – من التحمل بلا قوة وسـط العنف المستمر. والكثير من الإشـاعات كان حزب البعث قد زرعها؛ لذا فقد كان صـدام، بعد أن حوّل الشعب إلى جواسـيس، يتعقب تقدم الجراثيم التي أدخلها بنفسه إلى جسـم السياسـة. كان يرتبط مع شعبه بنظام مغلق، دائرة الخوف. كانت النجاة تعتمد على تصديق أن كل شيء ممكن، وكلما كان الشيء أقل احتمالاً، كان أكثر احتمالاً. كانت محاولة العيش خارج الدائرة جهداً خطراً، أو حتى قاتلاً، لم يكن يقدر عليها إلا الناس الاستثنائيون. يمكن أن يقول صدام: «كل عراقي بعثي»، وحتى بعد أن خرج من المشهد، اعترف كثيرون بأنه بقي يسـكن أرواحهم. أما المرأة العراقية التي أرتني الإشاعات، وهي امرأة مطّلعة، لها عقل فنان، كان جميع أفراد أسـرتها قد ذهبوا إلى الخارج، وبقيت هي مع زوجها وأطفالها، فقد ظلت تقسـم وتحاول أن تسـحب المجلدات من يدي وتقول لي: «آسفة جورج، أنا أكره الوثائق الحكومية. تخيل أن تعيش هكذا ثلاثين عاماً. تنجو من الموت».

لم يمضِ على وجودي في العراق أسـبوعان حين قتل ابنا صـدام: عدي وقصـي في ملجأ بالموصل بعد تبادل لإطلاق النار مع الجنود الأمريكيين. كان عدي بالذات يملك مزاجاً قاسياً لدرجة مرضـية. وقد أخبرني أحد حراسـه السـابقين، وهو رجل قوي ذو طبيعة طيبة اسمه عماد حمادي، قصـة ليوضـح لي معنى العمل معه. كان عدي يلهو في بركة السـباحة في أحد الأيام مع مجموعة من الشـابات. فاسـتدعى عماداً الذي كان يتجول قريباً ببدلة السـباحة؛ ليحضـر له كأس ويسـكي. وما إن أعطاه عماد الكأس، حتى دفع عدي برأسه تحت الماء وثبّته بين ركبتيه. عرف عماد أنه إذا أبدى أي مقاومة فسـتكون نهاية حياته، لكن اللعبة اسـتمرت واسـتمرت، نصـف دقيقة، دقيقة، حتى شـعر أنه على وشـك الموت بأي حال. استسلم عماد

لقـدره، لكـن حين بدأ يفقـد الوعي لوّح بيده غريزيـاً من جهة إلى أخرى؛ ليشـير إلى أنه لم يعد يسـتطيع الاحتمال أكثر. فشعر بأنه تحرر، وحين خرج إلى السطح كان عدي يضحك مع صـديقاته، قال عدي وأصـر على أن يتناول عماد الويسـكي معه: «أنت رجل جيد»، ربما كان عدي أكثر رجل محتقر في العراق، حتى أكثر من والده الذي ارتقى إلى ذروة السـلطة بنفسه على الأقل، واحتفظ بتلك المكانة بالسيطرة القمعية.

في الليلة التي حدثت فيها معركة الموصـل، كان هناك كثير من إطلاق النار الاحتفالي في بغـداد لدرجة أن الدورية الأمريكية التي كنت برفقتها قرب النهر اضـطرت أن تلغي مهمتها وتعـود إلى القاعـدة، فقـد كان إطلاق النار قريباً بشـكل خطـر. لكن في الأيـام المقبلة، بدأ العراقيون يتسـاءلون إن كان عدي وقصـي قـد ماتا بالفعل؟ فالجثتان اللتان قُدّمتا لوسـائل الإعلام كان قد تم إصـلاحهما تجميلياً بطريقة جعلتهما تبدوان شـمعيتين وغير حقيقيتين. وقد سـمعت نظريات كثيرة من عدد من العراقيين. فقد أخبرتني امرأة كانت تشـغل منصباً رفيعـاً في اتحاد الصـداقة الأمريكية العراقية بأنها لم تصـدق ذلك. «لم يـرَ الناس أي دليل يؤكد أنهما هما»، قالت لي: «الحمض النووي، الأسنان هل يمكن أن تعرّفهما بالفعل؟ فالصور يمكـن أن تكـون مفبركة. سـمعت أن البيت الذي قتل فيه ابنا صـدام هو بيت شـيخ معارض لصـدام. فلماذا يستقبلهما؟» ثم كان هنـاك الصمت المحير لوالدهما. «فلو قتل أحدٌ ولديك، آسـفة، هل تجلس وتقول: حسـناً، لا مشكلة؟ فلماذا لم يفعل صـدام شيئاً؟» واقترح زميل لها أن بوش كان يحاول تأمين إعادة انتخابه. سـمع سـائقي أن عُدياً قد هرب إلى إسـبانية بعد سـقوط بغداد. أما صـائغ عدي الذي التقيته في حفلة بعد عدة أيام، فلم يصـدق أيضاً. كان قد وضـع ماسـات بقيمة مئات الآلاف من الدولارات في الخواتم، ولو أنقص .000001 قيراط لـكان قـد قتل. لقد قبل حقيقة جميع جرائم صـدام وعدي. ومع ذلـك، إذا جاء عدي وطلب منه المساعدة، قال الصائغ: إنه لا يردّه. كان عدي لديه صفات جيدة: فقد كان صريحاً؛ إذا لم يحبـك فإنـه يقتلك، لكن إذا أحبك، فإنه يعاملك معاملة جيدة. لم يسـئ عدي شخصـياً للصائغ، وكان من الشرف ألا يسلّمه. كان رفضه أن يصدق الأخبار تعبيراً عن أمنية: إذا قتل الأمريكيون عدياً وقصياً بهذه الطريقة فهذا مهين. وفي رأي آخرين كان هذا يعكس الخوف: فلا بد أن يعود الوحشـان الشابان ويوقعا مزيداً من الألم. وفيما يتعلق بالجميع كان ذلك من

قبيل تشكيك الناس الذين لم يعرفوا إلا ثقافة رسمية من الأكاذيب. اقتنع رجل عجوز، بعد أن شاهد بلير على شاشة التلفاز يناقش الموضوع، بأن هذا صحيح؛ لأن بلير كان يبتسم بطريقة لا يمكن أن تكون ملفقة؛ كان العجوز قد تعلم قراءة الحقيقة من تعابير الوجه، بعد قضاء سنوات في الحرب العراقية الإيرانية، يشاهد صداماً على شاشة التلفاز.

ومع الوقت، حين لم يعد عدي وقصي للظهور، وأصبح موتهما حقيقة مقبولة، تحول غير المصدقين إلى مصدقين دون أن يتوقفوا حتى لإعادة تقويم شعورهم بالقدرة على الحكم على الأمور.

«إنهم لا يملكون القدرة على ممارسة الحرية»: هذه العبارة من عرض الدكتور بطّي لمركز جلجامش للتفكير الإبداعي، قد أبرزت حقيقة عن العراقيين في الأشهر التي أعقبت 9 نيسان. وقد ساعدت في شرح أحد أكبر الألغاز بعد سقوط التمثال: لماذا هي قصيرة جدًّا لحظة الشعور الجيد. وجد آلاف الجنود، والموظفون، والمتعهدون، وعمال الإغاثة الذين تدفقوا إلى العراق لإعادة إعماره أنفسهم في وضع البحار الأمريكي في ...... **ميلفيل «بينيتو سيرينو»**، الذي هتف بالإسباني الذي أنقذه من تمرّد العبيد، «لقد نجوت، لقد نجوت: ماالذي ألقى هذا الظل عليك؟» لقد أخبر العراقيون أنهم أحرار، وهم يتوقعون أن يكونوا أحراراً، وقد انتظروا سنوات؛ لكي يصبحوا أحراراً، لكنهم ما زالوا لا يشعرون بالحرية. وهكذا حل ردّ الفعل على الفور تقريباً. وقد قالت لي عقيلة الهاشمي، الديبلوماسية السابقة التي أصبحت في تموز واحدة من ثلاث نساء تم تعيينهنّ في مجلس الحكم الانتقالي: «نحن لا نزال تحت تأثير الصدمة، لازلنا خائفين. لا نزال نعيش بالطريقة نفسها، كان عمري خمس عشرة سنة في عام 1968 والآن عمري خمسين سنة. أترى يمكن أن تتخيل؟ هل يمكن أن أتغير في يومين، في شهرين، في سنتين؟ نحن بحاجة إلى إعادة تعليم، وإعادة تأهيل». وقالت: إن العراقيين الذين طالما أرادوا الحرية، «كانوا سعداء بعد سقوط النظام. ثم كان هناك عمل تخريبي وهذه الفرحة، ضد هذه السعادة. إنها لم تتحقق، كما ترى. هذا الشعور الذي تشعرون به -آه، نعم!- لكنه لم يتحقق بعد ذلك. هذا محبط».

كان «العمل التخريبي» عدة أعمال: تفشي الفوضى، وعودة العنف البعثي، وحقيقة الاحتلال، لكن أيضاً الشعور المرسّخ بالضعف. وقد جاء معه توقع أكبر من اللازم لما تستطيع

القــوة العظمى تحقيقه، وقد زاد أداء الأمريكيين من الاضــطراب في عقول العراقيين. وإذا كان صدام قد استطاع أن يصلح مرافق البلاد في أثناء أشهر قليلة من نهاية حرب الخليج، بعد كل الدمار الذي أحدثه قصف الحلفاء، فلماذا لا تزال شبكة الطاقة تتدهور بعد أربعة أشهر، حين تركوا البنية التحتية سليمة هذه المرة؟ قبل الحرب بشهر، أعلن بوش في خطاب حالم في معهد المؤسســات الأمريكي أن العراق سيصــبح أنموذجاً للديمقراطية في الشــرق الأوســط. وقد ســمعه العراقيون، وكما قال لي كهربائي غير متعلم اسمه طارق طالب: «كنا نتوقــع أن يحــوّل الأمريكيــون البلاد إلى مثــال، إلى أوروبــة أخرى. ولهــذا لم نقاوم. ونحن مصدومون، كأننا عدنا مئة عام إلى الوراء».

ســرت إشاعات بأن القوات الأمريكية كانت تقطع الخطوط الكهربائية لمعاقبة العراقيين على شن الهجمات، وأنهم قد أحضروا كويتيين مع قوة الغزو للتحريض على النهب؛ انتقاماً مــن الاحتلال العراقي عام 1990. قــال لي الدكتور بطّي: «شــعبنا لا يفهم ماذا يجري؛ لذا فهم يظنون أن الأمريكيين يتعمدون إحداث هذه الفوضــى»، كانت نظريات المؤامرة محاولة لفهم الأمور الســخيفة. حتى هو لم يكن يعرف ماذا يفكر. «لا نريد أن نصــدّق أن هذا غير مقصــود - القوة العظمى على ســطح الأرض تســتطيع شــن حرب نووية». لم تكن فكرة أن التخطيط الســيئ، والالتزام غير الكامل، والإهمال هي الســبب وراء الفوضــى، فكرة يمكن تصــديقها ببساطة. كيف يمكن للعراقيين أن يدركوا أن مجالس الخبراء في واشنطن، حيث قدّم بوش العراق بصــفة مثال للمنطقة، كانت قد أســهمت في الانهيار، بعد الحرب بقتل أي كلام عن بناء الأمة؟ كان التخريب المتعمد أمراً منطقياً أكثر.

عرّفني الدكتور بطّي بعدد من زملاء دراسته في كلية بغداد اليسوعية. كانوا يحاولون إنشاء منظمة تقوم على فكرة غامضــة بتحســين الوعي الاجتماعي في العراق، عن طريق الاتصــال بشركاء في أمريكة. جلسنا في غرفة حارة جدًّا في الكرادة، منطقة الطبقة الوسطى، والمنطقة التجارية على الضــفة الشــرقية لنهر دجلــة: كان هناك مختصٌ في الأمراض البولية اســمه نعمت كمال، يشــبه إد أســنر حين يعبس، ومهندس إطفاء ألطف خلقاً اســمه محمد عباس. كان الدكتور كمال غاضباً من معاملة الأمريكيين له. فقد تمركزت ثلاث دبابات أمام المشفى

الذي يعمل فيه، وكان الجنود يقومون بتفتيشه وتفتيش سيارته، كل يوم، على الرغم من أنهم كانوا يعرفونه. «إنهم لا يفرّقون بين الطبيب والإرهابي». تم إطلاق النار على أحد أقاربه من بعيد، وابن جيرانه البالغ اثني عشر عاماً، حين كانا يقودان بشكل غير مقصود في شارع كان الجنود يطوقونه. وفي الوقت نفسه، كان الطبيب يريد مزيداً من الأمن من الأمريكيين.

أما المهندس عباس فقد شبّه وضعهم بوضع الفلسطينيين. «الجنود أنفسهم، طائرات الأباتشي نفسها، الطريقة نفسها في اعتقال الناس. العراقيون يزيدون عدائية؛ لأنهم يقومون بهذا الربط».

قال الدكتور كمال: «يلزم وقت كي تستقر الأمور، نحن نعرف ذلك، من سوء حظنا أن نعيش في هذه المدة من الغليان. لكن الناس مثلنا يعيشون في طبقة اجتماعية محافظة جدًّا. لدينا خوف لا شعوري من السياسة، لا نريد المشاركة. فالأمريكيون لن يقوموا بحمايتنا». كان العراقيون المثقفون المحترفون يختفون، بينما يخرج الآخرون -الفقراء والمتدينون والمسلحون- إلى الشوارع.

قال عباس: «كانت لدي مشاعر متضاربة في أثناء الحرب، كنت أريد أن يخسر كلا الجانبين. لا أحب الاحتلال الأمريكي، ولا أحب أن أعيش تحت حكم صدام».

سألت إن كانوا يخبرون الجيش الأمريكي إذا عرفوا معلومات عن نشاط تمرّد؟ لم يكن أي منهم مستعداً لذلك، ليس لمجرد الخوف من عمل انتقامي.

اعترف عباس :«إنها أيضاً معركتي ضد الوجود الأمريكي؛ لأكون موضوعياً».

نظر الدكتور بطّي الذي جمعنا معاً إلي بقلق فجأة واعتذر. كان يأمل ألا آخذ الموضوع بشكل شخصي. فأشرت إلى أنهم جميعاً لا يزالون يحاولون إقامة علاقات مع الأمريكيين.

قال الدكتور كمال أخيراً وهو يبتسم: «ما من محبة إلا بعد عداوة، ربما سنتعلم أن يحب أحدنا الآخر».

«اللجنة الإنسانية الدولية للسجناء والمفقودين» كتب على إشارة على جانب الطريق، ليست بعيدة عن مقر المخابرات العسكرية الذي تعرّض للقصف في الكاظمية، في حي

قديم في شمال المدينة، فيه سوق مشهورة لمحال غولدسميث، وأحد المراقد المقدّسة للمسلمين الشيعة. كانت اللافتة تشير إلى بناء من طابقين، كان فيه مكتب ومنزل الشيخ عماد الدين العوضي.

الفوضى التي أعقبت التحرير وقلبت حياة الكثيرين، أوجدت فرصاً أيضاً. في الحقيقة كان في العراق نوع من الوضع الثوري. أول وأسرع من تحرّك كانوا رجال الدين الشيعة الذين طال قمعهم في البلاد: فقد ملؤوا الفراغ في الطاقة والتنظيم، وسيطروا على المشافي والمدارس، وقدّموا الخدمات للفقراء، وفرضوا قانونهم الإسلامي على الحياة اليومية، بينما كان العراقيون العلمانيون والأطباء والمهندسون والفنانون، يتحركون في ذهول. كان الشيخ قد أمضى نحو عشر سنوات في سجون صدام، حيث شكل مجموعة سرية من السجناء. والآن بعد ذهاب صدام، أصبح رجلاً مهماً.

في 12 نيسان، سمع الشيخ أن مبنى السوق المركزية في حي المنصور الفخم يحترق. قبل الحرب كانت شرطة الأمن قد خزنت الملايين من ملفات السجناء في قبو المبنى؛ لحفظها. والآن كان البعثيون يحاولون تدميرها، فانطلق الشيخ ومجموعة من رفاقه، مسلحين بالسكاكين والعصي، عبر المدينة لإنقاذ الدليل على محاولة صدام الناجحة لتحويل العراق كله إلى سجن. كانت هناك مجموعات أخرى، تقاتل لامتلاك السجلات، منهم عناصر من ميليشيا أحمد الجلبي. استولى المؤتمر الوطني العراقي على ملايين الوثائق في أنحاء بغداد، لكن مجموعة الشيخ استطاعت أن تأخذ سيارات مليئة بالملفات والميكروفيلم إلى الكاظمية، مع قارئة ميكروفيلم شبه محترقة من نوع كانون. وفهم الشيخ أن هذه الوثائق في ملفات زهرية وخضراء لم تكن تمثل الماضي فقط؛ وإنما المستقبل أيضاً.

وهي الآن تملأ الخزانة المعدنية التي تصل حتى السقف العالي في مكتبه، وفي أكياس الحبوب تحت شجرة الموز في حديقته، وتخبز على السطح تحت الشمس. كان المزيد من الملفات يأتيه من أماكن مختلفة كل أسبوع. وهذه الملفات لم تكن إلا جزءاً صغيراً من السجل الكامل للسجن والإعدام الذي خلّفه النظام البائد. أخذ الجنود الأمريكيون

شـاحنات مليئة للتخزين المركزي. وقفت في مكاتب رابطة السجناء المنافسة التي أنشأها أفراد حزب الله (احترفت المجموعتان مناسبات سرقة الملفات)، في غرفة كبيرة مملوءة بوثائق غير مرتبة تصل إلى ارتفاع الخصر، وشعرت بالغثيان للكمية الهائلة منها. أنشأت أنظمة أخرى وسـائل للمراقبـة الداخلية موثقة بهذا التفصـيل والدقة، لكن حتى ملفات ألمانية الشرقية لا تروي قصصاً تعيسة كتلك التي ترويها ملفات المخابرات العراقية.

ملف: صالح عيسى علي

محكوم بالإعدام

الرقم المتسلسل: 58392669#

جمهورية العراق، وزارة العدل، محاكمة

القسم: القلم السري

التاريخ: 16-1-90

إنه مرسل إلى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل. موضوعه الإعدام، بعد تلغراف مرسل من المكتب الرئاسـي 368# في 8-1-90، نرسل إليكم أمر إعدام الأشخاص المحكومين الآتية أسماؤهم:

1. كريم عيسى علي.

2. صالح عيسى علي.

3. خالد عبد الرحمن إسماعيل.

يجب إعدامهم شنقاً حتى الموت.

أطيب التحيات.

وزير العدل: أكرم عبد القادر علي.

كان على الجدران الخارجية لمبنى الشـيخ صـور للقطات بالأبيض والأسود لشباب، يبدو معظمهم من حقبة سـبعينيات وثمانينيات القرن العشـرين. كان الرجال والنساء يأتون إلى

المكتب من جميع أنحاء العراق ويمشطون السجلات التي رتبها أتباع الشيخ حسب الترتيب الأبجدي، آملين أن يكتشفوا مصير ابن مفقود أو قريب اختفى قبل عقدين من الزمن. وذات مساء، وصل طبيب من بعقوبة، وهي مدينة تبعد نحو ساعة إلى شمال شرق بغداد. اسمه يوسف إبراهيم، وكان مختص أنف وأذن وحنجرة - يحمل أعلى درجة تخصص في مجاله. جاء إلى بيته في ليلة من عام 1995 مسؤولون محليون في حزب البعث، بأوامر للطبيب أن يذهب إلى المشفى ويقوم بعملية إسعافية. كان على د. إبراهيم أن يقطع أذن شاب هارب من الجيش. «أخبرتهم أنه من غير الممكن أن أفعل ذلك ليلاً، وأنني غير مستعد لذلك نفسياً. فقالوا: عليك أن تقطعها ولو بأسنانك وإلا سنقطع أذنك». كانت تلك فكرة عدي، وفي الأشهر التي تم تنفيذها فيها، قبل أن يتحول عدي إلى أفكار أخرى، قطع الطبيب سبعاً وأربعين أذناً. «كنت أشعر بأنني غير موجود، أشعر بالذنب». فسّر د. إبراهيم «لكنني أحاول أن أرضي نفسي؛ لأن الأمر لم يكن بيدي». كان قد أتى إلى مكتب الشيخ؛ بحثاً عن معلومات عن أخيه، وهو رجل مضطرب عاطفياً تم اعتقاله عام 1992 لشتم صدام. «أعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة حتى السنة الماضية». وغادر الطبيب دون أن يجد ملف أخيه.

وفي اليوم نفسه، جاء أحد أصدقاء الشيخ المقرّبين الذين تعرّف عليهم في السجن لزيارته. كان طبيباً أيضاً، وكان ذا طبع هادئ، اسمه سعد بغدادي، وحين أخبرته عن طبيب الأذن، قال: «لو كنت أنا لما فعلت ذلك. ماذا لو أمرك أن تقتل هؤلاء الأشخاص السبعة والأربعين؟ هل تقوم بذلك؟» قال الدكتور بغدادي: لم يكن صدام ليصبح بهذه الوحشية منذ البداية، «لكن حين وجد أنهم يطيعونه، ازداد صدام قسوة بالتدريج. أنا آسف جدًّا، لكن لو لم يطعه أحد منذ البداية... في السجن عصينا أنا وغيري في كثير من الأمور».

قال الشيخ: «كنت أقرأ سبع عشرة ساعة كل يوم - هل تعرف معنى القراءة لسبع عشرة ساعة في اليوم؟ ولم أكن أستطيع العثور على أحد، لا ملك ولاسلطان، آذى الناس كما فعل صدام».

كان الشيخ في الأربعينيات من عمره، وكان قصيراً مستدير البطن، أسمر البشرة. كان دائماً يرتدي جبة سوداء، وقميصاً وبنطالاً أبيضين وخفّين مدببين، ويضع عمامة بيضاء

تشير إلى أنه شيعي لا ينحدر من أهل البيت. وعلى الرغم من أنه كان يخفي زوجه بشدة، وكان جبينه يحمل علامة داكنة من آثار الصلاة، وكان في مكتبه صورة لآية الله الخميني، فقد كان الشيخ رجلاً دنيوياً، شهوانياً بعض الشيء، ويحب النكات البذيئة. كانت اللحية الكثيفة والشفتان المليئتان والعينان الصغيرتان خلف النظارات ذات الإطار الأسود الثخين، والصوت الرنان تذكرني بآية الله آلن جينسبيرغ. كان غالباً يشير إلى أنه لا يترجم إيمانه بشكل متشدّد. مرة، حين كنا نتحدث عن الكلاب، قال: إن هناك نوعين من الكلاب يسمح باقتنائهما: كلاب الحراسة وكلاب الصيد. فقلت له: إن كلبي من النوع الصغير وليس لديه أي مهارات سوى الرفقة. هل هذا حلال أم حرام؟ ففكر لحظة. فقال لي «هذا ليس حلالاً ولا حراماً. هذا جائز».

استقبلني الشيخ في عدة مناسبات في غرفة جلوسه ذات اللون الأخضر الفاتح، حيث كنا نقضي ساعات ونتناول الشاي والغداء. بدأ حديثه: «أنا أحد ضحايا النظام»، وحين انقطع التيار الكهربائي، انطفأت مروحته، وتابع الشيخ، «ومن حقائق النظام الجديد أن الكهرباء قد انقطعت». جلس رافعاً رجليه على كرسي دوار من الفنيل، والعرق يتصبب من تحت عمامته، وشعرت أنني مرغم على الاعتذار عن الأمريكيين للوضع السيئ للخدمات في العراق.

ولد الشيخ عماد الدين العوضي في مدينة الحلة الجنوبية الوسطى لعائلة من الزعماء القبليين، ونشأ يدرس الدين مع الحوزة، المدرسة الشيعية للعلوم الدينية في النجف. كانت اطلاعاته الفكرية واسعة - المذهب الكاثوليكي، كتابات نوستراداموس، الشعر العربي، الفلسفة اليونانية (وكان يدرّس بلاتو وأرسطو لتلاميذه كل صباح) - كانت أفكاره الإسلامية تحمل سمة صوفية. لكنه التقى الخميني في النجف وأعجب به في أثناء مدة نفي آية الله في سبعينيات القرن العشرين. وكانت تلك المدة بداية انتشار واسع للنشاط السياسي الشيعي في العراق، الذي ألهم معظمه آية الله محمد باقر الصدر، وفي عام 1977، تم اعتقال الشيخ في مظاهرة في مدينة كربلاء المقدسة. وبعد سنة فرّ من السجن وهرب إلى الكويت (...). ثم سجن في بغداد حيث أمضى سنة من الاستجواب في مقرات الأمن العام قبل

المحاكمة. أوصى المحامي الذي عينته المحكمة بعقوبة الإعدام، لكنه حكم عليه بالسجن مدى الحياة. وقبل إرساله إلى سجن «أبو غريب» ضرب بالكابلات ثلاثة أيام. «أرادوا أن يذيقوني العذاب؛ ليعطوني فكرة عن العذاب؛ حتى أعرف أن هذا سجن إرهابي».

قضى الشيخ سبع سنوات ونصف في جناح داخلي خاص، يشترك بزنزانة بحجم غرفة جلوسه مع خمسين رجلاً آخر. كانت الزنزانة مزدحمة لدرجة أنهم كانوا يتناوبون في الاستلقاء والجلوس والوقوف؛ وكان على الذين يستلقون أن يستلقوا على جوانبهم. لم يكن هناك زوّار. «لم أرَ أحداً مدة سبع سنوات ونصف السنة. لم نكن نرى الشمس. ولم نكن نرى القمر». حتى الحراس كانوا يعاقَبون إذا لم يظهروا قسوة كافية. كانت الأقلام والأوراق والكتب ممنوعة.

مرة سأل د. بغدادي، زميل الشيخ في الزنزانة حارس السجن: «لماذا تمنعون هذه الأشياء؟».

فقال الحارس: «نريدكم أن تخرجوا من هنا بعد قضاء السنوات، وقد نسيتم ليس علمكم فقط، بل أسماءكم أيضاً».

«لكن يوجد هنا كثير من السجناء المكتئبين. وهذا سيساعدهم».

«نحن نريدهم أن يكتئبوا. هذا هو هدفنا».

ومع ذلك كان الشيخ يذكر سنوات سجنه بحنين واضح، وحين استمعت إلى قصصه عرفت السبب في أن الشيعة العراقيين كانوا أول من انتهز الفرصة بهدف واضح. أصبح الشيخ قائداً في السجن. كان يسوّي الخلافات التي تظهر على الطعام وأماكن النوم وحتمية أن السجين النائم يمكن أن يحتضن الرجل الذي بجانبه، معتقداً أنه زوجه. وحين كان الحراس يوزّعون البرتقال في أعياد حزب البعث، كان الشيخ يحتفظ بالقشور؛ ليعالج مشكلات المعدة عنده وعند الآخرين، ويوزع البذور على أنها دواء نفسي للأرق. ألّف الشيخ كتاباً في علوم الدين على أكياس النايلون باستخدام حواف الأنابيب المكسورة والماء المركز.

وحين كان الجواسيس البعثيون المعروفون ينامون، كان يعظ مجموعته السرية. وقد التقيت عن طريق المصادفة رجلاً اسمه عبد الجبار الدويش كان في الزنزانة نفسها مع الشيخ في ثمانينيات القرن العشرين. كان عمر الدويش واحداً وأربعين عاماً، وكان من العراقيين النادرين، حيث كان شعره خالياً تقريباً من الشيب. قال لي: «في السجن كنت سعيداً؛ لأنني عشت في ظل الإسلام». كان الشيخ هو الذي علّمه هو وبقية السجناء عن ولاية الفقيه، في ظل الشريعة الإسلامية.

أجبر الضغط الدولي بعد حرب الخليج الأولى صداماً على إطلاق الآلاف من السجناء السياسيين، وكان الشيخ من بينهم. فأمضى العقد المقبل تحت الإقامة الجبرية في بيته، وقضى عاماً آخر في السجن؛ لرفضه عرضاً مالياً مقابل دعم النظام. وقبل أيام من الحرب الأخيرة، حذّره بعض أتباعه من السجن من أن الحكومة تخطط لقتله. فالتجأ إلى بيت أخته حتى سقوط بغداد.

كان الشيخ واقعياً تماماً بشأن الأمريكيين. لم يكن يعدّهم لا محرّرين ولا محتلّين، وإنما حقيقة من حقائق الحياة التي يمكن أن تكون جيدة أو سيئة. كان يريدهم أن يغادروا بسرعة: «هناك قول بأنك حين تزور الناس مرة في الشهر تكون محبوباً لهم كالقمر». وفي تلك الأثناء، كان قد أسس علاقات طيبة مع قائد الجيش المسؤول عن أمن منطقته، وأخذ منه ما استطاع الحصول عليه: مولّداً كهربائياً معطلاً.

كان لدى الشيخ برنامج عمل: أراد مني أن أعرّفه إلى أشخاص مهمّين من الأمريكيين. في لقائنا الأول سألني: «هل جاؤوا إلى هنا للزيارة أم ليضعوا أيديهم على البلاد؟» لم تعجبه إجابتي وقال: «أنت تتهرب من السؤال». وبعد ذلك، حين وصف لي شريط الفيديو الخلاعي للدبلوماسي السوداني الذي أغوته إحدى العميلات البعثيات إلى عش الحب، سألته كيف حصل على نسخة منه، فقال: «لدينا طرق خاصة بنا». فأشرت إلى أنه هو الذي يتهرب من السؤال الآن. ابتسم الشيخ عبر غيمة من دخان سيجارته: «أنت علمتني ذلك».

وفي لقائنا الثاني، رحّب بي وقبّلني على خدّي وقال: «أنا معجب بك. أشعر أنني أعرفك منذ سنوات». وفي اللقاء الثالث، في جنازة أحد أقاربه في خيمة في حي شيعي فقير، أعطاني

خاتماً فضـيّاً كتب عليه آية من القرآن، قال الشـيخ: «هناك أجسام خفية تسبح في السماء، ربما تكون أرواحنا الخفية قد التقت في السماء قبل أن نلتقي بعضنا، ولهذا نحن نتفق».

كان لدي برنامج عمل أيضاً. فقد كان عمل الشيخ ينير ظل الماضي الملقى على العراقيين بشـدة. لكنه جعله أيضـاً رجلاً يأتي إليه العراقيون بمشـكلاتهم وطلباتهم. على الرغم من أنه ينكر أن لديه أي طموحات سياسـية. أردت أن أعرف ماذا يريد، ما فكرته عن مسـتقبل العراق. كان الشيخ حريصاً على ألا يدعني أعرف. كانت طريقته في النظر إلي بطرف عينه، وحاجباه مقوّسان والتسلية على فمه، توحي بأن علاقتنا ستتسم بالإغراء والاستغلال.

في الليل كنت أتوقف غالباً عند فندق اسمه الحمراء في جنوب بغداد. كان كباقي الفنادق، يعـج بموظفي المخابـرات الذين اعتـادوا الفظاظـة، وكانوا يتابعـون الزبائـن قبل الحرب، ويحاولـون الآن أن يعدّلوا وظائفهم بوصـفهم نادلين طبيعيين وموظفي اسـتقبال. كان فندق الحمراء مكان اسـتراحة للصـحافيين الغربيين، ورجال الأعمال العراقيين، وجنود السفارة الأسـترالية التـي تقع بجوار الفندق خارج سـاعات العمل. أما أنا، فمـا كان يهمني في فندق الحمـراء هو حوض السـباحة. كان شـعور الغطس تحت الماء بعيداً عن الشـمس وضوضـاء المدينة إلى هدوء الماء الممزوج بالكلور هو أقرب شيء إلى المتعة في العراق.

ذات مسـاء، رأيت رأسـاً مألوفاً أصـلع يتحرك خلف الكراسـي على الطـرف الآخر من المسبح. كان ذلك الشخص هو كنعان مكية.

كان قد جاء من الكويت في نيسان. وكان يقيم في الفندق في انتظار أن تقوم كتيبة للشؤون المدنيـة بإخـلاء البيت الـذي بناه والده حديثـاً على نهر دجلـة، فيما يسـمى الآن بالمنطقة الخضـراء، وقد اسـتولى عليه النظـام عام 1972. خططنـا أنا ومكية للاجتمـاع. كان من الغريب أن أراه ثانية، ويذكرني بمحادثاتنا الراقية في كامبريدج ولندن قبل سنوات.

كان قد ألقى نفسـه بتهوّر في مشـروع جديد. هذا المشروع يسمى مؤسسة الذكرى، وكان من المفترض أن تكون نوعاً من ياد فاشـيم - نصـب تذكاري للهولوكوسـت، بالإضـافة إلى متحف وأرشـيف لثلاثين عاماً من حكم حزب البعث. بمسـاعدة نقيب مسـؤول عن الشؤون المدنية، كان مكية قد كشف كنوزاً دفينة ضخمة من ملفات الحزب، مع مكتبة خاصة لمؤسس

الحزب، ميشيل عفلق، تحت قبره، الذي كان من المتوقع هدمه. قام مكية بجرأة -شأنه شأن الشيخ ولكن بأفكار أخرى- بنقل سبعة ملايين ورقة إلى منزل والده، بما فيها حافظات أوراق الشائعات، وسجلات دقيقة للثقافة السياسية لكل طالب في الثانوية في العراق، وأرشيف سري للغاية اسمه «اليهود». كان يحاول جاهداً أن يمنع سلطة الاحتلال من تمزيق وتدمير آلاف التقديرات الفخمة لصدام وحزب البعث في أنحاء بغداد والعراق. كان طموحه الأكبر -كان مشغولاً بالتفاوض مع سلطة الاحتلال- هو إنشاء متحف في متحف النصر نفسه، والسيفين المتصالبين لأرض الاستعراضات العسكرية، التي كتب عنها كتاباً كاملاً قبل أكثر من عقد من الزمن.

وفي يوم جهنمي الحر، أخذني مكية في جولة إلى النصب مع مصطفى القديمي، صديقه من لندن، واثنين آخرين من المغتربين العائدين المشتركين في مشروع الذكرى. كانت أرض الاستعراض نفسها بطول ربع ميل تقريباً، وفي منتصف المسافة، ارتفع ذراعان يمسكان بالسيوف من الرصيفين لمسافة من كلا الجانبين، بحيث يشكلان قوساً. وإذا اقترب المرء يرى أن الذراعين يمثلان تصويراً لذراعي صدام مكبرة أربعين مرة، بحيث كانا كبيرين جدًّا وتبدو فيهما الأوعية الدموية والشعر. وقد علقت شباك مصنوعة من كابلات فولاذية من مقابض السيوف، التي تم تشكيلها من الأسلحة المصهورة وتتقاطع على ارتفاع مئة قدم قبالة الشمس الساطعة. وقد تدلت من الشباك عشرات الخوذات لجنود إيرانيين قتلى، تم لحمها معاً بشكل عنقود عنب. كانت الخوذات مختارة بعناية، بحيث كانت كثير منها مثقبة بالرصاص. وفي قاعدة التمثال، كتب هذا النص من خطاب صدام عند الإعلان عن المشروع عام 1985: «من أسوأ ما يمكن أن يحدث لأي شخص أن يمر تحت سيف ليس له، ويكون في وضع خارج عن سيطرته. باستخدام سيوفهم سطّر العراقيون في التاريخ سجلاً من البطولة، وهم يدافعون عن أرضهم. لقد ذبحت الغزاة وقطعت رؤوسهم وصنع من رؤوسهم المقطوعة قوس النصر، وها نحن نمرّ تحت عين الله، الذي سيحمي العراقيين من الأذى ولايرحم الأشرار». خطّ الجنود الأمريكيون شخبطات على بعض الخوذات الإيرانية المثبّتة بالأرض: «بف2 إيفانز كيا 25 - 03 أيار سنذكر 977 م ب سي أو».

قال مكية: «رأيت رسومات، وعرفت أنها فاحشة، لكن بصراحة لم أعرف كم هي فاحشة. لكن أسوأ شيء هو خوذات الموتى التي ندوس عليها. إن ذلك يبلغ مبلغاً جديداً من الفحش، إذا سمحت بالتناقض».

قال حسن منيمنة، وهو صديق لبناني لمكية من كامبريدج: «يدّعي صدام أن له وضعاً قدسياً»، كان التناظر الصارم للتمثال يغمّ منيمنة؛ كان الشكل فاشيّاً، كما قال، وكان يأمل أن ينزل أحد السيفين أو يستبدل؛ لكي يدمّر التأثير الفخم الذي يعطي مظهر العظمة.

قال عمار الشهبندر، وهو مغترب شاب التقيته في لندن مع مصطفى: «هذا أكثر مكان يذكّر بالبؤس، المكان نفسه الذي شعر فيه بقوته العظمى، لقد جعل أحد أقدس الأماكن في بغداد وأكثرها حرمة متحفاً عاماً. لا تتخيل كم تشعر بالارتياح حين تجلس في المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه ويشاهد الجنود».

أراد مكية أن يترك النصب كما هو. كان يسير مرتدياً قميصاً أبيض قصير الأكمام وبنطالاً داكناً، وكان يتحدث بنبرة اهتياجية في الحر، بينما كنا نحن الباقين نجرجر أنفسنا خلفه. يمكن أن يكون هنا حديقة للأطفال، مطعم، رحلات مدرسية. يكلّف تحويل الغرف الرخامية الضخمة للقصر الذي يقع خلف المدرّج إلى متحف ومكتبة بين ثلاثين وخمسين مليون دولار. يمكن أن تضم إحدى الغرف رسومات وتماثيل من حقبة البعث، وأخرى وسائل التعذيب التي كان النظام يستخدمها، قال مكية: «كان لديهم آلة فرم، هذا ما قاله لي بريمر. إنها ليست أسطورة مدنية».

سيكون المشروع رؤية مختلفة للتاريخ العراقي: ليس تكريماً للإنجازات العظيمة للماضي البابلي والعربي والإسلامي، وإنما حساب متواضع للعقود الأخيرة التي قام فيها العراقيون بأمور مروعة تجاه بعضهم. قال مكية: «في النهاية وعلى المدى البعيد، إنه حول إعادة تشكيل إدراك العراقيين لأنفسهم، بحيث يوجد أساساً لمجتمع مدني متسامح قادر على التحول إلى ثقافة ليبرالية ديمقراطية. الفرضية هي أن نسيان الماضي، أو السعي إلى نوع من العمل بوصف ناقص للماضي، يمكن أن يؤدي في الواقع على المدى البعيد إلى تكراره بأشكال

مختلفة. نحن بحاجة إلى التعامل معه، ومواجهته بصراحة؛ حتى تستطيع الأجيال القادمة أن تطهّر نظامها منه».

بالإضافة إلى هذا المشروع التذكاري وخططه لاستعادة بيت عائلته في المنطقة الخضراء، كان مكية يأمل أن يحصل على منصب في اللجنة التحضيرية للدستور الجديد. لقد وضعته عودته إلى بغداد بعد خمس وثلاثين سنة في قبضة أفكار جديدة، وكان حرفياً منقطع النفس بطاقة عصبية. كانت هناك حالة غريبة مستقرة في مكان ما في صدره، تشنج مزمن يجعله يحزق في وسط الجملة. أتساءل إن كان التشنج غير الإرادي جزءاً من كفاح، لا واعٍ، لمقاومة إدراك أنه لم يكن يريد أن يواجه. كان مكية مسكوناً بأفكار عن الماضي والمستقبل، أردته أن يعترف بأن الحاضر عبارة عن كارثة. لم تكن عبارات مثل «مجتمع مدني متسامح» و«ثقافة ديمقراطية ليبرالية» تلهمني في بغداد في صيف 2003. تبدو لي عبارات مجردة في الفوضى الطاحنة للمدينة، وكانت تجعلني غاضباً منه ومن نفسي؛ لأنني كانت لدي أوهامي الخاصة.

كان مكية يتعلق بفكرة أنه لو كان الأمريكيون قد أحضروا معهم عدة آلاف من المغتربين العراقيين المسلّحين، كما نصح هو وجلبي وغيرهما، لكان كل شيء قد سار على ما يرام، لكن مع ذكر المرارة التي كان معظم العراقيين «في الداخل»، كما كان يطلق عليهم، يتحدثون بها عن المغتربين الذين جاؤوا على ظهور الدبابات الأمريكية، واستولوا على الأملاك، وخدعوا الناس من أجل السلطة السياسية، كنت أجد أن هذه الحجة غير مقنعة. لقد بدت على أنها عذر لكل ما أساء فهمه. لم يكن العراقيون، كما تبيّن، كما كان يعتقد. لم يكونوا مثل كنعان مكية.

عاش المغتربون العائدون في بغداد في عالم منعزل. كانوا يذهبون إلى حفلات العشاء التي يقيمونها، ويجولون بسهولة داخل المنطقة الخضراء وخارجها، كانت لهم صلات بسلطة الاحتلال، وكانوا ينتجون خططاً ومشروعات وأفكاراً حالمة لتغيير المجتمع العراقي، كان الحدث الذي سقط كقنبلة في حياة العراقيين الآخرين، فحطّم الدولة وتركهم مصدومين وسط الدخان والحطام، للمغتربين فرصة حياتهم وتحقيقاً لحلمهم.

قلة منهم كانوا يرون حقيقة بغداد. ذات ليلة، تناولت العشاء في مطعم مفتوح قرب النهر في جنوب بغداد مع مصطفى القديمي وعمار الشهبندر، المغتربَين اللذين كنت قد التقيتهما في مؤتمر المعارضة العراقية في لندن في شهر كانون الأول. كان مصطفى يعمل في شبكة الإذاعة والتلفزيون التي أنشأتها سلطة الاحتلال، أما عمار، الصحفي المستقل الذي جاء عبر شمال العراق مع قوات البشمركة الكردية في أثناء الحرب، فقد كان يدير مكتب بغداد لمؤسسة شملت برامجها إعادة الأهوار الجنوبية التي كان صدام قد جففها. كان كلاهما يساعد مكية في مؤسسة الذكرى. وكانا قد تركا الأمان والراحة وزوجيهما في لندن وجاءا إلى العراق بآمال كبيرة. لكن ما إن جلسنا وطلبنا المسكوف -وهو سمك من نهر دجلة مشوي- حتى بدأا يبوحان لي بما في عقليهما.

قال عمار: «كنا نعيش حلماً، كانت فكرتنا عن العراق عكس الحقيقة. كنا نعتقد دائماً أن العراقيين تنقصهم المعرفة لكنهم يملكون الإرادة، فإذا قدّمنا لهم المعرفة والخبرة، سيغيرون من وضعهم؛ لأن لديهم الإرادة. لكننا اكتشفنا العكس في الواقع. فالعراقيون يملكون المعرفة. إنهم يعرفون ما هو صحيح وما هو خطأ. لكن أتعلم؟ إنهم لا يهتمّون. إنهم متعبون جدًّا، ومشغولون بلمّ شتات أنفسهم. ليس لديهم الإرادة لفعل ما هو صحيح. إنهم يعلمون أن عليهم ركن السيارة بهذه الطريقة» -بشكل منظم حين يصطفون على محطات البنزين- «لكن من يأبه؟ ليس لديهم سبب كافٍ للمحاولة».

وصف مصطفى الجرائم التي تحصل كل ليلة، ولا يتكلم عنها أحد، وكان معظمها جرائم قتل انتقاماً من البعثيين، كان يعرف رجل دين شيعياً معروفاً يقصده الناس كل يوم لطلب إذن ديني بالقتل. كانت العصابات المجرمة قد بدأت باختطاف الأساتذة الجامعيين أو العراقيين الأثرياء وطلب الفدية. قال مصطفى: «كان تفكير الناس يدهشني حقًّا، كنت أعرف أنه سيئ، لكنني لم أعرف قط أنه بهذا السوء».

قال عمار: «إنهم معتادون على البعث والخوف والموت والإرهاب، لدرجة أنهم لا يرون الميزات الآن. حين تخبرهم أن لديهم فرصة عظيمة للتعبير عن أنفسهم، لا يأبهون. فذلك

لا يعني لهم شيئاً، ليس لديهم ما يعبرون عنه، ليس لديهم رأي». ظهرت ابتسامة خبيثة على وجهه. «هل رأيت The Truman Show؟ يظن العراقيون أنهم هذا الرجل، وأن كل ما حولهم مؤامرة. لكن الفرق هو أنهم يظنون أنهم قد اكتشفوا المؤامرة».

قدّموا لنا السمك، لكنني كنت الوحيد الذي بدأ يأكل.

قال مصطفى: ليست المشكلة في العراقيين هنا فقط، بعيداً عن ذلك. «فحين وصل بريمر، كانت الكهرباء تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم. ثم بدأت المدة تخفض». والمتعهدون الأمريكيون الذين يعملون في شبكة الإعلام، كانوا يحصلون على مبالغ كبيرة زيادة ولم تكن لديهم الكفاية المطلوبة. كانت البرامج سيئة جدًّا ولا يتابعها أحد؛ كانت قناة الجزيرة وقناة العالم الإيرانية قد كسبتا حرب الفضائيات. وكان الأمريكيون خائفين من الفشل، وكانت النتيجة أنهم فشلوا في تحقيق أي شيء؛ وكان كثير من الداعمين المحتملين قد انقلبوا عليهم. ثم كانت تصرفات المغتربين العائدين. رأى مصطفى مرة رجلاً كان يعرفه في لندن يركل موظفاً صغير الرتبة من النظام السابق، فعلّقت صديقة لمصطفى: «لقد رأيت عدياً الآن من جديد، لكن هذه المرة في مشروع ديمقراطي». أما عن أحمد الجلبي، الذي كانا يعدّانه الرجل الأنسب لقيادة العراق في اتجاه ديمقراطي، فقال عمّار: «حين عاد إلى لندن كان يظن أنه سيعاد إلى العراق، ويوضع في السلطة؛ لأن البنتاغون يدعمه، وقد قلنا له مراراً وتكراراً: لا تتكئ على ذلك. لكنه لم يقتنع. وهذا هو الخطأ الثاني: إنه محاط إما بالمغفلين أو بالانتهازيين».

حان دور مكية بالحديث، وقد ذكرت أنه كان قد أخبرني أن 95% من العراقيين كانوا سعداء بوجود الأمريكيين هنا.

قال عمار: «يعيش كنعان على كوكب آخر، ليس لديه دليل، فهو يقود سيارته إلى المنطقة الخضراء ويعود منها إلى الفندق». كان عمار قد حاول أن يفتح عيني مكية، فقال له: إن عمال النظافة في بغداد يغنّون، وهم راكبون داخل شاحنات النفايات، إنهم يحبون النفايات. لكن مكية لم يصدقه.

أخذنا سيارة مصطفى وأسرعنا في الشوارع باتجاه الفندق، كان هناك حظر تجوال في الساعة العاشرة، ولم يكن لدينا كثير من الوقت؛ كان مصطفى يقيم في بيت أخته في حي خطر مناصر لصدام في غرب بغداد. كانت الشوارع مظلمة وشبه فارغة، ولم يكن هناك شرطة في أي مكان. كانت السيارات تقترب منا بأقصى سرعة، وكانوا يشكّون فينا كما كنا نشكّ فيهم. كانت سيارة شقيق مصطفى، وهي من طراز BMW قد أصيبت بطلقات نارية قبل عدة أيام، وهو يعتقد أن ذلك كان مقصوداً. «هل تعلم يا جورج، أن فدائيي صدام قالوا بالأمس إنهم سيقتلون الأشخاص الذين يعملون مع الأمريكيين. كان هؤلاء هم الإرهابيين شبه العسكريين الذين تدربوا على يد النظام السابق. «أنا أفكر في الموت كل يوم».

ظهرت واجهة الفندق الذي كنت أقيم فيه. فشعرت بالارتياح.

تمتم عمار في المقعد الخلفي: «أنا أقول جملة مراراً لزوجي، لا تخافي أبداً من صدام، بعد أن هزم في أذهان الشعب العراقي».



6

القصر

كان المقر الرئيس لسلطة قوات التحالف على بعد ميل تقريباً خلف بوابة الحشاشين، في آخر طريق مليء بأشجار الأوكاليبتوس، وأبنية حكومية دمرت نتيجة القصف، وحواجز إسمنتية، كان القصر الجمهوري محمياً ببوابة حديدية عالية ومواقع مدافع رشاشة محصنة بأكياس رملية، وهو مبنى مؤلف من طابقين على الطراز البابلي المفضّل لدى صدّام، وقد زُيّن مدخله بأعمال فنية على شكل نسور. وكانت تتصدر الواجهة أربعة تماثيل رمادية متطابقة بحجم عشرين قدماً لصدّام. وتحت هذا الإجلال الكبير الذي فقد معناه للقائد المخلوع، كان 1200 موظف من سلطة الائتلاف المؤقتة يعكفون على إدارة البلاد.

كان الدخول لرؤية أحد هؤلاء الموظفين، كما وصفه أحد مستشاري بريمر الأقدمين، «كالهروب من السجن في الاتجاه المعاكس». كان هذا في الأشهر الأولى للاحتلال، حين كان بوسع سائقي الحصول على إذن أمني للدخول إلى بوابة الحشاشين، بعد تفتيشنا نحن الاثنين بالإضافة إلى سيارتنا، حيث يقود بنا عبر الحواجز على الطريق إلى القصر، ويتبع الإشارات التي تحذره من القيادة بسرعة كبيرة، أو ببطء شديد، أو من التوقف لأي سبب وتحت أي ظرف، ثم يركن السيارة في بقعة كبيرة قذرة مليئة بسيارات الدفع الرباعي البيضاء اللامعة، التي لا تشبه سيارات بغداد. عبرت الطريق وتقدمت لتفتيش آخر، وتدقيق بالهوية من قبل جنود موجودين تحت سياج عشبي نبت بجانب البوابة الحديدية، ولكنني لم أدخل بعد: كان علي تحديد موقع الشخص الذي سأقابله في القصر. يمكن الاعتماد على هاتفي النقال (الثريا) فهو يعمل بشكل جيد في المساحات المفتوحة، ولكن الشبكة الخلوية التي أنشأتها شركة MCI لصالح الاحتلال في بغداد كانت ضعيفة التغطية، وكنت دائماً أتلقى صوتاً مسجلاً يخبرني بأن الرقم غير موضوع بالخدمة حالياً، ونظراً لصعوبة الحصول على موعد، فقد طلبت الرقم مراراً وتكراراً، وفي النهاية وفي أكثر الأحيان كنت أحصل عليه. بعد

مرور عشر أو خمس عشرة دقيقة -قضيتها في مراقبة أفواج من الناس ذوي مراكز متميزة، يمشون أو يقودون سياراتهم إلى القصر فقط بإبراز بطاقات هوياتهم- ظهر مرافقي من أحد المداخل تحت المنحوتات الفنية للنسور، ومر بجانب النافورة وحديقة الأوكاليبتوس وأشجار النخيل، لتحيتي وتقديمي إلى غموض الاحتلال.

كانت هذه مجرد البداية، بعد ذلك أصبح الموضوع معقداً جدًّا في أثناء السنة الثانية استمرت الأنظمة في التشدد، حتى لم يعد بمقدوري التحرك مسافة ميل واحد داخل القصر دون مرافق يحمل أعلى تصريح أمني.

يمكن المقارنة بين الدخول إلى القصر والخروج منه، فلا فرق بينهما: حيث على الموظفين الراغبين بمغادرة المنطقة الخضراء طلب مرافقة من عربتين عسكريتين، مما يستلزم التحضير قبل 48 ساعة، على افتراض أن الجنود وعربات (هامفي) متوافرة. بعض الموظفين لا يلتزمون هذه القواعد، لغرض إنجاز أعمالهم، ويخرجون بسيارات عادية دون مرافقة أمنية إلى (المنطقة الحمراء)، أو يمكن أن نقول العراق: بعضهم الآخر -وكان عددهم يتزايد بمرور الوقت- كانوا نادراً ما يغامرون بالخروج، وقد قابلت موظفاً بريطانياً من قوات التحالف، يعمل في مجال حقوق الإنسان، لم يغادر المنطقة الخضراء إلا ثلاث مرات في أثناء خمسة أسابيع، مع أن المنطقة الخضراء تعد جغرافياً في قلب بغداد، إلا أن موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة كانوا يعيشون في عزلة تامة.

لقد وصف هيوم هوران، وهو مستعرب وسفير متقاعد أعاده بريمر إلى الخدمة، «ليكون حيواني البدوي الأليف» في سلطة الائتلاف المؤقتة، ما تمثله مغادرة المنطقة الخضراء بعد حبس طويل فيها: «إنها مشكلة معرفية، ماذا يحدث في الخارج؟ أنت تتحسس الخبر فقط، وعندما تصبح في الخارج تعرف كل شيء على حقيقته، إن الأمر يبدو وكأنك تلبس إحدى تلك البذلات السوداء التي تمنع عنك الإحساس بما يحيط بك، ثم تسقط في الماء لترى ما يمكنك أن تشعر به».

كنا نجلس أنا وهوران، في قاعة من المرايا على أرائك خضراء موشّاة بخيوط ذهبية، تحت قبة رخامية ضمن المبنى الرئيس في القصر. (مرةً أخبرني قائد أحد الألوية أن أحد

أســوأ الأشياء التي يتصف بها البعثيون هو ذوقهم في الديكورات الداخلية، وقد كان القصر الجمهوري، وهو واحد من عشــرات القصور الرئاسية التي نادراً ما كان صدام يستخدمها، مفروشــاً كالقصور الأخرى بطريقة مبتذلة بشــكل كبير مأخوذة من تصميمات فيرساي).
وبينما كنا نتحدث، أنا وهوران، كان هاتفه الخلوي بجانبه يرن بلا انقطاع، لقد كان المتصل شخصــاً عراقياً على موعد مع هوران، وكان يواجه صــعوبة في معرفة الطريق الموصــل إلى القصر، وعبر سلسلة من المكالمات حاول هوران تحديد موقع الرجل، وتوجيهه باتجاه البوابة الرئيسة. وفي النهاية، جاء سكرتير هوران ليعلمه بأن الرجل موجود بجانب حائط أسود عالٍ في مــكان مــا لا يوجد فيه جنود، حينها أخبر هوران ســكرتيره «أظن أنه يجب تأجيل موعده اليــوم». كنت قد بدأت اعتياد هذا النوع من المعاملة، ولكن هذا المواطن العراقي القاطن في بغــداد، الذي ربما بذل جهوداً كبيرة للحصــول على هذا الموعد، ولكنــه يفتقر إلى المهارات اللغوية المناســبة، أو إلى الثقة التي تمكنه من الاستفسار من الأمريكيين المدججين بالسلاح عــن الطريــق، ربما عــاد في يوم آخر ونجح في تحقيــق هدفه، أو ربما كان هــذا إخفاقاً آخر للتواصــل في الأيام الأولى للاحتلال، حين كان العديد من العراقيين يحاولون لقاء الأجانب، الذيــن باتوا الآن يحكمــون بلدهم، حيث لن تكون هنالك على الأرجح فرصــة أخرى لذلك. راقبت وجه هوران -كان رجلاً متقدماً في السن، ذا عينين زرقاوين وبه بقع داكنة في وجهه، وشــعر رمادي كثيف، يرتدي صــندلاً وجوارب زرقاء قصــيرة تظهر كاحلين شــاحبين تحت بنطــال خاكــي اللون- عندما صــرّح بأن على الزائــر العودة إلى منزله، أنهــى المكالمة وعلى وجهه تعابير تدل على خيبة الأمل، وأذكر أني فكرت في أن ذلك بدا وكأنه سوء طالع.

كان حجم الغرف يوحي بأن الهدف الرئيس من إنشــاء هذا القصــر هو لتمجيد القائد أكــثر منه لإدارة شــؤون الدولــة؛ مقابل الصــالة الدائرية كانت هناك غرفة ســقفها ثماني الأضــلاع، عليها صور خيول كأنها صاعدة إلى الســماء، على الجدران المقابلة كانت هنالك جداريات إحداها تصــور صاروخ سكود ينطلق في السماء، والأخرى صورة المسجد الأقصى في القدس دون يهود، لقد تم تحويل الغرفة إلى معبد. عند الزاوية كانت هنالك قاعة أوسع، على مســاحة تماثل ملعب كرة الســلة التي أصبحت كافيتيريا يتناول فيها المئات من موظفي التحالــف وجباتهــم، مع أعمال فنيــة تمثل آشــوربانيبعل على موائد الطعــام. كانت مكاتب

الإدارة والاتصالات الإستراتيجية موضوعة في غرف الاجتماعات الكبرى ذات السقوف العالية، مع مكاتب الموظفين الظاهر نصفها من خلف الحواجز المنتشرة على مساحة هائلة من الأرض. ومع ازدياد حجم سلطة الائتلاف يتم تقسيم ممرات القصر بجدران مؤقتة لإقامة مزيد من المكاتب.

كان هنالك عدد من الموظفين البريطانيين في القصر، وبعض الموظفين من دول التحالف الأخرى، والأميركيين العراقيين الذين تم تنظيمهم من قبل البنتاغون قبل الحرب مباشرة، ومجموعة أمنية من الجنود النيباليين (غورخا)، ومدة من الزمن وحدة من الكاربيناري الإيطالية حول البوابة الرئيسة، يبدون أكثر أناقة بكثير من نظرائهم من البلدان الأخرى، بقمصان سوداء ونظارات شمسية وقفازات جلدية، بيد أنه ما من زائر للقصر قد خامره أي شك حول أي بلد كان مسؤولاً عن العراق؟، لقد كان التركيب بشكل ساحق من الأميركيين الذين كان نصفهم من المدنيين ونصفهم الآخر من العسكريين، مع رجال ونساء من وزارات الخارجية والخزانة والدفاع، والوكالات الأخرى، يرتدون ملابس مكاتب غير رسمية -بناطيل خاكي وقمصاناً زرقاء- مختلطين بجنود شبان في لباس صحراوي مموه، يحملون بنادق إم 16 فارغة معلقة في أكتافهم. وكانت هناك ملاجئ ضد القنابل تتضمن غرفاً. لقد شكل الامتزاج الجوهري بين البيروقراطية والحرب مشهداً غريباً. وقد وصف أحد مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة القصر بأنه مليء بأناس كانوا بيروقراطيين بوجوه كالفطائر (جمع فطيرة)، ذوي أوزان زائدة في منتصف العمر من دافعي الأوراق بمستوى متوسط، لكنهم جميعاً يرتدون دروعاً واقية للبدن وخوذاً، يالها من مسرحية! إنك في عالم متغير عجيب. فإذا خرجوا في زيارة روتينية، يتعين عليهم ارتداء الدروع الواقية، ومواجهة احتمال أن يمحوا عن وجه البسيطة».

وسط هذا الجو من البشاعة الغريبة، كان القصر عبارة عن خلية نحل من الأنشطة الهادفة. إن مقياس المكان قد قزّم سكانه من البشر، بحيث يتعذر ألا يشبههم الواحد بحشرات. وكان الجو على حد قول هوران: «يعج جدًّا بالشغل». وكان الأميركيون يدأبون دون توقف عن الطباعة على الحواسيب أو يسرعون جيئة وذهاباً على بلاط الرخام، أو يأخذون استراحات سريعة تحت أعمدة الغرانيت، يعملون حتى وقت متأخر من الليل على

مدار سبعة أيام في الأسبوع، بنوع من الطاقة المتفائلة التي تتناقض بشدة مع البلد المستنفذ القوى خارج الحدود الأمنية، الذي ألقي بهم فيه من الجو. لقد بدا السواد الأعظم منهم من الجمهوريين، وأكثر من قلة كانوا من الموالين للحزب أتوا إلى العراق بوصفهم سياسيين معينين في جولة مدتها تسعون يوماً. لقد كانوا من حداثة السن بما يثير الدهشة. فالكثير منهم لم يسبق لهم أن عملوا خارج البلاد قط، وقلة منهم الذين كانوا يعرفون أي شيء عن الشرق الأوسط، وفي ذلك الصيف الأول كان هناك ثلاثة أو أربعة أميركيين يتكلمون اللغة العربية. وكان بعضهم ببساطة غير مؤهلين لتحمل مسؤولياتهم. فقد أشرف شاب في الخامسة والعشرين من عمره على إقامة سوق بورصة بغداد، وساعد شاب آخر في الخامسة والعشرين من عمره، من مكتب الخطط الخاصة، في كتابة الدستور المؤقت، بينما كان يقوم بملء استمارة كلية الحقوق المنتسب إليها.

غير أنهم كانوا يؤمنون بما كانوا يحاولون القيام به، ألا وهو إعادة بناء العراق الديمقراطي. وكانوا يحاولون القيام بذلك تحت النار في بلد قطعت أوصاله شر تقطيع، بسلطة حاكمة أخذ المزيد، ثم المزيد من العراقيين ينظرون إليها على أنها غير شرعية. فقد أعلن مسؤول رفيع المستوى في الإدارة قائلاً: «لقد بعثنا بشباب ليست لديهم الخبرة، وكانوا فريقاً ينبض حماساً، وتملؤه الشجاعة للقيام بما قد يجده المحترفون، ممن علمتهم الأيام، تحدياً غاية في الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً. وعوضاً عن ذلك بعثنا بفريق ثالث أو رابع أو خامس»، وأقر واحد من «القلة المحنّكين» في سلطة الائتلاف المؤقتة قائلاً: «لا أحد منا كان يعلم ما الذي نقوم به على مستوى معين؟، حيث لم يكن لدينا ما يكفي من المعلومات الجيدة»، فالسواد الأعظم منهم لم يكونوا يعرفون ما الذي لا يعرفونه، لقد كانوا دائماً منتشرين على امتداد هش، ولم يكن يوجد منهم ألبتة ما يكفي، ولا ما يكفي من المركبات والهواتف والحراس الشخصيين والوقت والمال. كانت الرحلات خارج المنطقة الخضراء تلغى باستمرار جراء نقص الحراس المرافقين. ففي صيف 2003 كان موظفو سلطة الائتلاف المؤقتة أقل من 50% ولم ترتفع بتاتاً عن 70% وكان حجم العمل سريعاً للغاية، وكانت المعرفة التي يتم تحقيقها بصعوبة قصيرة العمر.

وفي شهر تموز الماضي قابلت ميغان أو سوليفان في القصر وقد عاشت تجربة غير سعيدة في ظل جاي غارنر، وأصبحت واحدة من مستشاري بول بريمر الرئيسين للمسائل السياسية. كانت ترتدي بنطال جينز وقميصاً أخضر بأكمام طويلة وكان على وجهها النحيل قليل من مواد التجميل، كما كان شعرها الداكن المائل للحمرة مربوطاً إلى الخلف، وأظافر أصابع أرجلها مطلية بالصباغ. لقد تولد لدي الإحساس بأن الاهتمام بالمظاهر كان جزءاً من الحفاظ على المعنويات. كانت تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم دون إجازات، حيث كانت تأوي إلى السرير نحو الساعة الواحدة صباحاً ويرن جرس هاتفها في الساعة السادسة. وقد قالت: «هناك القليل جدًّا مما يمكن القيام به للتسلية. لقد عاد بعض زملائها، الذين قدموا مع غارنر، أدراجهم بينما كان آخرون يوشكون على إنهاء جولاتهم غير أن أوسوليفان قد وقّعت بالموافقة على قضاء المدة على الرغم من أن ذلك كان يعني التخلي عن مركز في مجلس الأمن القومي. لقد أرادت أن ترى الصورة كاملة، حسبما قالت، وظنت أن بوسعها أن تحدث فرقاً في بغداد، أكثر مما يمكن أن تحدثه في واشنطن.

جلسنا في فراغ المعبد الذي يتردد فيه الصدى، وبابتسامة لا تنم على السرور، أخبرتني عن أحلامها؛ ففي أحد الأحلام رأت القصر مملوءاً بالدخان، وكان هناك إطلاق نار ولم تتمكن من إيجاد مخرج، وقالت لنفسها بهدوء: حسناً إن الوضع ينطوي على خطر، وربما أقتل. وفي حلم آخر ألقت بها طائرة طوافة من طراز (بلاك هوك) في وسط الصحراء، ثم أقلعت تاركة إياها وحدها، فاستيقظت من حلمها ذاك وهي تصرخ. قالت: «حينها حاولت أن أتذكر أين كنت» ثم أردفت تقول: «لقد كنت وسط الصحراء وحيدة». كانت تقيم في طابق علوي في فندق الرشيد على حافة المنطقة الخضراء. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت أكثر راحة من مقطورة، إلا أنها لم تكن مرتاحة في إقامتها هناك: تلقّت سلطة الائتلاف المؤقتة معلومات استخبارية بأن فندق الرشيد يشكل خطراً أمنياً. وفي صباح يوم باكر بعد ذلك بشهرين، في شهر أكتوبر / تشرين الأول، بينما كان وولفوفيتز يقيم في فندق الرشيد تعرض الفندق للقصف بستة صواريخ. وقد أغلق باب غرفة أو سوليفان جراء قوة الانفجار وحرارته، وبدأت الغرفة تمتلئ دخاناً كما شاهدت في حلمها، عندما هدأ ضجيج الطائرة ومضى طاقم الإنقاذ، ولم يأتِ أحد لإنقاذها، فتسلقت من نافذتها في الطابق العاشر إلى

حيز بيتوني متدلٍ، وشقت طريقها عبر النافذة المقبلة التي صادف أن كانت مفتوحة، فأنقذت نفسها. بحلول الساعة الثامنة والنصف صباحاً كانت على مكتبها تعمل على طلبات بريمر من واشنطن.

لقد استغرق عمل السياسة رفيعة المستوى لسلطة الائتلاف المؤقتة سوليفان بالكامل، ومع ذلك ظل جزء من ذهنها مفتوحاً على الشك الذي من شأنه أن يضغط على أي شخص جيد. في بداية الأمر كان العراقيون يقتربون منها في الشارع؛ كي يعربوا عن شكرهم لها لتحريرهم. وقد وجدت -وكان من الصعب عليها الاعتراف بذلك- أنهم كانوا يريدون أن تعطى لهم التعليمات، وكان فريق غارنر قد ارتكب خطأً فادحاً بمحاولة عدم التصرف كالحكام. فقد استمرت أعمال السلب وفراغ السلطة في الأيام الأولى بتقويض عمل الاحتلال من أصغر التفاصيل اللوجستية إلى السؤال الكبير حول: هل كان العراقيون سيؤيدون المشروع الأميركي؟، وهل كانت أميركة قادرة على بناء أمة على هذا المقياس؟ أم هل ينبغي أن يتسلم العراقيون المسؤولية؟ مع ذلك، كانت المؤسسات العراقية، في طورها الجنيني، التي كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تحاول إقامتها دائماً على حافة الانهيار.

في اليوم الذي سقطت فيه سايغون بأيدي القوات الفييتنامية الشمالية في عام 1975، وجد الكاتب البريطاني جيمس فينتون قولاً مقتبساً معلقاً ضمن إطار على حائط السفارة الأميركية التي أخليت وسلبت، مفاده: «من الأفضل أن تدعهم يقومون بذلك بشكل غير تام بدلاً من أن تقوم به أنت بشكل تام؛ لأن هذا بلدهم وطريقهم، ولأن وقتك قصير». كانت الكلمات مقتبسة من تي. إي لورانس.

كوّن إخفاق الأسبوع الأول واستبدال بريمر بغارنر رؤية جديدة للدور الأميركي في العراق. ومنع البنتاغون تدوين خطة إستراتيجية جديّة، والآن بدأت سلطة الائتلاف المؤقتة تحت إمرة بريمر بالتخطيط بقوة، مجبرة البيت الأبيض والبنتاغون بشكل أساس على المضي بالمبادرات التي اتخذت في بغداد. وكانت سلطة الائتلاف ستملأ جميع الفراغات التي تركها منظّرو الحرب في واشنطن الذين تخيّلوا أن الحرية والديمقراطية ستظهران في العراق بشكل عفوي، وشملت الخطط الجديدة أهدافاً وجداول زمنية لتدريب قوات

الأمن العراقية، وكتابة الدستور، وإنشاء هياكل الحكومة الجديدة، والإصلاح الاقتصادي، والإصلاح القانوني، وإصلاح التعليم: لا شيء أقل من إصلاح شامل للمجتمع العراقي، من القمة إلى القاعدة، يبلغ ذروته بعودة السيادة في تاريخ غير محدد.

وقد وصف براد سوانسون -وهو مصرفي يعمل في مجال الاستثمارات، وصل إلى بغداد بعد أشهر للعمل في سلطة الائتلاف الموحدة في مجال التنمية الاقتصادية- الوضع بهذه الطريقة: «في البداية كانت هناك مرحلة الاستبداد، ثم مرحلة الاستكبار. كانت مرحلة الاستبداد تُجرى برجال وخطط وموارد غير كافية، لتزيل الطبقة العليا من القيادة، وتسيطر على دولة تعمل، وتخرج في غضون ستة أسابيع، وتحصل على أموال النفط لدفع تكاليفها. نحن جميعاً نعلم أنها لم تنجح لأسباب عديدة. لذا فإنك تنتقل إلى مرحلة الاستكبار: فقد تم صفعنا على وجوهنا، وهذا أخطر مما ظننا، وأطول أمداً، وأكثر تكلفة. لذا فسنهاجمه بكل ما لدينا، سنرمي عليه بمليارات من الدولارات، ولكي نأخذ العراق للمستقبل بأمان فعلينا أن نقوم بتغيير جذري للبلاد حسب نظرتنا». أضاف سوانسون: «لقد بدا الموقفان كطرفي نقيض، لكن كان بينهما أمر مشترك. فكلاهما تصوري وعقديّ وهما ليسا ردوداً براغماتية لفهم مفصل للحقائق على الأرض».

بمثل هذا التعهد الطموح واجهت سلطة الائتلاف الموحدة، ولم تواجه بأشكال أخرى مفارقة لا يمكن تفاديها، كان الأميركيون يحاولون إعادة بناء العراق بطريقة تسمح للعراقيين أول مرة في تاريخهم بأن يقرروا مصيرهم بأنفسهم، لكن إذا بقيت السلطة والمال والسلاح والأفكار بيد الأميركيين كيف يمكن لجميع الخطط أن تؤدي إلى سيطرة العراقيين؟

في الطابق الثاني من القصر، حيث كانت مكاتب كبار مستشاري الوزراء، كان درو إيردمان يحاول التفاوض على المفارقة كل يوم وقد أعياه الجهد. كان الناس الذين بالكاد يعرفهم يقولون له: «إنك تبدو مرهقاً» وكان مزاجه أسوأ مما كان عليه في أي يوم مضى.

قال إيردمانك: «إن الشيء الذي أكافحه باستمرار، وهذا هو الجزء الأميركي منك، ولست أعلم: هل كانت تلك صفة وطنية أنك تريد تماماً أن تنجز الأمور. بيد أنه لا يمكنك

بالطبع مواصلة القيام بذلك، وليس بوسعك مواصلة فعل ذلك من أجل أولئك الناس. ويتعين عليك أن تدعهم يخفقون في بعض الأحيان، وأنت تعلم أن ذلك سيحدث». وأعطاني مثالاً: ففي اجتماع مؤخراً حول الميزانيات طلب أحد رؤساء الجامعات مضاعفة حجم قسمه في أثناء الأشهر الستة المقبلة. «في حالة وصلت فيها البلاد إلى هذا. ماذا تعتقد؟ أي لماذا حتى.... على أي كوكب أولئك الناس؟ إن الأمر يصل إلى حد يتحدى المنطق. فلا يمكن لأي كان في العالم إلا أن يضحك من ذلك. ولكن يتعين عليك القيام بذلك». فبهذا العدد الكبير من الناس ذوي المستوى العالي من التعليم والمهارة الفنية في العراق استنتج إيردمان أن عدم الكفاية الإدارية ينبغي أن يكون نتاج الآثار المهلكة للعيش في هذه الدولة الاستخبارية الذي أنهك الناس لهذه الدرجة».

قرر إيردمان منذ البداية أن يضع أكبر قدر ممكن من السلطة بيد العراقيين. ففي شهر أيار، بعد أن أقنع كل رؤساء الجامعات، المعينين في ظل عهد صدام أن يستقيلوا، ثم أعلن إيردمان أن اختيار البدلاء سيتم في انتخابات علنية تجريها الكليّات، ولم يتوصل إلى هذا القرار إلا بعد نقاش مكثف ضمن سلطة الائتلاف المؤقتة، وفريقه المكوّن من العراقيين بمعظمه، وهو نفسه. قد تكون تلك العملية من بين أولى الانتخابات في العراق، وخشي بعضهم في واشنطن وبغداد أن البعثيين والمتطرفين الدينيين قد يتمكنون من سرقة أي انتخابات. بيد أن إيردمان خلص للاستنتاج أن منح الثقة للكليات العراقية، وإن لم يخلُ الأمر من المخاطرة، كان أفضل خيار متوافر. فمع استحالة الاتصالات تقريباً في أجزاء كبيرة من البلاد لم تكن لدى سلطة الائتلاف المؤقتة فكرة حول المرشحين الأفضل. كان ذلك هو السبب العملي. وكان السبب الرئيس هو جعل العراقيين ينخرطون بسرعة، وجعلهم يشعرون أن عهداً جديداً قد بدأ حقًّا. وعزم إيردمان على أن يستقيل إذا اعترض المدير الواصل حديثاً على الفكرة؛ لأن مصداقيته لدى المربين العراقيين تكون قد ولت منذ البداية. لكن الانتخابات مضت قدماً بدعم من بريمر في منتصف أيار.

في 17 أيار اجتمع سبع مئة عضو هيئة تدريسية من الكليات في مسرح جامعة بغداد بجوه الحار، بوجود فريق محطة CNN والجزيرة ووسائل إعلامية أخرى. وقف إيردمان في

بذلته الصيفية والعرق يتصبب منه ليدلي بكلمة قصيرة إيذاناً بالافتتاح. فقال: «لقد حان الوقت كي نشهد تغيراً رئيساً وتحريراً للمؤسسة الأكاديمية من النظام القديم». واستطرد قائلاً: «وتعيين قيادة جديدة تكون جزءاً من ذلك. لقد حصل تغيير في نظام الحكم، وهذه فرصة كبرى للإتيان بعهد جديد». ثم تنحّى جانباً؛ كي يتيح الفرصة للعراقيين لتسيير عملية الترشيح والمراقبة والتصويت وعد الأصوات، وكان الفائز الدكتور سامي مظفر، وهو كيميائي حيوي، يحترمه الجميع؛ لنزاهته في ظل حكم صدام.

وفي كلية طب الأسنان، أصر الطلبة على حضور التصويت. فعارض إيردمان، حيث أرادت المجموعات كافة التجمع في القاعات والتأثير في النتيجة، ثم وافق على إدخال طالب واحد بصفة ضيف. وجرى التصويت بطريقة الاقتراع السري، وبينما كانت الأصوات للمرشحين اللذين يتصدران النتائج تدون على السبورة في قاعة المحاضرات التي كانت تعج بالحضور بدأ الطالب الذي يقف بجانب إيردمان بالصراخ. لم يسبق له أن رأى شيئاً من هذا القبيل. ثم قال: «هذه استجابة لصلواتي» وأردف قائلاً: «لقد صلينا من أجل أن نرى ذلك يتحقق».

لقد قامر إيردمان وربح. كانت هناك شبكة أمان -فإذا قامت كلية باختيار لا توافق عليه سلطة الائتلاف المؤقتة يتم شطب اسم المرشح- لكن السماح بحرية الاختيار، ثم التدخل قد يكون أسوأ من عدم السير في ذلك الطريق مطلقاً (وقد حدث ذلك في بداية الاحتلال عندما قام قادة البحرية في النجف بتنظيم انتخاب لحكومة محافظة، فما كان من سلطة الائتلاف المؤقتة في بغداد إلا أن قامت بإصدار أمر إيقافها في الدقيقة الأخيرة. مما أثار غضب أهل النجف وتساؤلهم حول التزام الأميركيين الحقيقي بالديمقراطية). وكانت المفاضلة بين السيطرة والشرعية هي المعضلة المتكررة عند قرار لسلطة الائتلاف المؤقتة، وكانت العشرات من القرارات تُتخذ كل يوم من قبل بشر غير معصومين، وكان كل من تلك القرارات يدفع بالمشروع في هذا الاتجاه أو ذاك. قال إيردمان: إن العراق لا يزال سائلاً ولا يزال كالبلاستيك الليّن، لكنه سيقسو قريباً. كانت المطالب النفسية للاحتلال رهيبة. وقال: «إن الأمر يحتاج لحسن المحاكمة. بعض الناس يمكن أن يبحروا وبعضهم لا. وبعض الناس يمكن أن يرتكبوا خطأ ثم يقوّمونه، بينما لا يستطيع غيرهم فعل ذلك. ويتعلق الكثير من ذلك بحكمة الناس وتعقلهم وحسن حكمهم على الأمور».

اتجهت قراءات الأميركيين في وقت راحتهم في العراق نحو المقايسات غير السارّة، حروب العصابات، والسلام غير المتقن، المحقق بطريقة خرقاء. كان الكولونيل وليام غريمسلي، قائد لواء مشاة، يقرأ كتاب War of Peace A Savage / حرب سلام وحشية، وهو دراسة لأليستار هورنيه عن الصراع الفرنسي الجزائري: «هناك كثير من أوجه الشبه مع هذا المكان». وفي خيمة جوردام بيكر، وهو ملازم في الرابعة والعشرين من عمره، في كركوك، كان هناك رفّ عليه عدة كتب حول التاريخ الكردي والعراقي، وكتاب عن الحرب الأهلية الجزائرية في الآونة الأخيرة، وكتاب Four Hours in My Lai / أربع ساعات في ماي لي. كما غاص درو إيردمان في كتاب دافيد فرومكين A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East / سلام ينهي كل السلام: انهيار الإمبراطورية العثمانية، وإنشاء الشرق الأوسط الحديث، وكذلك رواية مينارد كينيز حول مؤتمر سلام باريس عام 1919. لم يكن لدى أحد في سلطة الائتلاف المؤقتة الكثير من الوقت للقراءة أو حتى للتفكير.

في الطابق الأول من القصر، مقابل القبة المستديرة، بعد كاشف المعادن والحراس الشخصيين، كان مكتب بول بريمر الطويل وعالي السقف مليئاً برفوف الكتب التي كانت شبه خالية عندما قمت بزيارته. كان على أحد الرفوف كتاب Leadership / القيادة لرودولف جيولياني، وكتاب عن إدارة الأزمات المالية على رف آخر. وكان على مكتب بريمر كتاب قرب قطعة من الخشب محفور عليها عنوانه «للنجاح ألف أب». تقارير حول عراق ما بعد الحرب، وكان على طاولة القهوة كومة من الخرائط: شبكة الطاقة في العراق والمناطق الإدارية والخطوط الحديدية. كان بريمر في الحادية والستين، وكان له شعر كثيف وعينان صبيانيتان وفك عنيد كفك كندي، كان رجلاً منضبطاً بدرجة حرارة لا تتغير.

لقد سبق له أن عمل مسؤولاً في مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية، وسفيراً لدى هولندة، ثم أصبح المدير العام لمؤسسة هنري كيسينجر الاستشارية. وكان بريمر أيضاً «من المؤسسين الجمهوريين» محافظاً جدّاً. وقد شكلت تلك الخلفية مزيجاً ممتعاً ضلل الفئات البسيطة من المحافظين الجدد والواقعيين في واشنطن، في وزارتي الدفاع والخارجية. فقد كان مقبولاً لدى الوزارتين، بيد أنه كان تحت إمرة وزير الدفاع، وكان في البداية ينفذ

سياسات نشأت في البنتاغون. وكان يتحلى بالدافع والطاقة، ولا تنقصه الثقة بالنفس. وعلى الرغم من أنه اعترف في جلسة خاصة قبل أن يغادر إلى بغداد أنه كانت لديه تساؤلات حول الحكمة من الحرب، إلا أنه اتجه نحو إدارة العراق بوصفه مدير شركة متطلباً يصر على النتائج السريعة والقابلة للقياس من موظفيه، وكان يكره المفاجآت والنكسات متصوراً أن بوسعه أن يتغلب على المحَن بقوة شخصيته. وصفه الأشخاص الذين عملوا معه بأنه رئيس شديد جدًّا -وقال أحدهم عن نفسه: إنه «تطبع بطبع بريمر» في الاجتماعات- وقد حاولوا جاهدين كي يجعلوه سعيداً حين لم تكن الحقائق تضمن ذلك.

وصل بريمر في 12 أيار، ولم يكن يعرف عن العراق شيئاً تقريباً، وقبل وصوله إلى بغداد بأربعة أيام اتخذ بريمر ثلاثة قرارات مهمة جدًّا. فقد أقدم على حل الجيش العراقي، وطرد البعثيين ذوي المناصب العليا من الخدمة المدنية، كما أوقف تشكيل حكومة مؤقتة. لكن أي مبعوث أكثر حذراً كان يأتي إلى العراق ويتحدث إلى عدد من العراقيين قبل الإقدام على اتخاذ خطوات بعيدة الأثر كهذه. وصل بريمر في خضم انهيار عام، ولم تترك تحركاته الأولى أي شك في أنه أضحى الآن من يتحكم في مجرى الأمور، بيد أن قراراته غيّرت أو عكست السياسات التي وضعت بتهور، وأقرّها الرئيس قبل وقوع الحرب بأسبوع، وكذلك القرارات التي كان غارنر يرتجلها على الأرض. وعندما اعترض غارنر على عمق اجتثاث البعث رفض بريمر تعديل الخطة وقال: «لدي تعليماتي». وقد عكست القرارات بشأن حزب البعث والجيش الآراء التي كانت لدى المحافظين الجدد في الإدارة (وكذلك الجلبي) في حين أن تأجيل الحكومة المؤقتة وقتاً غير محدود كان بمنزلة لعنة حلّت بهم. وهكذا أطلقت سلطة الائتلاف المؤقتة بخليط من التحركات المرتجلة التي لم تعكس إستراتيجية وكالة واحدة، ولم تعكس أي إستراتيجية مدروسة، لم تعكس إلا تأكيداً متأخراً للسيطرة الأميركية. وقد قال الناس الذين عرفوا بريمر: إنه لم يكن ليقبل ذلك العمل شبه المستحيل لو لم يضمن أن لديه نطاقاً واسعاً من الحرية للقيام به بالشكل الذي يراه مناسباً، كان في ذلك كما في كل شيء آخر نقيضاً لسلفه.

قال لي لاحقاً جاي غارنر الذي سلّم مقاليد الأمور لبريمر: إنه استيقظ صباح يوم السبت 17 أيار ليجد ثلاث مئة أو أربع مئة ألف من الأعداء، ولم يجد عراقياً واحداً في الحكومة».

كانـت طريقة غارنر تتجلـى في التخلص بأقل قـدر ممكن من النظام القـديم، بإزاحة حفنـة مـن كبار البعثيين الذين كانوا يشـغلون المناصـب العليا، ومحاولة العمـل مع الباقي. وكانت الفكرة، كما ذكرت بربارة بودين، تقضي بقبول أي واحد من أصحاب الكفاية الذين لم تتلطـخ أيديهـم بالجرائم أو الفسـاد. وقد أدى ذلـك إلى بعض الإحراجـات؛ كما حدث عندما اختير أحد البعثيين لمنصب وزير الصحة، فقام الأطباء باحتجاجات، ورفض الوزير أن يتـبرأ من الحزب. بيد أن الأميركيين كانوا يخطون بحذر، حتى جاء بريمر بأمر اجتثاث البعـث في 16 أيـار ومنـع الطبقات الأربـع العليا كاملة مـن العمل في الخدمـة المدنية حتى مسـتوى الفرقة، أي أولئك المسؤولين عما يصل إلى خمسـين من الأعضاء الأقل رتبة، سواء كانوا متورطين في جرائم فعلية أم لا. وقد لا يقل عن خمسـة وثلاثين ألف موظف، معظمهم من السـنة، من طبقة الموظفين بمن فيهم آلاف المدرسـين والموظفين من المسـتوى المتوسط، وظائفهم بين عشـية وضـحاها، وأصبح المسـؤولون الأميركيون الذين بدؤوا بإقامة علاقات مـع العراقيين في الوزارات والمكاتب الأخرى فجأة دون شـركاء. وقد سـمح الأمر للعراقيين بالتقدم بطلبات اسـترحام وإعادة الحصول، من حيث المبدأ، على وظائفهم، غير أن سلطة الائتلاف المؤقتة لم تكن مهيأة لسماع الشكاوى بسرعة كافية؛ لتحول دون دخول آلاف النـاس عالم النسيان وبقائهم دون منصب أو أجر.

قال لي أحد كبار مستشاري بريمر: «يحب بريمر أن يقول: إن هذا كان أكثر قرار اتخذه شـعبية، وأظن أنه مصـيب»، ثم أردف يقول: «غير أن الذين كان له شعبية بينهم كانوا معنا مـن قبل. أعتقد أن تلك القاعدة صـلبة، فإذا أردت القدوم وإصـلاح الأمـور عليك أن تأتي دون حقـد على أحـد، وأن تبادر الجميع بالخير. عليك اتخاذ طريقـة كطريقة لنكولن. قال لي الناس في الفلوجة: «كنا سـعداء عندما أطحتم بصـدام، لكن ما قمتم به بعد ذلك هو ما أغضبنا. لقد كانت طريقتنا خاطئة برمّتها».

كان البديـل يمكـن أن يكـون محاكمة البعثيـين المتهمين بارتـكاب الجرائم، والقضـاء على الفسـاد، وعـدم الكفاية حالة تلو أخـرى، والاحتفاظ بالباقين، وتشـكيل هيئة للحقيقة والمصـالحة على صـعيد البلد كاملاً سـيراً على خطى تجربة جنوب إفريقية. لكن اجتثاث البعث كان الموضـوع الثابـت للمجموعات العراقية المغتربة وحلفائهـم في البنتاغون. وكانت

السابقة الواضحة هي اجتثاث النازية في ألمانية. ومع ذلك حتى التقرير حول الانتقال للديمقراطية في العراق لم يقترح أي شيء بعمق الأمر الذي أصدره بريمر؛ فقد ركز كنعان مكية في المقام الأول على الحاجة لتطهير المجتمع العراقي من العقيدة البعثية الذي من شأنه أن يكون مشروع سنوات عديدة. وقد أبلغني دوغلاس فيث أن سياسة قطع أربعة مستويات في هرمية الحزب قد نشأت في البنتاغون، ورأى بعض المراقبين أيضاً يداً لأحمد الجلبي الذي سرعان ما ربح السيطرة على هيئة اجتثاث البعث، واستخدمها للضغط على خصومه السياسيين.

التقيت في كركوك بشمال العراق أباً لتسعة أبناء، ومعه كؤوس وزجاجة كولا، اسمه عثمان علي صديق. وكان يعمل مشرفاً فنياً على الحريق والسلامة في شركة نفط، حتى تركه أمر بريمر عاطلاً عن العمل، وكانت السنوات الثماني والعشرين التي قضاها في خدمة الشركة أقل أربع سنوات من خدمته لحزب البعث الذي ترقّى فيه لمستوى جعله مسؤولاً عن الاحتفاظ بقوائم مئتي أسرة. وقال يومها: «إن لكل بلد نظامه الخاص به. وفي العراق كان حزب البعث». ووصف عمله في الحزب بأنه نوع من أداء واجب مدني، كمن يؤدي خدمة في مجلس النوّاب، ولم ينل شيئاً لقاء آلامه سوى طرده من الوظيفة، كما ذكر. لم يقدّم في حياته تقريراً سيئاً بحق أي كان؛ ولم يَرَ أي دليل على جرائم البعثيين. «ما سمعته عن هذه المقابر الجماعية هو أن عمرها آلاف السنين». ولم يعد لديه سبيل لتأمين قوت عائلته الآن إلا العمل سائق أجرة. وأشار إلى أنه لو كان أصغر سناً لحمل بندقية وحارب ضد الاحتلال، فلم يكن أحد في مستواه الحزبي نظيف اليد. بدا أمر اجتثاث البعث محصّناً. وكانت تلك الأمور أكثر وضوحاً قبل اندلاع أعمال التمرّد، وبدأ منتقدو بريمر يشيرون إلى أمر 16 أيار على أنه قرار أدى إلى تفاقم الوضع. كانت سياسة المحتل الظن أنه لم يكن بحاجة للقلق بشأن استعداء الناس. وكان درو إيردمان يحب القول: إن السياسة الخارجية الأميركية بأفضل أحوالها كانت تتبع القول المأثور بأن الشيء الصحيح هو الشيء الحكيم، وفي العراق كان القيام بذلك يزداد صعوبة أكثر، فأكثر.

كان إيردمان الذي تعين عليه طرد ألف وسبع مئة أستاذ وموظف جامعي بعثي من وظائفهم يرى التشبيه بوضع ألمانية ملائماً. وكان يغضب من أي فكرة بأن الحرية الأكاديمية قد تكون

على المحك، وقال: «في حزيران 1945 لم تكن لتناقش بشأن شرعية العقيدة النازية وشرعية الحزب النازي وأنت جالس في ألمانية»، واستطرد يقول: «ليس ذلك أكاديمياً! لم تمضِ إلا عدة أشهر، ومازال الناس يعيشون بجوار بعضهم، ومازالوا يعملون بجوار بعضهم، ومازالوا في الحرم الجامعي، ها هم مازالوا في الديار ومازالوا يهدّدون».

أوضح إيردمان تأييده لاجتثاث البعث، حين أخبرني عن مكافأة صدام. فعلى مقياس جرائم الدكتاتور لم تكن مكافأة صدام إلا عملاً وحشياً بسيطاً. بموجب نظام القبول في الجامعة العراقية كان الطلبة يصنفون حسب علاماتهم في الامتحان، مع قيام الآلاف بالتقدم بطلبات قبول لعدد محدود من الكراسي، حيث كانت بضع درجات تجعل الأمر جدّ مختلف. كانت مكافأة صدام تمنح خمس درجات إضافية لطلبة الشهادة الثانوية الذين يتزوجون من أرامل الحرب الإيرانية العراقية، وغالباً ما كانت تلك الأرامل ضعف أعمار من يتزوجونهن. قال إيردمان: «هذه ليست إلا بداية لهذا المثال اللعين»، وكان آخر وزير للتعليم العالي في ظل نظام حكم صدام قد سحب علامات من بعض من قدّموا طلبات بعد أن قرّر أن الزيجات كانت تنطوي على الاحتيال». وقد راجعني أولئك الشبان على أمل استرجاع درجات مكافآتهم»، قال إيردمان باستغراب. «أنا رجل التحالف الأميركي! إنهم يظنون أنني سأعطيهم علامات مكافآت صدام عن زواج مزيف؟ ممن رمّلتهنّ الحرب؟ هذا هو مثالي عن كيفية التسلل بطريقة تنطوي على الحيلة، وعليك أن تضرب ذلك بأعداد كبيرة كي تفهم العمق الذي وصل إليه الأمر، وكم كان مظلماً وملتوياً».

كان حلّ الجيش أصعب تسويغاً، حتى في ذلك الحين، وكان يُنظر إليه على أنه إحدى كوارث الحرب. فبجرّة قلم ترك بريمر مئات الآلاف من قوات الجيش العراقي في الشارع دون عمل لهم أو أجر، ولا يمكن أن تقوم بهذا الأمر إلا قوة محتلة تأكدت من هزيمة عدوها. ولم يكن لهذا الأمر شعبية لدى ضباط الجيش الأميركي الذين لم يجدوا صعوبة في إدراك العواقب الإستراتيجية في بلد كانت البطالة فيه تزيد على 50%.

وقد قال دوغلاس فيث وآخرون غيره فيما بعد: إن الجيش العراقي سبق أن سرّح نفسه قبل وصول القوات الغازية، عندما ذهب الجنود إلى بيوتهم بدلاً من أن يذهبوا إلى القتال.

أما أمر حلّ الجيش فقد جعل الأمر رسمياً فقط. قال لي وولتر سلوكومب، وهو ديمقراطي كبير من القلائل في سلطة الائتلاف المؤقتة كان بمنزلة فيث لدى كلينتون، وهو الذي طلب منه فيث إعادة بناء الجيش العراقي بعد الحرب: «لم يبقَ هناك أي جيش. وكان افتراضنا بأن تكون لدينا وحدات رئيسة سليمة افتراضاً خاطئاً. ترى ما الذي سنفعله؟ لم يكن ثمة ما نقرّره». وربما كان من الاستحالة والحماقة بمكان كذلك إعادة الوحدات إلى الخدمة. حسب قول سلوكومب، فمعظم المجندين الشيعة كانوا سعداء في أن يمضوا إلى بيوتهم، وألا يتم استدعاؤهم لا حباً أو طمعاً بالمال؛ كما أن جيشاً عراقياً مكوناً من بقايا قوات معظمهم من السنة من شأنه أن يدفع بأغلبية العراقيين للانخراط في صفوف المعارضة.

في الأسبوعين الأولين من أيار كان الكولونيل بول هيوز، رئيس التخطيط لدى غارنر، مجتمعاً بمجموعة قوامها ثمانية جنرالات عراقيين وعقيدين لتنظيم توزيع أجور قدرها عشرين دولاراً لكل من الجنود العاديين. وقد اجتمع هيوز بالضباط العراقيين في نادي ضباط الحرس الجمهوريين، وهو عبارة عن بناء زجاجي أنيق جرى نهبه بصورة جزئية. كان العراقيون الذين تبقوا من الجيش المهزوم يرتدون المعاطف وربطات العنق، ويبدو عليهم القلق. وقال هيوز: «كانوا يعلمون أنهم في قبضتي، وقد أخبرتهم أن مستقبل العراق ملك لأطفالهم، وقد اتضح لي أنهم لم يكونوا ضباطاً يكنّون الولاء لصدام حسين، وإلا لما تحدثوا إلي. فقلت لهم: (الأحرى بكم يا رجال، ألا تكونوا بعثيين؛ لأنكم إذا كنتم بعثيين فسأنال منكم) . كان العراقيون يريدون أن يتعاونوا وبعد أربعة اجتماعات كانوا قد جمعوا أسماء مئة ألف جندي. أحس هيوز بمستوى من الثقة في حسن النية الأميركية. وبدأ يعمل على تأمين المال في سلطة الائتلاف المؤقتة. ولم يبدُ أن أحداً في واشنطن كان يهتم بالأمر بشكل أو بآخر.

قال لي هيوز: «كل من قام بعمل بعد النزاع يقول: لا تتخلصوا من العسكريين، بل عليكم السيطرة عليهم، فلا تدرون ما الذي سيفعلونه إذا لم تسيطروا عليهم. طالما أننا دفعنا لهم عشرين دولاراً كانوا سيرقصون لنا».

في منتصف مايو/أيار عاد هيوز إلى الوطن في إجازة قصيرة لحضور تخرج ابنته في الجامعة. وقبل عودته إلى العراق بيوم واحد فتح التلفاز، وسمع خبر حلّ الجيش العراقي

دون دفع شيء للجنود. وبعد عودته للقصر الجمهوري أتى ثلاثة ضباط من المجموعة التي كان قد اجتمع بها في نادي الضباط لمقابلته. نزل هيوز كي يقابلهم في البناء الدائري: «لم أستطع أن أنظر إلى وجوههم. شعرت بالخزي تماماً، وبأنني فقدت الثقة في نظرهم». فأكّد لهم هيوز بأنه سيحاول بطريقة ما إيجاد طريقة لتغطية الرواتب. شكره العراقيون». لقد كانوا حقًّا لطفاء بكل ما في الكلمة من معنى، وذلك ما قطّع قلبي، حيث إنني بنيت الثقة مع أولئك الرجال، واتخذ أناس خطوات لتخريب تلك الثقة».

فيما يتعلق بهيوز كان حل الجيش العراقي منعطفاً حاسماً للوجود الأميركي في العراق، حيث قال: «من وجهة النظر العراقية أودى ذلك العمل البسيط برمز السيادة الوحيد الذي بقي لدى الشعب العراقي. عندما تجاوزنا الحد، لم نعد محررين، وأصبحنا محتلين». وأرغمت أعمال شغب قاتلة قام بها الجنود المنبوذون في بوابة الحشاشين سلطة الائتلاف المؤقتة على البدء بالدفع لأولئك الرجال الذين طردتهم.

صدر كلا الأمرين من البنتاغون، على الأرجح من مكتب نائب الرئيس. كان قرار بريمر بحلّ مجموعة القيادة العراقية التي كان غارنر ينظمها، وبتجميع المزيد من السلطة بيده وبيد سلطة الائتلاف المؤقتة مبادرة منه شخصياً. وحين ساء الاحتلال أخذ المحافظون الجدد داخل الإدارة وخارجها يتّهمون بريمر بأنه هو المسؤول، وقالوا: إنه لو تم اتباع فكرتهم في وضع المغتربين بقيادة الجلبي في السلطة مبكراً لما أصبحت أمريكة محتلاً غير مرغوب فيه. والعيب الأساس بين العيوب الكثيرة لهذه المناقشة هو أن كل ما فعله بريمر كان بموافقة رامسفيلد الذي طالب بتولي أمور العراق ما بعد الحرب. وقال مسؤول كبير كان مشاركاً في التخطيط لحرب العراق: «إنه لأمر مضحك تماماً أن يقول شخص في مكتب رامسفيلد: «آه لو أوكل الأمر لنا. لقد كان الأمر بأيديهم بالفعل. وذلك هو الوجه الآخر للعملة. لقد حول بريمر نفسه بشكل متزايد إلى نائب ملك مسؤول أمام الله فقط، وحملته نزوة السيطرة على المضي في ذلك. إنه أمر مذهل».

بحلول منتصف الصيف كان بعض مساعدي بريمر يقرون سرّاً بأن الأوامر لم يتم التفكير فيها بروية. وقد قال أحد كبار المستشارين عنه: «لقد كان شخصاً ديناميكياً جدًّا ورجلاً قادراً ومخلصاً جدًّا، لكنه كان على عجلة من أمره، وكان يتخذ قراراته بسرعة».،

كما رأى المستشــار أن أصول التمرّد تكمن في بعض تلك القرارات. «مع مرور الزمن خلصنا جميعاً للاعتقاد أننا كنا نوجد أعداءً لنا في العراق. وباعتقادي الشخصي، إن التمرّد المسلح في العراق كان نتيجة لتلك الأخطاء الأولى في السياسة؛ حيث أخفقنا في إيقاف أعمال السلب كما أخفقنا في إنشــاء سيطرة ثابتة بســرعة، فضــلاً عن أن القرارات الأولى التي اتخذها بريمر عند وصــوله أغضــبت العراقيين». أما بريمر فلم يعترف بأي من هذا. لقد لفت نظر الزائرين من واشــنطن ثقته المطلقة بنفســه، لقد كان واثقاً في نفسه أكثر من اللازم، وكان يعتمد التكهن إلى حد كبير؛ لأنه لم يكن يعرف البلد، وكان محاطاً بمستشــارين ليســوا أكثر اطلاعاً منه، كان يتخيل أن العراق كألمانية ما بعد الحرب أو أوروبة بعد الشــيوعية، ومضــى في خططه قدماً لتطبيق المعالجة بالصــدمة الاقتصادية وخصخصة صناعات الدولة، على الرغــم من معدلات البطالة المرتفعة، وينفذ الرؤية العقديَّة كأن الإرادة والتصــميم هما ما يهــم. وبانتهاء ولاية ســلطة الائتلاف المؤقتة قال سياســي عراقــي كان على معرفة ببريمر: إنه بدأ يفهم أخطاءه المبكرة، ومع مرور الزمن أصــبحت قراراته أقل عقديَّة وأكثر تناغماً، بشكل خاص مع الواقع الذي وجد نفسه فيه، وهكذا وضع خطط الخصخصة جانباً، وعكس اجتثاث البعث بصــورة جزئية. فلو أنه انتظر بضــعة أشهر لما كان بريمر قد اتخذ الخيارات القاتلة في أيامه الأولى في بغداد.

لقد كان العراق أزمة دائمة لا تتوقف، ووجدت ســلطة الائتلاف المؤقتة نفسها فيما يشبه الفقاعــة، من حيث المســاحة والــدوام؛ وكان أي اهتمــام في ماضٍ أو حاضــر يبعد أكثر من ثلاثــين يومــاً يعدّ نوعاً مــن الرفاهية. عندما ذهبت لأراه في منتصــف أغســطس/ آب عام 2003، كان بريمر منغمســاً كلياً في تفصــيلات تسيير البلاد، سألته سؤالاً واحداً عن سوابق تاريخــه الوظيفــي، فانتقل مباشــرة إلى الحاجة الفوريــة لمولد كهربائي طاقتــه 20 كيلواط لمصــفاة النفط في البصرة، كانت أعمال الشــغب قد اندلعت في البصرة ذلك الأسبوع على طول خطوط النفط المرتبطة مباشرة بنقص الكهرباء الذي كان قد وصل إلى مرحلة حرجة. كان يرتدي قميصــاً أبيض أكمامه مرفوعة وبزة باللون الخاكي وجزمة عسكرية، واتكأ على طاولة القهوة، حيث جلســنا، وبســط خريطة لشــبكة الكهرباء؛ كي يريني السبب الذي جعل النظام القائم في هذا الوضــع اليائس، ولماذا لا يزال الطلب يتجاوز العرض. وضــعت سلطة

الائتـلاف المؤقتة حالياً خطة لزيادة قدرة الإنتاج الكهربائي، وقال: لسـوء الحظ، فإن ذلك يكلف مليارات الدولارات. وفي هذه الأثناء كان استياء العراقيين في تزايد، وكانوا يلقون باللوم على الأميركيين.

كان بريمـر يتحدث إلى العراقيين مباشـرةً كل أسـبوع في خطابات يتـم بثها عبر التلفاز والإذاعة، وكذلك عبر الاجتماعات مع أصحاب الجاه والنفوذ في سـائر أنحاء البلاد. وكان يتمتع بشعبية لا سيما بين النساء، وكان عدد المؤيدين له من أهل بغداد ضعف عدد المعارضين، وفقاً لإحصـاء أجرته مؤسسـة غالوب (وهذا المعدل يفوق المعدلات التي حصلت عليها سلطة الائتلاف المؤقتة، ويتجاوز كثيراً المعدل الذي حصل عليه بوش الذي لم يكن يعدّ من المفضلين في العاصـمة بغداد). كان موقفـه من المهمة الرهيبة بقيادة بلد أجنبـي -مازال الأميركيون يخوضون فيه حرباً، في أثناء ثورة سياسية واجتماعية واقتصادية- موقفاً فنياً إلى حد كبير. وكان تحت الضـغط أو الانتقاد يلجأ للأرقام. وفي أثناء الصـيف القاسي أوضح بريمر مراراً وتكـراراً أن انقطاع الطاقة كان بسـبب نقص القـدرة في النظام الذي تفاقم بسـبب أعمال النهب وانهيار الإدارة المدنية، لكن الرسالة لم تصل بشكل ما. وكان يذكر العراقيين في أغلب الأحيان أنهم ينعمون الآن بالحرية. وحتى هذا لم يكن ينجح في بعض الأحيان.

عندما سـألته: لماذا يبدو أن العراقيين لا يقدّرون ما تدّعي سـلطة الائتلاف المؤقتة أنها حققته في أثناء الأشـهر الأولى لها؟ أجابني: «عليك أن تفهم الوضـع النفسـي الذي يعانيه العراقيـون. فقـد خرجوا من هـذه الغرفة المظلمة جدًّا إلى الضـوء المبهر في غضـون ثلاثة أسـابيع، فبدا الأمر وكأن شخصـاً ما قد ألقى مفتاحاً، ولذلك فهذا أمر مزعج نفسياً، وإذا كنت عراقياً فإنك سـتظل تفكر في أن الحكومة هي التي تصـلح الأمور. وها قد أتت حكومة اسـتطاعت الإطاحة بجيش متبجح جدًّا في أثناء ثلاثة أسابيع، فلمَ لا يستطيعون حل مشكلة الكهرباء في ثلاثة أسـابيع؟» وأشـار بريمر إلى أن الإخفاق في التواصـل «ليس مشـكلة فنية كتعديل تردّد التلفاز، كي تشاهد القناة الصحيحة، إنها مشكلة نفسية وفكرية».

نهض بريمر وتوجه إلى مكتبه وعاد ببعض الدراسـات عن إعادة الإعمار في مدة ما بعد الحرب، كان يقرؤها كلما سـمح له الوقت. وقـال: «لقد حاولت أن أدرس نوع الأمثلة ذات الصـلة عـن إعادة الإعمار، وهي أربعة أو خمسـة أنواع. هنـاك اليابان وألمانية بعد

الحرب. وهناك البوسنة، وكوسوفو، وإلى حد ما هناك أفغانستان. ومن بين تلك الدول ربما تكون ألمانية واليابان هما الأقرب؛ لأنهما تورطتا في حرب تبعها احتلال عسكري مادي لهذين البلدين».

ثم فتح كراسة، عليها الكثير من الإشارات، أعدتها مجموعة من الخبراء البريطانيين، ثم بدأ يقرأ بصوت عالٍ: «إن الأمن وحكم القانون أمران جوهريان في المدة التي تلي الحرب مباشرة». حسناً، هذا صحيح. «لم يكن بريمر مهتمّاً في العودة للنظر إلى أعمال النهب، وإخفاقات التخطيط لمرحلة ما بعد الحرب». وقال: «بصراحة ليس لدي وقت للعودة لقراءة ما كنا نعرفه، وما لم نكن نعرفه، ينبغي علي أن أقلق بشأن الغد، يمكن كتابة أطروحات عظيمة لنيل درجة الدكتوراه حول هذا الموضوع». وعاد للقراءة بصوت عالٍ: «الأمن يعني الشرطة المدنية، والقدرة على الاعتقال والاحتجاز ومحاكمة المجرمين، والتقليل من الغطرسة». وهنا ضحك: «هنا يأتي التدقيق وإزالة التلوّث واجتثاث البعث». من الدروس التي يجب أن نتعلمها من ألمانية بوجه خاص، إجراء عملية تدقيق عميقة أولاً والأفضل أن تتم بسرعة، «وهذا ما فعلناه بالضبط. فقد أطحنا بالنظام، وبإمكاننا أن نعيد بناءه من جديد، وبالطبع سنقوم بتسليمه للعراقيين».

ألقى بريمر بالخريطة على طاولة القهوة. وكان يزداد قلقاً، فقد كانت لديه أمور يتعين عليه القيام بها، شكرته وودعته. ولم يدُرْ بيننا حديث بعد ذلك، ولم يُبدِ أي فضول لمعرفة حول ملاحظاتي، (وكان ذلك أمراً مذهلاً في العراق) فلم يقدّم لي شاياً أو مرطبات، ولم يبذل أي جهد لإثارة إعجابي، ولم يصدر عنه إلا القليل مما ينم عن الذكاء، وحين هممت بالخروج من المكتب كان بريمر قد عاد سلفاً للجلوس إلى مكتبه.

إن المشكلات النفسية والفكرية أسلحة ذات حدين، فقد كان جميع الأشخاص الذين يحظون بثقة بريمر تقريباً من الأميركيين، أما السفراء الذين يتحدثون العربية، ممن يتمتعون بخبرة طويلة في الشرق الأوسط، فقد كانوا أقل قدرة على الوصول إلى المدير، وكان عملهم أقل من عمل الفئة الصغيرة من مساعديه الذين يثق بهم من واشنطن. أخبرني شخص عراقي كان مقرباً من سلطة الائتلاف المؤقتة أنه كلما قلّت معرفة المرء بالعراق كان أكثر تأثيراً.

حين كان بريمر يغادر القصر كان يغادر تحت حراسة أمنية مشدّدة. ففي يوم حارق التحقت بفريقه الصحفي، وتبعنا المدير في طائرة مروحية من طراز (شينوك) حيث قام بجولة في الصحراء الجنوبية. توقفنا في مشفى للتوليد في مدينة الديوانية. وقد استقبل بريمر الذي كان يجبر نفسه على احتمال ارتداء البذلة الرسمية وربطة العنق في كل مرة يظهر فيها أمام الناس طوال أشهر الصيف، من قبل كبار أصحاب النفوذ ذوي الشوارب الذين يرتدون العمائم، فقال لهم: «نحن في الائتلاف سعداء؛ لأننا استطعنا أن نقدّم لكم الحرية من دكتاتورية صدام حسين. إنكم تنعمون الآن بهذه الحرية، ولديكم الآن أمل أفضل في المستقبل». ثم مضى يقول: «إن مستشفيات العراق البالغ عددها مئتين وأربعين تعمل جميعاً الآن، كما أن تسعين بالمئة حالياً من العيادات في البلاد تعمل. وتنص ميزانية النصف الثاني من هذا العام على زيادة بواقع ثلاثة آلاف بالمئة من الإنفاق في العراق على العناية الصحية. وقد تم شحن خمس مئة طن من الأدوية في شهر مايو/أيار. وشحنّا في الشهر الماضي ثلاثة آلاف طن، بزيادة في الشحنات قدرها سبع مئة بالمئة في غضون ثلاثة أشهر».

أصغى إليه الوجهاء وصفّقوا له، كما قدّموا لبريمر دعوات طويلة، ثم قام بريمر بزيارة الأجنحة في الطوابق العلوية.

كان بريمر يتنقل مع فوج كبير من المساعدين، والحراس المدنيين بأسلحتهم الآلية من طراز إم ب 5، ونظاراتهم الشمسية، بالإضافة إلى الصحفيين، وقد تجوّلت تلك المجموعة في قاعة الطابق الثاني، وأذهلت الأطباء، ثم قاموا بجولة على الغرف التي كانت الأمهات المستلقيات على الأسرّة فيها مع مواليدهن أكثر ذهولاً. أعطاه مساعدوه لعباً؛ كي يقدمها للمرضى؛ كان في إحدى الغرف طفل خديج نحيل ذابل بين ذراعي والدته. وعلى سرير مجاور كان هناك طفل في الثالثة من عمره، ورأسه متدلٍّ إلى الخلف على جسم والدته، وفمه مفتوح. كان هذا الطفل مريضاً، وربما على حافة الموت، وليس طفلاً حديث الولادة. اختفت البسمة عن وجه بريمر، حين أدرك أين هو، وقال: «لا أطيق رؤية ذلك أبداً»، وطلب إلى المصور أن يتوقف عن التقاط الصور.

تركت المجموعة منزعجاً، ونزلت على الدرج عائداً. دار حديث بيني وبين بعض الأطباء الشباب. وأخبروني أن الكهرباء تعمل الآن فقط بسبب وجودنا هنا، فقد كانت مقطوعة طوال

الأسبوع. وقد أدى انقطاع الكهرباء إلى زيادة عدد وفيات الأطفال هنا إلى الضعف: فدون الحاضنات المناسبة بلغ معدل الوفيات سبعة إلى عشرة أطفال كل يوم، وكان في المستشفى عدد من المولدات المعطلة، وقد ذكر لي بحّار احتياطي أن مبلغ عشرين ألف دولار يمكن أن يكفي لإصلاح المولدات التي يمكنها أن تزود المستشفى بالكهرباء اللازمة للعمل على مدى أربع وعشرين ساعة، وقال الأطباء: إن المولدات يمكن أن تخفض معدل وفيات الأطفال إلى النصف على الأقل.

تحرك كريس هارفن أحد مساعدي بريمر الصحفيين متوجهاً نحونا، وسأل الأطباء الشباب، وهو يحاول توجيه الحديث نحو رسالة معينة: «هل أنتم سعداء برحيل صدام؟» واستطرد قائلاً: «أليست الأمور أفضل الآن؟» فأجاب الدكتور قاسم الجنابي مبتسماً: «نعم».

«ما أفضل شيء حصل برحيل صدام؟».

فأجاب الطبيب محمد جاسم: «لم أفهم سؤالك»، وتعين على هارفن تكرار السؤال ثلاث مرات أجاب د. جاسم: «شيء واحد، في اعتقادي شيء واحد، حرية الكلام فقط... فقط... فقط... لكن لا فعل... لا فعل...».

«هل تعتقد أن الأمور ستصبح أفضل مع مرور الزمن؟».

«نعم نعتقد أنها ستصبح أفضل في المرة القادمة».

«الصبر، أليس كذلك»؟.

قال د. جنابي بصراحة: «نريد الكهرباء بصورة مستمرة، والأمن في مدينتنا لم يستتب بعد. هذا هو الأمر. وكذلك الراتب».

لكنّ الطبيبين في الديوانية لم يردعا هارفن المحارب القديم في حملة بوش الأولية عام 2000، في ساوث كارولينا الذي سعى لتشويه سمعة جون ماكين: «ولكن ألا تظنون أن الوضع سيتحسن مع مرور الزمن؟ ما رأيكم؟» ما الذي يمكننا أن نفعله؟».

قال أحدهما: «الأمن».

«الأميركيون؟ العراقيون؟ أن يعملوا معاً؟».

«نعم».

وهكذا. ... سيؤدي الاقتصاد إلى تهدئة أعمال النهب»؟

لم تكن الأخبار السارّة لسلطة الائتلاف المؤقتة موثقة دائماً؛ فقد قيل للعراقيين مراراً وتكراراً: إن إنتاج الكهرباء سيزداد قريباً، لكنه لم يصل حتى إلى المستويات التي كان عليها قبل الحرب، حتى بعد وصول الأميركيين بسنة، بينما كانت الصعوبات تزداد شدة، ومن الطبيعي أن ذلك زاد شكوك العراقيين بمحتليهم، وقد انخفضت الأرقام الصحية التي أوردها بريمر في المشفى في الديوانية بشكل ما عن طريق محادثة دارت بالمصادفة في اليوم الآتي، بيني وبين الدكتور جان بيرنارد بوفيير، من الجمعية البريطانية الطبية الخيرية (ميرلين)، وقد أخبرني بوفيير أن وزارة الصحة أصبحت قوقعة جوفاء دون أي سيطرة مركزية. لم يكن لدى أحد معلومات عن المخزون في مستودعات الصيدلية المركزية، «قالوا: إنهم جلبوا ست مئة طن من ماذا؟» لقد كدّست كمية ست مئة طن من الأدوية في عيادة واحدة، ولم تترك الصناديق المكدسة مكاناً للمرضى. وقد وضع بوفيير «خطة توزيع وطنية طارئة للأدوية». وبعد شهرين لم يكن هناك استجابة من الائتلاف. وكونه محارباً قديماً خبر كوارث عديدة، وجد أن خبرات المنظمات غير الحكومية، كمنظمته، تضيع باستمرار بسبب سلطة الائتلاف المؤقتة، «هذا غير موجود في تجربتهم، فهم لا يرون هشاشة النظام. ولا يرون ضرورة الوضع، فليس الأمر أن الأطفال يتضورون جوعاً الآن، لكنها بنية تتقوض على نحو بطيء، وهي تتهاوى تماماً دون أن يظهر أثرها بعد». وأضاف: «بوسعك أن تفكك مجتمعاً ببطء شيئاً فشيئاً، لكنك تصل بعد ذلك إلى نقطة تنهار فيها».

لقد أدّى انعزال سلطة الائتلاف المؤقتة خلف حدود الأمن، وصعوبة الاتصالات جعلها مؤسسة مبهمة لدى العراقيين والصحفيين على حد سواء، كما كانت صعوبة الوصول إليها متعمدة بشكل جزئي في اليوم المقبل، بعد أن طلب بريمر من ميغان أو سوليفان ألا تتحدث إلي عن أي شيء (فقد غدت غير مقرّبة منه مؤقتاً بسبب محادثاتها معي)، قال لي: «لقد أعدت لتوي تنظيم مركز الاتصالات الإستراتيجية هنا»، وكان ستراتكوم يقوم بدور امتداد خارجي للمكتب الصحفي للبيت الأبيض، ويقدّم رسائل باستمرار، وكان همه الأكبر التحكم في فهم الجمهور الأميركي للدورة الأخبارية على مدى الأربع والعشرين ساعة، وليس تطوير

مصـدر معلومات من شـأنه أن ينافس في واقـع العراق على المدى البعيـد؛ تلقيت ذات مرة أربعة بيانات صحفية منفصلة تعلن أنه: «سيتم الإسراع في إصلاح خط مياه بغداد الرئيس الذي تعرّض للتفجير». لكن حين لم يتم ترميمه بالسرعة التي وعد بها؛ لم يكن هناك بدّ من زيادة سخط العراقيين، بينما لم يكن الأميركيون في أمريكة أكثر حكمة.

لقـد أصـبح المنفذ الإخباري لسـلطة الائتلاف المؤقتـة للعراق إخفاقاً مطلقاً؛ فقد رسـا عقد شـبكة الإعـلام العراقية البالغة قيمته 82 مليون دولار على شـركة من سـان دييغو هي شركة (SAIC): مؤسسة التطبيقات العلمية الدولية، التي لم يكن لها خبرة ذات صلة بوسائل الإعـلام، لكـن تربطها صـلات بمكتب وزيـر الدفاع. وكانـت شـركة SAIC تدفع«لخبرائها الإعلاميين» من الأميركيين ما يزيد على مئتي ألف دولار في السـنة، في حين تدفق في حساب الشـركة التـي أنتجـت مزيجاً مـن الإعلانات الرسـمية لسـلطة الائتلاف المؤقتـة والأغاني العربيـة، ذكّر ذلك العراقيين بشـكل كافٍ بالتلفاز في ظل نظـام الحكم القديم، حيث تحول معظمهم عنه من أجل الحصـول على معلوماتهم، إلى محطات الجزيرة والمحطات الإيرانية الأكثر إثارة للفوضـى، وأضاعت سـلطة الائتلاف المؤقتة الفرصة المبكرة التي قد لا تعود من جديد، للبدء بالتعليم المدني الذي يعدّ أساسـاً لتحول العراق إلى الديمقراطية. كان الجميع في بغداد يعرفون أن مشـروع وسائل الإعلام كان كارثة، وفي لندن، كان طوني بلير يعرف، إلا أنّ هذه المشـكلة قد نشأت في واشنطن، شأنها شأن الجوانب الأخرى الكثيرة للاحتلال. وقد عكس التخطيط السخيف رغبة البنتاغون في إعلان الحرية في العراق دون القيام بعمل أكثر صعوبة وأكثر مخاطرة من ذلك، بمساعدة العراقيين في إنشاء المؤسسات اللازمة، مما يعني التخلي عن السيطرة. حتى في الوقت الذي بدأ فيه بريمر وسلطة الائتلاف المؤقتة في انتشال العـراق مادياً من تدهوره الطويل، وانهياره المفاجئ اسـتمرت الإخفاقات الفكرية للتخطيط في مطاردتها الاحتلال.

سـافر مدير الشبكة الإعلامية إلى واشـنطن وحذر بول وولفوفيتز بشأن نزع السلاح من جانب واحد في معركة لكسب القلوب والعقول. فكانت إجابة وولفوفيتز، مهندس إستراتيجية الإدارة للديمقراطية في العراق والشرق الأوسط: إن للبنتاغون الثقة التامة في متعهدها، وإن المسـألة قد أوشكت على الحل. وتم اسـتبدال المدير، ولم يعد إلى بغداد. كانت تلك الأولويات

التي وقع الاختيار عليها، وضاعت الفرص، وكانت القرارات تتخذ ولا تنفذ، بعيداً عن أنظار الناس، في الأشهر الأولى للاحتلال، عندما كان كل شيء لا يزال في مهب الريح، وكما قال إيردمان حين كانت الأمور لا تزال سائلة، ولم تكتسب الصلابة بعد.

تنقّلت بين المنطقتين الحمراء والخضراء، أي بين المنطقة التي تتمركز فيها سلطة الائتلاف المؤقتة، وبين باقي مناطق العراق، وكان هذا التنقل يشعرني بالدوار، فعلى جانبي الأسلاك الشائكة والجدران الإسمنتية كان هناك واقعان منفصلان: كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تصر على أنها تحقق تقدماً؛ بينما لم يكن العراقيون يرون ذلك. وقد قال عراقي يعمل مع إيردمان: «اسمع، إذا لم أعمل معكم فلن أرغب في وجودكم هنا أيها الأمريكيون. أنا أرى ما تقومون به، لكن بقية أفراد المجتمع لا يرونه، كل ما يعرفونه هو أنه لا توجد لديهم كهرباء. وأنتم غير مقنعين. إنكم لا توضحون المسألة، وهم لا يشعرون أن هناك خطة».

كان نشاط الأمريكيين المحموم في حرارة بغداد يذكرني بشخص يحاول الخروج من حفرة، بينما تنهار الأرض تحت قدميه، أو يدوّر عجلاته في الرمل، وهي تغوص أكثر. ومع ذلك لم أكن أرى في تلك الأشهر الأولى بديلاً عن سلطة الائتلاف المؤقتة، فقد كانت أفضل من فراغ السلطة الذي كان في شهري أبريل/ نيسان، ومايو/ أيار، وكانت أفضل من أي جهة عراقية يمكن أن تخطر ببالي. كان من الواضح أن السياسيين المغتربين لم يكونوا يتمتعون بالشعبية، بل إن شعبيتهم ربما كانت أقل من شعبية الأمريكيين. أما «سياسيو الداخل» كما يسمونهم، فلم يكن لديهم منظمات فاعلة، كما أن فروع الحكومة المحلية، التي كنت أشاهدها تنمو في أنحاء المدينة، كانت بالكاد على قيد الحياة. لم أكن أستطيع أن أفكر في إمكانية أن تكون حكومة عراقية ضعيفة، وفاسدة ومليئة بالأحقاد، أفضل من حكومة أمريكية منعزلة وغير شرعية.

ذات مساء احتسيت شراباً في فندق مع مسؤول شاب من فريق الأمم المتحدة في بغداد، فوصف لي الشكاوى التي كانت الأمم المتحدة تسمعها من العراقيين: المحتجزين الذين لا تستطيع عوائلهم أن تسمع شيئاً عنهم، ومقاطعة العراقيين المرتبطين بالنظام القديم، وطريقة اليد الثقيلة التي يعتمدها الجنود الأميركيون، واللغة العربية السيئة التي ينطق بها على شبكة

تلفاز سلطة الائتلاف المؤقتة. كنت أصغي له وصبري ينفد. ترى هل كانت تلك الأمور فعلاً أهم الأمور التي تحدث في عراق ما بعد الحرب؟ وهل كان يفترض بي أن أشعر بالأسف من أجل بعثي فعل ما الله أعلم به، حين كان في السلطة وفقد عمله الآن؟ وماذا عن الجرائم الكبرى التي ارتكبها حزب البعث، والفرصة التي أتيحت الآن للعراقيين كي يتجاوزوها؟

قال مسؤول الأمم المتحدة: «إنهم في ظل الاحتلال، وهم ليسوا سعداء بذلك».

في إحدى زياراتي لمكتب الشيخ عماد الدين العوضي، التقيت أحد زملائه في السجن، ويدعى عبد الزهراء عابد، وهو رجل قوي في منتصف العمر يضع نظارة ثخينة، وأنفه عريض، فأخذني جانباً وأخبرني عن قضية ابن أخيه الذي يعمل في استيراد الموز: كان ابن أخيه قد اعتقل من قبل الجنود الأميركيين في مكتبه مع تسعة عشر رجلاً آخرين بمن فيهم النادل الذي يقدم الشاي، كما أخذ الجنود أيضاً ما يعادل اثني عشر ألف دولار بالدنانير العراقية، وسيارة الشركة من طراز BMW، ولم يستطع أقارب ابن الأخ معرفة أي شيء عن مصيره، فذهبوا في البداية إلى بوابة الحشاشين آملين في الدخول إلى القصر الجمهوري، بيد أن الجنود منعوهم من الدخول وقالوا: إنه ليس هناك معلومات لديهم. واقترح الجنود أن يحاول الأقارب في المطار، حيث يتم احتجاز الأشخاص المهمين في القاعدة الأميركية الواسعة. وفي المطار عاد الأقارب خائبين أيضاً، فقصدوا مركز شرطة مركزياً، حيث سمعوا أنه كانت لديهم هناك قوائم بالأسماء، غير أن اسم ابن الأخ لم يكن بين تلك الأسماء، في اليوم الآتي قاد الأقارب سيارتهم في أعقاب سيارة حراسة إلى القاعدة الأميركية قرب الملعب الأولمبي، فشهر جندي بندقيته في وجههم وأمرهم بالعودة، فشكروا الجندي، وعادوا إلى سيارتهم وغادروا. فعادوا إلى المطار مرة أخرى دون أن يحالفهم الحظ. في ظل العهد السابق كان بمقدورهم معرفة لمن يقدمون الرشوة من أجل الحصول على معلومات، لكن بعد أربعة أيام من البحث في كل أنحاء بغداد لم تعرف العائلة إلى أين تلجأ؟.

روى لي عبد الزهراء عابد، الذي أمضى سنة ونصف السنة في السجن؛ لأنه شتم نظام صدام، هذه القصة، بينما كنا واقفين في غرفة مقابل مكتب الشيخ تعج بملفات من الأرض حتى السقف: ومصفوفة على رفوف معدنية محشوة بملفات السجناء السابقين». أنا لا أدافع عنه. غير أنه ولو كان متورطاً في شيء ما ينبغي عليهم، من وجهة نظر إنسانية، إبلاغ العوائل»

هذا ما قاله عابد، وأردف قائلاً: «إنهم يعتقلون الناس ولا يقدمون معلومات لأسرهم، مثلهم مثل البعث. فلا فرق بين الماضي والحاضر. ويجب أن يكون هناك فرق».

عندئذ لان عابد، وأراد أن يشكر كلاً من: جورج بوش الأب من أجل ممارسة الضغط الذي أدى لإطلاق سراحه من السجن، وبوش الابن للتخلص من صدام». الأميركيون بشر مثلنا، فنحن لسنا أفضل، ولا أسوأ، فهم يخطئون».

بعد يومين سمح لي بحضور اجتماع للقادة، في مقر قيادة الكتيبة الثانية من الفرقة المدرعة الأولى، عرض ضابط الاستخبارات المسؤول عن جهاز العرض باور بوينت (Power point) صوراً مأخوذة بالأقمار الصناعية لمكتب مستورد موز تمت مداهمته. كان المستهدفون يمولون أنشطة المتمردين على حد قوله؛ فضحك الضباط الحاضرون من اعتماد المتمردين على الموز. تم طرح القضية من جديد في اليوم المقبل، في مركز المؤتمرات الذي كان المكان الوحيد الذي يستطيع فيه العراقيون الذين يعبرون نقاط التفتيش، وتدقيق الهويات الثلاثة، عرض مشكلا تهم مباشرةً على سلطة الاحتلال. وفي مركز المساعدة العراقي صادفت رجلاً يدعى رعد صقر عابد. كان هذا الرجل شقيق مستورد الموز، وقد أوصله تجواله الطويل إلى هنا بعد أن أبلغته اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه ليس بوسعها أن تفعل شيئاً حتى يسمح الأميركيون لها بمشاهدة المحتجزين. وذهب من هناك إلى جمعية للسجناء السابقين، كانت منافسةً لمؤسسة الشيخ، وكان أحد أعضائها قد أتى به إلى هنا.

كانت متابعتي لقضية مستورد الموز مصادفة، كما كان من قبيل المصادفة أن أحد المسؤولين في سلطة الائتلاف المؤقتة يدعى ديف هودجكينسون كان في مركز الاجتماعات في الوقت الذي التقيت فيه شقيق المحتجز، وقال هودجكينسون للأخ أن يذهب ويقابل الكولونيل في مقر قيادة الشؤون المدنية - العسكرية قرب القصر الجمهوري. وهكذا أدى البحث عن المحتجز في نهاية الأمر بأقاربه إلى العودة إلى حيث بدؤوا، في بوابة الحشاشين. وبينما كان الحديث يدور بين هودجكينسون والشقيق لاحظت لافتة قرب مكتب الاستعلامات كتب عليها اختصارات باللغة الإنكليزية، وبعدها «كل ما تريد معرفته أبداً». لم يكن أي عراقي يستطيع التفاوض في غابة اختصارات الجيش الأمريكي، والحراس المسلحين، للحصول

على المعلومات التي يحتاجها، كمكان قريب له إلا بمحض المصادفة أو الاستثناء. لم أعرف شيئاً عن مصير مستورد الموز بعد ذلك.

كان هود جكينسون مستشار سلطة الائتلاف المؤقتة «للعدالة الانتقالية». وهذا يعني أنه، شأنه شأن سلطة الاحتلال بصورة عامة، كان أكثر اهتماماً بالجرائم السابقة لحزب البعث من أوضاع المحتجزين العراقيين. وكان شاباً قد عمل سابقاً مدّعياً عاماً عسكرياً، وكان أشقر حسن المظهر، لطيف المعشر كأنه رئيس أخوية. أخبرته عن مجموعة الشيخ وأعرب عن اهتمامه. كان الشيخ أحد العراقيين الذين استطاعوا بسرعة الاستفادة من المحتلين الأميركيين لمصلحتهم. وكان يلحّ لكي أرتب لقاءً له مع شخص من سلطة الائتلاف المؤقتة، ممّن يموّلون مجموعات كمجموعته، وكان يطلب مني النصيحة حول الطريقة التي يستطيع بها معالجة ذلك. ورجاني قائلاً: «انسَ جنسيتك الأميركية مدة ثلاثين دقيقة وقفْ بجانبي معهم».

وفي الطريق من المنطقة الخضراء إلى الكاظمية (وكان مسؤولو سلطة الائتلاف المؤقتة يقومون برحلات كتلك دون حراسة في الأشهر الأولى) قال لي هود جكينسون إن: «الكلمة في الشارع جعلت الشيخ يتحالف مع أصحاب النزعات الشيعية المتطرفة، وربما مع رجل الدين الشاب الراديكالي مقتدي الصدر ابن الشهيد آية الله والإيرانيين الذين يدعمونه. سألته إن كان ذلك سيمنع سلطة الائتلاف المؤقتة من تمويله؟ فقال هودجكينسون: «فقط إذا كان المال سيستخدم في شراء مدافع البازوكا. إذا كان مناوئاً للائتلاف، وإذا كان يريد خروجنا فهذا أفضل».

كان الشيخ ينتظرنا على كرسيه الدوار في غرفة الجلوس. رحّب بي بحرارة، وقال: «لا بدّ أن جورج به شيء من الدم العربي!» كان الشيخ متوتراً لوصول هؤلاء الناس المهمّين من سلطة الائتلاف المؤقتة، ومعهم عشرات آلاف الدولارات التي أتوا لتوزيعها، «جورج يذكرك بالخير يا سيد ديفيد، هل دفعت له؟» وأرانا الخاتم الذي كان يضعه من أجل الاجتماع. «أنا أضع هذا الخاتم؛ ليعطيني الشجاعة، كما هو الحال عندما يتعين علي أن أتحدث مع زوجي». وكما كان فعل معي في لقائنا الأول، بدأ يعيد لزواره الجدد قصة السنوات التي قضاها في

السـجن: تحدث عن الازدحام المقيت، والعذاب الجسـدي والنفسي، وعن الرجل الذي قطّع حـذاءه وأكله في شـطيرة. وعند نقطة معينة غـدا منهكاً جدًّا، بحيث تعـين عليه أن يعتذر، وعندما فتح الباب المؤدي إلى مكتبه الداخلي لاحظت أن صورة الخميني قد اختفت.

عاد بعد خمس دقائق، وقال: «أعتذر؛ لأنني أزعجتكم بهذا الحديث».

أجابه هودجكينسون: «يهمّنا أن نسمعك».

- «دعونا نتحدث عن جمعية السجناء».

- «رائع».

فسأل الشيخ: «هل تريدونني أن أواصل الحديث أم أتحدث عن الجمعية؟» وقضى نصف ساعة أخرى في الحديث عن قصته الشخصية.

سـبّب موضوع الملفات بعض الصعوبة. أراد هودجكينسـون من الشيخ أن يقرّ بأنها ملك للشعب العراقي.

قال الشـيخ: «نطلب من الإنسـانية أن تعمل معاً؛ للحفاظ على هذه الوثائق، إنها ليست ملـكاً لأحد، ولا حتى للعراقيين، بل للإنسـانية جمعاء، قد يكون بوش صـدامًا ثانياً، وربما يكون أفضل».

- «ستستخدم هيئة الحكم العراقية، بمساعدة الائتلاف، هذه الوثائق لمحاكمة المجرمين علـى جرائمهم، ولكي تروي القصـة للعالم بأسـره كي يعرف»، قال هودجكينسـون: «هناك مشروعات قائمة حالياً لجعل الدليل مركزياً».

- «لكن ذلك قد يسـتغرق سـنوات كثيرة، وسيتم إحراق الكثير من الملفات، وقطع الكثير من الرؤوس؛ لذا فإنني أريد بناء مسـتودع لنحفظها فيه، سـيكون ذلك أكثر أماناً، وستكون برعاية قبيلتي». وأضاف أن هناك نقصاً في المعدات المكتبية.

انتهى اللقاء دون أي وعد محدد بالمال، لكن كان هناك شعور متبادل بحسن النية. وقال هودجكينسون: «أنا سعيد؛ لخروجي من سلطة الائتلاف المؤقتة».

فقال الشيخ: «إنها سجن كبير».

- «لقد كنت في السجن، وها أنت اليوم حرّ. لقد تركنا سجننا؛ كي نأتي نشاركهم الحرية».

من بين الأجانب الذين كان الشيخ يحاول الاستعانة بهم، كانت موظفة في الأمم المتحدة تعمل في مجال حقوق الإنسان تدعى إيلاهي شرسف بور هيكس. وقد سلّمها الشيخ قائمة تمنيات دون ميزانية. وتضمنت القائمة ثمانية أجهزة حاسوب وأربع مركبات وحارساً، ومولد كهرباء، ومكيف هواء ومبنى جديداً. وجدت شريف بور هيكس الشيخ ساحراً وخطيراً. كانت قد نشأت في إيران بصفة عضو في الجيل الثوري؛ وكان لها دور في الإطاحة بالشاه، ثم رأت أن رجال الدين لا يفون بوعودهم في تحقيق الحرية والديمقراطية. وكانت متأكدة أن الشيء ذاته يحدث في العراق.

«إن آية الله هذا يسرق المجتمع الدولي باستخدام المساجين»، قالت شرسف بور هيكس: «ينبغي ألا ننتقص من قدر هؤلاء المشايخ، وأخشى أن هذا ما يفعله الأميركيون. بينما كنا نتحدث في أثناء تناول الغداء في كافتيريا الأمم المتحدة، أصبحت منزعجة». «هناك كثيرون مثله. حلمهم وأنموذجهم وفكرتهم هي الوصول إلى السلطة بالطريق نفسها التي وصلوا بها إلى السلطة في إيران. أستطيع أن أرى بأم عيني الأمور نفسها التي حدثت في الثورة». لقد تبين لها أن الأميركيين مترددون في التدخل في الجنون الحاصل، وأن الفئات الدينية تزداد قوة، في حين أن المجموعات العلمانية كانت خائفة أن تثير ضجة«إن الأميركيين خجلون خائفون أن يظهروا بمظهر المحتلين. إنهم يقولون: «نحن نريد أن يتسلم العراقيون دفة القيادة». لكن أي نوع من العراقيين يجب أن يتسلم دفة القيادة؟ إنه وضع مؤلم يجعلني أذرف الدموع في نهاية اليوم».

في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها لرؤية الشيخ في ذلك الصيف، سألته عن نوع الحكومة التي يريدها؛ للعراق، فتجاهل السؤال، وكان هناك ثلاثة طلبات لتركيب هواتف خلوية أرادني أن أملأها ليقدّمها لسلطة الائتلاف: واحد له وآخر لزوجه والثالث لابنه الذي يبلغ السادسة من عمره، وللمرة الأولى في أثناء وجودي خلع عمامته، وغدا فجأة رجلاً أصلع متعرقاً ملحّاً، كان الافتتان المتبادل فيما بيننا يقترب من نهايته.

انتهيت من ملء الطلبات، وقلت له: «سمع ديف هودجكينسون أنك قد تكون من أتباع مقتدى الصدر».

«مقتدى الصدر! إنه رجل صغير وليس لديه جزء من المستوى الديني الذي لدي». كان من الواضح أن الشيخ غاضب. «الذين قالوا ذلك للسيد داي هم أعدائي».

أخبرته أنه لا يبدو أن هودجكينسون وسلطة الائتلاف المؤقتة مهتمون بسياسته.

«ذلك أمر جيد، لكن يجب أن نصلح هذه الفكرة التي أخذوها عني». كنت أعلم أنه قلق بشأن التمويل. «إذا ثبت أنني أتبع خطأً ما، أو أنني عضو في أي حزب سياسي فسأتوقف عن العمل وألزم بيتي».

سألته عن رأيه في نظام إيران؟

فسألني: «هل تعمل لصالح وكالة استخبارات؟» وحدّق في دون أن تبدو عليه أي إشارة لابتسامة الاحترام: «لدي عقل وقلب، فقلبي هادئ معك، وعقلي يقول لقلبي أن يكون حذراً».

– ما كان الدور الصحيح الذي أداه الإسلام في الديمقراطية؟

– «بعد أن أجيب عن السؤال هل ستتركني وشأني بحق السماء؟» حان وقت الصلاة، فأمسكني الشيخ بخشونة من ذقني. «سأجعلك تهدأ بهذه الإجابة. وسأبرد قلبك. ثق بي. وسأخبرك بكل أمانة: إنني أؤمن بسقراط ودائرته، هناك خط في الوسط» رسم خطاً خيالياً يقطع باخرة خشبية كانت على مكتبه: «أحد الجانبين حار والآخر بارد، هذا هو الوسط، وكما كان الفيلسوف يؤمن فإن الأفضل هو الوسط: هل هذا يكفيك أم لديك أسئلة أخرى؟».

بعد عدة أيام تلقيت رسالة إلكترونية من إيلاهي شرسف بور هيكس؛ كانت قد ذهبت لمقابلة الشيخ في ذلك اليوم، وكانت سلطة الائتلاف المؤقتة قد أعطته ثلاثة وأربعين ألف دولار، وكتبت لي: «إنه بحال جيدة، فقد أصبح لديه الآن حاسوبان ومولد كهربائي على الأقل».

غادر درو إيردمان بغداد في أواخر تموز؛ لحضور اجتماع في واشنطن ولرؤية زوجه في سانت لويس، قضيا صباح سبت جميلاً، يمشيان في الخضرة الرائعة لإحدى الأسواق

العضوية، لكنه شعر أنه بعيد، وكأنه ينظر إلى العالم عبر عدسة زجاجية ثخينة. كان يستيقظ كل يوم قبل الفجر، تماماً كما كان يفعل في بغداد، وهو يشعر بثقل ما تبقى عليه من عمل. كان شبه مستحيل أن يخبر زوجه عما كان يفعله. وحين كانا يخرجان مع أصدقائهما، لم يكن يطيق الجلوس بهدوء للمشاركة في الحديث، كان يشعر بالدوار، وكانت يداه ترتجفان بسبب التوتر، وكان يريد العودة.

في واشنطن عرض على إيردمان منصب في مجلس الأمن القومي بصفته مديرًا لشؤون إيران والتخطيط الإستراتيجي. ولم تستغرق محادثاته مع كوندوليزا رايس في البيت الأبيض إلا بضع دقائق. قال لها: «إنهم لا يحبوننا كثيراً، لكننا أفضل الخيارات المتاحة لهم». نظرت إليه رايس باستغراب، لكن المحادثة استمرت. وحين عاد إلى بغداد أخبرني أنه لم يكن يريد مغادرة العراق، فلم يسبق له أن قام بعمل كهذا، كان يهوى العمل في جو من الضغط والحيرة، وكان التعليم العالي قطاعاً يظهر علائم النجاح، لكنه قبل العمل في واشنطن؛ لأنه كان يعني أن يكون أقرب لزوجه.

في يوم من أيامه الأخيرة مع سلطة الائتلاف المؤقتة، رافقت إيردمان إلى الحرم الجامعي في جامعة بغداد، وحتى ذلك الصباح لم أكن أفهم أبداً توتره المستمر وقلقه وشراسته تجاه بقايا النظام القديم، والشعور الذي كان ينقله بأنه لا زال في معركة. انتقل فريقه في سيارتين مدنيتين، وظلوا على اتصال عبر اللاسلكي؛ وفي المقعد الذي بجانبي، أدخل إيردمان مذخراً في مسدسه من عيار 9 مم. كان الحرم الجامعي خالياً إلى حد كبير -وعلى الرغم من الحرب وأعمال النهب، أنهت الجامعات عامها الدراسي في شهر يوليو/ تموز- لكن كانت هناك مجموعة من ثلاثين رجلاً يقفون في ظل شجرة في الساحة بالقرب من موقف السيارات؛ لقد كانوا أساتذة من البعثيين الذين تم اجتثاثهم، وبينما كان إيردمان يمرّ بهم ومسدسه مخبأ تحت قميصه اعترض طريقه ثلاثة منهم:

سأله أحد الأساتذة: «هل أنت د. آندرو إيردمان؟، لدينا بعض الاستمارات». كان الرجال في منتصف العمر، وكان لباسهم أنيقاً وبدا عليهم الاكتئاب، وعرضوا صوراً عن اتفاقية التخلي عن عضوية الحزب، مذيلة بتواقيعهم.

قال لهم إيردمان: «الاستثناءات تمنح من قبل السفير بريمر فقط».

- «نحن نريد مساعدتك في هذا الوضع».

- «أتفهَّم العرقلة التي أصابت حياتكم. لكنني آمل أن تفهموا إعلان الائتلاف في السادس عشر من مايو/ أيار».

- «لكننا لم نفعل إطلاقاً أي شيء من شأنه أن...».

قال إيردمان: إنه لا يستطيع أن يعد بشيء «بعض زملائكم لا يستحقون الإعفاء، بعضهم يجب أن يعود، لكن الآخرين لا».

«أنا أدرك ذلك» قال الأستاذ: «لكن دخلنا الآن معدوم، في هذا الوقت وهذا العمر لا يمكننا أن نعمل شيئاً، وليس هناك عمل يمكننا القيام به».

كان الرجال الواقفون في ظل الشجرة ينظرون إلينا، وقال أحد زملاء إيردمان العراقيين في سلطة الائتلاف المؤقتة: «فلنتابع سيرنا».

كان هناك عراقي آخر يقترب، فقال إيردمان: «دعونا نغادر هذا المكان، فأنا أشعر أنني لم أعد أستطيع أن أساير»، ثم تابعنا السير نحو عمود أبيض في طرف الساحة، وكان خلفه المطعم الزجاجي، كانت هناك لافتة مناوئة للبعث معلقة على الحائط كتب عليها: «لا مكان هنا لأولئك الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء».

قال إيردمان: «هنا وقعت الحادثة، في هذه الزاوية، كان الرجل ملقىً هناك، وهنا سحبت السيارة».

في ظهيرة السادس من يوليو/ تموز، بينما كان إيردمان في اجتماع مع مندوبي منظمة اليونيسكو في مبنى عبر الساحة مشى أحد مرافقيه، جيفري ويرشو، وحيداً إلى المطعم دون أن يرتدي خوذته، وأحضر عبوة من الجعة. كان ويرشو في الثانية والعشرين من عمره، وهو متخصص في الحرس الوطني في فلوريدا، وهو الابن الوحيد لمحامٍ وله اهتمام بالسياسة. كان الجندي يمسك بعبوة الجعة قرب العمود الأبيض، حين اقترب منه رجل وصوّب رصاص مسدسه إلى رأسه مباشرة. واختفى الشخص الذي أطلق النار، الذي يُعتقد أنه كان طالب

هندسة يمنياً، في ازدحام الطلاب المحتشدين، وفي الوقت الذي أسرع فيه إيردمان إلى الساحة وهو يصرخ شاهراً سلاحه، كان الجنود قد فرّقوا الطلاب، ولفّوا الجرح في رأس الجندي، ووضعوا المصاب في مؤخرة سيارة إيردمان، وهي من طراز شيفي سوبربان، وقادها منطلقاً خارج الحرم الجامعي إلى منطقة هبوط طائرات. كان وضع الجندي مستقراً عندما وصلت الطائرة المروحية، لكنه فارق الحياة قبل وصوله إلى المشفى العسكري.

في مساء ذلك اليوم، حاول إيردمان تنظيف السيارة من بقع الدم بوساطة مادة منظفة، قرّر العودة إلى الحرم الجامعي في اليوم المقبل، وقال: «لا يمكنني أن أدع صورتنا تشوه في المدينة، وينتشر عني أنني رميت شخصاً في سيارتي وهربت». تعين عليه أن يطلب مرافقاً من وحدة الرجل الذي لاقى حتفه: «أنا الرجل المدني، وقد قتل أحدهم بسببي، أنا أشعر بهذا لكن لا أعتقد أنهم بالضرورة يشعرون بذلك أيضاً -لن أحمّلهم ذلك- لكن هذا ما حصل». ابتسم إيردمان بطريقته غير المرحة. «لقد قُتل رجل، ولهذا يمكنني أن أذهب، وأتحدث إلى بعض الناس المعنيين من اليونيسكو».

كان السبب الرئيس لزيارته للحرم الجامعي صباح ذلك اليوم، في منتصف شهر أغسطس/آب، هو وداع الدكتور سامي مظفر، الكيميائي الحيوي الذي تم انتخابه رئيساً للجامعة في شهر مايو/ أيار. كان مظفر، وهو في الستينيات من عمره، يرتدي بذلة زرقاء، وكان يشبه هنري كيسينجر بشعره ونظارته الثخينة، جلس هو وإيردمان، الذي يصغره ثلاثين سنة، والذي كان يرتدي بنطالاً خاكي اللون وقميصاً أزرق، في مكتب رئيس الجامعة، واستعرضا أعمال الأسبوع. أخبره إيردمان بأن وزارة الخارجية الأميركية ستستأنف تقديم منحة فولبرايت الدراسية للعراقيين، واشتكى مظفر من اعتقال الأساتذة المشتبه بأنهم قد عملوا في الأسلحة البيولوجية، وهم في الحرم الجامعي. كما وعد إيردمان أن يقدّم لسلطة الائتلاف طلباً لنظام تكييف هوائي في قسم العلوم السياسية.

قال إيردمان «وددت أن أبلغكم أنني عائد إلى الولايات المتحدة».

بدا الذهول على وجه مظفر، وسأله: «للزيارة؟».

فأجاب إيردمان: «بل بصورة دائمة». وقال: إنه سيغادر في الوقت الذي بدأ العمل الشاق لإعادة بناء الجامعات يؤتي أكله، وحين أصبح من الممكن التركيز على إصلاح المناهج، الذي كان محط اهتمامه: «لا أريد أن أغادر».

قال مظفر: «يؤسفني سماع هذا الخبر، لقد اعتدنا وجودك وسنفتقدك فعلاً؛ لأنك رجل طيب وأتمنى لك مستقبلاً زاهراً، لقد فعلت كل ما في وسعك. مررنا بأيام عصيبة وخطيرة جدًّا. لقد تجادلنا وأصبح بيننا خبز وملح، وتلك هي الحياة».

كان كل واحد منهما قد انتقد الآخر أمامي. فقد اشتكى إيردمان من أن مظفراً كان يطالب بالاستقلال عن سلطة الائتلاف المؤقتة، لكنه كان يفتقد للشجاعة لطرد المديرين السيئين من تلقاء نفسه، وقال مظفر مرة: إن إيردمان لم يكن يعرف دائماً كيف يتعامل مع العراقيين، وتذكر أنه في أثناء انتخابات 17 مايو/أيار، عندما خرجت الضوضاء عن السيطرة، صرخ إيردمان الشاب الأميركي بأعلى صوته على المسرح مخاطباً أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة قائلاً: «اخرسوا».

في هذا اليوم، بدا عليهما التأثر والحنين، حيث ارتبطا بتجربة مشتركة. وذكّر مظفر إيردمان بمحنة إنهاء العام الدراسي في الوقت المقرر. «كان كثيرون يأملون ألا ننجح. لا سيما أولئك الذين ينتمون للنظام البائد، وكذلك بعض الدول المحيطة بالعراق. كانوا يأملون في ألا يستكمل العام الدراسي».

فردّ إيردمان قائلاً: «آمل أن يتمكن كلانا من النظر إلى الوراء في غضون بضع سنوات والقول: إننا قمنا بعمل جيد».

«لا تنسنا هناك في منصبك الجديد».

التقيت إيردمان مرة أخرى في واشنطن في سبتمبر/أيلول، وكان مرتدياً بذلة عمل زرقاء، وكان يضع بطاقة دخول البيت الأبيض معلقة حول عنقه. لم يكن العراق المكان المناسب له للعمل، لكنه سرعان ما أعيد للعمل بشأنه مرة أخرى بشكل متفرغ تقريباً. تبين لإيردمان أنه ما من أحد داخل الحكومة أو خارجها يفهم بالفعل الوضع في العراق؛ لقد كانت الهوة

سحيقة بين القيادة وأرض الواقع: «يبدو لي كأنها معركة (خي سانه) اللعنة! وتشارلي داخل القضبان» قال وهو يضحك بتجهم، ويقلّد رعاش دينيس هوبر: «أنت لا تفهم الأمر يا رجل!» وقال: إنه لا يزال غير قادر على التفكير بوصفه مؤرخاً. وقال مازحاً: إنه يأمل ألا يكتب يوماً ما كتاباً حول العراق يسميه «الهزيمة الغربية»، لكن الادّعاء بالتأكد من وجود طريقة إخراج العراق من المحنة: «إنني شديد الحذر من التعامل مع أي شخص يتحدث عن العراق، ويقول: إنه متأكد تماماً بشكل أو بآخر».

بحلول أواخر شهر أغسطس/ آب كان بول بريمر مستعداً لطرح رؤية طموحة لسلطة الائتلاف المؤقتة في العراق، لكنها تتطلب إنفاق عشرات مليارات الدولارات، ولم تكن لدى الرأي العام الأميركي والكونغرس أي فكرة أنه سيطلب إليهم دفعها. وقد يعني ذلك عملية سياسية ذات سبع خطوات كتابة الدستور، وتنظيم عدة مراحل من الانتخابات الوطنية قبل إعادة السيادة للعراقيين قد تستغرق سنة أخرى أو أكثر، وأخيراً أصبح لدى أميركة خطة بشأن العراق.

أُسست هيئة جديدة أطلق عليها اسم مجلس الحكم، في شهر يوليو/ تموز مؤلفة من خمسة وعشرين عراقياً ويسيطر عليه المغتربون السابقون، إلا أن صلاحياته لم تكن واضحة، وكانت رؤيته ضعيفة، ولم يكن العراقيون العاديّون يشعرون بصلة به. اعتمد بريمر في إنشاء مجلس الحكم مساعدة بعثة الأمم المتحدة في بغداد، التي يرأسها الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة؛ كان سيرجيو فييرا دو ميللو، دبلوماسياً برازيلياً يعمل في الأمم المتحدة وكان قد تردّد في ترك عمله الجديد بصفة مندوب سام لحقوق الإنسان في جنيف، ليشغل منصباً مؤقتاً غامضاً من حيث سلطته، وهدفه في العراق. وقد قررت إدارة بوش بعد سقوط بغداد مباشرة أن البلد الذي شن الحرب يجب أن يسيطر على العراق بعد الحرب بمكاسبها، بغض النظر عن الخطاب حول الدور «الحيوي» للأمم المتحدة، ولم تقدم أي حوافز للبلدان التي عارضت الحرب؛ كي تشترك في إعادة الإعمار بقواتها وأموالها، لم يرَ بريمر أي سبب لتدويل العراق مع مرور الزمن، وكلما ذكر أحد الزملاء - عادة البريطانيين- الأمم متحدة في اجتماع، كان بريمر يحوّل عينيه، وكأن الموضوع إضاعة للوقت. يبقى الاحتلال شأناً أميركياً، وتعتمد شرعيته على شرعية أميركة.

قال لي السير جيرني غرينستوك، سفير بريطانية إلى الأمم المتحدة الذي زار بغداد في سبتمبر / أيلول بوصفه مبعوثاً لطوني بلير: «لم تكن الأمم المتحدة لتصبح قادرة على إبقاء الغطاء على ذلك. أولاً: لأنهم لم يكن لهم شعبية قبل أن يبدؤوا، وثانياً: لأنهم لا ينتجون ذلك النوع من القيادة. وثالثاً: لا يمكنك إدارة هذا النوع من التمرين من قبل لجنة كمجلس الأمن -لقد مضى على وجودي في مجلس الأمن خمس سنوات- وأنا أعلم أين تنتهي قدرة الأمم المتحدة، وكوفي عنان يعرف ذلك، فهو لم يتطلع قط لتولّي مسؤولية هذا المسرح». بين سيطرة الأمم المتحدة والسيطرة الأميركية كان هناك دائماً خيار ثالث: وهو التشكيل المبكر لحكومة عراقية مؤقتة، ليس من قبل البنتاغون والناس المفضلين الذين قام بانتقائهم، بل من قبل مؤتمر وطني تحت إشراف دولي، والدوائر الانتخابية الكثيرة في العراق، بما في ذلك تمثيل للسُّنة. بدا أن بريمر لم يفكر في ذلك قط، فقد يمضي قدماً بتصميم في خطته.

إلا أن فريق الأمم المتحدة الصغير في بغداد أتى بمزايا كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تفتقر إليها، ومن بين هذه الميزات: الخبرة في جهود بناء الأمة في تسعينيات القرن الماضي التي عدتها إدارة بوش غير ذات صلة، وعديمة الجدوى للعراق، وكان من بين الميزات أيضاً مجموعة من الموظفين العرب الذين كانوا على معرفة بسياسة المنطقة، كما أن الفريق كان أكثر قدرة من الأميركيين على الوصول إلى مجموعة أكبر من العراقيين والاستماع إليهم. سافر موظفو الأمم المتحدة إلى المحافظات السنية الساخطة التي كان العنف ضد الاحتلال قد بدأ يصبح خطيراً فيها، وسمعوا شكاوى العرب السنة الذين أحسوا بالتهميش بعد حلّ الجيش واجتثاث البعث. والتقى فييرا دو ميللو شخصياً في مدينة النجف المقدسة بآية الله علي السيستاني، أكبر مرجع شيعي في العراق، الذي يتمتع بدعم واسع بين صفوف الأغلبية الدينية في البلاد. رفض السيستاني لقاء مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة، وقد أوضح منذ البداية أنه يريد أن تجرى انتخابات في العراق في أسرع وقت ممكن، وأصدر فتوى أصر فيها على كتابة الدستور من قبل هيئة منتخبة وليست معينة، تم تعليق لافتات تحمل كلمات فتواه في سائر أنحاء المناطق الشيعية في بغداد. لكن حين حاول الذين كانوا يلتقون السيستاني في منزله المستأجر في أحد أزقّة النجف أن يبلغوا بريمر بأهمية الفتوى، صرفهم. وقد أكد لوفد كان يزوره قائلاً: إن «السيستاني يقول أشياء مختلفة في مجالسه الخاصة». لم يكن

يقبل أن يخبره أحد علماء الدين الشيعة كيف يسيّر شؤون البلاد، وبتشكيل مجلس الحكم، بدا بريمر كأنه يرى أن دور الأمم المتحدة قد انتهى. في الوقت الذي التقيت فيه فييرا دو ميللو في شهر آب لم يكن يعرف سبب بقائه في العراق، وقال: إن مهمته ستنتهي قريباً ويعود إلى جنيف.

لم يفتشني أحد في طريقي إلى فندق القنال الذي كان بناءً من ثلاثة طوابق على امتداد الطريق السريع شرق بغداد، اتخذته الأمم المتحدة مقراً لها: كان هناك نقطة حراسة لكن دون تفتيش. وكان موظفو فييرا ديميللو يشغلون قاعة في الطابق الثالث، لكن قبل أن أذهب إلى جناحه الذي كان في الزاوية، توقفت؛ كي أتحدث إلى مستشاره السياسي، وهو أستاذ جامعي لبناني، ووزير ثقافة سابق يدعى غسان سلامة. كان كل من فييرا دو ميللو وسلامة طالبين في باريس في أثناء أحداث مايو/أيار عام 1968، لكنهما لم يلتقيا إلا قبل أشهر قليلة، عندما طلب الموظف المدني الدولي البرازيلي من السياسي القديم المتمرس من بيروت، أن يساعده فيما بدا له مهمة مستحيلة، قال سلامة: «لم يكن يعرف شيئاً عن العراق وكانت معرفته بي أقل».

كان الأسبوع الأخير من إقامتي الأولى في العراق، وكان سيئاً بشكل خاص: مع استمرار الكهرباء في الانقطاع والعديد من الكمائن والتفجيرات في خط نفط كركوك، ومحطة توريد المياه الرئيسة في بغداد، وأعمال شغب قاتلة في البصرة، وتفجير كبير بسيارة مفخخة في السفارة الأردنية. مع أنني لم أكن أعرف وقتها، قبل يومين من زيارتي لفندق القنال أن الأمم المتحدة كانت قد تلقت تقارير استخباراتية عن هجومٍ وشيك بالقنابل سيقع.

برغم كل ذلك كان غسان سلامة الذي كان يشغل مكتب مفتش الأسلحة السابق هانس بليكس التابع للأمم المتحدة، يفكر بشكل تاريخي، وقال: «شعوري العميق هو أن المشكلة لا تكمن في بغداد، بل في واشنطن، فالأشخاص الذين اتخذوا قرار شن هذه الحرب، وقاموا بها وربحوها ليسوا من نوع الأمريكيين الذين اعتادتهم الدول العربية على مدى السنوات الخمسين الماضية؛ فهم ليسوا طاقم المهندسين، وليسوا الأمريكيين البراغماتيين الذين يحلون المشكلات». كان غسان سلامة الرجل القاسي ذو الحاجبين الأسودين الكثيفين يضع

قلادة ذهبية، واستطرد قائلاً: «إنهم أمريكيون جدد، أمريكيون غير معروفين، أمريكيون ذوو عقيدة ومخطط كبير، ولهم أصدقاء هنا لا يعرفهم الجميع ولهم مصالح - إنهم بشكل ما مبشرون».

أشرت إلى أن هؤلاء الأمريكيين الجدد ليسوا مختلفين عن بعض الأمريكيين القدامى الذين خاضوا الحرب الفكرية الباردة في أوروبة وآسية. أدرك سلامة الشبه.

«حين أستمع إلى وولفوويتز أحس أنه يخطئ بين بغداد وبرلين عام 1945. فهو لا يعرف المكان». واستعرض سلامة القرارات الرئيسة التي اتخذتها سلطة الائتلاف المؤقتة، مفنداً خطط الإصلاح الاقتصادي ونظام الاستثمار الجديد: «هذا البلد لا يحتاج على الإطلاق للخصخصة الكاسحة التي تتطلع إليها تلك الحفنة في واشنطن. فإما أنها عقدية أو أن لهم مصلحة، إنهم يريدون بيع ممتلكات العراقيين قبل أن تكون هناك سلطة عراقية شرعية» فهذه العقيدة حسب قوله هي التي كانت خلف اجتثاث البعث وحل الجيش، الأمر الذي تمخض عنه وقوع مشكلات أمنية، وأعمال تخريب متواصلة، ولو أن الأمريكيين في بغداد استطاعوا تحرير أنفسهم من «هذه العقدة الفكرية - الصناعية» في واشنطن «لكان بمقدورهم أن يقوموا بعمل أفضل» والكلام هنا لسلامة.

كان مكتب الممثل الخاص في نهاية القاعة يطل على طريق موصل وجدار أمني جديد من حجارة إسمنتية جوفاء، على مسافة قريبة جدًّا من فندق القناة. وكان القسم من الجدار الذي يقع تماماً تحت المكتب غير منتهٍ بعد، وكان يرتفع سبعة أقدام فقط من أصل ثلاثة عشر قدماً مخططاً له أن يكون ارتفاعه. خلع فييرا دو ميللو سترته، لكن ما إن جلس إلى طاولة القهوة مقابلي حتى كان بنطاله المكوي بعناية وقميصه الأزرق السماوي، وشعره الرمادي الأملس، فضلاً عن صوته التوكيدي الذي يذكر بممثلي الأفلام، قد جعل منه بكل التفاصيل الدبلوماسي الأنيق ذائع الصيت. كان عمل فييرا دو ميللو لدى الأمم المتحدة قد حمله من كمبودية وأنغولا إلى الإشراف على باكورة إعادة إعمار كوسوفو: وأخيراً ليقوم بدور بول بريمر في تيمور الشرقية.

عند وصوله في أوائل شهر يونيه/ حزيران، حاول فييرا دوميللو أن يساعد الأميركيين في الخروج من الورطة التي وجدوا أنفسهم فيها، وأن يساعد العراقيين في ذات الوقت. بدا بريمر الذي تولى مسؤولية مشروع في خطر، غير راغب في إرخاء قبضته، وكان المقترح الوحيد المعروض بدلاً من السيطرة الأميركية الكاملة هو مجلس استشاري من العراقيين لا يتمتع بصلاحيات رئيسة.

وقال فييرا دوميللو: «كانت رسالتي منذ اليوم الأول إليهم، وإلى جيري بوجه خاص، أن هذا الأمر لن ينجح. فلم أرَ نجاح ذلك في تجاربي في أماكن أخرى»، وأخبر فييرا دو ميللو بريمر أن المجلس يحتاج أن تكون لديه صلاحيات تنفيذية. «عليكم أن توكلوا إليهم مسؤوليات على الرغم من أنكم قد تواجهون التحديات. فالعراقيون مصابون بالصدمة، ويشعرون بالإذلال وهم على حق في ذلك، وكما تعلم فقد تيتّم العراقيون، فهناك فراغ كبير في السلطة عندهم، ربما يكونون سعداء برحيل صدام إلى غير رجعة، والحمد لله، لكنهم ليسوا سعداء بهذا الوضع».

بدأ فييرا دوميللو وسلامة وآخرون يعقدون سلسلة من المحادثات في أرجاء العراق مع عراقيين بارزين، وبدأت صفوف المجموعة الأصلية من المغتربين والأكراد تتوسع تدريجياً لتشمل أشخاصاً عاشوا في ظل نظام صدام، وأضحت المفاوضات مع سلطة الائتلاف المؤقتة أكثر ودّية، ووصلت إلى ذروتها. بينما بدأ العراقيون يؤثرون في اختيار الأسماء. وأمضى فييرا دو ميللو ساعات في إقناع ممثل عن الحزب الشيعي الرئيس بأن الانضمام إلى المجلس لن يكون انتحاراً سياسياً. وعندما اعترض بريمر على تعيين شيوعي قال فييرا دوميللو: إن العراقيين العلمانيين الذين لا يتحدثون باسم المجموعات الطائفية قد يكونون ضروريين. وذكر غسان سلامة العبارة العربية «مجلس الحكم» عوضاً عن اصطلاح «المجلس الاستشاري» الذي لا معنى له، واستخدمته سلطة الائتلاف المؤقتة. وفي أوائل شهر يوليو/ تموز أصبح مجلس الحكم أول سلطة من أهل البلد في العراق منذ سقوط نظام صدام. «ربما لم يكن نصف عدد الأعضاء موجودين لو قام جيري بالأمر على طريقته في النصف الأول من شهر يونيه/حزيران»، قال فييرا دو ميللو، واعترف أن المجلس قام بمهمته «وهو في

شرنقة»، وعلى الرغم من ذلك كان يعتقد أن الأمر سيكلَّل بالنجاح في النهاية، وأردف قائلاً: «مـا كنت لأجول في بلـدان المنطقة محاولاً الترويج لمجلس الحكم لـو لم أكن أؤمن بما أقوله؛ لأن آخر شيء أحتاجه، ويحتاجه التنظيم هو الترويج لمصالح الولايات المتحدة». كان يأمل في جدول زمني سياسي سريع، واستفتاء دستوري وانتخابات وطنية وبعودة السيادة بحلول مطلع الربيع. وهكذا سرعان ما يصبح الاحتلال ضعيفاً.

بصـفته ممثـلاً للأمين العام في العـراق، كان لدى فييرا دو ميللو كل المسـوغات لانتقاد إدارة بوش التي قضـت شـطراً كبيراً من العام المنصـرم، وهي تسـخر مـن الأمم المتحدة وترفضـها، حيث كانت صـورة الإدارة الأمريكية في العراق متدنية جدًّا، لدرجة أن فييرا دو ميللوّ شعر بالسخط والإحراج بسبب «عدم وجود سلطة»، لكنه رفض أن يكون فظاً؛ لأنه كان براغماتيـاً، ولأنه قام في يوم ما بدور كـدور بريمر في مكان آخر. فقد قال: «لا أريد أن أكون غير منصف مع الذين يتصدّون لمهمة شبه مستحيلة؛ لأنني قمت بأشياء مماثلة في السابق»، وتابع قائلاً: «يمكن توجيه الانتقاد بطريقة بنّاءة، لكن مجرّد الانتقاد دون إخبار الناس كيف يقومون بالعمل على نحو أفضـل هو تصرّف غير مسؤول؛ لأنك تجلس فوق السياج، ولا شيء أسهل من انتقاد أولئك الذين يواجهون التحدّي».

وقـد لمّح فييرا دو ميللو أن لبريمر وجهين: وجه يتّصـف بالنزعة الدولية، وربما يكون قد اكتسـبه من السنوات التي قضـاها في السلك الدبلوماسي، ووجه آخر ذو خط متشدّد يُظهر الإدارة في واشـنطن، وقد ازداد التقلب في العلاقة بين هذين الوجهين حين بدأت ما سـمّاها «شخصـية المحافظين الجدد لجيري» بالظهور، لكن حين سـألت فييرا دو ميللو إن كان من شأن المشاركة الأكبر للأمم المتحدة في وقت مبكر في العراق أن يحول دون وقوع بعض أخطاء سلطة الائتلاف المؤقتة، كان متواضعاً:

«نعم، كان بوسعنا أن نساعد، وكنا سنسعد جدًّا بذلك، كما أنني أشير إلى أخطائنا؛ لأنك إذا لم تعترف بسـبب اقتراف الأخطاء، وبالسـبب الذي يجعلك تقدّم درساً الآن، فلن يسمعك أحد. وربما كان بوسعنا أن نفعل ذلك. ومازلنا نستطيع فعل ذلك. مازال لدينا وقت».

نظر إلى ساعته: كان لديه مؤتمر صحفي في غضون بضع دقائق في الطابق السفلي.

بعد ستة أيام، وفي الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم التاسع عشر من شهر أغسطس/ آب، وهو اليوم الذي غادرت فيه العراق، مرت شاحنة برتقالية بسرعة فائقة على الطريق الموصل للمقر أمام الجدار الأمني الجديد تحت مكتب فييرا دوميللو. كانت القوات الأميركية تسدّ الطريق بشاحنة زنتها خمسة أطنان، لكن الأمم المتحدة لم تكن مرتاحة للوجود العسكري المكثف، فطلبت إزالة الحاجز، ومركز المراقبة الذي على السطح والعربات المدرعة التي أمام المجمّع.

كان سيرجيو فييرا دو ميللو جالساً إلى طاولة القهوة مع عدد من الموظفين والزوّار، عندما انفجرت قنبلة وزنها طن واحد، هرع غسان سلامة، والزجاج في شعره إلى القاعة فوجد مكتب فييرا دو ميللو قد انهار وسقط طابقان. فصرخ بالفرنسية: «سيرجيو، كن شجاعاً. استخدم اللغة الفرنسية بسبب تجربتهما المشتركة في مايو/أيار 1968. «نحن قادمون لمساعدتك».

ظهر ضوء في الجدار الخارجي المدمّر، ومع أن فييرا دو ميللو لم يُجب فقد رآه سلامة يلوّح بيده اليمنى.

«أجبني يا سيرجيو، هل أنت على قيد الحياة؟».

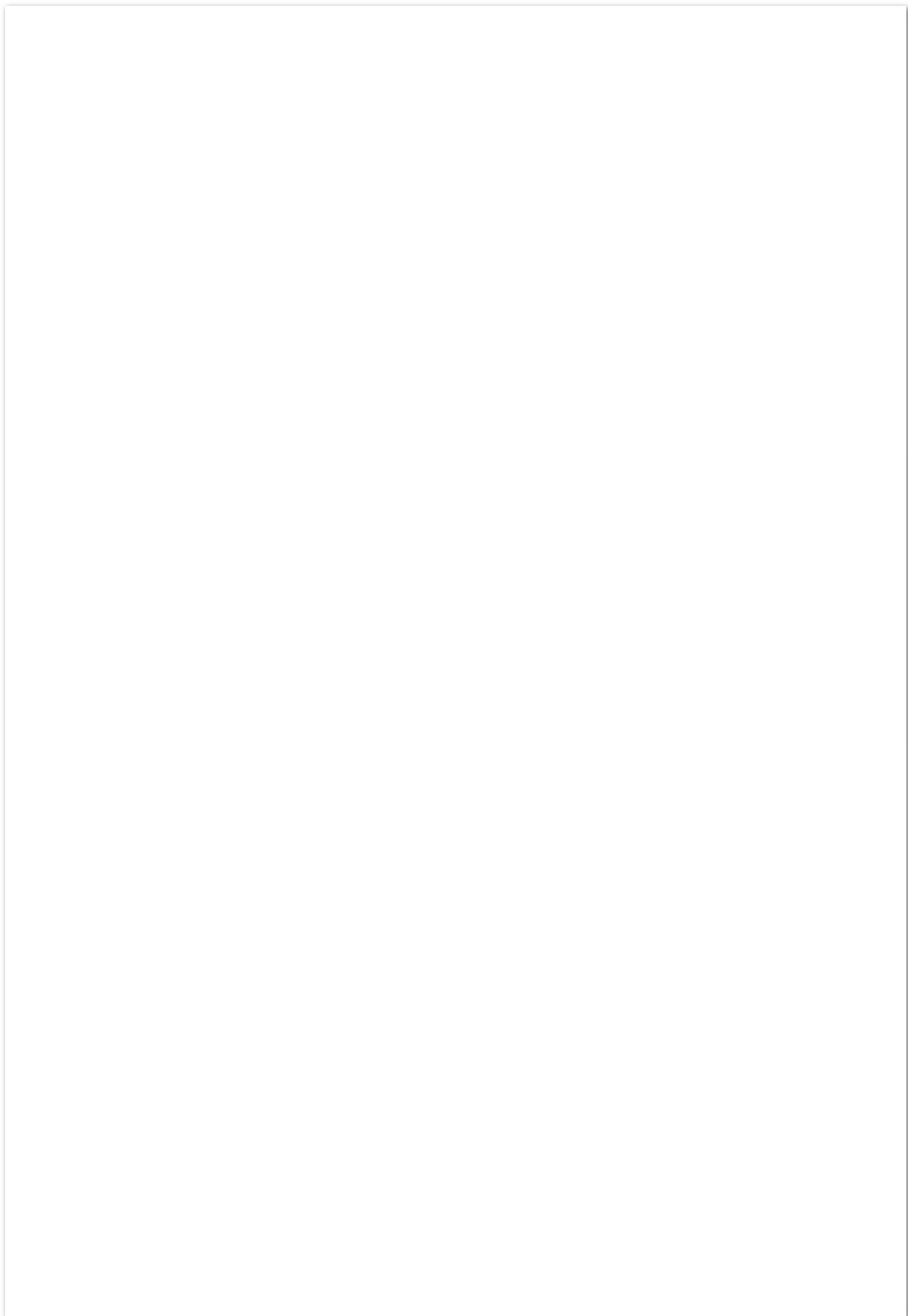
«نعم، يا غسان»

سقط طابقان على ساقيه، وصل الجنود الأميركيون على الفور، وأخرجوا سلامة من المبنى المزعزع. وساعد من الخارج في جهود إزالة الأنقاض. وبقي يتحدث؛ كي لا يفقد الرجل المصاب وعيه، لكن بعد برهة توقف الصوت عن الإجابة. في الساعة الثامنة والربع من مساء ذلك اليوم نجح الجنود أخيراً في إزالة الأنقاض، وتعرف سلامة على جثمان صديقه.

لقي واحد وعشرون شخصاً حتفهم مع فييرا دو ميللو، بمن فيهم مساعدوه المقربون وعمال الإغاثة الأجانب وموظفون عراقيون يعملون لدى الأمم المتحدة، كانت إلاهي شرسف

بور هيكس مسؤولة حقوق الإنسان المولودة في إيران قد غادرت مكتبها الذي يقع تحت مكتب فييرا دو ميللو مباشـرة قبل بضـع دقائق من وقوع الانفجار؛ لإحضـار القهوة، وهكذا نجت بحياتها. تبنّت القاعدة المسؤولية عن الحادث، لكن كان شك بأن بعض حراس المبنى الذين كانـوا يعملـون في عهد النظـام البائد، قد يكونون متورطين، بعد عشـرة أيـام، وعند انتهاء صـلاة الجمعة أودى انفجار سـيارة مفخخة أشـد قـوة بحياة محمد باقـر الحكيم الزعيم الروحـي لأكبر حزب شـيعي، مع نحو مئة شـخص آخرين، أمام أقدس مسـاجد المسـلمين الشـيعة في النجـف. وفي 20 سـبتمبر / أيلول أُطلقـت النار على عقيلة الهاشـمي في بطنها، بينما كانت تغادر منزلها لتسـتقل سيارتها، وتذهب لحضور اجتماع مجلس الحكم، وفارقت الحياة بعد خمسة أيام. وفي أثناء شهرين تناقص عدد الأجانب العاملين لدى الأمم المتحدة من 650 إلى نحو 40 ولم يبق منهم أحد في بغداد.

كان بـول بريمـر من بين الذيـن ألقوا النظـرة الأخيرة علـى جثمان سـيرجيو فييرا دو ميللـو في المطار، بينما كان يحمّل على متن طائرة؛ لينقل إلى البرازيل. ثم عاد إلى القصـر الجمهوري؛ ليقوم بمهمة حكم العراق وحده.



7

النقيب

بعـد وقت قصـير من سـقوط بغداد، بثّـت قناة الـCNN فيلماً عن رجال مـن المارينز، واجههم جمع من العراقيين الغاضـبين، وكانوا يصيحون عليهم: «إننا هنا من أجل حريّتكم اللعينة! والآن تراجعوا إلى الخلف!».

عندمـا تحوّلـت حرب التحريـر إلى احتـلال، رأى عشـرات الآلاف من الجنـود (الذين ظنّـوا أنهم سـيعودون إلى الوطن بحلول شـهر حزيران) أن مناوباتهم قـد تأجّلت، وتأجّلت، ثم تأجّلت. وسـرعان ما أصبحوا أكثر وجوه الاحتلال وضـوحاً. وجلس المهندسون الحربيون المدرّبـون على تفجـير حقول الألغـام في اجتماعات وزارة الميـاه في بغداد، وأمضـت القوات المحمولة جوّاً، التي تستخدم للدخول في مهمات والخروج منها في أثناء أيام، شهوراً في إنشاء قسم شرطة كركوك، وقام جنود فرقة المشاة الثالثة التي قادت الغزو بتوزيع الكتب الدراسية في مدرسـة بغداد للبنات. كانت مهام حفظ السـلام في البلقان قد أعطت بعضـاً منهم قدراً من الاستعداد، لكن لم يكن هناك أي تدريب على المشروع الهائل الملقى على أكتاف الجنود في العراق. كان أمام سـلطة الائتلاف المؤقتة شهور قبل إنشاء مكاتب إقليمية. ظل راي سلفادور جينينغـز، مستشـار USAID الذي كتب أحد التنبؤات عن العـراق بعد الحرب، وانتهت على مكتب بريمر، يتردد إلى الضـباط الشـبان الذين يحاولون إقامة حكومة في المدن متوسـطة الحجم، الذين قالوا له: «أنا أقوم بأفضل ما أستطيع، لكنني لا أعرف كيف أقوم بذلك، ليس لدي دليل، هل لديك دليل؟ سأكون ممتناً جدًّا لأي شيء تستطيع أن تقدّمه لي». وقد طلب أحد قادة الشـؤون المدنية من ألبرت سيفالوس، زميل جينينغز، تدريبه على قواعد روبرت للنظام 101. وتحقق كابوس دونالد رامسفيلد عن جيش من بنـاة الأمة في جميع أنحاء العراق.

وقد أراني أحد قادة فرقة رماة، اسمه النقيب جون بريور، سجلّ الحرب الخاص به لربيع 2003. فبعد أن حاربت فرقة شـارلي للكتيبة الثانية، وفوج المشـاة السـادس، والفرقة المدرّعة

الأولى لتشقّ طريقها من الكويت إلى مطار بغداد، بدأت وحدة النقيب بريور رحلة طويلة حول وسط بغداد استمرت قرابة ثلاثة أشهر، ويروي سجلّ بريور قصة جنود أدركوا أن ما سمّاه الرئيس بوش، في 1 أيار، نهاية «العمليات القتالية الرئيسة» لم تكن إلا البداية.

كان بريور شاباً في التاسعة والعشرين من عمره من ولاية إنديانا، طوله ستة أقدام، وكان قاسياً (فقد خمسة وعشرين باونداً من وزنه في الأشهر الخمسة الأولى في العراق). وكان قد التحق بهيئة تدريب ضباط الاحتياط في كلية صغيرة للهندسة في إنديانا، ثم قرّر أن يتخذ العمل العسكري مهنة له. كان له وجه طفولي وفكاهة جامدة، لا تناسب قسوته، قال بريور: «بعض الناس ولدوا للقيام بشيء ما»، حسب روايته، كان يحب حياة الجيش، وكان يحب تلقي الأوامر وإعطائها، «الأسباب السخيفة التي يقول الناس: إنها في الجيش، ويقولون: لا، لا يمكن أن تكون كذلك، تلك هي الأسباب ذاتها التي جعلتني أنضم للجيش. وحين أخفقت الجهود الدبلوماسية، ولم يستطع ماكدونالدز أن ينشئ وكالات كافية ليكسب بغداد، في هذا الوقت دخل الجيش».

في المهمة الأولى لفرقة تشارلي، بعد سقوط بغداد، أُرسل بريور إلى الرمادي غرب المدينة، لإخلاء جثة صحافية أرجنتينية، اسمها فيرونيكا كابريرا، كانت قد قتلت في حادث سير على الطريق السريع. كان بريور وجنوده أول قوات تقليدية تدخل الرمادي، التي كانت -في أواخر نيسان- قد أصبحت معقلاً للمقاومة البعثية. طلبت منهم القوات الخاصة، ووكالة الاستخبارات المركزية أن يبقوا عدة أيام للمساعدة في حراسة المدينة، وبينما كانت قافلة بريور المكوّنة من عربات البرادلي والهامفي، وناقلات الجنود المسلّحين تسير على الطريق الرئيس من الشرق إلى الغرب، بدأ أحد المساجد يردّد خطابات معادية للأمريكيين، وسرعان ما اجتمع حشد من ثلاث مئة أو أربع مئة عراقي. وجد بريور وجنوده أنفسهم وسط أعمال شغب، وقد انهالت الشتائم والفواكه والأحذية والحجارة، وأخيراً قطع الإسمنت عليهم وعلى مركباتهم. لم يطلق الأمريكيون الرصاص، ولم يُصب أحد بإصابة خطيرة؛ وقد أثنى بريور في سجلّه على جنوده لتحلّيهم بضبط النفس. في تلك الليلة أرسل بريور دورية أخرى على الطريق نفسه «لنري أهل الرمادي أننا أقوى منهم، وأكثر مرونة

وأننا جئنا إلى هنا لنبقى». تعرّضت هذه الدورية لإطلاق نار من أسلحة خفيفة من الحارات المظلمة، لكن القناصة اختفوا قبل أن يستطيع الأمريكيون إيجادهم.

وفي الأيام اللاحقة في الرمادي وبعدها في الفلوجة القريبة منها، سجّل بريور سلسلة من الهجمات على المنازل، ومحلات الأسلحة. «يكتسب جنودنا خبرة كافية لمعرفة الفرق بين أن نكون لطفاء مع الناس، ومتى يحين الوقت كي لا نكون لطفاء، ونرمي الناس على الأرض». تقوم شركة تشارلي بالانتقال الصعب من العمليات القتالية إلى عمليات الاستقرار -من المرحلة 3 إلى المرحلة 4- وبريور سعيد بدهاء جنوده. ثم دخل شيء جديد وغريب في حساباته: ألا وهو العراقيون.

في الرمادي، قام رجل يتحدث الإنكليزية بشكل غير جيد من بين عراقيين آخرين بسحب بريور جانباً بشكل مفاجئ، ووضع يده حول أذن القائد، وهمس بإنكليزية لا عيب فيها: «أنا أمريكي، خذني معك». وحين حاول بريور أن يعرف المزيد عاد الرجل يزلّ في الإنكليزية غير الجيدة ثم سكت. وفي يوم آخر، اقترب رجل، بصحبة زوجه وولده من جندي عند بوابة الجامعة. كان يتحدث الإنكليزية بشكل ممتاز وبلهجة بريطانية، وأخبر الجندي بقصته: ذكر أنه درس في إنكلترة، ثم عاد إلى العراق عام 1987، ولم يعد يستطيع الخروج منه منذ ذلك الوقت. حذّر الرجل الجندي من الوثوق بالعراقيين، وقال: إن الأمور ليست كما تبدو. فجأة توقفت شاحنة بيضاء وخرج منها سبعة رجال متأنقين. فاختفى الرجل الذي كان عند البوابة مع زوجه وابنه قبل أن يتمكن العراقيون من الكلام معه. فتبعه بريور والرقيب أول، مارك لاهان، إلى البيت ليروا إن كان هو وعائلته في خطر. والآن قال الرجل بلغة إنكليزية مكسّرة: إن كل شيء يسير على ما يرام.

وفي حادثة غامضة أخرى، اقترب رجل من لاهان، وهو يقوم بدورية ليلية، وسأل بصراحة: «كيف تسير الأمور في بغداد؟ هل حدثت أي تفجيرات انتحارية؟ هل قتل أي من الأمريكيين؟» وحين أجاب لاهان أنه لم يحدث شيء من هذا النوع، بدا الرجل مدهوشاً. ويعلّق بريور في سجلّه قائلاً: «من الممتع بعد أن انتهى معظم القتال في هذه البلاد أن نرى أن حملة التضليل التي يقوم بها المتشددون العراقيون مازالت مؤثرة، وسيستغرق الأمر مدة

طويلة ليصبح هؤلاء الناس قادرين على الثقة ببعضهم من جديد، وعلى فهم الكيفية التي يفترض أن تعمل بها الحكومة والقانون والنظام». في الحقيقة لم يكن التضليل من المقاومين من النظام السابق. فحرب العصابات توشك أن تبدأ.

كتب بريور في 26 نيسان، بعد خمسة أيام في الرمادي: «بدا الوضع كله غريباً جدًّا، فمن الواضح الآن أنهم ليسوا سعداء بوجودنا هنا كما يقولون. أول مرة منذ مدة شعرت بالتوتر الشديد؛ لكوني على هذا القرب الشديد؛ من المواطنين العراقيين. أنا لا أثق بهم». وفي عنوان آخر من الفلوجة، كتب بريور: «العراقيون شعب ممتع، لا يملك أي منهم أسلحة، ولا يعرف أي منهم مكان الأسلحة، كل السيئين غادروا الفلوجة، وهم لا يريدون إلا أن تعود الحياة إلى طبيعتها من جديد. لسوء الحظ، فقد تم ضرب مجمّعنا بقذائف RPG اليوم؛ لذا لا أميل إلى تصديقهم».

الرمادي والفلوجة هما المدينتان الرئيستان في محافظة الأنبار، وهي منطقة صحراوية واسعة للعرب السنة المحافظين، ومكان لعدد كبير من المسلحين العراقيين وضباط الاستخبارات، كانت محافظة الأنبار آخر المحافظات سقوطاً على يد قوات التحالف، وتم ذلك دون إطلاق رصاصة واحدة. حتى وصول الجنود الأمريكيين، كان القادة المحليون قد سيطروا على المدن ومنعوا أعمال النهب فيها. وفي الأنبار بدأ التمرّد، وقد قال لي شيوخ العشائر لاحقاً: إن كل ذلك لم يكن ضرورياً. فقد كانت المحافظة مستعدة للتعاون مع التحالف. ولو بقي الأمريكيون خارج المدن، لما تجمّعت الحشود للاحتجاج، ولم يكن الجنود ليطلقوا النار على الجموع، كما فعلوا في الفلوجة في 28 و30 نيسان، حيث قتلوا ثمانية عشر مدنياً، ولما ردّ العراقيون بالمثل بالقنابل والأسلحة الآلية، ولما بدأت الحرب الثانية.

هذه الرواية فيها شيء من الصحة؛ فالوحدتان الأمريكيتان اللتان سيطرتا على الرمادي والفلوجة كتيبة سلاح الفرسان الثالثة والفرقة الثانية والثمانون المحمولة جواً على التوالي كانتا غير مناسبتين للعمليات المدنية، ولم تكونا تريدان الوجود هناك، وكانت ردود أفعالهما على الاستفزازات مبالغاً فيها، كتب بريور: «لم تعجبني عمليات كتيبة سلاح الفرسان الثالثة في الرمادي، لم يبد أن لديهم فكرة عما كان يحدث، ولا شعور بخطورة الوضع، ولم يكن أحد يعرف ما كان عليه الوضع في القطاع، ولم تستطع أي من القيادات تقديم أي إرشادات أو

إجابات». ولما كانت الكتيبة قد وصلت إلى العراق متأخرة جدًّا، وسط الرمال والحرّ والسكان المحليين غير الودودين، فقد بدت غير قادرة أو غير راغبة في الانتقال إلى المرحلة 4: «لم يظهر أنهم مستعدّون أو أنهم فهموا مهمة العمليات المدنية الموكلة إليهم، وقد أوحى إلي سلوكهم تجاه قواعد الاشتباك أنهم لم يقوموا بالتغيير من عمليات القتال إلى عمليات الاستقرار». كذلك لم يكن ضرب منزل أحد الزعماء القبليين الذي كان يتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية سنوات، بسلاح الجو الأمريكي وقتله هو وسبعة عشر فرداً من أفراد أسرته، أمراً مساعداً. ولجهل الفرقة الثانية والثمانين في الفلوجة بالثقافة العربية وافتقادها للخبرة المدنية (لم تأتِ سلطة الائتلاف المؤقتة إلى الأنبار حتى شهر آب)، فقد رفضت التعويض لأسر القتلى في حوادث نيسان. وحين استولى رجال البحرية على الفلوجة في أوائل عام 2004 وقدّموا الديّة متأخرين، رفضتها معظم العائلات.

لكن سجلّ بريور يظهر أن الأنبار كانت سبباً للفشل الأمريكي. فعملاء وكالة الاستخبارات المركزية CIA، والقوات الخاصة التي دخلت الفلوجة أولاً لم تجد أحداً يعمل معها، كتب بريور: «كان رجال الدين والشيوخ والقادة الحكوميون في المنطقة يشتكون مدة من الوقت أنهم بحاجة للمساعدة في إزالة العناصر السيئة من مدينتهم، كان هذا هو السبب الرئيس في أنهم لم يقدموا مزيداً من المساعدة، وفي أنهم كانوا يتلكؤون في القيام بأي شيء». لكن حين أرسل العملاء الأمريكيون وحدة مشاة صغيرة لتقديم الدعم، قوبلت بأعمال شغب، مما أوجب استدعاء الوحدة الثانية والثمانين المحمولة جواً للسيطرة على الوضع، وقد قال بعض المحللين العسكريين الأمريكيين لاحقاً: إن المشكلة في الأنبار لم تكن وجود قوة كبيرة، بل قوة قليلة جدًّا ومتأخرة جدًّا. كانت الدراسة يجب أن تكون أدقّ مما كان باستطاعة أفضل الوحدات استعداداً، ثم أدى كل خطأ دوراً في زيادة سوء النية وتسريع التمرّد.

قام جنود بريور بقيادة مركبة، وضرب بوابة، وتحطيم جدار حديقة، في طريقهم لدهم المنزل الخاطئ، وحين ضربوا المنزل الصحيح الذي كان بجوار المنزل الأول لم يمسكوا إلا اثنين من خمسة إخوة كانوا يبحثون عنهم. سجّل بريور أن الهجوم كان ناجحاً، لكن قبل أيام، كان قد علّق بأن الأساتذة في جامعة الرمادي الكئيبة التي تعصف فيها الرمال، كانوا يحمون الممتلكات بأسلحتهم الخاصة، وألقوا اللوم على الأمريكيين؛ لخرقهم الأسلاك الشائكة،

مما سمح دون قصد للناهبين بالدخول. لم يكن أحد يستخدم عبارة «القلوب والعقول» بعد، لكن بريور على خلاف قادته في قطر وواشنطن، كان يعلم أنها فرصة ضائعة: «يبدو الناس في الجامعة محايدين تجاه القضية الأمريكية، وكانوا أنموذجاً للناس في الجامعة، فهم متحررون، وغير مقدّرين من الجيش، ويريدون اللعب على كلا جانبي المعادلة. وكان انطباعي عنهم أنهم لا يهتمون إن وجد الأمريكيون أو الفدائيون، وكان كل همهم ألا تتعرض الجامعة لمزيد من النهب. بدا من الممكن شراء ولائهم مقابل حماية جامعتهم».

كان بريور من بين أول الجنود الذين صدمتهم الطبيعة الخفيّة للأشياء في عراق ليس في حالة حرب ولا في حالة سلم، لم يكن شيء كما كان يبدو، كانت قوة السلاح والنوايا الطيبة أقل أهمية من تعلّم قراءة الإشارات، وكان بريور يرى نفسه محرّراً، لكنّ هناك أُناسٌ في الخارج يمكن كسب دعمهم أو خسارته، ولا شيء يأتي بسهولة، وكان لكل حكم يصدره أثر صغير في النتيجة. والعراقيون الذين لم يعودوا تلك الجموع المبتهجة التي رحّبت بالشركة في طريقها إلى بغداد سيؤدون دوراً كبيراً في حياة بريور الآن.

استمرت الهجمات في الرمادي والفلوجة قرابة الشهر، ثم تم استدعاء فرقة تشارلي للعودة إلى بغداد، وانتهى سجلّ قائدها بريور كما يلي: «أخمدنا المشكلات وغادرنا»، لكنه قال لي فيما بعد: «عادت المشكلات من جديد».

أمضت فرقة تشارلي الشهر الأول لها في بغداد في حديقة الحيوان (كان الجنود هناك سابقاً في منتصف نيسان، في مهمة لحراسة شاحنة محمّلة باللحوم المجمّدة كتب عليها: «هدية من الشعب الكويتي إلى الشعب العراقي»). أمضت الوحدة شهراً تجلب الأمن إلى المنطقة، وتنشئ مجلساً للحي. وبعد ذلك، في أواخر حزيران، نُقلت الفرقة من جديد، إلى أكاديمية عسكرية في جنوب بغداد (كانت الثكنات مزيّنة بورقة الكريبي منذ رمضان الفائت)، بجانب الأنقاض المقصوفة لمخيم عسكري كبير، وحقل جوي كان قد تحوّل إلى مأوى لخمسة آلاف شخص مشرّد، وبعض السارقين والمجرمين. لم تكن الخطوط الأصلية للواء مرسومة، بحيث تتوافق مع المناطق التنظيمية لبغداد، وفقدت وحدة بريور زخمها الحاسم، قال بريور: «كنا نخطط لهذه الحرب منذ 12 أيلول، وربما كان من المفيد لو قام

شـخص برسـم خريطة قبل الحرب، وحدّد فيها أين يذهب كل منا، بعد كل الأمور التي قمت بها، عليك أن تنتقل، أي في وقت غير مناسب، بعد أن أصبح لنا أصدقاء هناك».

وفقاً للجدول الزمني الأصـلي للواء، كان من المفروض إعادة بناء البنية التحتية لبغداد في شـهر آب، وأن تتم الانتخابات في أوائل أيلول، وأن يغادر الجنود المدينة في تشـرين الأول، لكن هذا التوقع السـريع سـرعان ما تمّ التخلي عنه، بالطبع، ولم يسـتطع بريور وجنوده أن يبـدؤوا بـأي عمل مهـم في موقعهم الدائم حتى أوائل تموز. وبسـبب التخطيط المشـوّش لم تبدأ أنشـطة فرقة تشـارلي بتقديم فوائد ملموسـة للعراقيين حتى شـهر آب، أي بعد أربعة أشـهر من وصـول الأمريكيين إلى بغداد. ولم يكن هناك وقت لإضاعته، طوال الصيف كان التيار الكهربائي يعمل بشـكل متقطّع، واسـتمرّ العنف من جميع الأنواع في التصاعد، وفقد الأمريكيون العراقيين الذين كان من الممكن أن يكسبوهم إلى صفّهم.

وفي صـباح أحـد الأيام في أوائل شـهر آب، كنت جالسـاً في مطعم معسـكر القاعدة مع بريور والرقيب أول لاهان ومترجمهما نعمان النعمة، وهو رجل أشـيب كان يعمل مهندساً في الخطوط الجوية العراقية سـابقاً. فتح بريور خريطة لنقاط الأمن في بغداد، وأراني الجزء الذي «تحت سـيطرته» من المدينة، فقد كان ذلك الجزء هو مسـتطيل الزعفرانية، وهو حي فقـير أكثر سـكانه من الشيعة في جنوب بغداد. يعيشـ نحو 250 ألف شـخص في المنطقة. وبالإضـافة لمسـؤوليته عن الأمن، كان بريور يرأس مجلس الحي، ويشـرف على مشروعات صـغيرة لإعادة الإعمار، كترميم المدارس. وكذلك كان هناك مسؤول عن الصرف الصحي والنظافة في كل منطقة كتيبته التي تضم نصف مليون شخص.

قال بريور أكثر من مرة: «البنية التحتية هي الأساس الآن، فإذا حصل هؤلاء الناس على الكهرباء والماء والطعام وأساسات الحياة فسيقلّ احتمال قيامهم بالهجمات». وقد أدرك أن الصـرف الصـحي هو الخط الأمامي في بناء الأمة، وحين قابلته كان يحاول الحصول على مئتي ألف دولار؛ ليضعها في أيدي المتعهدين العراقيين بأسرع ما يمكن.

أصرّ المترجم على بريور: «هذه هي الإجابة، أرنا شيئاً، الناس جائعون، إنهم لا يصدّقون أنهم تخلّصوا من صدام، فإذا تخلصوا من صدام، فسيقولون: أعطني شيئاً آكله. لهذا يكره

الناس الأمريكيين. نحن لا نكرههم لأنهم أمريكيون، بل لأنهم القوة العظمى، لكن أين القوة العظمى؟ أرونا إياها».

نظرت إلى بريور: «إذاً هذا كله على عاتقك».

فقال: «نحن نعرف هذا طوال الوقت».

خرجنا إلى شوارع الزعفرانية في القافلة المعتادة التي تتألف من عربتي هامفي مع قناصة معززين بأسلحة Caliber - 50. وحين اختفت أذنا بريور وقصة شعره الصبيانية تحت خوذة الجيش الأمريكي، تحوّل وجهه فوراً إلى وجه جندي محنّك. كانت مهمّته في هذا الصباح زيارة تسع محطات ضخّ، توجّه مياه الصرف الصحي غير المعالجة إلى نهري دجلة وديالى. كان لفقر العراقيين، مقارنة مع فخامة قصور صدام ونُصبه أثر عميق في الجنود الذين جاؤوا من مدن صغيرة في إنديانا وأوكلاهوما، وفيما يخص الكثير منهم كانت الرغبة في المساعدة هي الشيء الوحيد الذي جعلهم يرضون بمهماتهم المطوّلة. وكانت الجولة في حي شيعي فقير، والاطلاع على الصرف الصحي فيه يظهر أن صدّاماً جعل من الأجزاء التي لا يفضلها في العراق بمستوى كينشاسا ومانيلا. كانت البرك الخضراء من النفايات غير المعالجة، التي يبلغ عمقها ثمانية عشر قدماً، تسدّ الطرقات بين المنازل، حيث كان الأطفال يلعبون. كما كانت الخنادق المفتوحة التي تمثل نظام الصرف الصحي في المنطقة فائضة.

علّق بريور «كم أنا أحمق، إذ لم أدرك أن الوحل المفتوح الذي يمرّ أمام الأطفال هو الطريقة التي يفترض أن يعمل بها النظام»، لم يكن لديه صلاحية فورية بتجديد كامل لنظام الصرف الصحي وقال: «سأقوم بدعم خط الوحل المفتوح لمياه الصرف الصحي لجعله يسيل». ارتفعت الحرارة، وأصبحت الشوارع خانقة، وتحرّك بريور بمشية عسكرية وخطوات جدية، وكان المهندسان من الكتيبة الأخرى يبذلان جهداً للّحاق به. كانت محطّتا الضخ المعطوبتان قد تمت صيانتهما وحراستهما من قبل أسرة عراقية تعيش في كوخ في الجوار وتدير مزرعة خضراوات، وتملك سلاحاً من طراز AK 47. لم يدرس بريور الهندسة المدنية في حياته -وذكّرني أن وحدته لا تضم أحداً ممن له خبرة في تخطيط المدن- لكن كان

يبدو أنه قد تمرّس في أعمال نظام الصرف الصحي في الزعفرانية. وقد قال لي لاهان الذي سبق لـه العمل في حرب الخليج: «يقول الناس: إن الجيش سبق له القيام بهذا، عام 1945 مع اليابان وألمانية. لسوء الحظ، لم يعد أي من هؤلاء الناس في الجيش؛ لذا علينا أن نخمّن ذلك بأنفسنا».

وبوجود بريور لم تكن هناك محاولات جدّية لكسب القلوب والعقول في جلسات الشاي. كان عملياً وسريعاً جدًّا، وبدا أن العراقيين الذين كانوا يعملون معه، والذين كان لديهم كلامٌ أكثر من الوقت الذي يعطيهم إياه بريور للكلام، كانوا يحترمونه. «سأحضر لك المال»، قال لرجل عجوز أشيب كان يشرح له بإسهاب أن هذه المضخة معطلة: «ستة آلاف دولار؟ نعم، نعم، عظيم. ابدؤوا العمل. ابدؤوا العمل».

وبعد ذلك زرنا محطة وقود الزعفرانية التي كانت أيضاً من مسؤوليات بريور. في البداية، سخَّر جهده لجعل الزبائن ينتظرون في صفوف منظمة. قال بريور: «أنت تحاول بطرق كثيرة أن تعلّمهم طريقة جديدة للقيام بالأشياء، قد تكون كلمة تعليم خاطئة، فهم أناس قادرون ومؤهلون وأذكياء، نحن فقط نعطيهم طريقة مختلفة لحلّ مشكلات محددة».

كانت مهمّة بريور حلّ خلاف بين إدارة محطة الوقود وبين المجتمع الممثل في عدد من أعضاء مجلس الحيّ. عقد اجتماع في مكتب الإدارة المجهّز بمكيف هواء لا يبرّد بشكل كافٍ. أراد أعضاء المجلس تخصيص ثلاث مئة ليتر من المازوت أسبوعياً لمولّدات الحيّ، أما المديرون فأرادوا إذناً خطياً من وزارة النفط. أخرج أعضاء المجلس عدّة تصريحات موقعة من قبل ضباط أمريكيين. حاول بريور دفع الحوار للأمام، لكن العراقيين استمروا في الجدال، إلى أن أصبح من الواضح أن المشكلة أصبحت أكثر من خلاف حول المازوت، فقد تمت إزالة واحد من أكثر الأنظمة هرمية وتدرجاً في العالم بين يوم وليلة تقريباً، ولم يحلّ محله نظام آخر حتى الآن. ومجالس الأحياء كانت عبارة عن أجنة غير مكتملة النمو لحكومة محلية. لجأ العراقيون المشوشون المحبطون الذين لم يسمح لهم بالقيام بأي مبادرة من قبل إلى الأمريكيين، الذين بدا أن لديهم كل السلطة والمال، أما الأمريكيون الذين لم يكونوا يرون أنفسهم محتلّين فقد حاولوا إجبار العراقيين على العمل في مؤسساتهم، لكن المؤسسات كانت مفككة إلى درجة كبيرة.

كان الذباب يقف على شعر بريور القصير. قال لأعضاء المجلس: «ياشباب، لقد تحدثنا عن هذا مدة عشرين دقيقة، افعلوا كما أقول لكم. اذهبوا إلى وزارة النفط، قوموا بذلك فقط، هذا فقط. وعندها لن يكون عليكم أن تحتفظوا بكل هذه الأوراق، ولن يكون علينا أن نتحدث».

كان الجميع قد بدأ يغضب. وقد قال أحد أعضاء مجلس الحي لبريور: إن العراقيين الآخرين يشكّون بأنهم يجنون ملايين الدنانير من الخدمات العامة. كانوا يعدّونهم متواطئين؛ وقد تم تهديد حياتهم.

غيّر بريور لهجته وخفف من الضغط: «سأخبركم جميعاً بصراحة أن أمامكم عملاً شاقّاً جدًّا»، وقال: «نحن لا ندفع لكم، كما أن شعبكم غاضب ومحبط، وأنا أعلم أنهم يفرغون غضبهم عليكم، وأنا أشكركم بالفعل على ما تقومون به. ربما لا يفهمون أو يقدّرون ذلك الآن، لكنني أقول لكم: إن جهودكم هي التي ستغيّر هذه البلاد».

كانت هناك مشاجرة خارج المكتب، أصوات عالية متّهمة. ارتدى بريور خوذته وسترته المضادة للرصاص، وتحسّس بندقيّته، وخرج إلى مضخات الوقود. ترك الزبائن الذين كانوا ينتظرون في صف طويل سياراتهم واحتشدوا، ومما زاد الأمور سوءاً أن الجنود الذين كانوا يقفون قرب عربات الهامفي كانوا يحاولون التدخّل. وفي وسط الفوضى أثبت بريور أن أحد موظفي وزارة النفط قد أتى لجمع عينات من المازوت من كل محطات الوقود؛ لإجراء الاختبار الروتيني. وكان أحد أعضاء المجلس يتّهمه بسرقة البنزين.

فقال بريور: «لا اتهامات. دعونا نذهب ونرَ».

تبعه الجمع تحت الشمس المحرقة إلى شاحنة موظف الوزارة، كان في الخلف خمس صفائح معدنية. فتح بريور الصفيحة الأولى محاولاً أن يثبت وجهة نظره وشمّ وقال: «مازوت». وفتح الثانية: «مازوت»، وبينما كان يفتح غطاء الصفيحة الثالثة وينحني ليشمّها، انطلق رذاذ المازوت الساخن على وجهه.

سكت الجميع. وقف بريور دون حراك محاولاً ضبط نفسه. أغلق عينيه وعصرهما وضغط عليهما بأصابعه. كان الوقود على خوذته، وسترته. أسرع إليه جندي بزجاجة ماء، ثم عاد كورس الصياح يعلو من جديد.

صــاح بريور: «اصــمتوا جميعاً! فأنا ســأحلّ الموضوع. ما المشــكلة؟ لا اتهامات». بدأ وقد تعرّق وجهه يطلب من عضــو المجلس الذي يوجه الاتهام، الذي بدا خجولاً: «اذهب وأحضــر عامل المحطة الذي باعه البنزين».

- «لا أستطيع إلا أن أحضر الرجل الذي باعه المازوت».

- «إذاً، كيف تعرف أن شخصاً ما أعطاه بنزيناً؟ هذا درس مهم لكم جميعاً!» كان بريور يتحدث إلى الجمع الآن، بينما كان مترجمه ينقل الدرس إلى اللغة العربية بشــكل مســعور: «لقــد خرجتــم هنا، وقلتم: إن هذا الرجل لص، والجميع غاضــب وســيتم طرده، وها أنتم تتراجعون الآن».

قال عضو المجلس: «لـم يكن ذلـك مجرّد اتهام، لقد قاد الرجل سيارته على الجانب الخاطئ».

- «لكــن مــا دليلك على أنه فعل ذلك؟ انتظر! تريّث! أنا أحاول أن أوضــح فكرة هنا. هل يعجبــك أن يقتحم جنودي بيتك؛ لأن جيرانك قالوا: إن لديك أســلحة من طراز R.P.J، وأنا لم أرهـا لكنني اقتحمت منزلك، فكيف ستشعر؟ توقف عن اتهامه، حباً بالله».

- أصرّ عضو المجلس: «لقد أمسكته بالجرم المشهود».

- «كلا لم تفعل».

- «حسناً، لا مشكلة».

لم يكن بريور يترك الموضــوع يمرّ هكذا: «بل هناك مشــكلة. المشــكلة أنكم أيها الناس، تتّهمون بعضكم دون دليل. هذه هي المشكلة».

انتهت محاضرة بريور حول عدم وجود دليل، وما يجب فعله، وتفرّق الجمع، وتمّ استئناف الاجتماع في الداخل. حاول بريور أن يضــحك من الحادثة، ويتجنّب النظر إلى وجه المتّهَم. «مــن لا يحب المــازوت في عينيه؟ أعني. الجميع يحبّه»، وفيما بعد قال لي: «أتمنى لو أنني لم أفقد أعصابي. لم أغضب بسبب المازوت، وإنما من الطريقة التي كانوا يتشاحنون بها».

وبعد الظهر دعاني اثنان من أعضـاء المجلس، هما أحمد أوغلي وعبد الجبار الدويش، للغـداء. كان الرجـلان فقيرين، ولم يكن لأي منهما بيت يدعوني إليه؛ لذلك أكلنا في غرفة الجلوس ببيت صـهر أوغلي، وجلسنا على الوسائد. قبل أن يكون الأمر خطراً عليهم وعلي، دعيت إلى تناول الطعام في بيوت عدد من العراقيين، وكان الكرم المشهور لدى العرب يعني دائمـاً أن نجلس عدة سـاعات، ونحن نتناول أطباقاً متنوعة مـن الحمّص والخبز العربي، والمقبلات الباردة، وحسـاء الفاصـولياء، والدجاج والأرز، والحلويات، والشـاي، والبيبسي (الـذي لم يكـن متوافراً أيام صـدام، وكان من علامـات البذخ). كانت النسـاء اللائي لا نراهـن في البيت قـد جهّزن أكثر جدًّا مما يمكن لأي شـخص تناوله، وكانت كميات كبيرة من الطعام ترمى.

وعنـد اقتراب الوجبة من نهايتها، قال أوغلي، عضـو المجلس الذي كان مدرّس رياضـة يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره: «من الجيد أن جون بريور فقد أعصابه، كانت مشكلة اليوم صغيرة، ولو أخبرتك عن مشكلاتنا، فلن تصدّق. لقد أنهكونا». كان أعضاء المجلس يعملون دون مقابـل، دون أجر، حتى إنهم لم يكن بمقدورهم الحصـول علـى أجهزة هواتف خليويَّة أو نفقات سفر من وكالة الاستخبارات الأمريكية. وكان منزل عضو آخر من أعضاء المجلس شـبه مدمّر (وقد قُتل ستة من جيرانه) بصاروخ ضـالّ أطلقه الجنود الأمريكيون بالخطأ، وهم يتخلّصون من المدفعية العراقية التي لم تنفجر، وكان هناك تدقيق في جهوده للحصول علـى تعويضـ في كل مرة، قال أوغلـي: «بريور يبذل أكثر من جهده، لكنه أيضـاً محكوم من قبل قادته».

كان دويش، وهو أب لأربعة أطفال وعاطل عن العمل، قد قضى ثماني سنوات في السجن في عهد صـدام لانتمائه لحزب الدعوة الإسلامي (حيث التقى بالشيخ عماد الدين العوضي وسـمع موعظتـه عن نظام حكم بيد رجال الدين). وعلـى الرغم من أن ذلك لم يكن ممكناً بعد، فما زال يأمل بقيام دولة إسـلامية في المسـتقبل، كما كان حال 80 بالمئة من العراقيين، حسبما أضاف.

قال أوغلي: «هذا رأيه الشخصي، ليس ثمانين بالمئة».

في الوقت الحاضر، رأى دويش أن العمل مع القائد بريور في مجلس الحي أفضل طريقة يخدم بها بلده. كانت توقعات العراقيين تسقط على رؤوس أعضاء المجلس، وكان دويش يعتقد أن الموظفين الأمريكيين الأعلى مستوى من بريور لا يهتمّون بحلّ المشكلات.

قال أوغلي: «الناس يتفرّجون، وحين أعود ليلاً يكونون في الانتظار، إنهم يريدون أن يعرفوا ما نفعل. في الأسبوع الماضي أخبرتهم عن المدارس، ومشروعات الصرف الصحي. كانوا سعداء، لكن هذه مشروعات قديمة جدًّا، وكانوا قد وعدوا بها منذ وقت طويل».

اقترح دويش أن يعطي الأمريكيون مئة دولار لكل عائلة عراقية. وهذا من شأنه أن يخفف من إحباط الناس، وقد قال دويش: «لا أعلم لماذا لا يقوم الأمريكيون بهذه الأمور، فالعراقيون يجدون صعوبة في فهم الأمريكيين».

فقال أوغلي: والأمريكيون أيضاً لا يستطيعون فهم العراقيين جيداً، «فلم يأتِ الأمريكيون إلى هنا لفهم الناس. لقد جاؤوا إلى هنا لتأدية عمل، وهذا ما سيفعلونه. والعراقيون يعملون معهم عن قرب، لكنهم لا يحاولون فهمنا». والنتيجة، كما قال أوغلي أن إنجازات الأمريكيين في العراق ستكون محدودة.

كان الأمريكيون يستخدمون عبارة للإشارة إلى عادة العراقيين بتسليم بعضهم. وقد استعملها بريور مرة: «هؤلاء الناس يبيعون بعضهم كأن الغد لن يأتي»، بهذه الخيانات، لعب العراقيون على مخاوف الجنود وجهلهم، وجرّوهم إلى عداوات شخصية ليس للأمريكيين سبيل للخوض فيها.

في الليلة التي أعقبت الاجتماع في محطة الوقود خرج بريور وبضع عشرات من الجنود من فرقة تشارلي في عربتي همفي (غير مدرّعتين، وحتى إن إحداهما بلا أبواب) وعربتي برادلي للبحث عن مشتبه فيه من ميليشيا الفدائيين. استخدم بريور لهذه المهام مترجماً آخر: بدلاً من مهندس الخطوط الجوية العراقي المسن الذي يتمتع ببصيرة ثقافية لا تقدّر بثمن في أثناء الاجتماعات اليومية، كان المترجم الليلي شاباً ضخماً عدواني السلوك. توقعت أن أرى الجانب الأقسى لبريور وفرقة تشارلي في تلك الجنة، فقد كانوا جنوداً في النهاية، لا مهندسين مدنيين.

صادف أن اسم المشتبه به صدام حسين، وكان على قائمة الأهداف عالية الأهمية، ورقمه 497، وكانت تلك هي الزيارة الثانية التي يقوم بها الأمريكيون لمنزله. كانت الإخبارية قد أتت من مخبر سمّاه بريور المخبر البدين، أظهرت صورته شاباً سميناً يرتدي بذلة رسمية ويقف أمام خلفية إستديو عليها قلوب زهرية اللون، كان رجل الاستخبارات قد سلّم ثلاثة رجال في الجوار، منهم صهره. والليلة كان من المفروض أن يظهر في بيت أخته، القريب من بيت صدام حسين، في شاحنة نفايات برتقالية اللون محمّلة بالأسلحة، عملية فخّ. حذّرني لاهان قائلاً: «من كل مئة إخبارية تردنا من مخبرين عراقيين تنجح واحدة».

كان بريور قد وصل مؤخراً إلى اكتشاف مهم، فقد كان وجنوده يفتشون بيت رجل فيما تبيّن أنه اتهام كاذب. قال بريور: «وأدركت أننا في القمة. لقد سقطت روما، وسقطت اليونان، وفكّرت أنني أحب كوني أمريكياً. أحب أن أكون في القمّة، ولن تبقى في القمّة إلا إذا كان هناك أناس يريدون الدفاع عن ذلك». لم يكن ذلك شعوراً بالنصر، وإنما بالوضوح، ونوع محدود من التعاطف. «فكّرت: ماذا لو فعل أحدهم ذلك مع عائلتي؟ سأكون في غاية الانزعاج. وماذا لو لم أستطع فعل شيء حيال ذلك؟ وفكرت أنني لا أريد أن يحصل هذا لي أو لعائلتي، ونحن بحاجة إلى المحافظة على التفوق، لنبقى القوة العظمى الأولى».

كان هدف الليلة قرية على طريق قذر، على شبه جزيرة، حيث يتفرّع نهر ديالى. وعند الغروب، توقف بريور عند ساحة ترعى فيها الأبقار. جاءت امرأة في منتصف العمر إلى البوابة. كانت شقيقة صدام حسين وزوجة أحد الرجال الذين قبض عليهم بريور في الزيارة السابقة.

قالت المرأة: «صدام حسين الرئيس؟ إنه ليس هنا»، وضحكت بعصبية، لكن بريور لم يضحك؛ لم تكن روح الفكاهة لديه ظاهرة الليلة. قالت المرأة: «لقد رحل صدام حسين مع زوجه وأولاده، ولا أعلم أين ذهبوا».

قال المترجم لبريور ببطء: «إنها تكذب»، فقال بريور للمرأة: إنه يريد تفتيش البيت. وكانت امرأة يبدو عليها المرض تحاول تهدئة رضيع يبكي.

لم يظهر تفتيش غرفة النوم شيئاً: صور لشاب مع صديقته، مذكرات حب، صور فتيات عربية. قال بريور: «آه، هذا لطيف، إنها حمالة صدر ملفوفة بالبلاستيك».

عدت إلى غرفة الجلوس التي كانت شبه فارغة، ليس فيها إلا تلفاز. يعرض فيلماً مصريّاً قديماً، دون صوت. كانت المرأة التي تحمل الطفل تتقيأ في الممر، قالت المرأة التي في منتصف العمر باللغة العربية: «لقد كنا سعداء حين أتيتم أيها الأمريكيون، للتخلص من الديكتاتور، وها أنتم الآن تفتّشون بيتنا، هذا مفاجئ»، كان ولداها اللذان في السادسة والعاشرة من العمر يقفان عند الجدار ويحدّقان في الجنود. ففكرت في أنهما لن ينسيا هذا أبداً، غرباء ضخام يرتدون لباساً موحّداً، ومعهم بنادق، كانوا قد جاؤوا مرة إلى منزلهم وأخذوا والدهما، ويتكلمون لغة غريبة، ويجولون في بيتهما، ويخرجون الأشياء من الخزائن.

ظهر أن غرفة النوم التي فتّشها بريور هي الغرفة الخطأ. كانت غرفة صدام حسين مقفلة، ولم تستطع المرأة إيجاد المفتاح. أحضر أحد الجنود فأساً، وبثلاث ضربات من الحافة غير الحادة كسر الباب، فارتفع صوت تقيؤ المرأة الشابة، هذا التفتيش كان بلا فائدة أيضاً؛ إذ كان صدام حسين قد رحل منذ زمن.

حلّ الظلام ونحن في الداخل. وبينما كنا نغادر كان المترجم يقول للمرأة بتوبيخ ساخر: إن أخاها مطلوب؛ لأن اسمه صدام حسين. وحين سمع بريور هذا قال: «أخبرها الحقيقة، إنه مطلوب؛ لأنه من الفدائيين». وعند الصباح كنت متأكداً، فستنتشر ملاحظة المترجم في أرجاء الحي بوصفه مثالاً على عدالة الأمريكيين: اعتقال دون أساس، واتهام بلا دليل.

قالت المرأة لبريور: «لماذا أخذتم زوجي»؟

«لأنه من الفدائيين. إنه من حزب البعث».

«لا! لا! لا!»

قال بريور للمترجم: «أخبرها أنه رهن الاعتقال، وإذا كان مذنباً، فسيبقى في الحجز، وإذا لم يكن كذلك، فسيتم إطلاق سراحه». (وبعد أيام قليلة أُفرج عن زوجها).

وفي الطريق أمام البيت، أضاء بريور مصباحه الكاشف على رجل عجوز يجلس على الأرض: «لماذا كذبت علي في المرة الماضية، وقلت: إنه قد خرج اليوم؟ أخبر صدام حسين أنه هارب من عدالة التحالف، وحين يعود عليه أن يسلّم نفسه لقوات التحالف فوراً. لنذهب، لنخرج من هنا».

ابتعدنا أكثر، وقد تركنا المركبات أمام سياج مرتفع. كان المنزل الذي خلف السياج هو منزل أخت المخبر البدين، تحرّك بريور ومعه جندي آخر أمام السياج تحت أشجار النخيل وضوء القمر الكامل، كان النسيم يهب من النهر، نادى بريور في السكون: «السلام عليكم».

التفت المترجم إلي قائلاً: «كما في فييتنام».

كنت أفكر التفكير نفسه. كنت أعلم أن التشابه محدود. لكن في الوقت الحاضر أشعر أن العراق مثل فييتنام. فقد كان الأمريكيون يتحركون شبه عميان في تضاريس غريبة، ويفقدون فريستهم ويتركون وراءهم نساء مذعورات وصبياناً مع ذكريات.

لم يكن هناك أثر للمخبر البدين أو شاحنة النفايات البرتقالية المحمّلة بالأسلحة. لم تكن أخته قد رأته منذ شهر، وقد قالت للمترجم: إنها حين تراه ستقتله؛ لأنه سلّم زوجها.

أدرك بريور أنه قد جُرّه إلى عداوة عائلية. قيل لأخته: إنهم سيطلقون سراح زوجها. سمّى بريور هذه اللحظة «لحظة القلوب والعقول»، لكن الأخت لم تبدُ ممتنّة.

سأل بريور لاهان في طريق العودة إلى القاعدة: «ماذا تظن، أيها الرقيب أول»؟

قال لاهان: «أظن أن علينا أن نبتعد عن أي معلومات من المخبر البدين»، لقد تحول المخبر البدين من مخبر إلى هارب.

تعجّب بريور من عدد القصص المتناقضة ظاهرياً التي سمعها من الأشخاص ذاتهم في أثناء زيارتيه للحي. اعترف أنه لن يدرك حقيقة ذلك. قال بريور: «أنا لست شارلوك هولمز»، ثم تكلم بصوت خالٍ من التعبير: «أنا لست إلا رجلاً عادياً، أحاول أن أتدبّر الأمور، كان عالم الجنود غير مألوف لي». كان عالماً قائماً بذاته، له لغته الغريبة الخاصة وحركاته وقواعده ورموزه التي لا تنتهي، فقد كنت أشعر بالترحاب في صفوفهم المعزولة في كل

الأوقات تقريباً، كانوا يستمتعون بالحديث عما يقومون به، مما جعلهم يشبهون العراقيين، ومما يفسّر عودتي كل مرة أكثر من أي شيء آخر. كانوا شباباً عاديين، ومع ذلك حين كان أحدهم يتحدث عن حياته في وطنه والبيتزا المفضلة لديه، وشهادته في التاريخ - كنت أشعر بقشعريرة عندما أذكر أن هؤلاء الرجال والنساء (القليلات) الذين لا يستمتعون بأي حرية شخصية أو خصوصية تقريباً، الذين يبدو أنهم أكثر وعياً من أي شخص قابلته في أمريكة في سنّهم، الذين يواجهون يومياً توقع حدوث الخطر والموت بثقة، لقد جاؤوا من ثقافتي ذاتها التي لا تهتم إلا بنفسها. كان أجر بريور بوصفه قائداً مسؤولاً عن 150 جندياً 53.100 دولار أمريكي. وقد ذكر لي هوولاهان مرة أنهما لم يقلقا أبداً من الموت، أبداً. كان هذا عملهما الذي تدرّبا على القيام به، ولا يستطيعان القيام به إذا سمحا للأفكار العادية بالظهور. إنهما مقولبان للحياة من أجل وحدتهما ومهمتهما التي يفضلان أن تكون أكبر. وقد جعلتهما الحياة العسكرية غير أمريكيين بشكل غريب.

أستطيع أن أعدّ تجاربي غير السارّة مع الجنود على أصابع اليد الواحدة، وهي المواقف نفسها بشكل أساس. مرة تُهْنا أنا والسائق وسط أنقاض قاعدة الرشيد الجوية الكبيرة في جنوب بغداد، وفيها الآلاف من الناس الذين يلتقطون ما يريدون من المباني المقصوفة. كنا نحاول أن نجد مدخل معسكر بريور، وكنا لا نستطيع إلا تحديد موقع فتحة في الأسلاك الشائكة التي كانت المركبات العسكرية تدخل وتخرج منها. وحين اقتربنا ظهر جنديان عند الممر. نزلت من السيارة (سيارة عراقية قديمة من طراز كابريس كانت مفيدة؛ لعدم لفت الأنظار)، ولوّحت بيدي، وأنا أصيح بهم: إنني أمريكي. رفع أحدهما بندقية م - 16 وصوّبها نحوي بحذر، بينما أشار الآخر إلي أن أتقدّم رافعاً يديّ للأعلى. كان من المثير للأعصاب السير في مرمي ذلك السلاح، بينما أمشي خمسين ياردة نحو موقعهما، مع محاولة الاحتفاظ بابتسامة أمريكية ودودة على وجهي. وحالما وُضّح سوء التفاهم، أشارا إلى بوابة الدخول الرئيسة التي تبعد نصف ميل على الطريق. وفي مناسبة أخرى، كنا ننتظر لقاء شخص عند نقطة تفتيش قرب جسر 14 تموز في المنطقة الخضراء، التي كانت مسرحاً للعديد من عمليات التفجير الانتحارية. لم ألحظ الإشارة المكتوبة باللون الأحمر باللغتين العربية والإنكليزية التي تهدد باستخدام قوة مميتة ضد أي شخص يقف، حيث

كانت سيارتنا تقف بالضبط إلا حين نظر جندي إلى نافذتي وبدأ يصرخ بأنه كان وشك على إطلاق النار.

وفي الطريق السريع من كركوك إلى بغداد، كنت مع سائق آخر حين مررنا بمجموعة دعم كبيرة عند نقطة تفتيش أمريكية. قرّر السائق أن يقطع الخط، وكان يسرع بينما كان جندي يخرج ويصوّب بندقيته نحونا. وقفنا ونزلت وبيدي بطاقتي الصحفية، لكن رؤيتها جعلته يزداد غضباً، صاح بي: «أنت ستتسبب في قتلي، إنهم يرونني أسمح لأمريكي بالعبور وهم يريدون أن يطلقوا النار علي. لا تفعلوا هذا ثانية! لا، لا تحاول مصافحتي، سيرونك، ارجع فقط إلى السيارة وقف في الصف»، كان جديداً في العراق وكان يتمتم: كان العراقيون يشكلون له مصدر تهديد سلفاً. أما النداء الأقرب فقد أتى حين كنت أتجه بالسيارة نحو بغداد على الطريق السريع الصحراوي من الأردن، وكانت حركة المرور متوقفة تقريباً خلف قافلة أمريكية. وخلافاً لتعليمات كل من كان في سيارة السوبربان، استمرّ سائقي الأردني الذي كان على عجلة من أمره، في التقدّم من المركبة الخلفية التي استمرّ قنّاصها، وكان مراهقاً يظهر عليه الخوف، بالتلويح لنا بالعودة للخلف. فجأة كان هناك إطلاق نار، أصابت الطلقات التحذيرية الإسفلت أمامنا. ولم يمضِ من الوقت إلا قليل حين وقفنا، وقد تسطحت إحدى العجلات في منتصف الطريق بين الرمادي والفلوجة، وبينما كان السائق يغيّر العجلة، ظهرت سيارة سوداء من طراز BMW، فيها أربعة رجال يحدّقون فينا بقسوة، على الطريق المتسخ الموازي للطريق السريع، بقيت السيارة تسير حولنا عشر دقائق، يمرّون باتجاه ثم بآخر. انتظرنا داخل سيارة السوبربان بلا حيلة. أخيراً بدا أن السيارة تتابع سيرها حين توقف أحد أقارب سائقنا، وسارت سيارة الـ BMW كقرش خاسر يسبح بعيداً عن فريسته.

كل هذه المصادفات كانت نتيجة لاقتراب سخيف من جنود مدججين بالسلاح وصحافيين يجولون بحرية فيما لا تزال المنطقة، بالرغم من كل شيء، منطقة حرب، لا يفهم فيها أحد القواعد حقًّا. ولو كنت عراقياً، أو لو حدثت أي من تلك الحوادث بعد أشهر قليلة، لكانت النتائج أسوأ.

كان تصرّف الجنود الأمريكيين نحو العراقيين أقل انضباطاً في العادة. ومع مرور الوقت ازدادت التفجيرات الانتحارية، وأصبحت نقاط التفتيش خطرة جدًّا. وقد وقع كثير جدًّا

من العراقيين، وأحياناً عائلات مع أطفال تحت وابل من الرصاص، حين لم يستطيعوا فهم الصف المحيّر للإشارات وحركات اليدين، والأوامر التي يصيح بها الجنود باللغة الإنكليزية. لا أحد يعلم كم من العراقيين ماتوا في أوضاع مشابهة؛ لأن الجيش الأمريكي أصدر تعليمات بعدم إحصاء القتلى المدنيين، وعدم إجراء التحقيقات إلا تحت ضغوط استثنائية. لكن بعيداً عن هذه المآسي، حتى الصراخ من الاعتداءات اليومية ومنظر الرجال مكبّلين مرميين على الأرض أدى دوراً حاسماً في تكوين الانطباع الأول لدى العراقيين عن الاحتلال. وكان ذلك غالباً أول لقاء مباشر لهم مع أي من الآلاف من الجنود الأمريكيين في العراق.

لا بد أن يكون الوجود الأمريكي أكثر احتلال معزول في التاريخ. لم تكن هناك طريقة فعلية لاختلاط الجنود بالعراقيين خارج سياق عملهم. كانت بغداد مختلفة كلّياً عن سايجون، إذ لم يكن هناك أماكن يرتاح فيها الجنود الذين يواجهون المتاعب. كان الجيش يمنع العلاقات مع النساء العراقيات، وكانت مستحيلة تقريباً على أي حال؛ بسبب القيود الاجتماعية. كان الجميع يعلم أن العلاقات الحميمية خطرة، ولم يكن من المستغرب إلى حد ما، حين دخلت امرأة عراقية كانت تعمل في قاعدة أمريكية إلى ثكنة جندي كان يفترض أنها على علاقة معه، وانتهت ميتة برصاصة في رأسها. حتى إن بريور الذي كان يعمل مع العراقيين عن قرب شأنه شأن أي جندي في البلاد، لم يدخل بيت أحد بصفته ضيفاً إلا مرة واحدة في أثناء الأشهر الخمسة عشر التي قضاها في العراق، حين توقف أمام بيت مترجمه وصديقه المقرّب نعمان النعمة. لكن منظر المركبتين العسكريتين الواقفتين أمام البيت محاطتين بعدد من الجنود لفت نظر جيران المترجم. وطلب إلى بريور ألا يكرّر الزيارة.

سبّب التوتر الناتج عن القيام بالدوريات وعمليات الدهم، وواجبات نقاط التفتيش يومياً، مع التعرض إلى هجمات أكثر من عراقيين لا يرتدون لباساً موحّداً، ويقودون سيارات لا تحمل لوحات، درجة من الوحشية ربما كانت حتمية، لكن بعضها كان يمكن تجنّبه، وكانت تتعلق أكثر بمشكلات فردية، وقيادة ضعيفة، أكثر منها بطبيعة الاحتلال وحرب العصابات.

في إحدى الليالي، حين كنت في مدينة كركوك الشمالية، خرجت في دورية مع جنود من اللواء 173 المحمول جوّاً الذي كان يسيطر على المدينة. وعند مركز للشرطة، كان رجال الشرطة المحلية قد اعتقلوا رجلين عراقيين في أواخر العشرينيات من عمرهما، كانا

معصوبَي العينين بشرائط من القماش، وكان قميصاهما الأبيضان ممزقين وعليهما دماء، وكان ظهراهما مجروحين. قال رجال الشرطة: إنهما حاولا دخول نقطة التفتيش، وحطّما السيارة. أظهر التفتيش أن في السيارة قطعاً من قنبلتين قديمتين. أصرّ أحد الرجلين، وهو سائق تاكسي، أن القنبلتين كانتا للصيد، وقال الآخر: إنه كان راكباً في السيارة، ولا يعلم شيئاً عن القنبلتين. ويشتبه الآن بأنهما متمرّدان، وقام الأمريكيون بأخذهما إلى الحقل الجوي، حيث كان يوجد سجن مؤقت يضم نحو مئة سجين.

كانت الأسلاك والأضواء تتقاطع في الحقل الجوي. وفي الجانب الآخر من حقل قذر من الزنزانات التي تشبه الصناديق كان هناك باب خارجي يوصل إلى باحة محاطة بالقضبان المعدنية والأسلاك الملفوفة. وضع المشتبه فيهما في الباحة، وكانت أيديهما مقيّدتين خلف ظهريهما. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ولم يكن الجنود الذين عليهم مناوبة الحراسة سعداء برؤية المزيد من العمل يصل إليهم. انهال جندي شاب يرتدي كنزة خضراء، وله حاجبان غامقان وتقاطيع وجه دقيقة كالأطفال، بوابل من الشتائم على باحة الاحتجاز.

زمجر الجندي: «سأوسعكما ضرباً، سأقطّعكما». بدا أحد السجينين، وهو الراكب، مرتبكاً وخائفاً بعض الشيء. أشار إلى أنهما يحتاجان إلى التبول. «ما بالك، ألا تستطيع الانتظار؟! أيها الوغد الغبيّ. كان من الممكن أن أكون في السرير الآن، أيها الغبيّ».

طلب قائد الدورية، وهو عريف شاب اسمه جون آدامز، إحضار السائق لاستجوابه.

صاح الشاب الوسيم: «هيا أيها البطيء، تعالَ إلى هنا، لا، الرجل الآخر، نعم، أنت أيها الكسول، قف، قف». أحضر السائق خارج الباحة، وأزيلت قيوده. لم يبدُ خائفاً على الإطلاق -كان على وجهه أثر للغرور- مما أغضب الشاب الوسيم. «سأكسر رأسك المخيف».

بدأ آدامز يسأل السائق، ويملأ ورقة، وهو جالس إلى طاولة نزهات. من أين حصلت على القنبلتين»؟

قال السائق، واقترب ليشير إلى القنبلتين على الطاولة: «هذه لي. أما الأخرى فقد وضعها رجال الشرطة في سيارتي».

قبض الشـاب الوسـيم على يده وسحبه بعيداً. «إذا لمس تلك القنبلة مرة أخرى فسأكسر رأسه اللعين». كان هناك خيط أبيض عالق على شعر السائق، فقام الجندي الذي كان يضع له رقم سجين بسحبه. زمجر الشاب الوسيم: «هذا جميل».

سـأل آدامز السـائق: هل تخدم في الجيش؟»، كان قد خدم أقـل من عام قبل أن يهرب. «حزب البعث؟» أشـار السـائق إشـارة سـريعة ثابتة بأن يديه نظيفتان من حزب البعث، ثم تحدّث حديثاً قصيراً.

وقبل أن يتمكّن المترجم من نقله إلى اللغة الإنكليزية، تدخل الشـاب الوسـيم. «هل يقول كل هذا الهراء ليقول: لا؟ لا أستطيع أن أتكلم العربية إلا لأقول له أن يخرس».

قال المترجم، وهو يشير إلى الراكب: «هذا الرجل عطشان جدًّا، إنه بحاجة إلى الماء».

«سيحصـل على الماء عندما يركع. أخبره أن هذا ليس فندقاً، هذا سـجن، لسنا هنا من أجل راحتك».

لم يكن ذلك سجن أبو غريب، لم يكن إلا بشاعة شاب يشعر بالملل، وربما ساديّ في موقع قـوة مؤقت. لكنني غادرت الحقـل الجوي في تلك الليلة، وأنا لا أشـعر بالارتياح. لقد ألقيت نظرة تحت السطح على الاحتلال، لا بد أن هناك المزيد.

كان العراقيون يشـتكون من أن الأمريكيين لم يعرفوا كيف يكونون محتلّين. كانت القوات البريطانيـة في الجنـوب، ومعظمهم مـن المحاربين السـابقين يبدون مرتاحـين أكثر بكثير بالغموض الملازم لعمل الشـرطة والشـؤون المدنيـة. أما الأمريكيون فقد كانـوا لطفاء جدًّا وقاسـين جدًّا في الوقت نفسـه. كان اللطف والقسـوة يبدوان جانبين موحّدين لشخصيتهم: أحببني وإلا قتلتك. كانوا قد سمحوا بأعمال النهب، كما يقول العراقيون، كما كانوا يسمحون للمجرمـين والمتطرفين بإدارة البلاد، وفي الوقت ذاته، حوّلوا أصـدقاءهم إلى أعداء بردود أفعالهم المتهورة والعنيفة؛ وقد روت صحيفة The New York Times قصة تاجر في الحادية والخمسـين من عمره، ويعاني مشـكلات في القلب، قام الجنود بركله وضـربه والتبوّل عليه عند اعتقاله، ثم قاموا بإرسـاله إلى مشـفى عسـكري، حيث عُولج بشـكل جيد، كما يعالج

جندي مصاب في السرير المجاور، فقال للممرّضة: «أنا فعلاً محتار. في القاعدة، ضربوني وعذّبوني. وهنا يعالجونني على أنني إنسان».

مرة حضرت اجتماعاً بين ثلاثة من صغار الضباط الأمريكيين في الكاظمية وشيخي عشيرة سنيين من الأدهمية، المنطقة التي تقع على الضفة الأخرى للنهر. كانت الصواريخ تطلق من حيّهما الواقع على نهر دجلة على القاعدة الأمريكية، وأراد الضباط من الشيخين مساعدتهم في إيقافها.

أشعل أحد الشيخين، وكان يرتدي عباءة ذات حواشٍ ذهبية وكوفيّة سيجاراً وحثّ الأمريكيين على تقليد البريطانيين في البصرة قال لهم: «لا أقصد أن أجرح مشاعركم، لكن ليس لديكم أي خبرة هنا»، «يجب أن تدرسوا الناحية النفسية، وتدرسوا المجتمع والدين. لهذا ليس لديهم مشكلات».

قال القائد الأمريكي: «السبب أن لديهم تاريخاً طويلاً من الاستعمار»، نحن لا نهتم بهذا. نحن لا نريد البقاء هنا وإدارة العراق».

نفخ الشيخ في السيجار، وابتسم: «الأمريكيون بحاجة إلى درس من البريطانيين».

وبدأ الشيخ موّال الشكاوى المألوف: انقطاع التيار الكهربائي، والوضع الأمني، ونقاط التفتيش، وإساءة معاملة النساء في أثناء عمليات الدهم، وعدوانية الأمريكيين، وسلبية الأمريكيين. نصبَّب الجنود عرقاً بشدة في ستراتهم المضادة للرصاص، وهم يرتدون الخوذات ويحملون أسلحة م 16. وكان واحد منهم يحاول الدفاع بين حين وآخر.

قال الشيخ: «هناك متفجرات على الطريق السريع».

أجاب الرائد: «نحن لا نستطيع مراقبة كل بوصة من الطريق، وهذا ما نحتاج فيه المساعدة التي لا نحصل عليها».

تجاهله الشيخ، وتابع قائلاً: «كما أن الساعة الرابعة صباحاً وقت مبكر جدًّا لانتهاء حظر التجوال».

وأخيراً، بدا أن أحد الشيخين أشفق على الضباط الأمريكيين الذين كانت خبرتهم أقل جدًّا في هذه اللعبة القديمة للمفاوضات التي كان يبدو أنها من اختصاص شيوخ العشائر والموظفين البريطانيين. فأنهى الانتقاد بأضعف ثناء ممكن: «إذا كان لنا الخيار بين النظام السابق وهذا النظام، فإننا نختار هذا».

قال القائد، وهو يحرّض نفسه: «لكن هذا ليس نظاماً، فنحن هنا للمساعدة. من المهم أن تفهموا ذلك. نحن لسنا هنا لفرض نظام. أتمنى أن يأخذ شخص في الكاظمية عملي وأعود إلى وطني».

فقال الشيخ حكمة مبهمة: «إذا كنتم تقودون مركباً، فلمَ تحرقونه؟».

انتهى الاجتماع بالمصافحات، والأيدي على القلوب، والعرض المقصود للحساسية الثقافية والاحترام المتبادل، الذي كانت تلك اللقاءات تبدأ به وتنتهي به. تخيّلت عودة الضباط إلى قاعدتهم غاضبين. فالفكرة الرئيسة للاجتماع -الهجمات الصاروخية- لم تكد تُذكر.

كان الجنود يخرجون إلى الشوارع، ولذلك أحسّوا بصعوبة الاحتلال قبل سلطة الائتلاف المؤقتة التي كانت في القصر. كانوا على الخط الأمامي للشكايات: سألت امرأة تقف أمام منزلها ملازماً في دورية راجلة، وليس مستشاراً كبيراً لوزارة الكهرباء عن سبب انقطاع التيار الكهربائي باستمرار؟ فكان عليه أن يشرح لها أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال ذلك. كما كان الجنود أقل استثماراً في تصوراتهم المذهبية المسبقة، وعلى الرغم من أنهم كانوا في الغالب جاهلين بشكل محزن بالبلاد والمنطقة، فقد أرغمتهم طبيعة عملهم على أن يكونوا واقعيين. كان اجتثاث حزب البعث وحلّ الجيش العراقي مكروهاً من الجيش الأمريكي؛ كان الجنود يفقدون أحياناً أكثر نظرائهم جدّية في العمل حين يبدؤون بتكوين علاقة معهم، وسرعان ما يكتشفون أن العراقيين أنفسهم أو أمثالهم يطلقون عليهم النار الآن. وفي غياب التوجيه من القيادة المركزية، بدأ القادة في المحافظات، مثل ديفيد باتريوس القائد الأعلى للفرقة 101 المحمولة جواً في الموصل، بتشكيل المجالس، وإيجاد شركاء عمل لإعادة الإعمار، وتدريب قوات الأمن، وحتى وضع السياسة الاقتصادية والحدود المحلية.

كانوا في عجلة من أمرهم، وغالباً لم يزعجوا أنفسهم بتنسيق عملهم مع المنظمات الدولية المختلفة ومسؤولي الاحتلال الذين يعملون على حل المشكلات ذاتها. في تلك الأثناء كانت سلطة الائتلاف المؤقتة لا تزال تضع مخططاً لمستقبل العراق. وقد أراني كولونيل في كركوك جدولاً بالمشروعات -مراكز شرطة، مراكز إطفاء، مدارس، حدائق- كان لواؤه مستعداً للبدء بها. فسألته عن المبلغ المخصص من بغداد، فأشار بيده إلى أنه صفر، «كان بإمكاني فعل الكثير في هذه المدينة لو كان معي حقيبة من النقود!» كان خائفاً من أن مركز شرطة كركوك الجديد الذي أقامته الكتيبة التي يقودها، سيلغى حين يصل برنارد كيريك -مدير شرطة نيويورك السابق الذي أرسله رئيسه بوش إلى العراق؛ لإعادة بناء قوات الأمن- معلناً عن خطته الوطنية. لكن بدلاً من ذلك، أمضى كيريك وقته في بغداد يذهب في عمليات دهم مع المرتزقة من جنوب إفريقية، بينما كان بيته في نيوجرسي يخضع للتجديد. عاد إلى أمريكة بعد ثلاثة أشهر فقط، ولم يترك شيئاً وراءه تقريباً، بينما أمضى الكولونيل الملازم نحو سنة في كركوك. كانت الأحرف الأولى لسلطة الائتلاف المؤقتة (CPA) تعني لبعض الجنود (Can't Provide Anything) (لا تستطيع تقديم شيء).

أما المدنيون في القصر فقد كانوا ينظرون إلى الموضوع بشكل مختلف. وفي نهاية جولته التي استمرت طوال اليوم في جنوب بغداد، حثّني بول بريمر على البحث فقط في نوع مشروعات إعادة الإعمار التي كنت أرى أنها تستهلك طاقة جون بريور. قال بريمر: «ذلك المال الذي ننفقه عبر الألوية والفرق هو أسرع مال نستطيع إنفاقه»، سلّمت القيادة المركزية المال من الأصول المحجوزة للنظام السابق بمعدّل نصف مليون دولار على مستوى الفرق ومئتي ألف على مستوى اللواء. وبعد أن أُنفقت المبالغ كاملة دُقِّق واستُكمِل النقص. كان المبلغ مع القادة قد وصل إلى ثلاثة وعشرين مليون دولار في منتصف شهر آب، في أكثر من ألفي مشروع لإعادة الإعمار. قال بريمر: «لا نستطيع تتبّع عددها حتى، إنها أشياء صغيرة: كالمجاري، وفتح الحدائق والمتنزهات، وإصلاح المدارس، وتنظيف أنابيب الصرف الصحي». كانت هذه هي أكثر الإنجازات ظهوراً في الأشهر الأولى، وقد بدا في وقت من الأوقات أن سلطة الائتلاف المؤقتة لم تستطع الإشارة إلى شيء آخر، حين كان العراقيون يريدون معرفة ماذا يجلب لهم الاحتلال.

لكن ثلاثة وعشرين مليون دولار في أربعة أشهر كان مبلغاً صغيراً جدًّا من المال، أقل من دولار واحد لكل عراقي، وكانت فرصته قليلة مقابل عاصفة التوقّعات. اتّهم الضباط في العراق والمسؤولون في واشنطن، بمن فيهم وولفوفيتز ورايس، بريمر بأنه بطيء جدًّا في إعطاء المال لتمويل القادة. كانت البنية التحتية في العراق تتدهور طوال سنوات -قال لي ذلك مرة أحد خبراء التنمية الأمريكيين، ولو كان العراق سيارة مستعملة، فإن صداماً قد تخلص منها في الوقت المناسب- ومع انهيار النظام، ومغادرة كبار مديريه، بدا أن الآلة قد انهارت. ومع نهاية الصيف، فهم بريمر حجم المشكلة وضرورتها السياسية. ذهب إلى واشنطن، وأعلم البيت الأبيض بأن العراق سيكلّف أمريكة عشرات المليارات من الدولارات، وأن عائدات النفط العراقية والأصول المحجوزة لن تقترب من تغطية تلك التكاليف. وذهبت التنبؤات المطمئنة لتشيني ورامسفيلد وولفوفيتز إلى مزبلة التاريخ.

قام الرئيس بوش بإعلان الخبر إلى البلاد في 7 أيلول 2003، وأصدر البنتاغون بسرعة فاتورة تخصيص بقيمة 87 مليار دولار، تضمنت 18. 4 مليارات دولار لإعادة إعمار العراق. كان الجزء الأكبر من المبلغ مخصصاً لمشروعات البنية التحتية الضخمة -محطات الكهرباء، معالجة المياه والصرف الصحي، والاتصالات- التي لا تستطيع تنفيذها إلا شركات كبيرة متعددة الجنسيات. كانت هناك انتقادات كثيرة للعقود الحصرية التي تتم دون استدراج عروض، التي ذهبت إلى شركات أمريكية ذات صلات مع الحزب الجمهوري، لكن المشكلة لم تكن تتعلق بارتياح شركتي بيتشل وهاليبرتون مع إدارة بوش بقدر ما كانت تتعلق بالمشروعات التي تعاقدوا على القيام بها، وتنفيذها في واشنطن وبغداد. كانت المشروعات كبيرة جدًّا، وقوانين الشراء الأمريكية الرسمية لا تسمح بهذا الحجم، ولم تصل النقود إلى المجتمع العراقي إلا بالسرعة التي ينتشر فيها قطران سكب على الأرض في يوم بارد. وبحلول شهر آب 2004، بعد عشرة أشهر من التخصيص، لم يكن المبلغ الذي أُنفق يتجاوز 400 مليون دولار من أصل 18. 4 مليارات دولار -بنسبة لا تكاد تصل إلى 2%-. في هذا الوقت لم يصل إلى المقاولين الثانويين العراقيين من المال، إلا جزء صغير فاض عن الأمن (40% من أي عقد)، والفساد، والفوائد. ظلت سلطة الائتلاف المؤقتة تعد العراقيين بأن الصنبور على

وشـك أن يفتح، وأن البلاد سـتفيض بنقود الإغاثة التي يمكن أن تشـغّل عشرات الآلاف من الناس. لكن هذا لم يحدث قط.

يكمن جزء من المشـكلة في أسـلوب العمل المعتاد في واشـنطن، فقد قام رامسفيلد الذي كان مسؤولاً عن مرحلة ما بعد الحرب تقنياً، بتحديد المسار: ففي منتصف شهر أيلول، بعد أيام قليلة من خطاب بوش المتلفز، قال وزير الدفاع: «لا أصدّق أن علينا إعادة إعمار البلاد. سيكون على الشعب العراقي إعادة إعمار ذلك البلد في أثناء مدة من الزمن». حتى إنه عرض على الشـعب العراقي خطة إعمار نوعية: «ستكون السياحة شيئاً مهماً في تلك البلاد بمجرّد أن تتم السيطرة على الوضع الأمني، وأعتقد أن هذا سيتم، بينما يتولى العراقيون مسؤولية حكومتهـم أكـثر فأكثر». لكن المسـؤولين المهمين القادريـن على التفاوض حـول التوجيهات المعقـدة للنفقـات لم يذهبوا إلى بغداد قـط. في إحدى رحلاته إلى واشـنطن اقترب بريمر مـن ليس براونلي، وزير الحربية بالوكالة، واعترف قائـلاً: «ليس لدي خبرة في التعاقد هنا علـى الإطلاق. وسـأواجه متاعب كبيرة. هل بإمكانك مسـاعدتي؟» بموافقة وولفوفيتز بعث الجيش أربعين ضابط تعاقد من سلاح المهندسين إلى بغداد. وفي منتصف حقبة حياة سلطة الائتـلاف المؤقتة بدأ مكتب إدارة المشـروعات. قال لي مسـؤول كبـير في الإدارة: «لم أعمل بشكل جيد جدًّا. كانوا خائفين جدًّا. كانوا خائفين حتى الموت أن يَدَعُوا النقود تخرج؛ لأنهم سبق أن رأوا ما كان يحصل لبعض من الأموال العراقية» -وبدأت الاتهامات بالهدر والفساد تزعج سـلطة الائتلاف المؤقتـة- «وقد بدأت بعثات الكونغرس تزورهم». أصـبح الإخفاق في إنفاق أموال إعادة إعمار العراق بحكمة أو بسـرعة، أو في إنفاقها على الإطلاق، واحدة من أقل فضـائح الاحتلال إعلاناً، لكن من أكثرهـا أهمية. في النهاية، وجد تقرير المفتش العام لسـلطة الائتلاف المؤقتة أن تسـعة مليـارات دولار في التمويل العراقي قد ضـاعت على عين بريمر، وهذا ليس سـوى رقم تقريبي. قال المسؤول رفيع المستوى: «يوماً ما سيجلس شخص ما، ويحصي كم من المال اللعين تم هدره، يمكن أن تجلس هناك وتقول: (كوفي، أنت لم تهدر الكثير حقًّا، إذا فكّرت في الفسـاد والإسـراف العاديين وغباء البرامج الدولية)؟ أنا أعتقد أننا أهدرنا في العراق أكثر مما فعل كوفي». وأضاف: «إذا كنت تمرّ بنقطة انعطاف سياسية وأمنية، فلن تساعدك جميع عقود العالم».

وجد جيري سيلفرمان الذي كان مسؤولاً سابقاً في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية التي عملت في فييتنام أربع سنوات نفسه بعد عقدين من الزمن في العراق. كانت الفرضية وراء جهود التنمية في كلتا الحربين، كما قال هي: «إذا قدّمت أشياء جيدة للناس، فسينتج عن ذلك دعم سياسي، لكن ليس هناك دليل على ذلك، فقد أرسل الناس في فييتنام أولادهم إلى المدارس التي قمنا ببنائها، وكانوا يطلقون النار علينا في أثناء النهار على أي حال». لكن في العراق، بخلاف فييتنام، كانت الحرب السياسية لاتزال غير محسومة ربحاً أو خسارة في البداية، لو كان الأمريكيون قد قاموا بإرساء الأمن من البداية، قال سيلفرمان: «فمن الممكن -وليس الحتمي، لكن ممكن- أن تنجح إعادة الإعمار. لكن ذلك أصبح مستحيلاً من وقتها». وتابع أنه بالمقارنة مع الجنود والمدنيين الأمريكيين في فييتنام، كان الجنود والمدنيون الأمريكيون في العراق غير مستعدّين لتحمّل نوع الإصابات الضرورية لتأمين المدن والطرقات السريعة، ولذلك تضاءلت فرصة نجاح إعادة الإعمار. «إن قواتنا في وضع حماية القوة. وهم لا يقومون بحماية أحد غير أنفسهم. إنهم ميلشيا خاصة أخرى». كانت فييتنام والعراق حالتي «أخطاء مختلفة تنبع من استكبار واحد».

منذ الأيام الأولى للغزو وطوال الاحتلال، كان هناك تناقض مستمر في واشنطن حول ما إذا كان: هل توجد في العراق قوات كافية أو لا؟. منذ بداية أيار 2003، كان باول يقول لبوش: إن القوات غير كافية، وفي كل مرة كان الرئيس يسمعه، ثم يتبع نصيحة وزير الدفاع بدلاً من نصيحته. وكلما وجّه السؤال لرامسفيلد، كان ببساطة يكرّر تأكيداته بعدم الحاجة إلى وحدات أمريكية إضافية. كما كان الجنرال جون أبي زيد الذي خلف فرانكس في القيادة المركزية، والجنرال ريكاردو سانشيز الذي خلف ماك كيرنان قائداً للقوات البرّية في العراق، يقولان مراراً وتكراراً: إن لديهما قوات كافية للقيام بجميع المهام الموكلة إليها. كانت هذه تبدو إجابة فيها تلميح: لأجل ماذا كانت المهام؟ تم تعليق الخلاف في واشنطن، وكانت الإجابة تعتمد على صياغة السؤال. وقد قال أحد مساعدي بريمر: إن مديره لم يبدُ في حال أسوأ مما كان يوم قال له رامسفيلد في مؤتمر صحفي مصوّر: إنه لا يستطيع أن يقدّم أي قوات إضافية. بعد مغادرة العراق انتقد بريمر مستوى القوات، لكن في أثناء وجوده في بغداد لم يكسر علناً الجبهة الموحّدة لمديره التي حافظت على القصة. بدأ بعض أبطال الحرب،

مثل السيناتور جون ماك كين، وروبرت كاغان، وويليام كريستول يتوترون حين ذهب الصيف وحلّ الخريف ولم يتحقق توقع الإدارة بدعم القوات من قبل دول أجنبية، لكن المحافظين الجدد الآخرين ظلّوا واثقين. أمضت دانييل بليتكا من معهد المؤسسات الأمريكي أياماً قليلة في العراق في أيلول، ونشرت مقالاً عن العمليات في صحيفة The New York Times يعبّر عن رضاها عن مستوى القوات. وقد سألني ريتشارد بيرل سؤالاً استنكارياً: «ما الذي سيحققه وضع دوريات على الطريق السريع؟ يبدو لي أن هدف وجودنا هنا ليس التأكد من فتح جميع الطرق السريعة طوال الوقت، ليست هذه هي الطريقة التي نربح بها، في رأيي: أعتقد أننا سنربح، حين يكون لدينا استخبارات تحدّد لنا الأشخاص الذين نحاربهم».

يمكنك حسم هذا الخلاف من أول اتصال لك بالواقع العراقي، ما لم يكن لك مصلحة فيه. لم تكن هناك قوات كافية لحراسة الطريق بين مطار بغداد الدولي ومركز المدينة، بحيث لا يضطر الزوّار أن يحملوا أرواحهم على أكفّهم عند الوصول. لم تكن هناك قوات كافية في شوارع المدينة، حتى لردع من يريد سرقة سيارة أو إطلاق النار على قافلة أو اغتيال أحد المسؤولين. ولم تكن هناك قوات كافية لحراسة جزء من ملايين الأطنان من الذخيرة المتروكة في النفايات في جميع أنحاء العراق ومنع سرقتها المستمرّة من قبل المقاومين. ولم تكن هناك قوات كافية لتوفير وجود رمزي على الحدود العراقية مع سورية والأردن والسعودية وإيران مما يمكن أن يثني بعض العناصر الجهادية والاستخباراتية من اختراق تلك الحدود. ولم تكن هناك قوات كافية لمنع الميليشيات من السيطرة على محافظات كاملة. لم تكن هناك قوات كافية على الطريق السريع الرئيس لمنع قطّاع الطرق والمتمرّدين من إرهاب سائقي الشاحنات الذين يحملون البضائع الرئيسة، كمواد البناء أو حتى الطعام للمنطقة الخضراء. ولم تكن هناك قوات كافية للسماح لموظفي سلطة الائتلاف المؤقتة بأداء أعمالهم.

ربما كان الارتباط بين حراسة الطرق السريعة وبين ربح الحرب مجرّداً جدًّا لمؤيدي سياسة الإدارة الذين لم يذهبوا إلى العراق أبداً، ولكن فيما يخص القليل ممن ذهب إلى العراق. كان المفروض ألا يكون الأمر بهذه القسوة. فلماذا يشارك العراقيون في الجهود الأمريكية في حين لا تتمكن قوات الاحتلال من المحافظة على الحد الأدنى من النظام العام في البلاد؟

لم يكن عدد الجنود الأمريكيين في العراق الذي كان يقارب 135. 000، بزيادة أو نقصان عشرة إلى عشرين ألفاً أحياناً حسب رد الفعل تجاه الأحداث، يعكس شيئاً أكثر من فكرة رامسفيلد الثابتة عن التحويل العسكري، وإذا كان عليه إيجاد مزيد من القوات وإرسالها، فإن الاتجاه الذي كان يريد إرسال قوات القرن الحادي والعشرين فيه سيكون موضع تساؤل خطيراً. من الصعب أن نتخيل أن رامسفيلد كان لديه أدنى شك في ذلك: كانت لديه رؤية، ولم تكن العواقب الفوضوية لحرب العراق لتثنيه عنها. كان لدى الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، السلطة القانونية بموجب مرسوم كولدووتر نيكولز Coldwater Nichols Act ليطلب اجتماعاً مع الرئيس إذا رفض وزير الدفاع نصيحته. قال مسؤول رفيع المستوى: «يعلم مايرز -عليه أن يعلم الآن- أن لديه جندي بحرية بمنصب نائب لرئيس الهيئة. عليهم أن يذهبوا ويقولوا: سيدي الرئيس، ليس لدينا قوات كافية، ويتحمّل العواقب». وكانت العواقب في رأيه أن يقف الرئيس ونائبه إلى جانب وزير الدفاع ويغادر رئيس الهيئة. لكنه على الأقل يغادر بفكرة: «إنني مارست حقي بموجب مرسوم كولدووتر نيكولز، وأنا أشعر بتحسّن». لكن مايرز احتفظ بدلاً من ذلك بمشورته وعمله. كان هناك دوماً أشخاص من أمثال الجنرال شينسكي ليحذّره (هو وغيره من الضباط رفيعي المستوى) من الصدق المفرط. قام قليل منهم بإيجاد طرق لإيصال الفكرة له على انفراد. وقد تكلّم الضباط في العراق فيما بينهم (دون نشر) على الحاجة إلى وحدتين إضافيتين. وبينما كان السيناتور جون بايدن يهبط بطائرة مروحية في نهاية إحدى زياراته أسرع جنرال في البحرية إليه قائلاً: «سيناتور، إذا قال: لك أحد إن لدينا قوات كافية هناك حين تعود، فقل لهم: اذهبوا إلى الجحيم».

قام كبار المدنيين في الإدارة وكبار الضباط في البنتاغون، وكبار المسؤولين في العراق بالتمسّك بمناصبهم، وخذلوا الرجال والنساء الذين أرسلوهم لتنفيذ سياستهم. لقد أخفقوا في أهم التزاماتهم، وهو أن يعطوا هؤلاء الرجال والنساء ما يريدون. كان وصول المركبات المسلّحة والمصفّحات المضادة للرصاص والستر الواقية من الرصاص، ببطء وسوء إدارة، أكثر الأدلة وضوحاً على أن حرب العراق، ككل حرب -عادلة أو غير عادلة، رابحة أو خاسرة- قد أصبحت مؤامرة للكبار الأقوياء على الشباب المطيعين.

ومع استمرار الحرب، لاحظت كم من المرات كان بول وولفوفيتز يسافر إلى العراق. أحياناً كان يرافقه في هذه النزهات الثلاث أو الأربع في اليوم ثلة من الصحافيين المتعاطفين الذين يقومون بعد ذلك بسرد قصص مفادها أن الأمور كانت تسير بشكل جيد جدًّا. لكن كان من المستحيل ألا نرى أن وولفوفيتز نفسه كان متأثراً بشكل عميق بالتزام الجنود في قاعات الطعام والمشافي الميدانية، وكيف كانوا (كما قال) يعزّزون معنوياته بدلاً من أن يقوموا هم بتقوية معنوياتهم، وكيف كان يستمع إليهم بشكل جيد (كانت فطنة نائب الوزير قد أدّت إلى نزع سلاح قائد كتيبة التقيته في كركوك، بعد أن قضى معه دقائق قليلة) وكيف كان يتكلم بحزن، ووجه شاحب، بعد الهجوم الصاروخي على فندق الرشيد الذي أدى إلى مقتل مقدّم في الجيش في الطابق الذي تحته مباشرة. ثم تنتهي زيارة وولفوفيتز، ويعود إلى واشنطن، حيث لم يكن قادراً أو راغباً على الإطلاق في القيام بأهم الأشياء التي باستطاعته تقديمها للجنود، بأن يعطيهم ما يحتاجون إليه. ومع الوقت، أصبح من الصعب التفكير بإخلاص جنود مثل جون بريور، وبالإيمان والذكاء الذي كانوا يقومون به في مهامهم، وعدم الشعور بالمرارة.

في صيف 2003، كانت معنويات كتيبة بريور تمر بمرحلة عصيبة. ففي الأشهر الستة الأولى لهم في أرض المعركة لم يحصل بعض الجنود إلا على ما مجموعه ثلاثة أيام من الإجازات. وصار آخرون يعانون هزالاً شديداً، حتى بدأت تقارير القيادة تسمّيهم «كتيبة الأشباح» -حيث كانوا يسجّلون في دوريات مجدولة لا يقومون بها فعلاً- قلة من صغار الجنود في الكتيبة كانوا ينوون البقاء في الجيش بعد مهمتهم الحالية. انتشر استخدام الكحول الذي كان غير مسموح به للجنود المتمركزين في العراق، وجرت ثلاث حوادث انتحار في كتائب أخرى في القاعدة. كانت العلاقات بين الشباب الأمريكيين في نهاية دورية أربعة أيام وبين العراقيين المضيفين تتدهور، حسب ما قال أحد الضباط، إلى «رجال يقومون بركل الكلاب، ويصرخون على رجال كبار في السن يكبرونهم عشرين عاماً، ويدفعون بالأطفال على السيارات المركونة؛ لمنعهم من اللحاق بهم وإزعاجهم». وفي شهر أيلول، قام جنود في أحد الفصائل من سريّة تشارلي بضرب عراقيين أمسكوهم، وهم يجولون حول سور المخفر الأمامي لهم في الزعفرانية عُوقب الجنود بتخفيض رتبهم،

وفي إحدى الحالات بالحبس. كان الجميع يعانون التوتر بسبب الحرّ، والأيام الطويلة، وقلة النوم، والحنين إلى الوطن، والتهديد المستمر بالهجمات (التي كانوا يرونها قدرهم)، والحقيقة البسيطة أنه لا يوجد مكان قريب جدًّا لهم للقيام بجميع المهام الموكلة إليهم.

وقد كتب لي أحد الجنود في كتيبة بريور وصفاً مطوّلاً للمشكلات:

إن الروح المعنوية سيئة بسبب القيادة العليا، ولا أعني بذلك بالضرورة قائد الكتيبة أو قادة السرية، وإنما قادة الألوية والفرق، وربما الجنرالات في البنتاغون والقيادة المركزية أيضاً، الذين يبدو أنهم منعزلون عما يحدث على مستوى أرض المعركة، أو أنهم غير راغبين في سماع حقيقة الأمور، أو (وهذا هو الاحتمال الأكبر) أنهم يعلمون ما يحدث، لكنهم يريدون أن يحصلوا على الترقية بشدة، لدرجة أنهم يريدون الضغط على الجنود لعدم رغبتهم في مواجهة مشكلة المعنويات؛ لذا يتابعون دفعهم لزيادة العمل بموارد أقل؛ لأن رامسفيلد يريد منهم زيادة العمل بموارد أقل؛ لإخراجنا من هنا بسرعة. هؤلاء الناس يشبهون مدمني الكحول بشدة، فهم لا يرغبون في الاعتراف، حتى بوجود مشكلة.

لم يكن الجندي متخاذلاً. لكنه ببساطة كان يصف ما يعرفه أي شخص يقضي وقتاً مع القوات الأمريكية في العراق، وقد ختم رسالته كما يأتي:

لست متشائماً بشأن العراق؛ لأن الأمور تتحسّن وستستمر في التحسّن، ولو ببطء. هناك أمور عظيمة نقوم بها هنا، وقد أنجزنا الكثير، لكن لا يزال هناك الكثير لنحققّه، وما نحتاجه الآن هو المال، والناس، والأهم الوقت للقيام به. سننجح، هذا أكيد، ولن تكون هذه الحرب فييتنام جديدة؛ أنا مؤمن بذلك بالفعل.

كان جون بريور مؤمناً أيضاً، فالجيش سيصبح مهنته، وفي العراق الذي كان يسميها «المهمّة الأولى للعالم الحقيقي»، كان يكتسب خبرة لا تقدّر بثمن في القيام بأمور لا يعلّمونها في التدريب الأساسي، لكن أهميتها ستكون أكثر فأكثر لمهام الجيش الأمريكي والجيل الجديد الذي سيقوده.

مـرة سـألت بريـور إذا كان عمله الليلي -المداهمـات والاعتقالات- يهـدد بإلغاء الخير الذي يحققه في عمله في أثناء النهار، وهل تبدو المهمة مستحيلة؟ لم يكن يعتقد ذلك: فحين تجري مياه الصرف الصحي وتنظّم أمور المدارس ستصبح نظرة العراقيين إلى الأمريكيين كنظرة الأمريكيين لأنفسـهم، بوصفهم أشخاصاً يحاولون المساعدة. لكن بريور ليس موظفاً إنسـانياً رقيقاً. كان يحسـب نفسه عاملاً واقعياً في السياسة الخارجية. كان يعتقد أن إنشاء نظام الصرف الصحي في الزعفرانية جزء أساسي من الحرب على الإرهاب. فالإرهابيون يعتمدون على ملايين المتعاطفين الذين يعتقدون أن أمريكة شريرة، وأن الأمريكيين لا يريدون إلا نفط الشـرق الأوسـط. قال بريور: «لكننا نأتي إلى هنا ونريهم أننا صـادقون، وجديرون بالثقة، ومهتمّون ومتعاطفون، ونحن نهتم بهم، ونهتم بإصلاح حياتهم. ليس لأن علينا ذلك، بل لأننا قادرون على ذلك؛ لأننا نسـتطيع أن نكون محسـنين، لأننا فعلاً محسـنون. وعندها تحرمهـم ممـن يؤويهم». وذات مرة، بينما كان بريور يراقب أحد المسـاجد المحلية في أثناء صلاة الجمعة، سمع الإمام يقول: إن بعض الأمريكيين غير المسلمين يتبعون عقائد الإسلام أكـثر من بعض المسـلمين في العـالم العربي. كان بريور يعتقد أن نظام الصـرف الصـحي في الزعفرانية يسـتحق الموت من أجله؛ لأن إصـلاحه سـيقلل من فرص ضـرب الإرهابيين لبوسطن، حيث تعيش خطيبته.

لم أفكـر في جون بريـور مرة إلا تذكرت حادثة محددة، كانت في أثناء الحرب والاحتلال نقطـة صـغيرة، لكنها بقيت لدي أهم من غيرها من الأحـداث: كنت أركب عربة هامفي مع بريور حين علقنا في زحمة سيارات عند أحد المخارج على طريق بغداد السريع. وفي الفوضى المعتادة للطرقات، كان السـائقون يتقدمون ويتأخرون من الصـفوف البعيدة؛ ليمرّوا بخط المخرج، الذي كان يعيق السـير، ويشـكل ازدحاماً على الطريق السـريع. وبعد دقائق قليلة، خـرج بريور من مقعد الراكب الأمامي، ومشـى بسـرعة بين السـيارات المتوقفة ليقف أمام الصف، حيث كان الغشاشون يحاولون التسلل لدخول الخط. رفع يده وأشار إليهم أن يبتعدوا عن الخط، وارتاح الناس المجتمعون، لكن أحد الرجال تابع التقدّم في اتجاه بريور الذي قام أخيراً بضرب السيارة بيده، وحدّق بالرجل عبر الزجاج الأمامي للسيارة، ولوّح بيده مشيراً إلى الطريق السريع. تمتم بريور: «هيا أيها الرجل، ماذا تحاول أن تفعل؟». فحدّق فيه الرجل

بغضب، وظننت أنه سيتابع التقدّم حتى يدهس بريور. لكنه بدلاً من ذلك توقف، ثم غادر الصف. كان ذلك عرضاً مذهلاً للأعصاب، فقد كان بريور مكشوفاً تماماً، ولم يكن أي من رجاله بجانبه، جندي أجنبي يأخذ على عاتقه فرض الأمن. لا شك في أن السائقين الذين منعهم من الخروج قد استاؤوا من ذلك، لكن السائقين الآخرين لوّحوا له بأيديهم شاكرين. أتساءل: كم من الجنود يفعلون الشيء ذاته؟ فمعظم القوافل الأمريكية كانت تنطلق في بغداد، مجتاحة الأسفلت والأرصفة، دون أن تهتم بقواعد الطرق أو بالسائقين العراقيين. في تلك اللحظة شعرت أن المشروع الأمريكي في العراق يعتمد كله على مثل تلك الأفعال وردود الأفعال التي تتصف جميعها بأنها مميزة وغير متوقعة.

في أواخر شهر تشرين الأول 2003، تحدّثت مع بريور هاتفياً من بغداد. كانت برك المجاري قد تمّ تنظيفها، وكان الأمن في منطقته قد تحسّن مع تحسّن الاستخبارات. كان أعضاء المجلس يتقاضون ستين دولاراً شهرياً، ويديرون اجتماعاتهم بأنفسهم. وقد حصل عبد الجبار الدويش على عمل بصفة حارس أمني. لكن لأسباب مختلفة، تمّ إيقاف التمويل للقادة لإعادة الإعمار، كان لذلك علاقة بقضية رفعها محاربون سابقون عاجزون من حرب الخليج، أو الوزراء الجدد العنيدون. كانت أموال المشروعات الجديدة تنفد بسرعة، وكان كبار المقرضين يهدّدون بعض مقاولي شركة تشارلي، وكان كثير من العمل يتوقف. وبسماع ذلك، تذكرت شيئاً كان بريور قد أخبرني به، بينما كنا في الطريق إلى قرية صدام حسين: «أكثر الأمور إحباطاً أننا لا نستطيع أن نفعل المزيد لهم. يداي مقيدتان، وكذلك أيدي الجميع». وأضاف: «من الصعب أن نعرف المستوى الذي يبدأ عنده تقييد الأيدي».



8

العراقيون تحت الاحتلال

«لا بـد أن نخـرج مـن العراق! لا بد أن نسـافر! لا بد أن نرى أمريكـة! هل يمكن أن تعطينا أملاً؟».

وقفت شـابة اسـمها أسـيل هي وزميلاتها في العمل في طريقي ذات يوم في مدخل حرم جامعة بغداد. كانت أسـيل مبرمجة حاسـوب جميلة شاحبة الوجه في الثامنة والعشرين من عمرهـا. بدا حجابها ذو اللون الكريم متناقضـاً مع حيويتهـا، والحقيقة أنه كان مجرد زي: كانت ترتديه؛ لتحمي نفسها من القتل على يد الأصوليين. قالت أسيل: «إنهم يتحدّثون باسم الله، وقد كانوا في السـابق يتحدّثون باسـم صـدام». كان في حياة أسـيل كثير من المخاوف. كانت خائفة من المختطفين: فقد اختطفت مجموعة منهم صـديقتها، بينما كانت تنزل من الحافلة، بينما اسـتطاعت أسـيل الهرب بصـعوبة. وكانت خائفة من جيرانها الذين هدّدوا بإيذائها إذا قامت بالتقاط صـورة أخرى للجنود الأمريكيـين. وكانت خائفة من المرأة التي كانت تدير مكتبها، وهي بعثية قديمة، كانت ترتدي زيّاً عسكرياً وتضع سلاحاً على جنبها في العمل، ولاتزال تعلق ثلاث صـور لصـدام في إطارات على الجدران. كانت أسيل تشتكي من أن د. سـامي مظفّر، رئيس الجامعة الجديد، كان أضـعف من أن يتخلّص من البعثيين، إذ مازالوا يسيطرون على الجامعة.

قالت أسيل بينما كنا نتحدّث في مكتبها: «هل تشعر بالخطر الذي أشعر به هنا؟»، أشعر أنني أعيش في سـجن بعد التحرير! أريد أن أرى العالم، أريد أن أتعلم المزيد، أريد أن أشـعر أنني أحصـل على شـيء لحياتي. حين تزور بلاداً أخرى، فهذا شـيء بسـيط يجعلك تشعر بأنـك حرّ. هذا ما فقدته في حياتـي. لايزال الخطر في الطرقات. في هذه الغرفة، بالتحديد في هذه الغرفة».

دخلت مديرة المكتب البعثية ونظرت، وقالت لأسيل: إنه عليّ أن أغادر.

همست أسيل: «نحن في سجن هنا، لست حرة».

عرضت عليها أن أوصلها إلى المنزل. كانت تعيش مع والديها وشقيقها وخالها الذي جنّ بعد السجن والتعذيب. كان بيتهم المتواضع، في حي فارغ في منطقة تحت الإنشاء شرق بغداد، يشوى في ضوء الظهيرة الأصفر العنيد. كانت الكهرباء مقطوعة، ولما كان الهاتف لم يكن يعمل، لم تستطع أسيل أن تخبر أمها؛ لذا قدّمت العائلة لي طبقاً بسيطاً من الأرز والفاصولياء في الغرفة المظلمة. كانت والدة أسيل قد كتبت على أحد الجدران آية قرآنية بالطباشير في أثناء الحرب، دعاء للسلامة يقرؤه أفراد الأسرة معاً. وعلى جدار آخر، كانت هناك صورة لوالدي الأم، من عام 1948، رجل ذو شارب صغير، وامرأة تضع أحمر شفاه لمّاعاً.

قال والد أسيل: «في العهد الملكي، كان الناس أكثر حداثة من الآن»، ووالد أسيل كان مهندساً معمارياً في وزارة الإعلام، قد اقترب من سن التقاعد. في عام 1965، درس في مانشستر، إنجلترة، لكن العائلة تنتمي الآن إلى الطبقة الوسطى التي سحقها عقدان من الحروب والحصار. في لحظة يائسة جدًّا عام 1993، باعت أمها كل ما كانت تملك من ذهب بسعر قليل. قبل الحرب كان راتب أسيل ستة دولارات في الشهر، وهذا المبلغ لم يكن يكفي لشراء قميص. كانت العائلة تعيش مع أقارب والدها في الأدهمية، الحي الذي تسكنه الطبقة الوسطى على نهر دجلة، وكان المركز التاريخي للقوميين العرب يعود إلى طبقة الضباط في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية. قبل وصول الأمريكيين بأشهر قليلة، طرد شقيق والدها البعثي عائلة أسيل من منزله في الأدهمية، بعد أن علم أنهم لا يدعمون نظام صدام. في بيتهم الجديد، كانت أسيل تبكي وهي تشاهد الحرب على شاشة التلفاز، واقتحام فرقة المشاة الثالثة لبغداد، وكانت انفجارات القنابل في الخارج تشجعها. قالت أسيل: «ظننّا أن الجميع سيكونون سعداء. لكن الأمر لم يكن كذلك».

دعمت عائلة أسيل الأمريكيين بشكل عاطفي. وإذا كان هذا احتلالاً، فقد كانت تريد أن تكون تحت الاحتلال. كان أفراد العائلة يجلسون معاً كل سبت يستمعون إلى خطاب بريمر

الأسبوعي، قالت أسيل: «أشعر أنه قريب جدًّا، حتى طريقته، تعجبني، إنه رجل بسيط». ارتفع راتبها إلى مئة وعشرين دولاراً شهرياً، كما وظّف أخوها مترجماً، لكن أسباب تعاطف أسيل كانت تزداد عمقاً. وقد أرتني نسخة من الرسالة التي كانت قد أرسلتها إلى الرئيس بوش عن طريق جندي أمريكي دَهِشٍ. كتبت أسيل: «سيدي الرئيس، لقد كنت صادقاً معنا، وفعلت كل ما قلت: إنك ستفعله. إننا شعب عانى الكثير من الخداع، بسياستك نرى مستقبل بلادنا وأنه سيزدهر. آمل أن تعود الأمور لطبيعتها قريباً وأن تزور العراق وتلقى حفلة ترحاب عظيمة».

قال والد أسيل: «على الأمريكيين تغيير المنطقة، ليس عن طريق الحرب، بل عن طريق العراق. إذا رأى الشعب الإيراني ما حدث في العراق، وإذا تقدّمنا بالحرية والحرية المرفهة، فإنهم سيفعلون الشيء ذاته».

نزعت أسيل الحجاب، وكان شعرها الطويل المصبوغ بالحناء مجدولاً. أخرجت مجموعتها الكبيرة من الأفلام الأمريكية (كانت قد تعلّمت اللغة الإنكليزية من فيلم نيكول كيدمان (الطاحونة الحمراء) Moulin Rouge وفيلم شارون ستون (السريع والميّت) The Quick and the Dead قالت أسيل: «أعتقد أننا بحاجة إلى وقت، وقت طويل جدًّا؛ لصنع رابط بين الحضارتين. أعني لنجعل أنفسنا متحضّرين».

جلست أسيل على الأريكة بين والدَيها ذوَي الوجهين الحزينين، وتحدّثت بحماس عن مستقبلها. «دائماً أقول لأمي: لقد خسرت حياتي. وتقول لي: لا، أنت شابة، مازال أمامك وقت. وأقول: ربما، ربما الآن، سأغتنم ما بقي من عمري؛ لأرى العالم». وتابعت: «أريد أن أغادر بغداد، أريد أن أكون حرة؛ لأفعل ما أشاء. فقط لأحسّن نفسي، لأطوّر تفكيري وطريقة حياتي. أريد أن أقابل أشخاصاً من بلاد مختلفة، وأعرف كيف يعيشون، وماذا يفعلون، وبماذا يؤمنون».

كانت أمها على وشك البكاء، فقد كان والداها خائفين من أن تغادر العراق. وضعت أسيل ذراعها حول أمها، ولمست يد أبيها، وقالت: «إنه مؤمن بي».

كانوا من المسلمين الشيعة، لكن في طريق العودة من الجامعة لمّحت أسيل إلى سرّ يتعلق بماضيهم. بعد تناول الغداء، حين ذهبت إلى المطبخ الضيّق لصنع الشاي، تبعتها، وبدأت أفتح الموضوع. حوّلت أسيل عينيها بعيداً: كان والدها يقف في الممرّ، ويراقبنا عن قرب، قالت لي: «لا أستطيع الحديث عن ذلك، يقول والدي: إنه قد مضى عليه وقت طويل، لندع هذا الموضوع. نحن نعيش هكذا منذ وقت طويل».

وحين نهضت في نهاية مدة العصر لأذهب عرضت علي العائلة أدواتها الفضّية الموروثة. فرفضت قائلاً: إن الهدايا ستصادر على الحدود الأردنية. في الخارج كان الخال المجنون يسرع وفي يده كأس. كنت أفكر كم تبدو هذه العائلة منعزلة. لم يكن لديهم حزب سياسي أو ميليشيا دينية، أو آية الله، أو شيخ عشيرة؛ لم يكن لديهم إلا الأمريكيون الذين لا يعلمون بوجودهم. لم يسبق لأسيل أن تحدّثت مع شخص غريب قبل أن تلتقيني في ذلك الصباح. كانت تريد السفر، لكنها كانت خائفة جدًّا من الذهاب إلى المدينة، وكانت ترسل طلباً عن طريق البريد الإلكتروني من مقهى الإنترنت. كان ضغط اشتياقها يملأ الغرفة.

وعند الباب، ابتسمت أسيل قائلة: هل تعتقد أن أحلامي ستتحقق؟»

عدت إلى العراق عدّة مرات في أثناء سنة الاحتلال، وكان في ذهني دائماً رؤية أسيل. أصبح حال أحلامها دليلاً / مؤشراً لي على حال رؤية أمريكة للعراق. كانت أسيل من أكثر المؤيدين حماساً، ولم تفقد إيمانها قط. ومع الوقت تحسّن الوضع المالي للعائلة، وبدؤوا يعكسون عشرين عاماً من الانحدار ويصعدون عائدين نحو راحة الطبقة الوسطى. كما سمح لهم راتب أخيها الذي كان يحصل عليه من مقاول كبير ببناء منزل جديد من طابقين في المساحة الضيقة بين بيتهم القديم وبين جدار الحديقة. كانت السقوف عالية والأرض مغطاة بالبلاط، واختارت أسيل اللون الأخضر لغرفة نومها الجديدة. وخلعت الحجاب حين بدأت ترى مزيداً من الشابات يخرجن دون حجاب في الطرقات، وارتدت البنطال خارج المنزل. وحصلت العائلة على صحن «ساتالايت» على الرغم من أن الكهرباء كانت تأتي أربع ساعات، وتنقطع بعدها أربع ساعات، عاد هاتف المنزل للعمل من جديد بعد أن كان خارج الخدمة أشهر بسبب أضرار الحرب والنهب، وحالما أصبح هناك تغطية متقطعة لخطوط

الهواتف الخلوية حول بغداد وبعض المدن الأخرى، حملت أسيل هاتفاً خلوياً. وفتحت حساب بريد إلكتروني، وكانت تستمتع بالذهاب إلى مقهى الإنترنت، وتدخل إلى غرف الدردشة، حيث كانت تثير جنون الشباب من جميع أنحاء العالم العربي الذين كان هدفهم الرئيس هو لقاء البنات على الإنترنت، والذين كانوا يسمعون بدلاً من ذلك كلاماً عن التهكم السياسي من هذه العراقية العنيدة. علّقت أسيل مرة أن الأمريكيين والإسرائيليين بدوا أكثر اهتماماً بالعراقيين من العرب.

فرد شاب مصري: «أسيل، العرب إخوة لهم دم واحد كجدار حجري. لا يريد عربي قتل المسلمين. العرب يرفضون ما يحدث في العراق؛ لأننا إخوة».

- أجابت أسيل: «أنتم أناس سيئون».

- «انتظري يا أسيل، العراقيون هم أفضل الناس».

- «أنت كاذب».

- «لكنْ أنتم العراقيون مع أمريكة وإسرائيل».

- «أنا فخورة بذلك. لكن حسّني في إسرائيل. مع السلامة».

- «لا، لا، انتظري».

لكن حياة أسيل لم تكن تتغير بالسرعة التي تناسبها. فقد كان من المستحيل أن تحصل على جواز سفر؛ لعدم وجود مكتب لهذا بعد، وكانت المنحة للدراسة في الخارج أمراً بعيد المنال. كان العراق يبدو منعزلاً، كما كان دائماً. كما أن التبادل الأكاديمي، وشحنات الكتب، وزيارات المحاضرين التي كانت جامعة بغداد تتطلع إليها في الأشهر الأولى للاحتلال لم تتحقق، بدلاً من ذلك استولت الجماعات الدينية على حرم الجامعة، مع لافتاتهم الموجودة في كل مكان وصور الشهداء. وقد أدى تفجير مبنى الأمم المتحدة، وبعد ذلك الزيادة الثابتة للتفجيرات الإرهابية وعنف المتمرّدين في فصل الخريف والشتاء، إلى خروج جميع المنظمات الدولية من العراق إلا أشجعها. وفي صباح 18 كانون الثاني 2004، كان شقيق أسيل يقف

في صف من السيارات على بوابة الحشاشين، ينتظر دخول المنطقة الخضراء، حين حصل انفجار كبير لسيارة تفصله عنها ست سيارات كان فيها ألف رطل من المتفجرات، مما أدى إلى مقتل اثنين من الأمريكيين وثلاثة وعشرين عراقياً، كانوا يعملون لدى سلطة الاحتلال. وقد امتص ميكرو باص مليء بالشابات أمام سيارة شقيق أسيل مباشرة قوة الانفجار، واستطاع العودة إلى المنزل وقد أصيب بجروح في وجهه من الزجاج المتطاير. وبعد ستة أسابيع، في عاشوراء، اليوم الأكثر قدسية في التقويم الشيعي، كانت أسيل وشقيقها يقفان في حشد من المتعبّدين أمام مزار الكاظمية، الحي الشيعي القديم في بغداد. كانت الشمس تلفحهم، فشعرت أسيل بالحرّ، وتحرّكوا مئة ياردة بعيداً نحو الظل. وبعد ربع ساعة، فجّر رجل نفسه في النقطة نفسها التي كانا يقفان فيها، وأعقب ذلك عدة انفجارات أخرى بشكل ثابت، بينما بدأ الجمع الهلع بالتدافع. كان الأمر ذاته يحدث في الوقت نفسه في المزارات المقدّسة في كربلاء، جنوب بغداد. مات ما لا يقل عن 180 مدنياً في تفجيرات عاشوراء.

كان موقف أسيل من تلك الكوارث التي أوشكت فيها على الموت هو موقف العراقيين الآخرين ذاته: حين تحين ساعتك، لا يمكنك فعل شيء. في تلك الأثناء كانت غاضبة من القيود في حياتها.

قالت أسيل: «إذا أراد الأمريكيون أن يصنعوا لنا معروفاً، يمكنهم أن يعطونا الحرّية لمغادرة العراق. فالعقول مقفلة هنا. سيستغرق ذلك عشرين عاماً على ما أعتقد، ولا أريد أن أخسر حياتي هنا».

اقترحت والدتها أن آخذها إلى نيويورك وأضعها في واجهة للعرض: «فتاة عراقية!».

إن كونها عراقية كان نوعاً من السجن بذاته. لم أستطع الذهاب مع أسيل وحدنا إلى مطعم، ولم يكن بإمكاننا أن نتحدّث في بيتها وحدنا، ولم تكن تستطيع أن تقبّل خدّي كما كان بقية أفراد عائلتها يفعلون. وبسبب كل إصرارها على حرية التفكير، وحرية اللباس، وحرية القراءة، وحرية التحرّك (كانت تتوق إلى ركوب دراجة والتجوال بها في المدينة، وهذا شيء لم تكن امرأة تفعله دون أن تلفت النظر بشكل غير مرغوب فيه أو أسوأ من ذلك)، كان لدي شعور بأنها قبلت هذه المحظورات على أنها الطريقة التي عليها أن تعيش بها. حين كانت في

السادسة عشرة من عمرها رقص معها قريب لها أكبر سناً في حفل زفاف، وكانت لمسة يده على ظهرها لا تشبه شيئاً مما شعرت به من قبل. ثم سافر للدراسة، وسرعان ما تزوّج، وكانت هذه نهاية لأول وآخر علاقة حب في حياتها. كانت تصلي بشكل متقطّع فقط، وكانت لا تذهب إلى المسجد إلا في المناسبات الخاصة كعاشوراء، وكان موقفها من الدين باطنياً أكثر مما كان مذهبياً. لكنها مع ذلك كانت تريد أن تكون فتاة عراقية جيدة.

في الغرب كان العراق معروفاً بأنه أكثر البلدان علمانية في المنطقة، وكان يعتقد أن شعبه متعلّم وعالمي وحديث. لكن هذه السمعة انقلبت لتصبح تخلفاً عقودًا من الزمن. بعد سبعينيات القرن العشرين الغنية بالنفط والمتحرّرة التي كانت النساء فيها يرتدين التنانير القصيرة، وكان الكحول يتدفق بحرية، فجعلت الحرب التي لا نهاية لها، والثورة الإسلامية في إيران المجاورة العراق محافظاً أكثر بكثير مما يدركه الناس خارج العراق، بمن فيهم المغتربون العراقيون. خاصة بين الشيعة الفقراء كانت النساء يختفين تحت الحجاب والعباءة، والثوب الأسود بالطول الكامل. أصبح رجال الدين الشيعة أخطر معارضة داخلية لصدّام. ولتدعيم قوّته بقاعدته السنّية بعد كارثة حرب الخليج، شنّ الديكتاتور الذي أصبح تقياً حديثاً حملة أسلمة: وأضيفت عبارة «الله أكبر» إلى العلم العراقي بخط يد صدام، كما كتبت نسخة من القرآن بدمه، وبدأت المساجد السنية العملاقة ترتفع في أرجاء بغداد، بدءاً بمسجد أم المعارك. كان كثير من تلك المساجد غير مكتمل البناء حين وصل الأمريكيون، وفي أرجاء المدينة يمكنك أن ترى هياكل القباب التي لم ينتهِ بناؤها مغلّفة بالدعامات، كنصب لحضارة محاربة انتهت بكارثة مفاجئة. وفي الأنقاض في الأسفل كانت جموع الشيعة تخرج للمطالبة بالشوارع.

تزامن شهر آذار 2004 تقريباً مع الشهر الهجري الأول في التقويم الإسلامي، المحرّم. وكان هذا الشهر، شهراً مأساوياً لدى الشيعة، شهراً مشؤوماً، وقد قال لي الشيخ عماد الدين العوضي: إن المسلمين المتديّنين لا يتزوجون فيه، ولا يتّخذون قراراً مهماً. كان اليوم العاشر من المحرّم هو عاشوراء، ذكرى موت الإمام الحسين، حفيد الرسولﷺ، عام 680م، ومجزرة أتباعه في كربلاء التي أتاها الحسين ليطالب بزعامة المؤمنين. لكن القتَلة ندموا فوراً، وأصبحوا الشيعة، أو «حزب» علي والد الحسين، فقد كانوا يعتقدون أن الخلافة تمرّ

بذرّيته، على خلاف السنة الذين كانوا يختارون خلفاءهم من دائرة السلطة الدينية، والذين جعلوا بغداد مركز الخلافة العباسية، وبقيت فيها إلى أن استباح الغزاة المغول المدينة عام 1256. وبدءاً من موت الحسين وعبر تاريخ العالم العربي الإسلامي، كان الشيعة أكبر الخاسرين، وكانوا يرزحون تحت النير الديني للخلافة السنية، إلى أن ألغاها أتاتورك عام 1920، وبعدها تحت السلطة الدنيوية للملوك والديكتاتورات السنيين في الدول العربية الجديدة. في ضوء هذا التاريخ كانت النتيجة الأهم للغزو الأمريكي للعراق، والمشروع الأمريكي الأكبر لإقامة حكم أكثرية في العراق، هي أن الشيعة، أول مرة في تاريخهم، سيحصلون على السلطة في بلد عربي.

والآن بعد مرور 1324 عاماً على حادثة كربلاء، كانت بغداد مزينة برموز التقوى والندم الشيعية، وكانت الأعلام الحمراء ترمز لدم الحسين، والأعلام الخضراء ترمز للإسلام، والأعلام السوداء ترمز للحزن، وكانت تلك الأعلام تحمل رسائل مثل أن «الحسين علّمنا أن نصبح ضحايا؛ لنكسب النصر». كما أصبحت الأناشيد، والعروض، وضرب الصدور، ولطم الخدود والظهور في احتفالات التكفير، عرضاً للقوة الجماعية أيضاً. وللمرة الأولى منذ أكثر من عقدين من الزمن، كان الشيعة أحراراً في الاحتفال بعاشوراء في العراق؛ لذا كانت المزارات المقّدسة في بغداد وكربلاء مزدحمة بشكل غير عادي بالحجاج الشيعة الملتحفين بالأسود من أنحاء العراق وإيران ومن أقاصي البلاد، وقد تخفّى بينهم بعض الجهاديين السنّيين الذين يرتدون الأحزمة الناسفة.

أصبحت مشرحة بغداد مستودعاً مليئاً بالجثث والرؤوس والأطراف وأكوام اللحم. وأمام البناء الأصفر الذي يتألف من طابقين في حي متهالك قرب نهر دجلة، يدعى المدينة الطبّية، وقف رجل ينتظر ليدخل، ويبحث عن فتى في الحادية عشرة من العمر، وهو جار له أصيب والده ورقد في المشفى. كان آخرون يغادرون المشفى، وعلى وجوههم قطع من الشاش، وكانت السلطات تسرع إنهاء عملية التعريف، لم يكن هناك تشريح للضحايا، كما أخبرني د. بشير شاكر، وهو طبيب شرعي شاب كان مناوباً. كان أتباع الحسين هؤلاء آخر الشهداء الشيعة، والإسلام يحرّم انتهاك جثثهم.

وفي اليوم الذي زرت فيه المشرحة حدث موت آخر أمام عيني شاكر وصفه لي بأنه «حالة مهمّة»، حتى إنه أهمّ من المجزرة الرهيبة لتفجيرات عاشوراء: فقد وجدت جثة امرأة عازبة في الحادية والأربعين من عمرها مصابة بست طلقات نارية في صدرها. أظهر الفحص الأولي الذي قام به شاكر أنها ليست عذراء، وهذا ما جعل حالتها مهمّة.

قبل الغزو الأمريكي، قال الطبيب: كانت تصل حالة موت بسبب العنف شهرياً إلى طاولات مشرحة المدينة. هذا الرقم يظهر حالتين من حياة العراقيين في عهد صدام: فقد كانت الحكومة تحتكر العنف تقريباً وكان معظم الضحايا يختفون بلا أثر في مجازر جماعية. وكان الانتشار الواسع للعنف الذي لا يمكن توقعه، من آثار تحرير العراقيين من طغيان البعث. في العراق المحتل، تصل إلى المشرحة ما بين خمس عشرة وخمس وعشرين ضحية لجرائم قتل كل ليلة، معظمهم مصابون بطلقات نارية. وكل أسبوعين كانت الجثث التي لا يطالب بها أحد ترسل إلى السلطات لدفنها على أنها جثث مجهولة الهوية. قدّر شاكر أن هناك خمس حالات كل أسبوع لبعثيين أُعدموا في أعمال قتل انتقامية؛ كانت عائلاتهم تستلم الجثث دون إعلام الشرطة. ومع المحاكم التي لا تكاد تعمل، وقوات الشرطة الضعيفة وغير المدرّبة والفاسدة في الغالب، والمحتل الأجنبي الفاشل في تقديم الأمن، والجو العام من انعدام الأمن -جرائم الاختطاف، وسرقة السيارات، وقطع الطرق السريعة، وإطلاق الرصاص على يد الجنود الأمريكيين على نقاط التفتيش، وأعمال التفجير الانتحارية، والاشتباكات المسلحة المدنية، والقتل من أجل الانتقام أو المال أو أي سبب أو بلا سبب- لم يتوقع العراقيون أن يبدؤوا يحصلون على العدالة التي كانوا محرومين منها في أثناء عهد صدام في وقت قريب أبداً.

ألقت تفاصيل «القضية المهمة» للدكتور شاكر الشبهة على عائلة القتيلة. فعدد الطلقات تشير إلى شيء مختلف عن أسلوب العصابات الجديد في القتل. وقد سمّى الطبيب مثل هذه الجرائم «غسلاً للعار». فقد قال شاكر: كان القتل ثأراً للشرف عادة قديمة في العراق، على الرغم من أنه في هذه الحالة مع عنصر جديد: فقبل الحرب كانت العائلة تحرق الفتاة أو تغرقها لتغطي على الجريمة. قال شاكر: «الآن بإمكانك أن تقتل وتمضي، لا حاجة لتغطية الجريمة». كانت العبارة القياسية لـ «غسل العار» في السجن تعني ستة أشهر.

أحيلت حالة المرأة إلى لجنة من خمسة أطباء، فوجدت أن المرأة كانت عذراء. وأغلقت القضية. لن يتم التحقيق مع العائلة. ولغياب وجود وسيلة لإيجاد أدلة أخرى، فقد أغلقت الشرطة ملف المرأة.

في آذار 2003، قبل أسبوع من بدء الحرب، أُحضرت فتاة في السادسة عشرة من عمرها إلى معهد الطب الشرعي، وهذه الفتاة كانت شرطة النظام السابق قد وجدتها تتجول تائهة في الشوارع، وعند فحصها، وجد شاكر أنها قد فقدت عذريتها مؤخراً وبعنف. كانت الفتاة، اسمها رغدة، جميلة شاحبة البشرة وعيناها سوداوان داكنتان، وكانت بائسة لدرجة أنها كانت لا تكاد تستطيع الكلام. لم تبدُ رغدة أبداً كالمومسات المراهقات اللواتي فحصهنّ شاكر، وأقنعها بلطف أن تخبره بما حدث.

كانت رغدة قد ذهبت إلى اختبار مذيعة تلفازية في استديو يملكه ابن صدام الأكبر المضطرب عقلياً، عدي، فأخذت رغدة مع ست فتيات أخريات ممن وصلن إلى الدرجة النهائية إلى غرفة كان عدي يجلس فيها -معاقاً بسبب محاولة اغتيال تعرّض لها عام 1996 - على كرسي، ويحمل مسدّساً في حضنه. في الأيام اللاحقة، قام عدي (الذي كان يرتكب بعضاً من آخر جرائمه في السلطة، بينما كانت قوات الغزو تحتشد على الحدود الجنوبية للعراق) باغتصاب الفتيات تحت التهديد واحدة تلو الأخرى، ثم رماهنّ في الشارع، مخدّرات، ومع كل منهن صرّة من النقود، وهكذا وجدت الشرطة رغدة. وحين روت لهم القصة ضربوها، وأحضروها إلى معهد الطب الشرعي.

قالت رغدة للطبيب: «إذا أردت أن تساعدني فاذهب وأخبر والديّ أن ابنتهما قد وجدت ميتة».

وفي يوم 18 آذار، اليوم السابق لبداية الحرب، أعدّ د.شاكر التقرير، فأعيدت رغدة إلى الشرطة، ولم يعرف شاكر شيئاً عن مصيرها بعد ذلك.

في مدة عمله، خدم شاكر في الجيش العراقي، وكان له دور في احتلال الكويت، وهي مدة لا يستطيع وصفها إلا بأنها مختلفة تماماً عن بقية حياته. كانت شهادته في المحاكمات تؤدي

إلى إعدام الشاذين جنسياً. وفي المشرحة تعامل مع الموت الناتج عن العنف ليلاً. وقد جاء يوم جمعة دام في آذار 2004 باثنتين وثلاثين جثة، منهم جثث مهندسي مياه ألمانيين وآخر هولندي أطلق المتمرّدون النار عليهم على أحد الطرقات جنوب بغداد، وصحافيين عراقيين أطلق الجنود الأمريكيون النار عليهما وقتلوهما، بينما كانوا يخرجون من نقطة التفتيش. فيما يتعلق بشاكر، فقد كانت تلك الحالات أموراً فكرية بحتة. كان أثر الهدوء ظاهراً في نظرة عينيه الزرقاوين الباردة الوسيمة، وفي أسلوب حديثه الصريح، وفي ابتسامته التي كانت تتحول تلقائياً إلى ازدراء، لكنه لم يتغلب على قصة رغدة.

حين التقيت بالدكتور شاكر كان يبحث عن تغيير في حياته. قال شاكر: «أي تغيير للأحسن أو الأسوأ». كان يعاني من أن عقله لا يرتاح ويشعر بملل بغيض، ولأن الأمريكيين كانوا يمثلون شيئاً جديداً، فقد رحّب بي وأصبح دليلي إلى الجانب السفلي السقيم من بغداد. افترضت أن هذا الرجل المتعلم ذا التفكير التقدّمي، بقصة شعره المستوية من الأعلى وذقنه الحليقة بنعومة، كان يريد عراقاً علمانياً تحررياً نسبياً. بقيت أنتظر حتى تلتقي عينه بعيني، بينما كان يصف العيادة ويهز رأسه أسفاً على تراجع مجتمع مهووس بالشرف. لكن هذا لم يحدث.

ولد شاكر عام 1968، في السنة التي جاء فيها حزب البعث إلى السلطة. قال شاكر: «منذ خمسة وثلاثين عاماً، أشعر أنني ميت، لم أبدأ بالحياة إلا في هذه الأسابيع الأخيرة». فسقوط صدام ووصول المحتلّين الأجانب -الذين صادف أنهم صناع أفلامه القديمة المفضلة- قد جاء أخيراً بفرصة لحياة جديدة. ولشوقه للحصول على وثائق سفر والمغامرة خارج العراق، فقد باع عيادة الأمراض الجلدية الخاصة به وقطعة أرض كان قد حصل عليها بصفته جندياً. كانت أولى رحلاته الخارجية إلى عمّان - الأردن، حيث كان قد رتّب للقاء فتاة عراقية تعيش في المهجر في أمستردام، وتزوّجا بعد يومين. «مثل الأفلام»، حسب قول شاكر. لكنهما عادا إلى مدينتيهما دون أن يتمّا الزواج؛ لأنه لم يكن حسب الطريقة الإسلامية، وانتظرا حتى تستقّر الأوضاع في العراق أكثر.

لكن هؤلاء المحتلّين الأجانب ذاتهم يترأسون الفوضى التي أوجدت العمل الكثير الذي يراه شاكر كل ليلة في مشرحة بغداد. في الصباح عندما سُمح لي بالدخول، كان الدم الرطب

على الأرض وعلى النقالات الفارغة يجذب الذباب. وكانت الرائحة الكريهة للموت شديدة، لدرجة أنني اضطررت أن أضع منديلاً على أنفي. كان للمشرحة الجوّ القذر الذي كان في المشفى الأمامي، ولم يكن هناك شيء أقل رسمية من الأموات أنفسهم. كانت الجثث في القاعة مرمية على الطاولات دون أغطية. وُجد رجل عريض الشاربين، مقطوع الحنجرة لدرجة أن رأسه يكاد ينفصل عن جسمه، عارياً تحت كومة من القمامة في حي للطبقة المتوسطة. ورجل مصاب بطلق ناري في رأسه، وكانت عيناه الزرقاوان مفتوحتين وعليهما غشاوة، وقد وضع أنبوب التنفس البلاستيكي البرتقالي في فمه كأنه صفارة. وجثة صغيرة متفحّمة لامرأة احترق كل جسمها تقريباً. في البرودة الكئيبة لغرفة التبريد، كان هناك ست جثث عارية ممدّدة على الأرض، لامرأتين وأربعة رجال. إحدى المرأتين مصابة بطلقة نارية في الصدر، ويفترض شاكر أن أحد أقاربها قد قتلها؛ وقال إن بعض هذه الجثث لن يطالب بها أحد، فلن يكون هناك تغسيل للجثث، ولا مراسم دفن إسلامية، بل مجرّد تخلّص منها.

وفي طريق الخروج، مررت برجل حسن الشباب كان يحدّق بالوجه الشمعي فوق الحنجرة المقطوعة. كان ابن عم القتيل، كان قد بحث عنه في جميع المشافي قبل أن ينتهي به المطاف إلى المشرحة. وحين رفع بصره، التقت عيناي بعينيه في حزن. بدا تائهاً، كأنه كان يطلب تفسيراً. هزّ رأسه واستدار ليغادر، وهو يتكلم مع نفسه بشكل مسعور.

بينما كانت المشرحة تفيض بالموتى، كانت غرفة الفحص خارج القاعة، فارغة عادة. قبل الحرب كان الوضع معكوساً. لم يكن هذان القسمان من معهد الطب الشرعي يحتلّان الطابق نفسه فقط؛ لكن كانت بينهما علاقة أخلاقية هشة، وكأن التحكم الاجتماعي بالشرف كان يقدّم الدفاع الأخير ضد الفوضوية التي تؤدي إلى القتل. كان شاكر، وهو شيعي متديّن، يتساءل إن كانت طريقة الجلد أمام الناس في إيران هي السبب وراء وباء البغاء الذي تفشى في العراق، حسب قوله، في غياب القانون في ظل الاحتلال؟ قال شاكر: «إنها طريقة صارمة وفظيعة، لكن لها نتائج جيدة، فالبغاء الآن شيء عادي». ألقى اللوم على الأمريكيين، ولا سيما بريمر الذي هدّد في شباط بالفيتو لأي دستور انتقالي يعلن الإسلام أساساً رئيساً للقانون. كانت الحرية الشخصية، أكثر رغبات أسيل حماساً، كارثة أخلاقية في رأي بشير شاكر الذي قال: «حين يعطون الجميع حقوقهم، فإن هذا يسبب أموراً سيئة في المجتمع،

إنه يفسدنا. أما إذا كان الإسلام هو المصدر الرئيس للقانون، فلن تحدث أي من هذه الأمور».

كان من مقاييس عدم قدرة أمريكة على تحقيق أهدافها في العراق أن رجلاً مثل بشير شاكر الذي كانت الإطاحة بصدام تقدم له فرصة للكثير من المكاسب، شعر الآن بأنه منجذب إلى نوع أقسى من الإسلام على أنه رد فعل على انعدام الأمن العام تحت الاحتلال. قال الطبيب: إنه ينتمي إلى «الفكر المتوسط» في المجتمع العراقي، بين الجموع المتشددة دينياً الأقل مكانة منه وبين النخبة العلمانية الأعلى. قال شاكر: «هناك كثير من العراقيين مثلي في العراق، لم يكن هناك شيء غير عادي في أن يحب طبيب مارلين مونرو وكاري غرانت، ويدافع عن جلد المومسات، ويؤمن بأن المثليين الذين يتم إعدامهم يكونون قد نالوا ما يستحقون. لكن الفكر المتوسط كان يعني الصراع الداخلي. فقد كان شاكر يخشى من آثار الحياة خارج العراق، والصور التي يبثّها لاقط الأقمار الصناعية الذي ركّبه على سطح بيته حين كان ممنوعاً وخطراً جدًّا أيام صدام. وقد وقع في حب امرأة عراقية مستقلة التفكير نشأت في هولندة وترتدي القمصان القصيرة، وإذا عادت إلى بغداد، فإنه يريدها أن تبدأ بتغطية شعرها والتصرف على أنها امرأة مسلمة تقليدية أكثر. كان مغرماً بعمله، لكنه كان قلقاً من أن الموت المحيط به يومياً قد يقسّي روحه. قال شاكر: «لا يتعامل الطبيب الشرعي إلا مع الجثث؛ لذا فقد أصبح في النهاية مثلك وجودياً».

كان شاكر يعيش مع والدته وإخوته وأخواته في جانب شارع جانبي أنيق في منطقة كبيرة فقيرة غالبية سكانها الذين يبلغ عددهم مليونين من الشيعة في شمال شرقي بغداد، لايزال بعض أهل بغداد يسمّونه باسمه الأصلي، حي الثورة. كان صدام الذي كان مكروهاً هنا كما في أي مكان آخر في العراق، قد فرض اسمه على المكان، وبعد سقوطه مباشرة طالب السكان بتسمية مدينة صدام باسم مدينة الصدر، باسم آية الله محمد صادق الصدر، وهو من كبار رجال الدين الشيعة وكان قد اغتيل عام 1999 بأمر من صدام على الأرجح. كان عمّ الصدر، آية الله محمد باقر الصدر، أكبر عالم شيعي للجيل السابق قد تعرّض للتعذيب والقتل مع شقيقته عام 1980. دمّر قمع صدام الوحشي للانتفاضة التي أعقبت حرب الخليج

عام 1991 رجال الدين الشعية المعروفين في مدينة النجف المقدّسة التي كانت مركز الثورة: وقد مات آية الله العظمى سيد أبو القاسم الخوئي بعد ذلك بوقت قصير، كما وضع آية الله علي السيستاني تحت الإقامة الجبرية. واختار صدام محمد باقر الصدر الذي كان معتقلاً في ذلك الوقت لتولي قيادة الشيعة في العراق. وهكذا رُفع الصدر بمباركة صدام وأموال البعثيين، وفي أثناء تسعينيات القرن العشرين أنشأ الصدر شبكة من آلاف الأتباع الذين وظّفهم من الشباب الشيعة الفقراء وغير المتعلّمين في الريف، وأعطاهم تعليمات دينية ستة أسابيع في النجف، ثم نشرهم في أنحاء المدن ذات الأغلبية الشيعية في الجنوب، بالإضافة إلى مدينة الثورة في بغداد. كانت رسالة الصدر مزيجاً شيعياً للقومية والشعبية: كان يتكلم باسم المحروم ويلقي اللوم في مشكلات الشيعة العراقيين على أن الكثير من قادتهم الدينيين، كالخوئي والسيستاني قد جاؤوا من أصول إيرانية. كان أتباع الصدر يصفونه بصفات فوق الصفات البشرية. قال لي أحد أشقّاء شاكر الأصغر سناً: إن الله يوم القيامة سيرى كل شخص كما هو فعلاً: فالكذاب يبدو ككلب، والرجل المتكبّر يبدو كحشرة دقيقة، وشارب الخمر كالخنزير. لكن آية الله الصدر كان يرى البشر بهذه الطريقة حين كان حيّاً.

مع نهاية تسعينيات القرن العشرين، بدأ الصدر يتحدّى النظام الذي كان قد جعل منه زعيماً. كما ذمّ السيستاني والحوزة «الصامتة» (مدرسة العلوم الدينية الشيعية) في النجف، ووصف نفسه بالحوزة «المتكلّمة» التي تؤمن بخميني إيران، والدور المركزي لرجال الدين في السياسة. وفي سلسلة من خطب الجمعة في مزار الكوفة، على بعد أميال قليلة من النجف، استخدم الصدر استعارات ومعاني مزدوجة للهجوم على الطغيان البعثي. حسّنت هذه الخطب التي كان يتم تسجيلها وتوزيعها سرّاً من سمعة الصدر بشكل كبير، كما أنها أدّت إلى استشهاده الذي كان بطرق كثيرة النهاية المرجوّة، كما كانت لكثير من الشخصيات في التاريخ الشيعي. تعرّض الصدر واثنان من أبنائه لكمين وإطلاق نار على الطريق بين النجف وكربلاء. لكن ابنه الأصغر، مقتدى الصدر الذي كان يدرس في الكلّية، بقي حيّاً ليطالب بدور أبيه وأتباعه.

كان على الباب الأمامي الخشبي لبيت شاكر ملصق دائري يحمل صور الصدر ذي اللحية البيضاء، مع عبارة من إحدى مواعظه، يصرّ فيها على حجاب المرأة. كانت غرفة

المعيشة مزيّنة بصور الصدر، ومقتدى، والإمام الحسين، وهو يعبر نهراً على ظهر حصان في ضوء القمر، وكانت خزانة التلفاز مليئة بأقراص مضغوطة تحتوي على خمس وأربعين خطبة لآية الله الصدر، وكومة من أعداد صحيفة الحوزة، الصحيفة المعادية بشدة للأمريكيين والتابعة لحركة مقتدى الصدر. أخبرني شاكر أنه يرى نشرات الأخبار التلفازية في قناة الجزيرة والقنوات الإيرانية -لم يكن يشاهد الشبكة التي يديرها الأمريكيون- أدركت أن مصدر معلوماته الوحيد من العالم غير الإسلامي كان أفلام هوليوود القديمة. وهذا لم يساعده كثيراً في تحليل حقيقة قصة لاحظتها في صحيفة الحوزة. كانت الصحيفة قد نشرت صورتين متجاورتين للرئيس بوش والرئيس كلينتون، وهما يرفعان إصبعي السبابة والخنصر، وقدّمت المقالة المرافقة الصورتين دليلاً على المؤامرة الصهيونية الماسونية.

انضمّ إلينا في غرفة المعيشة شقيقا شاكر الأصغر سناً، علي وسمير. كان علي مدرّس رياضيات في مدرسة ثانوية، وكان سمير مصلّح اتصالات عاطلاً عن العمل. وقد كانا، بخلاف شقيقهما الأكبر ذي الشعر الأشقر الغامق والبشرة البيضاء أسمرين، ولهما لحية ومحترمين وجدّيين وحذرين بعض الشيء.

قال شاكر: «سمير أقرب إلى الله مني، أما علي فهو مثلي مرن». كان علي وسمير من أتباع مقتدى المخلصين؛ وكانا معاديين للاحتلال. من حين لآخر، كان الباب الداخلي يطرق، ويقوم أحد الشقيقين لإحضار صينية البيبسي من امرأة لا نراها.

فتح علي موضوع تفجيرات عاشوراء. فقال سمير: «يعرف خمسة وتسعون بالمئة من العراقيين أن الهدف الرئيس لهذا هو إشعال حرب دينية بين الشيعة والسنة». كان يشكك في التأكيد الأمريكي بأن أبا مصعب الزرقاوي الإرهابي الأردني الذي تربطه صلات بالقاعدة، الذي كان قد كتب مؤخراً رسالة طويلة إلى أسامة بن لادن يدعو فيها إلى إستراتيجية إثارة حرب أهلية في العراق، هو المسؤول عن الهجمات. قال علي: «هذا الزرقاوي - إنها مجرّد لعبة يستخدمها الأمريكيون. قبل انتخاب بوش، إذ يظهرون الزرقاوي على شاشة التلفاز، كما كانوا يظهرون صداماً، فقد كانوا قد أمسكوا به قبل إظهاره بأشهر».

قـال لي الإخـوة نكتة عن الاحتلال، إذ كان جندي أمريكي يوشـك أن يقتل رجلاً شـيعياً، فصرخ الشيعي: «لا، أرجوك، بحق الإمام الحسين!» فسأله الأمريكي: من هو الإمام الحسين ثـم قرّر أن يتركه. وبعد أسـابيع أُرسـل الجنـدي الأمريكي ذاته إلى الفلوجة، حيث حصـره متمرّد سنّي. ففكّر الجندي بسرعة وصرخ: «لا، أرجوك، بحق الإمام الحسين!» فقال المتمرّد: «ماذا؟ ألا يكفي أنك أمريكي، أنت شيعي أيضاً؟» وأطلق النار عليه.

كانت هناك لحظة من الضحك في غرفة المعيشة.

نظـر علي الـذي كان يجلس متربّعاً على بسـاط مقابل الجـدار، إليّ مباشـرة، وقال: «قبل الحـرب، كنت أنتظر مجيء الأمريكيين، والآن أشـعر نوعاً مـا أنني خدعت. كل هذا الكلام عن إعادة بناء العراق، وكل ما نراه هو طبقات خفيفة من الطلاء. ويقولون: إنهم أصحلوا العراق».

أما سـمير، فقد تحدّث بلجهة أكثر قتامة، وعلى وجهه ابتسـامة خافتة. لم يكن لديه أي أوهام في السـابق، وقـال: «ليس هناك عدو يحب عدوّه. نحن نعـرف جيداً أن الأمريكيين لا يريدون لنا الخير».

فأشرت إلى أن الأمريكيين قد تخلصوا من صدام على الأقل.

قال علـي: «هـذا لا يكفي. الأمور أسـوأ الآن. لـم نعد نسـتطيع الخروج في الرابعة كما في السابق».

فسألتهم، إذا جرت انتخابات حرة في العراق في أثناء سنة، فهل سيكونون راضين؟

قال سمير: نعم.

أما علي فلم يوافق: «لا أظن أن الناس سـيكونون راضـين. ماذا لو أصـبح لدينا رئيس؟ الهواتف الخلوية التي لدينا هنا لا تعمل. لم لا يمكن أن يكون الوضع كدول الخليج؟ ربما بعد أجيال وأجيال. لكننا لن نكون هنا. هذا يجعلني أكتئب».

طلب شـاكر أن يستعير هاتفي الموصول بالأقمار الصناعية، وخرج إلى السطح واختفى؛ للاتصال بعروسه في أمستردام.

في يوم الجمعة اللاحق لتفجيرات عاشوراء، ذهبت مع شاكر لحضور الصلاة في الكاظمية. وعلى طول السوق التي تنتهي بالساحة أمام المسجد الذي يعود إلى القرن السادس عشر، كان هناك شبّان متجهّمون يرتدون ملابس سوداء، ويحملون بنادق كلاشينكوف، يفتّشون جموع الحجيج؛ بحثاً عن أسلحة. كان هؤلاء الشبّان قوة الأمن المحلية لجيش المهدي، أتباع مقتدى الصدر المسلّحين الذين سمّوا أنفسهم باسم الإمام الثاني عشر، الإمام الغائب الذي يتوقع أن يعود كالمسيح ويبشر بالقيامة. لم يكن هناك شرطة عراقية أو جنود أمريكيون في الشوارع. وقد قال لي أحد رجال الميليشيا، وكان في الثامنة عشرة من عمره: إن الأمريكيين كانوا قد منعوا جيش المهدي من حمل السلاح يوم عاشوراء. كان هذا قراراً أحمق، وقال: لو كانت الميليشيا مسلّحة لاستطاعت أن تعيد أفواج المصلّين في ذلك اليوم وتمسك بالمفجّرين الانتحاريين الذين اختلطوا بالجموع. بعد الانفجارات، استقبل العراقيون الجنود الأمريكيين الذين اندفعوا لإخلاء المصابين بوابل من الحجارة والأحذية.

وبينما دخل شاكر إلى أحد المتاجر ليتوضأ قبل الصلاة، أخبرني رجل دين محلي اسمه الشيخ محمد كناني بأن المفجّرين كانوا من أفراد القاعدة الذين يعملون بالاتفاق مع جندي أمريكي استخدمته حملة جون كيري، قال الشيخ: «أعتقد أن جون كيري كان وراء ذلك ليخسر بوش الرئاسة وتسوء صورته أمام العالم، لكن العراقيين هم الذين يدفعون ثمن ذلك». ازدادات حركة نظريات المؤامرة لدرجة أن وحدة الاستخبارات الأمريكية بدأت بوضع (بعوضة بغداد) وهي خلاصة يومية للشائعة التي تدور حالياً، لا تختلف عن السجلات التي كان حزب البعث يحتفظ بها. حسب ما سمعته من رجال تحدثت معهم في الكاظمية، (...) فقال رجل في السوق: «أمسكنا رجلاً من الرمادي قبل ساعة»، (...) كان جسمه نظيفاً بشكل مريب. وبتفتيش الرجل وجدت ورقة فارغة وخريطة. وقد أخذه السكان المحليون إلى مركز الشرطة، حيث سيتم تعذيبه إلى أن يعترف.

بدأت الصلاة تحت أشعة شمس الظهيرة المحرقة، حيث كان المرقد نفسه، بمآذنه وقبته الذهبية الضخمة، والأقواس المغطاة بالقيشاني التي ترتفع فوق الأبواب الخشبية الأمامية،

مغلقاً بسبب الضرر الذي سببته التفجيرات. ملأ الرجال الساحة، إذ كانوا يحملون علامات سوداء وصوراً للشهداء الشيعة، وكانوا يحرّكون أيديهم وينشدون: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وعجِّل فرجهم، والعن عدوهم. النصر لمقتدى! نحن أتباع مقتدى!».

ركع الطبيب في الصف الأول وصلى. بدا غريباً بين الحشد، فقد كان المصلي الوحيد الذي لا ينشد.

قام أحد مساعدي مقتدى، واسمه حازم الأعرجي بالخطبة. كان سيداً، أي من أحفاد الرسولﷺ، في الخامسة والثلاثين من عمره، له لحية سوداء يخالطها شيب، كان قد أمضى سنتين في المهجر في فانكوفر قبل الحرب. وحين تحدّثنا في مكتبه لاحقاً، أثبت أنه سياسي مبتسم سهل يدخل إلى موقع غوغل عدة مرات يومياً؛ ليبقى على اطلاع على الصحافة وقد صنع دولة إسلامية دينية لا تبدو مختلفة كثيراً عن الديمقراطية البرلمانية. لكنه أمام حشد المصلين خارج المرقد، أطلق تحليلاً حارقاً تآمرياً للعنف في العراق. جاءت الهجمات من أربعة مصادر -أعلن الأعرجي- ليس أي منها عراقياً أو مسلماً: إنهم اليهود والأمريكيون والبريطانيون والقاعدة. كان اليهود الذين تلقوا تحذيرات بالابتعاد عن مركز التجارة العالمي يوم 11 أيلول، فلم يمت أي منهم «يريدون أن يموت العراقيون». وأمريكة، الشيطان، سمحت بالعنف لتحصل على ذريعة للاستمرار في احتلال العراق. والبريطانيون، شركاء الأمريكيين، كان لهم مسؤولية مباشرة» (...).

انحنى شاكر، وخفض كتفه، ونظر في يديه المشبوكتين، وتمتم بصلوات. بدا مشوّشاً، وكأنه كان يحاول تخمين شيء. أتساءل إن كان هياج رجل الدين قد أحرجه؟ (...).

قال الأعرجي: «افعلوا ما شئتم أيها الأمريكيون والإنكليز والإسرائيليون، اصنعوا مزيداً من الصواريخ والمتفجرات والإرهاب في كل أنحاء العالم، لكن ذلك لن يوقفنا».

فهتف الحشد: «نعم، نعم للإسلام!».

قال شاكر ساخراً، بينما كنا نخرج من الكاظمية: «إنها مجرد خطبة، لو كنت أعلم أن

هذا الرجل سيخطب خطبة الجمعة، لما ذهبت». كنا نفضّل أن نسمع لمقتدى نفسه. قال شاكر: لو جاء مقتدى، لكان هناك كلام أقل وفعل أكثر.

في الليالي القريبة من عاشوراء يُعدّ الشيعة كميات كبيرة من الطعام، ويزورون الأصدقاء والجيران، ويبقون معاً حتى الفجر يترقبون مرور روح الإمام الحسين بهم. وقد دعيت لقضاء ليلة في بيت شاب يدرس العلوم الدينية اسمه علي طالب. كان يسكن قرب طريق سريع شرق بغداد، في شارع ضيّق بين مجموعات البيوت التي رفعت جميعها أعلاماً سوداء وحمراء وخضراء صغيرة على سطوحها. كان علي في الخارج حين وصلت، يحرّك قدراً من العصيدة التي تغلي بملعقة خشبية طويلة جدًّا. وكان جيرانه على طول الشارع يفعلون الأمر ذاته. كان الوقت متأخراً في المساء، وكان حظر التجوال سيبدأ قريباً ليجعل من المستحيل أن أغادر حتى الصباح. لم يسبق لي أن أمضيت ليلة في منزل عراقي قط، وكان علي يريد أن يجعلني مرتاحاً منذ البداية، فأعطاني الملعقة وأصرّ علي أن أقوم بالتحريك، فكان علي أن أساعد في إطعام روح الإمام الحسين المارّة.

كان علي في أوائل الثلاثينيات من عمره، وكان رجلاً مكتنزاً أعرج، شبه أصلع، وله لحية خفيفة (أصرّ أن هذا صحيح مذهبياً؛ لأن ما يهم هو أن يكون هناك شعر على الوجه يكفي لتمييز الرجل من المرأة، وليس أن يكون هناك لحية كاملة). كان علي غيورًا متحمساً، فقد كان يلمس كتفي باستمرار للتأكيد أو عندما يضحك سروراً بشيء قلته صاح علي: «أتمنى لو يصبح اليوم ثماني وأربعين ساعة بدلاً من أربع وعشرين! لا أستطيع النوم بهدوء، هذا الأسبوع نمت ثماني ساعات، بسبب الإنترنت». فقد سمح له الاتصال بالإنترنت الذي كان هدية من أسرته، بالدراسة ليل نهار، وفي غياب الكتب الغالية. قالت علي دون مناسبة: «أتمنى أن أكون في وكالة ناسا الفضائية، وأرى هذا العالم من السماء، وأريد أن أعيش الحياة لحظة بلحظة».

كانت عائلة علي تحاول أن تجعل حياته سهلة ومنجزة قدر الإمكان؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون كم سيعيش، فقد كان منذ طفولته يعاني مرضاً في ساقه اليسرى. رفع ملابسه؛ ليريني: كانت ساقه منتفخة ومتغيرة اللون بشكل فظيع، وكان فيها عقد منتفخة في الفخذ

وبطـن السـاق. أجريت له عملية ولم تنجح: وقد قال لـه الطبيب: إنه إن لم يذهب للعلاج في الخارج فإن المرض سيقتله في النهاية.

قال علي: «أنا صابر؛ لأنني أعلم أن الإمام الحسين عانى أموراً أسوأ جدًّا، لقد أدى مقتل الحسين إلى ثورة. لكن هذه الثورة لم تكن ثورة دم، بل ثورة روح».

كان بيـت علي المكون من طابقين يحيط بفسـحة سـماوية داخلية صـغيرة، وكان هناك عصفور يرفرف في قفص، وجهاز تسجيل ينشد عن جلد النفس، وقد جلست مع علي وعمه نتحدث في الفسـحة السماوية، بينما كان الجيران يأتون ويذهبون. كان علي طالباً متحمساً للفلسـفة الإسـلامية. في عهد صـدام، كان يذهب إلى النجف طوال سـنوات، دون أن يخبر والديه، وتابع منهجاً دراسياً مع كبار علماء الحوزة الشيعية. كانت الحكومة تراقب الطلاب، وقـد أُعـدم اثنان من معلّمي علي، لكنه كان دائماً يعاني اليأس، وما تعلمه في النجف لم يكن يجعله يحتمل فحسب، بل ينتشي لذلك. قال علي: «الكون كله يقوم على حب الله. ليس فقط البشر، وإنما كل ما ترى في الحياة، كل كائن حي». أصبح علي من أتباع الملا صدرا الصوفي الفارسـي الذي كان يعيش في القرن السـابع عشـر، وهو فيلسـوف مثالي بروح الأفلاطونية الجديدة، وقد كان يدرّس عن وحدة الوجود. «لقد شـق ملا صـدرا طريقه، وكل العلماء من بعده سـاروا على الطريق ذاته، وأردت أن أتبعه، لكن نظام صـدام وعمي لم يسمحا لي بأن أسير في ذلك الطريق».

قال عم علي، وهو شيوعي مسن غير متدين: «لم نكن نريده أن يتبعه؛ لأنه في ذلك الوقت كان مجرد الاستماع إلى هذه الموسيقا قد يؤدي إلى قتله، وكانت العقوبة ستطول العائلة كاملة».

في النهاية، اضـطر علي بسبب وضـعه الصـحي والأخطار المحيطة أن يتوقف عن حضور الدروس في النجف. لكنه تابع الدراسة مع مجموعة سرية من الأصدقاء في بغداد. كان الجزء الأصـعب هو العثور على الكتب وشـرائها. كان لدى علي في غرفة نومـه بالطابق العلوي كتاب ميكيافيللي «الأمير» ونسـخة حديثة من كتاب ملا صـدرا «فلسفة المبادئ والموعود»، وغيرهما

مـن الكتب، لكن هذا لم يكن كافياً. أصـبحت الإنترنت هوسـ علي، فقد كانت، كما قال، أكبر هدية من بريمر للعراقيين. وكان على مكتبه صورة لآية الله العظمى السيستاني.

تحدّثنا في أثناء الليل حول أفكار «ميل» عن الحرية والإسـلام والديمقراطية ودور المرأة في الديـن والتقاليد، وعن كبار السياسـيين العراقيين وعن مكان رجـال الدين في الحكومة المقبلـة. كانـت أفكار علي غير مكتملة: ففي بعض الأحيان كان يقترب من الدفاع عن النمط الإيراني ولاية الفقيه، وفي أحيان أخرى كان يريد فصـل الدين عن السياسـة. وقد سـألني ألف سؤال، منها: ما رأيي في فيلم آلام المسيح؟ وهل التقيت أي شخص مشهور غير بريمر؟ وكيف أسـتطيع أن أفرّق بـين ما هو عمل الحكومة وما هو عمل الله؟ هل سـيدع الأمريكيون العراقيين يكتبون دسـتورهم بأنفسهم؟ كانت مناقشة فريدة ومنعشة؛ لأن علياً كان منفتحاً على جميع الأفكار، فلم يكن هناك شيء خارج الحدود.

كان للاندفـاع الشـيعي في أثنـاء أيـام شـهر المحـرّم في العـراق تأجج وحـرارة، رغبة طالمـا كانت مكبوتـة، لكنه لم يكن شـهر تسـامح. كان الطلاب يهددون عمـداء الجامعات إذا أزالـوا لافتاتهم، وكان أتباع مقتدى يتصـرفون أكثر فأكثر بوصـفهم ميليشـيا فاشـيّة. وقـد شـرح لي مرة مصـطفى الكاظمي، المغترب الـذي التقيته أول مـرة في لندن، وكان في شـبابه عضـواً في حـزب الدعوة، أن هـذا الانفجار الدينـي لم يكن فقط رد فعـل على قمع حـزب البعـث، وإنمـا شـكل مـن العقليـة الديكتاتورية نفسـها؛ لأن جيل الشـيعة الشـباب نشـؤوا لا يعرفون غيرها. وأنها ستسـتغرق سـنتين أو ثلاثاً لتنتهي، وفي تلك الأثناء سـيكون هنـاك الكثـير من المشـكلات. أما فيمـا يتعلق بعلـي طالب، فلـم يكن يعرف مـا يفكر فيه تمامـاً، لكن طريقـة تفكـيره كان فيها انتقاد للـذات، مع مسـحة من المتعـة الميتافيزيقية. تحدّثنـا حتى عن الجنس. فقد أخبرني الصـديق المشـترك الذي عرّفنـي إلى علي أن علياً كان علـى علاقة شـبه سـرّية مع أرملة عدة سـنوات. يجيز الشـيعة ما يسـمى زواج المتعة. وهم يسـتندون بذلك إلى آية من آيات القرآن، ولهذا الزواج جميع قيود الزواج الإسـلامي: العقد والمهر ورضـا كلا الطرفين وموافقة ولي المـرأة ومباركة رجل دين (فهو ليس نوعاً من الزنى).

لكن الفرق أن زواج المتعة مؤقت: فيمكن أن يستمر من ساعة واحدة حتى عشرين سنة، ويتم تجديده بشكل غير محدّد. كنت قد سمعت أن في الكاظمية غرفاً يتم تأجيرها لهذا الهدف فقط، وكان لدى الأئمة ألبومات مليئة بصور الرجال والنساء الصالحين من جماعاتهم للاختيار من بينهم. حذّرني علي: «لكن هناك نقطة حساسة إذا كانت المرأة لا تزال عذراء، لا تستطيع أن تجامعها، لا تستطيع إلا أن تلمسها وتقبّلها». وفسّر لي: «ستكون هذه كارثة لتلك العذراء؛ لأن أخاها سيقتلها. ليس الإسلاميون هم من سيقتلونها، وإنما ستقتلها التقاليد». (هذا القيد غير موجود في حالة الأرملة أو المطلقة). لكن إذا دخلت موقع www. sistani. org وبحثت في تعاليم آية الله العظمى حول طرق ممارسة الجنس(؟)، فستدرك أن آلاف الشيعة الشباب كانوا يمارسون فنون الجنس قبل أن يتزوجوا بالطريقة التقليدية. وصف علي هذه الممارسة بأنها فعل مذهبي من باب الشفقة. «نحن الشيعة لا نريد ممارسة الجنس بشكل حرام؛ لذا فإن لدينا زواج المتعة. إن هذا من باب الرحمة؛ حتى لا يعاني الشاب أو الفتاة بداخلهما، إنه لتسهيل الأمور على الشباب».

طوال المدة التي كنا نتحدث فيها، كانت النساء في الأسرة -والدة علي وشقيقته وابنة عمه وجارته- يطبخن أطباق العيد على بعد خطوات في المطبخ. وكانت النساء الأصغر سناً يأتين إلى الباب بملابس سوداء لشهر المحرّم، لكن دون حجاب، وكنّ فضوليات جدًّا، وكنّ ينظرن إلى عينيّ مباشرة قبل أن يتراجعن ليتهامسن فيما بينهن ويضحكن. قلت لهم: إنهن جعلنني أشعر كأنني حيوان في حديقة الحيوان. قال علي: إنهن لا يظهرن وجوههن لأحد في البيت في أي مناسبة أخرى، لكن هذا كان يوم عيد، وأنا ضيف مكرّم.

أخيراً وقفت شقيقته إبتسام، وهي مدرّبة كرة طائرة في كلية محلية في الممر، ووجهها خلف العمود، وأشركتني فيما يشبه المحادثة. سألتني: لماذا لم يعد الجنود الأمريكيون يبتسمون ويلوّحون بأيديهم كما كانوا يفعلون بعد التحرير؟ كانت تريد أن تقول: إنهم بعد سنة من الاحتلال لم يروا منه شيئاً. وقالت: إن النساء يردن حقوقهنّ. «نريد أن يكون لنا دور في الانتخابات».

قال لها علي: «لم يقل أحد: إنّكنّ لا تستطعن التصويت».

فقالت إبتسام: «نحن نريد التعليم العالي. نريد وظائف أفضل. ونريد احترام المجتمع». وهنا انسحبت إبتسام؛ لتطمئن على القدور التي تغلي.

قرابة الساعة الثالثة صباحاً، تبعت علياً إلى الدرج الخارجي الذي يوصل من الفسحة السماوية إلى سطح الطابق الثاني. كان هناك نسيم لطيف. وفي الأسفل كان النادمون لايزالون ينشدون من آلة التسجيل ويلطمون. وتحت النجوم وضوء القمر غير المكتمل، كانت الأنوار وأشجار النخيل تمتد عبر المدينة. بدت بغداد كلها مستيقظة؛ انتظاراً للإمام الحسين، وكانت تبدو عن بعد، في هذه الليلة، مكاناً سحرياً. ودّعت علياً قبل حلول الفجر بقليل.

وحين انتهى شهر المحرّم ازداد الخطر في العراق بشكل ملحوظ على شخص مثلي. ففي 9 آذار، طارد خمسة رجال يرتدون زي الشرطة العراقية موظفة في سلطة الائتلاف المؤقتة، تعمل مع مجموعات النساء، وزميلة لها ومترجماً عراقياً وأطلقوا عليهم النار حتى قتلوهم على الطريق بين كربلاء والحلة. وقد كنت قبل تلك الحادثة بساعة عائداً إلى بغداد على طريق آخر يبعد أميالاً قليلة. في 15 آذار، قتل أربعة مبشّرين معمدانيين بنيران الأسلحة الآلية في الموصل. وفي اليوم اللاحق، قتل مهندسا مياه أجنبيان بإطلاق رصاص على طريق جانبي قرب الحلة. وأصبحت جثتاهما جزءاً من العمل الليلي لمشرحة د. شاكر. وقد أعطاني د.شاكر التفاصيل التشريحية لحالة الرجل الهولندي، ربما على سبيل التحذير: رصاصة كلاشينكوف أطلقت على بعد يزيد عن ستة أقدام حطمت العقب الأيمن؛ وأخرى دخلت من خلف الفخذ الأيمن، فمزّقت كيس الصفن وخرجت من الفخذ الأيسر، ورصاصة ثالثة اخترقت الكلية اليمنى مع شظية، والرصاصة الرابعة دخلت الجانب الأيسر من العنق، وخرجت مع جزء من الفك السفلي، مما سبب الوفاة.

كنت أقيم في فندق صغير تملكه عائلة في شارع جانبي في حي الكرَّادة التجاري. وقد كان معظم النزلاء من رجال الأعمال الأتراك والعرب والإيرانيين. وكان الفندق غير الظاهر أكثر أمناً وودّاً من الفنادق الكبيرة المحاطة بجدران لصد الانفجارات في وسط

المدينة، التي كانت معروفة بأنها مكان إقامة الصحافيين والمقاولين الغربيين. كانت غرفتي بعيدة عن الشارع، وحدّدت مكان مخرج طوارئ من نافذة الحمام، وبالرغم من ذلك، كانت الانفجارات التي تنطلق مرتين أو ثلاثاً كل ليلة تجعل النوم أكثر صعوبة. وفي ليلة في منتصف الشهر، نحو منتصف الليل، هزت قنبلة انفجرت في مكان ما من المدينة نوافذ غرفتي وجدرانها بمجرد أن غفوت. لم يكن من الممكن تحديد مصدرها أو بعدها، كان صوت الانفجارات يبدو دائماً أقرب من الواقع. حاولت النوم من جديد، لكن دون فائدة، فتناولت ملابسي وخرجت إلى الشارع.

كان حارس الأمن، سعد، الذي يحمل سلاحاً من طراز AK - 47، يقف خارج مقصورته مع المدير الليلي، ظافر. طمأنني ظافر بأن الانفجار أتى من جهة ساحة التحرير، على بعد نحو ميل إلى الشمال. كان كلا الرجلين في الأربعينيات من العمر، لكن كالعادة كانا يبدوان أكبر من ذلك عشر سنوات، وكانا يتقاضيان أجراً قليلاً، ولا يلبسان ما يكفي لتدفئتهما في ليلة باردة. وقد دعواني للانضمام إليهما، وقد كنت أعرف أنني لن أعود للنوم؛ لذا وقفت مع سعد وظافر، بينما كانا يشاهدان فيلماً عن استشهاد الإمام الحسين على مسجل الفيديو الرقمي. بدأا الحديث عن تجاربهما في حرب الثماني سنوات مع إيران.

«لقد دمّرني صدام». رفع سعد قميصه؛ ليكشف عن ندبة طولية سيئة بطول ست بوصات على الجانب الأيمن من معدته، إذ كان قد أصيب في معركة (مجنون). كان الجنود العراقيون يجدون أيدي القتلى الإيرانيين لا تزال متشبثة بمفاتيح دخول الجنة. رأى ظافر أيضاً أحداثاً في معركة (مجنون)، كما في ميادين القتال الأخرى. كان عمله فحص الهواء؛ للتأكد من سلامته، بعد الهجمات التي يشنها الجيش العراقي بالأسلحة الكيماوية التي غيرت مسار الحرب.

سألت ظافرًا عن الهدف الذي كانوا يحاربون لأجله، فقال: «لا، لمجرد أن الحكومة قالت لنا أن نحارب». واقتبس كلمات القائد الذي قاد فتح إسبانية في القرن الثامن: «العدو من أمامكم والبحر من ورائكم. لا تستطيعون فعل شيء – عليكم أن تحاربوا». وأضاف: «حاربنا

إيران والآن ها نحن هنا، نتقاضى خمسين دولاراً شهرياً». ضحكا من قلبيهما. كان ظافر، وهو رجل عزيز النفس، يكتب لي يومياً موجزاً عن المآسي العراقية بلغته الإنكليزية التي تعلّمها وحده. وكان في تلك الليلة يرتدي معطفاً من جلد الخروف أهداه له ضيف كويتي، أما سعد فلم يكن لديه معطف.

انتهى الفيلم الذي كان يدور حول استشهاد الإمام الحسين بالشهادة والرثاء. فأخرجه سعد ووضع فيلماً عراقياً خليعاً. كان إنتاج الفيلم سيئاً، لكن سعداً بدا أكثر اهتماماً مما كان عليه في أثناء فيلم كربلاء. قلت له: إن مقتدى الصدر سيعاقبه لو عرف ذلك. فأشار بيده للأعلى. وقال: «الله». هذا بينه وبين الله.

وبعد أن أمضيت ساعة مع سعد وظافر شعرت بتحسن كبير.

وبعد أيام قليلة، دمّر انفجار سيارة ضخم فندقاً على بعد نحو عشرة مبانٍ من الفندق الذي كنت أقيم فيه. كان فندق م. ت لبنان يناسب وضعي تماماً. خمّن العراقيون أن القنبلة انفجرت قبل الوقت المحدّد، وأن الهدف المقصود كان أحد الفنادق الغربية. ومع ذلك لم يعتقدوا أن من الحكمة البقاء في فندق لا يحميه إلا سعد وسلاحه من طراز AK. في صباح اليوم اللاحق، لم يطلب مني ظافر أي تفسير، حين كتب لي الفاتورة، لكن كان من الصعب النظر في عينيه، فقد كان لدي شعور بأنني أتخلى عنه.

بدأ الصحافيون الأجانب يدركون أنهم قد يكونون مستهدفين بشكل خاص من بين الغربيين، وهذا أكثر جدًّا من احتمال سوء الحظ الذي يمكن أن يجعلك ضحية انفجار قذيفة هاون ضالة يحدث في أرض مجاورة لهم. ولأن الصحافيين يقضون وقتاً أطول يجولون في شوارع العراق؛ بحثاً عن عراقيين يتحدّثون معهم من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة أو المقاولين الفرديين، فقد قرّر كثير منهم أنهم بحاجة إلى مزيد من الحماية، بدلاً من مجرّد محاولة التخفي. كان لدى الصحافيين الذين لهم مكاتب في بغداد طريقة لتشغيل مستشارين أمنيين لشراء سيارات مصفّحة، وحتى بناء جدران مضادة للرصاص، وأبراج

مراقبة حول المباني الخاصة. أما أنا فلم يكن لدي مكتب أو موظفون، وكلما ذهبت إلى العراق كان علي أن أجمع فريقاً من سائق ومترجم غالباً من البداية.

قرّرت أن أوظف حارساً شخصياً. كان الرجل الذي اخترته لهذا العمل لديه خبرة قريبة، ولم يكن يعمل بشكلٍ كافٍ وقتها، بعد أن كان أحد الحراس الشخصيين لصدام، وبعدها لعديّ. كان عماد حمادي رجلاً قصيراً، عريض المنكبين في الرابعة والثلاثين من العمر وله شارب كبير وعينان مرحتان. كان يمضي أيامه جالساً في بيته في حي القادسية، وهو أحد الأحياء البعثية الحديثة على الضفة الغربية للنهر (كان صدام يحب أن يمنح هذه الأحياء أسماء عربية قومية: فالقادسية اسم معركة انتصر فيها العرب على الفرس في القرن السابع، وأعطى اسمه للحرب العراقية الإيرانية، والأندلس للفتح العربي لإسبانية، والجهاد يشير إلى الجهاد). كان عماد يذهب يوماً أو يومين في الأسبوع ليدير البريد الحكومي الداخلي لوزارة الخارجية، التي كان يعمل فيها قبل سقوط النظام، بفضل ارتباطات عائلية. كان لا يزال يتقاضى مقابل هذا العمل الفخري مئة دولار راتباً شهرياً. حسب ما علمت -وهذا ما سمعته منه ومن عدد قليل من الناس غيره- كان عماد يبتعد عن التمرّد.

كانت عائلته من العرب السنة، من الفلوجة والمدن الصغيرة في محافظة الأنبار. وكان كل أقاربه قد دعموا النظام السابق؛ فأحد أشقائه كان يعمل في وزارة التصنيع العسكري التي تم حلّها، كما كان يملك شركة تجارية قامت مرة بعمل سريع عبر أصدقاء الحكومة، لكن لأنه لم يكن لديه عقود مع سلطة الائتلاف المؤقتة، فقد أغلق محله في المنصور. وكان أحد أبناء عمومته مهندس ديكور لغرف الضيوف القبيحة في أحد قصور صدام الذي يقيم فيه الجنود الأمريكيون الآن، وآخر كان قد سرّح من وزارة الصحة. كان ابن شقيق عماد، وهو ابن ديبلوماسي في البعثة العراقية للأمم المتحدة في نيويورك، يعمل في محل أطعمة فاخرة في بروكلين، حين اعتقله العملاء الفدراليون، بعد الغزو مباشرة، بسبب تأشيرة مخالفة في تفتيش على عراقيين مشتبه فيهم، وسجن أربعة أشهر، ثم تم ترحيله إلى العراق. كانت

عائلة عماد تسكن على بعد مبنى واحد من مبنى صدام الضخم للرعاية والمراقبة الذي سوّته الحرب بالأرض.

في أثناء الأشهر القليلة الماضية لقي عدد من أصدقاء عماد من النظام السابق حتفهم في ظروف غامضة. كان أحدهم، وهو زير نساء سيئ السمعة من تكريت، قد قال لعماد قبل أن يقتل بمدة قصيرة: «ما الذي يحدث؟ لقد انقلبت الدنيا رأساً على عقب». لكن طبيعة عماد كانت أطيب من أن يعبّر عن أي مرارة. وحين جاء الجنود الأمريكيون إلى الحي يفتّشون البيوت، أحرق صوره مع عدي وقصي وعرفات والقذافي، وكانت لتلك الصور قيمة عاطفية بشكل خاص. كان عماد واحداً من آلاف العراقيين الشباب الذين جاؤوا بعد جيل صدام، ولم يكن لهم ارتباطات فكرية، فاستخدموا النظام الذي تحوّل إلى عملية إجرامية للمكاسب والمتع الشخصية. كان عماد في سن علي طالب وبشير شاكر وأخويه تقريباً: لم يكونوا يعرفون شيئاً غير حكم صدام بالرغم من أنهم كانوا على جوانب مختلفة من خط أخطائه، وها هو صدام رهن الاعتقال الأمريكي الآن، وقد قُبض عليه في حفرة تحت الأرض، إذ يبدو كرجل مشرّد.

ولما كان الماضي أصبح كئيباً جدًّا، فقد عاش عماد بسعادة في الماضي، حين كان يستطيع أن يفعل ما يشاء، ويخرجه عدي من السجن. كان من السهل إيجاد النساء والخمر، وكانت المشكلات التي يسببانها يمكن حلّها بشد الخيوط الصحيحة، وكانت العدالة تتحقق ضمن العائلة الكبيرة. وبعد أن ترك الكلية العسكرية في أثناء الحرب مع إيران -حيث لم يكن يستطيع القيام بالتمارين، ولم يكن معتاداً على غسل ثيابه- جعلت الرابطة الأسرية مع سكرتير صدام الخاص عماداً واحداً من آلاف الرجال في القوة الخاصة لحماية الرئيس. كان الخط الأول من الحراس يتكون كله من أقارب صدام الذين يحظون بقطعة من الأرض وسيارة سنوياً، ويتمتعون بسلطة لخلع وزير، أما الخط الثاني فكان من الأقارب الأبعد الذين يستطيعون بمكالمة هاتفية تحريك فرقة عسكرية كاملة. كان مجموع الخطوط خمسة، وكان عماد في الخط الثالث.

كان صدام يبدو في حياة عماد رهيباً، لكنه عادل. قال لي عماد: «حسبما رأيت وسمعت، كان صدام رجلاً رحيماً، لم يكن يعاقب، كان يسامح، وكان يعطي الهدايا. دعني أخبرك بهذه القصة على سبيل المثال، فأحد الحرّاس على البوابة، كان يراقب حواجز المسامير في الشارع، فرأى صداماً يخرج من القصر، وحين حيّاه داس على أحد المسامير. فوقف صدام وسأله: (لماذا فعلت هذا؟) قال الحارس: (لا أعلم، هذه أول مرة أراك فيها). وكان يبكي طوال الوقت»، فأمر صدام بمعالجته طبياً، وأعطى المصاب مبلغاً من المال وسيارة من طراز تويوتا كورولا. كانت اللقاءات المباشرة لعماد بصدام قليلة، لكنها لا تنسى. مرة بعد ظهر يوم الجمعة كان يتسكّع مع رفاقه خارج القصر بملابسهم الداخلية، حين توقفت سيارتان؛ كان صدام في المقعد الخلفي في إحدى السيارتين. «لم نكن نتوقع حضوره، لم نعرف ماذا نفعل. فوقف وسلّم علينا». توعّد السكرتير الأول لصدام، الذي كان الجميع يخافه الحرّاس بالعقوبة القصوى. لكن صداماً عفا عنهم. فقال صدام: «إنه يوم الجمعة. لم يكونوا يعرفون». وكان من المواقف التي لا تنسى، ما حدث في أثناء القصف الأمريكي لبغداد عام 1991، حيث مكث عماد وعدد من الحراس في القصر الرئاسي، بينما فرّ الآخرون من الانفجارات. فكافأ صدام المخلصين بساعات ذهبية ومسدّسات براونينغ. كان عماد يرتجف خوفاً وكان خوفه من الرئيس أكثر من خوفه من القصف. وضع صدام يده على رأس عماد. «كان حضوره مميزاً»، تذكر عماد. «كحضور ساحر».

كان عماد يعرف جيداً أن النظام الذي كان يخدمه قتل الآلاف. وقد لفظ مرة أسوأ صفة يمكن تخيلها في العراق على النخبة البعثية كلها: «إنهم مجرمون، أبناء كلاب». لكن كانت تلك هي الحياة التي يعرفها، وباستثناء العقوبة أو السجن لمخالفة أو أخرى، فقد استفاد منه جيداً. أصرّ عماد على أنه لم يرتكب أي جريمة قتل. وأقسم إنه في أثناء الانتفاضة التي تبعت حرب الخليج، قد رفض أمراً بإطلاق قنبلة تعمل بالدفع الصاروخي، على بيت في كربلاء فيه نساء وأطفال، وعوقب بالجلد بسلك وخرطوم مياه. في محادثاتي الكثيرة مع أناس خدموا النظام السابق، لم يعترف أي منهم بأن روحه تأذّت،لكنني لم أستطع التأكد من حقيقة ذلك.

قادت تجربة كربلاء القاسية عماداً إلى طلب نقله، فانتهى به المطاف إلى القوات الخاصة

بعديّ. كان عديّ مصدر تسلية مستمرة خطرة. أقرّ عماد بحرّية أن عدياً كان مجنوناً، وأن مزاجه كان يتقلب بعنف بين ساعة وأخرى، خاصة حين يكون مخموراً. كان كرمه شديداً كقسوته. حين كانت الأشياء تسودّ في رأس عدي، كان يخرج مسدّسه ولا أحد يدري إن كان سيطلق النار على ضوء في السقف أو على رأس شخص أغضبه. أمضى عماد سنتين في قصور متعة عدي والنوادي الليلية. كانت حادثة بركة السباحة هي التي دفعته لمحاولة ترك الخدمة. وكان هذا شبه مستحيل، لكن بعد محاولات عديدة ووساطات عالية المستوى، سمح لعماد بالتقاعد.

في الوقت الذي استخدمت فيه كان عماد قد تجاوز ربيع شبابه، فقد كان يضع مسدس 9 مم تحت قميص هاواي، وكان بحاجة لتذكير مستمر أن يمشي خلفي ليبقي عينيه مفتوحتين ليس على الفتيات فقط. ومع ذلك، كنت أستمتع برفقته، فوسط جوّ المحرّم الثقيل، كان من المريح التجوال مع مصدر للنكات لا ينضب. كان عماد يشعر بحنين مولع بفساد البعث، وكان ينظر بعدم رضا إلى المدينة -مدينته- التي تغيرت كاملة، إذ كانت جدرانها مغطاة باللافتات السوداء الشيعية، وكان شباب الميليشيات قد سيطروا على شوارعها، وعلى رؤوسهم العصابات الخضراء، وقد تغيرت الأسماء المألوفة لجسورها وأحيائها إلى أسماء دينية. كان عماد غاضباً؛ لأن أحد أصدقائه أوقف في طريقه إلى البصرة عند نقطة تفتيش شيعية خارج النجف، وحين وجد رجال الميليشيا معه صندوق ويسكي في شاحنته، جلدوه أربعين جلدة بخرطوم مياه مطاطي. كان زواج المتعة الشيعي، مصدر تسلية خاصاً لعماد. وقد قال مرة: «اسأل أي شيعي هل يمكنك أن تحصل على أخته شهر فسيجن جنونه». أن تكون مسلماً سيئاً وتقر بذلك أفضل من أن تدّعي أنك مسلم صالح. وقد قال لي عماد في اليوم الأخير لنا معاً: «سيذهب جميع العراقيين إلى جهنم. أعلم أنني سأذهب إلى النار. فلم لا أذنب؟».

كلما ازداد العراق خطورة، زاد اعتمادي على العراقيين الذين كنت أعمل معهم: لأسمع تعليقات عدائية في أحد المطاعم، وأقرر أنه حان الوقت لدفع الفاتورة والانصراف، وللمرور بنقطة تفتيش للشرطة والتنبؤ بما هو حقيقي وما هو مزيف، ولاستطلاع مزاج جمع من الناس قبل إحضاري إلى الموقع، لإعارتي «جاكيتاً» يسمح لي بالاختلاط بالناس. وأخيراً، لم أكن أستطيع أن أقطع الشارع وحدي.

استخدمت عدة مترجمين مختلفين؛ لأنه بعد كل زيارة من زياراتي التي نادراً ما كانت تستمر أكثر من شهر، بعد سفري كان يأخذهم صحفيون آخرون لهم مكاتب دائمة في بغداد، ويكون علي في الزيارة المقبلة أن أجد شخصاً جديداً. كانت المهارات المطلوبة لهذا العمل تتجاوز تحدث الإنكليزية والعربية بطلاقة. فموجة الاختطافات كانت ترفع سعر رأس الغربي، وكان مجرد العمل لدى صحفي أجنبي يشكل خطراً على العراقي (تم تهديد العديد من الموظفين المحلّيين لدى منظمات إخبارية غربية، كما قتل بعضهم). فقد كانت الثقة المتبادلة شيئاً أساساً في العلاقة بين الصحفي والمترجم، وكذلك توازن القوة. كنت أنا المدير وأنا الذي أدفع الأجر، لكنه كان في بلده، ويتحدث بلغته، وكان رأسي أعلى قيمة من رأسه. كان السائق قيس، الذي عمل معي في إحدى رحلاتي وأظهر إخلاصاً متعصّباً، يمزح معي قائلاً: إنني إن لم آتِ إلى بيته وأتناول العشاء مع عائلته، فسيسلمني إلى الجهاديين.

كنت أعلم جيداً أنني حين أوظف هؤلاء الشباب فإنني أضطرهم إلى الاختيار كل يوم بين أن يقولوا كلمات قليلة لقريب لهم، له صديق في عصابة إجرامية، ويحصلوا ببساطة على عشرة آلاف أو خمسين ألف دولار، أو ألا يقولوا شيئاً. بدا أحد المترجمين الذين عملوا معي مضطرباً بعض الشيء. كان أحياناً يقسم لنفسه حين لا يكون هناك شيء خاطئ بوضوح، وكان يدفع رأسه بشكل لا إرادي للخلف على رقبته ويتأوّه كأنه يعاني ألماً عقلياً. كما أنه كذب علي بشأن العمل أكثر من مرة (لا أعرف أبداً إن كان قيس لم يخبرني، كانت هذه حالة الجهل التي قضينا نحن الغربيين معظم الوقت فيها في العراق). وفي أحد الأيام، توقفت فجأة عن الثقة فيه، ومن تلك اللحظة إلى أن غادرت العراق كنت واعياً لكل فرصة يمكن أن يسلّمني فيها الرجل، كل ما كان عليه فعله هو أن يتكلم الإنكليزية بين الناس بصوت مرتفع. لحسن الحظ، غادرت بعد أيام قليلة ولم أره بعد ذلك. لكن بعض مكاتب الأخبار قد وضعت بالفعل رهينة لعصابات من السائقين والحراس، الذين كان معظمهم من الأقارب، ولا يمكن طردهم لما ينطوي عليه ذلك من خطر.

حين يكون بيد أحد طرفي علاقة قدرة على موت الآخر، ويختار بثبات ألا يمارس هذه القدرة، مقدّماً تضحية مالية كبيرة، وفي الوقت ذاته يخاطر بحياته لمجرد أنهما يعملان

معاً، فإن الرابط الشخصي يصبح قوياً. لم أغادر العراق مرة دون أن أشعر ببعض العاطفة تجاه الشباب الذين ساعدوا في الحفاظ علي بأمان.

كان أفضل المترجمين في بغداد غير محترفين (فقد كان هؤلاء مرافقين فاسدين في منتصف العمر من النظام السابق) أو خرّيجي كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية. كان أفضل المترجمين يقومون بأعمال أخرى، وقد وقعوا على هذا العمل بالمصادفة بعد وصول الأمريكيين، أحياناً عن طريق محادثة بالمصادفة مع صحافي في الشارع. كانوا فطنين، وسريعي البديهة، وشجعاناً، وكان عليهم أن يتغلبوا على ضغط التنقل من عالمنا إلى عالمهم. كانوا يضمرون وعياً مزدوجاً، حيث كانوا يترجمون/ يفسّرون العراق لنا، بينما ينتمون إليه، ويقبلون أن أياً من مقدّسات بلادهم لن تكون مقدّسة، ويشاركوننا في تجديفنا وأحاديثنا عن الجنس، وسخريتنا من المشايخ والأئمة وزواج المتعة، ثم يعودون إلى بيوتهم إلى الأمهات المحجبات اللواتي لا يكدن يغادرن بيوتهن. كان المترجمون طموحين، وكانوا يعرفون أن هذه الفرصة لن تدوم، وتعلّم أفضل المترجمين بسرعة كافية أن يعملوا دون كلل، ولو كانوا مستائين قليلاً من أننا بحاجة إليهم كثيراً، وأنهم لا يحصلون إلا على قليل من المجد. وبينما أصبحت المقاومة أشد دموية، بدأت المنظمات الإخبارية تعتمد على الموظفين المحليين للخروج وإعداد التقارير لهم، أولاً في المدن التي لا يمكن الخروج إليها كالفلوجة، وبعد ذلك، حين بدأت عمليات الاختطاف، في كل مكان تقريباً. وبعد عدة حالات وصلت إلى السرقة الأدبية في صفحات كبريات الصحف الأمريكية اليومية، وما أعقبها من الشكاوى المرة، بدأ العراقيون يحصلون على اعتمادات/ قروض عمل. وقد عوّضوا عما ينقصهم من التدريب بمعرفتهم للشارع ورغبتهم في المخاطرة بحياتهم.

كان أحد أفضل المترجمين الذين عملت معهم طبيباً شابًّا اسمه علي. كان نصف سني ونصف شيعي (كان يسمي نفسه سوشي)، وكان قد هرب إلى اليمن قبل الحرب بسنة حين اشتمت شرطة الأمن رائحة أنه يقوم بعمل إضافي في إعداد نسخ لمطبعة محظورة (كان صدام قد أعلن أن تجهيزات مكتب هولت باكارد Hewlett Packard «يهودية»). عاد علي بعد الغزو، وحفر ليخرج جهاز الطابعة الذي كان قد دفنه في حديقته في صندوق خشبي، وسرعان ما ترك مهنة الطب التي سئمها، ليتخذ مهنة مفكك، بالعمل مع أفضل الصحافيين

في بغداد ثم تركهم فجأة. كان شيئاً نادراً في العراق، حرّ الروح ومتهوّر، يرغب في تهريب الغربيين إلى الفلوجة في ذروة القتال فيها. كان له صلات جيدة بالمقاومين، وكان متعاطفاً مع استيائهم من الاحتلال، وكذلك مع المدنيين الذين يعانون في مناطق الحرب. مرة قضينا نصف الليل نتجادل حول: هل كان القاضي الشاب في القضية ضد صدام يجب أن يعدّ بطلاً قومياً أم لا؟. كنت أعتقد أنه يجب أن يعدّ بطلاً قومياً؛ لأنه يمثل القيمة الجديدة للقانون ضد المادة القديمة لعبادة القوة. لكن فيما يخص علياً كان الوقت لا يزال مبكراً جدًّا. فهذا الرجل كان قريباً جدًّا للتواطؤ، فخدعة الإذلال كانت لا تزال مقنعة أكثر من مبدأ الديمقراطية. لكن حياة علي فتحت في ظل الأمريكيين. كان معجباً بالجنود الأمريكيين بشكل فردي، وكان لا يكل لدرجة أنه قدّم على منح فولبرايت Fulbright الدراسية التي أصبحت متاحة حديثاً؛ لكي يستطيع دراسة الصحافة في الولايات المتحدة.

اشترى علي بذلة ولبسها للذهاب إلى المنطقة الخضراء لمقابلة الدور النهائي مع موظفي الخارجية الأمريكية. وبعد مدة اتصل بي في نيويورك من هاتفه الخليوي من نقطة تفتيش خارج مركز المؤتمر. كان يائساً. كان أحد الأسئلة: «هل تعد أمريكة محرّراً أم محتلاً هنا؟» أجاب جميع المرشحين العراقيين الآخرين الإجابة الأولى، لكن حين جاء دور علي قال: «محتل» وشعر برعشة في أثناء المقابلة. كان متأكداً من أن ثمن صدقه سيكون الحرمان من المنحة الدراسية. لكنه تأثر حين أعطته الحكومة الأمريكية منحة فولبرايت على كل حال. وصل إلى فيلادلفيا مقرراً أن يتعلم كيف يستطيع الأمريكيون القيام بما يتزايد عجز العراقيين عن القيام به: أن يكسروا هويات مجموعاتهم، وأن يكونوا أفراداً، ويعيشوا معاً. كان علي قد أصبح ناقداً حادّاً للمقاومين السنّة، والميليشيات الشيعية، واستخدامهم للإسلام.

كان أول مترجم عملت معه في العراق، وأعرفه أكثر من غيره، كرديًّا سأدعوه سرواناً. كان في الثالثة والثلاثين من عمره حين التقيته في ذلك الصيف الأول، كان كتفه الأيمن نحيلاً بشكل زاوية وكان لديه عادة معذبة بخلعه (حدث ذلك مرة حين كنا نسبح أنا وسروان وقيس في بحيرة في السليمانية)، وبه ندبة في جبهته فوق إحدى عينيه السوداوين الكئيبتين. كان يحب أن يشرب البيرة، وأن يشعر بمسدسه من عيار 9 مم في يده والصوت المعدني الجاد الذي يصدر حين يرفع مسمار الأمان (لم أكن أسمح له بحمل سلاحه في

العمل). كان شكله شديداً وملفوفاً كضابط استخبارات سابق، وقد كان كذلك بالفعل، والنساء يجدن ذلك جذاباً. كان يشعر أنه ولد في البلد الخطأ، وأن حياته القاسية بوصفه عراقياً كانت خطأ.

كان سروان أكبر أبناء زعيم عشيرة قوي في السليمانية، في تلال شمال العراق. كانت أمه تحبه جدًّا لكنه كان يهاب أباه الذي كان يرى أن المتع كالدراجات والآلات الموسيقية لا تليق بصبي بوضع سروان. كبر سروان وهو يشعر بالحزن، وفي سن الثامنة عشرة وجد هذا الشعور نقطة تركيز أكبر من أبيه. قام أحد أصدقاء سروان بضمه إلى حزب سري صغير: سأل سروان «ما الذي يريدونه؟». فقال صديقه: استقلال الأكراد. كانت مدينة السليمانية مدينة كردية تحت سلطة شرطة الأمن التابعة لحزب البعث العربي الذين كان يسمح لهم بالاعتقال والتعذيب والاختطاف والاغتصاب. وفي ثمانينيات القرن العشرين، مع زيادة شدة حرب العصابات في الجبال والحملة البعثية التي دمّرت القرى، ازداد الاضطهاد في السليمانية سوءاً. انضم سروان إلى الحزب، وفي اجتماعاته السرية جرت سياسته في عروقه بسرعة، قال سروان: «كنت مجنوناً»، بدأ يحمل قنبلة مخفية، ويحجز الآخرين في غرفته. «كنت مستعداً لفعل أي شيء، كنت مستعداً لأقتل، كان من السهل علي القيام بذلك إذا طلبوه مني، لكنهم لم يطلبوا».

وفي أحد الأيام عام 1989، حين كان سروان في التاسعة عشرة، اقترب منه موظفو أمن يلبسون ثياب رجال الشرطة في الشارع. كانوا لطفاء ومهذبين، لا حاجة أن ينادي عائلته، كانوا يريدون الحديث معه عشر دقائق فقط، فهل يأتي معهم؟ أحضروا سروان إلى مقر الأمن، وكان مبنى إسمنتياً قبيحاً بلون الدم الجاف، يدعى المبنى الأحمر. كان كل من في السليمانية يعرفه، كان الاسم وحده يرعب الناس. وكان الأكراد يختفون في المبنى الأحمر أسابيع، وإذا خرجوا منه، كانوا يخرجون مدمّرين. قال موظفو الأمن لسروان: «لدينا تقرير أنك كنت في منظمة ضد الحكومة. ربما خدعوك، أنت فتى صالح، ونحن متأكدون من أنك شخص عراقي شريف. لكن الحقيقة هي أنك تساعد بعض الأشخاص ضد العراق».

قال سروان: «أنا لا أعرف عن ماذا تتحدثون».

- «بلـى، أنت تعرف. هاك ورقـة وقلمًا، فإذا كنت تريد شـاياً أو دخاناً فأخبرنا فقط. اكتب ما تعرفه».

- «ليس لدي شيء أكتبه».

- «خذ وقتك».

كان أصـدقاء سـروان قد أخبروه بـأن أي اعتراف يدلي به يعني نهايتـه؛ لذا لم يعترف بشـيء. لم أعرف شيئاً عما حدث بعد ذلك إلا بعد مضي عام على معرفتي به؛ فقد أخبرني سـروان قصـة حياته في ليلة من الليالي الطويلة في ذلك الصـيف الأول دون أن يذكر ذلك. كانت التجربة العادية للشباب الأكراد أن ينضموا إلى الأحزاب القومية، ويعتقلوا، ويواجهوا التعذيب، وقد كان لشـخص مثل سـروان الفرصة ليسأل نفسـه كيف يمكن أن يتحمل ذلك. كان يعرف أن لا أحد يسـتطيع احتمال الألم طويلاً، لكن أحد أصـدقائه الأكبر سـناً كان قد أخبره بأن يحرص على البقاء جائعاً في السجن دائماً؛ حتى يغمى عليه بعد البدء في التعذيب بوقت قصير.

كان المبنـى الأحمر الذي حوّلته الحكومة الكردية إلى متحف عبارة عن مجموعة معقدة مـن غـرف التحقيق الكئيبـة والزنزانـات الضـيقة، وكان على الجدران رسـومات يائسـة بالطباشـير، تمتد بعيداً عن الشارع؛ حتى لا يسمع المارّة ما يحدث في الداخل. وكانت غرف التحقيق خالية إلا من مكتب معدني في الزاوية وكرسي. وكان هناك أنبوب حديدي مكشوف ممدد تحت السـقف، مع قطعة من الفولاذ ملحومة حوله بشـكل خطاف. أخذ سـروان إلى إحـدى تلك الغرف. أوقفوه على كرسـي ويداه مقيدتان خلف ظهره، ومعلّقة فوق رأسـه من الخطاف. ركل أحد المحققين الكرسـي برجله بعيداً، ثم أمسـك بخصـره وسـحبه للأسفل بقوة، فخلع ذراعه الأيمن من شدة الهزة من مفصله، وغاب عن الوعي.

استمر التعذيب سبعة أيام. كان الأشخاص الذين يقومون بالتعذيب محترفين: فبعد كل خلع، حين كان سـروان يسـقط على الأرض فاقداً الوعي، كان أحدهم يدفع ذراعه ليعيدها إلى مكانها. «كان هذا هو عملهم طوال حياتهم، هذا ما يعرفونه». حاول سـروان أن يتغلب على ذلك، كان يقول لنفسه: إن ذلك مؤقت، ستتأذى، وسيرعبونك، حاول أن تحتمل ذلك،

تحمّل الألم، فهو مؤقت، سيكون كل شيء على ما يرام، وبعد ذلك ستنسى. كما وجد أن مما ساعده في التغلب على الألم، فكرة أن هؤلاء الرجال أجانب، محتلون، في بلده، يأخذون الأراضي الكردية، ويقتلون القرويين الأكراد. «تعلم أنني كنت أكرههم، وحتى الآن أنا أكرههم، أنا أكرههم، أحياناً حين تكون أمام عدوّك، تقرّر ألا تكون ضعيفاً».

بعد أسبوعين، أُطلق سراح سروان. قال موظفو الأمن له: «حسناً، أنت شخص جيد. نحن آسِفون، لم نكن نعرف، هناك لبس مع اسم آخر».

في عام 1991، في نهاية حرب الخليج، حين ثار الأكراد والشيعة ضد النظام، كان سروان من بين المقاتلين الذين هاجموا المبنى الأحمر، وقتلوا عشرات البعثيين فيه. كان ذلك أسعد أيام حياته، حتى من السنوات المقبلة، حين ازدهرت السليمانية تحت حماية منطقة حظر الطيران، وأصبحت مدينة مزدهرة حديثة المظهر. أولاً، تزوج بالمرأة الخطأ: فتاة لطيفة جدًّا، ابنة عائلة قوية سياسياً. كان سروان لايزال مشتركاً في حزبه الصغير، يقوم بعمل استخباراتي، وحين عرض عليه أصهاره أعمالاً وتأشيرات دخول لدول أجنبية إذا انضم إلى النخبة الحاكمة، رفض. عذّبه موظفو الأمن الأكراد مرة أيضاً: وأدت ضربة فوق حاجبه إلى إخراج إحدى عينيه من محجرها، معلقة من العصب. ازداد التوتر بينه وبين زوجه، وبعد ثمانية أشهر اتفقا على الطلاق.

ثم كان هناك أبوه. فبعد طلاقه ازداد الشجار بينهما سوءاً، وأصبحت الحياة في البيت لا تطاق حين ماتت أمه التي كان يحبها أكثر من أي شخص آخر بمرض السرطان عام 1997. وذات ليلة ترك سروان بيت والده، وليس في جيبه إلا ما يعادل أربعة دولارات. قال والده: «إذا خرجت من هذا البيت فستموت من الجوع، فأنت لست معتاداً على الحياة القاسية».

- «سنرى».

ذهب سروان إلى إربل، عاصمة المنطقة الكردية الأخرى، تحت سلطة حزب آخر. كان وحيداً تماماً الآن، وصمم أن يتحدى نبوءة والده، وأن يشق طريقه، وهذا شيء غريب لرجل في نسبه، وشيء صعب جدًّا في بلد كالعراق الذي يعتمد فيه الجميع على العائلة والعشيرة والعلاقات. مرت به ليالٍ وأيام جوع، كان يعيش فيها على ثلاث قطع يومية من الخبز

والمربى. وكان يدخن سيجارة كل ساعتين. «لم أكن مستعداً أن أخسر. ولم أخسر، لكنني دفعت ثمناً كبيراً. فقد قتلت كل شيء لطيف في. لا فتيات، لا حب، لا موسيقا، لا رحلات. لا سعادة. كل لحظة في حياتي كانت تحدياً».

وبعد شهرين وجد عملاً في مركز للإنترنت، وكان يعمل فيه في شتاء 2003 حين بدأ الصحافيون الأجانب يصلون إلى كردستان قبل الغزو الأمريكي. وظّف صحافيان أستراليان سرواناً مترجماً، وبالرغم من أن لغته الإنكليزية كانت غير دقيقة؛ لأنهما شعرا أنه موضع ثقة وقوي، وأنه من النوع الذي يحب المرء أن يكون قريباً منه في أثناء الحرب.

ذهب سروان إلى بغداد لمتابعة هذا العمل الجديد. لكن العراق المحرر لا يزال العراق، مكاناً مغلقاً ضيقاً، مصاباً -كما كان يراه- بالإسلام السياسي، وفيه رجال الدين الشيعة والأحزاب الفاسدة، وعلاقات مقيّدة بين النساء والرجال. كان في العراق مئة حزب سياسي حر، لكن المشكلة كانت تكمن في عقول الناس. يمكنك أن تغير المعلمين في الصفوف، لكن إذا كان الطلاب مجانين فلن يتعلموا شيئاً على الرغم من ذلك؛ لذا فهذا سيستغرق خمسين سنة أخرى، وهو ليس مستعداً أن يخسر النصف الباقي من حياته. كان كل ما يريده أن يقع في الحب، لكنه ارتكب خطأً آخر: فقد وقع في حب مراسلة أمريكية، سرعان ما تركته وغادرت العراق. كانت أسيل التي التقاها سروان عن طريقي قريبة الروح، وكانت شخصاً نادراً آخر قوي الإرادة، لكن فيما يتعلق بسروان كانت امرأة عراقية تعيش مع والديها، مما يعني أن التفاهم الحقيقي، والحرية الحقيقية، ستكون مستحيلة بينهما.

كان لدى سروان سر خطير: أسلاف يهود. كان ذلك من طرف أمه، قبل أجيال. كانت أمه قد ذكرت ذلك حين كان شاباً، وقد اهتم بالمسألة بشدة. كان بوصفه كردياً يعيش في العالم العربي يتصل باليهود ويحترم إسرائيل التي دعمت القضية الكردية، كان يريد أن يعيش هناك، وأن يتزوج بإسرائيلية وينجب أطفالاً يهوداً. كان هذا أكثر ما يبقيه بعيداً عن العراقيين الآخرين. ومرة، زرنا خاله في السليمانية؛ لنرى إن كان لديه أي سجلات. كان خاله، وهو كاتب كان قد نجا من حكم بالإعدام حين أنقذته ثورة عام 1991، رجلاً مكتئباً يرتدي منامة، وكانت لديه أخبار سيئة: فقد كان النظام قد أحرق جميع الوثائق ذات الصلة بعد عام 1948، حين غادر اليهود العراق بشكل جماعي. معظم أصدقاء الطفولة لخاله في إسرائيل الآن. وقد تحوّل كنيس (معبد اليهود) السليمانية إلى مسجد.

عرّفت سروان إلى بعض المحافظين الجدد الأمريكيين في بغداد، لعلمي أن هذا اليهودي الكردي الذي كان يريد الذهاب إلى إسرائيل سيكون مهماً لهم. لكن القصة كانت ذاتها: فدون وثائق تثبت ذلك، سيكون هذا أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلاً. لذا استمر سروان بالحياة أجنبياً في بغداد. كان لايزال منقطعاً عن أبيه. وكان يفرغ غضبه في العمل، والذهاب إلى أخطر المدن، وقيادة السيارة في الشوارع المتوترة ليلاً. كان يترجم بهدوء حين يدّعي عربي أن الأسلحة الكيماوية لم تستخدم يوماً ضد الأكراد، وكان يلتفت إلي في طريقنا للخروج، وعيناه السوداوان كجمر متوهج: «هل سمعت ذلك النذل؟» حضرنا مرة جنازة مع الشيخ عماد الدين العوضي، صافحت فيها أنا وسروان عشرات الرجال ذوي اللحى والشوارب المختلفة. وفي نقطة ما ابتسم سروان ابتسامة شريرة وهمس لي: «هؤلاء الناس لا يعتقدون أننا رجال حقيقيون، لأننا دون شوارب. [توقف] وهم لا يستطيعون ممارسة الجنس إلا مرة في الشهر. [توقف] وماذا سيفكرون في إذا عرفوا أنني كردي يهودي؟» سألته مرة إن كانت ممارسة الجنس عن طريق الفم حراماً في العراق؟ فأجاب: «كل شيء لطيف حرام». في بعض الأوقات كان يبدو أنه في حرب ضد العالم كله، وأنا الوحيد الذي في صفه. كان يتمنى بصراحة أن يطلق مقاوم النار نحوه، كي يكون له حجة في قتاله. وحين طرحت فكرة أن بعض المقاومين قد يرون الأمريكيين بالطريقة التي كان يرى بها العرب في السليمانية -بصفتهم أجانب يحتلون بيوتهم- لم يسمع بذلك. «كانوا يرون أنفسهم أقوياء دائماً. لقد خسروا ذلك. ما الذي يجب على هؤلاء الناس أن يؤمنوا به ليحاربوا من أجله؟ صدام؟ البعث؟ الإسلام؟ لماذا لم يقاتلوا من أجل الإسلام في أيام صدام؟».

كان سروان لا يزال بشكل ما من أبناء صدام، بالرغم من أنه كان على الطرف الآخر. فقد زال النظام، ومرت حياته مع الأمريكيين بتغيير كبير. لكن الأساسيات كانت لاتزال ذاتها، قال سروان: «كانت السليمانية تشكل لي سجناً، والآن العراق كلها سجن. أستطيع أن أنتقل من مكان لآخر، وهي سجن كبير».

كانت بغداد مطاردة من قبل يهودها. فوفقاً لبعض الحسابات، حتى برامج أربعينيات القرن العشرين والنزوح الجماعي الذي أعقب إنشاء إسرائيل كان ثلث سكان العاصمة العراقية من

اليهـود. ومـع نهاية حكم البعثيـين، كان عدد اليهود في العراق، أقدم مسـتوطنة مسـتمرة في العالم، قد تضـاءل إلى نحو عشـرين. في جميع المدن الرئيسـة، كانت المناطق السابقة لليهود أحياء قديمة، ذات شـوارع ضيقة، ومحال تجارية، وشـرفات عثمانية خشبية. ويمكن أن تجد كنسـاً مجهورة، وكان رئيس بلدية مدينة صـغيرة جنوب الحلة يراقب ضـريحاً لعزقيل عمره 2500 سـنة إلى أن عاد اليهود. وكان هناك فجوة أجيال كبيرة بين العراقيين الذين تعرضـوا للهواء والنور في العراق قبل البعث، وبين أولئك العراقيين من أمثال عماد وبشير وإخوته وعلي طالب الذين لم يتعرضوا لذلك. وكان من المحتمل أكثر أن يتحدث العراقيون الأكبر سناً اللغة الإنكليزيـة، وأن يكونـوا قد سـافروا، وأن يكونوا علمانيين. وأغرب مـا في هذه الفجوة الموقف من اليهود. فمع القليل من الاسـتثناءات، يتحدّث العراقيون الأصـغر سـناً، الذين نشؤوا على الدعاية المعادية في بلد لم يعد فيه يهود، عن اليهود بوصفهم مجسمًا للشياطين. كان المقاومون يسمون الجنود الأمريكيين، والمقاولين المدنيين، وأخيراً كل من يعمل مع الاحتلال «يهوداً».

وذات مرة حين كان أحد شـيوخ العشـائر السـنة يوضـح عقليته المنفتحة بإخباري أنه لا يهتم إن كان الرئيس العراقي القادم كردياً أو حتى مسيحياً، سألته باستفزاز: «وماذا لو كان يهودياً؟» فهتف رجل من الحضـور: «قوّاد!» حتى شـخص لطيف ويهتـم بالروح كعلي طالب كان يعتقد أن اليهود يسعون للهيمنة على العالم. لكن العراقيين المتمدنين في الخمسينيات أو أكثر يحتفظون بذكريات عن أصـدقاء وجيران يهود، وتلك الذكريات مغسـولة بالمودة. يبدو أن اليهود يمثلون الزمن الذي كان العراق فيه عالمياً، ولم يكن أحد فيه يهتم بمن هو مسـلم أو مسـيحي أو يهودي، فضـلاً عن كونه سنياً أم شـيعياً. ذات ليلة، حين أقامت عائلة سائقي حفلـة عيـد ميلاد لي، جلس والـده الذي كان عقيـداً متقاعداً في سـلاح المدفعية، في غرفة الجلوس ويـده على جبهته وهو يفكر بعمق. وفجأة نظـر إلى أعلى: «دوريس داي – يهودي؟» وعـاد للتفكـير بخيبة أمل. ثم قال: «جين كيلي – يهودي؟» وأخيراً أكّدت له أن داني كاي كان يهودياً بالفعل، ورضي العقيد.

كان لآلاف العراقيين أسلاف يهود، لكن إذا عرفوا ذلك كانوا يبقونه سراً محروساً بعناية. كان موضوع السكان الذين اختفوا بشكل غامض من العراق محفوفاً بالأسرار والخوف. من بين ملايين الوثائق التي حصـل عليها كنعان مكية، كانت أكثر الوثائق حساسـية هي ملفات

المخابـرات المتعلقـة باليهود، وحـين زرت منزل والده على نهر دجلـة، أخذني مكية في جولة للأرشـيف. كانت مجلدات حزب البعث تملأ رفوفاً بثخانة أكـوام مكتبة أبحاث. وبينما كنا نمشـي في القبو، رن هاتفي المحمول: كانت أسيل. وما إن أجبت، حتى قال مكية: «من هذا؟» كان يريد مقابلتها، إذ كان بحاجة إلى توظيف المزيد من الموظفين للعمل الضخم في فحص الوثائق.

وبعد أيام، أحضـرت أسـيل إلى المنطقة الخضـراء. لم تكن قد دخلت من قبل أسوارها الحصـينة، وبينما كنا نسـير في اتجاه بيت مكية في الشوارع الهادئة المحاطة بالأشجار على الجانبين، مروراً بالجنود ذوي قصـات الشـعر القصـيرة يهرولون بسـراويلهم القصيرة، والنوافـير المفرحة للفيلات التي تقيم فيها المنظمات الأمريكية غير الحكومية، كانت أسـيل دَهِشَة، قالت أسيل: «إنها مدينة جديدة بالكامل، إنه بلد مختلف».

جرت المقابلة في قاعة اجتماعات مكية، وكانت الكتب مكدّسة على الطاولة. أخبرها مكية عن مؤسسـة الذكرى، وسـألها عن مهاراتها المكتبية (كانت معرفة أسيل ببرامج الحاسوب تعكـس حقيقة أن العـراق متخلف عن الغرب بنحو عقد من الزمن)، وأخيراً قال مكية: «إذا عملت هنا فإنك ستسمعين أشياء عني. مثلاً، ستسمعين أنني قد ذهبت مرة إلى إسرائيل».

نظرت أسـيل إلى عينيه. لم يكن هذا معتاداً للنسـاء العراقيات، على الأقل عند الحديث مع شخص مهم. لكنها لم تكن تذعن بسهولة، وقد كان لديها ما تقوله: «أريد أن أحصل على ختم على جواز سـفري يقول: إنني ذهبت إلى إسـرائيل، فقط لأظهر أن هذا مسـموح». ثم روت قصة العائلة. حين كانت في الخامسة من عمرها، أخبرها جدها لوالدتها أن العائلة قد تعرضت في عشرينيات القرن العشرين لهجوم؛ لأنهم يهود. فاختبؤوا في بيت عائلة مسلمة، وقرّروا أنه من الأسلم أن يصبحوا مسلمين بدلاً من المخاطرة والتعرض لمزيد من الهجمات. تذكرت أسـيل: «حين سـألت أبي عن ذلك، طلـب مني ألا أكرر ذلك لأي شـخص، وقد قال لي: سيكرهك القدامى وسيكرهك الجدد». كان والدها يعني اليهود والمسلمين على السواء. هذا هو السـر الذي لمّحت إليه أسـيل في اليوم الذي التقيت بها فيه. وقد أصبح الحديث عنه الاختبار الجوهري لإمكانية أن تكون أسيل حرة.

كان في الغرفة امرأة أخرى في أثناء مقابلة أسيل، وهذه المرأة هي ولّادة الصراف التي كانت في أوائل الخمسينيات من عمرها، وهي امرأة ضعيفة البنية، جذابة، شعرها مصبوغ، وكانت تدخن وترتدي سراويل جينز و«جاكيتاً» جلدياً. كانت هناك مواجهة سوداوية بشأن ولادة. فهي من عائلة صرافة شيعية ثرية في النجف، وكانت في سن المراهقة في بغداد تجمع سجلاً لل... والأحجار وتدور في الدائرة نفسها التي يدور فيها أصدقاء المدرسة الثانوية اليسوعية مثل مكية والفتاة الثرية النشيطة والفتى المثقف من رصيد متواضع. صمم والد مكية الذي كان مهندساً معمارياً بيت الصراف. لحسن الحظ غادر مكية العراق عام 1968، في السنة التي أصبح فيها في سن التاسعة عشرة، وكانت في السابعة عشرة، وفي السنة التي تسلَّم حزب البعث السلطة فيها. وبعد ذلك، هاجرت عائلتها، اثنا عشر من الإخوة والأخوات، واحداً تلو الآخر. تزوجت ولادة رجل أعمال وبقيت في العراق. كان لديها ثلاثة أبناء، ونجت من الاضطهاد المتزايد، ومن الحروب، ومن عقد من الحصار الذي دمّر ثروة العائلة. أنشأت عالمها المحمي الخاص بها، مهجر داخلي من ألعاب البوكر والصالونات الفنية، حيث يثق الأصدقاء ببعضهم بما فيه الكفاية ليقولوا ما يفكرون فيه. كانت تأخذ أبناءها إلى دروس السباحة وألعاب السكواتش في حر الصيف؛ كي يصرفوا طاقتهم ويكونوا متعبين في الليل فلا يفكرون، ويكونوا متعبين فلا يستطيعون أن يكرهوا النظام، أو أن يغريهم، أو أن يلجؤوا إلى التعصب الديني مثل كثير من الشيعة في سنّهم. قالت لي ولادة مرة: «تخيل الحياة في بلد لا يسمح فيه لأحد أن يتحدث في الدين أو الجنس». عاشت هناك طوال حياتها، تعمل ما باستطاعتها؛ لتحافظ على جو شبابها، بينما كان العراق يتراجع. ثم أتى الأمريكيون وكنعان مكية. وهي الآن تعمل معه في مؤسسة ذكرى العراق.

في أواخر شهر آذار، ذهبت في رحلة مع مكية وولادة إلى كردستان. كان يريد أن يلقي نظرة على قطعة أرض كان والده يملكها في الجبال قرب دهوك، وأن يتحدث إلى موظفي حقوق الإنسان الأكراد حول وثائق من الأنفال، قبل أن يتابع مسيره نحو الشمال؛ ليلقي خطاباً في أنقرة. أردت أن أخرج من بغداد التي كان التوتر يزداد فيها نهاراً.

سافرنا مع صديق كردي قديم لمكية اسمه شيركو عابد وحارسه الشخصي من البشمرغة.

كان شـيركو، اسمه يعني «أسد الجبال»، رجلاً مهيباً، ذا شعر أبيض قصير وأنف قوي تحت حاجبين أسـودين كثيفين، كان محارباً سابقاً في النضال الكردي، وكان قد عاش في إنكلترة سنوات، وهو يدير الآن شركة للإنترنت في بغداد. وما إن عبرنا الخط الأخضر إلى المرتفعات فوق كركوك، حتى بدأنا جميعاً نسـترخي وندردش بأصـوات مرتفعة. كنت أشـعر بالضغط يغـادر رئتيّ. وكانت التلال مكسـوّة بالزهـور البرية الربيعية، وكانـت هناك حفلات زفاف في الحقول، وكانت النسـاء الكرديّات يرقصـن بفساتين حمراء وخضـراء زاهية وشعرهن مغطى، وكانت العائلات تتنزه احتفالاً بعيد نيروز، السنة الزرادشتية الجديدة. (...).

قال مكية: «أشعر بالأمان هنا».

قال شـيركوه: «انتظرنا هذا اليوم العظيم طويلاً. أنا لا أشـعر بالأسـف إلا على الرفاق الذين لم يعيشـوا ليروه. الإنجازات رائعة، إنها نهاية التخلف. ليسـت نهاية صدام فقط، بل نهاية التخلف. وعلينا ألا نتوقف، علينا أن نتابع النضـال ضـد التخلف، في المساجد، وفي كل مكان. علينا أن نبدأ بحرب تحرير العراق الحقيقية».

في صباح اليوم اللاحق صحونا في فندق في دهوك، وقمنا بشيء يستحيل فعله في الجنوب: لقد ذهبنا في جولة طويلة سيراً على الأقدام. كان هواء الجبال منعشاً، وكانت البحيرة ذات لون أزرق رائع، وعلى مسافة نحو الشمال كانت هناك قمة جبلية يعلوها الثلج تحدد الحدود مع تركية. كان من الصـعب أن يصـدّق المـرء أنه على بعد أربعين ميلاً، في الموصـل، هناك حرب دائرة. لم يكن هناك شـيء نخشـاه طالما تبعنا الأثر لتجنب الألغام الأرضية القديمة. مشـى شـيركوه وولادة أمامنـا، وبينما كنا أنـا ومكية نتبعهما، أخبرني عمـا حدث معه منذ عودته إلى العراق.

حـين كان مكية وولادة مراهقـين، كان كل منهما يحب الآخر، لكن مكية كان خجولاً جدًّا فلـم يصـارحها بحبه. وأجبرتها غريزة خاطئـة على مغازلة فتى آخـر في آخر مرة اجتمعا فيهـا. فقرر مكية أن ينسـاها، وأن يـترك العراق ليذهب إلى الكليـة في أمريكة. حين زارته شـقيقة ولادة في كامبريدج بعد سـنتين، وجدته مع امـرأة إيرانية وكتبت لـولادة أنه تزوّج.

لم يكن ذلك صحيحاً، لكن حان دور ولادة لتقع في اليأس وتحاول النسيان. فقبلت عرضاً بالزواج. سألها زوجها المستقبلي: «هل هناك شخص آخر؟» فأجابت ولادة: إنها كانت تحب مكية، لكنها لا تستطيع الوصول إليه الآن. ظنت أنها ستتعلم أن تحب زوجها، لكن هذا لم يحدث، ولم تتجاوز حبها لمكية. مرّت خمسة وعشرون عاماً، رأى فيها أحدهما الآخر مرتين قصيرتين خارج العراق. ثم عاد مكية إلى بغداد عام 2003 بعد غياب خمسة وثلاثين عاماً، والتقيا في حفل عشاء وأدركا أن شيئاً لم يتغير. كان مكية يسير في إجراءات طلاق زوجه الثانية، لكن ولادة كانت لا تزال متزوجة وغير سعيدة. وهما يعملان معاً الآن، ويسافران معاً، وتربطهما علاقة سرية لا ترضي أياً منهما. وحين لحقنا بولادة وشيركوه، قال مكية: إنه قد رأى الشيء ذاته يحدث في أماكن كلبنان: ففي أثناء الثورات التاريخية، مرت الحياة الشخصية للناس بثورات خاصة بهم.

تابعنا التقدم نحو الشمال، إلى العمادية، وهي مدينة عثمانية مسوّرة في أعلى تلة عند سفح سلسلة جبلية على طول الحدود. جلسنا في مطعم مفتوح يطل على وادي العمادية، وخلفه القمم البيضاء الرائعة. كانت عائلات عربية من الجنوب تقضي عطلتها هنا: كنت قد سمعت أن الأطباء وغيرهم من أصحاب المهن من بغداد كانوا يقبلون برواتب أقل ومناصب أقل ليأتوا ويعملوا بأمان في كردستان. وبينما كنا نأكل، شاهدت مكية وولادة، وأدركت عندها أن لهجتها المنطوية الملتوية ورفضها أن تمنحها أفكاره العالية -«لا يعرف كنعان هذا البلد، إنه يظن أنهم يريدون ما يريده»- تعبّر عن نقيض الاستهانة. كانت تريده، لم تكن تريد العراق، لكنها حصلت عليهما معاً، وكان ذلك رهيباً.

أشار شيركوه بيده إلى المنظر بمسحة من يده وشتم: «تباً للبريطانيين! ألا يستطيعون أن يروا أن هذا ليس العراق؟».

كانت وجهتنا مدينة زاخو الحدودية القديمة التي سيقضي فيها مكية وولادة الليلة قبل أن يعبروا الحدود إلى تركية. وبينما كنا نكمل الجزء الأخير من الطريق في الظلام، أخبرنا شيركوه عن سنواته الدراسية في بغداد، حين كان شيوعياً وقومياً تركياً. كان ذلك عام 1963، وكان حزب البعث يحاول القضاء على أعدائه، بعد أن استولى على السلطة بانقلاب. تم اعتقال شيركوه وزجّه في السجن، فقد كان للبعثيين كثير من الأعداء، وكانوا

يجمعون الناصريين في زنزانة، والشيوعيين والأكراد في زنزانة أخرى مقابلة لها في الممر. احتمل شيركوه سبعة أيام من الضرب والتعليق في الهواء من خصره، ويداه خلف ظهره. كان يتوقع الاعتقال والتعذيب منذ أن ضمّه إلى الحركة الكردية شخص أكبر سناً اسمه محمد صادق، ووجد أنه قادر على احتمال ذلك. صادق نفسه كان قد اختفى. وفي أحد الأيام، رمى السجّانون جسدًا في الزنزانة: هيكل عظمي تقريباً، جلد على عظم، تغطي الدماء وجهه وقد فُقِئت عيناه. قال شيركوه: «كنت خائفاً أن أنظر»، كان شكل الرأس الصغيرة مألوفاً. «كان لدي شعور أنه يمكن أن يكون هو». اقترب شيركوه من الجسد وهمس في أذنه، «سيد صادق، هذا أنت وهذا أنا. أنا شيركوه هنا».

أعطاه شيركوه ماء. كان صادق لا يكاد يستطيع الكلام، لكنه قال بصوت متشائم: «أنا سأموت. وأنا أقول لك: إنني لم أعترف، لم أقل شيئاً عنك أو عن الرفاق الآخرين. لكن ذلك يعني أن حياتك ملك لي. حياتي في يدك الآن. عليك أن تعمل طوال حياتك لما متّ من أجله».

جعل صادق شيركوه يكرر القسم الذي كرّره لنا شيركوه بعد واحد وثلاثين عاماً في السيارة: «أقسم بشرفي وشرف كردستان وشعبي أن أبقى صادقاً ومخلصاً فيما أعتقد به، وما أفعله، وأن أبتعد عن أي شيء يجعلني ضعيفاً، وأن أناضل لأنجح في كفاحي، وألا أفصل حياتي وقدري عن فقراء العالم. لن أخاف أحداً على وجه الأرض، ولن أحني رأسي لأحد، سأنذر حياتي وقدري ومصيري لوحدة كردستان وتحريرها».

في اليوم اللاحق أخذ صادق ليموت، وأُطلق سراح شيركوه في النهاية، لكنه غادر السجن ولديه رغبة لا تروى بالانتقام. هذه الرغبة لن تتركه، ولم يكن يستطيع أن يحيا بها. بعد أن طرد البعثيون من السلطة في أواخر عام 1963، سمع أن أحد الذين قاموا بالتعذيب قد اعتُقل. دخل شيركوه إلى السجن ووجد الرجل في زنزانته، فركله بشدة في معدته إلى أن تدخّل السجّانون. لم يرضِ هذا شيركوه تماماً، لكنه وجد أنه يستطيع أن يعيش من جديد.

قال مكية، الذي كان ينصت باهتمام: «هذا ممتع، شيركوه. أنت لا تحب الضعف في الناس، أليس كذلك، لكننا نحن البشر ضعفاء».

قال شيركوه: «هذا صحيح، أنا لا أحب ذلك».

سألت مكية عن القسم الذي يمكن أن يقسمه إذا كانت حياته **على المحك**.

قال مكية: «سيكون قسَمي أقرب ما يمكن لفكرة»، تحررية بدأت في العراق وامتدت إلى بقية أرجاء العالم العربي الإسلامي». كان مكية قد دعا إلى هذه الفكرة في جميع كتبه، قال مكية، لكنه الآن متعب من مجرد الكتابة: كان يريد أن يعيشها، هنا في العراق. «الآن لدي مشكلة هنا، كما ترى. فقد أصبحت، بخلاف شيركوه، مدركاً لضعفي بعمق. من الصعب في ظروف كهذه، حين تستقر فكرتك على تصوّرك لضعفك بوصفك نوعاً من الكائنات، أن تقسم على المثاليات؛ لأن المسلّم به هو ضعفنا وعدم قدرتنا على التمسك بالمثاليات المستحيلة».

لم ترضِ إجابة مكية شيركوه تماماً. «جورج، طوال أربعين عاماً، أردت أن أستولي على الآلة التي عذبتني، وأعكس آلية عملها، وأسحقها، ثم أجعلها تعمل لأجلي».

سألته: ماذا يقصد؟

قال شيركوه: «عليك أن تحمي القيم التحررية بهذه القسوة»، وفي ظلمة السيارة كنت أستطيع أن أشعر بقبضته تطبق بإحكام. «نحن نتكلم على الدفاع عن أجيال المستقبل، وهذا لا يمكن أن يتحقق فقط ببعض الشعارات. عليك أن تحميه. لا يمكنك الهرب من ذلك، خاصة في مجتمع كالعراق. من المستحيل أن تهرب. إن لم تحمِ أفكارك التحررية فهذا يعني أنك غير جاد فيها». هذه القسوة تتضمن فرض أفكارك التحررية بقوة، لكنها تعني أيضاً -حسب تعبيره- أن توقف بعض الأشخاص المجرمين عن التنفس (من أمثال مقتدى الصدر)، «وعندها ستجذب كثيراً من الميليشيات، والناس في الأحزاب، والمثقفين، ستجذبهم إلى هذا الزخم ثم توجههم. وإذا عرفوا أن خلف الاتجاه قوة أيضاً، فهناك أمل بعكس هندسة عملية الجنون هذه، التخلف والخروج من هذا التخلف. ليس هناك طريق آخر للقيام بذلك. لكن الآن، في غياب ذلك، يزيد هذا التخلف هنا، وهذه بالفعل خيبة أمل للآلاف، عشرات الآلاف، مئات الآلاف من الناس التحرريين وذوي الأفكار التقدمية في العراق».

بعد أسبوع، عدت إلى بغداد. وقبل مغادرتي العراق بيوم، أغلقت **سلطة الائتلاف المؤقتة** صحيفة مقتدى الصدر الحوزة ستين يوماً؛ لأنها تحرّض على الهجمات ضد قوات التحالف. لكنه كان استعراضاً للقوة لم يظهر إلا الضعف؛ لأن الأمريكيين لم يكونوا قد استعدوا لما سيأتي. ففي تلك الليلة، خرج الآلاف من رجال ميلشيا مقتدى إلى الشوارع. كان من الممكن سماع أناشيدهم في جميع أنحاء المدينة. كانت ولادة التي عادت إلى بغداد، في طريقها إلى البيت حين مرّت بحشد من الشباب الذين يلوّحون بأسلحة الكلاشينكوف. كان الجنود الأمريكيون يحاولون أن يعوقوا رجال الميليشيات، وبدا أنهم خائفون جدًّا، كما شعرت. وضعت ولادة غطاء على شعرها بسرعة، وتدبّرت أمر الوصول إلى البيت، حيث تم الإمساك بها. وكانت تلك هي الليلة الأولى لتمرّد استمر نحو شهرين. وفي النهاية تحوّل الكثير مما كان الاحتلال يحاول تحقيقه في العراق إلى أنقاض.





9

أعمال التمرّد

كان من المخطط أن تنتهي خدمة القائد بريور في العراق في منتصف شهر آذار، بعد سنة بالضبط من دخوله إلى البلاد مع قوات الغزو. قام بريور بالجولات الأخيرة على المكاتب المتواضعة التي أمضى فيها كثيراً من وقته: محطات الوقود، ومحطة البروبان، ودائرة الصرف الصحي. لم تخفَ مشاعره على شركائه العراقيين: كانوا فزعين لرؤيته يغادر. قال المدير العام لدائرة الصرف الصحي لبريور: «كنا كالجرحى المرميين على الطريق، ولا يتوقف أحد لمساعدتهم، فجئت وأخذتنا وأنقذتنا. هكذا ننظر للأمر: الدين، والقومية كل هذا لا يهم».

رافقت بريور في اجتماعه الأخير مع المجلس الاستشاري لحي الزعفرانية الذي كان قد ساعد في إنشائه. اجتمع المجلس الاستشاري للحي في مشروع المساكن الإسمنتية غير الجميلة لموظفي هيئة الطاقة الذرية. كانت مستنقعات المجاري التي كانت موجودة في شهر آب الماضي قد ذهبت. جلس بريور في أحد المكاتب مع تسعة أو عشرة من أعضاء المجلس. كانوا حزينين؛ لأنهم سيخسرونه، لكن أعضاء المجلس أمضوا الساعتين الأخيرتين مع بريور وهم يتذمرون بمرارة، قال أحمد أوغلي، رئيس المجلس الذي كان قد دعاني لتناول الغداء في شهر آب، «لا تزال سلطتنا بصفة مجلس استشاري للحي مهزوزة، ولا أريد مديحاً وعبارات لطيفة. لكن الناس لا يثقون بنا، فهم يأتون إلينا ويطلبون شيئاً، فلا نستطيع أن نفعل شيئاً. وهذا يجعلنا نبدو بصورة سيئة».

في الواقع، بسبب خلاف مع المجلس الحاكم، ترك بريمر الشهور تمرّ دون توقيع أمر قانوني أعدّته سلطة الائتلاف المؤقتة في أواخر عام 2003 يوضّح سلطة المجالس المحلية. هذا التأخير، مع توقف أموال الطوارئ العسكرية شهرين ونصف الشهر، ترك المجالس والجنود الذين يعملون معها في حالة من الإهمال، مما جعل إعادة الإعمار تقف تقريباً،

ومنع الحكومة المحلية من التطور إلى مركز قوة يمكنها منافسة الميليشيات والمقاومين على الدعم الشعبي. كان هذا كله فوق مستوى بريور، لكن لأنه الأمريكي الذي في الغرفة فقد كان هو الشخص الذي سيسمع بذلك.

وحين انتهى الاجتماع، وقف بريور وقال بشكل رسمي: «أغادر هذا المكان، وأنا أعلم أن العمل لم ينتهِ. سيبقى في قلبي غصّة؛ لأنني لم أستطع أن أراه حتى النهاية. لكنني أغادر وأنا أعلم أن بغداد والزعفرانية في أيدٍ أمينة؛ لأنها في أيديكم». وقدّم لأعضاء المجلس شهادة تقدير. قال بريور: «آمل أن آتي يوماً ما مع عائلتي لأرى أصدقائي هنا، وأعدكم ألا أرتدي اللون البني أو الأخضر».

قال أحد أعضاء المجلس: «نحن نشكرك، ونعتذر عن أي أخطاء قد نكون ارتكبناها».

«لا داعي للاعتذارات. إن كان هناك شيء، فنحن ضيوف في وطنكم، وعلينا أن نعتذر عن عيوبنا».

غادر بريور العراق إلى ألمانية، ثم ذهب إلى بلده في إجازة؛ ليرى خطيبته. في أوائل شهر نيسان، تفجّر العنف في جميع أنحاء العراق. لكن الحادثتين الكامنتين وراء الثورات حدثتا في آخر أيام شهر آذار: إغلاق سلطة الائتلاف المؤقتة لصحيفة الحوزة في 28 آذار، وقتل أربعة من المقاولين الأمريكيين على يد المقاومين في الفلوجة في 31 آذار، وإحراق جثثهم وتقطيعها إلى قطع وتعليقها على جسر فوق نهر الفرات على يد جموع مهتاجة. كانت حادثة الفلوجة مرعبة، لكنها تنبئ بإسقاط الحرب في الغرب. كان إغلاق الصحيفة جرحاً أمريكياً ذاتياً. لكن أصول الأزمة المقبلة تعتمد بشكل أكثر وأعمق حادثتي أواخر آذار. كما أن القرارات المحيطة بهما أظهرت كم أصبحت السيطرة الأمريكية في العراق مزعزعة في أثناء سنة الاحتلال، وكيف كانت التروس تتشابك بشكل سيئ بين الأمريكيين والعراقيين، وبين الجيش والمدنيين، وبين بغداد وواشنطن.

فاجأت حرب العصابات التي أعقبت غزو العراق الجيش الأمريكي. لكن لم يكن عليهم أن يتفاجؤوا: فقد أصدرت وكالة الاستخبارات المركزية عدة تقارير استخباراتية سرية قبل

الحـرب تحذر مـن إمكانية حدوث أعمال تمرّد. وفي أثناء الانطـلاق من الكويت إلى بغداد، كان فدائيو صـدام، وهم قوات شـبه عسكرية بقيادة قصـي الابن الأصغر لصدام، ينهكون خطوط إمدادات الغزاة بهجمات يضـربون فيها، ويهربون ويهدّدون المدنيين العراقيين بقتل أولئـك الذين يرحّبون بالأمريكيين بوحشـية وعلى الملأ. وقد لاحـظ الجنرال ويليام والاس، قائد الفرقة الخامسـة: «أن العدو الذي نحاربه مختلف بعض الشيء عن العدو الذي خضنا الحرب ضده». ضربت أول عمليات التفجيرات الانتحارية نقاط التفتيش الأمريكية في الوقت الـذي سـقطت فيه بغداد؛ وبعد ذلك بأسـابيع قليلـة، بدأت ما سـماها الجيش بالمتفجرات محلية الصـنع بنسـف القوافل في العاصمة. وقد سـمح إنجاز الجنرال فرانكس في إسقاط النظام في ثلاثة أسابيع فقط، وقد تم الترحيب به بوصفه شكلاً جديداً متميزاً من الحرب، لآلاف العراقيين بالذوبان في صـفوف الشـعب أو الاختباء للقتال في اليوم الآتي. وقد وصـف فرانكس وكبار الموظفين المدنيين في الإدارة الأمريكية لاحقاً الفوضـى والمقاومة التي أعقبت سـقوط النظام بأنها عواقب «النجاح الكارثي» لخطتهم الحربية بسـبب الإهمال. لكن تبين أنه لم يكن هناك شيء سببه الإهمال.

عندما أصدر رئيس فريق التفتيش عن الأسلحة شارلز دولفر، التقرير النهائي لمجموعة مسح العراق في أواخر عام 2004، لم تكن هناك أسلحة دمار شامل توصف؛ فصدام لم يقم بإعـادة بناء برامجه بعد أن دمّرها التفتيش، والعقوبات، والتفجيرات في تسـعينيات القرن العشرين؛ وبالمنطق المجنون في أواخر أيام حكمه، كان قد ادّعى أنه يملك أسلحة لردع إيران عن الهجوم، وفي بعض الأحيان كان يخدع، حتى كبار الضـباط العراقيين، وفي أحيان أخرى كان كبار العلماء العراقيين يخدعونه. كانت أكبر مخاوف الجيش الأمريكي في العراق خيالاً. لكـن التقرير وجد أيضـاً أن حرب العصـابات كانت خطة العدو طـوال الوقت: كتب دوفلر، وقد بنى استنتاجاته على استجواب وكالة الاستخبارات المركزية لأعضاء رفيعي المستوى في النظام، بمن فيهم رقم واحد بنفسـه: «كان صـدام يعتقد أن الشـعب العراقي لن يحتمل أن يكون تحت الاحتلال أو الغزو الأمريكي وأنه سيقاوم، مما يؤدي إلى التمرد، فقد قال صدام: إنه يتوقع أن تتطور الحرب من حرب تقليدية إلى تمرد».

قبل الحرب قامت الاستخبارات العراقية بتدريب مقاتلين أجانب على استخدام المتفجرات والرمي في معسكر جنوبي بغداد، في سلمان بك. (وصف مكتب استخبارات دوغلاس فيث، وأصدقاؤه في المؤتمر الوطني العراقي هذه العملية بأنها مركز تدريب للإرهابيين، وأنها دليل على ارتباط صدام بالقاعدة، لكنها كانت معسكراً تدريبياً لحرب العصابات التي لم يكن البنتاغون قادراً على تخيّلها). بين شهر آب 2002 وكانون الثاني 2003، قام القادة العراقيون بنقل الأسلحة والمعدات من القواعد وإخفائها في المزارع والبيوت في جميع أنحاء الريف. وفي ليلة الغزو أخبر صدام كبار الوزراء والقادة أن يصمدوا ثمانية أيام «وبعد ذلك سأسيطر». وصل موظفو الاستخبارات الأمريكية فيما بعد إلى الاعتقاد بأن صداماً وكبار ضباطه كانوا يدرسون كتيبات فييتنامية عن تكتيكات حرب العصابات. ولعلمه أنه لا يملك أسلحة غير تقليدية، فقد كان الديكتاتور العراقي يستعد لنوع مختلف من الحرب، حرب قديمة قدم الرومان على الأقل. افترض مخططو الحرب الأمريكيون أنهم سيواجهون نوع المقاومة التي يستطيعون أن يهزموها بكل سهولة. لم يكونوا يريدون أن يخوضوا حرب عصابات، فهي لم تعد خياراً بعد فييتنام. وبالتخطيط للعدو الخطأ، لم ينجحوا في تطبيق المقولة القديمة: «اعرف عدوّك». وكان ذلك خطأً آخر في التصور.

وهكذا أتيح للمقاومين العراقيين وقت للاستعداد، وكانت لديهم ميزة المفاجأة، وتكيفوا بسرعة مع تغير ساحة المعركة. في الأسابيع الأولى للمقاومة، كانت الهجمات ضد قوات التحالف عبارة عن اعتداءات مباشرة بالأسلحة الخفيفة والقنابل التي تعمل بالدفع الصاروخي. وهذه التكتيكات أدت إلى مقتل كثير من المقاومين منذ البداية. وحسب الطبيعة الداروينية لمثل هذه الحروب، ينجو المقاتلون الأذكى ويقومون بالتكيّف. كانت أكثر الوسائل فتكاً هي المتفجرات محلية الصنع، وهي قنابل مصنوعة محلياً من القذائف المدفعية وغيرها من الذخيرة العسكرية (الموجودة في المصانع غير المحروسة وأماكن التخلص من الذخيرة في أنحاء العراق)، تدفن في حفرة على جانب الطريق، أو تخبأ بين النفايات أو الأنقاض، ويتم تفجيرها بوساطة سلك أو عن بعد بوساطة جهاز كالهاتف المحمول، أو جهاز فتح باب الكراج. وبحلول منتصف الصيف، كانت المتفجرات محلية الصنع والكمائن الأخرى تقتل عدداً من الجنود كل أسبوع، خاصة فيما بات يعرف بالمثلث السني، منطقة وسط العراق، والغرب، والشمال بين بغداد والرمادي والموصل.

أمـا في واشـنطن، فقد وصـف دونالـد رامسـفيلد هذه الهجمـات بأنها عمـل عدد من «اليائسـين». وهذه العبارة تشـير إلى عـدد من البعثيـين ذوي البطون المنتفخة والشـوارب المصبوغة الذين يقفون الموقف الأخير المثير للشفقة؛ دفاعاً عن الفكرة التي لم يعد يذكرها أحد لمجد الاشـتراكي العربي. وبعد ذلك أصـبحوا موالين للنظام السـابق، وبعدها عناصر من النظام السـابق، وأخيراً قوات معادية للعراقيين، قال مسـؤول رفيع المسـتوى في سـلطة الائتلاف المؤقتة: «إنهم الآن مجرّد عراقيين غاضـبين. لكن لطالما كانت هناك هذه الرغبة في القـول: إنهم أشـخاص سـيئون، إمـا من فدائيي صـدام أو من الأجانب، وليسـوا مجرد عراقيـين عاديـين. ليس خطأنا أنهم يكرهوننا، فهم سـيكرهوننا مهما فعلنا. لم يكن هناك إدراك بأن تكتيكاتنا ربما تزيد المقاومة شدة».

كانـت مواجهة الدور الأمريكي في تزايد التمرّد خارج نطاق المجموعة الأولية تتطلب أولاً مواجهة التمرّد ذاته. لكن لم تكن في واشـنطن خطة لحرب عصـابات، فحرب العصـابات كانت سـتغير جميع الحسابات حول الوجود الأمريكي في العراق، وهكذا لم تكن هناك حرب عصـابات. علـى أرض العراق، كانت عواقـب هذا التعامي حقيقية ومروّعة، شـأنها شـأن التأخير شـهوراً أو سنوات في وصـول الإمدادات من الآليات المصـفحة والدروع إلى القوات الأمريكية التي كانت «سرعة إيقاع عملياتها» تتزايد كل أسبوع. فحين طلب الجيش مزيداً من السـترات الواقية من الرصاص، استغرقت الشحنة الأولى ما يقارب ستة شهور حتى وصلت إلى العـراق. وفي كانـون الأول 2003، كان الجنرال ريكاردو سانشـيز القائد الأعلى للقوات الأمريكيـة في العـراق، يكتب للبنتاغـون أن النقص في قطع الغيار وغيرهـا من التجهيزات كان حادّاً لدرجة «أنني لا أستطيع دعم عمليات القتال المستمرة بهذه المعدّلات المنخفضة».

قال لي ت. إكس. هامس، وهو كولونيل في البحرية كرّس مهنته لدراسة حرب العصابات: «أراهن أن القائد الذي كنت معه فهم منذ البداية أنه يواجه تمرّداً. كانت قيادتنا غير قادرة أبداً على القيام بهذه القفزة. كانت الأخبار السـيئة تصـل ببطء شـديد جدًّا». وحين وقف الرئيـس بوشـ على ظهر الناقلـة Abraham Lincoln في أول أيار أمام لافتة ضـخمة تعلن: «المهمـة قـد تم إنجازها» وتعلن عن نهاية المعارك الرئيسـة في العراق. قال هامس لنفسـه: «تباً، لقد لفت نظري أننا، يا إلهي، لا نفهم كم يمكن أن يكون هذا سيئاً».

كان هامس، وهو رجل ممتلئ الجسم، مربع الرأس، حاد الكلام، قد التحق بالقوات البحرية بعد سقوط سايجون بشهر، وأمضى العقود الثلاثة اللاحقة محاولاً أن يكتشف كيف استطاع مجتمع زراعي مكوّن من عشرين مليون شخص أن يهزم الولايات المتحدة. لم تكن القيادة العسكرية العليا مهتمة بمعرفة الإجابة عن هذا السؤال. بعد فيتنام «كان هناك رد فعل عميق بأننا لن نقوم بهذا ثانية. لقد توقفنا عن التفكير في التمرّد منذ سنوات. ولذلك حتى عندما اكتشفنا وجود تمرّد في العراق، لم نكن نعرف ما نفعل حيال ذلك». وعلى الرغم من أن القوات البحرية، كما ذكّرني هامس، كانت دوماً «مجهّزة للحروب الصغيرة» ومستقلة فكرياً، فقد أمضى سنوات مهنته وكأنه بعيد عنها. وقد درس في أثناء السنة التي حصل عليها بوصفها منحة النصوص التقليدية وحالات التمرّد على الرغم من اعتراض معلّميه الذين قالوا له: «أنت مجنون، نحن لا نتعامل مع التمرّد»، وحثوه على دراسة شيء يتعلق بمجاله، كالحرب التقليدية في أوروبة. ثم تابع الخبرة العملية في الصراعات القذرة الصغيرة أواخر الحرب الباردة في هندوراس وأنغولا والصومال وأفغانستان. وقد اختار دراسة عقول الفدائيين المدعومين من قبل الولايات المتحدة، مفترضاً أن أشخاصاً مثلهم سيصبحون عاجلاً أم آجلاً الأعداء الرئيسين لأمريكة: «كنت أجلس هناك وأفكر: إذا كنت شخصاً سيئاً وعلي أن أحارب الولايات المتحدة، فإن كل الأمور التقليدية لا تبدو مفيدة لي. إذا كنت تريد أن تدرس مهنتك، فاذهب إلى جهة الطرف الثاني وانظر من هناك». وبعد أن وضع هامس خلاصة سنوات تفكيره حول التمرّد في كتاب، قال الناشرون لوكيله: «كتاب ممتع، مكتوب بشكل جيد، لكن هذا الموضوع لن يهتم به أحد؛ لأنه لن يحدث». وأخيراً تم قبول كتاب «The Sling of Stone» «قاذف الحجارة» في ربيع عام 2003، حين بدأ «ذلك» يحدث.

سرعان ما أخذ التمرّد العراقي الصفات التي كان هامس قد كتب عنها. فقد كان بشكل شبكة مجزأة، مما جعله غير فاعل من بعض النواحي، لكن في الوقت نفسه جعل هزيمته أمراً صعباً لعدم وجود عقدة قيادة مركزية، فكان من السهل أن ينجو من الخطر الكبير. تعلّم أفراده من تجاربهم، وهم يتابعون تغطيتهم على قناة الجزيرة؛ كما أنهم كانوا ينسّقون جهودهم عبر وسائل الإعلام، واستخدموا الشعب، عن طريق تخويفهم بشكل رئيس، وكذلك

بإغواء الأمريكيين ليقوموا بردود أفعال عنيفة تحرمهم من الدعم، واختاروا أهدافاً خفيفة. وكانوا يفتقرون إلى رؤية موحدة -فقد حدّد هامس ما لا يقل عن خمس مجموعات في العراق لها أهداف مختلفة- ومع ذلك يجب أن يكون الحل لهذا النوع من الحرب سياسياً. فيجب أن تصبح المؤسسات الحكومية والأمنية العراقية قادرة على كسب ولاء الشعب. في هذه الأثناء، كان على الولايات المتحدة أن تقطع التزامات بعيدة المدى للصراع المديد. وكان الحكم النهائي هو الشعبين العراقي والأمريكي.

لم يكن أي من هذا أخباراً جيدة في البنتاغون ذي التفكير المعتمد على التقنية. كان الجنرال جون أبي زيد الذي خلف فرانكس قائداً للقيادة المركزية، وهو أمريكي من أصل عربي، أدرى بالمخاطر الإستراتيجية في العراق من سابقه، وقد اعترف في 16 تموز 2003 أن القوات الأمريكية كانت تواجه «حملة من حرب العصابات التقليدية». وكان يناقض رئيسه دونالد رامسفيلد بشكل مباشر، الذي قال قبل ذلك بأسابيع قليلة: «أعتقد أن سبب عدم استخدامي لعبارة (حرب عصابات) هو أنها غير موجودة». لكن الجنود في العراق سبقوا القيادة العليا في واشنطن كثيراً في إدراك خطورة العدو الذي باتوا يواجهونه. لكن حتى أفضلهم لم يكن لديه أنموذج جاهز لفهم التمرّد العراقي. قال قائد الكتيبة الذي التقيته في كركوك، الكولونيل دوم كاراسيلو: إن دور الأمريكيين محرّرين، ومحتلين، ومواجهين للمتمردين في العراق ليس له ما يوازيه في تاريخنا العسكري. و«من الصعب المقارنة مع أي مكان آخر. إنه فريد جدًّا». فألمانية واليابان وفييتنام والجزائر الفرنسية بعد الحرب، كلها نماذج مختلفة. «نحن نرى هنا وجهاً مختلفاً. إنها ليست حرب عصابات. وليست أمراً ماوياً. أنا شخصياً لا أعتقد أن هناك هيكلاً تنظيمياً كما في حركة التحرير الوطنية الجزائرية. إنها فوضى. لم يكن لديهم خطة، وليس لديهم خطة الآن».

ليس لدى التمرد العراقي قادة مثل ماو أو هو، وليس لديهم برنامج عملي سياسي شعبي وواضح. كما أن قتل عدي وقصي والقبض على صدام ليس له تأثير إستراتيجي فيهم. وهم لا يحاولون التقرب من الصحافة كثيراً (لا يقترب الكثير من الصحافيين من أي مكان فيه متمردون إلا بالمصادفة غير السارة أو الاختطاف، وحتى مع الاتصالات المرتب لها كان الصحافيون يعدّون محظوظين إذا عادوا إلى أجهزة الحاسوب المحمولة الخاصة بهم). في

تجربة هامس للحروب الصغيرة في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين كانت أنواع التمرد الحديثة يمكن أن تتألف من خلايا متفرقة، أو عصابات إجرامية، أو ميليشيات عرقية، أو أسياد حروب إقليميين، متعاونين وأحياناً لا، لكنهم جميعاً فاسدون في دولة ضعيفة ذات مسؤولين محليين فاسدين. وعدم وجود بيان رسمي وقائد مؤثر يجعلها أقل متانة. لكن ما يفتقد إليه التمرد العراقي كان يعوّض بالأسلحة والأموال والأفراد المدرّبين.

إن أهم أدوات مكافحة التمرد هي الاستخبارات. لكن هذا هو بالضبط ما كان ينقص الولايات المتحدة في العراق بسبب الإخفاق في التخطيط والتدارك البطيء للأخطاء. لم يكن هناك مترجمون للعربية على قرب كافٍ من كل كتيبة -كما أن مؤسسة تيتان، المقاول الذي استأجره البنتاغون لتزويده بهم، كانت ذات سمعة سيئة في جميع أنحاء العراق لبطئها- وغالباً ما كان الجنود يخرجون في دوريات، وليس لديهم طريقة لمعرفة ما يقال لهم، إن لم نقل ما لم يكن يقال. وفي أيلول 2003، كتب لي ضابط في إحدى الكتائب في بغداد قائلاً:

لا يمكن القيام بشيء حيال الأمن إلا إذا كانت هناك شبكة استخباراتية، أو نوع من قوة الأمن، في المكان الصحيح للقبض عل المجرم أو الإرهابي الصحيح... ليس هناك قوات أمن كافية، سواء من التحالف أو من العراقيين، للقيام بهذا العمل الآن. كما لا يوجد جهاز استخبارات عراقي. نحن نأتي بالمعلومات من الاستخبارات مفتوحة المصدر، أي الذين يأتون إلى البوابات الأمامية ويقولون: إن لديهم معلومات، ويقوم ضباط الاستخبارات لدينا باستجوابهم، أو باستجواب العراقيين الذين نتعامل معهم عبر مجالس الأحياء، ويقدمون بعض المعلومات، وهذه المعلومات لا تكون دائماً مفيدة. كما أن المحليين يستخدموننا أحياناً لأنهم يحقدون على جيرانهم. وقد جعلنا أحد المترجمين الذين عملوا معنا نشن هجوماً على بيت، قال: إن فيه أسلحة RPGs وأفراداً يشنون هجمات على قوات التحالف. لم يكن في البيت شيء، وقد أخبرنا الرجل الذي كان نائماً مع عائلته في الداخل فوراً بمن أرسلنا، وقد كان يدين للمترجم بمال وقال له المترجم: إنه سيرسل إليه الأمريكيين. وتبين أنه كان صادقاً. فطردنا المترجم واعتقلناه بدلاً منه.

ظل الجيش يدّعي أن استخباراته تتحسّن، لكن المعلومات كانت تأتي بسرعة أكبر مما

يستطيع ضباط الاستخبارات التعامل معها. ومع ذلك استمر عدد الهجمات اليومية في الارتفاع وازدادت تعقيداً. وفي شهر تشرين الثاني، وهو أكثر الشهور دموية منذ الغزو، قدّر البنتاغون أن التمرّد يضم خمسة آلاف مقاتل. وقد فاجأ هذا الرقم الكثير ممن قضوا وقتاً في العراق؛ لأنه قليل لدرجة لا تصدّق. كانت الولايات المتحدة لا تزال تبدو رافضة أن تعطي هذا العدو الجديد الخفي قدره، وكما قال هامس: كأن «هذا التمرد عبارة عن انحراف؛ لذا فنحن نستطيع أن نواصل مع» ثورة التقنيات العالية في الشؤون العسكرية. وأضاف: «كان يبدو أن هناك شعوراً يتساءل (ماذا لو كانت حرب عصابات؟). مما يصدم الناس بالفعل القول: إن القوى العظمى ليس لها حيلة مقابل المتمردين».

كان النجاح الحديث الوحيد جدلياً هو النصر البريطاني على العصابات الشيوعية في ملايا في خمسينيات القرن العشرين، الذي استغرق عشر سنوات. وبعد أكثر من عام على بداية حرب العراق، كتب هامس مقالاً افتتاحياً لصحيفة نيويورك تايمز عن سير هارولد بريغز، الجنرال البريطاني المتقاعد الذي وضع الخطة السياسية العسكرية التي أدّت إلى هزيمة الشيوعيين في ملايا. وبعد ظهور المقال، تلقى هامس اتصالاً هاتفياً من مكتب دوغلاس فيث: يطلبون منه أن يكتب ذلك بشكل مذكرة لوكيل الوزارة قبل يوم الإثنين القادم. قال هامس: «يبدو أنهم لم يسمعوا عن بريغز قبل ذلك». وقام بكتابة المذكرة كما ينبغي وأرسلها إلى البنتاغون. وفي ذلك الوقت كان فيث مسافراً: ومرّ الوقت، ولم يسمع هامس منهم إجابة. قال هامس: «ربما كان ذكر رقم السنوات العشر قد أفسدهم، لكن إن كانوا لم يسمعوا عن بريغز من قبل فنحن في ورطة».

كان كاليف سيب، وهو كولونيل ملازم متقاعد، يدرّس في مركز Navy حول الإرهاب والحروب غير المنتظمة، ذهب إلى العراق مرتين عام 2004. في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، كان سيب، بصفته رائداً في القوات الخاصة، قد عمل مستشاراً للواء في الجيش السلفادوري فيما عده، نجاحاً في مكافحة التمرد، ولو كان وحشياً، ثم قام بتحليل حروب أمريكة الوسطى في أطروحته في هارفارد، حيث التقى درو إردمان. كان سيب، مثل هامس، من المفكرين المستقلّين على هامش الجيش، الذين شاهدوا القيادة العليا تخفق في فهم

الوضع الإستراتيجي لأمريكة في الحروب اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر. (في العراق، كما في فييتنام، يجد المرء لدى المدنيين والعسكريين ذوي الرتب المتوسطة بصيرة أكثر مما لدى قياداتهم؛ لأن الضغط السياسي على ذلك الارتفاع كان منخفضاً، بحيث يسمح بالتفكير الواضح، ولأن صدقهم الفكري يقلل من احتمالية تقدّمهم المهني). قام الجنرال أبي زيد بتعيين سيب أول مرة لدراسة الاستخبارات العسكرية في العراق، ووصل إلى القصر في بغداد في كانون الثاني 2004. وسرعان ما اكتشف أن الضباط العاملين في سلطة الائتلاف المؤقتة كانوا يشعرون باستهانة لا يكادون يخفونها لمعظم نظرائهم المدنيين الأصغر سناً والأقل خبرة، الذين يتعاقبون في القدوم إلى العراق في جولات تمتد تسعين يوماً. كما وجد أن الجنرال سانشيز، قائد القوات البرية في العراق، وموظفيه قد اتخذوا موقعاً دفاعياً لدرجة الذعر من أي شخص يأتي من الخارج. وفي ذلك الوقت كانت الأمور تسوء لدرجة أن أي عرض للمساعدة كان ينظر إليه على أنه محاولة لإلقاء اللوم. كان هناك كثير من الأمور لتجاوزها -كان الجميع تقريباً يدركون أن سانشيز فوق رؤوسهم- لكن إغاثة القيادة على مثل هذا المستوى العالي كانت ستعد اعترافاً بالإخفاق؛ لذا كان عمل سانشيز بأمان (ولم يعاقب إلا بعد العراق، حين أخفق في الحصول على النجمة الرابعة).

في القصر، التقى سيب كولونيلاً في القوات الخاصة للجيش كان يجلس على بعد مكتبين من باب المكتب الداخلي لبريمر. وشارك سيب مع الكولونيل في محادثة، محاولاً أن يفهم التفكير الإستراتيجي لسلطة الائتلاف المؤقتة، واستخدم في نقطة ما كلمة «تمرّد» فرفع الكولونيل يده وقال: «لا يوجد تمرد هنا، وإنما يوجد مستوى عالٍ من العنف المحلي». وفي مقر الفرقة الخامسة في بيت الصيد الريفي القديم لصدام على البحيرة قرب المطار، وجد سيب جواً يوحي بالعمل الروتيني للموظفين في هيدلبيرغ، وليس بالمحاسبة على حرب تزداد سوءاً. كان خط الأحداث في بغداد يعكس نظرة ضعيفة المخيلة، إذ كان سيب قد رآها تأتي من البنتاغون بإدارة رامسفيلد. وكان النجاح يقاس بعدد المتمردين من البعثيين رفيعي المستوى من مجموعة ورقة اللعب الذين يتم القضاء عليهم. لم يبدُ أن أحداً كان قادراً على تفسير استمرار الزيادة في عدد المتمردين، مع كل القتلى أو المسجونين. كانت الإستراتيجية خاطئة كلياً، كما أدرك سيب. فبدلاً من التركيز على التهديدات، كان يجب التركيز على الآثار،

والحالة النهائية المطلوبة التي تجعل مركز الأحداث في حياة العراقيين. قال سيب: «الشيء الأهم هو الأمن، أمن الناس. كانت المشكلة أننا تمسكنا بفكرة أن أمننا نحن هو الأهم. وهنا يتطلب الأمر بعض التضحية، فيجب تأمين الناس أولاً».

كان هذا معنى عبارة القلوب والعقول (وهي عبارة كان أول من استخدمها هو جون آدامز عن الثورة الأمريكية، كما ذكّرني سيب) : أي إنشاء حكومة يرغب العراقيون بالمخاطرة في إعطائها الولاء. لقد فهم المتمردون أكثر من الأمريكيين أن المعركة كانت على ولاء الشعب. فبدؤوا بذبح المنتسبين للشرطة؛ ليظهروا للعراقيين أن المؤسسات الجديدة غير قادرة على حمايتهم، لكن الأمريكيين، بعد أن قاموا بحل قوات الأمن العراقية السابقة، لم يضمنوا أمن العراقيين الذين تقدموا للعمل في الاستخبارات. كانت جهود التدريب الأولى تركز على تشكيل جيش عراقي تقليدي -وهذا آخر الأولويات- مع وجود مئة وستين ألفاً من الجنود الأجانب في العراق. لم يكن المدرّبون من الخبراء في القوات الخاصة الذين وجدوا أصلاً لتدريب الجيوش الأجنبية، وإنما من أولئك الذين كانوا يستخدمون في العراق لكسر الأبواب. لم يكن البنتاغون يريد القيام بتدريب الجنود العراقيين، وبدلاً منه قامت سلطة الائتلاف المؤقتة بذلك باستخدام مقاول خاص. قال لي والتر سلوكومب، مستشار بريمر للأمن: «لو كنا من البداية قادرين على أن نقول: إن تدريب الجيش العراقي هو مهمة عسكرية، لكان ذلك أمراً جيداً على الأرجح. لكن الجيش لم يكن يريد القيام بذلك». تم التعاقد مع مؤسسة خاصة اسمها فينيل Vinnell، وهي فرع لنورثروب غرومان Northrop Grumman، بعقد قيمته 48 مليون دولار. قال سيب: «كان من المفروض أن يقوموا بتدريب اثنتين وعشرين كتيبة، ولكنهم درّبوا ستاً فقط، فقد هرب نصف الجنود، والآخرون لم يكونوا مدرّبين». جاء أحد موظفي أبي زيد للتفتيش على عمل فينيل. «كان غاضباً، كان غاضباً بالفعل، من سوء التدريب وسوء التجهيزات التي كانت مؤسسة فينيل تعطيها للجنود العراقيين». أخذ الجيش العمل من المقاول غير الكفء، لكن بعد أن ضاع وقت ثمين، وضاعت معه ثقة جماهير العراقيين.

أرادت إدارة بوش أن تدعي إستراتيجية للخروج من المأزق، وذلك بتدريب أعداد كبيرة من القوات بسرعة، فسعوا إلى تدريب كل من رغب في أن يصبح من الجنود والشرطة.

قال سيب: «لم تستطع قيادة الجيش أن تنظر إلى القيادة السياسية، وتقول: أنا أقدّر أن الانتخابات الرئاسية على الأبواب، لكنها يجب أن تتم بهذه الطريقة». استمر البنتاغون وسلطة الاحتلال في إصدار أرقام مضللة تماماً حول القوة البشرية والتدريب. وحتى في عام 2003، كان رامسفيلد وبريمر يذكران أعداداً تقارب 150.000، لكن في عام 2004، أظهر تقرير لسلطة الائتلاف المؤقتة حول قوة الشرطة الجديدة أن أقل من ستة آلاف من أصل تسعين ألفاً كانوا قد تلقوا تدريباً أكاديمياً جاداً مدة تزيد على أسبوعين أو ثلاثة. ونتيجة لذلك، تركت الشرطة قليلة العدد والعُدة مراكزها في الشمال في أثناء تمرّد نيسان، وانهار الجنود الجدد الذين قامت كتائب ككتيبة بريور بتدريبهم؛ ورفض الحرس أن يستقلّوا الطائرات المروحية التي جاءت لتنقلهم للمشاركة في القتال مع الأمريكيين ضد العراقيين.

تطوع تي. إكس. هامس للذهاب إلى بغداد في كانون الثاني 2004 للعمل في التدريب، ووجد أن العاملين في العملية الأمريكية كانوا أقل من نصف العدد المطلوب. لم يكن هناك نظام لطباعة الهويات العراقية باللغة العربية، أو للحصول على أجور نقدية للجنود بصورة فاعلة. وبحلول شهر أيلول، حين كان الجنرال الذي حصل على ترقية حديثاً ديفيد بتريوس يحاول التعويض عن الوقت الضائع، كان مستوى العاملين لا يزال 60 بالمئة فقط. كانت مشكلة القصور البيروقراطي في واشنطن نفسها التي تربك عملية إعادة الإعمار. قال هامس: «من الواضح أن الطريقة الوحيدة للخروج من العراق هي تدريب قوات الأمن العراقية، وقد أخفقت هذه الإدارة في ذلك تماماً». وبسبب أنظمة القوى البشرية، تم استدعاء هامس إلى واشنطن بعد شهرين على الرغم من أنه كان قد تطوع سنة، لعلمه كأي شخص آخر بأهمية التدريب لمكافحة التمرد في العراق.

كتب أنتوني كوردسمان من مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية الذي كان يتابع التدريب عن قرب، في تموز 2004: «لقد أخفقت الولايات المتحدة في التعامل مع العراقيين بوصفهم شركاء في جهود مكافحة التمرّد مدة سنة تقريباً، ولم تحاول أن تدرب وتجهز القوات العراقية جدّياً لمهمّة حفظ الأمن ومكافحة التمرّد حتى شهر نيسان 2004». وقد تبع هذا الإخفاق مباشرة الخطأ الأول للبنتاغون، حين تعامى عن التمرّد. «لقد أهدرت الولايات المتحدة وقتاً ثميناً في انتظار أن تتغلب قواتها على تهديد عدته عمل عدد صغير

من الموالين للنظام السابق والمتطوعين الأجانب، وشعرت أنها تستطيع التغلب عليه دون إنشاء قوات عراقية فاعلة». وقد بدا أن قوات الأمن العراقية الجديدة كانت تشعر أنه يطلب إليها القتال عن الولايات المتحدة وليس عن العراق، وكانت مستاءة من الأجور القليلة والتجهيزات الضعيفة. ودون الانضباط القاسي لجيش صدام، لم يكن معظمهم قادراً على تشكيل قوات قتال متماسكة وسرعان ما تفككوا تحت ضغط إطلاق النار. وقد قال لي أحد المسؤولين في سلطة الائتلاف المؤقتة مرة: إن كثيراً من أكثر العراقيين شجاعة وإخلاصاً ومثالية بدا أنهم يقاتلون في الجهة الأخرى.

إن التمرد السني الذي كان يغذيه حزن أقلية كانت قد حكمت العراق بشكل رئيس منذ نشأتها، وتنبأت بإلغاء دورها في النظام الجديد، خاصة بعد حلّ الجيش واجتثاث البعث، جعل الموضوع أوضح من اللازم. كان العمود الفقري للتمرد -المنظمين، والممولين، والموردين- من مسؤولي حزب البعث والخدمات الأمنية والاستخباراتية الكثيرة للنظام السابق. وبدأت رسائل غامضة تظهر باسم «حزب العودة». لكن منذ وقت مبكر، كانت صفة التمرد أكثر تعقيداً من فعل حامية جيش الحزب الحاكم الذي مضت لحظته في التاريخ. فقد تجذّر ما يمكن تسميته بقومية السنيين لدى بعض العراقيين الذين لم يكونوا قد استفادوا كثيراً من حزب البعث. كانت دوافعهم متنوعة ومتداخلة: الوطنية والدين والاستياء الشخصي من بعض الإصابات التي سببها الجنود الأمريكيون. ويبقى التمرد غير مفهوم بشكل جيد ربما لأنه يتحدى التصنيف.

التقيت بشيخ عشيرة من الرمادي اسمه زيدان خلف العوض، كان قد هرب من الجيش الأمريكي إلى عمّان بالأردن. وهو رجل تقليدي، كان ينظر إلى الأمريكيين بوصفهم شركاء يمكن أن يفيدوا عشيرته، وقال: «إنه لم ينضم إلى التمرد إلا حين جعلت تصرفاتهم التعاون مستحيلاً، ونحن العراقيين من طبيعتنا أن نأخذ بالثأر. إذا قتل ابن عمي أخي، كان علي أن أقتله. فإذا جاء الأمريكيون من مكان يبعد آلاف الأميال فاستحيوا نساءنا وآذوا أطفالنا، كيف يمكنني أن أتركهم؟!».

لم يكن هناك شيء مشترك تقريباً بينه وبين العراقي الشاب الذي التقاه صحافي من صحيفة Observer الأسبوعية اللندنية في بغداد. كان ذلك الشاب من المعجبين ببون جوفي

والأفـلام الأمريكيـة قبل الحرب، وكان قـد رحّب بالغزو، متخيلاً حيـاة جديدة من الحرية والسـفر والبضائع الاسـتهلاكية، إلى أن حوّله منظر القتلى المدنيين والنهب إلى متمرد تام في خلية مسـتقلة مكوّنة من سـبعة رجال (بينما تابع عمله في إحدى وزارات الدولة). كانت شـكاوى هـذا المقاتل عبارة عن مزيج من الضـيق المـادي والكبرياء القومي الذي لم يصـل إلى برنامج عمل سياسـي واضـح. وجد أن الجهاديين الأجانب في العراق متهوّرون ودمويون لدرجة لا يمكن بها العمل معهم.

كان السـنيون العراقيـون هم مجدّدو البلاد، وكانوا في المدن يميلـون إلى أن يكونوا أكثر علمانية من الشـيعة. لكن العقيدة الإسـلامية التي سـيطرت في الـدول العربية الأخرى مع الأنظمة العلمانية القمعية الفاسـدة، نشرت بسـرعة فتاكة في أرجاء العراق المحتل، النظرة الافتراضـية العالمية لمجموعة محرومة فجأة. وقد فرّ صـديق لأحـد المترجمين الذين عملوا معـي إلى اليمن وأطلق لحيته وأصـبح جامعاً لأفلام قطع الرؤوس، بعد أن كان طالباً هانئاً مسـتمتعاً قبل الغزو. كان التحول يحدث أحياناً في أقل من نصـف ساعة. وقد روت صحيفة The Washington Post قصـة خريـج جامعي في الثانية والثلاثين من عمره يعاني السـمنة وعاطـل عن العمل، وكان يتحدث الإنكليزية ويعيش مع والدته في الأدهمية. كان يقبل بوجود الأمريكيـين في العـراق، إلى الليلة التي داهمـوا فيها بيته. لكنهم أذلّوه في تلك الليلة بنشـر مجلاته السرّية التي تحمل صور فتيات باستهزاء على السرير بجانب القرآن. وبعد عشرين دقيقة من ذهاب الجنود، بدأ الشـاب يصفع والدته ويصرخ قائلاً: إن الأمريكيين شياطين. أمضـى تلـك الليلـة في المسـجد، وحين عـاد إلى البيت في اليـوم اللاحق رمـى كل الأجبان المصنوعة في دول أجنبية التي كانت في الثلاجة، وأحرق كل الصور الغربية في البيت، وحرّم على والدته مشـاهدة الأخبار أو الأفلام الغربية. وحين اشـترت بعض الأدوية المضادة للقلق لابنهـا المضـطرب، رفض تنـاول الحبوب: فالحبوب الصـفراء كانت من اليهـود والحمراء مـن الأجانب الأشـرار. وكمـا ظهر للعالم من فضـيحة سـجن «أبو غريب»، فـإن الاحتلال العسـكري والعار الجنسـي مزيـج قابل للاشـتعال. كانت تجاوزات الجنـود تتجاوز في نظر الرجال العراقيين حدود أكثر المناطق حساسية. فقد كانت المداهمات تقبض على النساء في العائلة بملابس النوم، وكانت هناك إشـاعات دائمة بأن نظارات الرؤية الليلة تسـمح برؤية

مـا تحـت الثياب. ربما يكون الشـاب في الأعظمية قد عانى المشـكلات النفسـية ذاتها التي يعانيها شخص ذو وزن زائد وعاطل عن العمل في أمريكة. لكن كان في العراق عقيدة عنيفة مستعدة للاستجابة للحظة أزمته.

أثبتت حرب العراق أن بعض مزاعم إدارة بوش كانت خاطئة، كما حققت مزاعم أخرى. كان من تلك المزاعم الإصـرار على وجود ارتبـاط عملياتي بين العراق والقاعدة. فالحقيقة أن صـداماً كان دائماً يبقي مسـافة حـذرة بينه وبين الجماعات الإسـلامية الإرهابية، وقد كسـب الأئمة السـنيين المحافظـين في العراق فقط؛ ليسـتخدمهم واجهة. لكن بعد سـقوط النظام، كانت القوة العقديَّة الأكثر فاعلية خلف التمرد هي الإسـلام وعداوته للدخلاء غير الإسـلاميين. حتى إن بعض المسـؤولين البعثيين السـابقين توقفوا عن شـرب الخمر وبدؤوا يصـلّون. كان التمرد يسـمّى مقاومة، وكانت لها معانٍ إضافية تضـفي عليها شرعية دينية، وأصبح مقاتلوها مجاهدين، وادّعوا أن مهمتهم هي الجهاد.

ضـرب التفجير الإرهابي الأول السـفارة الأردنية في بغداد في 7 آب 2003، وسـرعان ما تبعه تدمير بعثة الأمم المتحدة. وفي شهر تشرين الأول اشتد العنف في أنحاء العراق مع بداية هجوم رمضان ونسف مقر الصليب الأحمر وعدة مراكز شرطة في بغداد في صباح دامٍ واحد. وفي تشرين الثاني، اقتحم انتحاري بسيارته القاعدة الإيطالية في الناصرية وقتل تسعة عشر إيطالياً. وفي كانون الثاني، قتل أكثر من عشـرين شخصاً بتفجير جعلهم أشلاء، بينما كانوا ينتظرون؛ لدخول بوابة الحشاشـين. كان هناك اعتقاد واسـع بـأن هذه التفجيرات من عمل مقاتلين أجانب منتسبين إلى القاعدة، ويقودهم الإرهابي الأردني أبو مصعب الزرقاوي الذي هاجر إلى العراق بعد هزيمة القاعدة في أفغانسـتان. كانت الإسـتراتيجية واضـحة وناجحة إلى حـد كبير: وهي عـزل المحتلين الأمريكيين في العـراق بإخراج القـوات الأجنبية الأخرى مـن البـلاد، وتهديد أي عراقي يتعاون معهم. لم يكن أحـد يعلم عدد الجهاديين الذين كانوا يتسـللون عـبر الحدود العراقية غير المراقبـة، فقد كان الجيش الأمريكـي يقول: إن عددهم بالمئـات. وقـد أدخلوا أشـكالاً من العنف عجـز عنها البعثيـون والتمرّد القومي السـنّي على الرغم من وحشـيتهما، لكن خططهم طوّرت أهدافاً مشـتركة مـع المقاتلين المحليين. وأخيراً بدأ الجهاديون باستهداف المدنيين العراقيين بالتفجيرات الجماعية لمجرد كونهم من الشيعة

أو الأكراد، كما في تفجيرات عاشوراء. كان المتطرفون السنة يرون الشيعة غير مسلمين، وكان عدد كبير من السنة يخشون الشيعة؛ لأنهم يمثلون الأغلبية الديمقراطية في العراق، أما الأكراد فكانوا يعدون عملاء للأمريكيين واليهود. طلب الزرقاوي المباركة والمساعدة من أسامة بن لادن في رسالة حصل عليها الجيش الأمريكي ونشرها. كانت الرسالة تظهر إستراتيجية تقوم على إثارة حرب أهلية عرقية لمنع ظهور حكومة ديمقراطية. ازداد الكره للجهاديين الأجانب في العراق -حتى في الفلوجة، حيث زادت سيطرتهم أكثر فأكثر مما أدى إلى أحداث العنف في نيسان- لكنهم كانوا يحققون هدفاً مفيداً لكل من العراقيين والأمريكيين، فإذا كان السودانيون والجزائريون والمصريون والسوريون والسعوديون وغيرهم من العرب هم الذين يقومون بنسف العراقيين وتحويلهم إلى أشلاء، فهذا يعني أن البلاد تتعرض لإرهاب دولي، وليس لحرب أهلية كما كان الجميع يخافون. وحتى بعد أن تمَّ التعرف على بعض الإرهابيين وتبين أنهم عراقيون، ظل السكان المحليون مصرّين على أن العراقيين لا يمكن أن يفعلوا أشياء كهذه. كان يجب أن يكون الإرهابيون من الأجانب، إما من الجهاديين العرب أو عملاء أمريكيين يسعون إلى استمرار الاحتلال.

ظهر بين العراقيين الشباب الذين استطاعوا الوصول إلى وسائل الإعلام الحديثة اهتمام بأقراص DVD ومواقع الإنترنت التي تعرض لقطات لهجمات على الجنود الأمريكيين، وقطع الرؤوس، ومشاهد مأخوذة من جرائم حقبة البعث، وغيرها من التسالي البشعة. كان الجو وحشياً لدرجة أن أنباء جرائم القتل الجماعي أصبحت شيئاً عادياً غير مؤثر. كانت الحكايات الشخصية التي أسمع عنها أكثر تأثيراً بطريقة ما. فقد كانت تشير إلى وباء من العنف الذي لم يعلن عنه إلى حد كبير. أخبرتني أخت سائقي، وهي مختصة في أمراض الشيخوخة تعمل في مستوصف عام بأن امرأة جاءت في اليوم السابق، وقد تعرضت لصدمة شديدة: فقد قتل زوجها الذي كان يعمل مترجماً في قاعدة أمريكية، رمياً بالرصاص أمام عينيها. كما كان لأحد مترجميّ، وهو أيضاً طبيب، صديق من الكلية الطبية، وكان شيعياً، ذهب للعمل في عيادة قرب الرمادي؛ ليكون قريباً من خطيبته. فشك السكان المحليون فوراً في أنه جاسوس -وإلا فلماذا يرغب شيعي في العمل في مكان وحشي كمحافظة الأنبار؟- فقطع رأس الطبيب وخطيبته. وقد ظهر صاحب مصنع في الموصل في فيلم وثائقي قال: إن سقوط النظام حسّن

عمله، وقد عُرِض الفيلم عدة مرات على محطات فضائية عربية، وبعد ذلك بمدة قصيرة خُطف عمّ صاحب المصنع؛ وحين دفعت العائلة الفدية لإطلاق سراحه، كان بلا عينين ولا يدين. وكانت هناك هذه الورقة التي وجدتها امرأة عراقية أمريكية تعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة في الكاظمية، وأرتني إياها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو الإنذار الأخير**: إلى الجواسيس في المجلس المحلي، إلى جميع المترجمين والمنسّقين الذين يعملون مع قوات الاحتلال: نحذّركم بأنه عليكم العودة إلى ربكم وإلى الناس، وإلا فإن مصيركم معروف سلفاً وعقوبتكم ستكون عادلة؛ لأنكم تخبرون عن أبنائنا وإخواننا وهم يُعتقلون الآن، وإذا تعرّضوا إلى أي خطر فإننا سنحقق العدل بأيدينا؛ دفاعاً عن شعبنا الذي يرفض الخائن أكثر من المحتل. فإن لم تتوقفوا بعد هذا الإنذار، فسنخبر عائلاتكم بأنكم جواسيس وسيتبرؤون منكم؛ لأنكم خائنون وقد بعتم أرضكم وشرفكم. سنقول لعائلاتكم أن يطردوكم من بيوتكم على الملأ، وإلا فإنهم سيكونون مثلكم وسيتحملون المسؤولية أيضاً. الله أكبر، وعاش العراق الحبيب بعزة وكرامة، ولعنة الله على كل من يمد يد العون للمعتدين».

لم يقدّم التمرد السني رؤية سياسية يمكن أن تكسب أعداداً كبيرة من العراقيين. كان خطابه قومياً وإسلامياً، وكانت إستراتيجيته طائفية بشكل متزايد. لكن ما برع به فعلاً هو الخوف.

أما التمرد الشيعي فقد كان مختلفاً بشكل جوهري. فقد بدأ في 10 نيسان 2003، في أكثر الأضرحة الشيعية قدسية، وهو قبر الإمام علي في النجف. عاد آية الله عبد المجيد الخوئي، ابن آية الله العظمى الذي كان أكبر علماء الدين الشيعة في العراق قبل السيستاني حتى مات عام 1992، إلى العراق من المهجر بدعم أمريكي في أوائل نيسان ودخل إلى مسقط رأسه في النجف. كان الخوئي يدير مؤسسة لحقوق الإنسان في لندن، وكان يريد أن يرشد الأغلبية الشيعية في العراق باتجاه الديمقراطية. رأى مقتدى الصدر ظهوره في المدينة المقدّسة تحدياً مباشراً، فقد كان هو أيضاً ابن آية الله الراحل المبجّل، لكنه كان راديكالياً أكثر

كثيراً من الخوئي في قالب ثيوقراطي، وكان مدعوماً من قبل إيران. وفي صباح 10 نيسان، ذهب الخوئي إلى المزار؛ ليقوم ببادرة مصالحة نحو المراقب البعثي للمزار. تجمع غوغاء من أتباع الصدر في الخارج، وأحاطوا بمكتب المسجد. قتل المراقب في تلك البقعة، فأطلق الخوئي النار دفاعاً عن النفس، فقيّدوه وضربوه وسحبوه إلى باب مقر الصدر. تكلمت مع القاضي الشاب، رائد جوحي، الذي كان يحقق في القضية (وهو الذي تلا فيما بعد التهم الموجهة لصدام حسين في أول ظهور له في المحكمة). أخبر شهود عيان الجوحي في التحقيق بأن الصدر ظهر على الباب، فسأله الرعاع عما يجب عمله مع الخوئي، فنقل الشهود عن الصدر إجابته: «خذوا هذا الشخص من هنا واقتلوه».

تم التحقيق بعد القتل بشهرين، ولكي يتم تشريح جثة الخوئي المدفونة داخل المزار، حصلت الشرطة على إذن من عائلة الضحية للقيام بنبش الجثة، وذلك يعد من أكثر الأفعال منافاة للإسلام، وأخرجت الجثة في منتصف الليل. أكد الإصبع المقطوع، والتمزق، والجروح من أثر الطعنات، وكسور العظام شهادة الشهود حول طريقة موت الخوئي (وأعيدت الجثة ليعاد دفنها بعد عدة أيام تحت غطاء من جنازات أخرى). أصدر الجوحي مذكرات اعتقال بحق الصدر وعشرين شخصاً آخر. لكن سلطة الائتلاف المؤقتة اعتقلت الصدر فقط بدلاً من إعدام جميع الموقوفين.

كانت جريمة قتل الخوئي نذير شؤم بقدوم العنف السياسي. في الكويت، تلقت الدائرة الداخلية لجاي غارنر الأخبار دون قلق. قال أحد الجنرالات المتقاعدين: «آه، إنهم فقط يقتلون بعضهم». لكن الصدر كان قد ضرب ضربة جريئة مبكرة في صراع القوة الشيعي الداخلي، وما كان من رفض الأمريكيين لمواجهة الصدر إلا أن شجعه على التقدم بقوة أكبر. وبعد قتل الخوئي بمدة قصيرة، قام أتباع الصدر بمحاصرة البيت الصغير المستأجر لآية الله السيستاني في النجف، لكن رجال العشائر المسلحين في المنطقة قاموا بطردهم. كان المنافسون الرئيسون للصدر عائلتي رجلي الدين الآخرين -الخوئي والحكيم- الذين كانوا يتنافسون على الزعامة، وكانوا أكثر استعداداً للعب تحت حكم سلطة الائتلاف المؤقتة. كان الصدر في الثلاثين من العمر تقريباً (لكن عمره الدقيق بقي سراً - فقد قال بعض المواطنين:

إنــه لا يزال في العشـرينيات) وكان يرتدي عمامة رجال الدين السـوداء، وله لحية سـوداء كثيفة، لكن لم يكن يحمل شـهادات علمية؛ وكانت عبسته بعينيه الغائرتين قليلاً وانفجاراته الديماغوجيـة تجعل معظم من يـراه غير مرتاح. كان بعض العراقيين يعتقدون أن الصـدر مريض عقلياً، وقد وصـفه أحدهم بأنه «منغولي». لكن الصـدر كان لديه سـلاحان يجعلان من غير الحكمة عدم تقديره بشكل الصحيح: عباءة والده، وأتباع والده من الشيعة الشباب الفقـراء المحرومـين، الجيل الذي أوجده صـدام، الذين قام مسـاعدو الصـدر بتنظيمهم وتسـليحهم؛ ليشـكلوا جيش المهدي. اسـتولى جيش المهدي على المدارس والمشافي، وأرهبوا العاملين، واعتدوا على النسـاء غير المحجبات، وشـكلوا محاكم شرعية كنغرية[1] أصدرت أحكاماً بالإعدام، وحاولوا مراراً السيطرة على المراقد المقدسة، وأداروا عصابات إجرامية، وفجروا متاجر الخمور، مع أنهم كانوا غالباً مخمورين. وقد جعلوا أنفسـهم مكروهين بشدة مـن قبـل الطبقات الوسـطى في النجف وكربلاء والبصـرة وبغداد. كانـوا يتبعون تكتيكات الفاشـيين، فقد كان والد الصـدر يوماً القائد الشـيعي المختار لدى صـدام، وكان كثير من الرجال حول ولده من البعثيين السابقين. وفي آذار 2004، قاموا بإزالة قرية للغجر في جنوب العـراق عـن الخريطة؛ لأن الشـرطة العراقية الضـعيفة لم تكن قـادرة أو راغبة في منعهم (فقد كان رئيس شرطة البصرة وكثير من ضباطه من الصدريين أنفسهم) وسمحت سلطة الاحتـلال لقوة الصـدر أن تزداد دون مراقبـة، بينما كانت تقدم لهم هدفـاً يخدمهم أكثر كثيراً من هجماته على غيره من الشـيعة. وفي تشـرين الأول 2003، أعلن الصدر بإيجاز أنه يمثل حكومة العراق.

لم تكـن سـلطة الائتـلاف المؤقتة تعرف مـا يمكن أن تفعله حيال الصـدر الشـاب. فإذا اعتقلـوه فسـتكون هناك ردة فعـل، وإذا تجاهلوه فسيواصـل حملته التخويفية. كان الصـدر قـد تخلى عـن مجلس الحكم، لكنه كان الآن، حسـب تعبـير ليندون جونسـون، قد خرج من الخيمـة ليفسـد فيها، ولم يكن لسـلطة الائتلاف سـبيل لمعرفـة تحركاته، فكانت تفشـل في اتخـاذ القـرارات أو تتخذ القـرارات، -كما في الغالـب- دون معلومات كافية. قال السـفير هيوم هوران، صـلة الوصـل بين بريمر والشـيعة، عن الصـدر: «لو رآه والده لحزن. إنه ابن

(1) المحكمة الكنغرية هي محكمة لا تراعي مبادئ القانون والعدالة (المترجم).

غـير متدين لأحد كبار رجال الدين، وهو يقوم بالدور دون أي مؤهلات. إلى ماذا يندفع؟ هل يظهر ذلك شعوره بعدم الكفاية؟» كان هوران الذي انتحر عام 2004 بينما كان يعاني مرض السرطان من كبار الكنيسة المشيخية، وهو ديبلوماسي متقاعد غريب الأطوار مولع بالكتب، وكان يقرأ رواية فرنسية من عشرة فصول في القصر. كان عمله في العراق هو التعرّف على كبار رجال الدين الشيعة الأكثر اعتدالاً، وكان يدعوهم «هؤلاء الرجال الشعث». وقال: «أشعر كأنني عالم دراسات قديمة. إن الكلام مع رجال الدين الشيعة يبدو كحدّ جديد لمستعرب. إنهم لم يسَمّموا بهذه التيارات المعادية للسامية التي كانت تحيط بغالب العالم السني. أظن أن نظرتهم للعالم الآخر أعطتهم بعض الوقاية من التشويش. أتمنى لهم الخير؛ فالبراءة تستحق استراحة بين حين وآخر». سألت هوران عن احتمال فرض الأغلبية الشيعية لحكومة دينية من الطراز الإيراني على العراق؟ فقال لي: «ليس هناك أدنى احتمال لذلك حتماً».

قـرّر بول بريمر أخيراً اعتقال الصدر، وأصدرت سلطة الائتلاف المؤقتة مرتين على الأقل أمر توقيف لموظفيها قبل تلك الخطوة، كما قال هوران: «لكن الماء كان ينحسر قبل أن يتجاوز حاجز البحر». كانت المعوقات تأتي من واشنطن، حيث كان الخوف من العنف الآني يتجاوز المكسب البعيد لفرض القانون وإزالة الخطر المتنامي، كما أخبرني عدد من مستشاري سلطة الائتلاف المؤقتة. كانت هذه إحدى الحالات التي قوّضت فيها الحسابات السياسية المحلية لإدارة بوش ما كان مبعوثوها إلى العراق يحاولون القيام به. وقد أخبرني سير جيرمي غرينستوك، مبعوث طوني بلير إلى بغداد من أيلول 2003 إلى آذار 2004، أن بريمر «كان مقيداً بشدة من قبل واشنطن ذات الطموحات الكبيرة عن اتخاذ قراراته على الأرض». لكن حتى ديبلوماسي واسع الاطلاع مثل غرينستوك لم يكن لديه شعور كافٍ بامتداد أتباع الصدر. فقد قال لي في الأسبوع الأخير من شهر آذار، قبل أيام من أحداث نيسان: إن امتداد الصدر «قليل، وليس له تأثير سياسي».

لذا فقد بقي الصدر حراً، وبقي أمر الاعتقال مختوماً، إذ كانت الأموال تتدفق من مسانديه الإيرانيين، وحصلت ميليشياته على أسلحة ثقيلة. وسلّم الأمريكيون سلطة المنطقة الجنوبية الوسطى لفرقة متعددة الجنسيات بقيادة بولندية، لكن مزيج البولنديين

والإسبانيين والسلفادوريين والبلغاريين والأوكرانيين كانوا أكثر فائدة في إثبات وجود التحالف في العراق من فائدتهم بصفتهم قوة أمن. ظهر فراغ في السلطة، وكان الأمريكيون يفتقدون القوات والإرادة لنزع أسلحة الميليشيات التي كانت تتنافس على ملئه - ليس فقط ميليشيا الصدر، ولكن أيضاً ميليشيات المنافسين في الأحزاب الشيعية الرئيسة- وكانت الإستراتيجية المتبعة هي بشكل أساس تمني الأفضل.

في الأول من نيسان، عاد مستشار سلطة الائتلاف المؤقتة للديمقراطية، لاري دايموند الذي يعمل بجامعة ستانفورد، إلى القصر في بغداد بعد رحلة إلى الحلة، حيث علم أن الأمن في الوسط والشمال الشيعي كان يتدهور بسرعة، وطلب اجتماعاً مع بريمر في مكتبه على انفراد. حذّر دياموند بريمر من أن الوضع خطير، وحثه على تحويل خمسة آلاف من جنود البحرية من القوة التي وصلت حديثاً إلى محافظة الأنبار إلى المنطقة الجنوبية الوسطى فوراً للقيام بما كان من الواضح أن القوات متعددة الجنسيات لم تستطع القيام به.

كان الاجتماع في المساء، وكان بريمر يتناول طعام العشاء الذي برد في الصينية. وكان قد أمضى في العراق نحو أحد عشر شهراً يكافح أزمة تلو أخرى بتصميم ويبدو منهكاً. وحين رآه أحد مساعديه يخلع قميصه؛ ليلبس السترة المضادة للرصاص، كان صدر بريمر جلداً على عظم. قال بريمر لدايموند مختبراً: «لا أدري إن كنت قد لاحظت، لكن هناك حرب تدور في الغرب». لايمكن سحب أي من جنود البحرية من الأنبار. وحين أشار دايموند إلى الأمر الذي كان دوماً واضحاً - بأن القوات في العراق غير كافية، وهذا ما كان الجميع يعلمونه- ألمح بريمر إلى أن الحصول على مزيد من القوات غير ممكن سياسياً. فضغط عليه دايموند من جديد: على الأقل أرسل عشرين من جنود البحرية وعربتي همفي إلى الجنوب لحماية موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة الذين ليس لديهم الكثير من الخبرة في مجال الأمن. أجاب الأمن: «ليس لدينا أي قوات إضافية». إذا شعر أحد بعدم الأمان، فليعد إلى الوطن. لم يكن هناك المزيد ليقال.

ومن شهر كانون الأول إلى آذار -بين هجوم رمضان والتمرد على مستوى العراق كله- كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تعمل وتتوهم أنها تحقق تقدماً حقيقياً. كانت تلك الأشهر هادئة نسبياً، حيث كان من الممكن للموظفين في القصر أن يعتقدوا أن مشروع تحويل

العراق كان ينجح. وفي منتصف شهر تشرين الثاني، تخلى بريمر، تحت ضغط أسباب مختلفة من البيت الأبيض وآية الله السيستاني عن خطته ذات الخطوات السبع لإعادة سيادة العراق. فمع انخفاض الدعم العراقي للاحتلال إلى أرقام لا تتجاوز العشرة بالمئة في استطلاعات الرأي، كان من الواجب الإسراع بالانتقال، كما أن المطلب الأساس للسيستاني بكتابة الدستور من قبل هيئة منتخبة الذي تجاهله بريمر أشهرًا، يجب أن يتحقق. وقد أدّت اتفاقية 15 تشرين الثاني التي كتبتها سلطة الائتلاف المؤقتة، ثم أرغمت مجلس الحكم على التوقيع عليها، إلى تسريع عودة السيادة إلى موعد محدد هو 30 حزيران 2004. وعندها يتم حل كل من سلطة الائتلاف المؤقتة ومجلس الحكم اللذين يرى معظم العراقيين أنهما غير فاعلين ولا يمثلانهم. وسيتم تشكيل مجلس انتقالي، مختار عبر عملية مؤتمرات تحضيرية معقدة في جميع أنحاء العراق بحيث لا يستطيع حتى المسؤولون الأمريكيون تفسيرها، ليحكم العراق حتى موعد الانتخابات الوطنية في بداية عام 2005. وعندها تقوم الحكومة المنتخبة بكتابة الدستور الجديد.

كان مصير معظم هذه الخطة في النهاية كمصير المخططات الأمريكية السابقة؛ لأنها لم تكن قادرة على الاتصال المطوّل بالواقع العراقي. عارض السيستاني نظام المؤتمر التحضيري للأسباب نفسها التي أعاق من أجلها خطة بريمر السابقة: إنه لا يعتمد انتخاباً ديمقراطياً. وكما في السابق، تشبث بريمر ومساعدوه في الحكم بالخطة شهوراً قبل أن يستسلموا في النهاية. ثم طلبت إدارة بوش من الأمم المتحدة، بعد أن ظلت تبعدها طوال عام كامل، العودة إلى العراق في شخص الديبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي للإشراف على الانتقال. كانت الولايات المتحدة ببساطة لا تملك الشرعية لإدارة العملية بنفسها. لكن بقي شيء واحد مقدّس من اتفاقية 15 تشرين الثاني: وهوالتسليم في 30 حزيران. فجأة أصبح لسلطة الائتلاف المؤقتة تاريخ انتهاء صلاحية.

أصبح العمل الجاد في القصر يسير بوتيرة مسعورة. أمضت ميغان أو. سوليفان وزملاؤها أسابيع من الوقت، وطاقة كبيرة، تناقش مع مجلس الحكم قانوناً انتقالياً يتم بموجبه حكم العراق حتى يتم إقرار دستور ثابت. أصدر بريمر عاصفة من الأوامر التي تشمل كل شيء من تسجيل المنظمات غير الحكومية إلى تعيين المفتشين العامّين في الوزارات. وفتحت

سلطة الائتلاف المؤقتة مراكز للتدريب والموارد في أنحاء العراق لرجال الأعمال والعشائر والمجموعات النسائية والأحزاب السياسية. وجرت مئات «الحوارات الديمقراطية» في عشرات المدن والنواحي. وتدفق ضباط التعهدات على المنطقة الخضراء؛ للإسراع في إنفاق مبلغ الثمانية عشر مليار دولار المتبقية من مخصصات الكونغرس. وصف راي سالفاتور جينينغز، المتخصص في إعادة الإعمار بعد الحرب، مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة الذين كان يعرفهم بأنهم أشخاص تحت الماء، يغرقون بفعل الضغط، وبأنهم معزولون ومنهكون: «إنهم يتحدثون إلى الجميع وإلى بعضهم عبر البريد الإلكتروني. وهم قلقون من أن الوقت ينفد». أما المسؤولون في واشنطن فقد وجدوا أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت تتحول إلى نوع من حكومة أجنبية تجمع القوة بيد شخص واحد، ليس لديه إجابات للإدارة، حتى إنه غير ملمّ بالعراقيين، ولا يزال يصرّ على أنه يعرف أكثر من الجميع. ووجوب فرض القرارين السياسيين للاحتلال اللذين يمكن تسميتهما نجاحاً -اتفاقية 15 تشرين الثاني وعودة الأمم المتحدة للمساعدة في الانتقال- على بريمر وسلطة الائتلاف المؤقتة من قبل روبرت بلاك ويل، المدعوم من قبل كيسنجر والسفير السابق إلى الهند والمعروف بسوء تعامله مع أتباعه، والذي تم تعيينه للعمل تحت إدارة رايس ومجلس الأمن القومي في منصب كبير الخبراء السياسيين بشأن العراق، في محاولة لكبح سلطة الائتلاف المؤقتة. كان سيل الأخبار من بغداد إلى واشنطن بطيئاً ومضللاً في بعض الأحيان، كما أن الخصومة المتبادلة ملأت المسافة بينهما. كانت أو. سوليفان، النجمة الشابة الصاعدة تحت إدارة ريتشارد هاس وبعده بريمر، تنتقد أحياناً في واشنطن لعجزها عن رؤية قلة أهمية مجلس الحكم للعراقيين، لعدم معرفة الكم الذي لا تعرفه. بدا أنها وغيرها من المسؤولين قد أصبحوا في أثناء السنة الطويلة التي أمضوها في القصر أكثر إيماناً بأنهم يحققون نجاحاً، وأصبحوا أقل تأثراً بالآراء المعارضة. ومع ذلك، كان العراق يتدهور طوال تلك المدة.

وفي شهر شباط تلقى براد سوانسون، وهو مصرفي في الخمسين من عمره يعمل في الاستثمار في فيرجينيا اتصالاً هاتفياً من صديقه القديم مايكل فلايتشر، شقيق آري فلايتشر، وزير الإعلام السابق الجريء والمتصلب في إدارة بوش. كان فلايتشر يعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة في مشروع تنمية للقطاع الخاص، وهو إنشاء سوق للأوراق المالية،

والحصول على استثمارات أجنبية، وعمل قروض للمشروعات العراقية. لكن كان لديه نقص شديد في الأيدي العاملة. فطلب من سوانسون القدوم إلى بغداد لمساعدته. كان سوانسون قد خدم في السابق في ليبرية في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، وكان قد أجرى صفقات استثمار في جميع أنحاء العالم، لكنه لم يسبق له أن عمل في مكان كالعراق. وكان وسيماً، مفكراً يرتدي قمصاناً أنيقة، ولديه زوج وثلاثة أولاد وكلبان، وبيت قديم متنقل في ضاحية مخصصة لتربية الخيول قرب واشنطن. لم يكن بحاجة لقفزة يبدأ فيها مهنته، أو لراتب دون ضرائب، أو ليكسب أسهماً لدى الحزب الجمهوري، أو ليثبت شجاعته. لكن الطبيعة التاريخية لما كان يجري في العراق جذبته. رأت زوج سوانسون الإثارة في عينيه ولم تحاول أن تتحدث معه لتصدّه عن ذلك، لكن ولديه الأصغرين، اللذين كانا في الرابعة عشرة والحادية عشرة من العمر، كانا غاضبين وخائفين. قال لي سوانسون: «لو كنت ممن يقولون: سأضع راحة أسرتي وهدوءها فوق كل شيء آخر لما ذهبت».

منعت التأجيلات البيروقراطية سوانسون من الوصول إلى بغداد حتى منتصف شهر آذار. ووقع بسرعة في الإيقاع الشديد للقصر، وفي جو المهمة، والعمل ساعات طويلة سبعة أيام في الأسبوع، والخروج من المنطقة الخضراء في شاحنة صغيرة عادية للقاء رجال الأعمال العراقيين، في مخاطرة لا يستهان بها لكلا الفريقين، والتفاوض لإبرام اتفاقيات القروض. كان هناك حسن نية من كلا الطرفين بوصفه حاجة ملحّة لتشغيل المصانع وتوظيف العراقيين. لكن مرّت الأيام ثم الأسابيع، ولم يحدث شيء. وتم حصر المال من مبلغ الثمانية عشر ملياراً، بما فيها جزء لقروض المشروعات، بقواعد الدولة للمشتريات، وقوانين التأمين لتعويض العاملين التي لم يكن لها معنى لدى العراقيين، والسباق بين الوكالات الحكومية المتعددة التي عمل موظفوها في سلطة الائتلاف المؤقتة. لم يكن سوانسون يعلم: هل كانت البيروقراطية عاجزة ببساطة على العمل بسرعة أكبر، أم أن إدارة بوش لا تريد أن تكسر كثيراً من القواعد؛ كي لا تخلق شعوراً بالاضطرار ربما يثير قلق الشعب حول حسن سير الأمور في العراق؟. لكن القرض الأول لسوانسون لم يصدر حتى أواخر شهر تشرين الأول 2004، أي بعد وصوله إلى بغداد بسبعة أشهر، وكان لصاحب مصنع ينتج زجاجات الماء البلاستيكية.

حتـى مع حرارة جهوده، أدرك سوانســون أن سـلطة الائتلاف المؤقتـة كانت تخفق. كان يتخيل العراق مريضـاً مسـتلقياً على طاولة وشـرايينه مفتوحة، والأمريكيون يضخّون إليها الدم بأسـرع ما يمكنهم، لكن الدم يتدفق للخارج بالسـرعة نفسـها التي يضـخونه بها. في أوقات متأخرة من الليل، حول المسبح الذي خلف القصر، حيث كان الموظفون يستطيعون أن يجلسوا ويحتسوا الجعة ويرتاحوا، كان أحياناً يطرح الأسئلة الكبيرة -هل هذا يجدي حقًّا؟ هـل لهذا كله معنـى؟- لكن نادراً ما كان يجد مجيباً وسـرعان ما كان يتراجـع: «أعتقد أن الناس إما لا يريدون الاعتراف بذلك، أو لا يسـتطيعون التركيز على أي شـيء خارج بيئتهم المباشرة». كان التصميم على إنجاز العمل يتجاوز كل شيء آخر، ولذا لم يسأل أحد إن كان لسـلطة الائتلاف المؤقتة شـأن بكتابة قوانين للعراق تحدد ضـريبة ثابتة مقدارها 15 بالمئة، وإجراءات المحاسـبة الشفافة، وقوانين مصرفية وتجارية جديدة. «كانت نوعية دنيا الخيال التي يتم خلقها محببة جدًّا. وكانت جميع هذه القوانين عظيمة، لكن لم يكن لها تطبيق على أرض الواقع».

اسـتخدم سوانسـون كلمة «التفكير الجماعي» لوصـف الجو العقلي في سـلطة الائتلاف المؤقتة: مجموعة العقول الموحدة التي تسيطر على أي مؤسسة مغلقة هرمية ذات قادة أقوياء وشـعور بالمهمة المشـتركة، حيث لا تلقى الأخبار السـيئة ترحيباً، ولا يريـد أحد أن يكون هو الذي يطرح الأسـئلة المقلقة. كان سوانسـون قد رأى التفكير الجماعي قبل ذلك في السفارة الأمريكيـة في ليبيرية في بداية ثمانينيات القرن العشـرين، حيث كانت السياسـة الأمريكية تدعم عريفاً شـبه أمّي يدعى صموئيل دو الذي كان قد شق طريقه نحو السلطة بالقتل. وقد جسّ سوانسـون نبض عدد من الليبيريين بشـأن دو، فقالوا جميعاً: إنه إذا استمرت أمريكة في دعمه وتسليحه، فإنه سيقود البلاد نحو الخراب. فأصرّ سوانسون الذي كان ديبلوماسياً شـاباً متحمسـاً في أول منصـب له خارج البلاد أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، فقد كان دو يتعلم أن يصـبح حاكماً جيداً، وكان صندوق النقد الدولي يأتي إلى البلاد، وكانت الأمور تتحسّـن. لكن الليبيريـين كانوا على حق: وبعد سـنوات قليلة وقعت ليبيريـة في حرب أهلية مروعة دمّرت البلاد ومعظم المنطقة، قال سوانسون: «وهذا شيء لن أنساه ما حييت».

أما في العراق، فقد كان سوانسـون أكبر سـناً، وأبعد عن الموضـوع، ولذا فقد كان قادراً على إدراك الإشارات الواضحة للتفكير الجماعي الذي انتقل ثمانية آلاف ميل من واشنطن،

وسيطر على القصر في بغداد. كان مايكل فلايتشر، صديق سوانسون ومديره، مؤمناً حقيقياً. فاختلف الرجلان حول أسباب الحرب الدائرة: ففي رأي سوانسون، يقع جزء من اللوم على سلطة الائتلاف المؤقتة؛ لأن التمرّد يتغذى على إخفاق الأمريكيين في إنفاق المال، وتحقيق توقعات العراقيين ولو بشكل جزئي. أما فيما يخص فلايتشر فقد كان الأمر أبسط من ذلك كثيراً. «كان يعتقد أن هناك متمرّدين؛ لأنه لا بد أن يكون في كل شعب عدد من الأشخاص السيئين، ذوي التفكير الدموي، الذين يعانون اضطرابات نفسية». لكن الاثنين بقيا صديقين مقرّبين، وعمل سوانسون من كل قلبه على الرغم من مخاوفه. لم يكن يفهم سبب إخفاق سلطة الائتلاف المؤقتة إلى أن غادر العراق في نهاية شهر تموز، وذهب مع عائلته لقضاء عطلة في إنكلترة، حيث كان يسير طويلاً في الريف، وبدأ يقرّ بالعبث الكبير فيما كان يحاول القيام به.

تكمن المشكلة في استكبار المؤسسة كاملة. قال سوانسون: «أُنشئت سلطة الائتلاف المؤقتة للقيام بتغيير البلاد من الجذور والفروع، ولم يكن هذا هو المطلوب قال سوانسون، كان المطلوب هو إصلاح أمرين أساسين هما: الأمن والاقتصاد. تم إنشاء سلطة الائتلاف المؤقتة؛ لتكون مؤسسة طويلة الأمد، من نمط ماك آرثر لإعادة تركيب المجتمع. وبعدها حين جاء القرار المفاجئ في تشرين الثاني بالتسليم في حزيران، لم تكن هناك متابعة لتقليل أنشطة سلطة الائتلاف المؤقتة والتركيز على أمر أو أمرين أساسين، بل استمرت هذه الآلة في العمل، وإيجاد هياكل جديدة وكأنها ستبقى هناك سنوات كي تنفذها. لكن تم إيقافها بعد ذلك، وانهارت الهياكل بفعل وزنها دون تأثير خارجي، حيث لم يكن هناك أساس حقيقي لها».

حين عاد سوانسون إلى فيرجينيا، جمع أفكاره في مقالة افتتاحية. وحين تم نشرها، أرسل نسخة منها إلى مايكل فلايتشر، فلم يصله رد، ولم يلقَ استجابة لمحاولاته العديدة للاتصال به. وأخيراً، استلم سوانسون رسالة مختصرة جدًّا بالبريد الإلكتروني من صديقه القديم، قال فلايتشر: «إذا تحدّثنا ثانية فلن يكون ذلك في وقت قريب».

في المنطقة الخضراء، كان الوضع كما لو أن فريق بناء كان يضع اللمسات الأخيرة بعناية داخل بيت جديد دون ملاحظة المخرّبين الذين يتجمعون خارجه. كانت السياسة لعبة يتم

أداؤها بعيداً عن نظر العامة. فمثلاً: كان القانون الانتقالي الذي وقع عليه خمسة وعشرون من أعضاء مجلس الحكم في أوائل آذار إنجازاً حقيقياً، يحتوي على قائمة تحررية بالحقوق والتسويات المكتسبة بصعوبة عن معظم القضايا المستعصية، كالحكم الذاتي لكردستان ودور الإسلام. استمرت المفاوضات الأخيرة طوال الليل، مع جلوس بريمر وبقية موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة خلف الطاولة بصمت، بينما كان العراقيون يتجادلون حول آرائهم المختلفة.

لكن مجلس الحكم كان من إنشاء سلطة الائتلاف المؤقتة، وكان التفاوض معه (كما قال أحد نواب بريمر) كان: «كأنك تحدّق في سرّتك، ولم يكن لهم صلة بالعراقيين العاديين، ولم تكن هناك طريقة ليكسبوا أي صلة؛ لأنهم لم تكن لهم سلطة حقيقية». وبعد حفل التوقيع، أخذت الوثيقة خارج المنطقة الخضراء وقدّمت على أنها أمر واقع إلى الشعب العراقي الذي لم يكن يعرف شيئاً عنها. حاولت سلطة الائتلاف المؤقتة الوصول إلى حملة علاقات عامة، لكن رد الفعل العام طغى عليها، وقد دعمته جزئياً الدعاية السلبية من مكتب آية الله السيستاني، الذي اعترض على حق النقض المؤثر الممنوح لمجموعات الأقليات على الدستور الدائم. ولم يكن من المستغرب أن الجلسات التي كان المسؤولون الأمريكيون والعراقيون يحاولون فيها شرح مضمون القانون، ويطلبون التعليق عليه، تحولت إلى شجب غاضب. جلست في اجتماع لمجلس منطقة في قصر كان لإحدى ابنتي صدام. اشتكى الناس في القاعة من أن الأكراد قد حصلوا على حقوق أكثر من العرب، وأن اليهود سيستخدمون القانون؛ ليعودوا إلى العراق، ويسيطروا على الاقتصاد، وأن القانون لم يتم شرحه في وسائل الإعلام، وأسكتوا اثنين من ممثلي مجلس الحكم. وأخيراً قال رجل يقف في القاعة في الخلف: «ألا تعتقدون أن عليكم وضع هذا الأمر بين أيدي العراقيين أولاً، ثم تقرّرون ما ستفعلون بالبلاد؟» فالقانون لم يأتِ من العراقيين أو من أحد اختاره العراقيون، كان هذا هو الاعتراض الفعلي. ضحّت سلطة الائتلاف المؤقتة بالشرعية من أجل السيطرة، وانتهى بها الأمر أن خسرتهما معاً.

استفاد مقتدى الصدر بسرعة، حيث نظّم احتجاجات يومية على القانون في ساحة الفردوس، وادّعى العمل نيابة عن آية الله السيستاني الذي كان في الواقع المنافس الأساس له على السلطة بين الشيعة. وازداد التوتر العرقي بشكل ملحوظ في البلاد. وحين ذهبت في

أحد الأيام لرؤية بشير شاكر الطبيب الذي كان يعمل في المشرحة في بيته في مدينة الصدر، كان أخواه قد عادا للتو من مظاهرة اتّهم فيها الأكراد بأنهم كفّار وخونة.

قال د. شاكر: «ستكون القصة كما في لبنان حرب أهلية».

- العرب ضد الأكراد؟

- «هذا احتمال قوي».

- الشيعة ضد السنة؟

- «هذا ممكن. وسيكون الدستور نقطة الانطلاق، ثم ستتصاعد الأحداث بالتدريج».

- جيوش بأكملها تقتتل فيما بينها؟

- «هكذا أتخيل الأمر». التصور الأكثر احتمالاً حسب قوله كان حرباً أهلية بين الشيعة.

كانت تلك زيارتي الأخيرة للمنزل. فقد تلقى الطبيب تحذيراً من جيرانه التابعين لميليشيا الصدر من استقبال الأمريكيين.

لم يعدّ القرار الذي اتخذ بتاريخ 28 آذار، بإغلاق صحيفة الصدر ستين يوماً، مهماً بما فيه الكفاية للموافقة عليه من واشنطن أو حتى إشراك بريمر فيه؛ فقد كان كبير نواب بريمر، السفير ريتشارد جونز، ومستشاره القانوني، سكوت كاسل، يتبعان ببساطة سياسة سلطة الائتلاف المؤقتة ضد التحريض. وقد أُقفت صحف أخرى لأعمال أقل. وإذا سُمح لصحيفة الحوزة التي نشرت قوائم بأسماء «المتواطئين» واتهمت الجنود الأمريكيين بضرب المساجد بالصواريخ عمداً، واتهمت بريمر نفسه بتجويع العراقيين، بمواصلة النشر، فهذا يعني أن سلطة الائتلاف المؤقتة تُميّز في تعاملها بين الأطراف المختلفة.

لم يبدُ أن أحداً قد توقّع العواقب. فحين خرج جيش المهدي إلى الشوارع، كان بريمر في انتظار خطة عمليات من الجيش لتحييد الصدر وأتباعه. ولم يكن بالحسبان أن الصدر تُرك حراً ليقود الثورة، وبعد أربعة أيام، في صلاة الجمعة في مسجده بالكوفة، قرب النجف، حثّ الصدر المؤمنين على الثورة ضد الاحتلال وضرب الإرهاب في الصميم. وفي اليوم اللاحق، 3 نيسان، أخبر الجنرال سانشيز بريمر في اجتماعهما الصباحي بأن جنوده

سـيعتقلون كبير مساعدي الصدر، مصـطفى اليعقوبي، في اليوم نفسه في النجف اعتماداً على مذكرة اعتقال معلقة في قضية قتل الخوئي (أما أمر اعتقال الصدر فقد بقي مختوماً، لكن الجيش كانت لديه أوامر بوضـع المذكرات الأخرى قيد التنفيذ). قال بريمر: حسـناً، وكان بعض الأشخاص في الاجتماع يظنون أن اليعقوبي كان من المشاركين في القاعدة.

لم يتم التفكير في إغلاق الصـحيفة واعتقال اليعقوبي والتنسيق، ضمن سلطة الائتلاف المؤقتـة، أو بـين بريمر وسانشـيز، أو بين بغداد وواشـنطن. وأشـعل اعتقـال اليعقوبي ثورة جماعية، من الواضـح أن الصدر كان قد خطط لها مسـبقاً، وذلك طلب مباشر بالحصول على السلطة من قوات الاحتلال. بدأ رجال ميليشيا جيش المهدي يتدفقون من مدينة الصدر إلى المدن الشيعية في جنوب العراق، وأثناء أيام قليلة اكتسحوا مكاتب سلطة الائتلاف المؤقتة في الكوت والناصرية، حيث لم يستطع الأوكرانيون والإيطاليون المحافظة على أماكنهم. وكان الإسبانيون في النجف والبلغاريون في كربلاء سيُكتسحون أيضاً لو لم تسرع القوات الأمريكية لتعزيزهم. ثبت أن الفرقة متعددة الجنسـيات كلها عبارة عن جيش من ورق لا يكافئ آلاف رجال الميليشـيا الشيعة غير المدرّبين والشـجعان لدرجة الحماقة، إذ كانوا يقاتلون في أرض مكشوفة بأسلحة مثل AK - 47 وأر. بي. جي.

في اللحظـة ذاتهـا، انفجـر التمرد السـني المزمن في محافظـة الأنبار ليصـبح معركة كاملة. صـدم تشـويه المتعهدين الأربعة الأمريكيين من شركة بلاك ووتر في 31 آذار الشعب الأمريكـي. وفي البيت الأبيض، صـرّح الرئيس بوش: «أريـد أن تتدحرج الرؤوس». كان ذلك رد فعل مندفعاً، قائماً على تأثير الصـور الآتية من الفلوجة في المستوى المحلي، وكأن العراق سـاحة مبارزة يراهن فيها على الكرامة الشخصـية (كمـا كان رد بوش على المرحلة الأولى من التمرد هو أن قال: «أحضـروهم إليّ»). كان المسـؤولون في بغداد يطلقون على هذا النوع من الإصـلاح بعيد المـدى «مفك ثمانية آلاف الميـل»، وفي الطرف الآخـر كان الرئيس الذي كان يقـول غالباً: إن الدرس المسـتفاد من فييتنام هو أن السياسـيين يجـب ألا يقوموا بعمل الجنرالات. صدر الأمر بالتسلسل من القيادة العليا إلى الفرقة البحرية الجديدة في الأنبار بمحاصرة الفلوجة التي تركت أسابيع دون حراسة من قبل الوحدة الثانية والثمانين المحمولة جواً، وبإعادة السـيطرة عليها واصطياد قاتلي المتعهدين. وقد قال قائد القوة الاستطلاعية

البحريـة الأولى، الجنـرال جيمس كونـواي، فيما بعد: إنه لم يكن سـعيداً بأمر الهجوم على المدينـة كاملـة انتقاماً لمقتل أربعة أشـخاص، فقد أتـت القوات البحريـة إلى الأنبار لتهدئة المحافظة الثائرة بلمسة أنعم وألطف من الفرقة الثانية والثمانين، وأراد كونواي التعامل مع الأزمة بعمليات ذات أهداف محددة. كذلك عارض بريمر، حسب قول مسؤول في واشنطن، لكن رامسفيلد أهمله، وذهب طلب بريمر الذي قدّمه إلى بوش هباءً.

ازداد كونـواي انزعاجـاً حين جـاء أمر من البنتاغـون بالتوقف بعد ثلاثـة أيام من بدء الهجـوم، ومع اقتراب قوات البحرية من مركـز المدينة في قتال عن قرب. كانت تقارير غير مؤكـدة في قنـاة فضـائية عربية عن مقتل مئات المدنيين في الفلوجة تشـعل الـرأي العام في جميع أنحاء العراق والمنطقة، وقد قال الأخضـر الإبراهيمي، الممثل الخاص للأمم المتحدة في بغداد: إن مهمته كانت توشك على الانهيار، كما أن عدداً من أعضاء مجلس الحكم هدّدوا بالاستقالة. أوجد القتال في الفلوجة، الذي امتد إلى الرمادي، للمرة الأولى تحالفاً بين السنة والشـيعة ضد الأمريكيين. ونظمت المساجد الشيعية حملات للتبرع بالدم وقوافل مساعدات للمحاصـرين في الفلوجة، وظهرت صورة الصـدر في المساجد السنية. كما كان هناك بعض التنسيق التكتيكي بين المقاتلين. بدا معظم العراق الآن في ثورة مفتوحة ضد الاحتلال. كانت الأمم المتحدة تخوض حرباً على جبهتين دون قوات كافية، وفي الأسبوعين الأولين من نيسـان، بعد سنة من نهاية العمليات القتالية الكبرى، قتل ثمانية وأربعون جندياً.

في النهاية انسـحبت قوات البحرية من الفلوجة، وتم تسليم المدينة إلى فريق من الجنود العراقيين السـابقين يدعى لواء الفلوجة، فسـرعان ما خسر السـيطرة لصالح التمرد، وفي بعض الأحيان كان يذهب إلى الطرف الآخر. كانت فكرة لواء الفلوجة للجنرال كونواي: ولم تتم استشارة سلطة الائتلاف المؤقتة. وبقيت الفلوجة إقطاعية تشبه طالبان ومركز عمليات لأكثر الجهاديين عنفاً في العراق، سـواء من الأجانب أو المحليين، حتى وصـول فرقة جديدة من البحرية واستعادتها للمدينة في الهجوم الأمامي في شهر تشرين الثاني. وفي وقت قصير طردت القوات الأمريكية والعشائر المسلّحة ميليشيا الصدر من الكوت والمدن الأخرى، وتحت ضـغط من رجال الدين والسياسيين الشيعة، أعاد الصدر السيطرة على المدن المقدسة إلى الشرطة العراقية. لكن جيش المهدي لا يزال مسلّحاً ومن المستبعد إنهاؤه. وتطلب الأمر جولة ثانية من القتال في النجف ومدينة الصدر، وتدخّلاً من السيستاني، وبعدها بداية لمفاوضات

جادة ومشروعات إعادة إعمار؛ لإقناع الصدر بإنهاء التمرد الشيعي والمشاركة في السياسة العراقية، وكان هذا نجاحاً إستراتيجياً نادراً لأمريكة في العراق.

قال مسؤول في سلطة الائتلاف المؤقتة بعد نجاته من معارك إبريل في الجنوب: «ستة أشهر من العمل اختفت تماماً ليس هناك ما نظهره»، فقد سمحت الإدارة في واشنطن للعراق بأن يصبح متفجراً باستهتار وارتباك وجهل تام، وبعد ذلك قامت بتفجير المفجّرين.

انهارت مصداقية سلطة الائتلاف المؤقتة في أثناء أعمال العنف التي جرت في نيسان وأيار. كان المتحدثان المدني والعسكري، وهما جمهوري يدعى دان سينور، وعميد اسمه مارك كيميت، يقفان في المؤتمرات الصحفية اليومية في مركز المؤتمر، ويصدران تصريحات حول تاريخ مذكرة اعتقال الصدر ونوايا التحالف تجاه المتمردين التي كانت عادة مختلفة عن الحقائق، فأحياناً غير صحيحة بشكل ظاهر، وغالباً متناقضة مع تصريحات اليوم أو الأسبوع السابق، وكانا طوال الوقت يصرّان على أن السياسة الأمريكية ثابتة وأن العنف متقطع وثانوي وتحت السيطرة. كان سينور وكيميت يكرّران فقط التأكيد الأخرق الذي يأتي من البيت الأبيض والبنتاغون في وسط الحملة الانتخابية، لكن كلماتهما كانت لها نبرة المهزلة في بغداد، ولم تخدع الجمهور الأكثر أهمية، أي: العراقيين.

أصبحت فضيحة تعذيب السجناء التي كانت قد بدأت قبل أشهر، ولكنها انفجرت علناً في أوائل شهر أيار، بينما التمرّد لا يزال يغلي، صورة مصغرة لإخفاقات أكبر. كان بريمر يعلم بخرق نظام السجن منذ وقت، لكن أحد المسؤولين الذين كانوا يعملون في موضوع المحتجزين أخبرني أن سانشيز والجيش قاوموا باستمرار محاولات سلطة الائتلاف المؤقتة للحصول على معلومات حول السجون أو إطلاق سراح سجناء معينين. كان الموقف كما يلي: هذا عملنا، نحن نعرف ما نقوم به، ابقوا خارج الموضوع. لم يظهر بريمر علناً أن القضية تقلقه، وكان العراقيون، بمن فيهم أولئك الذين لم يستطيعوا معرفة شيء عن مصير أفراد عائلاتهم، يعتقدون أن اللوم يقع على الاحتلال كاملاً والحقيقة أن هذا كان صحيحاً. كان بريمر وسانشيز، كبير المدنيين وكبير العسكريين في العراق، كما قال مسؤول في واشنطن: «يكرهان بعضهما بكل معنى الكلمة، فقد كان جيري يعتقد أن سانشيز أحمق، وكان سانشيز

يعتقد أن جيري وغد مدني يقوم بإدارة مصغّرة». لذا سمحت سلطة الائتلاف المؤقتة للّطخة التي كانت تلوث سمعتها أن تنتشر وتدوم.

كتب إليّ جندي لم يرَ أن التعذيب ذاته مروع في أيار: «ما هو الاختلاف الأخلاقي بيننا وبين صدام؟ واضح أن الفرق كبير، على ما أعتقد، لكن المشكلة هي أن أولئك الذين لا يعرفون أمريكة لن يروا الأمر بهذا الشكل. لقد جعل ذلك عملنا يتراجع كثيراً، وهذا هو العار الأكبر إن كنت مثلنا وكنت تريد رؤية العراق ينجح. هذا هو الجزء المحزن، تأثيره في الآخرين جميعاً، وليس ما حدث بالفعل».

اتضح مع الوقت أن المسؤولية الرئيسة تقع في واشنطن والبنتاغون ووزارة العدل وأخيراً البيت الأبيض. فلم تدع المذكرات التي كتبها مستشار الرئيس ألبرتو غونزاليس وغيره حول التعذيب واتفاقيات جنيف بدّاً من الإساءات. قال مسؤول في الإدارة الأمريكية كان قد عمل في فييتنام: «ليس لدي شك بوصفي جندياً أن جزءاً من مسؤولية «أبو غريب» وأفغانستان يقع على عاتق وزير الدفاع ورئيس الولايات المتحدة. هناك حكمة تقول: اجعل الأمر بسيطاً، أيها الغبي. لديك دائماً شخصيات في لباس موحّد -كان لدي منهم في فييتنام- يستفيدون من أي غموض، وأي عدم وضوح في قواعد الاشتباك، ويقتلون الناس؛ أو يقومون بما تمليه عليهم أنفسهم. ليس هناك قواعد للناس الصالحين. هناك قواعد لخمسة أو ستة بالمئة من وحدتك القتالية التي ستصبح غريبة. أنت بحاجة لأولئك الناس؛ لأنهم يكونون أحياناً أفضل القتَلة. لكنك بحاجة للقواعد، وحين تقوم بأي تغيير فيها، أي تراخٍ أو حتى إشارة إلى ذلك، فإنك تفتح صندوق الشرور. وأنا أحمّل الخطأ لغونزاليس والرئيس ونائب الرئيس، ووزير الدفاع وسلسلة القيادة والمحافظين وأبي زيد وسانشيز، إنه خطؤهم جميعاً».

احتفظ هؤلاء الرجال جميعاً بوظائفهم. حتى إن أحدهم حصل على ترقية. وأكّد العجز عن جعل أي أحد في السلطة يتحمل المسؤولية أن طرق التحقيق غير الأخلاقية وعديمة القيمة، من وجهة نظر تطبيقية، ستستمر. وحتى بعد أن رأى العالم الصور من سجن «أبوغريب» ظل السجناء يلقون التعذيب في المعتقلات الأمريكية.

أظهرت أحداث نيسان وأيار 2004، أن لا أحد كان يتخذ القرارات على أساس إستراتيجية واقعية واضحة. لم يكن أحد مسؤولاً فعلاً عن العراق. كان بريمر يتصرف

دون استشارة واشنطن، واستمرت واشنطن بالتدخل للسيطرة على بريمر، وكان البنتاغون لا يـزال يتعارك مع وزارة الخارجية ومجلس الأمـن القومي، وكانت عين البيت الأبيض على المفكرة السياسـية، وكان بريمر وسانشـيز لا يكادان يتحدثان، وترك سانشـيز قادة فرقته يتبعون تكتيكات مختلفة بشـكل كبير. وحين كانت الأمور لا تسـير على ما يرام، كان الخطأ يلقى على شخص آخر -جندي مضطرب العقل، أو الفرق الصحفية، أو العراقيين-. وظهر أن العراقيين لديهم أفكارهم الخاصة حول مصير بلادهم. قال مسؤول في سلطة الائتلاف المؤقتة، وهو يتذكر: «كانوا يحتاجون إلى شـخص مسـؤول في واشـنطن وشخص مسؤول في بغداد، وكانوا بحاجة أن يكون هذان الشخصـان توءمين، بمعنى أن يكونا على موجة واحدة فعلاً. كان رامسـفيلد يغسـل يديه من الموضـوع، كما بدا. ومع الوقت ازداد تعامل جيري مع رايس وباول. ولسوء الحظ، في ذلك الوقت كان التمرد قد انفجر كاملاً».

أخّر القتال انتشار خمسة وعشرين ألف جندي شهرين أو ثلاثة. ورفضت خطة تخفيض مسـتويات القوات إلى 115. 000 جندي؛ لأن التحالف كان عليه أن يرتجل مرة أخرى. تمت إعـادة القوافل المغادرة من الجنود المنهكين على الطريق إلى مطار بغداد الدولي. وأرسـلت الفرقـة المسـلحة الأولى من بغداد إلى النجف وغيرها من مـدن الجنوب لتحل محل القوات متعددة الجنسـيات التي تم اكتساحها. وبعد أسابيع قليلة من مغادرة جون بريور وزواجه في عجالة، عاد إلى العراق.

انتهى المطاف بكتيبة بريور إلى قاعدة في مصنع دجاج سابق، يقع على بعد عشرين ميلاً إلى جنوب بغداد قرب مدينة قذرة تدعى المحمودية. سـجّل بريور في سـجلّه الحربي لشـهر نيسـان 2003 أن آلاف العراقيين المبتهجين احتشـدوا في الطريق الرئيس في المحمودية حين حررت فرقة تشـارلي المدينة في طريقها إلى بغداد. وكانت المنطقة تسـمى الآن مثلث الموت. وكانـت المدينة خليطاً من السـنة والشـيعة، لكن الجزء الأكبر من الأراضـي الخارجية كان سـنياً، وكان فيها عدد كبير من الضباط السـابقين في الحرس الجمهوري يعيشون في بيوت بناها النظام السـابق بعد عام 1991 لإنشاء خط دفاعي كثيف بين بغداد والجنوب الشيعي. كانت المحمودية تعج بمصانع الذخيرة التي نُهبت بعد الغزو، وكانت الآن مسرحاً لتفجيرات مسـتمرة على الطرقات وتفجيرات سـيارات انتحارية. اقتحم أحد مفجّري السيارات نقطة

تفتيش وفجّر ثمانية جنود في تفجير كان من القوة لدرجة أن عجلة القيادة وقعت على بعد مئتي قدم، وعطّل عربة برادلي تزن ثلاثين طنّاً. كانت هجمات المتمرّدين على رجال الشرطة والحجاج الشيعة المسافرين إلى المدن المقدّسة تزداد، وكانت المحمودية أيضاً ذات سمعة سيئة لإطلاق النار على الصحافيين، وغيرهم من الأجانب على الطريق الذي يمر في وسط المدينة. وكانت قذائف الهاون والصواريخ توجّه إلى مصنع الدجاج كل ليلة تقريباً. وأمضت فرقة تشارلي الشهر الأخير من الأشهر الخمسة عشر التي قضتها في العراق في مكان كئيب معادٍ.

ذهبت إلى هناك لرؤية بريور في منتصف شهر حزيران. كان الطريق السريع رقم 8، القادم من بغداد، مغلقاً بسبب ازدحام السير المدني، وكان قسم من الطريق، وهو جسر فوق قناة، قد فُجّر مؤخراً. ولم يخفِ الجنود الذين كانوا يرافقونني إلى القاعدة مشاعرهم حول بقائهم المطوّل في العراق. قال عريف شاب كان قد أمضى كل يوم من أيام الاحتلال في العراق: «تعاطفت مع العراق حين أتينا إلى هنا في البداية، لكنني الآن بارد المشاعر، ولا أشعر بالندم. حين ترى بعض أصدقائك يُقتلون، فإنك تتغير» فسألته إن كان يميّز بين العراقيين الجيدين والسيئين؟ «كيف يمكنك التفريق بينهم؟ الشخص الذي يلوّح لك يمكن أن يطلق عليك نيران RPG».

وفي القاعدة سمعت الكلام نفسه من كل جندي تحدّثت إليه تقريباً. كان شعورهم بالمرارة يتجاوز العراقيين إلى سلسلة القيادة. فقد كانوا يكرهون رامسفيلد الذي أرسلهم إلى هنا دون عدد أو عُدد كافية، ثم مدّد انتشارهم عدّة مرات، بشكل خاص، وحتى الرئيس لم يكن يحظى بشعبية، قال عدد من الجنود: إنهم ينوون انتخاب جون كيري الذي خدم في فيتنام على الأقل. كان كل منهم لا يزال يقوم بعمله، لكن لم يكونوا يعملون من قلوبهم، وساد جو فاسد من التهكم، بينما كان الجنود ينتظرون الأوامر؛ ليغادروا. وبعد العلاقات الوثيقة التي كوّنها بريور وجنوده مع مترجميهم في الزعفرانية، بدا أن هناك تطوراً غير جيد لدرجة أنهم كانوا يفصلون الحمامات المتنقلة في القاعدة في المحمودية بين الجنود الأمريكيين والعمال العراقيين. كان الأمريكيون يشتكون من أن العراقيين يكسرون المقاعد

بالجلوس عليها. وكانوا يقولون: إن العراقيين بعد آلاف السنين من الحضارة مازالوا لا يعرفون كيفية استخدام كرسي الحمام.

أمضيت عدة ليالٍ في القاعدة. في الليلة الثانية مرّت قذيفتا هاون فوقنا، وانفجرتا في مكان ما قرب السور، لكن فيما عدا ذلك كانت زيارتي للمحمودية هادئة. وفي صباح أحد الأيام خرجت مع دورية في قافلة مكونة من عربتي برادلي وعربتي هامفي مصفّحتين (في الزعفرانية، كانت عربات البرادلي التي تزن ثلاثين طناً تبقى في القاعدة، لكن هنا لم تكن أي دورية تخرج دونها). كان قائد عربة الهامفي التي ركبت فيها، العريف سكوت ماك كيسن، قد رأى ابنه مدة لا تزيد على أربعة عشر يوماً في حياة الطفل الذي بلغ عمره أربعة عشر شهراً. وجندي آخر كان قد ألغى زفافه ثلاث مرات. كان ماك كيسن، وهو رجل أشقر حسن الطباع في الحادية والثلاثين من عمره من مدينة صغيرة في أوتوا، لا يزال يبذل وسعه لإتمام مهمته، وكان يلوّح للمشاة على الطريق الرئيس، فكانوا يرفضون بحزم أن يلوّحوا له. لم يكن معظم الناس ينظرون إلى العربات المسلحة بالأسلحة الثقيلة التي تتثاقل في مدينتهم، لكن النظرات القليلة كانت صعبة؛ لم يكن أحد يبتسم، حتى الأطفال.

قال ماك كيسن: «أصعب الأمور هو التعامل مع هؤلاء الناس بكرامة واحترام؛ لأنني لم ألتقِ بشخص يمكن الثقة فيه حتى الآن. نحن نعلم ما سيفعلون لو وضعوا أيديهم علينا. كما أن التعب الذي سبّبه وجودنا هنا مدة طويلة ورغبتنا في العودة إلى ديارنا لا تجعلنا نريد أن نكون ودودين. أعتقد أن المعركة الكبرى هنا هي مجرد محاولة التعامل بودّ مع هؤلاء الناس. عليك أن تحاول -فهذه هي الطريقة الوحيدة لمحاربة القتال- إقامة حكومة ديمقراطية. لن ينجح الأمر إذا كنت تطلق النار عليهم فقط. لقد عاشوا بهذه الطريقة منذ قرون. فهل يمكن تغييرها في سنة؟ كل ما تستطيع فعله هو المحاولة».

في الجهة الجنوبية من المدينة سقط إطار إحدى عربات البرادلي، ووقفنا في الطريق في حرارة الصيف، والجنود يلوّحون لتحريك الهواء، وهم يحملون بنادقهم في وضعية الاستعداد، بينما استلقى الميكانيكي على الأرض القذرة وبيده مفتاح. بدأت محادثات متقطعة مع عراقيين كانوا يمرّون أمامنا، وسررت لمعرفة أنني لن أبقى وحدي أكثر من ثوانٍ

قليلة. وبعد ذلك، سمعنا بجهاز اللاسلكي أن سيارة مفخخة تجول بالمنطقة. وبعد ساعة انتقلنا فيما لفت نظري دورية محترفة، وأسرعنا على امتداد الطريق السريع جنوب المدينة، حيث كانت المتفجرات محلية الصنع كثيرة بشكل خاص. كان ماك كيسن ينظر بشدة إلى كل كومة نفايات أو كلب ميت على جانب الطريق. كانت الأرض مستوية والريح تحمل الغبار، وكانت خطوط أشجار النخيل تمتد عن بعد، وزهور دوّار الشمس تذوي على سوقها.

توقفنا عند مسارات السكك الحديدية، قرب قناة زرعت بالبردي. كان جزء من الطريق قد نسف في مكان قريب من هنا قبل أسبوعين. وكان ثمانية حراس عراقيين وحيدين يحفرون خندقاً في الأوساخ الموازية للسكك. توقف الأمريكيون وأرادوا الحديث، لكن لم يكن معهم مترجم. حاول أحد الجنود أن يشرح للحراس: «فكرة جيدة، لكنه يقابل الطريق الخطأ. أنتم تحتاجون أن تتوجهوا نحو الطريق».

كان المنظر مثيراً للشفقة؛ فقد استغرق حفر النفق كثيراً من الجهد والعرق، لكن التعزيزات من أكياس الرمل والخشب المعاكس وضعت بجانب شيء لا قيمة له. كان الرجال يبدون هزيلين ومسنّين للقيام بهذا العمل، بعضهم كان أشيب الشعر، وكانوا يرتدون قطعاً مختلفة من الملابس العسكرية، وبعضهم لا يرتدي أحذية نظامية، ولم يكن أي منهم يرتدي سترة واقية من الرصاص. كانت حمايتهم الوحيدة هي أسلحة AK - 47. وكان المتمردون يملؤون المنطقة، وفي أثناء أسابيع قليلة سيُقتل هؤلاء الحراس أو أمثالهم بالجملة في هجمات يومية لا يملكون تجاهها وسيلة للدفاع عن أنفسهم.

كان ماك كيسن على اللاسلكي في طريق العودة إلى القاعدة يضحك على مواقع القتال الجديدة. وشرح عراقي بالإشارات أنه قد حدث إطلاق النار على وحدة قريبة قبل دقائق. قال ماك كيسن: «لست مستغرباً، هذا يحدث في الغالب».

رفع الأمريكيون أصابع الإبهام في إشارة لنظرائهم على أنهم قاموا بعمل رائع، وتوجهوا عائدين إلى القاعدة. وتابع العراقيون الحفر.

في تلك الليلة تناولت عشاء من الوجبات الجاهزة حول طاولة في مركز العمليات التكتيكية الذي تديره فرقة تشارلي، مع بريور وملازمي فرقته والنقيب الجديد. كان مارك

لاهان قد عاد إلى ألمانية، وأفصح لي بديله كارل ويذيوينغتون، وكان في التاسعة والثلاثين من عمره عن رأيه في الناس الذين جاء الأمريكيون لتحريرهم قبل خمسة عشر شهراً: «أتى عراقي إلي وقال: إن انتظار الازدحام المروري العسكري يزعجهم. فقلت له: إن لم تفجرونا بالسيارات المفخخة، فسنترككم تمرّون».

كان الناس الجالسون حول الطاولة، من مدن صغيرة في جورجيا ومينسوتا ونورث كارولينا، جميعهم يشاركونه الرأي: فبعد العمل هنا أكثر من سنة استنتجوا أن العراقيين غير جديرين بالثقة، ولا يقولون الحقيقة، ولا يستطيعون التفكير بعقلانية، ولا يظهرون أي مبادرة. توصل بريور بعد تردّد للاعتقاد بأن الدين، ومعاملته للنساء وجبريته واسعة الانتشار، كان عقبة مهمة في وجه الديمقراطية في العراق، وأن الأمر سيتطلب سنوات وسنوات. بعد أن يترك قيادة سريّته سيذهب للدراسة سنة في زمالة للجيش في مدرسة هارفارد كينيدي الحكومية، وتخيل أن بقية الطلاب سيظنون أنه عنصري يميني إذا تجرأ على ذكر هذه الدروس القاسية التي تعلّمها.

قال ويذيرينغتون: «في أثناء حرب فييتنام، كان الأمريكيون ضد الجنود وضد الإدارة، أما هنا فعلى الأقل الشعب يؤيد الجنود، وإن كانوا لا يؤيدون الإدارة».

قال بريور: «على الرغم من أن هذا يختلف عن موضوع أبو غريب»، فحين كان في بوسطن في شهر نيسان، رأى مظاهرات ولافتات أحبطته.

قال ويذيرنغتون: «لقد سئمت القراءة عما فعله خمسة أشخاص لحفنة من العراقيين الأوغاد» في أحد الأيام بينما كان يسير في قافلة في المحمودية، كان الأطفال مصطفّين في الشوارع يحملون صحفاً تظهر صوراً من سجن أبو غريب. «أعني أن ما قاموا به كان خطأ. لكنه لا يمثلنا».

وقال بريور: إننا إذا قسنا على ذلك ما حدث في أبوغريب، فإن تشويه المقاولين في الفلوجة يمثل العراقيين. و«سيكون من اللطيف أن نعرّف الشعب الأمريكي أن سبب المشكلات هنا ليس فقط نقاط الضعف المتعلقة بثقافة الأمريكيين، وإنما نقاط الضعف المتعلقة بثقافة هؤلاء الناس أيضاً». وأضاف: «يمكننا تغيير ثقافة. علينا أن نعتمد ذلك، ونعتمد عليه، ونعتمد

عليـه. يريـد الأمريكيون أن ينتهي الأمـر في أثناء ثلاثة أشـهر. إذا كان الناس يقتلون، فتباً لذلك. وهذه نقطة ضعف ثقافية».

جلس ويذيرينغتون يتأمـل: «أكره هؤلاء الأوغاد. المسـلمون لا يسـتحقون. أنـا لا أهتم بالعراقيين هذا حسن، لكنهم مسلمون».

قال بريور بأسـلوبه الجامد: «العريف يقصـد أن هناك كثيراً مـن التحديات التي تعوق فهمنا لبعضنا».

كان الجنود في فرقة تشـارلي يفتخرون بما قاموا به. وقد أخبرني عريف اسـمه جيمس جيت أن ضبط النفس والاحترام الذي أظهرته السـريّة، مقارنة بالوحـدات الأخرى التي اسـتخدمت تكتيكات أكثر قسـوة، كانا الطريقة المثلى لكسب العراقيين الذين لا يزالون على الحياد. كان هذا هو الشـيء الأهم للفوز بالحرب، وليس تحويل الأصدقاء أو الحياديين إلى أعداء. كان ذلك أهم من القبض على الأشرار. كان بريور سعيداً أنه في أثناء سنة الاحتلال لم يقتـل من جنوده إلا واحد، وأن اثنين فقط اضـطروا لإطـلاق النار على العراقيين. وحين كنـا وحدنا فيما بعد، ذكّرته بالحديث عن الدليل والطريقة المناسـبة التي كنت قد سـمعته يقدّمهـا قبل نحو سـنة في محطة الوقود في الزعفرانية. وافترضـت أنه لـن يقدّمها الآن في نهاية جولته الطويلة.

هزّ بريور رأسه. «في أعماق قلبي، أؤمن أن الجميع أمريكيون. أنا مثالي تماماً، جورج، كل ما قلته لك في شهر آب، لم يتغير منه شيء. ازداد إحباطي من الشعب العراقي. لكن موقفي في الرغبة في إصـلاح هذا المكان لم يتغير. لا أسـتطيع أن أتخلـى عنهم لمجرد أنني محبَط. مازلـت أقول ذلك الخطاب حتى اليوم». لكن بريور قال: إنـه لن يقوم بإخبار العراقيين بما أخبرني به الليلة؛ لأنه لا يريد أن يخسر ثقتهم. «كل ما أخبرتك به في شهر آب كان من قلبي، لكنني محبط؛ لأنهم لم يعودوا (أشخاصاً لطفاء) في نظري. لكنني مازلت أحب بلادي. وما زلـت أؤمن بالخدمة العامة، ومازلـت أريد خدمة أمتي، وجزء من خدمتـي لأمتي أن أخدم الأمم الأخرى».

في نهاية شهر حزيران عدت إلى بغداد لحضور تسليم السيادة. تم ذلك في حفل صغير في المنطقة الخضراء قبل يومين من الموعد المقرر، في 28 حزيران، ودون إعلان؛ لتفادي أي هجمات. وبعد الحفل أسرع بول بريمر وكبار مساعديه إلى المطار، وغادروا العراق. كانت النهاية المفاجئة لسلطة الائتلاف المؤقتة متوافقة مع حياتها القصيرة.

وكانت الحكومة الانتقالية لرئيس الوزراء إياد علاوي، التي كان المفروض أن يختارها فريق الأمم المتحدة برئاسة الأخضر الإبراهيمي، هي في الواقع صفقة بين واشنطن ومجلس الحكم، وبمباركة آية الله السيستاني. بدا أن الشعب مستعد أن يعطيها فرصة. في يوم واحد قبل التسليم بأيام قليلة، مات مئات الأشخاص على الأقل في أنحاء مختلفة من العراق. أصبحت التفجيرات والاغتيالات جزءاً من الحياة اليومية، وأي تغيير يمكن أن يكون نحو الأفضل.

زرت عدة مكاتب حكومية ووجدت العراقيين مصممين على تولي المسؤولية الجديدة التي اعتقد معظمهم أنها كانت يجب أن تكون مسؤوليتهم منذ البداية. كان كل مسؤول وكل وزير وكل شرطي يخاطر بحياته لمجرد الخروج من بيته صباحاً. سألت رائد جوحي، القاضي الشاب الذي أصدر مذكرة اعتقال الصدر الذي يقوم بالتحقيق مع صدام حسين في مكتبه بمحكمة الجنايات المركزية عن السبب الذي جعله يخرج للعمل كل يوم. وكان قد نجا من ثلاث محاولات اغتيال.

قال جوحي، وانحنى للأمام ورمقني بنظرة: «إذا بقيت في البيت وبقيت أنت في البيت، وبقي غيرنا في البيت، فمن سيبني العراق؟ هذه معركة ياسيدي، وجميعنا جنود في هذه المعركة، وليس هناك إلا خياران: إما أن نربح المعركة، أو أن نموت، ليس هناك خيار ثالث».

10

حرب أهلية؟

أنشــأ الدبلوماســيون الأوروبيون العراق في باريس بعد الحرب العالمية الأولى مكوناً من ثلاث محافظات عثمانية: الموصــل وبغداد والبصــرة. وحسـب اتفاقية سايكس بيكو السرية عام 1916 بين بريطانية وفرنســة، فقد كانت الموصل ستصبح تحت السيطرة الفرنسية بعد الحــرب؛ لاعتقادهــم أن فيها حقول نفط ذات قيمة، لكن كليمنســو ســلّمها بلطف إلى ليود جورج. اعتقد المفوض الســامي الأول للانتداب البريطاني، الســير آرنولد ويلســون (ســلف بول بريمر في العراق بشــكل من الأشــكال)، منذ البداية أن العراق ممزق، بحيث يصــعب أن يكــون دولة مســتقلة ناجحة. كان الأكراد في الجبال الشــمالية، وهــي جزء من محافظة الموصل القديمة، يتوقعون تحقيق دولة كردستان المستقلة بعد الحرب، وفجأة وجدوا أنفسهم محكومين من بغداد باســم كيان عربي شــامل. كتب ويلســون إلى لندن: الأكراد «لن يقبلوا حاكماً عربيًّا أبداً». وكانت هناك مشــكلة أخرى، فالغالبية الشــيعية لن تقبل الحكم السنّي، وفي الوقــت ذاته، فإن الضــباط والطبقــة الإداريــة في الإمبراطورية العثمانية من الســنّة، «فليس هناك بعد أي تصوّر لشكل حكومة لا تشمل الهيمنة السنّية». وقد تم حُذّرت مساعدة ويلســون الأســطورية، غيرترود بيل، التي كانت تســافر وتكتب في المنطقة ســنوات، من قبل مبعــوث أمريكي: «أنت تتحركين في وجه أربعة آلاف ســنة مــن التاريخ، إذا كنت تحاولين أن ترســمي خطــاً حول العراق وتدعيه كياناً سياســياً! كانت الدولة الآشــورية تنظــر دائماً إلى الغرب والشــرق والشــمال، والدولة البابلية تنظر إلى الجنوب. لم تكن أبداً كياناً مســتقلاً. أنت بحاجة إلى وقت لدمجها، ويجب أن يتم ذلك بالتدريج. ليس لديهم مفهوم الأمة بعد».

كان البريطانيون في العراق، وفي كل مكان، يتحدّون ســخافة ما يصــنعون. وســرعان ما شــغلوا بمشــكلة أخرى أكثر إلحاحاً من إمكانية نجاح العراق، مشكلة بدا أنها توحّد الأكراد والشــيعة والســنة، وهي تمرّدهم ضــد الحكم البريطاني. في حزيران 1920، بدأت ثورة بين

العشائر الشيعية قرب المدن المقدّسة وامتدّت إلى السنّيين في الفلوجة، بينما كان الأكراد في الشمال يسبّبون المتاعب منذ أشهر. كانت مستويات القوات البريطانية غير كافية لإبقاء الأراضي الواسعة تحت السيطرة، وفي لندن كانت هناك شكوك خطيرة حول حكمة الاحتلال. وقد ظهر عنوان بارز في صحفية التايمز «من سيئ إلى أسوأ في بلاد ما بين النهرين». وتطلب قمع الثورة قوات إضافية من الجيش الاستعماري الهندي، وقصف جوي بريطاني، ومقتل ستة آلاف عراقي ونحو خمس مئة بريطاني.

وحسب الوصف الممتاز للمؤرخ ديفيد فرومكين لتلك الحقبة، في كتابه (سلام ينهي كل سلام)، وجد ويلسون الثورة غير مفهومة: «ما نواجهه هو فوضوية بالإضافة إلى التعصب. ليس هناك إلا القليل من القومية إن وجدت». كانت الحكومة في لندن ترى أيدي متآمرين مختلفين من خارج العراق: كالأتراك، والإسلاميين، والألمان، وشركات النفط، والبلاشفة، واليهود. لكن غيرترود بيل فهمت قوة القومية العربية في العراق، وعرضت على وينستون تشرشل أن يتم حكم العراق بشكل غير مباشر، وذلك بوضعه تحت الحماية، وإشراك النخبة السنّية العثمانية في إدارة الدولة الحديثة. وفي شهر تشرين الثاني 1920، كتبت إلى والدها أن المجلس الجديد الذي يهيمن عليه السنة في بغداد «يجمع كل الشيعة تقريباً ضده، أولاً لأنه بدا كسلالة بريطانية، وأيضاً لأنه يضم عدداً من الشيعة أقل من السنّة. والشيعة، كما كنت ألاحظ في الغالب هم إحدى المشكلات الكبرى». أما السنة بدورهم فقد كانوا «خائفين أن يغرقهم الشيعة»، كتبت بعد شهرين: «والحكومة الحالية، ذات الأغلبية السنية، لا تفعل شيئاً للمصالحة مع الشيعة».

ماتت بيل ودفنت في بغداد عام 1926، على الأرجح منتحرة، دون أن تحل المشكلة التي ساعدت في خلقها. فقد وقعت الغالبية الشيعية والأكراد تحت حكم الأقلية السنّية، أولاً في أثناء مدة الانتداب، ثم بعد الاستقلال عام 1932. وقد عمل الشيعيون وقليل من الأكراد في حكومات عراقية متعددة في حقبة الحكم الملكي، بمن فيهم شيعة شغلوا منصب رئيس وزراء، وفي العراق الجمهوري بعد انقلاب عام 1958 الذي أطاح بالملك. وكان الحزب الشيوعي العراقي القوي شيعياً في غالبيته، وفي السنوات الأولى لحزب البعث شغل الشيعة مناصب

مهمة. لكن في أثناء العقود التي حكم فيها حزب البعث، بدأ السنّة بالهيمنة، وركزت الفئة الحاكمة في عهد صدام على زمرة من الأقارب والعلاقات العشائرية من أنحاء تكريت. وحين أصبح الإسلام قوة سياسية بين شيعة العراق في أواخر سبعينيات القرن العشرين، قمعهم صدام بوحشية، وانتشر الوعي الشيعي في جنوب البلاد. أما الأكراد، فلم يتوقفوا عن القتال تماماً منذ إنشاء الدولة. لذا كان هناك قلق أن الاحتلال الأمريكي سيرث ثلاثة أجزاء لا تتفق أبداً مع بعضها، ومقدّر لها أن تحتك حتى تشتعل إن لم تكن منفصلة.

لقد ذكّر التمرد الذي أعقب الغزو الأمريكي بعض المؤرخين الهواة بثورة عام 1920 ضد البريطانيين. لكن كان هناك اختلاف أساس، وهو أن ثورة عام 1920 بدأ بها شيوخ العشائر الشيعية ؛ أما بعد الغزو، فقد كان الشيعة الذين حملوا السلاح ضد الأمريكيين قلة باستثناء ميليشيا الصدر. وكان السبب واضحاً: وهو أن ورثة آرنولد ويلسون وغيرترود بيل، المحافظين الجدد في واشنطن وسلطة الائتلاف المؤقتة في بغداد، كانوا قد قرّروا هذه المرة أن يجعلوا السلطة بأيدي الشيعة. لم يكن ذلك يتعلق بحكم الأغلبية فقط؛ فالعرب السنة في العراق كانوا يعدّون من أهم مصادر التذمر في العالم العربي؛ لأفكارهم العنيفة المعادية للغرب. وقد كان التمرد الأساس الذي بدأ بعد سقوط بغداد بوقت قصير، واستمر حتى هذا اليوم له صفة سنية دائماً.

في أثناء السنة الأولى بعد الحرب، رفض كثير من العراقيين استخدام مصطلحات السنة والشيعة والأكراد. وقد أخبرني الناس أن عبارة «المثلث السني» كانت تعد غير لائقة، وأن تلك المنطقة كانت من اختراع الأمريكيين. وكلما كنت أذكر إحدى الفئات العرقية التي لا تذكر، كان هناك من يخبرني (عادة رجل مهذب أشيب الشعر يرتدي سترة رسمية) أن هذه أفكار مستوردة من الغربيين والعرب المتطرفين، فلم يكن أحد يسأل عن السنة والشيعة والأكراد، إذ كان جميع العراقيين يعانون بشكل متساوٍ تحت حكم صدام، وكان للرجل نفسه عدد من الأقارب والجيران المتزوجين زواجاً مختلطاً. لم يكن من الممكن اشتعال حرب أهلية في العراق؛ لأن العراقيين لم يكونوا يفكّرون بهذه الطريقة. كنت دائماً أجد نفسي أفكر: ليت هذا يكون صحيحاً.

لقد أصبح العراق دون غطاء حكم الحزب الواحد مكاناً للمطالب العرقية المهيّجة والمتنافسة. وكانت زيادة التدين بين الشيعة عرضاً سياسياً أيضاً، يزعج حتى السنة (بالإضافة إلى السنيين العلمانيين) الذين لم يرغبوا في السيطرة. ومع ازدياد تعرّض المسؤولين وقوات الأمن ورجال الدين والحجاج الشيعيين للهجمات، طغت الصفة الطائفية للتمرد وللسياسة العراقية بشكل عام على النوايا الحسنة لأولئك الذين كانوا يصرّون أنهم جميعاً عراقيون. كما أن إخفاق سلطة الائتلاف المؤقتة في نزع سلاح الميليشيات (كما تعهّد بريمر أكثر من مرة)، ترك كل مدينة تقريباً تحت السيطرة الفعلية لإحدى الجماعات العرقية بدلاً من الحكومة. في بعض الأحيان كان يبدو أن حرباً أهلية لا يخوضها إلا السنّيون قد بدأت. أما الصبر الكبير للشيعة في عدم الثأر (باستثناء حملة اغتيال البعثيين السابقين) فلم يكن له علاقة بالقومية، وإنما بمعرفتهم أن قوة الأغلبية ستصبح قريباً في أيديهم. كما كان العنف العام والتفجيرات الإرهابية تنتشر أحياناً على طول الخطوط الشمالية، حيث يلتقي العرب والأكراد. كان انفصال الأكراد قوة واضحة لدرجة بدا معها أن السؤال الوحيد هو هل سيبقى الأكراد في العراق الجديد أو لا؟.

نظر بعض المراقبين الأمريكيين مثل ليسلي غيلب الرئيس السابق لمجلس العلاقات الخارجية، وبيتر غالبريث، الدبلوماسي السابق الذي كان مستشاراً للأكراد، إلى الفوضى وقرّروا أن تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق مستقلة ذاتياً هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يمنع اندلاع حرب أهلية. كان هذا يتعارض تعارضاً مباشراً مع السياسة الأمريكية الرسمية بوجوب المحافظة على «السيادة الإقليمية» للعراق. في رأي غيلب، كان التقسيم هو الحل لمشكلات أمريكة في العراق: اقطعوا المركز السني، واتركوه، وركّزوا القوات في الجنوب والشمال، وادعموا الديمقراطيات بين الشيعة والأكراد. وعندها بإمكان السنة، دون النفط في صحرائهم، أن يقرروا إن كانوا يريدون التعاون أو التلاشي».

لفت هذا التصوّر نظري؛ لأنه بعيد جدًّا عن قوام الحياة في العراق. فقد رصفت البلاد معاً قبل نحو قرن؛ ليس هناك إلا قليل جدًّا من العراقيين الأحياء الذين يذكرون أي شيء عن الزمن الذي سبق وجود العراق. والعقود التي عاشها العراقيون معاً نسجت روابط شخصية لا تعدّ وأوجدت شعوراً قومياً آذاه صدام بشدة، ولا سيما بين الشباب، لكنه مع ذلك كان حقيقياً.

ليس هناك شيء حتمي بشأن انقسام العراق. وإذا حدث وانقسم، فإن ذلك سيكون بسبب حماقة قادته. حذّر الأخضر الإبراهيمي، مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق، الذي سبق أن رأى حروباً أهلية في لبنان وفي بلده الجزائر، العراقيين قائلاً: «لا تحدث الحرب الأهلية لأن شخصاً ما اتخذ قراراً بأنه سيشن حرباً أهلية. إنها تحدث بسبب تهوّر الناس وأنانيتهم، ولأن الجماعات تفكر في نفسها أكثر من تفكيرها في مصلحة البلد».

ومع مرور عام 2004 وما فيه من عنف، أصبح العراقيون يتحدثون بصراحة أكثر عن خطر اندلاع حرب أهلية. ظن بعض الناس أنها تحدث بالفعل، وقال آخرون: إنها قد تحدث بشرارة واحدة. واتفق الجميع تقريباً، أنه إذا بدأت حرب أهلية، فالمكان الأكثر احتمالاً لحدوثها فيه هو مدينة كركوك ذات المزيج العرقي والغنية بالنفط.

كانت كركوك هي المدينة العراقية المفضلة لي. كانت حارقة في الصيف ومهملة ومليئة بالنفايات والاختناقات المرورية كأي مكان آخر في العراق. لكن منذ أول زيارة قمت بها إليها، وجدتها فاتنةً، وأحياناً ساحرة، حيث كنت أرى فيها حنين الماضي والتعقيد المخيف للحاضر متلازمين في كل شارع ضيق تقريباً، وفي قلب المدينة يكمن سرّ.

في زيارتي الثالثة والأخيرة لكركوك التقيت لونا داود.

كانت لونا في الرابعة والعشرين من عمرها حين قام صدام حسين بزيارة مفاجئة لبيتها، لكنها تصرفت كمراهقة. كان ذلك في مساء أحد أيام شهر تشرين الأول عام 1983. هبطت طائرتان مروحيتان في حقل مكشوف، وأحاطت الدبابات بالشوارع المرتبة لحي العرافة الذي تسكنه الطبقة المتوسطة، ويقطنه العاملون في شركة النفط، وظهر الرئيس عند الباب الخلفي لمطبخ داود محاطاً بحاشية كبيرة لحمايته. كانت حرب البعثيين الطويلة ضد الأكراد تشتد وظهر أن صداماً أراد أن يضمن ولاء العاملين في مصنع النفط المهم في كركوك. بعد عشرين عاماً، لا تزال لونا تشعر بالدوار حين تذكر زيارة صدام: كان وسيماً ببذلته العسكرية ذات اللون الزيتوني الداكن، وتوقف ليبدي إعجابه بالبيت ويطرح أسئلة ودّية. كانت رائحة عطره مميزة لدرجة أنها بقيت عالقة في اليدين اللتين صافحهما صدام

أياماً ولم تستطع لونا أن تزيلها بالغسيل، وكانت الرائحة عالقة في غرفة الجلوس بشدة لدرجة أن كان عليهم التخلي عنها.

رفض صدام تناول القهوة والشوكولا، لكن لفتت نظره لوحة لامرأة تسحب الماء من نهر تحت ظل الأشجار، كان شقيق لونا الذي يحارب في الصفوف الأمامية في الحرب العراقية الإيرانية، قد رسمها وطلب الرئيس أن يأخذها هدية. كانت عائلة داود من الآشوريين المسيحيين، لم يكونوا من العرب، وحين خاطب صدام والدة لونا باللغة العربية أجابت باللغة الإنكليزية التي تعلّمتها من المديرين البريطانيين لشركة النفط قبل تأميمها من قبل البعثيين عام 1972. فعنّفها صدام قائلاً: «لقد مضى ذلك الزمن. عليك أن تتعلمي اللغة العربية».

كانت هناك مقطورة رئاسية تقف في حديقة عائلة داود، واصطفّ الجيران؛ انتظاراً ليحين دورهم في الدخول ومقابلة الرئيس شخصياً. كانت تلك أيام مشرقة في العراق. وقدّم سكرتير صدام، برزان التكريتي، لكل من قدّم طلباً ثلاثة آلاف دينار من حقيبة مليئة بالنقود كانت معه. لكن لونا تندم دائماً؛ لأنها كانت خائفة جدًّا، فلم تدخل مقطورة صدام. دخلت أختها الأصغر فلّة، فخرجت تحمل المال وحصلت على عمل في شركة النفط. توسّل أحد أقارب لونا إلى صدام لإطلاق سراح أخيه الذي كان يمضي خمس سنوات في السجن؛ لأنه شبّه وجه أحد كبار البعثيين بوجه قرد. فأجاب صدام بأنه لا يستطيع التدخل في النظام القضائي. ثم خرج من المقطورة وأخبر السكان المجتمعين بأن العراق كان يحارب إيران؛ لحماية النساء العراقيات من قوات آية الله الخميني المندفعة. أقلعت الطائرات وافترض الجميع أن صداماً قد غادر كركوك. لكن المقطورة بقيت في حديقة عائلة داود، فقطع خط هاتفهم، وكان مطبخهم مليئاً برجال الأمن. ودون تفسير، طُلب من العائلة قضاء الليل في الطابق العلوي. وفي الثانية صباحاً، لم تكن لونا قادرة على النوم، فذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الأسفل نحو الحديقة. وكأنها في حلم، رأت صداماً يخرج من المقطورة مرتدياً ملابس بيضاء. وفي اليوم اللاحق كان قد رحل.

زار الرئيس كركوك ثانية عام 1990. لكن هذه المرة، حطّت طائرته المروحية في الساحة أمام مبنى المحافظة. في ذلك الوقت كانت لونا تعمل هناك محاسبة في قسم المالية. أعلن صدام عن حملة لتجميل كركوك، أي أن يتم تنظيف الحصن المسوّر، وهو الجزء الأقدم من

المدينة الذي يقع على تلة على حوض نهر «خاصة صو» أو «العظيم» من المدينة الحديثة، بدءاً بإخلاء العائلات الثماني مئة أو التسع مئة الأكراد والتركمان التي تسكن في بيوتها القديمة. في اليوم اللاحق، وصل خمسون مليون دينار إلى مكتب لونا من بغداد. كان أمامها خمسة وأربعون يوماً للبحث في سندات الملكية التي يعود بعضها إلى عام 1820، ودفع التعويض لمالكي البيوت التي سيتم إخراجهم منها.

لم يكن لعملية إخلاء حصن كركوك علاقة بتحديث المدينة. كانت تلك ذروة حملة استمرت أربعين عاماً عرفها العراقيون باسم التعريب. قام النظام البعثي في بغداد بترحيل عشرات الآلاف من الأكراد، من عام 1963 وحتى ليلة الغزو الأمريكي، حتى إن بعض المصادر الكردية تقول: إن عددهم بلغ ثلاث مئة ألف كردي من المدينة والمحافظة المحيطة بها، وأجبر الأقليات العرقية الأخرى على الخروج من بيوتهم، وجاء بعدد مماثل من العرب من الجنوب إلى كركوك. كان عمل لونا يقضي بتوزيع مبالغ مالية على العائلات التي تتم مصادرة منازلها، وتدقيق سجلات الملكية المتراكمة، والتعامل مع زحمة المبعَدين في مبنى المحافظة. لقد كانت بيروقراطية عاجلة للتطهير العرقي.

حين التقيت لونا في صيف عام 2004، كانت غير متزوجة، على عكس معظم النساء العراقيات، على الرغم من أنها كانت رشيقة، وحيوية في الخامسة والأربعين من عمرها، وكانت ترتدي ملابس غربية وتحمل نفسها بثقة. كانت لها عينان واسعتان وأنف حاد كالذي يظهر في تمثال من نينوى، وحين كانت تتحدث عن كركوك في عهد صدام، كانت ابتسامتها تظهر صفاً من الأسنان المعوجّة. قالت لي حين قابلتها في مكتبها: «إنها مأساة لا أريد أن أذكرها»، ثم بدأت بتذكّر كل شيء. قالت لونا: «لقد كانوا أناساً فقراء، كنت أرى في عيني كل من كان يأتي إليّ ليأخذ المال الجرافة القادمة لأخذ بيته». كانت الجموع التي تنتظر الإبعاد تملأ المدخل أمام مكتبها، فكانت النساء تصبن بالإغماء. ولأن الآشوريين المسيحيين كانوا يشكّلون أصغر المجموعات العرقية الكثيرة في كركوك ومن ثم أقلها خطورة، فقد كان لدى بعض المُبعَدين في مكتب لونا ثقة كافية بها ليلعنوا صداماً. وإذا طلبت الشرطة السرية من لونا تأخير الدفع لشخص ينوون اعتقاله، كانت تنبّه الشخص المعترض بهدوء؛ كي يغادر كركوك دون الحصول على المال.

في نهاية أحد الأيام الطويلة، اقترب مزارع كردي عجوز من مكتب لونا، فقدّمت إليه طلب موافقة يمنح الحكومة ملكية أرض عائلته مقابل بضعة آلاف من الدنانير. أنهيت الإجراءات ولم يبقَ عليه إلا أن يوقّع.

قال الرجل العجوز: «أريد بعض الماء أولاً». أعطته لونا كأس ماء، فوقّع على الأوراق، وسقط ميتاً أمامها.

قالت لي لونا: «الأشياء التي رأيتها لم يرها أحد».

قبل الغزو الأمريكي بأسابيع أرسلت الحكومة في بغداد أمراً سرّياً إلى المسؤولين في كركوك: أحرقوا فوراً كل الأوراق المتعلقة بخطة الإسكان المركزية، فقد كان هذا اسم ملطّف أطلقه النظام على حملة التطهير العرقي. كان البعثيون يحتفظون بالسجلات بدقة، فأشعل الموظفون خارج مبنى المحافظة ثلاث حاويات نفايات كبيرة مليئة بالأوراق واستمرت الشعلة نحو أربع وعشرين ساعة.

قرّرت لونا أن تتجاهل الأمر: «لا أستطيع إحراق هذه الأشياء، كيف يمكننا تعويض هؤلاء الناس إذا تم إحراق هذه الوثائق؟» لم يكن موقفها بدافع الإيثار فقط. كانت لونا من البعثيين (حيث كان ذلك من متطلبات العمل)، وأرادت أن تحمي نفسها من أي اتهامات باختلاس الأموال. كما أنها كانت فضولية حسب اعترافها. قالت لونا: «تعرف أنني أضع أنفي في كل شيء، أريد أن أعرف كل شيء». ولهذا كذبت على مديرها، وبدلاً من إحراق الملفات أرسلت بضع سيارات محمّلة بالأوراق إلى بيتها في العرّافة، وأطلعت عليها أختها فلة وأختاً أخرى غير متزوجة. وحين قابلت لونا، كانت معظم الوثائق محفوظة على سطح القاعة في مخزن مائل السقف تملك مفتاحه وحدها. كان في الداخل بحر من الأوراق يصل إلى طول الخصر لم يلفت انتباه المسؤولين العراقيين أو الأمريكيين بعد، مع أن بين الوثائق التي أنقذتها لونا كانت هناك رسائل سريّة تعرض الجهد المستمر لحزب البعث لتحويل كركوك من أكثر المدن تنوعاً إلى مكان يهيمن عليه العرب الموالون للنظام.

لم يكن ملف لونا يتحدّث عن الماضي فحسب، بل عن المستقبل أيضاً. فبعد الغزو أصبحت كركوك مسرحاً لصراع عرقي على القوة. كانت كركوك تشبّه بنيويورك، وفي أحيان أكثر،

بســرايفو. فكيفية تصــحيح العراق الجديد للظلم التاريخي الذي تســجله الملفّات هي التي ستظهر الكثير عن نوع الدولة التي اختار العراقيون أن يعيشوا فيها، أو إن كانت ستبقى دولة على الإطلاق.

في المخزن، خاضــت لونا بين الملفّات وانحنت لتفتش بينها بذكاء، كأم للكثير من الأبناء الذين يصــعب التحكم فيهم. صــرخت لونا: «انظر - انظر - كم عدد الناس؟ هذه الأرض - وهذه الأرض - كم عدد الناس؟». «كيف يمكنني أن أعمل في كل هذا؟ هل تعرف كم يوجد في عقلي؟ كل هذا! كل هذا! يجب أن أخرجه!».

كانــت كركــوك تقع قــرب ســفح جبــال زاغروس، علــى مقربة مــن الحــدود الجنوبية لكردستان، المنطقة المستقلة ذاتياً التي تحرّرت من سيطرة البعث عام 1991. في أثناء عقود القتال المتقطع بين الجيش العراقي وعصــابات البشمركة الكردية، اعتبر النظام «كركوك» منطقة حساسة من الناحية الإستراتيجية، لوجود حقول النفط خارج المدينة التي تضم نحو 90%مــن احتياطــي العراق كاملاً. كان برنامج التعريب يهدف جزئياً إلى ضــمان ســيطرة بغــداد على المــوارد القيّمة. لكن جوهــر التعريــب كان عقديًّا. كان تاريخ كركوك وســكانها يشــكّلان تحدياً للأحلام الفاشــيّة لحزب البعث العربي الاشــتراكي. فقد كانت مدينة ذات كثافة ســكانية كبيرة ومتنوعة على طريق تجاري بين القســطنطينية وبلاد الفرس، ولم تكن للحضــارات التي تعاقبت فيها صــلة بالمجد العربي. كان السكان يعيشون في أحياء متقاربة، حول أسواق المدينة وحصنها، وكان الزائر يجد تنوعاً في الوجوه والثياب، وسلوكاً متسامحاً، ووجوداً علنياً للنســاء وحياة شــارع متقنة عدة لغات في المدينة المختلطة. كانت كركوك تبدو أقرب إلى إستنبول منها إلى بغداد.

أخبرني مؤرخ محلي مسنّ، اسمه ياسين علي الحسين، أن «كركوك» بنيت على يد العبيد اليهود في الأســر البابلي. وعلــى الرغم من أن الباحثين يشــكّكون في تلك الرواية، كان عدة آلاف من اليهود يسكنون خلف البوابات ذات الأقواس في الشوارع الخلفية المتعرجة للمدينة، حتــى قيــام إســرائيل عام 1948، وكان كثير منهم يســكنون قرب الســوق القديمــة القريبة من الحصــن. وهناك كنيســة أرمنية تعود إلى الألفية الأولى (كان المســيحيون يشــكّلون ما

يقارب 50%من السكان). في القرن الرابع قبل الميلاد لاحظ كسينوفون وجود مجموعة عرقية قد تكون الأكراد. وقد هاجر التركمان من آسية الوسطى، وهم مختلفون عرقياً عن الأتراك، إلى المنطقة قبل نحو ألف سنة. وفي أثناء الحكم العثماني الذي أنشئ في الحصن في القرن السادس عشر، واستمر حتى وصول القوات البريطانية في أثناء الحرب العالمية الأولى، أصبح كثير من التركمان المتعلمين ذوي مناصب إمبراطورية، بينما كان الرعاة الأكراد القادمون من الجبال الجنوبية يعملون عمالاً. قبل أكثر من قرن، بدأ المهاجرون العرب يستوطنون قرب كركوك، غالباً في الأراضي الزراعية غرب المدينة وجنوبها، وكان هؤلاء «العرب الأصليون» متميزين في كل شيء تقريباً عن أولئك الذين جاء بهم النظام البعثي. وقد ذكر إي. بي. سوان، موظف الاستخبارات البريطاني الذي تنقل عبر بلاد ما بين النهرين متخفياً بهيئة واحد من السكان المحليين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى أن: «(كركوك) لذلك عبارة عن مجموعة من جميع أعراق شرق تركية -اليهود والعرب والسوريين والأرمن والكدانيين والأتراك والتركمان والأكراد- ومن ثم، فهي تتمتع بقدر من الحرية ونبذ التعصب».

أصبح التعصب إرث التطهير العرقي. وبعد سقوط النظام، كانت هناك منافسة عنيفة على كل جوانب تاريخ كركوك. الأكراد والعرب والتركمان، جميعهم ادّعوا الأسبقية العرقية في المدينة التي لم يكن فيها إلا التعدّد. (حسب إحصاء عام 1957 للسكان، الذي أجري قبل بدء التعريب، كان في المدينة 40% من التركمان و35% من الأكراد). وقد رفض المؤرخ المسن أن يجيب عن سؤالي إن كان التركمان قد جاؤوا إلى كركوك قبل العثمانيين أم بعدهم؟ كان السؤال حساساً جدًّا. أما علي بياتلي، وهو محام تركماني، فقد أصرّ على أن قومه ينحدرون من السومريين مباشرة، ولهذا فهم أول من سكن «كركوك»، وأن لهم حقوقاً غير محددة. وقد كان لدى السياسيين الأكراد شعاران تم تصميمهما لإنهاء أي خلاف: «كركوك هي قلب كردستان» و«كركوك هي كالقدس للأكراد». في تلك الأثناء كان العرب غاضبين من فقدانهم للقوة فجأة عقب الإطاحة بصدام. كانت نظرة لونا داود لمستقبل مدينتها كئيبة. وقد قالت: «ستكون هناك حرب حتى النهاية، الجميع يقولون: إن كركوك لهم: العرب والأكراد والتركمان، فلمن هي؟ نريد أن تبقى أمريكة هنا وتغيّر العقول، وتعلّم معنى الحرية والإنسانية. هذا ما لا يعرفه شعبنا. إنهم حيوانات».

على بعد خمسة عشر ميلاً من المدينة، على طريق نحو الشمال الغربي، التقيت بمحمد خضر، وهو مزارع كردي يملك مزرعة خضراوات قرب مجمع سكني يبدو مدمراً. عاد خضر من أربيل إلى المنطقة مؤخراً، وهي مدينة في كردستان العراق حيث عمل جزاراً. بعد الغزو، تبع هو وزوجاه وأولادهم العشرة وخمس وعشرون عائلة أخرى الجنود الأمريكان والأكراد جنوباً نحو العراق بهدف استعادة أمشاو، وهي قريتهم وقرية أجدادهم من العرب الذين استوطنوها. أخذني خضر الذي كان يرتدي السراويل الكردي التقليدي الذي يكون ضيقاً عند الخصر والكاحلين وعريضاً حول الساقين، إلى الهضاب المحيطة. كان الفصل ربيعاً وفي أثناء العشب الأخضر كانت هناك بقع من الأزهار البرية الصفراء والورود الحمراء التي تعد رموزاً حزينة في الشعر الكردي.

قال خضر، مشيراً إلى منحنيات يغطيها العشب على الهضبة: «هذه هي القرية»، كانت قطع الفخار والطين ملقاة في الأوساخ. «كان هذا بيتنا. هنا بالضبط». وفي أعلى التلة، كان هناك حقل من شواهد القبور المكسّرة التي تشير إلى مقبرة القرية.

في عام 1961، بدأت المرحلة الأولى للحرب الطويلة بين الحكومة العراقية المركزية والبشمركة الكردية. طالب الثوار الأكراد بالحقوق اللغوية والثقافية، وبالسيطرة على الشؤون الأمنية والمالية للمنطقة، وبالسلطة على كركوك ونفطها. وفي عام 1963، عقب الانقلاب الذي جاء بالبعثيين إلى السلطة أول مرة، هاجم الجنود العراقيون أمشاو، والقرى الأخرى. كان خضر في الثالثة من عمره. قال خضر: «أذكر ذلك كحلم حلم مزعج، يبكي فيه الأطفال ويقاتل فيه الناس ويموتون». وفرّ القرويون إلى الشمال، حيث أُجبروا على التراجع إلى أربيل. وتم تهديم أمشاو.

سألت خضراً إن كان قد تم تعويض عائلته عن خسارتها؟

قال خضر، وهو يحدّق إلي بدهشة: «هل تسخر مني؟ لقد أخذوا كل شيء. هل ترى حالي الآن؟ هكذا غادرنا تماماً دون بطانيات، ولا شيء».

ومدة عقد من الزمن كانت الحكومة المركزية والعصابات الكردية تراوحان بين القتال والتفاوض. لم تتغير القضايا، حتى الآن، ولم تكسر حلقة عدم الثقة وسوء التقدير والغدر:

مطالب كردية، رضوخ عربي بسبب الضعف العسكري، مطالب كردية متزايدة، غدر عربي من موقع قوة. وبعد أن عاد حزب البعث إلى السلطة عام 1968، تعهّد صدام نفسه، في محادثات سرية مع القائد الكردي مصطفى برزاني، أن يقدّم النظام كل ما كان يطلبه الأكراد تقريباً، بما في ذلك التصويت في المستقبل على وضع كركوك بعد إحصاء للسكان. كانت المساكن المجاورة لحديقة الخضراوات التي التقيت فيها بمحمد خضر قد بنيت في أثناء هذا الصلح بزعم أنها لإسكان الأكراد العائدين فيما كان سيسمى أمشاو الجديدة. لكن الأراضي المحيطة بأمشاو كانت قد وزّعت على العشائر العربية من الجنوب. وعندما أخفقت المفاوضات واندلع القتال من جديد، تم إعطاء المنازل في أمشاو الجديدة إلى العرب. وفي عام 1975، بعد أن وقع شاه إيران -بناءً على طلب هنري كيسنجر- اتفاقية مع بغداد وسحب الدعم الإيراني للأكراد، انهارت المقاومة. وبدأ النظام الغني بالنفط الذي لا يمكن مقاومته من الناحية العسكرية، بتعريب كركوك بشكل جدّي.

صبيحة حمود وزوجها من العرب الذين انتقلوا مع عائلاتهم من بغداد إلى كركوك في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وتم إغراؤهم بمنزل مجاني وعشرة آلاف دينار. قالت صبيحة: «يعرف العرب أمثالنا بالمستفيدين، أتينا إلى هنا فقط لنسكن في بيت. كان زوجي يعمل في وزارة الإسكان، لكن راتبه لم يكن يكفي لشراء بيت». كانت الغالبية العظمى من المستفيدين مثل حمود من الشيعة، وكان كثير منهم موظفين في الجيش، أو جهاز الاستخبارات، أو الخدمة المدنية. وكان المنزل المقدّم إلى عائلة حمود في حي للطبقة الوسطى اسمه حي تيسان، على الطريق من قاعدة كركوك الجوية. كان ذلك الحي للتركمان بالكامل تقريباً إلى أن قرّر النظام، في أواخر الحرب العراقية الإيرانية أن التركمان يشكلون خطراً أمنياً على القاعدة. ولم تكن هناك سياسة لتهجير التركمان كما هي حال الأكراد؛ لذا فقد انتشرت العائلات -التي يبلغ عددها خمسة أو ستة آلاف- التي اشترت في تيسان في أنحاء المدينة. أقنعت حمود نفسها أنه قد تم تعويض المالك السابق لمنزلها بشكل جيد، وأنه لا يحمل لها ضغينة.

وعلى بعد عدة أبواب يقع المنزل الذي كان لعائلة فخر الدين أكبر، وهي امرأة تركمانية كانت تعمل مع لونا في قسم المالية. كان والدها قد بنى المنزل المكوّن من طابقين وتسع

غرف. وفي أحد الأيام، في عام 1988، استلمت العائلة رسالة حكومية تعلن عن إنشاء خط للسكك الحديدية في الحي. تتذكر أكبر: «أعطونا مهلة ثلاثة أيام، في اليوم الثاني، كان رجال الشرطة يقفون عند الباب، فأخذنا أثاثنا وذهبنا للإقامة عند عمتي على الطريق إلى بغداد». وأعطيت العائلة مبلغاً من المال يمثل أقل من ربع قيمة المنزل. لم يتم إنشاء خط السكة الحديدية. وقبل سنوات، قرّرت أكبر، بينما كانت تحضر جنازة في حيّها السابق، أن تذهب وتنظر إلى البيت للمرة الأولى منذ طرد عائلتها: «قلت لنفسي: فلأمشي أمام الباب. لن أكلّمهم، لمَ علي أن أكلمهم؟ أنا لا أعرفهم، وهم لا يعرفونني». كان المستفيدون الذين حصلوا على البيت قد طلوا بابه الخشبي الجميل باللون الأزرق.

اتخذ التطهير العرقي في كركوك منحى تدريجياً، لكن البعثيين كانوا يتبعون خطة شاملة. كانت الخطة تقضي بجعل كركوك مدينة ذات غالبية عربية، وإحاطتها بحزام أمني من الأحياء العربية، خاصة على الأطراف الشمالية والشرقية الحساسة، المواجهة لكردستان. وحسب هذه الخطة، منع القانون الأكراد من بناء البيوت أو شرائها أو تحسينها في كركوك. ولم يكن لأي عائلة كردية لا تستطيع إثبات إقامتها في كركوك منذ إحصاء السكان عام 1957 أي حق قانوني بالسكن فيها، مما يعني طرد آلاف الأكراد إلى معسكرات للاجئين في كردستان أو مناطق الجنوب القاسية. وبعد عام 1980، منع تدريس لغات أخرى غير العربية في مدارس المدينة. وتم حرمان الأكراد وغير العرب في كركوك من الوظائف الحكومية، قبل الحرب كان في شركة النفط أحد عشر ألف موظف منهم ثمانية عشر من الأكراد، حسب مسؤول كردي. وتم ترحيل عائلات البشمركة الكردية، وغيرهم ممن يشكلون تهديداً للأمن. أعلن أن الأحياء الكردية غير قانونية وتم هدمها لتوسيع شارع، أو بناء مصنع للذخيرة أو مجمع رياضي، أو لتوسيع قاعدة، لكن السبب الحقيقي كان دوماً خفض عدد السكان الأكراد واستبدال العرب بهم.

خُيّر بعض الأكراد بين أن يغادروا المدينة أو أن يصبحوا عرباً. وكان هذا يدعى «تصحيح» الجنسية، وقَبِل آلاف الأكراد والتركمان الذل للبقاء في كركوك والحصول على عمل أو الحصول على إذن عمل. التقيت في مكتب لونا مهندساً تركمانياً في منتصف العمر

اسـمه عبـد الرحمن صـادق الذي قال: «سـأخبرك قصـة لطيفة» في عـام 1980، تم إبعاد عائلة صـادق من قرية اسـمها بيلاوا، على مقربة من حدود المدينـة، والقاعدة الجوية، مع القرويـين الآخرين الذيـن كانوا جميعاً من التركمـان. وانتقلت عائلتـه إلى المدينة، بعد أن أعطيت أراضـيها للعرب. وفي عام 1999، احتاج صـادق أن يصـحح جنسـيته؛ لكي يسـجّل أرضه باسمه. ابتلع كبرياءه وأصبح عربياً، لكنه لم يجنِ إلا أن قيل له: إنه لا يزال لا يستطيع أن يسجّل الأرض باسمه، مع أنه عربي الآن، فهو من بيلاوا وليس من كركوك. لذا كان عليه أن يسـجّل ملكية الأرض باسـم شقيقة زوجه التي كانت قد صـحّحت جنسيتها أيضاً، لكنها ولـدت في المدينة. كانت شـبكة القواعد التي تتحكم في حياة الأفراد، والمذلات والسـخافات المرافقة، هي الشكل العراقي للتفرقة العنصرية.

في مكتبهـا في المدينة، قامت مهندسـة معمارية كردية مقيمـة في كركوك طوال حياتها، اسمها حوري طالباني بنشر خريطة للخطة البعثية المدنية الرئيسة عشرين عاماً، تم رسمها عام 1972 من قبل شـركة يونانية اسـتخدمها النظام. كانت الخطة تسمح للمدينة بالتطور في اتجـاه واحد فقط: الجنـوب، باتجاه بغداد. أصـبحت هذه الأحياء أحيـاء تعريب، وكان فيها شـعور مختلف عـن المدينة القديمة: خمـود القرية المفرطة في النمـو، برجالها الذين يرتدون الملابس البيضـاء ونسائها الملفوفات بالعباءات السـود، والأبنية الجديدة الملقاة في إسـمنت سمج على الشـوارع الواسـعة الفارغة. أما الأحياء التركمانية والكردية التي نجت مـن التهديم في مركز المدينة فقد أصـبحت مخنوقة بزحمة السـير ومحرومة من الحدائق والمجاري والمواصـلات العامة. وقد تم تحويل مياه نهر خاصـة صو نحو الغرب لري الأراضي الزراعيـة العربية، وحوض النهر الجاف بالقمامة. وبينما اسـتمرت الهندسـة الاجتماعية على نطاق واسـع، تحولت المدينة الغنية بالنفط إلى أنقاض. قالت طالباني: «لم تكن هناك فكرة مخلصة لجعل كركوك مدينة حقيقية، كنا نتراجع كل سنة بدل أن نتطوّر».

أخذني صـحافي كردي اسـمه عمر عبد القادر في جولة في حي قديم جدًّا اسـمه الإمام قاسـم على مجرى النهر شـمال الحصـن. كان قد ولـد وتربى في حي الإمام قاسـم، وكان حفيداً لملّا وابن مدرّس، كان يتزعم منظمة سياسـية كردية سـرية في كركوك. اعتقل الأب

عام 1986 وأُعدم عام 1987، وفي عام 1988 تم وضع عبد القادر ووالدته وأخواته في شاحنة حكومية وإلقاؤهم خلف حدود المدينة. ومع السنوات، تم جمع الأقارب والجيران الذين بقوا في أحياء أصغر وأصغر، كانت المجمّعات المبنيّة لأسرتين أو ثلاث عليها أن تضم عشر أو إحدى عشرة أسرة. في الشوارع الخلفية للإمام قاسم، كانت البيوت الأثرية من الحجارة والطين على الطراز التركي، ذات الأعمدة الحلزونية المطلية على أحد جانبي المدخل والأقواس المحيطة بالباحة الداخلية، مجوّفة حرفياً بسبب الإهمال. حتى المقبرة الكردية أعلى التلة، التي يرقد فيها والد عبد القادر، كانت كثيفة ومحصورة كالمدينة. قال عبد القادر: «يمكنك أن تقول: إن الأكراد كانوا بالكاد أحياء. لم تكن تلك حياة، إنها كنوع نباتي أو حيواني مهدّد. ماذا كان الأكراد يفعلون للبقاء؟ كانوا يغيرون جنسياتهم، كانوا يختبئون، كانوا يقومون بأدنى الأعمال، أي شيء للبقاء على قيد الحياة».

كانت السنة التي تم فيها إخراج عائلة عبد القادر من كركوك، 1988، ذروة اضطهاد النظام للأكراد. وصل تدمير القرى الكردية في الجبال -الذي يعرف باسم الأنفال، وهو منفصل عن التطهير العرقي في كركوك- حدّ الإبادة، حيث تم استخدام الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين في حلبجة وأماكن أخرى. ونحو آخر ذلك العام، كتب محافظ كركوك رسالة إلى الموظف المسؤول عن التعريب، الأمين العام للجنة الشمال، طه ياسين رمضان، الذي كان كردياً، إضافة إلى كونه صديقاً مقرّباً لصدام وزميل زنزانته في الشباب، وأخيراً عشرة الديناري في أوراق اللعب التي تشير إلى الأشخاص المطلوبين من قبل الأمريكيين. وكان العراقيون يعرفونه باسم «الجزار». تقدّم هذه الرسالة، التي كانت بين الأوراق التي أنقذتها لونا من قاعة المدينة، تقريراً عن مرحلة شديدة من حملة التطهير العرقي في كركوك، من 1 حزيران، 1985، إلى 31 تشرين الأول، 1988:

كتب المحافظ: «نودّ أن نعلمكم بأننا اتبعنا الأوامر والتوجيهات الصارمة التي أصدرتموها لعملنا، التي دفعتنا للعمل بجد أكثر لخدمة المواطنين، أبناء قائد النصر والسلم الشجاع، السيد الرئيس القائد صدام حسين»، وبعد ذلك كان هناك بيان إحصائي مفصل لثلاث سنوات من التطهير العرقي:

-إجلاء 19. 146 شخصاً من القرى «ممنوعون لأسباب أمنية».

-وثائق تسجيل لـ 96.533 شخصاً تم نقلهم من كركوك إلى محافظة أربيل تمهيداً لإبعادهم.

- 2405 أسر أبعدت من القرى الواقعة قرب منشآت النفط المحظورة.

- 10.918 أسر عربية، تضم 53.834 شخصاً، تم نقلهم إلى كركوك من محافظات أخرى.

- 8250 قطعة من الأراضي السكنية و1112 بيتاً تم توزيعها على العائلات العربية التي تم نقلها من المحافظات الأخرى.

تشير الرسالة إلى أن عمليات الإبعاد والنقل والتوزيع هذه أضافت 51.862 شخصاً من العرب إلى المحافظة وحذفت 18.096 من الأكراد في أثناء هذه المدة، مما جعل العرب المجموعة الأكبر في كركوك أول مرة. بالإضافة لذلك، تم اتخاذ سبعة إجراءات «لزيادة جمال المدينة»، بما في ذلك نشر بائعي الخضراوات والفواكه في أنحاء المدينة. وكتب المحافظ لبغداد قائلاً: «سنعطي الأولوية للأحياء الجديدة في أي بناء أو مشروع خدمات جديد تتم إقامته». ويختم رسالته بالقول: «كل هذا سهّل عملية المراقبة لمنع تسرب أي من العائلات التي شملها الإبعاد إلى داخل المدينة، ولمنع تسرب المخرّبين إلى المدينة، والآن تجري عملية الإبعاد من مركز المدينة».

وبعد عامين، قبل غزو الكويت، أعلن صدام أمام مبنى محافظة كركوك عن إخلاء جميع الناس من الحصن. حسب قول عقاب فاضل، مدير متحف كركوك الأثري الذي أشرف على تهديم المساكن، فإن هدف مشروع الحصن هو ببساطة التنقيب عن الآثار وترميمها. فالبيوت العثمانية التي تعود إلى عام 1850 في الموقع لم يحافظ عليها بشكل جيد وكانت مزدحمة بشكل غير صحي، ويقطنها المستأجرون الفقراء في الغالب. أصرّ فاضل: «لم يكن لإخلائهم علاقة بالسياسة»، لكن الحصن كان قلب المدينة. وفي عيد المسلمين كان المسيحيون يشاركونهم في الاحتفال عند قبر الأنبياء، وهو ضريح قديم يُدعى زوراً أن دانييل وعزرا مدفونان فيه. وفي الأعياد المسيحية، كان المسلمون يبادلونهم التهنئة.

في السوق تحت أسوار الحصن، يتذكر مالك تركماني لمحل ألبسة نسائية أن الحصن كان قبل سنين موقعاً لأعياد كثيرة. وفي هدوء ليالي الصيف، كان يسمع صوت زيت القلي، وكانت رائحة اللحم المشوي تسري إلى السوق. وقد قال لي: «حسبما سمعت، كان التركمان يعيشون هناك».

قال زبون كردي: «لماذا تقول ذلك؟ نحن كنا نعيش هناك أيضاً».

في الطرف المقابل من الزقاق، قالت لي امرأة تركمانية تبيع الأحذية والمحافظ: «كنا آخر الناس الذين غادروا الحصن». كان لوالدها، الذي كان تاجر بذور ثرياً، بيت كبير قرب البوابة الغربية يطل على النهر. كان يبني بيوتاً عند الحصن لليهود الذين يشغّلهم كتبة. قالت المرأة: «كان لنا علاقات مع كثير من الناس في الحصن، بصفتنا أسرة، وليس جيراناً». وفي أحد الأيام، طرق البعثيون الباب: كان لدى العائلة شهر لإخلاء بيتهم. قالت المرأة: «كان الحصن أكثر الأماكن جمالاً، قضيت طفولتي هناك. أنا أراه كل يوم». وأشارت إلى بقايا جدار حجري، علاه العشب الأصفر، وكان يرى فوق المحلات على الطرف المقابل من الزقاق.

أجّلت حرب الخليج والعقوبات التدمير النهائي للبيوت حتى عام 1998. لكن في ذلك الوقت كان الحصن فارغاً منذ ثماني سنوات، ولم يكن يسمح لأحد بالصعود إليه سوى أفراد وحدة الحرس الجمهوري الذين كانوا يتمركزون في الحصن لقمع أي تمرّد أو هجوم. حدث الهجوم عام 2003، في موجة من قوات البشمركة الكردية والقوات الأمريكية الخاصة التي اجتاحته من الشمال، وانهار حلم كركوك العربية بين ليلة وضحاها.

بعد تحرير كركوك بأسابيع قليلة، طُلب إلى ملازم في الرابعة والعشرين من عمره من الكتيبة رقم 173 المحمولة جواً اسمه جوردان بيكر من قبل قائد سريّته أن يحلّ مشكلة العرّافة، الحي الذي كانت لونا داود تعيش فيه. ومن بين آلاف المبعدين الأكراد الذين عادوا إلى كركوك بعد الحرب للمطالبة ببيوتهم وأراضيهم -مطاردين للمحتلين العرب في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى ليجدوا أنهم قد فرّوا- كانت سبع وستون أسرة تجثم في البيوت الفارهة التي هجرها كبار موظفي شركة النفط في العرّافة. كان الأكراد يعيشون سنوات

في مخيمات للاجئين في التلال المحيطة بالسليمانية. وقد أوكلت إلى بيكر الذي كان لديه رف مليء بالكتب عن اللغة الكردية وتاريخ الشرق الأوسط في خيمته في القاعدة الأمريكية، مهمة إخبار الأكراد أن عليهم إخلاء البيوت؛ لكي يعود موظفو شركة النفط ويمكن إنعاش الصناعة. في البيت الأول الذي قام بزيارته، أقسمت الزوجة أنها ستحرق نفسها إذا أجبرها الأمريكيون على ترك البيت. عاد الملازم إلى القاعدة وتشاور مع قائده. فقرّرا العودة والمحاولة من جديد، لكن هذه المرة، ترك بيكر درعه، وهو من جنوب كاليفورنية، وله عينان زرقاوان وجسم قوي. في هذا المظهر الأقل تهديداً، جلس مع الأسرة ساعتين. قال بيكر: «كنت أعلم أنهم عاشوا حياة بائسة، وأعلم أنهم سيعيشون ببؤس مدة. حين تقرأ عن التاريخ والسياسة، لا تتعلم عن عقلية هؤلاء الناس. وقد تعلمت أن لدى هؤلاء الناس شعوراً بالتاريخ والصبر التاريخي. لديهم شعور بما هو أفضل لجاليتهم، وحين تقنعهم فإنهم يدقّون إسفيناً بين جاليتهم وبين الأمريكيين، وهم يدركون أنهم لا يريدون القيام بذلك». كانت مناقشة بيكر للأكراد نظرية: «إذا كان لديكم بيت في بلد غير مستقرة وفيها عنف، فإن كل ما لديكم هو بيت. لكن إذا كان لديكم بيت في بلد مستقرة ويحكمها القانون، فإن لديكم أكثر كثيراً من بيت». ثم صاغ موقفه بعبارات ملموسة أكثر: «أعرف أنكم ستجدون مكاناً تسكنون فيه؛ لأنكم أكراد، ولم يكن لديكم مكان تسكنون فيه منذ اثنتي عشرة سنة، ولم يكن لديكم وطن. لكن أن تكسبوا الحرب لا يعني أنكم تفعلون ما تريدون دون حساب. لكن إذا ساندتم القانون ضد عدالة المنتصر، فإنكم تستثمرون في مستقبل العراق». ابتسم بيكر، «ووافقوا».

غادر الأكراد الذين احتلوا البيوت العرّافة. كان ذلك في الأسابيع الأولى، حين كان الأكراد يرون الأمريكيين منقذين وكانوا راغبين في تأجيل التصحيح قليلاً بعد. كانت قوات المظليين في كركوك متقدمة كثيراً عن نظرائها في بغداد في ذلك الصيف الأول. عاشت الفرق العسكرية في بيوت آمنة في أنحاء المدينة، وليس في القاعدة الجوية المعزولة، واستخدمت كتيبة بيكر خمسين مترجماً محلياً؛ لأن الشركة الأمريكية المتعاقد معها كانت بطيئة جدًّا، إذ كان الجنود يتنقلون في أنحاء كركوك بسهولة، وأحياناً في سيارات ذات الدفع الرباعي، ومن ثم كانت الكتيبة قد فتحت تسعة مراكز للشرطة فيها ألف وسبع مئة شرطي تم اختيارهم بعناية

لمراعاة التوازن العرقي، وتم تجهيزهم بالأسلحة والمركبات. أما سلطة الائتلاف المؤقتة فقد كانت مصدر إزعاج بعيداً، فلم تكن توافق على الخطط أو تصرف المال بسرعة كافية لتلبية احتياجات الكتيبة 173 المحمولة جواً. في تلك المدة، كانت كركوك تبدو مدينة تحت السيطرة.

كانت القوات معتادة على مهام ثلاثة أسابيع، لكونها قوات مظلية، وكان قائد كتيبة بيكر، الكولونيل دوم كاراسيلو، وهو رجل سمين قليل الصبر في الحادية والأربعين من عمره من ريف نيويورك، لا يخفي إحباطه؛ لكونه عالقاً في العراق منذ أشهر. قال كاراسيلو بصوته الخشن، حين كنا نجلس في حيّه وبصق في زجاجة ماء: «إذا دخلت لفعل شيء فعليك أن تفعله بشكل تستطيع معه أن تقول حين تغادر: إنك حققت الأهداف التي أتيت من أجلها في الماضي كانوا يقولون لنا: إن كتيبة الشؤون المدنية ستأتي وتتولى العناية بالشؤون المدنية. وهذا هراء، هذا لا ينفع. ولا أدري لماذا لا ينفع». الجنود المدرّبون على تشغيل قذائف الهاون وشن الضربات الجوية لم يعد لديهم ما يفعلونه، فقاموا بتدريب قوات الشرطة. وعمل جنود سلاح الإشارة مع أقسام الإطفاء وخدمات الطوارئ. أما فصيل الدعم والنقل فقام بإعادة توطين اللاجئين العائدين. لكن الدور الرئيس الذي أداه الأمريكيون في كركوك المقسّمة عرقياً كان، كما قال أحد الجنود «كمن وجد نفسه وسط معركة لا دخل له فيها».

حين عدت إلى كركوك في الصيف عام 2004، كانت فرقة أخرى قد استلمت، وكان الصبر التاريخي للأكراد ينفد. وكانت خطابات المجموعات العرقية الثلاث الرئيسة في المدينة تصبح متطرفة، كما أن سمعة الأمريكيين كانت قد بدأت تسوء. شرح كلام بيكر للأسرة في العرافة سياسة سلطة الاحتلال بشكل أفضل من كلام أي مسؤول رفيع المستوى: يجب الفصل في الشكاوى القديمة وفق القانون، وليس بالقوة، وإلى أن يتم وضع آلية قانونية، يجب المحافظة على الوضع الراهن. لكن حتى الآن، بعد مرور أكثر من عام على الإطاحة بصدام، لم تكد الآلية القانونية للفصل في قضايا الملكية الفردية تبدأ بالعمل. أما حول الحل السياسي الأكبر لوضع كركوك، فقد تجنبت سلطة الاحتلال أن تفرض حلاً، والدستور الانتقالي أجّله؛ حتى تتمكن الحكومة المنتخبة من كتابة الدستور الدائم. وبقيت مسألة كركوك مؤجلة بشكل خطير، بينما كانت الحقائق التي يمكن أن تؤدي إلى حدوث نتيجة متطرفة تتراكم باستمرار.

بعـد الغزو، تم اقتلاع آلاف العرب في الشـمال من منازلهم. وقد قـدّر البرنامج الدولي للمهجريـن في العـالم[1] Global IDP العـدد بمئـة ألـف، علـى الرغم من أن عـدم وجود منظمات دولية في العراق جعل الوصـول إلى أرقام دقيقة أمراً مسـتحيلاً. وفي شـمال غرب كركوك، في قرية أمشـاو، استولى محمد خضـر وغيره من الأكراد المبعدين عام 1963 على البيوت المهدّمة جزئياً للعرب الذين تم إحضارهم إلى أمشاو في سبعينيات القرن العشرين. كانت البيوت مهجورة حين وصـل الأكراد، كما قال خضر. وقد وجدت هؤلاء العرب أنفسهم يقيمون في الثكنات التي قصـفتها طائرات المروحية لقاعدة جوية عراقية تقع غرب المدينة، قـرب القاعـدة الأمريكية. وقد قال رجلان مسـنّان كانا يتحدثان نيابة عن الأسـر الاثنتين والخمسين هناك: إن المقاتلين الأكراد طاردوهم وأخرجوهم من أمشاو في نهاية الحرب.

قال أحد الرجال العرب، واسـمه علي عدي: «لدينا شـباب يعتقدون أن أمشاو ملك لهم، وأنـا أقـول لهم: يا بني، يقولون: إنهـا ملك للأكراد. فيقولون: كيف يمكـن ذلك؟ لقد ولدنا ونشـأنا في تلك البيوت». وأشـار الرجل العجوز إلى أن عدد الأسر الكردية التي استولت على أمشـاو كان نصـف عدد العرب الذين هربوا منها، فقد كانت هناك بيوت في أمشـاو تكفي خمساً وعشرين أسرة عربية لتعود وتعيش مع الأكراد. قال علي عدي: «نريد فقط أن نعرف من سـيعطينا حقوقنـا»، أعطى الجنود الأمريكيـون في المنطقة للاجئـين بطانيات وطعاماً وطلبوا منهم البقاء؛ حتى يمكن حل المشـكلة قانونياً. «أين الحكومة التي ستعطينا حقوقنا؟ هـل سنحصـل على حقوقنا من أمريكـة أم من الحكومة العراقية؟ نحـن لا نعرف. لا يمكن تركنا هنا فقط دون حقوقنا».

على بعد ميل، نصـب مخيم يائس من سـبع عشـرة خيمة في حقل قرب ملجأ عسـكري. وكان هنـاك علـم أزرق مهترئ عليه هلال ونجمة -وذلك رمـز الجبهة التركمانية العراقية العسكرية- معلّق بشكل هزيل في الحرّ. كان المعسكر رمزياً أيضاً (فقد كانت الخيام فارغة) لكـن كان هنـاك عدد مـن الناس يراقبون. كانـوا من التركمان المبعديـن في عام 1980 من بيلاوا، قرية المهندس الذي صـحح جنسـيته. وقد أروني نسـخاً من سـندات ملكية من عام

(1) البرنامج الدولي للمهجرين حول العالم Global IDP هو برنامج تابع للمجلس النرويجي للاجئين NRC معني بتحسين أوضاع المهجّرين في بلادهم بسبب الحروب أو الاضطهاد العرقي (المترجم).

1938، وصور نيجاتيف سوداء لوثائق بريطانية، كما كانوا يحملون سندات ملكية تعود للعهد العثماني، كما قالوا. استولت القاعدة الجوية على جزء من أرضهم، واحتل الجزء الآخر العرب الأثرياء الداعمون للنظام السابق، الذين رفضوا أن يغادروا. كما طالب التركمان أيضاً بالأرض التي كان اللاجئون العرب يقيمون فيها في حظائر الطائرات. يصعب أن نتخيل حلاً لكل هذا.

قال أحد التركمان: «الحل أن يعود الجميع إلى حيث جاؤوا، أين كان هؤلاء العرب قبل صدام؟ هذا هو الحل، بالضبط. نحن نريد أن تعود الأمور كما كانت قبل صدام».

في الطرف الآخر للمدينة، كانت مئات الأسر الكردية قد اتخذت الأنفاق وتحت مدرّجات ملعب كرة القدم أماكن للإقامة. وفي السهل الترابي المجاور للملعب، كانت مئات الأسر أيضاً تسكن في الخيام. ويقدّر مدير منظمة اللاجئين الكردية أن تسعة آلاف أسرة قد عادت إلى كركوك. كان معظمهم قد أبعد قبل أكثر من عقد من الزمن -حيث أخذتهم الشاحنات الحكومية خلف حدود المنطقة وتركتهم في أرض مشاع مع القليل من الممتلكات التي استطاعوا إنقاذها- وكانوا يعيشون في مخيمات للاجئين منذ ذلك الحين. كان المزيد منهم يتدفق إلى المدينة يومياً (حيث وصل عددهم في الذروة إلى خمس مئة في اليوم) على الرغم من أن ظروف المعيشة كانت سيئة، ولم تقدّم لهم أي مساعدة تقريباً من الأمريكيين، أو من مجموعات الإغاثة الدولية، أو من حكومة المدينة. وقد كرّر رجل كردي اسمه فرهاد محمد ما قاله العرب لي في الجهة الأخرى. «أنا فعلاً لا أدري من سيعطينا بيتاً؛ لأن هناك حكومات كثيرة جدًّا في العراق. ونأمل ألا تكون الحكومة الجديدة كحكومة صدام».

بدأ الحزبان الكرديان الرئيسان، الحزب الديمقراطي الكردي والاتحاد الوطني الكردستاني، بتسريع عودة الأكراد قبل الإحصاء والانتخابات. طُلب إلى الموظفين الحكوميين في السليمانية، شمال شرق كركوك، أن يعودوا إلى كركوك، ووعدوا بأن تبقى رواتبهم كما هي إلى أن يجدوا وظائف جديدة. وفي إربيل، أُمرت أربعون أسرة كردية أصلها من كركوك أن تخلي المبنى الحكومي الذي كانت تعيش فيه منذ سنوات بوصفهم لاجئين، وكان رجل أعمال له صلات سياسية قد خطط لتحويله إلى مركز تسوق. وأعطي كل منهم

ثلاثة آلاف دولار، وأرسلوا إلى مدينتهم الأم. وبعد شهر، وجدت عدداً منهم في كركوك، يبنون بيوتاً بسيطة بصورة غير قانونية في الأحياء الكردية القديمة أزدي ورحيماوا. كان غيرهم ممن ليس لديهم وسيلة يقيمون في المباني الحكومية، بل إن آخرين، ممن كانت لهم صلات سياسية أو قوة، قاموا بطرد العرب واستعادوا بيوتهم أو طالبوا ببساطة ببيوت جديدة. وقد أخبرني بعض القادة العرب أن الأكراد، بمن فيهم أولئك الذين لم يسكنوا في كركوك من قبل أبداً، كانوا ينتقلون إلى المدينة لترجيح الميزان العرقي. وقد أطلق أحدهم على هذه الجهود اسم «التكريد».

في هذه الأثناء كان «المستفيدون» العرب يرحلون. قامت صبيحة حمود، المرأة التي انتقلت مع أسرتها من بغداد في أواخر ثمانينيات القرن العشرين إلى حي تيسان التركماني القديم، ببيع بيتها بعد أن قابلتها بأشهر قليلة، مستفيدة من الأسعار العالية التي كان الأكراد مستعدين لدفعها. في حي القادسية، جنوب المدينة، التقيت بمجموعة من العرب الذين كانوا يحضرون جنازة. وأخذوني إلى بيت قذر تملؤه النفايات، حشرت فيه ثلاث أسر كانت قد طردت من بيوتها. وقد أخبروني أن مئة أسرة عربية في الحي نفسه قد باعت بيوتها للأكراد وغادرت المدينة. كان الرجال شيعة، من رجال الشرطة والجنود السابقين، الذين أصبحوا عاطلين عن العمل وكلهم شكاوى. طُرد رياض شيوب الذي جاء من البصرة عام 1986، حين كان في الخامسة من عمره، من بيته في منطقة كردية ورفضوا تشغيله في قوة الشرطة العراقية. كان يحصل على قليل من المال من بيع الحلي الرخيصة في السوق، حيث عانى الازدراء والتهديدات من الأكراد. وقد قال: إن بعضهم كان يبيع الأقراص المضغوطة التي تصوّر تعذيب السجناء العرب في «أبو غريب» بسخرية. قال شيوب بابتسامة سوداوية: «قالوا لي: عُدْ من حيث أتيت. لا تبقَ في كركوك، في السابق، كان لدي أصدقاء أكراد، لكنهم لا يدعمونني الآن. لقد انقلبوا ضدنا».

كانت الوظائف الحكومية تذهب للأكراد، وقد كان المحافظ ورئيس الشرطة من الأكراد؛ وكانت جميع شبكات التلفاز كردية؛ كان العرب يُطرَدون من المدينة؛ لم يكن لديهم شخص قوي يساندهم: كانت قائمة الشكايات العربية طويلة، وكانت تشبه حالة الأكراد في كركوك في عهد صدام بشكل لافت للنظر. في رأي هؤلاء الرجال، كان الأكراد هم المستفيدون الآن.

أصـرّ رجل ملتحٍ قاسـي المظهر اسمه أثير محمد على أن: «هناك ظلم الآن أكثر مما كان في عهد صدام، لو قام صدام بهذه الأمور، فما ذنبنا نحن؟ نحن لم نفعل شيئاً لهم».

زاد التمـرّد من شـدة الصـراع بين العرب والأكـراد في كركوك. كان الأكـراد يعدّون في الغالـب متواطئين مع الأمريكيـين، بينما كان كثير من العرب الموطّنـين يتعاطفون مع قوات المقاومة السـنّية أو الشـيعية. كان مقتدى الصـدر يقول في الغالب: إن الأكراد مرتدون عن الإسـلام، وإنهـم ملعونون؛ هرب مئات الأكـراد إلى كركوك من سـامراء وغيرها من المدن العربية بعد اتهامهم في المسـاجد السـنية بأنهم خونة. كان الرجـال العرب في البيت المليء بالنفايـات مـن أتباع ممثل الصـدر في كركوك، وقـد داهم الجنود الأمريكيون مسـجدهم ووجدوا مخبأً للأسـلحة واعتقلوا نحو ثلاثين شخصاً. أقسموا جميعاً على البقاء في المدينة. قال أثير محمد: «لقد تحوّلت كركوك إلى غابة، إذا جاء أحد ليرغمني على الرحيل، فإما أن أقتله أو يقتلني. هذا هو قانون الغاب».

سـمعت من العرب الموطّنين أن الأسـلحة الكيماوية التي اسـتخدمت في حلبجة كانت في الواقع بودرة جصّ. طرح هذه النظرية رجل إطفاء كان يعمل في شركة النفط، يطلّ بيته في العرّافة مباشرة على بيت علي حسن المجيد، الذي عرف، منذ أن أشرف على ضرب الأكراد بالغـاز، باسـم علي كيمـاوي. قالت امـرأة عربية كانت معلّمـة متقاعدة مـن مدينة الكوت الجنوبية: «العراق جزء من الأمة العربية، وليس الأمة الكردية. الأكراد ضـيوف في العراق، وهـم يريدون طرد العـرب منه؟» نادراً ما كنت أسـمع أي اعتراف بالجرائم المرتكبة ضـد الأكراد في كركوك، أو أي خجل من كونهم مستفيدين. كان هذا يزيد من شعور الأكراد، ولا سيما المبعدين العائدين منهم، بأنهم لن يستطيعوا العيش مع العرب الموطّنين في كركوك.

كانت الخطة الكردية لكركوك واضـحة تماماً. علـى العرب الموطّنين أن يغادروا المدينة، جميعاً، حتى من وُلد في المدينة. على الحكومة تعويضـهم، وحتى ربما تأمين أراضٍ ووظائف لهم في محافظاتهم الأصلية، أما بقاؤهم في كركوك فسيكون دعماً للتعريب الظالم. بعد أن اسـتوطن المبعدون الأكراد، وتمت اسـتعادة التوازن الديموغرافي السـابق سيُجرى إحصاء سـكاني في المحافظة (يظهر الإحصـاء السـكاني عام 1957 بأن 50% من سكان المحافظة

كانوا من الأكراد). نتيجة هذا الإحصاء للأكراد كانت معروفة سلفاً: سيكونون الأكثرية في المحافظة. والشيء نفسه كان ينطبق على الاستفتاء العام الذي سيلي الإحصاء السكاني، فقد كانت توقعات الأكراد تشير مسبقاً إلى أن التصويت سيؤدي إلى انضمام المحافظة إلى منطقة كردستان التي تتمتع باستقلال ذاتي.

لم يذكر شيء من هذا في الدستور المؤقت للعراق، لقد تُركت الفقرة 58 التي حددت «الخطوات العلاجية للظلم» مبهمة عن قصد فيما يخص مستقبل كركوك. لقد دعت إلى تقويم «الظلم الذي وقع بسبب ممارسات النظام السابق التي أدت إلى تغيير التركيبة السكانية لمناطق معينة بما فيها كركوك»، وقد نصت على «أنه من الممكن أن تتم إعادة توطين الأشخاص الذين وفدوا إلى مناطق وأقاليم معينة، ويمكن أن يتلقوا تعويضاً من الدولة، ويمكن أن يحصلوا على أراضٍ جديدة من الدولة قرب منازلهم في المحافظات التي قدموا منها، أو يمكن أن يحصلوا على تعويض يغطي تكاليف انتقالهم إلى مناطقهم الأصلية». سيتم تأجيل النظر في حالة المدن المتنازع عليها مثل كركوك إلى ما بعد الإحصاء السكاني والدستور الدائم، «انسجاماً مع مبدأ العدالة ومع الأخذ في الحسبان إرادة سكان هذه الأقاليم» لقد أثارت هذه اللغة الباردة أسئلة أكثر مما كان مفروضاً أن تجيب عنه. هل تقوم العدالة على رأي أشخاص أم جماعات؟ هل تتطلب فقط استعادة الأملاك المصادرة، أم إعادة كركوك إلى طبيعتها الديموغرافية في المدة التي سبقت مرحلة التعريب؟ ألا يخلق إجبار العرب على العودة إلى مدنهم وبلداتهم «التي قدموا منها» نوعاً من الظلم ويديم دائرة الانتقام؟

على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء من إراقة الدماء العمومية المتوقعة، فقد عانت كركوك زيادة مستمرة في هجمات المتمرّدين والتفجيرات الانتحارية، وحملة اغتيالات ضد زعماء المدينة. كان معظم المسؤولين الذين تم اغتيالهم من الأكراد، مع أن بعض السياسيين العرب وشيخ عشيرة ممن كانوا يحتلون أراضي متنازع عليها حول قرية أمشاو كانوا من الضحايا أيضاً. نادراً ما كان أحد يُعتقل في هذه القضايا. كان الأكراد يشكّون في عملاء الاستخبارات التركية وحلفائهم في الجبهة التركمانية العراقية المتشدّدة. فقد صرّحت

الحكومة التركية مراراً أن إمساك الأكراد بزمام القوة في كركوك يعدّ مقدمة لدولة مستقلة، ومن ثم يشكل تهديداً لتركية نفسها، لكونها تضم أقلية من الأكراد الثائرين. كما شبّه عبد الله غول، وزير الخارجية التركي، «كركوك» بالبوسنة وأصدر تحذيراً مقنّعاً: «يعلم الجميع أن هذه القضية يمكن أن تصبح في النهاية أكبر مصدر للمشكلات في العراق».

كان حسيب روزبياني نائب المحافظ الكردي لشؤون إعادة التوطين ودفع التعويضات، الموظف المسؤول عن عودة اللاجئين. وكان روزبياني متحدثاً كبيراً للسياسة الصاعدة المعاكسة للتطهير العرقي. وكان قد أمضى سنوات يدرّس دراسات اجتماعية وإحصائيات في المهجر في السويد. وكان يتمتع بمظهر أستاذ الجامعة المعتدل بشعره المجعّد ونظارته وعادته في تمتمة الأسئلة لنفسه وهو يتحدث. وحين تحدّثنا في غرفة الجلوس في بيته كان حافي القدمين ويرتدي بنطالاً رياضياً وقميصاً سائباً، وكان يمسك بالمسدّس الموضوع على الأريكة أمامه وهو شارد الذهن، ثم ينتبه لنفسه ويضعه من جديد. وكانت هناك بندقية كلاشينكوف مسندة إلى جهاز التسجيل.

لم يترك روزبياني شكاً في مستقبل العرب الموطّنين. كان رحيلهم من كركوك ضرورياً لعدة أسباب، كما قال، منها أسباب نفسية اجتماعية: فالعرب يعانون عقدة الذنب، حيث إن معظمهم كانوا مجرمين وبعثيين سابقين، مما يجعلهم لا يشعرون بالراحة للبقاء؛ وهم يعلمون أنهم لا ينتمون إلى المدينة، وليس لهم أصدقاء من المجموعات الأخرى، ووجودهم المستمر يستفز الأكراد، ويحرّض على الصراع الاجتماعي. كما أن البطالة عالية سلفاً في كركوك.

وقال روزبياني: إن العرب الذين لم يغادروا قبل الإحصاء والاستفتاء العام لن يسمح لهم بالتصويت هناك. وهو لا يتوقع أن يبقى كثير من العرب في كركوك حتى ذلك الحين. قال روزبياني: «عليهم أن يرحلوا»، على العرب الموطّنين أن يرحلوا حتى لو لم ينازعهم أحد على بيوتهم أو أراضيهم؛ لأن خطيئتهم كانت جماعية. وأخبرني أن العرب يمكن أن يعودوا إلى المنطقة بعد الإحصاء والاستفتاء على وضع كركوك، للزيارة.

أخبرت روزبياني عن زوجين التقيتهما: جاء الرجل من وسط العراق في ستينيات القرن العشرين، وكانت المرأة «عربية أصلية» عاشت أسرتها في كركوك منذ أجيال. نشأ

أبناؤهما مع أقران من العائلة الكردية التركمانية التي تسكن البيت المجاور. ما الذي سيحدث لهذين الزوجين؟

قال روزبياني: «عليهم أن يعودوا».

«الزوجة من كركوك أصلاً».

«يمكنها أن تلحق بزوجها».

لفتت أسئلتي نظر روزبياني وعدها إنسانية في غير مكانها، وعاد ليلقي بها علي. وأكّد لي: «بالطبع أنا أقبل الأخوّة والصداقة، لكننا نعرف أن العرب أخذوا الأراضي واحتلوها، وذهبوا إلى كل بيت للتحقيق مع الناس، وقاموا بإعدام الناس وأخذ أبنائهم وبناتهم، فهل ستقول لهم: «أهلاً بكم، العراق للجميع؟ هذا مضحك في رأيي».

كان روزبياني وغيره من الأكراد يحمّلون معظم مآسيهم للتحالف الذي تقوده أمريكة. كانوا يتوقعون من الولايات المتحدة شيئاً أكثر من العدالة المدروسة. سألني أحد أفراد البشمركة كان يسكن في بيت مهجور في أمشاو: «إذا كان الأكراد أصدقاءكم، فلماذا تعاملوننا الآن كما تعاملون باقي العراقيين، بمن فيهم الحرس الجمهوري؟».

كانت الممثلة الأولى لسلطة التحالف الموحّدة في كركوك، وأكثر المدافعين عن المدينة تأثيراً لدى بول بريمر، امرأة إنكليزية نحيلة بنّية العينين في السادسة والثلاثين من عمرها اسمها إيما سكاي. كانت تتحدث العربية وقد سبق أن عملت مرة في فلسطين في الضفة الغربية، فعلى الرغم من أنها كانت تعارض غزو العراق، لبّت سكاي طلباً من مكتب الخارجية والكومنويلث للمتطوّعين للانضمام إلى سلطة الاحتلال. ولأنها تتكلم الإنكليزية والعربية فقد كانت من الأقلية في سلطة الائتلاف المؤقتة، كما أنها تعارض فرضياتها العقديَّة.

قالت لي سكاي في بغداد: «إحضار الديمقراطية، فيما يخص الكثير من الأمريكيين هذا أشبه بدين جدي، إذ يأتي الناس إلى هنا مبشّرين. لم يكن هذا الموضوع رسالة لي أبداً. فأنا لا أشعر أن الديمقراطية شيء جيد لدرجة أن علينا الترويج لها في أنحاء العالم».

وقالت إن على المحتلّين، بدلاً من تجاهل الهيكل العشائري غير الديمقراطي في العراق أو كسره، أن ينظروا إليه على أنه نمو طبيعي للبيئة القاسية وأن يجدوا طرقاً للسماح لمزيد من الناس بالمشاركة فيه. وكانت ترى أن القومية الأمريكية بحقائقها الساطعة وحماسها، قوة غريبة ومثيرة للمشكلات. وقد ذكّرتها أنها ليست مختلفة كلياً عن القومية البريطانية التي غزت نصف العالم (بما في ذلك العراق) باسم عبء الرجل الأبيض. قالت سكاي: «ربما كانت لدينا في المملكة المتحدة قبل أربعين أو خمسين سنة، يقول العراقيون دائماً: أيها البريطانيون، أنتم تعرفون كيف تقومون بذلك بشكل أفضل كثيراً من الأمريكيين، وكأنكم قد أخذتم ذلك بالوراثة. لكن جيلي لم ينشأ على احتلال دول أخرى». ومع ذلك فقد كانت واعية تماماً للسير على خطى أسلافها الاستعماريين، ومن ثم للشعور بالعراقيين وتاريخهم الذي يمكن ألا يشعر به كثير من الأمريكيين. ربما لأنها كانت تعرف اسم الجنرال البريطاني الذي قام «بتحرير» بغداد من الأتراك عام 1917، كانت سكاي أقدر على التفكير بشك في المشروع الحالي من زملائها الأمريكيين الذين لا يعرفون. في بغداد زارت قبر غيرترود بيل، وقد كانت بيل وانتحارها أمراً يشغل بالها قليلاً.

عند وصولها إلى كركوك، رأت سكاي أن أكثر المهام إلحاحاً هي طمأنة العرب والتركمان المعزولين بأن سلوك المنتصر لجيرانهم الأكراد لا يعني ألا يكون لهم مستقبل هنا. ومع تجوالها في المحافظة ازدادت شهرتها. وقد أثنى إسماعيل حديدي، نائب محافظ كركوك وهو من العرب الأصلاء، على سكاي ثناء كبيراً: «نحن نتعامل معها كأنها رجل، وليست امرأة». كانت سكاي تعتقد بعاطفة كبيرة أن «كركوك» يمكن أن تكون أنموذجاً لعراق متنوع الأعراق. قالت سكاي: «على الناس أن يبتعدوا عن هذا التفكير غير المجدي، في كركوك يلتقي كل ذلك. إن الأعراق كلها مجتمعة في كركوك. نعم، يمكن أن يكون هناك بلد فيه مناطق مختلفة، لا يتعيَّن فيها على الناس أن يتعاملوا مع مجموعات أخرى. لكن هل يمكن أن يكون هناك بلد يعيش فيه الناس معاً بسعادة، ويرتاحون مع بعضهم؟ أعتقد أن «كركوك» ستخبرنا أي نوع من البلاد سيكون العراق». كان لها دور فاعل في تأمين ملايين الدولارات من عائدات النفط العراقي لتمويل مؤسسة كركوك الجديدة التي ستقدّم المنح للمجموعات

المدنية المحلية التي تحاول تجنّب منطق السياسة العرقية. وتقول سكاي: مقارنة بالمشكلات في «إسرائيل» وفلسطين يجب أن تكون مشكلات كركوك أسهل حلاً. «يمكن الفوز في كركوك. فليس فيها اختلافات متناقضة، حتى الآن».

مع مرور الوقت، ومع عدم وجود حل ظاهر لإرث التطهير العرقي، بدأ كثير من الأكراد يعدّون إيما سكاي وسلطة الائتلاف المؤقتة متحيزين للعرب. فحين التقت سكاي بالقائد الكردي جلال طالباني في السليمانية، قال لها: «يسمّونك إيما بيل». حصر استهزاؤه السخرية الكاملة لوضع سكاي؛ فقد كانت تحاول أن تأتي بقيم أوروبة في المدة التي أعقبت الاستعمار -التنوع والتسامح والشعور بأن الناس يستطيعون حل مشكلاتهم إذا جلسوا معاً وتحدّثوا- إلى مكان كانت فيه السياسة غير المجدية هي القاعدة، منذ أن رسمت سلفها غيرترود بيل الخريطة، وأنشأت الدولة الحديثة بطريقة جعلت العرب السنة يحصلون على السلطة، والأكراد يرون أن حلمهم بالقومية يذوب.

لم يساعد سكاي في قضيتها أيضاً أن آلية سلطة الائتلاف المؤقتة لحلّ الشكايات في كركوك وإصلاحها -كلجنة العراق للمطالبة بالملكية التي ساعدت سكاي في إنشائها- لم تبدأ بالاستماع إلى الشكايات حتى شهر نيسان 2004 ولم تكن قد أصدرت قرارها الأول بحلول أوائل عام 2005. وقد استنتج آزاد شيخاني، وهو كردي ترأس اللجنة مرة أن كل هذا كان تأجيلاً مقصوداً لحفظ السلام، وألقى اللوم على سلطة الائتلاف المؤقتة. قال شيخاني: «أفهم أنهم لا يريدون إعادة العرب إلى أماكنهم الأصلية، لكنهم لايريدون أن يغضب الأكراد أيضاً. لذا فهم يؤجلون كل شيء بالبيروقراطية».

كان عدد المطالب التي استلمتها اللجنة أقل كثيراً مما كان متوقعاً، 1.658 حتى شهر تموز 2004 حين زرت مكاتبها المجهزة بشكل جيد، التي كانت شبه فارغة. كانت هناك امرأتان كرديتان ترتديان ثوبين أسودين متموجين، وهما جميلة سفر وأمها خديجة نامق تجلسان إلى مكتب، وتقدمان مطلباً. أخبرتني سفر أن والدها توفي في آذار 1991 في أثناء التمرد في كركوك والشمال الذي أعقب حرب الخليج. وفي يوم دفنه، 13 آذار، عادت هي ووالدتها من المقبرة لتجدا منزلهما محاطاً بالجنود، من أفراد حزب البعث، ورجال مقنّعين يعملون

مـع علي الكيماوي. سـأل الرجـال: «هل أنتم أكراد أم عرب؟» خـرج جميع من في الحي إلى الشـارع (الأكراد والعرب والتركمان)، في مجموعات حسـب أعراقهم. كانت الدبابات تسدّ الشوارع والطائرات المروحية تحوم فوقهم، بينما كان الرجال الأكراد بمن فيهم شقيق سفر الأكبر يقيّدون ويؤخذون في الحافلات. أما النسـاء والأطفال فقد وضعوا في حافلات أخرى وأخذوا إلى الجبال، حيث تركوا وطلب إليهم السير نحو الشمال. وبينما كانت سفر ووالدتها تمشـيان، تعرضتا لقصف من طائرة فوقهما، ومات عدد من الجيران أمامهما. بقيت سفر ووالدتهـا علـى الحدود الإيرانية ثلاثة أشـهر. وحـين تجرأتا على العـودة إلى كركوك، كان بيتهما مدمّراً، هو وألفا بيت آخر في الحي.

قالت سفر: «الحمد لله أنني لم أجد إلا الغبار، الحمد لله على سلامتنا».

كان هناك موظف، محامٍ يملأ اسـتمارة طويلة لهما فقال: «هل كان البيت من الآجر أم الطين؟».

قالت والدة سـفر: «مـن الآجر، أرجوك أن تنـهي الموضـوع. فأنا متعبة، ولا أستطيع الانتظار».

سأل المحامي: «هل تريدين أخذ الأرض أم التعويض؟».

قالت سفر: «نحن نريد الأرض».

كتب المحامي أنهما تريدان الأرض والمال لبناء بيت جديد، فقال لهما: «لمَ لم تذهبا إلى اللجنة المخصصة للذين تضررت بيوتهم في عام 1991؟».

قالت الأم: «لقد ذهبت، وقدّمت لهم طلباً، لكنهم لم يعطونا شيئاً».

جاء رجل عربي في أواخر الثلاثينيات وسـلّم على المرأتين بتحفظ خجول. كان اسـمه يعقوب شـاكر، وكان في السابق يسـاعد الأكراد في المنطقة بتحميل الأثاث في الحافلات. كان أيضـاً جنديـاً في الحرس الجمهـوري، وحين عاد إلى كركوك من بغداد بعد سـقوط النظام، وجد مجموعة من البشمركة، منهم أحد جيرانه السابقين، يحتلّون منزله. وعلى الرغم من تعديل قانون المطالبة بالملكية ليسمح للعرب الذين طردوا بعد الحرب بالمطالبة

أيضاً، فقد قال شاكر: إن أطفاله قد تعرضوا للتهديد من قبل البشمركة، وكان خائفاً من المطالبة بالتعويض.

قال شــاكر: «صدّقني، لا أحد يعرف بشكل مؤكد، لكن على الأغلب أن الأكراد هم الذين يديرون المدينة، وبوصفي عربياً، إذا أردت الحصول على عمل فعليّ الحصول على ورقة من الحزب الكردي بأنني غير مجرم». جاءت به المصادفة إلى هذا المكتب في اليوم نفسه الذي جاءت به المرأتان، وكان من عادته أن يلقي التحية كل صباح في طريقه إلى العمل. كان يشعر بأن الظلم الذي رآهم مرة يتعرضــون له يقع عليه الآن. وقال لي: «إنه الشــيء نفســه. فعلته الحكومة معهم. وفعلته البشمركة معنا».

وافقته المرأتان، وكانت هناك لحظة من المشاعر الطيبة بين الجيران القدامى.

قال العربي: «لا يستطيع حل المشكلة إلا الله ثم أمريكة».

فسألته: وماذا عن الحكومة العراقية الجديدة؟

قالت الأم: «لا أعلم، هل هناك حكومة الآن أم لا؟ لا أعرف شيئاً. أعرف أن هناك نهاراً وليلاً. أنا لا أذكر حتى اسمي».

أنهى الموظف كتابة الاستمارة. ابتسمت الابنة، وقالت: «أعتقد أن هذا كل شيء، فستكون هناك عدالة وستحل قضيتنا».

سـألت العربـي إن كانت العدالة ستســود في كركوك؟ فتردد قائــلاً: «لا أعتقد. هذا صعب جدًّا».

فقالت الابنة: «لماذا تصعّب الأمور؟».

قــال العربي: «لأن أولئك الموجودين في المدينة الآن لا يفهمون بعضــهم، «أنا ابن كركوك -عربي من كركوك- ومنذ خمس وثلاثين ســنة لم يســتطع أحد أن يؤذينا. أنا الآن منزعج، بسبب بيتي».

سألت المرأتين إن كان الأكراد سيفعلون مع العرب ما فعله العرب مع الأكراد؟

قالت الابنة: «لا، لن يفعلوا ذلك، صدقني، أنا أقسم بالله إنهم لن يفعلوا ذلك».

فقال شاكر: «لقد فعلوا أكثر مما فعله العرب».

تيبّست الفتاة، ونظرت ببرود إلى جارها السابق، وقالت: «أين ذلك؟».

«أعرف شخصاً واحداً جعل نصف عشيرة يهربون من بيوتهم في المدينة».

ذهبت المشاعر الدافئة. أشارت الفتاة أن شاكراً نسي ما حدث للأكراد في كركوك. وفجأة استأذنت، وساعدت أمها للخروج من لجنة العراق للمطالبة بالملكية.

لما كانت كركوك لم تكن قد أصبحت بعد ساحة معركة واسعة النطاق، بقيت المدينة نقطة ضعف مخفية في المشهد العراقي. لكن لا مفر من أن يصبح ما كان نزاعاً محلياً بين الجيران أحد أكبر العوائق أمام جعل العراق ديمقراطياً والمحافظة على وحدته. في صيف عام 2003، دار حديث بيني وبين برهم صالح الذي كان في ذلك الحين رئيس وزراء الحكومة الإقليمية في السليمانية. كان من المؤيدين بقوة للغزو الأمريكي والمشاركة الكردية في العراق الديمقراطي الفيدرالي، كما أنه كان حريصاً على الشك المتشرب في ناخبيه ببغداد وتوقهم للاستقلال. كانت السليمانية مدة اثنتي عشرة سنة واحدة من عاصمتي كردستان العراق، ودولة مستقلة فعلياً تحت حماية منطقة حظر الطيران. نشأ جيل من الأكراد لا يتكلمون العربية، ولا يشعرون بأي ارتباط بالعراق، وكان من الصعب الترويج لفكرة العودة للمشاركة في بلد لم يمضِ وقت طويل على ما فعله بالأكراد من إبادة جماعية وتطهير عرقي.

قال صالح: «مع أنني قبلت بالقدر الذي وضع التاريخ فيه شعبي، إلا أنني أريد أن أطمئن أولادي والأجيال القادمة أن العراق الجديد سيكون مختلفاً بشكل جذري، وإذا لم يكن لدى العرب في العراق الشجاعة للاعتراف بالماضي المرعب الذي عشناه، وتعديل الظلم الذي وقع على شعبي، فسأواجه صعوبة كبيرة في إقناع المشكّكين في السليمانية بأن العراق هو مستقبلنا».

عدت لمقابلة صالح مرة أخرى في حزيران من عام 2004، في أول يوم له بصفته نائباً لرئيس الوزراء في الحكومة العراقية الجديدة المؤقتة. بعد سنة من الاحتلال والتمرد، كان أكثر سوداوية، وكان تفسيره للدستور المؤقت فيما يتعلق بكركوك متشدداً. «إن السكان والجاليات الأصلية في كركوك هي من يجب أن يقرر مصير كركوك، وليس أولئك الذين جلبهم صدام أو أي قوة خارجية» كما قال: كان العرب الموطّنون ضحايا أيضاً «كانوا أدوات لسياسة حقيرة؛ لأن نظام صدام أراد أن ينشئ بيئة لحرب أهلية دائمة بين العرب والأكراد» وأضاف صالح: «كركوك ليست البوسنة، وفي الحقيقة فإن القيادة الكردية قد أظهرت أعلى درجات ضبط النفس في الطريقة التي عالجت فيها قضية كركوك، لو كنت في البوسنة لرأيت حرباً أهلية».

سألت روش شاويس، أحد نائبي رئيس الحكومة المؤقتة: ما الذي سيحدث إذا رفض العرب الموطّنون مغادرة كركوك؟ هل سيتم شحنهم في سيارات ونقلهم إلى الجنوب، إلى البصرة والكوت؟

فأجاب: «يجب أن تكون هنالك حملة مستمرة لإقناعهم».

ألن تؤدي محاولة إرغام العرب على مغادرة كركوك إلى أعمال انتقامية ضد الأكراد في المناطق العربية في العراق؟ قال شاويس: «كلا، هذا وضع مختلف، فالأكراد الذين يعيشون في الجنوب سيأتون إلى هنا بشكل طبيعي جدًّا، وليس عبر حملة لتغيير الانتماء العرقي». وقال شاويس: بعد عكس التطهير العرقي، «يمكن أن يعيش الجميع حيث يريدون. لكن قبل ذلك يجب عكس السياسة الظالمة التي كانت تمارس لتقوية حزب البعث ولتغيير تركيب بعض المناطق». وأضاف: إن الأمريكيين انتظروا طويلاً لحل مشكلة كركوك، «هذا رأيي: كركوك جزء من كردستان».

تخيلت أن بختيار أمين، من بين كبار المسؤولين الأكراد، هو الذي سيجد أن موضوع كركوك هو الأكثر إزعاجاً. فقد نشأ في حي إمام قاسم، الحي الكردي القديم القريب من الحصن. وقد طرد هو وعائلته من كركوك في أثناء التعريب، كما تعرض أقاربه للسجن

والتعذيب. كان أمين في منتصف الأربعينيات، وكان قد عاش في الخارج سنوات، وعمل ناشطاً في حقوق الإنسان في أوروبة، وأسس التحالف الدولي للعدالة. ثم أصبح أول وزير لحقوق الإنسان في حكومة عراقية ذات سيادة. لكن حين جلسنا في مكتبه الواسع في بغداد للحديث حول العدالة في كركوك، أوضح أمين أنه يجيب بصفته كردياً.

بعد أن سرد تاريخ اضطهاد الأكراد بإسهاب، حذّرني الوزير من أن الوضع في كركوك يصبح متفجراً. فبعد أن ملأ الأمريكيون أيديهم بباقي العراق، «يريدون المحافظة على الهدوء هناك، كهدوء المقبرة». أضاف أمين: «من المهم ألا نكون ساذجين مع خصومنا ومصلحين مع أصدقائنا. فلصبر الضحايا حدود أيضاً». وأصرّ أن الحل الوحيد هو إعادة سكان كركوك إلى ما كانوا عليه قبل التعريب، مع مساعدة العرب لإعادة توطينهم في الجنوب.

وسألته كيف يمكن أن يجيب شاب عربي يقول: «سيدي وزير حقوق الإنسان، كركوك هي بلدي الأصلي، وليس لدي بلد آخر. فلمَ علي أن أغادر؟» فأجاب أمين أنه لن يقدّم الشاب العربي على شاب كردي، فقد بيته ونشأ في خيمة، ومات أخوه أو أخته من الجوع والبرد. بل سيقول للشاب العربي: «والدك ووالدتك من منطقة أخرى، وقد جاؤوا إلى هنا، وأخذوا بيت هؤلاء الناس، وهذا ما فعلوه بأولئك الأطفال. وسأساعدك في الحصول على حياة لائقة في المكان الذي أتى منه والداك».

كان السياسيون الأكراد والناخبون الذين يمثلونهم يريدون أن يضمنوا ألا يعيد مستقبل العراق ما جرى في الماضي. بعد سقوط النظام، تفاوض الأكراد بجهد مع الأمريكيين والعراقيين على مسارين: فقد كانوا يسعون إلى أكبر قدر ممكن من السلطة في بغداد وإلى منطقة قوية مستقلة ذاتياً في الشمال. كانوا يفهمون أن الدستور الانتقالي والدستور الدائم هما مفتاح رغباتهم، ووضعوا مهاراتهم المهمة في العمل على هاتين الوثيقتين، وكانوا في الغالب يتفوقون على الأمريكيين الشباب الذين يفتقدون للخبرة والعراقيين المقسّمين الذين يتعاملون معهم. ازدادت عزلتهم عن حلفائهم الأمريكيين الذين كانوا يبدون أكثر استعداداً لتهدئة العرب العنيدين من الأكراد الذين يمكن الاعتماد عليهم. وقد أخبرني

عدد من السياسيين الأكراد أن ما حدث في عام 1975، حين سحبت الولايات المتحدة دعمها وسلّمتهم للنظام البعثي، يمكن أن يتكرر الآن. كان هذا النوع من الحديث يُشعر برد الفعل المتطرف الذي ولّدته تجربة شاقة، ونوع من الاضطراب العصبي الذي وقع فيه كل من الأكراد والعرب في العراق.

قال سمير شاكر الصميدعي، سفير الحكومة العراقية الانتقالية إلى الأمم المتحدة: «لا أستطيع أن ألوم كردياً لأنه يشعر بالغضب. لكنني أستطيع أن أناشده أن يحتوي غضبه؛ لأن الغاضبين غالباً ما يفعلون أشياء غبية، وينتهي بهم الأمر بأن يؤذوا أنفسهم. وعلى العرب، من جهة أخرى، أن يعترفوا بالظلم، وأن يخرجوا السم من النظام. قلت ذلك للعرب في كركوك: علينا أن نعترف بما فُعل في الأكراد باسم القومية العربية، الذي ربما كنتم عن غير قصد أداة له». وقال: إن غضب الأكراد لن يهدأ حتى نبدأ برؤية العدالة تتحقق، «خاصة للعائلات التي عانت أكثر في كركوك». وقال لي الصميدعي: إنه حين أدلى بهذه الآراء أمام العرب العراقيين، كان ردّهم التذمر. كان لعناد الأكراد بشأن كركوك، وتهديدهم بالحرب والانفصال أحياناً إجابة بين العرب. قال الصميدعي: «القومية تشعل القومية»، أظن أن علينا أن نبتعد عن القومية ونتحرك نحو الإنسانية».

أخبرني مسؤول حكومي في بغداد وصف نفسه بأنه تحرري عراقي أن المزيد من القادة يردّون على التهديدات الكردية بموقف «الراحة للتخلص منهم». وقد لا تفوق مكاسب إرضاء الأكراد تكاليف ذلك. وقال: «حقيقة الأمر أن العرب في هذه البلاد -ثمانون بالمئة- قد تعبوا من هذه التهديدات بالانفصال، ويوماً ما ستكون إجابتهم: انفصلوا».

على الرغم من ذلك، كنت في أثناء زيارات ثلاث لكركوك ألتقي دوماً بمواطنين من كل عرق لا يزالون راغبين في العيش معاً. وبالتحديد، كان أهل كركوك الذين قضوا طوال حياتهم في المدينة أكثر رغبة في الاستغناء عن جزء من مطالبهم التاريخية في سبيل التعايش بسلام مع المجموعات الأخرى. وأدركت أن فكرة المدينة متعددة الأعراق لا تزال موجودة في عقول أهل كركوك، ولم تكن تلك الفكرة مجرد قطعة يائسة من العلاقات العامة المبهجة من المسؤولين الأمريكيين أو البريطانيين.

هنان شاب في العشرينيات من عمره اسمه محمد عباس، كانت أسرته قد جاءت إلى كركوك حين كان في السادسة من عمره لأجل الخدمة العسكرية لوالده، قد وصف لي ألم خسارة الأصدقاء الأكراد بعد الحرب. «لا أريد أن أغادر؛ لأنني اعتدت هذا المكان، وطريقة الحياة هنا». كانت الشرطة الكردية قد اعتقلته مؤخراً طوال الليل؛ لعدم حمله بطاقة هوية. وقال: «ربما لو حدث هذا في عهد صدام، لبقيت في السجن عدة أيام. وربما يكون أحد الأكراد قد تعرّض للتعذيب». كان عباس يعتقد أن العرب والأكراد يستطيعون العيش معاً في كركوك إذا سمح لهم السياسيون بذلك. قال عباس: «نحن بشر وهم بشر، في رأيي، للأكراد كل الحق في مدينة كركوك. فلهم حقوق أكثر في كركوك، وهم يستحقّون كركوك. لكن مع ذلك لا يمكننا الذهاب إلى أي مكان وترك بيتنا. أين سنعيش؟».

في الطرف الآخر من المدينة، التقيت مهندساً شاباً كردياً اسمه سردار محمد. كان قد نجا بشكل ما من سنوات التطهير العرقي كلها في حي إمام قاسم الكردي القديم، حيث حُصر مع زوجه وأولاده وأخويه وعائلتيهما في بيت واحد. وقال لي: «لولا الحرب، لما وجدت كردياً واحداً في كركوك في أثناء خمسة عشر عاماً». حين بدا أن الغزو الأمريكي قريب، ذهب محمد إلى قبو منزله وقطع مربعاً في الجدار الجصّي، كان خلفه غرفة مخفية. وخطط للاختباء فيها إذا بدأ البعثيون بجمع الشباب الأكراد، كما فعلوا عام 1991. لكن البعثيين هربوا من المدينة بدلاً من ذلك. وبعد سقوط النظام، قامت عائلة محمد ببناء حمام خارجي وتوسيع المطبخ، وملئه بأجهزة جديدة. قال محمد: «ليس الموضوع أنني لم أكن أملك المال، لكنني لم أكن متأكداً أنني سأحتفظ بهذا البيت. لم أكن أعرف إن كنت سأحتاج للمال في المستقبل من أجل الطعام». كانت زوجه قد تركت الدراسة؛ لأنه لم تكن هناك فرصة للمرأة الكردية التي لا تصحح جنسيتها بإيجاد عمل. فقامت بعد التحرير بالتسجيل من جديد وحصلت على الشهادة. قال محمد: «في السابق، لم نكن نعرف متى قد نُعتقل أو نُطرد. أما الآن فقد أصبح لدينا أمل في المستقبل».

أما فيما يخص الذين كانوا يتمتعون بجميع الحقوق والمزايا التي حُرمت منها عائلة محمد، فقد كانت لديه وجهة نظر، أنه سيكون من الأسهل للجميع أن يغادروا. قال محمد: «لكن أطفالهم، الذين وُلدوا هنا، أصبحت هناك علاقة بينهم وبين المكان الذي ولدوا فيه»،

وسيكون من الظلم أن يتعين عليهم أن يرحلوا». وفي رأيه أن السبب الوحيد الذي يجعل كركوك تنضم إلى كردستان هو أن العرب لم يعاملوا الأكراد بإنصاف. كان الشيء المهم هو تغيير أفكار العراقيين. وقال محمد: إن العرب إذا اعترفوا بأنهم جاؤوا إلى كركوك عبر التعريب وطردوا الأكراد «فبإمكانهم البقاء وحتى إحضار المزيد من العرب». وإذا كانت حكومة بغداد تضمن معاملة جميع الأكراد بشكل متساوٍ، فإنه سيكون مسروراً بالعيش تحت لوائها بدل لواء كردستان.

عانت كركوك بشكل غير منتظم الأفكار السيئة، وقد ولّدت الأفكار القديمة أفكاراً أخرى جديدة: أن يعود الزمن أربعين عاماً للخلف، أو أن يقسّم العراق بين السنّة والشيعة والأكراد دون إراقة الدماء والمآسي الشخصية التي لا تعدّ. كانت أضعف الأفكار في العراق هي فكرة العراق نفسه. قال برهم صالح: «ليست هناك هوية عراقية أستطيع أن أفرضها على شعبي اليوم. أريد أن يكون لدي هوية عراقية، لكنها ليست موجودة». وقال سمير شاكر الصميدعي: «الابتعاد عما فعله صدام، حين كانت الهوية الإثنية هي الأهم، إلى مجتمع الأهم فيه هو المواطنة، هذا الانتقال ليس انتقالاً سهلاً. لكن علينا أن نصنعه على الرغم من ذلك».

لقد أصبح الهوس بالهوية الإثنية هو التراث الأساس لحكم صدام، وثأره الشيطاني من أبناء بلده. لا يمكن الشعور بذلك بقوة كما في كركوك. قال عربي في كركوك: «لقد ذهب صدام، لكننا لم نتخلص منه، وإن لم يكن هنا، فكأنه قد زرع مشكلات للمستقبل».

في آخر مساء لي في كركوك ذهبت مع لونا داود لرؤية الحصن. كانت ترتدي حذاء مفتوحاً ذا كعب عالٍ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تغطي شعرها، إلا أنها رفعته إشارة للاحترام. لم يسبق لها أن زارت الحصن إلا مرة واحدة عام 1988 بعد إخلاء البيوت من السكان وتدميرها، فأصبح لديها كره للمكان.

عند الغروب، مررنا عبر السوق، ومررنا بالمحلات الكردية الصغيرة التي تبيع الخبز واللبن والأدوات ذات المظهر القديم، ومررنا بمحل حدادة، ثم سلكنا زقاقاً مؤدياً إلى أعلى التل. كان الحصن ممتداً أمامنا، كحقل واسع شبه فارغ ليس فيه إلا الأوساخ والأعشاب اليابسة والحجارة المكسورة والآثار المبعثرة. كانت هناك مجموعة من الكلاب التي تنبح

بشكل مخيف. لم يكن هناك من البشر إلا رجل تركماني وعائلته. كانوا يجلسون في الضريح الرخامي لإمام مات منذ وقت طويل. قال لنا الرجل التركماني: إنه كان فيما مضى يعيش في بيت يبعد بضع ياردات. وقد عاد بعائلته بعد سقوط النظام، وسمح له بالبقاء بطريقة ما. قال لنا: «هذا هو مكاني الأصلي. أنا رجل فقير، وليس لدي مكان أذهب إليه. أين يذهب الرجل الفقير؟».

قطعنا الحقل إلى البرج المثمّن الذهبي والأبيض الذي كان أحد الباشاوات العثمانيين قد بناه لابنته، والمنارة الطينية القديمة لقبر الأنبياء. لونا التي كانت تسير في صمت المصدوم، قالت فجأة: «إنهم أغبياء، لقد دمّروا تاريخهم». على الطرف الآخر للحصن، كان البيت المهجور لبائعة الأحذية والمحافظ التركمانية في السوق يجثم فوق مجرى النهر الميت. وكانت كرة الشمس البرتقالية تغرق خلفه. على جدار أحد البيوت، كتب أحدهم: «عاش التركمان، إنهم تيجان فوق رؤوس الأكراد». كانت هناك كتابات على الجدران الأخرى، أيضاً: «كركوك قلب كردستان»، «حصن كركوك هو رمز الأكراد»، «حصن كركوك شاهد على أنها تركمانية، مهما كانت الظروف». كتب أحدهم على جدار فناء بيت شبه مهدّم: «الشعب التركماني شقيق الشعب الكردي»، لكن شخصاً آخر كتب فوق الكلمتين الأخيرتين: «الأشباح هنا». تمتمت لونا: «أستطيع أن أسمعهم بالليل تحت الأرض، حين كنا صغاراً كانت أمي تقول: إن هناك طريقاً من كركوك إلى بغداد. هناك باب في مكان ما تحت الأرض للذين يريدون الهرب من كركوك».

زاد انزعاجها، بينما كنا نقترب من قبر الأنبياء. «ليست هذه هي القلعة التي أعرفها. قلت لك: إنني أتيت إلى هنا مرة قبل ذلك. لكن كان هناك طريق وناس. لا أعرف حتى أين كان ذلك الطريق». كانت قد أتت مع ثلاثة من الأصدقاء، أحدهم مسلم، بعد أن حلمت بالنبي دانيال.

وقفنا أمام المدخل. كان المؤذنون في المدينة في الأسفل يبدؤون أذان المغرب. دخلت إلى الغرفة الفارغة، وانتظرت أن تتبعني لونا، لكنها تراجعت عند المدخل ببكاء صامت. فتبعتها للخارج.

قالـت بتعجّـب: «لقد كانت من الذهب!» فحين زارت الضـريح بعد حلمهـا، كانت القبور والجدران مغطاة بقشـرة من الذهب، فتمت إزالـة الذهب كله. قالت لونا: «أنا حزينة الآن، أنا الآن فعلاً أشعر بالاكتئاب؛ لأنني أستطيع أن أرى الفرق بين ذلك الوقت وبين هذه الزيارة. لا أستطيع أن أشعر بالسر المقدّس للمكان. حين صلّيت في المرة السابقة، شعرت أن «دانيال» سيعطيني ما أتمنى. لكنني الآن لا أشعر بقدسيته. حتى إنني أخاف أن أدخل».

بدأ الظلام يحل، وبدأنا بالعودة. كانت لونا صـامتة مـن جديد. أمام الفتحة التي تؤدي إلى الزقاق الذي يصـل إلى السـوق، كانت هناك حفرة مربعة في الأرض. وقفت لونا وقالت: «أذكـر البئر الذي رأيناه الآن. أذكر أنه كانت هناك أشـجار. أنـا أذكر الآن، لقد زرت هذا المكان حين كنت طفلة».

حلّ الغسـق فوق السـوق. كانت الأكشاك في السوق تغلق وسـط النداء الأخير بالأسعار، وكان الكنّاسـون ينظفـون نفايات اليوم. كانت لونا تتحدث بصـوت منخفض جدًّا كأنها هي شـبح. «ما قيمة الإنسـان، إذا كان الناس يسـرقون مكاناً كهذا؟ من الأفضل ألا نعرف شيئاً عما حولنا؛ لأن الإنسـانية لا تعني لي شـيئاً الآن. أنا آسـفة أنك أحضـرتني إلى هذا المكان. كان علي ألا آتي».



11

يوم التأبين

قرابة الساعة 40 :7 من مساء يوم 8 تشرين الثاني 2003، خرجت عربتا هامفي من البوابة الأمامية لقاعدة أمريكية في معسكر الرشيد العسكري جنوب بغداد. كانت المهمة إحضار عريف يحضر اجتماعاً في مشفى الدعم القتالي داخل المنطقة الخضراء. وكانت القافلة من فصيل الكشافة في فرقة المقر 2 - 6 مشاة، وهي كتيبة جون بريور. في المقعد الخلفي الأيسر للمركبة الأولى جلس جندي خاص في الثانية والعشرين من عمره اسمه كيرت فروشيسر.

لم يكن هناك شيء ظاهر يميّز الجندي الخاص فروشيسر عن عشرات الآلاف من الشباب المجنّدين الذين خدموا في العراق. كان فروشيسر من دي موا من ولاية أياوا. وكان له أخ توءم، وأخت متزوجة أكبر سناً، وكان والداه مطلّقين، وكان طالباً عادياً ومتمرّداً بعض الشيء في المدرسة الثانوية، وفي الحادية والعشرين من عمره ترك الكلّية، وعاش مع عائلة أخته، وكان يعمل بتوصيل البيتزا، ويحضر الحفلات بكثرة. كانت له ابتسامة صبيانية صفيقة، بفمه الممتلئ وعينيه ذات الجفون السميكة التي أخذها عن والده، كان يحب لينيرد سكينيرد وشرطة شيكاغو؛ وفي أحد الأيام في كانون الثاني 2003، دخل إلى البيت، وأخبر أسرته أنه قد تطوّع في الجيش.

لم يكن والده كريس مبتهجاً بالخبر. كانت هناك حرب تدور ضد الإرهاب، وكانت هناك إمكانية قوية لحدوث حرب برية في العراق. لكنه لم يحاول أن يتجادل مع ولده. وفي شهر شباط، جاء كيرت إلى شقة والده في الثانية صباحاً بعد أن كان في الخارج يشرب، وقال: «أريد أن أصبح جزءاً من شيء أكبر من نفسي».

تابـع كيرت غزو العراق على شاشـة التلفاز، وكان يبدو جاداً أكـثر من أي وقت رأته فيه أختـه إيرين. كان لديه مجال للتراجع عن التزامه، لكنه غادر بيته في 16 نيسـان إلى فورت نوكس، «كينتاكي»، لحضور التدريب الأساس. وفي شهر حزيران ذهبت العائلة لرؤيته في يوم الأسـرة، وذهل كريس فروشيسـر للتحول الذي رآه: كان ابنه يقـف في انتباه ممتاز في حقل بيرشـينغ مدة خمس وأربعين دقيقة بلباسـه العسكري. وفي شـهر آب من العام نفسه عادوا لحضور تخرجه: الجندي الخاص فروشيسر، يمشي ويغني مع زملائه في الدراسة، «احملوا جرحاكم، احملوا قتلاكم». كانت الكلمات تبعث القشـعريرة في فروشيسـر، لكن الموسـيقا، ودقة التشـكيل وحدّته، وتحمّل ولده، كان كل ذلك يملؤه فخراً. كان هناك شيء جديد ومهم يحدث في حياة كيرت. بعد الاحتفال قال كيرت لوالده: «لم تكن ملتزماً معي بما فيه الكفاية». كان كريس يتلكأ دوماً في المناطق غير الواضحة، ويطرح الأسئلة، لكن كيرت كان يريد النور الواضح للقسَم والأمر.

عادوا جميعاً إلى دي موا؛ ليقضوا الأسبوعين الأخيرين لهم معاً في نهاية الصيف قبل أن يلتحـق كيرت بالفرقة المدرّعـة الأولى في ألمانية. كان يحتفل كل ليلة، لكن الرحيل كان يخيّم علـى الجميع، وفي الليلة الأخيرة، حين أوصـلته إيرين إلى الحفلـة الأخيرة، والتفتت لتنظر إليه، قال لها: «أعرف»، وتركها مسرعاً.

قال كيرت لوالده في وقت متأخر من تلك الليلة: «حسناً أيها الرجل العجوز، على الأرجح أنني لن أراك قبل عامين»، وبدأ كلاهما بالبكاء، ومسـح فروشيسـر بيده على شعر ولده ذي القصّـة العسكرية. «أعرف أنني سأكون في وضـع صعب. لكن كما تعرفني، فأنا أنجو». كان فروشيسر يعرف أن تلك الكلمات كان المقصود منها أن تريحه. فقال لوالده: «عش حياتك، أيها الرجل العجوز».

في ألمانية، شـعر كيرت بالملـل من عقله، وكان متلهفاً للالتحـاق بباقي فرقته في العراق. مرة ذكر لوالده في مكالمة هاتفية أنه يبدو كأنه لا توجد أسـلحة دمار شامل في العراق. «لقد خُدعنا. أليس كذلك؟» فقال والده: ليس بالضـرورة، قد يكون هناك أسـباب أخرى للحرب، مثل الديمقراطية في الشـرق الأوسط، ربما كانت أسـلحة الدمار الشامل أسهل الأمور التي يمكن أن تقنع الشعب. هيأ الضباط في باومهولدر كيرت والآخرين لما أصبح حرب عصابات

في العــراق، وقالوا لهم: ألا يلتقطوا أكياس النفايات، أو يأخذوا الرزم التي يســرع الأولاد في إعطائهم إياها، وحين ذكر كيرت ذلك لإيرين لم تســتطع أن تتخيل نفســها في مكان كهذا، حيث لا تستطيع أم مثلها أن تسمح لأولادها بالخروج من البيت؛ خوفاً من انفجار شيء.

وفجأة أصــبح كيرت بعد ذلك على متن طائرة إلى الكويت. وفي نهاية شهر تشرين الأول كان في بغداد، في الوقت الذي كانت اعتداءات رمضان تشتعل.

في 6 تشــرين الثاني استطاع الاتصــال بالإنترنت، وأرسل رسالة إلكترونية لأخته: «القطاع الــذي نقوم بحراســته جيد، ونحن لا نتعرض لإطلاق النار، ولا نجد عبوات ناســفة بســيطة، حيــث كانــت طريقتهم الرئيســة في مهاجمتنــا هي وضــعها في أكياس، لكنهم الآن يضــعونها في الحيوانــات الميتة أو الكتل الإســمنتية لإخفائها بشــكل أفضــل. من المرعــب أن نعرف أنهم في الخــارج، لكن كما قلت فإن منطقتنا مؤمنة وكل شــيء ســيكون على ما يــرام». وحين كتب لوالده عن مهمته الأولى خارج المدينة التي كانت دورية ليلية مليئة بالأحداث، كان كيرت أكثر وضوحاً: «وجدت نفسي أفكر أنني في بلد فقد فيه كثير من الجنود حياته، لكن في الوقت الذي قضــيته فيه كان هادئاً باستثناء الكلاب الشــاردة التي تنبح. العراقيون يكرهون الكلاب؛ لذا فجميعها برية ولم تســتحم مــرة في حياتها. وليس في العراق مجارٍ؛ لــذا فهم يحفرون قنوات ويتركون الفضــلات في الشوارع، فتفوح منها رائحة كريهة جدًّا. وكما قال الجنود الذين كانوا هنا منذ البداية؛ فهي أماكن ذات رائحة ســيئة لدرجة تجعلك تتقيأ. وحسبما أرى، فإن الأمر سيســتغرق أكثر كثيراً مما يقول رامسفيلد وبوش: إنهم بحاجة إليه لإعادة الأمور إلى وضعها في هــذا البلــد الكريه. تحدّث كيرت مــرة مع والده على الهاتف باختصــار، وقال: «متفجرات محلية الصنع، أيها العجوز، متفجرات محلية الصنع».

في مســاء 8 تشــرين الثاني، كان كيرت جالساً على ســريره، يصنف ويعد ذخيرته، حين جاء الأمر بمهمة إلى مشــفى الدعم القتالي. كان يتدرب لنيل شــهادة ســائق عربة هامفي، وقفز لينتهز الفرصــة لتجربة القيادة في بغداد ليلاً. في أثناء الأيام القليلة التي قضــاها مع كتيبته عرف أنه مُجدّ وســريع التطوّع. تســابق هو وصــديقه المقرّب في الوحدة، المجند مات بلاملي من تينيســي إلى المركبة. ولما كان الباب الخلفي الأيمن صــعب الفتح، اتجه كلاهما نحو الباب الأيسر، فوصل كيرت أولاً.

بعـد خروجه من القاعـدة بخمس دقائق، بينما كانت القافلة تنطلق شـمالاً نحو وسـط بغـداد، كانـت على الطرف الأيسـر للطريق السـريع المظلم أمامهم على بعـد ثلاثين قدماً قذيفتـان مدفعيتان من عيار 130مم محشـوتان بمادة سـي 4 الروسـية بقوة هائلة: شـعلة مضـيئة، ودخان أسـود، وغبار متطاير، ورائحة متفجرات. مزقت رجلي السـائق، الجندي الخاص مات فان بورن، بسبب القطع المشتعلة المتطايرة، لكنه أسرع بضع مئات من الياردات علـى الطريق السـريع؛ ظناً منه أنه يسـتطيع أن يدخل بوابة الحشاشـين، إلى أن طلب إليه الرقيب الأول الجالس أمامه، داريل كلاي، أن يتوقف.

بدأ المؤذن ينادي المؤمنين للصـلاة. وفي الخلف في عربة الهامفي، كان كيرت سـاقطاً في مقعده. وحين تفقد بلاملي نبضـه، كان قد توقف. كان ينظر من النافذة -التي لم يكن لها زجاج واقٍ- التفت برأسـه جهة اليسـار، واخترقت قطعة معدن فضـية الجانب الأيمن مـن جمجمتـه تحت الخوذة تماماً بين عينه وأذنه وخرقت دماغه. حُمل كيرت فروشيسـر بطائـرة مروحية إلى مشـفى الدعم القتالي في المنطقة الخضـراء، حـين أعلنت وفاته في الساعة 8:17 مساءً.

في السـاعة السادسـة والنصف حسب التوقيت المحلي من صـباح اليوم اللاحق، الأحد، رنّ الهاتف في الشـقة الصـغيرة التي يعيش فيها كريس فروشيسر العازب في دي موا. كانت المكالمة من مقدّم في الحرس الوطني بأياوا الذي كان على بعد بناءين ويحـاول إيجاد العنوان. قال له باقتضاب: «لدي رسالة من الجيش»، عندها عرف فروشيسر؛ لأنه سأل أحد الضباط قبل أسبوع: ماذا عليه أن يتوقع إذا حصل شيء لكيرت، وقال له الضابط: إنه سيتلقى مكالمة هاتفيـة إذا كان مصـاباً، وزيارة إن كان قد قُتل. قابل فروشيسـر المقـدّم أمام المبنى ودعاه للدخول، وكان يتحرك مفترضاً أن كل هذا قد يكون خطأً، وأجريا حديثاً مختصراً في غرفة الجلوس. ذهب فروشيسـر إلى المطبـخ لإعداد فنجان من القهوة. وحـين عاد، وقف المقدّم فجأة باستعداد: «يؤسفني أن أخبرك أن ابنك كيرت قد قُتل بسبب الأحداث في بغداد».

«ليس كيرت! ليس كيرت!».

ركض كريس فروشيسر إلى الصالة، ثم عاد يركض إلى غرفة الجلوس. سأله المقدّم إن كان يستطيع الاتصال بأحد؟ لكن فروشيسر كان يتصل بإيرين، ثم اتصل بصديق أوصله إلى بيت ابنه الثاني، توءم كيرت، جويل. ضرب فروشيسر على النافذة، وهو يصرخ: «إنه كيرت، إنه ولدنا كيرت!» ثم انطلق هو وجويل معاً إلى الحي الذي تسكن فيه إيرين. كانت بقية اليوم والأيام اللاحقة مليئة بالدموع والأصدقاء والخمر والإعياء.

في يوم 11 تشرين الثاني، يوم المحاربين القدماء، اجتمعت كتيبة كيرت، (كتيبة المشاة 2-6)، في القاعدة الأمريكية جنوب بغداد للتأبين. كان جون بريور هناك، وكذلك القائد الآخر روبرت سووب الذي كتب فيما بعد وصفاً للحفل:

في الخلفية أصوات ناس يتكلمون، ومركبات تعبر، وطائرات مروحية فوقنا. بعض الطيور تطير فوقنا بشكل متقطع. وفراشة تمرّ بنا. أنا أرى أحد المترجمين العراقيين من مركز الترجمة الرسمي يجلس على كرسي ويقرأ ورقة، بينما تقف بقية الكتيبة في الصفوف. يفترض أن يبدأ الحفل الساعة 14:02، لكنه لم يبدأ حتى 48:2 لأنه كان علينا أن ننتظر وصول اثنين من الجنرالات.

بدأ الحفل بصلاة من القسيس، وبعد ذلك تحدّث كل من آمر الكتيبة وآمر السريّة. وتبعهما جنديان خاصان كانا يعرفان الجندي. أحد الجنديين اختنق وبكى، بينما كان يثني على كيرت. نظرت حولي إلى بحر من الوجوه الحزينة، وفي مؤخرة صفوف الكتيبة رأيت أن إحدى الجنديات المرتبطات بفرقتنا كانت تبكي.

عزف زمّار مقطوعة «Amazing Grace» بشكل سيئ حتى إنها في وسطها بدت لا تشبه الأغنية. قام الجندي الذي عزف «Taps» في نهاية الاحتفال بعمل أفضل كثيراً.

بعد انتهاء المقطوعة الأولى وقبل بدء المقطوعة الأخيرة، تلا القسيس آيات من الإنجيل، ثم قدّم رسالة تأبينية وصلاة. وبعد ذلك كانت هناك دقيقة حدادًا. ثم قرأ الرقيب الأول بالوكالة في السرية قائمة الحضور، وكان ينادي بأسماء الجنود في الوحدة. أجابوا جميعاً،

واحداً تلو الآخر، بأنهم حاضرون. وحين وصل إلى الجندي القتيل، كان كل شيء هادئاً.

نادى باسمه ثانية، لكن دون إجابة. فقام بذلك للمرة الأخيرة، مستخدماً اسمه الكامل ورتبته:

صمت.

ثم بدأت معزوفة «Taps» الحزينة. وفي منتصف المعزوفة بدأ عازف البوق يبتعد ببطء، جاعلاً الموسيقا تخفت بلطف عن بعد. مشى جيس إلى المكان الذي كان فيه سبعة جنود يقفون ومعهم سبع بنادق. أعطى الأمر، وأطلقوا ثلاث مجموعات من الرصاص؛ ليقدموا تحية بإحدى وعشرين طلقة.

حين انتهوا مشت الكتيبة إلى النصب التذكاري الذي كان عبارة عن بندقية إم 16 ذات حربة معلقة بحامل خشبي، وفي أعلى السهم كانت هناك خوذة معلقة تتدلى منها بطاقتان عليهما اسمه ورقمه الاجتماعي وفصيلة دمه وديانته. وأمام البندقية مباشرة في وسط النصب التذكاري تماماً كان هناك زوج من الأحذية العسكرية. وإلى يمينه ويساره نجمتان برونزيتان وقلبان أرجوانيان في حقيبتيهما المصنوعتين من الحرير والمخمل. وخلف البندقية كان هناك سيفان متصالبان يمثلان الوحدة التي ينتمي إليها. تبع باقي الجنود قائد الكتيبة الذي حيّا النصب التذكاري الذي يمثل الجندي الخاص فروشيسر، إلى أن حيّاه جميع جنود الفرقة، ويمكن لباقي الحضور أن...

هذه هي المرة الثانية التي أضطر فيها لحضور حفل كهذا في هذا العام، وأنا لا أشعر بالراحة لقيامي بذلك. مشيت إلى النصب التذكاري بالطريقة التي مشيت فيها في شهر نيسان الماضي إلى نصب جندي آخر في سريّتي، كنا قد أقمنا له المراسم نفسها في حقل من الأوساخ قرب المَدرج في مطار بغداد الدولي. لم أحنِ رأسي أو أصلِّ أو أهمس بشيء كما فعل كثيرون قبلي. لم أنحنِ لألمس طرف حذائه، كما فعل رئيس العرفاء قبلي. قدّمت التحية فقط، ثم استدرت وابتعدت.

أراد كريس أن يرافق جثمان ولده عند عودته من بغداد، أو على الأقل أن يلاقيه في قاعدة دوفر الجوية في ديلاوير. في النهاية كان يكفي أن يتسلم النعش في مطار دي موا مع ثلاثين

من أفراد العائلة والأصدقاء وأن يرى وجه كيرت مرة أخيرة. حاول فروشيسر أن يقول: إن شجاعة ولده ملأته بالخوف، لكنه لم يستطع أن يعبّر عن أفكاره بشكل جيد. حصل كيرت على جنازة عسكرية بعد المراسم الكاثوليكية ودُفن في مقبرة غليندل.

قالت زوج فروشيسر السابقة جيني، والدة كيرت، لصحيفة محلية: «كان يحب هذه البلاد ومبادئها. كان يحب أياوا. شرف لي أن أقدّم ابني؛ لأحافظ على طريقة حياتنا». كانت قد أصبحت مسيحية إنجيلية، وقالت: إن كيرت تطوّع لقتال قوات الشر. كان ذلك إيحائياً جدًّا لكريس فروشيسر، افتراض نوع من الحرب الدينية، كما أن كيرت لم يكن يتحدث بهذه الطريقة. في الليلة التي وصلت فيها الأخبار الرهيبة، اتصل الحاكم توم فيلساك؛ ليقدّم التعازي وقال: إنه يأمل أن تكون سياسات البلاد صالحة مثل أبنائها. قلق فروشيسر من فكرة أنها قد لا تكون كذلك. كان يقارن باستمرار بين قسَم الرئيس حين تسلم منصبه وبين القسَم الذي أقسمه ولده حين أصبح جندياً: هل كانا ينفذان قسميهما بالجدّية نفسها؟ في شهر كانون الثاني كتب أحد أصدقاء كيرت من فورت نوكس رسالة بالبريد الإلكتروني قال فيها: «لا أعتقد أنه كان في عربة هامفي مدرّعة، أليس كذلك؟ ربما لا، فالعم سام لن يعطينا أشياء جيدة». لم يعرف فروشيسر الإجابة، لكن التفكير في ذلك لم يساعده، ولو قليلاً في التغلب على حزنه.

جرت كل هذه الأمور بسرعة هائلة، واتساع تاريخي كبير - ابنه، في الجيش، في العراق، أحداث رمضان، ضربة في الرأس -حلم فروشيسر أنه في الجيش مع كيرت، مع أنه لم يكن من الواضح إن كانا أباً وابنه أو صديقين، لكن كليهما كان يجلس في الطرف الأيمن وحين جاء الانفجار سقطا من عربة الهامفي معاً وكان كل شيء على ما يرام. لم ينسَ فروشيسر فكرة أنه لم يكن مع كيرت في تلك الليلة ليحميه، وكذلك لم تفارقه فكرة أنه لم يرسل إلى كيرت الكتاب الذي طلبه لتولكينز The Return of the King. كان يضع ساعة كيرت في يده، وكانت لا تزال على توقيت بغداد، وكان المنبه فيها يرنّ كل يوم في الساعة 6:30 صباحاً و9:30 مساء في ديموا. ظل أسابيع وأشهراً يحاول أن يعرف معنى موت ابنه، لكنه لم يستطع الوصول إلى حل.

كان فروشيسر في الخامسة والستين من عمره. وهو ابن لبائع من شيكاغو، ويتحدث بلهجة هادئة غربية وسطى، وقد قضى معظم حياته يعمل في التأمين قبل أن يبدأ مهنة جديدة؛ هي مدير خدمات اجتماعية لجيش الإنقاذ في دي موا، حيث كان يحاول حل مشكلات حالات الشدائد التي تأتي إلى مكتبه، ويقدّم الطعام للرجال الذين ينامون تحت الجسور. كان ديمقراطياً طوال حياته، وكان قد دعم روبرت كينيدي عام 1968 حين كان طالباً. لم يكن يستطيع أن يشارك في الحركة الرافضة للحرب، على الرغم من أنه كان يعتقد أن فييتنام كانت خسارة هائلة، لكنها لم تكن سبباً يجعل المرء يكره بلاده. حتى حملة جين ماك كارثي لفتت نظره بأنها نخبوية، وغير تقليدية وحين قال ماك كارثي: إن كينيدي كان «يدير أقل الناس ذكاء وثقافة بالشكل الأفضل»، جعلت هذه الكلمات الصبي الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا ويرتاد جامعة دريك مستاءً. كان أمثال توم هايدن في العالم سينجحون كيفما قضوا شبابهم، وعلى أمثال كريس فروشيسر أن ينتبهوا لما يفعلون في وقتهم.

كان كريس جزءاً من أمريكة الوسطى، لكنه لم ينضم إلى ردّة فعل نيكسون وريغان: ظل تحررياً، على أسس اقتصادية في الغالب. وحين تراجعت نوعية المرشحين الديمقراطيين، عاد إلى أحد الاهتمامات الأكاديمية التي كانت لديه في سنوات دراسته الجامعية، وكانت الشقة التي استأجرها بعد طلاقه في منتصف تسعينيات القرن العشرين مليئة بكتب عن روزفيلت وترومان وآشيسون، التحرريين في منتصف القرن الذين بدوا أكثر حكمة وقسوة من ورثة جورج ماك غوفرن. قرأ روايات تاريخية عن الحريات الأربع لـ فرانكلين د. روزفلت ومذهب ترومان، وعندما تم نشر تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول اشترى واحدة من النسخ الأولى. وحين قرأه استنتج أن أفكار ذلك الجيل السابق من الديمقراطيين الذين حاربوا ضد الفاشية والشيوعية، بينما كانوا ينشئون تحالفاً للديمقراطيات، يجب أن تعاد وتطبّق على الحرب ضد الإرهاب والصراع في العراق. كان مضطرباً مع صديقه الديمقراطي الذي فكّر أن العراق فييتنام أخرى، ولم يستطع أن يحتمل أن يسمع أن حياة كيرت قد ضُيّعت. وحين اتصلت به جماعة كاثوليكية محلية في نيسان 2004 لتقدّم التعازي، وأعلمته أن صورة كيرت مع صور الآخرين الذين قتلوا من أهل أياوا، ستعرض في سهرة أسبوعية

على ضـوء الشـموع، اتصل كيرت وطلب عدم استخدام صـورة كريس. كان يعتقد أن تقديم التعازي يجب أن يكون قبل ذلك، كما أن روح السهرة كانت حول سياسة الحرب، وليس حول الجنود. لكن حين اشترى شمعة تدوم طويلاً من متجر كتب مسيحي وأخبر عاملة الصندوق أنها لقبر ولده، وقالت له: «شكراً لتضحيتك»، بدا له ذلك غريباً أيضاً. فلم يكن ذلك خياره.

في مؤتمر أياوا التحضـيري في ذلك الشـتاء دعم فروشيسـر السـيناتور جـون إدواردز. كانت لديه شكوك حول جون كيري. وحين دعا صديقًا له تصويت كيري ضد تخصيص مبلغ سـبعة وثمانين مليون دولار للحرب «تصويتاً احتجاجياً»، قال فروشيسر: «هذه قضية خطيرة تستدعي التصويت الاحتجاجي». تساءل إن كان كيري بصفته رئيساً يمكن أن يثبت في العراق تحت الضغط من قاعدة الحزب الناشطة. وإلا فما معنى موت كيرت إذاً؟ وحين قال الرئيس بوش في خطاب له: «سـنحتفظ بهذه الأرض التي كسـبناها بصـعوبة»، وجد اللغة ملهمة. أما لغـة كيري فلم تلهمه. ظل فروشيسـر يتذكر رسـالة لينكولن إلى الكونغرسـ عام 1862: «لما كانـت قضـيتنا جديدة، فعلينا أن نفكر بطريقة جديدة، ونتصـرف بشـكل جديـد. علينا أن نحرّر أنفسنا وبعدها سننقذ بلادنا». كان يتوق لسماع كلمات كهذه من قائد في وقت الحرب؛ كانت السياسـة بحاجة لفن التفسـير. لكن بوش، الذي كانت له أخطاء كثيرة، لم يكن قادراً على الاعتراف بها أو حتى رؤيتها؛ ومع أفضـل تعليم يمكن أن يشـتريه المال، كان يبدو أنه لا يعرف إلا القليل عن العالم. كانت الحرب تزداد سـوءاً، ولم يكن هناك ما يشـير إلى أن أحداً في القيادة يستطيع أن يقلب الأمور. وكان فروشيسر يريد أن يرى حكومة وحدة وطنية، تتألف من توماس كين ولي هاملتون من لجنة 11 أيلول، وأعضـاء مجلس الشيوخ بايدن وفاينستاين وهاغل وليبيرمان ولوغار وماك كين. كان العراق أهم من أن يترك للمتحيزين.

بينما كنت في العراق وصلت رسالة من دي موا. كان كريس فروشيسر قد قرأ شيئاً كتبته عن جون بريور، وكان يبحث عن طريقة يفهم فيها حياة كيرت القصـيرة وموته في العراق. وبعد أن عدت، بدأنا نتراسـل عن طريق البريد الإلكتروني. كانت رسـائل فروشيسـر مليئة بأسـئلة قلقة، والعودة باسـتمرار إلى بعض الأفكار غير الحاسمة، لرجل عانى صدمة وقرّر أن يشعر بكل تفاصيلها، وألا يتجنب شيئاً.

1 نيسـان، 2004: يريـد الديمقراطيون سياسـة خارجية وإسـتراتيجية للأمن القومي؛ ليقومـوا بدعمهـا. لقد أطلت الآن كثيراً، ولم أجب عن أسـئلتك بشـكل جيد. إن ذلك يظهر ازدواجية وصـعوبة في الحديث عن شـيء أكثر من الأمور الشخصـية. آسـف، هل يمكنني أن أكتـب لـك لاحقـاً؟ فأنا لا أسـتطيع المتابعـة الآن. أعدت قراءة خطـاب ترومان «مذهب ترومان» وخطاب بدء مارشال في هارفارد في حزيران 1947. لقد احترمتهم واحترمت تلك السياسـات. علي أن أتجنب المـرارة. أنا أحترم كيرت وغيره من الجنود، فالشـعور بالمرارة يبدو غير لائق. إلى اللقاء في المزيد لاحقاً، إن لم يكن لديك مانع.

1 نيسـان 2004: ما الذي يريده كيرت؟ إنه دليلي. أحياناً تكون «حماية القوة» والعمل في صراع، لكن يجب القيام بكل ما ينبغي فعله لحماية هؤلاء الشجعان، جنودنا. أنا أفتقد ولدي كثـيراً! دموعي تنهمـر طول اليوم. ما قيمة ذلك؟ عراق ديمقراطي؟ هل يسـاعد جنودنا في تحقيق عراق أكثر حرية وديمقراطية؟

15 أيـار 2004: أحيانـاً أفكـر في كون كيرت في بغـداد في العراق جزءاً مما يسـمى «عملية الحرية العراقية». قال كيرت: إنه يريد أن يكون جزءاً من شـيء أكبر من ذاته. كان في وسـط شيء كبير لدرجة: إنه يصعب فهمه. يمكن قول المزيد عن ذلك، أنا أريد فقط أن أعرف ما هو. لقد مات ابني لأجل شيء ما. وإن مجرد التطوع في الجيش شرف، فكيف بالخدمة في العراق.

26 أيـار 2004: أريـد لهـذا أن يكـون «نجاحاً» للعراقيـين والولايات المتحـدة، ومن أجل التضحية التي قدّمها كيرت وجميع الآخرين، ومن أجل ألم عدم وجود كيرت بيننا بعد الآن. كيرت ابني وشـقيق إيرين وجويل وخال كولين ومادلين. أنا لا أحاول أن أكون درامياً بشـكل مبالغ فيه، سيد باكر، أنا فقط أحاول أن أعبّر عن «الشعور» الذي يسببه ذلك الأمر.

5 تمـوز 2004: (في أوائل تموز عادت الفرقة المدرّعة الأولى أخيراً إلى ألمانية بعد أكثر من سـنة في العراق): أنا أشـعر الآن بنوع من الضـياع بسـبب مغادرتهم، دون كيرت. قد لا يكون لهذا معنى لكن ساعة كيرت على توقيت بغداد ووحدته ليست هناك، مع أنه كان معهم هناك. إنه الآن ليس معهم في باوهولدر. لهذا فإن الأمر يسـتغرق وقتاً طويلاً لكي نعرف ماذا، نتابع؟ ربما أنا أعيش على هذا النوع من الأشياء أكثر مما يجب. لكن هذا أنا، وسأكون على مايرام.

28 آب 2004: يـوم الثلاثاء القادم، سـيقيم جورج بوشـ حملة قرب دي موا في مجموعة مزارع تدعى أليمان، أياوا. على ما يبدو أن الحملة قامت بدعوتنا؛ لأننا عائلة كيرت؛ لنكون هناك. تحدثت أنا وجويل عن ذلك وإيرين أيضـاً، وسنحضـر. أظن أنه تكريم لكيرت. ربما يفسّر ذلك بأنه دعم لبوش وربما لا، لكنني سأضع ولائي الديمقراطي ضد ولاء أي شخص. أنـا مخوّل بمصـافحة الرئيس؛ تقديراً لكيرت. بالإضـافة إلى ذلك أعتقـد أنه من الغريب أن الديمقراطيـين القياديين لم يقولـوا لي إلا قليلاً جدًّا عن خدمة كـيرت، وأنا ديمقراطي مخلص. أعرف شخصـاً كان يشـغل منصـباً في الحزب الحاكم، وكان مـن أوائل المؤيدين لإدواردز. وقـد عبّـرت عن اهتمامي بالحديث مـع إدواردز حول خدمة كـيرت. لكن لم يتم ترتيب المقابلة. اعتقدت أن شخصـاً مثل إدواردز يجب أن يتحدث مع شـخص فقد ابنه في معركة. هل توجد قضية أكبر تعرض هنا حول الديمقراطيين والجنود؟ أشعر أحياناً أنه ليس لدي حزب. قام جون كيري بالفعل بإرسـال بطاقـة إلى جيني وإليّ، لكنني أعتقد بالفعل أن هناك شعوراً بالقلق بين الناشطين الديمقراطيين بشأن «الجنود» بسبب معارضة الحرب.

5 أيلـول 2004: متابعـةً لرسـالتي السـابقة حول لقـاء دوبيا، لم يحدث ذلك. لشـعوري بالالتـزام بتكـريم كيرت، لتسـلّم عرض قائـده الأعلى للتكـريم والتعزية فقـد ذهبت. كنا مجرد جزء من الحضـور. كما أن الزوجة السـابقة التي استلمت الدعوة من منظمة الحزب الجمهوري المحلية لم تكن سـعيدة أيضـاً. كان علينا الاسـتماع إلى «خطاب مكرر»، نسـخة مطولة عن ذلك الذي ألقاه في المؤتمر. كان يتكلم على «الحرب ضـد الإرهاب» وكأن العراق جزء منها دون أي تمييز بين الحالتين. هل هذا «كذب» أو «انطباع خاطئ»؟، هل هو تضليل، هل هذا صحيح وهو يعلم ولا يريد أن يطلع أحد على معلوماته؟ ماذا على المواطن أن يفعل؟ لقد حظي بكثير من التصفيق لتخفيض العبء الضريبي ولعدم رغبته بأن تتحكم الحكومات الأجنبيـة في سياسـتنا، أو أن يكـون جنودنا تحت قيـادة حكومات أجنبيـة. ذكر أحدهم في مكان ما أن علاوي مارس هذا التحكم في النجف والفلوجة. أفترض أن هذه نقطة جيدة في انتخاب رئاسـي، لكن أين جون كيري؟ هل من الصـحيح أنه لا يريد الكلام على العراق لأن «قاعدة» الحزب الديمقراطي تريد الانسـحاب ببسـاطة؟ هذا الحديث عن «مجتمع الملكية» يبدو تمزيقاً للصـفقة الجديدة/ شـبكة أمان المجتمع العظيم/ الميثاق الاجتماعي. نحن في

مأزق. سأكون سعيداً حين تنتهي الانتخابات. فأنا لا أستطيع أن أحتمل المزيد من هذا الهراء المستفيض.

11 أيلول 2004: أمضى حفيدي كولن الليلة الماضية عندي. تناولنا البوشار، وزرنا الحدود، وشاهدنا حرب النجوم، وصباح اليوم سبحنا في البركة (كانت باردة بعض الشيء). الحياة تستمر، سواء كنت مستعداً لذلك أم لا. عليّ أن أقول: إن كيرت لم يغب عن بالي قطّ، قطّ. ربما لا يكون هذا صحياً، لكن هكذا تسير الأمور. أنا في السابعة والخمسين من عمري، جورج، ربما لا أتعافى من هذا أبداً بشكل نهائي. وربما علي ألا أتعافى منه. الفكرة هي أن كيرت تركني لكلماته: «عش حياتك، أيها الرجل العجوز» وإن غاريسون كيلور ذكر في قصيدته يوم التأبين: «ولنعش الحياة الطيبة التي كانوا سيعيشونها». لم يتم تحديد ذلك بعد. لدي اثنان من الأبناء الأحياء واثنان من الأحفاد. ومع ذلك فأنا لا أعلم ما أفعل بهذا كله.

4 تشرين الأول 2004: ما الأفضل لأمريكة والعراق الآن؟ هذا هو السؤال؟ هل هو عراق أفضل؟ هل هذا ممكن؟ لماذا دخلنا العراق؟ ما الذي يسوّغ بقاءنا؟ لأجل ماذا أزهقت أرواح الأمريكيين الغالية؟ هل يمكن تحقيق شيء يستحق التضحية؟ هل هناك أشياء لا يعرفها أحد إلا الرئيس ومستشاروه؟ لا أحد في مجلس الشيوخ أو المنظمات «الفطنة» أو «المطّلعة»؟ هل ذلك يسوّغ التضحية؟ وكم من التضحيات يمكن تسويغها أكثر؟ فيما يتعلق بنا يصعب أن نقبل تحويل العراق إلى حرب أهلية. ليس لدي الحق للدفاع عن التدخل المستمرّ بسبب تضحيتي التي ستقود إلى كثير من التضحيات. ما الأفضل لأمريكة والعراق؟ ما الحقيقة على أرض العراق؟ ما الذي يمكن تحقيقه؟ هل يستطيع كيري وفريق من اختياره القيام بذلك؟ إنها قفزة كبيرة للإيمان.

وفي معظم الوقت لا يعنيني شيء من هذا. أنا أريد ولدي، أريد ولدي.

لم تكن الجبهة الداخلية لحرب العراق كتلك التي كانت في الحرب العالمية الثانية، ولم تكن كما كانت في فييتنام. فلم توحّد الأمريكيين في خطوط الأحزاب ضد تهديد لوجودهم (قام الحادي عشر من سبتمبر / أيلول بذلك، لكن ليس العراق). لم تكن هناك مواثيق حرب، أو دوافع جماعية، أو دعوة شاملة، أو تعبئة وطنية. لم نكن جميعاً في الأمر معاً. كما أنه

لم يمزّق البلاد. حالما بدأت الحرب، طوت الحركة المضـادة للحرب خيمتها وعادت بسرعة. شـهدت الذكرى السنوية الأولى والثانية للغزو مظاهرات كبيرة في أوروبة وأجزاء من الشرق الأوسـط وآسـية، لكن في هذه البلاد، تم إسكات المعارضة المنظمة بضرورة دعم القوات التي تتعرض للأذى. كما أن السهرات على ضوء الشموع كتلك التي عرضت صور القتلى من شباب أيواه في دي موا كانت تكافح للحصول على اتجاه محترم للمعارضة.

هذا لا يعني أن الحرب لم تكن متناقضـة: فلم تكن أي مغامرة خارجية أكثر تناقضاً من هذه المغامرة منذ حرب فييتنام. على مستوى معين -كانت رأي نخبة، تم تضخيمه في وسائل الإعـلام- ولّـد العراق كلمات مريـرة كأي حدث في التاريخ الأمريكـي الحديث. لكن معظم المواطنين الأمريكيين لم ينقلبوا على غيرهم من المواطنين الأمريكيين بغضـب، كما أنهم لم يشتركوا في قضية مشتركة. كانت حرب العراق بعيدة عنهم بشكل غريب. وكان من الصعب دائماً تصـوّر المكان، فلم تدخل الحرب الخيال الشعبي في الأغاني التي حفظها الجميع كما جرى في الحروب السـابقة. لم يكن من المحتمل أن يقضـي روائي ستة أشهر في بغداد ويعود لتحديـث روايـة (From Here to Eternity) أو (Dog Soldiers). الرواية الأمريكية الوحيدة الضعيفة التي أنتجتها الحرب حتى الآن، نقطة التفتيش (Checkpoint) التي كتبها نيكولسون بيكـر، وهي حوار علـى الغداء في غرفة فندق في واشـنطن بين صـديقين قديمين، أحدهما يسـتعدّ لاغتيال جورج و. بوش، كانت ترميزاً ممتازاً لثقافة سياسـية أخذت فيها الهيستريا مكان التفكير. لم يكن لرواية بيكر علاقة بالعراق، بل ببشـاعة السياسـة في هذا البلد. وقد صـنع مايكل موور، الجواب اليسـاري لروش ليمبو، فيلماً لاقى نجاحاً كبيراً صوّر فيه عراق صـدام مكاناً سـعيداً يلعب فيه الأطفال بالطائرات الورقية. قدّم العراق شاشـة فارغة كان للأمريكيين الحرية في أن يعرضـوا عليها ما يشـاؤون، ولأن قلة فقط من الأمريكيين لم تكن لهم مصـالح مباشرة هناك، فلم يرَ كثير منهم إلا صورة مشاعرهم. بالطبع كان الاستثناء هو الجنود وعائلاتهم الذين حملوا أعباء الحرب كلها تقريباً.

كانت هذه الحالة للشـؤون في الجبهة الداخلية بشـكل ما التطور الطبيعي لجو سياسـي ازداد تسـمّماً مـدة عقد من الزمـن. أنتجت حـروب الثقافة كرهاً لكلينتـون، مما أدى إلى عزله، وأعقب ذلك الانتخاب المتنافس عليه عام 2000، وبعدها كره بوش الذي كان شـديداً

ومجنوناً مثل سلفه. وقد قدّم العراق مستوى من الانحدار. وبينما كان قتال الشوارع في أواخر ستينيات القرن العشرين نتيجة لحرب فييتنام، ولم تكن حروب الكلمات في أوائل القرن الحادي والعشرين نتيجة للعراق، بل كان الأمر معكوساً.

كانت الحرب الأولى للمدوّنين، والصفات المميزة للشكل - الاستجابة الفورية، والهجوم على الشخصيات، والبعد عن الحياة، وغرفة صدى الأصدقاء والأعداء- قد حدّدت نوعية الجدل حول العراق بشكل أفضل كثيراً من التحليلات المسوغة والعروض التي تختفي سريعاً عن الأنظار في الصحف المسؤولة ومجلات السياسة. من زعماء المدوّنين، آندرو سوليفان الذي كان له أفكار ثانية مكرّمة حول إدارة بوش والعراق، وقد ردّ على أخبار أسر صدام في كانون الأول 2003 بأن كتب: «كان يوم فرح. لم يعد هناك ما يقال. فرح». كان قد سلّم إحدى عشرة مكافأة وهمية لليساريين الذين عبّروا عن سعادة غير كافية أو عبّروا بصراحة عن حزنهم لتلك الاخبار. وفي رد على تصريح لمدوّن عراقي شكر فيه قوات التحالف من قلبه، كتب سوليفان على جهاز الحاسوب الخاص به في واشنطن: «على الرحب والسعة... لقد قام رجال ونساء قواتنا المسلحة بأكثر الأعمال صعوبة. إنهم يستحقون منا شكراً لا يقدّر. لكننا جميعاً قمنا بأدوارنا». كان فرح سوليفان غبطة حقودة ونرجسية، وقد مسح بها وجوه خصومه. منذ مدة ما قبل الحرب مروراً بالغزو إلى الاحتلال والتمرّد، كان اليمين الصاعد المنتصر واليسار الضعيف المتشكي يهتمون بهزيمة الآخرين ويسعدون أكثر من اهتمامهم بحالة العراق والعراقيين. ففي هذه البلاد، كان موضوع العراق دائماً تقريباً يتعلق بربح الجدال.

كان هذا أوضح ما يكون حين سافرت من مكان لآخر. كنت أعود من العراق بكمّ كبير من التناقضات الواضحة في ذهني ككل وجه رأيته أو صوت سمعته: لقد كان تحريراً، كان احتلالاً، وقد كان العراقيون متفائلين، كان العراقيون غاضبين؛ كانت هناك فرصة للديمقراطية، كانت هناك منطقة إرهاب؛ كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تعمل بجدّ، لم تكن سلطة الائتلاف تحقق شيئاً؛ كان الجنود الأمريكيون طيّبين، كان الجنود الأمريكيون متهوّرين. ثم كنت أجلس لتناول العشاء مع مجموعة من ذوي الفكر التقدمي الذين يريدون جميعاً معرفة الوضع هناك، وقبل أن أصل إلى نصف الطريق لرواية واحدة مع عراقي واحد، كان المهاجم يأتيني بقوة مدهشة، ويتحول الموضوع إلى الحديث عن خطايا إدارة

بوش. وكان العكس صحيحاً، من الطرف الآخر، في الأعمدة والبرامج الحوارية للمعلّقين اليمينيين: كل قصاصة من الأخبار الجيدة - اعتقال كبار البعثيين، إعادة افتتاح المتحف- كانت تصبح دليلاً حاسماً على أن الأمر ينجح. كان الجميع يعلمون إن كان الأمر ينجح أم لا، وكان السؤال يأتي عادة مثقلاً، والأفضل أن تكون الإجابة سريعة وبسيطة. لم يكن هناك كثير من الناس في أمريكا يستطيعون احتمال التناقض الذي يعيشه العراقيون كل يوم.

الذهاب إلى العراق بالفعل لم يكن من شأنه أن يتدخل في هذا الاكتفاء الذاتي العقلي. سافر كريستوفر هيتشنز، الذي نشر للتو كتاباً بعنوان A long Short War: The Postponed Liberation of Iraq حرب قصيرة طويلة: التحرير المؤجل للعراق، في صحبة بول ولفوويتز في صيف 2003، وأمضى عدة أيام مع نائب الوزير، ثم عاد ليخبر محطة فوكس نيوز أن الأمور كانت تنجح بشكل رائع، حيث كان الأمريكيون مشغولين بإعادة الإعمار، وجمع المعلومات الاستخباراتية، ودحر البعثيين، وبناء صداقات مع الناس، لم تغطّ الصحافة شيئاً من ذلك. «شعرت بالانزعاج؛ لأنه كان علي الذهاب إلى هناك بنفسي للحصول على معلومات عن أي من ذلك»، اعترف هيتشينز لمذيع محطة فوكس نيوز. في شهر آذار اللاحق، بينما كانت الحرب الطويلة القصيرة تظهر إشارات على أنها تتحول إلى حرب قصيرة طويلة، هبط فريد بارنز، المحرر بصحيفة Weekly Standard المؤيدة بنشاط للحرب، في مظلة في المنطقة الخضراء، واكتشف أن الشيء الوحيد الخاطئ في عملية الحرية العراقية هو العراقيون. كتب بارنز: «إنهم بحاجة إلى تعديل موقفهم، يتفق الأمريكيون الذين قابلتهم هنا في أثناء عشرة أيام على أنه من الصعب التعامل مع العراقيين. إنهم متجهّمون ومشكّكون ويفكرون في المؤامرات». لم يكن هذا رأي الصقور من أمثال بارنز قبل الحرب، لكن كان لا بد من وجود ما يفسّر جميع العقبات التي في الطريق المؤدي إلى ديمقراطية ناجحة في العراق، وذلك لن يحدث إلا بعد انتشار الامتنان للإحسان الكبير الذي قامت به دولة لأخرى. وقد زارت نعومي كلاين، المعلّقة الصحفية في مجلة Nation المعارضة للحرب بشدة بغداد في الوقت نفسه الذي زارها فيه بارنز، ووجدت أن التمرّد كان يزداد؛ لأن كثيراً من العراقيين يشاركونها آراءها المعارضة للعولمة. في العراق كان من الممكن دائماً أن تثبت أنك كنت على حق طوال الوقت.

ولما كانت حرب العراق بدأت بالأفكار، فقد كانت تعاني التجريد. لكن بعد أن اتخذت هذه الأفكار الشكل الفعلي في الستر الواقية من الرصاص والمتفجرات بوقت طويل، استمرّ أكثر المشكّكين من المؤيدين والمعارضين للحرب برؤيتها والحديث عنها «بالمصطلحات الكبيرة المجردة» للمؤرخ الفرنسي مارك بلوك. كانت الكلمات الأساسية في العراق هي «الإمبريالية» و«الديمقراطية» و«استقلالية السياسة الخارجية» و«العولمة» و«أسلحة الدمار الشامل» و«الاستباق» و«الإرهاب» و«حكم الحزب الواحد» و«المحافظة الجديدة» و«الاسترضاء». التقيت بغسان سلامة، المستشار السياسي السابق لسيرجيو فييرا دي ميللو Sergio Vieira de Mello، في لوبي مقر الأمم المتحدة بنيويورك، بعد شهر من نجاته من تفجير في بغداد. بدا سلامة شاحباً، وقال: «العراق بحاجة إلى أن يتحرر، أن يتحرر من الخطط الكبيرة. في كل مرة كان الناس يذكرون ذلك في السنوات الأخيرة، كان يرتبط بأفكار كبيرة: الحرب ضد أسلحة الدمار الشامل، وإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، وأخيراً الحرب ضد الإرهاب وأنموذج للديمقراطية. ولهذا ترتكب جميع هذه الأخطاء. إنها ترتكب لأن هناك من يفكر في العراق دوماً بصفته خطوة أولى لشيء آخر».

سمح بعض العقديّين المؤيدين للحرب للأخبار السيئة من العراق أن تعترض تقدّمهم، بينما كانت أعينهم على هذه الأمور العالية. لكن إما أنهم رفضوا أن يصدّقوا، فكانوا يلقون اللوم على وسائل الإعلام والمتخاذلين بأنهم يخفون الحقيقة، أو أنهم واصلوا الأخذ بالنظرة الطويلة للتاريخ التي لا يكاد يحللها نسف مئة عراقي أو عشرة أمريكيين في هجوم انتحاري. لكن هذا كان صحيحاً أيضاً على الطرف المعارض للحرب من السجل. وقد تعلّمت من التجربة أن القصص الفردية للعراقيين الذين يكافحون ضد الخطر، وللحصول على حياة أفضل لأنفسهم ولبلادهم كانت تطرح جانباً بمجرّد أن أرويها. كان الردّ سريعاً ومؤكداً: «هذه الحرب غير شرعية، وهي غير أخلاقية. لا يمكن للكذب أن يأتي بخير». على الرغم من المصالح الكبيرة والبدائل المروعة، لم يظهر معظم المثقفين والسياسيين المعارضين للحرب اهتماماً بالنجاح. حين خاطر العراقيون بحياتهم للانتخاب، رفضت أريانا هوفينغتون الانتخابات وعدّتها «لحظة من لحظات كوداك». لقد كانت الحرب حرب بوش، وإذا أخفقت، فسيكون ذلك إخفاق بوش.

كانت أمريكة في بداية القرن الحادي والعشرين تبدو متحيزة ومقسّمة وصغيرة لدرجة أنها لا تستطيع تدبّر شيء كبير وصعب كالعراق. كانت كوندوليزا رايس وغيرها من كبار المسؤولين مولعين بتشبيه العراق بألمانية بعد الحرب. لكن كانت هناك فجوة كبيرة بين الفكر والجهد الرائع لأفضل العقول التي ذهبت لدحر الفاشية وإعادة بناء ألمانية واليابان، وبين الاهتمام المشاكس الأناني الذي يعود على العراق. فالأول أنتج دليلاً من أربع مئة صفحة عن احتلال ألمانية؛ والآخر أنتج نقاطاً للحديث.

إن ما جعل هذه البيئة السياسية غير مناسبة للعراقيين بالتحديد هو أن إدارة بوش، بدلاً من تزوير الحرب لجعلها قضية وطنية، نفذتها من البداية، وكأنها انتخابات أولية في ساوث كارولينا.

في أعقاب 11 سبتمبر/ أيلول، مُنح الرئيس بوش ما لم يحصل عليه إلا قليل من الرؤساء: الوحدة الوطنية والنية الطيبة لكلا الحزبين. في الأيام التي أعقبت الهجمات الإرهابية، رأينا الخطوات الأولى لشيء يشبه تعبئة ذاتية شعبية. الصفوف الطويلة للمتبرعين بالدم، والمتطوعين المتدفقين من أنحاء البلاد إلى مانهاتن، والجهود العامة الباحثة لفهم الإسلام: اتخذ الردّ نغمات شخصية جدًّا. قال لي منتج فيديو شاب عاطل عن العمل ينتظر دوره للتبرع بالدم في بروكلين: «تبّرت؛ لأكون جزءاً من شيء ما. في جميع أنحاء العالم يقوم الناس بشيء من أجل قيمة عليا. كنت لا أعرف أين أنا إلى أن استطعت أن أقول: إنني قمت بشيء أثّر في الإنسانية». لم يكن من الممكن أن يستمر الانتشار المحموم للروح الجماعية، لكن شدتها كانت توحي بأن البلاد كانت قد صحت من حلم يقظة جماعي. بدت أسطورة قرن من الاهتمام بالذات تدرك أن هناك فرصة تاريخية للأمل في شيء أكبر.

كان من الملاحظ في ذلك الوقت أن الرئيس بوش لم يفعل شيئاً لاستغلال هذه الرغبة الملموسة بين الناس العاديين للمشاركة في جهد أكبر. قيل للأمريكيين أن يذهبوا للتسوّق ويحذروا من الأنشطة المريبة. كان بيرل هابر، وكان اليوم السيئ في سوق البورصة؛ لم يكن شيء مماثلاً، وكان كل شيء مماثلاً. تساءل جوزيف بايدن: «كم سيكون الأمر ملحّاً إذا أخبرتكم أن هذه أزمة كبيرة، وفي الوقت الذي نسير فيه نحو الحرب، أعطي أكبر استقطاع للضرائب في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية؟» لم يترك استقطاع الضرائب البلاد في أزمة

مالية فقط في أثناء الحرب؛ لكن عدم المساواة فيه تركت أثراً سيئاً في الروح المعنوية. لم يكن من قبيل المصادفة أن الرئيس أخفق في الدعوة إلى تضحية مشتركة متساوية. فقد أتى ذلك مباشرة من الروح السائدة لحركة المحافظين الجديدة التي جاءت بها رئاسته إلى السلطة المطلقة. بعد سنوات من الهجوم المستمر على العمل الجماعي، بقي هناك أساس عقديّ يمكن لبوش أن يقف عليه ويسأل ماذا يمكن للأمريكيين أن يفعلوا لهذه البلاد؟. لم يُطلب إلينا بإلحاح أن ندرس اللغة العربية، أو أن ننضم للسلك الأجنبي أو مجموعات المساعدة الدولية، أو أن نطّور مصادر بديلة للطاقة، أو نشكّل احتياطاً مدنياً لحالات الطوارئ، أو حتى أن ندفع كلفة الحرب في وقتنا نحن. سيتحمل الجيل الأمريكي القادم أعباء الحرب، كما يتحملها مئات الآلاف من الجنود المتطوعين في هذا الجيل.

ربما كان ذلك قراءة سياسية فطنة من جهة بوش، وإدراك بأن الأمريكيين (بعد كل مشاعرهم التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول)، لا بد أن يعودوا للاسترخاء على أرائكهم. مع أنه بدا من العدل أن نسأل: كيف يمكن لجسم سياسي غير متناسق كهذا أن يتغلب على العمل الطويل الشاق لوقت الحرب؟؛ وكيف يمكن أن نكون مقتنعين بتصدير القيم الديمقراطية حين تظهر في ديمقراطيتنا إشارات كثيرة على الضمور؟؛ وكم من التضامن نتوقع أن نحشد للأفغان والعراقيين حين يُطلب إلينا ألا نشعر إلا بالقليل منه تجاه بعضنا.

لذا فقد كانت الأشهر التي أعقبت 11 أيلول فرصة ضائعة، لاستخدام سيل الطاقة المدنية، ولتشكيل حرب جديدة ضد الراديكالية الإسلامية بصفتها صراعاً قومياً. كان يجب ألا يكون على الخبراء في وكالات الاستخبارات والقوات الخاصة فقط، وإنما أيضاً على المواطنين الأمريكيين العاديين أن يشنّوا تلك الحرب. وكانت تلك الحرب يجب أن تشن على عدة جبهات، وبأدوات كثيرة، ليست فقط عسكرية، وإنما أيضاً فكرية، وديبلوماسية واقتصادية وسياسية وثقافية. كانت هذه رؤية مهندسي الحرب الباردة في بدايتها، الذين قرأ عنهم كريس فروشيسر في منهاج تاريخ جامعي، وأصبح يحترمهم أكثر حتى بعد 11 سبتمبر/ أيلول. لكنها لم تكن رؤية الرئيس. كانت خطابات بوش محلّقة وملهَمة، لكن أفعاله أظهرت أن لديه إستراتيجية ضيقة لخوض الحرب، بلغت إيجاد الإرهابيين ومن يدعمهم وقتلهم. أما البرامج الأخرى، كاستقطاعاته الضريبية وسياسة الطاقة والمعارك المريرة

التي أثارتها، فقد مزّقت وضـوح ووحدة الحادي عشـر من سـبتمبر/ أيلول. استمر بوش في الحكم من قاعدته العقديّة. كانت رسـالته للشعب بشكل أسـاس: «ثقوا بي»، وانزلق الشعب في استسلام خائف.

كل ما بقي من التماسك الوطني حتى منتصف عام 2002 فسد في الحشد لغزو العراق. فقد فرض البيت الأبيض تصـويتاً للكونغرس على قرار الحرب قبل شـهر من الانتخابات النصفية عـام 2002، في جو من الإهانات المتحيزة. فبينمـا كان الجمهوريون في البيت الأبيض ومجلس الشيوخ يتّهمون زملاءهم الديمقراطيين باسترضاء صدام كان الآخرون في أثر الحملة يتهمون خصومهم بإهمال واجب الدفاع عن البلاد بسبب معارضة الديمقراطيين لمشروع قانون الأمن الداخلي الذي تم تصـميمه لإضـعاف اتحادات الخدمة المدنية. (فبعد أن رفض البيت الأبيض فكرة إدارة الأمن الداخلي من البداية، كتب مشروع القانون بعد ذلك بلغة أجبرت الديمقراطيين علـى الاختيار بين فكرتهم وبين أسـاس عملهم). وقد قام جوزيف بايـدن، الذي كان يعمل مع زميله ريتشارد لوغار، الديمقراطي رفيع المستوى في لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، بإعداد قرار حرب وضـع بعض القيود على قدرة الإدارة على التصـرّف، مما قلّل بعض الشيء مـن احتمال ذهاب أمريكة للحرب دون مشـاركة دولية، لكنه أعطى فرصـة أكبر لكسـب دعم حزبي. ناور البيت الأبيض لإعاقة مشـروع القرار الذي كتبه بايدن ولوغار، وأصـدر مشـروعاً لتصـويت أكثر تحيزاً. كانت إسـتراتيجية المستشار السياسـي لبوش، كارل روف، التي أثمرت في شـهر تشرين الثاني، حيث اسـتعاد الجمهوريون دعم مجلس الشيوخ، وأضافوا أغلبيتهم في البيت الأبيض. لكن الإدارة تركت أقلية ديمقراطية تشـعر بالمرارة وناخبين منقسـمين بشـكل متزايد، بينما كانت تحضر لأخذ البلاد إلى حرب كبرى.

كان الرئيس يسـلك طريقين في آن واحد: إعادة تشـكيل السياسـة الأمريكية الخارجية، وتعزيز قبضـة حزبه على السـلطة. وربما لا نأتي بجديد إذا أشـرنا إلى أن هذين الطريقين قد يتعارضـان في النهاية، مما يعرّض المصـالح الوطنية للمخاطرة. في خريف عام 2002، لم يكن من الممكن بعد تخيّل سياسـة تسـتخدم كلا الحزبين وحلفاء أمريكة الديمقراطيين في القضـاء على الاسـتبداد في العراق. فقد كانت سياسـة كهذه تتطلب مـن الإدارة العمل بمرونـة وانفتاح أكثـر ممـا أرادت أن تعمل بـه. وكـان المفروض عرضـ الدليل على وجود

أسلحة غير تقليدية دون مبالغة أو خداع. وفور عودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق، كان من الواجب السماح لهم بأداء عملهم بدلاً من إضعافه بحملة الطعن ضدهم. كان يجب أن تكون شهادتهم أمام الكونغرس صريحة وغير مراوغة. وكان يجب الاستماع إلى موظفي الإدارة الذين قدّموا آراء مخالفة أو توقعات متشائمة بدلاً من إسكاتهم أو طردهم. وكان يجب الترحيب بخبراء بناء الأمة بدلاً من إغلاق الأبواب في وجوههم وإن كان لديهم ما لا يريد البيت الأبيض سماعه. كان يجب معاملة المواطنين الأمريكيين بصفتهم راشدين وليس كما اقترح رئيس هيئة الأركان في إدارة بوش، آندرو كارد، مرة أطفالاً في سن العاشرة.

وبعد الغزو، كان يجب إقناع الحلفاء الأوروبيين بالمشاركة في الجهد الذي كان بحاجة ماسة إلى مساعدتهم. وكان يجب دعوة الشركات الفرنسية والألمانية والكندية لتقديم عروض للحصول على العقود، وليس تقييدها بقرار وقّعه بول وولفوفيتز (الذي كتب مرة أن القيادة الأمريكية تتطلب «أن تثبت أن أصدقاءك سيكونون تحت الحماية والرعاية، وأن أعداءك سيعاقبون، وأن من يرفض دعمك سيعيش ليندم على ذلك»). كان يجب إخضاع المتعهّدين الأمريكيين المقرّبين من البنتاغون لفحص استثنائي، ليس فقط للتأكد من عدم إهدار مليارات الدولارات في العراق، بل لتجنب مجرّد مظهر الفساد. كان يجب أن يبقى الكونغرس على اطلاع دائم وبصراحة على الوضع على الأرض. وكان يجب إعطاء طوني بلير شيئاً مقابل دعمه الصامد، كجهد جاد في حلّ المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية. وكان يجب إحضار الأمم المتحدة إلى العراق بصفة شريك مكافئ، وليس أداة لراحة أمريكة. ربما كان يجب حتى أن يكون كبير المدنيين في العراق ديمقراطياً، أو جمهورياً معتدلاً كالجنرال المتقاعد أنظوني زيني، الذي وصفه مسؤول في الإدارة بشكل خاص بأنه أكثر شخص مؤهل للعمل الذي يقوم به بول بريمر. قال المسؤول: («عليك أن ترتقي فوق السياسة، وعليك أن تختار الفريق الأفضل، عليك أن تكون مثل فرانكلين روزفلت»). وكان يجب أن تختار سلطة الاحتلال من تعينهم من السياسيين قدر الإمكان من الخبراء ذوي الكفاية غير المتحيزين الذين يتمتعون بخبرة في الخارج. كان على سلطة الاحتلال أن تركز على المجتمع العراقي، لا أن تكون مجرد سلاح بيد البيت الأبيض. وكان يجب ألا تكون تصريحات مكتبها الإعلامي اليومية مثيرة للضحك.

وحين ظهر عدم وجود أي من أسلحة الدمار الشامل في العراق، كان على الإدارة أن تعترف للعالم بذلك. كان على الرئيس أن يقدّم خطاباً يذاع على قنوات التلفزة الوطنية، يذكر فيه ما قاله كبير مفتشي الأسلحة، ديفيد كاي: «جميعنا كنا مخطئين تقريباً». كان على الرئيس أن يحذف العبارات المراوغة مثل «أنشطة برامج تتعلق بأسلحة الدمار الشامل» من خطابه. كان يجب معاقبة الموظفين والجنرالات المسؤولين عن الفضيحة والإخفاق، وليس التربيت على أكتافهم أو تقليدهم ميداليات الحرية. وحين طلب الصحفيون من الرئيس أن يذكر خطأً واحداً ارتكبه في العراق، كان عليه أن يذكر لهم خمسة أخطاء، ويطمئن البلاد أن هذه الأخطاء يتم تصحيحها؛ لأنهم كانوا قادرين على تحديدها. كان عليه أن يستجمع كل مهارته البلاغية؛ ليفسر للبلاد أن إنهاء الاستبداد في العراق ومساعدته في أن يصبح بلداً ديمقراطياً كبداية للتغيير في الشرق الأوسط هو، (على الرغم من الإخفاق الفشل في إيجاد الأسلحة) الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، وأنه ضروري للأمن الأمريكي، وأنه يستحق الجهد الذي ستبذله الأجيال. في الحقيقة كان عليه أن يشرح ذلك قبل الحرب، حين لم يجد المفتشون أي دليل على وجود الأسلحة، وبذلك يسمح للبلاد أن يكون فيها مناقشة فعلية للسبب الحقيقي للحرب، وحين تأتي الحرب، لا تأتي وسط الشكوك والمفاجآت المنتشرة، ولن تبقى أمريكة وحدها في العراق.

الشخصية قدر. فما منع حدوث أي من هذا كان قبل كل شيء شخصية الرئيس، فقد كان بوش يدير حربه، كإدارته لحملاته السياسية، في غياب الفضول والنقد الذاتي، وبتقديره للثقة المطلقة، والولاء الشديد الذي يمنحه ويطلبه. كان دائماً يعبر عن انطباعه بأن العراق والحرب ضد الإرهاب كانت اختبارات شخصية. وكلما فجّر انتحاري نفسه، كان يحاول أن يهزّ إرادة جورج بوش. فإذا بقي بوش صامداً، كيف يمكن أن تخفق أمريكة؟ كان يحب أن يسمي نفسه رئيس زمن الحرب، وكان يحتفظ بتمثال نصفي لبطله وينستون تشرشل في المكتب البيضاوي. لكن تشرشل كان يقود حكومة وحدة وطنية، ولم يقدّم لشعبه إلا الدم والتعب والدموع والعرق. كان بوش يتبع باستمرار برنامج العمل الجمهوري المتحيّز، وهو يخوض الحرب، وكان ما يقدّمه هو توقعات متفائلة، واقتطاعات ضريبية دائمة، وعزيمة مثيرة.

مرة فسّــر أحد مستشاري بوش للصحفي رون صَصكيند النظرة العالمية للبيت الأبيض: بينما كان خبراء بناء الأمة ونقاد الحرب ورون صصــكيند يعيشــون «فيما نسـميه مجتمعاً قائمــاً علــى الواقع» يؤمن الناس فيــه «أن الحلول تأتي من دراســتك المتعقّلــة للواقع القابل لــلإدراك»، لســوء الحظ «لم تعد هذه هي الطريقة التي يسـير بها العــالم فعلاً». فالطريقة التي يسـير بها العالم الآن تصــل إلى نبذ العقل، والذكاء المشـكك، وكل قائمة قيم التنوير. «نحن الآن إمبراطوية، وحين نتصرف، ننشئ واقعنا. وحين ندرس ذلك الواقع -بتعقّل، كما ســتفعلون- سنتصــرف من جديد، وننشــئ حقائق أخرى جديدة، يمكنكم دراســتها أيضاً، وهكذا تصــنّف الأشياء. نحن ممثلو التاريخ»، وختم المساعد قائلاً: «وأنتم جميعاً، لن يبقى لكم إلا أن تدرسوا ما نفعله نحن».

هذه هي رئاسة بوش دون الخطابات الملهمة، التي لها نبرة لينينية أكثر منها مسيحية، لا تقرّر فقط أن تعيد صنع العالم وفق إرادتها التي لا تفسير لها، لكن أيضاً أن تزيح كل الخصوم من طريقها. كانت هناك نقطة ضـعف خطيرة فلسـفياً وعملياً في مشـروع تلك الإدارة لكي تصـبح حاملــة القيم الديمقراطية للعــالم؛ فقد كانت الديمقراطية أصــلاً تقوم على النقد الذاتي. لكن لأن الرئيس كان يصــلي دائماً بأن يكون «أفضــل رســول ممكــن لإرادته»، فقد كانت سياســته في العراق ستنجح بشكل أســاس، بالإيمان بذلك، بالتظاهر بالإيمان بذلك، وبفرض هذا الانضــباط على إدارته، بحيث لا يظهر أي مظهر مخالف، كان يحقق الحقيقة التي تتّبع. كان الإيمان أو الاستكبار أو كلاهما إستراتيجية للنصر.

ســألتُ ريتشــارد بيرل إن كان كبار المسؤولين في إدارة بوش قد راودتهم أي شكوك بشأن العراق؟ فقال: «لدينا جميعاً شكوك طوال الوقت، لكننا لا نعبّر عنها، طبعاً ليس في مناظرة علنية. فهذا قاتل. فالتعبير عن الشـكوك يعطي الخصــوم ما ينتظرونه بالضــبط. وقد قال بيرل نفسه علناً بشكل أساس: «قلت لكم ذلك». وقد قال لمنتج أفلام وثائقية فرنسي: «اعتقد معظم النـاس أنه سيقتل مئات الآلاف من النـاس، وأنه ستكون حرباً طويلة ودموية. اعتقدت أنها ستنتهي في أثناء ثلاثة أسابيع، ولن يقتل فيها إلا عدد قليل من النـاس. والآن، من الذي كان على حق؟» كان ذلك في البداية. لكن بينما أصبحت الحرب أطول وأكثر دموية، كان بيرل لا يزال على حق، لكن بشكل مختلف: فلو كان خمسة آلاف من أفراد المؤتمر الوطني العراقي

قد ذهبوا مع الأمريكيين كما أردنا، ولو تم تنصيب أحمد الجلبي رئيساً لحكومة انتقالية من البداية، لتجنبنا كل هذه المشكلات. وقد ترك مايكل روبن، وهو أحد المحميين الشباب من قبل بيرل، مكتب الخطط الخاصة وبعد ذلك سلطة الائتلاف المؤقتة، ليبدأ مهنة جديدة وهي الكاتبة، وكان موضوعه الوحيد هو غباء المسؤولين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية في إفساد العراق بعد الحرب، بعدم الاستماع إلى مايكل روبن وحلفائه من المحافظين الجدد في البنتاغون، الوزارة التي أدارت الاحتلال. اتخذ رامسفيلد وولفوفيتز وفيث أو بريمر المعيّن من قبل رامسفيلد كل قرار مهم لمرحلة ما بعد الحرب. ولم يصرّح أي منهم علناً بأي شك، أو حرف يدل على التدقيق الذاتي.

عمل ليسلي جيلب في البنتاغون في أثناء الأشهر الأخيرة لرئاسة جونسون، وأدار كتابة أوراق البنتاغون عن التاريخ السري لحرب فييتنام التي تم تزويده بها من قبل روبرت ماكنمارا قبل مغادرته المكتب. عبّرت لجيلب عن تشككي بأن رونالد رامسفيلد قد استشار أحداً في البنتاغون في كتابة تاريخ سرّي لحرب العراق. قال جيلب ضاحكاً: «يمكنك أن تراهن، فالليبراليون فقط ينظرون للخلف ويقولون: إنهم كانوا مخطئين». أما المحافظون الجدد، فخلافهم، «يقولون: إنهم طُعنوا في الظهر. فليس من قبيل المصادفة أن الرئيس بوش لم يستطع في أثناء الحملة الإجابة عن السؤال إن كان قد ارتكب خطأ؟ لم أرَ أولئك الناس أبداً يقولون: إنهم ارتكبوا خطأ. كانت فييتنام حرباً ليبرالية. أما هذه فلا. إنهم ليسوا أغبياء، إنهم شديدو الذكاء. كما أنهم متهوّرون». وتابع جيلب في المقارنة بين بوش ورئيسه: «كان جونسون شخصاً مأساوياً. كانت ضرورة ألا يخسر الحرب هي التي تحرّكه. وكان يعرف أنه لا يستطيع الفوز بها. أما بوش فهو نسخة معدّلة من جونسون؛ لأنه يظن أنه يستطيع الفوز. بوش هو المؤمن الحقيقي. نحن نتكلّم على شخص لا تصله أي معلومات إلا عن طريق الخط الرسمي».

خدمت عقيدة الثقة الدينية الرئيس بشكل جيد في السياسة المدنية؛ فالصمود في زمن الحرب صفة أساسية، وبعد انتخابات عام 2004 لم يستطع أحد أن يشك بشكل مسوّغ في قدرته بصفته سياسياً. فيما يخصه، أثبتت النتيجة صحة كل ما فعله، وأن كل نقّاده مخطئون. قال الرئيس: «كانت لدينا لحظة محاسبة، وهي انتخابات عام 2004». أما في العراق الذي كان له واقعه الخاص، فلم ينجح هذا المنهج.

حين تحدث بوش عن قوة الحرية لتغيير العالم، كما قال في خطاب تنصيبه في مؤتمر الحزب الجمهوري في عام 2004، وبعد ذلك في خطاب افتتاح ولايته الرئاسية في كانون الثاني عام 2005، كان يؤثر تأثيراً عميقاً في الروح الأمريكية. أما خصمه الديمقراطي فقد كان بعيداً عن عزف مثل تلك الموسيقا. لكن حين بدا أن العراق لا يشبه تلك الرؤية الحالمة للرئيس في شيء -حين كان العراق يتدهور بشكل ملحوظ، ولم يعترف أحد في السلطة بذلك- كانت تلك الخطابات تثير إما الأوهام أو التهكم بين أفراد الشعب. كان ما يحدث في العراق وكيفية فهم العراقيين له هو الذي يحدد النجاح أو الإخفاق في الحرب. وكان إصرار الرئيس المستمر على نجاح الحرب يرغم الحكومة كلها على الموافقة على ذلك أو المخاطرة بإثارة غضب البيت الأبيض. لذا قامت بعض الوكالات بإصدار تقارير عن إعادة الإعمار جمّلت الحقيقة، وتنفس المسؤولون الصعداء مدة، لكن التوتر الكلي في العراق لم يتغير. لم ينتج عن تغطية الإخفاق إلا توسيع الفجوة في الإدراك بين واشنطن وبغداد، مما أدى بدوره إلى تقليل قدرة واشنطن على إدراك الواقع العراقي والاستجابة له. وتحول الخداع إلى خداع للنفس؟، إلى أن أصبح من الصعب معرفة أين ينتهي خداع الآخرين، ويبدأ خداع النفس. وفي النهاية أعلن الإخفاق عن نفسه بكل حال في سلسلة من التفجيرات الانتحارية واستنزاف بطيء للثقة العراقية وتمرد مفاجئ. فالحرب، بخلاف توقعات الميزانية وحملات الانتخابات الرئاسية، لا ترحم عند إخفاء الحقيقة. كان بوش يزيد من احتمال حدوث الهزيمة برفضه النظر إلى العراق بصدق.

لم يكن بوش مرضياً للشعب، كما كان معظم السياسيين ليتصرفوا لو كانوا مكانه. كان يعمل، بخلاف كلينتون من منطلق قوة وليس من منطلق ضعف. (لا يمكن أن يعرف المرء إن كان عرض التصميم التشرشلي هو في الواقع حالة موسعة للتعويض عن انعدام الأمن، إلا إذا كان يعرفه عن قرب). لم يبدُ أن أحداً يؤمن بخط الإدارة بحماس أكثر من الرئيس. لكن ما أراد بوش أن يؤمن به الأمريكيون كان له غالباً انعكاسات مدمرة في العراق؛ لأن ذلك الخط لم يكن يعتمد الحقائق، وبسبب حذف الخط الفاصل بين السياسة النظرية والسياسة التخطيطية. وقد شاهد السير جيريمي غرينستوك، مبعوث طوني بلير إلى بغداد، أن حكومتي واشنطن ولندن تحاولان توجيه العراق في اتجاه حاجاتهما السياسية،

واستنتج أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت مقيدة من قبل موجديها. قال لي غرينستوك في مكتبه المقابل لمكتب بريمر في القصر: «يجب أن تتخذ القرارات بشأن ما تفعل بناءً على معايير العراق وما حوله، وليس في سياق سياسي آخر وحوله، وإذا أردت أن يكون الشعبان الأمريكي والبريطاني سعيدين بالنتائج في العراق، فلا تنظر إليهما وتقول: ماذا يريدون بعد ذلك أو كيف علينا أن نحكم على هذا الحدث؟ انظر إلى العراق، وقم بإنتاج المادة التي تجعلهم راضين، لاتنتج العرض الذي قد يجعلهم راضين غداً. كانت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة متحفتظتين إلى حدّ ما على الحاجة للحكم على الأمور وفق ما يحدث على الأرض».

فهم المستشارون حول الرئيس نقاط قوته، وما يحتاج إلى معرفته لاتخاذ القرارات. في اليوم السابق للانتخابات، ناقشت عمليات البيت الأبيض مع موظف إداري رفيع المستوى قال: إن المحيط الضيق والمغلق بإحكام حول بوش لم يؤدِّ إلا للمبالغة في الميل الحديث للرؤساء الأمريكيين. «إنهم محاطون برجال ونساء من فئة: نعم، يخبرونهم بما يريدون سماعه، وعلى رأس القائمة جورج تينيت، أناس يستطيعون أن يشمّوا الزاوية السياسية ويقدّموا المعلومات التي تعطي الرئيس تلك الزاوية السياسية. لا أحد يمشي إلى المكتب البيضاوي ويخبرونهم أنهم دون ثياب، ويصرّ على ذلك. عليك أن تصرّ على قولك. لا يمكنك أن تقوم بذلك مرة واحدة فقط». وتابع قائلاً: «أظن أنه من الخطر أن لدينا بيئة لا يستطيع فيها قائدنا الرئيس أن يكون على اطلاع جيد. هذا جزء لا يتجزأ من منصبه». وقال المسؤول: إن في هذه الإدارة أكثر من أي إدارة أخرى، فالبيئة «مخيفة، بسبب الرئيس والجو والناس هناك».

حين أُسقطت طائرة مروحية للنقل قرب الفلوجة في تشرين الثاني 2003، مما أدى إلى مقتل خمسة عشر جندياً كانوا ذاهبين في إجازة إلى بلادهم، انتظر الشعب من الرئيس أن يدلي بتصريح حول أسوأ حادثة قتالية في الحرب. لكن مرّ يومان ولم يقل بوش شيئاً إلى أن ضغط عليه الصحافيون في أثناء قيامه بجولة لتفقّد ما خلفه حريق هائل في جنوب كاليفورنية، فقد وضع يده على قلبه وقال: «أنا أحزن كلما مات شخص. أنا أحزن؛ لأنني أعلم أن العائلة تتأذى. وهناك ألم عميق في قلب شخص ما. لكنني أريد فعلاً بأن أذكّر الأحبة أن أبناءهم وبناتهم -أو الأبناء، في هذه الحالة- ماتوا لقضية أعظم من أنفسهم، قضية نبيلة،

هي أمن الولايات المتحدة». بدا أن الرئيس لم يكن يعلم أن اثنين من الجنود الذين كانوا على متن الطائرة كانوا من النساء. لو كان رئيس آخر مكانه -ريغان أو كلينتون- لما فاتته مثل هذه التفاصيل. لم تكن هذه لا مبالاة من جانب بوش، بل كانت إستراتيجية مقصودة بألا يقال له الكثير، وألا يغوص في مشكلات الحرب اليومية، وألا يسهر إلى ما بعد منتصف الليل كما كان يفعل لينكولن أو جونسون في غرفة العمليات، وتصبح الخطوط أعمق في وجهه، في انتظار وصول أنباء عن عدد الإصابات. كان عدم المعرفة جزءاً من إستراتيجية النصر. كان ذلك يمنع الأخبار أن تطغى على الرسالة التي وضعتها الإدارة لدورة كل يوم، كما أنها كانت تمنع تشويش الرئيس وإحباطه. وكانت تنجح من الناحية السياسية. لم يظهر قط أن بوش رئيس تحت الحصار. لم تسؤ الأمور إلا حين نسي أحد التفاصيل المهمة كخطة ما بعد الحرب.

كان هناك مثلاً موضوع ما يمكن فعله بشأن التوابيت التي تصل إلى قاعدة دوفر الجوية. منذ غزو باناما عام 1989، حين أظهرت شاشة مقسومة الرئيس بوش الأب يقدّم خطاباً مع المنظر المهيب للجنود القتلى العائدين إلى الوطن، وهي صورة لم يكن البيت الأبيض يريدها، فأدرك الرؤساء القوة المقلقة للصورة وحاولوا تجنبها. وقد تبنّى البنتاغون برئاسة رامسفيلد هذه السياسة وجعلها سياسة رسمية له: فليس هناك صور أو أفلام في دوفر. ومن جديد، حققت هذه الحركة نجاحاً سياسياً في إبقاء عدد القتلى الثابت يقتصر على الأمريكيين الذين لم يتأثروا شخصياً. وهذا أدى دوره في جعل حرب العراق حرباً بعيدة.

سألت كريس فروشيسر عن رأيه في السياسة؟ فقال: «نحن بحاجة إلى رؤية التوابيت، التوابيت الموشّحة بالأعلام. الصقور بحاجة لذلك، فهم يحتاجون إلى معرفة أن هناك ثمناً يجب دفعه. هناك ثمن كبير يجب أن يُدفع. إذا لم تكن لديهم قدرة على اللعبة، فهم بحاجة لرؤية ذلك. كما أن الحمائم بحاجة إلى رؤية تكريم التضحية. فهم لا يرون ذلك دوماً». كان يريد أن يجمع ميداليات كيرت الأخيرة، وعلم جنازته المطوي وتقرير تشريح جثته وصورة للجرح في رأسه، وأن يأخذها جميعاً إلى الشارع في عروض تستمر خمس عشرة دقيقة في أنحاء البلاد. كان سيقول للقوميين: «تأنقوا واظهروا». وكان سيقول للمشككين في فكرة واجب الجندي. أو أنه لم يكن ليقول شيئاً على الإطلاق. كان يريد الناس أن يروا ببساطة.

إن فكرة تقليل التهديد الذي تشكله العقائد الناشئة في الشرق الأوسط لأمريكة عن طريق تحويل السياسة في المنطقة إلى الديمقراطية، بدءاً بالعراق، قد خطرت لإدارة بوش قبل أن يظهر عدم وجود أسلحة. كان بعض المسؤولين يفكرون في ذلك ويكتبون عنه منذ سنوات، كما أن الرئيس كان قد خطط له في خطاب بمعهد المؤسسات الأمريكي قبل شهر من الغزو. لكن لم يكن ذلك السبب هو سبب الحرب الذي وقّع الشعب الأمريكي عليه، لم يكن ذلك هو إيقاع التصريحات قبل الحرب؛ لذا فقد بدت الطريقة التي غيّرت بها الإدارة الحجة فيما بعد حتى دون أن تعترف بذلك كطعم للوصول إلى شيء مختلف.

لكن الفكرة، على الرغم من التهكم حول استخدامها، كانت فكرة مهمة، وكانت تستحق أن تؤخذ على محمل الجد من قبل المعارضة السياسية في أمريكة، ومن قبل الحلفاء حول العالم. إلا أن نقاد الحرب، بمن فيهم قادة الحزب الديمقراطي، رفضوا باستمرار الدخول في النقاش بدلاً من ذلك. فأعادوا الموضوع إلى الأسلحة المفقودة، أو سخروا من إخلاص الإدارة، أو تمتموا حول أخطار العيش في المثاليات، أو لم يقولوا شيئاً. وقام عدد قليل من الديمقراطيين، مثل بايدن، والسفير ريتشارد هولبرووك، ورئيس تحرير مجلة The New Republic/ الجمهورية الجديدة، بقبول الفكرة دون أن يلينوا في نقدهم لتصرفات الإدارة في العراق. كان هذا توازناً عقلياً صعباً، لكنه كان مهماً أيضاً؛ لأن ما كان العراقيون والديمقراطية بحاجة إليه في العراق أكثر من أي شيء آخر في هذه البلاد هو معارضة مدروسة تستطيع إلزام إدارة بوش بوعودها، ليس في لعبة المطاردة، ولكن في جهد فعلي لإنجاح العراق. ودون مثل هذه المعارضة، يكون الآباء المهملون المتهورون لسياسة الإدارة أحراراً في أن يميتوا مواليدهم جوعاً أو يطعموهم؛ حتى يموتوا تخمةً. ولأن هذه المعارضة لم تتحقق، فقد استمروا في القيام بذلك.

كانت الإدارة موهوبة في الاستقطاب، لدرجة أن الجهود انقلبت للداخل في النهاية. فعلى الرغم من أن القفل الشعبي ظل مغلقاً بإحكام سنة كاملة بعد الغزو، بدأت المرارة التي أنشأتها المعارك الفكرية في الداخل في إضعاف الجهد في العراق منذ البداية تقريباً. وقد قال كولن باول، الذي كان يخسر في كل معركة سياسية كبيرة تقريباً، في اجتماع صباحي للموظفين: «لدينا أولوية واحدة. وتلك الأولوية هي العراق. ما يطلبه جيري بريمر يحصل

عليه، ويحصل عليه اليوم. أي أسئلة؟» ومع ذلك طوال حياة سلطة الائتلاف المؤقتة لم ترسل وزارة الخارجية أفضل من لديها إلى العراق، حتى بعد أن تضاءل تأثير البنتاغون وبدأ بريمر باستخدام قنواته الخلفية إلى باول أكثر فأكثر. وقال مسؤول في الوزارة عن مكتب شؤون الشرق الأدنى، العدو الرئيس للمحافظين الجدد: «لم نبذل ما بوسعنا للمساعدة أو للمحافظة على ثبات الأمور. فقد شاهدت مكتب شؤون الشرق الأدنى على سبيل المثال، وهم يقولون: «حسناً، أنتم لا تريدوننا، تباً لكم». ومنذ ذلك الحين كانوا يقولون: «لنرَ ما العوائق التي يمكن أن نضعها في طريقهم، ولنرَ كم يمكننا أن نقدم هذه السلعة أو الشخص أو مقدار الخبرة. لنرَ كم نستطيع أن نسيء لسمعتهم».

كان من السهل القول: إن البيت الأبيض، بإستراتيجيته للإبادة السياسية، لم يكن ينال ربع ما يستحق من معارضيه، وأقلّهم الديمقراطيون. لكن المواجهة أخرجت القدرات المدمرة لكل حزب، وكان العراق أسوأها. كما أن التنازل ترك الحزب الديمقراطي في موقف سيئ، أخلاقياً وسياسياً. كان حظ الحزب في أثناء عام الانتخابات يعتمد تحول العراق إلى كارثة. وحين أشار أحد الصحافيين إلى المرشح المعارض للحرب هاوارد دين الذي أصبح فيما بعد أول المسارعين إلى الترشيح، قال دين: «أنا لا أراهن على ذلك، كما أنني آمل ألا ينجح، لكن ليس هناك ما يشير إلى أن علي أن أتوقع شيئاً آخر». كان التقويم المطّلع الذي استنتج أن وجود الأمريكيين قد يجعل الأوضاع أسوأ من دون وجود أي فرصة للتحوّل، يستحق الاستماع. ولكن الديمقراطيين عرضوا شيئاً آخر: كان ذلك سلبية منفصلة وراضية. لقد أثبت عام الانتخابات أنه العام الذي تحول فيه موضوع العراق إلى كارثة، وإذا لم يستفد الديمقراطيون من هذا الوضع، فإن هذا يعود جزئياً إلى أنه لم يكن لديهم ما يقدمونه بصفة بديل، وقد اختار الشعب ألا ينتخب حزباً يقف مكتوف الأيدي حيال أهم قضية في السياسة الخارجية. في النهاية انتخب كريس فروشيسر كيري، بسبب ولائه للحزب أكثر من أي شيء آخر، لكن بين محاولات بوش في الخطاب الذي يشبه خطابات لينكولن، وبين خطط كيري غير المقنعة التي تتناول عدة نقاط، ذهبت قلة ضئيلة من الناخبين الأمريكيين بأمل. ومع ذلك كانت شعبية الحرب تتناقص أكثر فأكثر.

كان التهكم من كلا الطرفين مصـرّاً على الوصـول إلى القوات وتكوين وعيهم السياسـي الذي كان يتشـكل سلفاً مما سـمعوا ورأوا وفعلوا في العراق، خاصة بين المتطوعين من الرجال والنسـاء، فأصـبح من الأصعب فهم المهمة وتسويغها. حين كنت في المحمودية بحثت عن أربعة من رفاق كيرت فروشيسـر في الكتيبة، منهم مات بلاملي الذي كان بجانبه في عربة الهامفي ليلة موته. جلسنا معاً في مقطورة خانقة في القاعدة، كانوا جميعاً من الجنود، وكانوا جميعاً إلا واحداً في أوائل العشرينيات من العمر، وقد أبدوا جميعاً مودة رقيقة للشاب الذي سمّوه فرو.

قـال ماركوس موريـ، وهو شـاب أشـقر عذب الكلام مـن إنديانا: «لقـد أيقظتني تلك الحادثة، فهؤلاء الناس يحاولون قتلنا».

قال بلاملي: «هذا مدهش، فنحن هنا نحاول المساعدة».

أمـا لاتـرال برايهـام، وهو جندي أسـود من تكسـاس، فقد نظر إلى مـوت كيرت على أنـه إخفاق للقيادة. «أنـا منزعج، لأننا نتجول هنا بمعدات غير مرتّبة. إذا أرسـلت رجالاً للحـرب، فعليـك أن تجهّزهم وتحضـرهم، بحيث يسـتطيعون القتال. وليكـن لديك رؤية لعواقـب الحـرب، وليكن لديك خطة حـول كيفية إنهائهـا، لا أن تقفز إليها فقط. وتضـع العبء كله علينا نحن الأمريكيين».

قـال باتريك زيدمولر، وهو شـاب ضـخم هادئ مـن كاليفورنية كان أكـبر من الآخرين ببضع سنوات: «التعامل مع متفجرات محلية الصنع، هذا ما نتعامل معه. نحن لا نتعامل مع أسلحة دمار شامل، نحن نحمي أنفسنا من المتمرّدين».

قال برايهام: «لقد وضـعنا أنفسنا في شـيء ما، أتمنى لو كنت أستطيع أن أملك إجابات فعليـة عن سـبب وجودنا هنا. لكنني لا أظن أنني سأحصـل عليها أبـداً. على الأقل ليس في وقت قريب».

كان لبلاملي، صديق كيرت المقرّب، أسلوب خجول ورنّة جنوبية عذبة. كان أقل استعداداً من برايهام للإفصـاح عن الأمر كله: «إذا كان أحد هنا يكرهنا، فستكون هناك متفجرات محلية الصـنع كل خمس بوصـات. -هزّ رأسـه- حرب العصـابات المدنية هذه، انضممت للجيش؛ لذا فأنـا منافق، لكنني كنت أحـب الانعزالية التي كانت لدينـا في وقت ما». لكن

حين قارنّا بين وضعه ووضع المحاربين في فييتنام، قال: «كانوا أسوأ حالاً بكثير. كانت معنوياتهم أسوأ حتى من معنوياتنا. لكن معنوياتنا تأتي في الدرجة الثانية من حيث السوء بعد معنويات فييتنام».

قال برايهام: «لا أرى أننا نغيّر مئات السنين من الدين، ولا أرى أننا نجلب الديمقراطية إلى المنطقة. لا أرى ذلك. قد نبقى هنا عشر سنوات (حسب عدد الإصابات)، لكن أكياس الجثث تعود إلى الوطن».

قال ويدمولر: «نحن فعلاً نقلل من قيمتنا. لا أعتقد أنهم توقّعوا أياً من هذا. كان العراقيون يفكرون أننا سنأتي هنا، فنشيد البيوت ونجمع النفايات، وبعد سنة ظلت النفايات في كل مكان، ولم يتغير شيء».

قال موري: «أعتقد أن ما تحتاجه هذه البلاد، هو حرب أهلية كبيرة. هناك ديانات كثيرة، نحن بحاجة أن نغادر ونتركهم؛ ليحلّوا مشكلاتهم بأنفسهم».

قال بلاملي: «أظن أننا قمنا بالأمر أسرع من اللازم».

قال برايهام: «أنا أحب ديمقراطيتنا، لكننا لا نستطيع أن نفرضها».

فقال له بلاملي: «إذا توقفنا فسأكره ذلك، لأنه سيكون أنانياً جدًّا لبلادنا».

قال برايهام: «لا أظن أننا سنبقى هنا لوقت كافٍ؛ فالتمرّد سيصبح أكثر سوءاً. ولا نستطيع إيقافه. وسيكون هناك المزيد منه باستمرار».

سألتهم عن معنى موت كيرت. فقال بلاملي الذي لم يستطع أن يجلس مكان كيرت؛ لأن كيرت سبقه إلى عربة الهامفي، إن هناك سبباً لبقائه على قيد الحياة بدلاً من كيرت، لكنه لا يعرفه.

أما ويدمولر، الشاب الأكبر سنّاً، الذي كان في عربة الهامفي الثانية، فقال: «كلما تأملت ما حدث أكثر -ليس هو فقط، بل كثير من الناس- هل كان الأمر يستحق ذلك؟ هل ستفعل شيئاً مختلفاً؟ بعض المهام يمكن أن تنتظر حتى صباح اليوم الثاني».

تذكر برايهام حين وصل كيرت، ولم تكن لديه اللياقة البدنية، وأنه قطع مسافة الميلين قبله بدقيقتين. لكن كيرت عمل بجد كأي شخص آخر ليصبح جندياً.

قال بلاملي: «لم أره في مزاج سيئ قط».

قال برايهام: «أنا أفكر في فرو كل يوم، على الأقل مرة كل يوم».

كان بلاملي يبتسم، وهو يتذكر صديقه. كان هو المتحدث يوم الاحتفال بعيد المحاربين القدماء الذي لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء، وفي الأيام القليلة الأولى كان يشعر بإحباط رهيب. «ثم فكّرت: كيف يريد فرو أن أكون لو كان يستطيع رؤيتي؟ وفي كل مرة لا أريد فيها فعل شيء، أفكر أن هذا غبي، هل سيفكر بهذا الشكل؟ لا. لذا فقد أعطاني دفعاً كبيراً».

هدؤوا جميعاً، ثم سألوا عن حال عائلة كيرت.

فيما يخص كريس فروشيسر، كان العراق سؤالاً بلا إجابة حول ابنه وبلده. لم يكن بحاجة ليثبت أنه على حق، بل كان بحاجة لمعرفة ما هو الصواب الذي عرّفه بأنه تكريم لكيرت وباقي الجنود. فقد أصبحت الحرب التي أخذت ابنه الصلة الأساسية بابنه، وكان يريد أن يشعر بصلة تربطه بالجنود الذين خدم كيرت معهم، وبالبلد الذي مات فيه أيضاً. كان أكثر ما يُغضب فروشيسر هو أن يحثه أحد على مواصلة حياته. كان يبحث بهوس وشغف في القصائد ومقاطع الأغاني والمجلات (لم يقرأ فقط مجلة The New Republic بل أيضاً In These Time اليسارية وAmerican Enterprise اليمينية)، ووثائق الجيش، والبريد الإلكتروني، والموقع الإلكتروني للفرقة الأولى المسلحة، وكتب التاريخ الأمريكي، والمجلدات التي تتناول نظرية الحرب العادلة، ومتعلقات كيرت، ومذكراته. سأل فروشيسر: «ما الذي كان ابني متورطاً فيه؟ هل كان صواباً؟»، أنا أبحث عن رواية لذلك تستقر بشكل جيد في عقلي وقلبي. أنا فخور بخدمة كيرت. لكن الأمر برمّته هو هل أسيء استخدام هؤلاء الشباب؟ ولأجل ماذا؟» لم يكن يجعل الأمر سهلاً على نفسه أبداً.

كانت مراسلاتي لفروشيسر قليلة وكان يرحّب بها. لم يكن يكتب بوصفه أباً فقط، وإنما بصفته مواطناً أيضاً، وكأنه كان قطعة من قماش قديم لم يعد يوجد منه. لكن المراسلة بالبريد الإلكتروني لم تحضّرني للحزن الذي كان بانتظاري في دي موا حين خرجت لرؤيته

في عطلة يوم التأبين عام 2004. لم تمضِ دقائق بعد أن أقلّني من المطار، حتى كان فروشيسر يبكي، كما بكى حين غادرت شقته بعد يومين، وأيضاً بكى فيما بينهما. كانت عيناه الزرقاوان الضيقتان محاطتين دوماً باللون الأحمر تحت النظارات، وكان على بشرته البيضاء خطوط باهتة في خديه. كان صوته ثخيناً وتظهر فيه العواطف وجذور شيكاغو؛ يمكن أن يقطع جملته بضحكة متوترة تنفجر بالبكاء، ثم يضبطها من جديد لتنتهي.

أخذني بضعة أميال شرق دي موا إلى توسّع ألتونا الجديد، حيث كان هناك وليمة في الطريق إلى بيت جيران ابنته (كان ذلك مكاناً يستمرّون فيه بإحضار الطعام وإخراج نفاياته شهوراً بعد الجنازة). ابتسمت إيرين حين رأت حالة أبيها: «ليس من الآن أبي». وبعد العشاء ذهبنا إلى بيت إيرين وزوجها مايك وجلسنا حول طاولة السفرة، حيث انتشرت صور كيرت وهو في عمر أصغر، وصورة تخرجه في فورت نوكس وهو يقف باللباس العسكري أمام عربة برادلي، وبرامجه القتالية، واللافتة ذات الإطار الأحمر المكتوب عليها: «قتل في أثناء تأدية الواجب»، والقلب الوردي والنجمة البرونزية، وعلم جنازته المثلث في إطار خشبي.

كانت إيرين، وهي امرأة في أوائل الثلاثينيات ولها نظرة مباشرة بعينيها الزرقاوين، تجد صعوبة في تفسير الأمر لطفليها الصغيرين. وكان ابنها كولن الذي كان في الخامسة من عمره، يسأل باستمرار: «لماذا لم يطلق عليهم النار؟ لماذا هم هناك؟» أما ابنتها الصغرى مادلين فلم تكن تذكر كيرت. كانت إيرين تحاول أن تتخيل العراق بصعوبة، وحياة الأمهات العراقيات، والأخطار التي يعشن فيها. قالت إيرين: «أجد صعوبة في أن أتخيل حياة أي شخص غيري. هل هذا أناني؟، أحياناً أخاف أن يستمر هذا حتى نفجر العالم. وأتمنى لو أن لدينا خطة أفضل». حين رأت صور سجن «أبو غريب» في البداية، كما قالت: «فكّرت: لقد فجّروا أخي، لهم قوة أكثر. ثم خطرت لي أفكار أكثر تعقلاً: نحن نحاول أن نكسبهم، وهذا الإذلال لا يخدم قضيتنا». كانت مؤيدة للحرب، لكن في يوم سيئ من نيسان قتل فيه اثنا عشر أمريكياً، فكّرت: «علينا أن نخرج. لا أريد أن تمرّ عائلات أخرى بما مررنا به. لكن ماذا حققتم؟ لذا سنكون قد خسرنا كيرت لأجل لا شيء».

فيما يخص أباها، كان التحدي الأكبر هو الاستمرار: «هذا الأمر في يوم واحد يفيدني. أنا أشعر بورطة حين أبدأ التفكير: كيف سأمضي هذه الأيام والأسابيع والفصول؟».

قالت إيرين: «في معظم الأيام أتظاهر بأن ذلك لم يحدث».

«وأنا أيضاً. أفكر أحياناً أن هذا لم يحدث دقيقة واحدة فقط. ثم أعرف أنه قد حدث».

حان وقت المنبه في ساعة كيرت.

قال فروشيسر: «يجب ألا يكون يوم الغد مؤلماً، أعتقد أنهم سيقرؤون الأسماء فقط».

عدت مع فروشيسر إلى دي موا. شعرت أن شقته أصغر مما كانت، بسبب عدم وجود ضوء طبيعي فيها، ولأنها أصبحت مستودعاً مبعثراً لكل أغراض كيرت، وملابسه ومعداته الرياضية، وأقراصه الليزرية المكدّسة بجانب تسجيلات والده القديمة وكتبه، وميداليات وأعلام وأوسمة تأبينه. كان فروشيسر ينام على الأريكة في غرفة الجلوس، وكأنه يبقى ساهراً، منذ اليوم الذي غادر فيه للتدريب الأساسي. أما أنا فقد نمت في غرفة كيرت. ظللت ساهراً وقتاً طويلاً قبل أن أغرق في النوم.

كان القبر رقعة من التربة الداكنة والعشب الأخضر، وكان محاطاً بقبور المحاربين في الحروب السابقة التي كان على كل منها علم تأبين يهتز في النسيم في صباح ربيعي لطيف. قدّم فروشيسر التحية، وكان يرتدي ملابس زرقاء. قال فروشيسر: «مرحباً، يا رفيق»، وهو ينحني ليمرّر يده على الشاهدة التي حفر عليها صليب والكلمات الآتية:

كيرت راسل فروشيسر

ب. ف 2 الجيش الأمريكي

العراق

10 تموز 1981 - 8 تشرين الثاني 2003

القلب الوردي

«كان من الصعب إبقاء الثلج بعيداً عنه، لأنه تجمّع طوال الشتاء. حين تكون الأوساخ طرية، تستطيع أن تضغط عليها، وتترك آثار يدك. كان هذا شيئاً جيداً». كان يتحدّث مع القبر الآن. «محاولة نسيان الأمر أقل إيلاماً، لكن عليك أن تبقى متذكراً. قال كيرت

ذلك عشـوائياً: عش حياتك أيها الرجل العجوز، وأنا لا أريد أن أنسـى». كان يعدّل الشـمعة التـي لا تنطفـئ تحت الزجـاج الأزرق: «نحن نعـرف أن الناس يعيشـون في قلوبنا، لكن هل يعيشـون بطريقة أخرى؟ نحن لا نعرف إجابة هذا السـؤال». قـام على قدميه ببطء، وعدنا إلى السيارة: «ما معنى كل هذا؟ إنه لا يعني شيئاً. المعنى هو كيف نردّ».

حضـر الحفـل في الحديقة حشـد صـغير، ضـم عـدداً من الرجـال المسـنين بقبعاتهم العسـكرية. لاحظت المرأة المشـاركة في لجنة تنظيم الحفل فروشيسـر، ورافقته إلى صـف من الكراسـي حيث تبادل التحيات بصـعوبة مع زوجه السـابقة. كانت جيني ترتدي سـترة عليهـا صـورة العلم الأمريكي، وعبـارة: «هذه الألوان لن تختفي»، لكن وجهها كان متغضـناً من الحزن. قدم أحد السياسـيين خطاباً قصـيراً، ثم تلوتُ أسـماء أربعة عشر شخصاً من أياوا كانوا قد قتلوا في العراق. انتظر فروشيسـر دوره ليضع وردة تحت حربة بندقية إم 16 مغروسـة في الأرض وفي أعلاها خوذة، كما تُجرى المراسم في بغداد.

قطعنا الولاية لحضور حفل تخرج ابنة شقيق زوجه السابقة في مدينة صغيرة قرب حدود أياوا (كان يريد المحافظة على علاقات أسـرية قوية قدر المسـتطاع، ولا سيما الآن). قطعنا الهضـاب الملتفة المغطاة بالعشـب وصـوامع الحبوب ومصـانع البذور وحقول الذرة والقش الشـاحب، مع ظلال الغيوم البيضـاء الناعمة التي كانت تتسابق في السماء الزرقاء، بدا أن المنظر الحالم وحرية الطريق قد أطلقت أفكار فروشيسر قليلاً من أعباء الصباح. كان يقرأ كتاباً اسمه باريس 1919، يتحدث عن آثار الحرب العالمية الأولى، حين رسم ت. إي. لورنس وغيرترود بيل وغيرهما خريطة العراق في قصـر فيرسـاي. اختلف السـير آرنولد ويلسـون المفوض السامي في العراق مع مساعدته بيل حول عدد من الأمور، لكنه احتفظ بها في بغداد وقدّر معرفتها، قال فروشيسـر: «لذا حين أسـمع أن توم ووريك هذا قد اسـتبعد من العملية تمامـاً ماذا؟ لمـاذا؟ نحن بحاجـة إلى كل المعلومات التي نسـتطيع الحصـول عليها. فحين تتحدث عن إرسال كيرت فروشيسر إلى العراق، وتخترق قطعة معدنية رأسه لتدخل دماغه، ويكون والداه هنا في ديموا، أياوا، فمن الأفضل أن تأتي بأفضل معلومات حصلت عليها، حباً بالله». بدأ يفكر في الأفكار الكبيرة التي لم تكن تخطر بباله في أثناء حفل التأبين. «أتساءل: كيف يفكر بوش بينه وبين نفسه حيال كونه ضد بناء الأمة، وقد غرق فيه الآن حتى خصره.

مـا هـذا؟ هل هو تناقض أم سـخرية؟» لما كانـت أمريكة كانت تمد نفسـها بعمق داخل دول أخـرى، فقـد أردنا أن نكون فطنين وماهرين بقدر ما نحـن أقوياء، مع كادر كامل من أمثال غيرترود بيل المثقفين في العلوم الإنسـانية، القادرين على العمل عبر البحار. «كنت أفكر في تلـك الأغنية في ذلك اليـوم 'Ain't Gonna Study War No More' (لن أدرس الحرب بعد الآن). ربما علينا أن ندرسـها. وإلا فسنفسـد الأمر؛ لأن أبناءنا وأحفادنا سيقومون بذلك». وقد سـمعنا السياسة الخارجية الجديدة لبوش التي وصفت بأنها على طريقة ويلسون، وهو تعبير ملهم. «هناك عبارة: أمريكة العظمى والعادلة. اعتاد ريغان الحديث عن (المدينة التي على الهضـبة). في المرة الأولى التي سـمعت فيها كوندوليزا رايس تتحدث عن الديمقراطية في العراق شعرت بقشعريرة تسري في ظهري. لكنك تسأل بعد ذلك: كيف ستحققونها؟ وهل هي ضـرورية؟» قاد فروشيسر بصمت برهة، وحين عاد للكلام كان صوته أكثر هدوءاً: «هنا يسقط في يدي فيما يتعلق بكيرت».

فسألته عن معنى ذلك.

«حيـاة كـيرت، هل كان الأمر يسـتحق ذلـك؟ برأيي لا. فقـد كان أهم من ذلك. ولذلك أتراجع».

في تلك الليلة حين عدنا إلى الشـقة في دي موا، كنا نشـاهد قناة CNN حيث ثلاثة عشر قتيـلاً في العـراق في عطلة نهاية الأسـبوع حين رنّ الهاتف. كان المتصـل هومات فان بورن، سـائق عربـة الهامفي التي قتل فيها كيرت، وكان يتصـل من ألمانيـة، حيث لايزال في إجازة ليتعافـى من جروحه. أخفض فروشيسـر صـوت التلفـاز، وجلس على كرسـيه الهزّاز. كان يشـعر بالصداع بسبب توتر اليوم، قال فروشيسر: «لست متأكداً مما يمكن أن أسألك إياه، دعنـي أعـرف إن تجاوزت الحدود». وعلى الطرف الآخر، كان فان بيرن يصـف تلك الليلة، قال فروشيسـر: «لقد تلقى ضـربة قوية على رأسـه، ولم يكن لديه فرصـة، أنا أفهم ذلك، لقد أصـابته الضـربة في المكان الخطأ. لم يكن قادراً على الكلام بعد تلك الضـربة، أليس كذلك؟» كان فروشيسـر يسـمع وانفجر بالنحيب: «لكنه كان يحاول؟ نعم، هذا يشبهه. لقد كان شخصاً صالحاً. نحن فخورون به. لم يكن لديهم ما هو أفضل ليقدموه؛ لذا فقد رحلوا؟ أنا أؤمن بذلك، نعم، أنا أؤمن بذلك».

في الصباح كنت سأتوقف عن التطفل، وأعود إلى دياري، وأترك كريس فروشيسر يمر بيوم آخر من الذكريات والأسئلة مستحيلة الإجابة. لكنني الآن تحديداً، كنت أشاهد التلفاز الصامت: هجمات إرهابية في السعودية، ومعارك مسلحة بالقرب من النجف، وعمليات للقوات الخاصة في أفغانستان، واحتفالات بيوم التأبين للمحاربين القدماء في أمريكة. كانت تلك العناوين، دون صوت، تبدو كمشاهد من حرب تراجعت إلى التاريخ.

أغلق فروشيسر الهاتف. «فان بورن قال: إنه حاول الكلام، لكنه لم يستطع. لقد قاوم كثيراً ليبقى على قيد الحياة». لم يسبق لفروشيسر أن سمع هذا من قبل، وبدا غير متأكد إن كان يستطيع تصديقه أم لا، وإن كان يستطيع الترحيب به أم لا. اتصل بإيرين ليخبرها، لكنها كانت قد اكتفت من المشاعر بيوم واحد، وأنهت المكالمة بسرعة. عاد فروشيسر ليجلس على الكرسي الهزاز، وقال: «لا أستطيع التفكير في هذا كثيراً، لكن لو استطاع كيرت أن ينجح في تلك الليلة لكان اليوم على قيد الحياة».



12

مواطنون بسطاء

بعد نحو عام من لقائي الأول بالدكتور باهر بطي، وهو طبيب نفسي في بغداد، قمت بزيارة لبيته المرتب من بيوت الطبقة الوسطى في الدورة، وهو حي يقع جنوب نهر دجلة وتحيط به المداخن الأربع لمحطة توليد الكهرباء التي أصبحت معقلاً للمتمردين. جلسنا في غرفة المعيشة، وأخبرني د. بطي وزوجه أنهما يفكران في مغادرة العراق، بينما كانت ابنتهما تتابع فيلم كرتون عربياً عن وحش على شاشة التلفاز، حيث قام كثير من الناس الذين يعرفونهم، ولا سيما المسيحيين أمثالهم، بأخذ أولادهم للخارج. كان لبطي شقيق في الإمارات العربية المتحدة يستطيع مساعدتهم في الإقامة هناك. وكان اختطاف المتخصصين قد أصبح وباء متفشياً، لكن المشكلة كانت أساسية ويومية أكثر من ذلك أيضاً. طلب مدير المركز الصحي الأولي الذي كانت تعمل فيه بلسم طبيبة ألا ترتدي فستاناً أحمر ضيقاً للعمل. كما أمر مدير جارتهم، مدرّسة الموسيقا الشيعية، أن ترتدي الحجاب. وأُجبر بطي أن يطلب إلى صديق شيعي التدخل في خلاف وقع بعد أن خصم بطي من راتب موظف فاسد في مشفى الرعاية طويلة الأمد. هدّد الموظف البطي، وصديق البطي، الذي كان شيخ عشيرة دخل للتفاوض مع شيخ عشيرة الموظف. لم يكن للبطي شيخ عشيرة -لأنه كان مسيحياً- لذا فقد ذهب لطلب الحماية من الشيعة. كانت تلك أشياء لا يعرفها الأجانب إلا فيما ندر، لكنها كانت أموراً من الحياة اليومية للعراقيين أمثال د. بطي وزوجه.

في هذا الجو كان البطي يلجأ لقومه للمساعدة، وهم منظمة للمسيحيين العراقيين تدعى المجلس الكالدو آشوري. لم يكن من قبل يعتنق هويته الدينية، لكن ليس لديه الآن مكان يلجأ إليه. وللحصول على بضع علب من الجعة لسهرتنا معاً، توقفنا عند نادٍ مسيحي خاص كان يعرف فيه أناساً موثوقين؛ لأن معظم متاجر الخمر في بغداد قد أغلقت بعد أعمال تفجير وإطلاق نار. لم تأتِ أفكاره عن مركز جلجامش للتفكير الإبداعي وغيره من المنظمات

المدنيـة بنتيجـة. بعد يوم من العمـل وثلث سـاعة في الازدحام المـروري، كان منهكاً لدرجة أنه لم يسـتطع أن يواصـل في فكرة إقامة مجموعة حراسـة محلية للشـارع. قال بطي: «إنه أيضـاً نوع من الأنانية التي نشأت في السنوات العشر الأخيرة من حكم صدام»، كان الجميع يركّزون على نجاتهم، وعلى صـراعاتهم الخاصة. وسـرعان ما تفككت الأحزاب السياسية والمجموعات المدنية الجديدة بسـبب خلافات وصـراعات شخصية، أو انهارت بسبب نقص الطاقـة. وقد قال بطـي: إن «التكنوقراطيين» العراقيين كانوا بلا قـوة، أما الأمريكيون فقد نسوهم، حيث كان بأيديهم مشكلات أكبر.

نحو أواخر عام 2004، أصـبح شـبه مسـتحيل أن أسـتمر في العمل بالطريقة التي كنت أعمـل بها دوماً في العراق. فقد انتهى زمن تناول الوجبات الطويلة في بيوت الأفراد، وكذلك معظـم الزيـارات المنزلية من أي نوع. وانتهى زمن التجوال في الأحياء، وكذلك السـفر دون تخطيط حذر ومحدد الهدف وقصير. وانتهت المحادثات مع الغرباء في الشارع أو المشافي أو الجامعة. كنت أمثل خطراً لهم، كما كانوا يمثلون خطراً لي.

كانت إسـتراتيجية وسـائل الإعلام تجاه التمرّد تربكني، فقد أخفقت على مسـتوى فهم جمهورها، كما هو حال شـبكة العراق الإعلامية لسـلطة الائتلاف المؤقتـة. طالما أنّ الحَكَم النهائـي لحرب العصـابات هو الشـعبان العراقي والأمريكي، وطالما أنّ اسـتعداد الشـعب الأمريكـي لاحتمـال المجـزرة في العراق قـد تراجع في أثناء عـام 2004، فما سـبب إرهاب الصـحفيين الذين هم أفضـل من يسـتطيع نقل أحداث المجزرة إلى بلد المحتل ودفعهم إلى مغادرة العراق؟، كما كان المزيد من الصحافيين يفعلون، وقد سألت مرة رجل أعمال عراقياً، تربطه صـلات بالتمرّد، عن ذلك؟ واتفق معي على أن سياسـة اختطاف الصحافيين وقطع رؤوسـهم هي سياسـة خاطئة. وقال لي: «نحـن نحاول جاهدين أن نجعـل الناس معتدلين، وأن نبعدهـم عـن التطـرف»، وقد بدا رجلاً مشـغولاً جدًّا بشـركاء عمل لا يمكـن الاعتماد عليهم. ربما أراد المتمردون اسـتمرار عقلية الحصـار بين الصـحافيين في بغداد، لمعرفتهم أن الصـحافيين يميلون لرؤية الصـورة العامة بشـكل أكثر قتامة حين يتم تهديد سلامتهم. (انتقد بول وولفوفيتز الصـحافة بأنها خائفة لدرجة أنها لا تخرج لإيجاد جميع القصـص الإيجابية، وإنما تكتفي بالتصـريحات حول العراق التي كان يعتذر عنها دائماً). وربما كان

الكـره المطلق لدى الجهاديين لجميع الكفار دون تمييز، والإخفاق الأكبر للتمرد في الوصـول إلى إستراتيجية سياسية أكثر تماسكاً من الخوف، يفسّران التخويف.

كانت النتيجة أن انقطع الأجانب عن العراقيين، وبدا أن النور الذي أشعله سقوط النظام يخفته النهار، مع انسحاب العراقيين إلى الظلال التي أبقاهم فيها صدام عقوداً من الزمن. إذا أردت أن تكون صـادقاً فعليك أن تقرّ بأنك تعرف أقل وأقل عن تفكير العراقيين وظروف حياتهم. كتب روي ستيوارت، المسـؤول البريطاني السابق في سلطة الائتلاف المؤقتة، الذي يتحدث اللغة العربيـة: «لا يعرف أي من الأجانب فعلاً ما يحـدث في العراق»، أنا بالتأكيد لا أعـرف ما الذي يجري في العراق. وحتى العراقيين الذين يعتمد عليهم الأجانب في شـرح ما يجري في البلاد من السياسـيين والمترجمين وأولئك الذين استطاعوا أن يغادروا، ويعودوا قد لا يملكون إلا فكرة بسيطة عن المواطنين الذين يعيشون في المناطق الريفية والأحياء الفقيرة، التي ليس فيها قوات أمن غير المتمردين أو الميليشيات.

لكن الأحداث المهمة كانت تجري هنا بالضبط: في عقول الناس العاديين. كيف يستجيب العراقيون حين تترك الوجوه الأمريكية السلطة لتحل محلها الوجوه العراقية؟ هل سيبدؤون بالنظر إلى الحكومة على أنها تنتمي إليهم وعليها أن تجيبهم؟ هل سـيجرؤون على دعمها، أو حتى المشاركة فيها، أو أنهم سيتراجعون لضمان سلامتهم؟

كانت تلك أسـئلة مجرّدة، لكنها تقود مباشـرة إلى أكثر القصص متعة، القصص التي جعلتني أعود إلى العراق باسـتمرار. برأيي كان المسـوغ الوحيد الباقي للحرب على العراق، هو إنشـاء حكومة تعطي العراقيين الحياة الأفضـل التي يسـتحقونها. يجب أن تكون حكومة ديمقراطية، لكن ليسـت مجرد ديمقراطية شـكلية. كانت تتطلب أكثر من مؤامرات القصر والصـفقات الخلفية التي كانت تشـكّل السياسـة العراقية في ظل سـلطة الائتـلاف المؤقتة والحكومـة الانتقاليـة. كانت تتطلـب مشـاركة الناس العاديين الذين أصـبح من الصـعب جـدًّا معرفتهم. فـإذا بقيت حتى نهاية عـام 2004، أي نية للاسـتمرار في تغيير العراق مع الانفجارات الضـخمة والإصابات الفظيعة ومع اكتشـاف المقابر الجماعية يومياً، فلن يكون الفضـل للنخبة السياسـية الأمريكية أو العراقية. وإنما سـيكون للعراقيـين العاديين الذين استطاعوا الاحتمال بعد كل ماعانوه سابقاً.

كانت المشكلة طوال الوقت أن أقوى الناس في العراق هم المتطرفون المسلحون والميليشيات. أما أكثر العراقيين انفتاحاً فقد كانوا الأضعف. منذ البداية، تطورت السياسة العراقية بشكل مشوّه وخدّاع، مع أن معظم ذلك ليس غريباً بعد حكم الحزب الواحد. كان في القمة رجال في الستينيات أو السبعينيات من العمر، ومعظمهم يمثلون أحزاب المهجر السابقة الذين كسبوا التأييد من الخطوط العرقية أو الطائفية الضيقة. (توقف أحمد الجلبي الذي لم يكن لديه أي دعم من أي نوع داخل العراق عن الحديث عن الحقوق العامة، واتصل بالكتلة الشيعية، وأصبح بطل مقتدى الصدر، وأعاد ثروته بعد أن تخلت عنه حكومة الولايات المتحدة وداهمت منزله في بغداد. حتى أقسى منتقدي الجلبي كان عليهم أن يحترموا انتهازيته الفطنة). كان هؤلاء هم السياسيين الذين تعامل معهم الأمريكيون -بصفة وسطاء بينهم وبين الميليشيات المسلّحة- مهما كان الحديث عن الديمقراطية الليبرالية في البنتاغون والبيت الأبيض ومجالس الخبراء وفي كتابات كنعان مكية. سخّر بريمر ومساعدته ميغان أو. سوليفان وقتهما وطاقتهما في تشجيع قادة الأحزاب الشيعية الدينية كحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذين كان لديهم آلاف الرجال المسلّحين. زار المسؤولون الأمريكيون بيوت هؤلاء القادة وأولوهم اهتماماً خاصاً في مجلس الحكم، على أساس أن سلطة الائتلاف المؤقتة إذا استطاعت إبقاءهم تحت جناحها، فيمكنها إحداث أثر في النتيجة النهائية.

لكن بدلاً من ذلك، في الشوارع، حيث كانت سيطرة الأمريكيين ومعرفتهم قليلة، تبارت ميليشيات الأحزاب الدينية على السلطة مع أتباع مقتدى الصدر. وتم الاستيلاء على المساجد والمشافي والمدارس من قبل رجال مسلحين يهتفون بشعارات مشؤومة، وتم تهديد النساء لمجرد أن مظهرهن غير إسلامي أو حتى لخروجهن من البيوت. داخل المنطقة الخضراء، دارت مفاوضات طويلة حول دور الإسلام وحقوق النساء في الدولة الجديدة، أما خارج المنطقة الخضراء، فقد كان هناك رمز اجتماعي قاسٍ يتم فرضه من قبل الميليشيات. ثم كان هناك التمرّد السنّي الذي حرص على ألا يجرؤ على الظهور في الاجتماعات العامة إلا أكثر المواطنين شجاعة وإخلاصاً.

في هذه الظروف، كان من المستحيل نمو شيء يشبه الحياة المدنية الطبيعية. كان العراقيون الذين يأمل بهم المرء يخرجون للسطح، أما أولئك الذين لديهم أفكار ديمقراطية

أكثر لكن ليس لديهم مؤيدون أقوياء فقد كانوا يبتعدون، بانتظار أن يروا كيفية سير الأمور. مرة قال لي طبيب عجوز متصلب، كان مستقلاً كردياً في مجلس الحكم: «الميليشيات ورجال الدين الشيعة وأثرياء الحرب هم الذين يحكمون العراق الآن. أما المواطن البسيط فلا يسمح له أن يحصل على حقوقه، أو يتكلم بحرية عما يريد». وكان يلقي جزءاً من اللوم على الأمريكيين. «إنهم لا يهتمون كثيراً بالمواطن العراقي البسيط. بل يهتمون بزعيم العشيرة هنا والملا هناك، ورجل الدين هنا، ورجل الميليشيا هنا، وزعيم الحزب هناك».

كان من الممكن إيجاد عراقيين يتقدمون للمطالبة بمستقبل بلادهم السياسي. كان عددهم قليلاً، ولا يقارنون من حيث المال والسلطة بالأحزاب والميليشيات، وكانوا في اعتقادي أقوى الناس على وجه الأرض. وفي بعض الأحيان كان هناك أمريكيون مستعدّون لدعمهم.

كان المعهد الديمقراطي الوطني منظمة تحصل على تمويل كبير من قبل الحكومة الأمريكية ومنضمّة للحزب الديمقراطي، كانت تعمل باستقلال نسبي، تحت إشراف المؤسسة الوطنية للديمقراطية. وكان هدف المعهد إيجاد «المواطنين البسطاء» في مكان كالعراق ومساعدتهم للمشاركة في الحياة السياسية الديمقراطية. وكان هذا عملاً غامضاً لا يحصل على تمويل كافٍ، لكن إدارة بوش كانت تحاول أن تُغدق نصف مليار دولار على العراق لبرامج «بناء الديمقراطية» قبل الانتخابات الوطنية. وقد جعل تصعيد العنف إنفاق المال أمراً صعباً.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ذهبت إلى الحلة التي تقع على بعد تسعين ميلاً جنوب بغداد، مع مجموعة من العراقيين والأمريكيين الذين يعملون في المعهد الديمقراطي الوطني. وقد ذهبنا بعربات غير مصفّحة، ودون حرّاس. في المقعد الخلفي لإحدى السيارات كان يجلس ديفيد ديتمان المستشار السياسي من أوهايو، وكان يرتدي بذلة بحرية زرقاء، وربطة عنق بلون السلامون ونظارات، وكان شاحباً ويدخن بشكل متواصل. كان ديتمان الذي كان في الثالثة والثلاثين ولديه حس دعابة متوتر ناقد للذات يذكّر بشخصية جاك ليمون، قد عمل سنوات عدة بنجاح بصفة مستشار حملة. ثم فرّ ناجياً بنفسه من المجلس التشريعي للولاية على أنه ديمقراطي، وتعرّض للاتهام، ثم أدرك الحقيقة. وقد قال: «إن سبب اتهامي هو أنني آمنت بالعملية فعلاً». فقرّر أن يترك عالم الموظفين ذوي الدم البارد،

وأصبح أحد المبشّرين بديمقراطية المعهد الوطني للديمقراطية، وحصل على وظيفة في أوكرانية (حيث أثمر عمله في نهاية عام 2004، بالثورة البرتقالية التي أطاحت بالحكومة الأوكرانية الفاسدة). ومما أفزع زوجه ووالدته ورئيسه أنه جاء إلى العراق أسبوعين لتدريب المجموعات على تحفيز الناشطين في الأحزاب السياسية في بغداد وتكريت والحلة.

جرت ورشة العمل في الحلة في المقر السابق للشرطة السرّية الذي أصبح مركزاً لحقوق الإنسان. كان أربعون عراقياً -بينهم أستاذ علوم سياسية ومدرّب رياضي عاطل عن العمل- قد جاؤوا وعرّضوا أنفسهم للخطر لحضور التدريب. كانوا ينصتون باهتمام شديد ويسجّلون الملاحظات بعناية، بينما كان ديتمان يقف حانياً كتفيه، أمام أوراق الرسم البياني ويقدّم برنامجه المكوّن من عشر خطوات حول تطوير الرسالة والاتصال بالناخبين. وكانت ميساء النعيمي، وهي من الموظفين الأعضاء في المعهد الوطني للديمقراطية، تترجم بشجاعة المصطلحات الغريبة للحملة: «وسائل الإعلام المكسوبة»، «إستراتيجية الاتصالات»، «قضايا الأساس والدعائم». وقد سبق أن قال لي ديتمان: «السياسة هي فن جعل الناس ينتخبونك. وهذا قابل للتطبيق في جميع أنحاء العالم. ولو لم يكن كذلك، لما كان لي عمل».

بعد ساعتين من النقاش، رفع عراقي يده وقال: «هذا يريني أننا نقوم بتحوّل من الديكتاتورية إلى الديمقراطية. ويعطيني شعوراً جيداً. لكن السؤال هو الآتي: هل ستترك الحكومة الأمريكية الأمر لنا؟ أم أنها سترمي إلينا بشخص ما؟ هل ستضيع هذه الجهود كلها؟».

في الخارج، سمعنا صوت انفجار -نيران أسلحة هاون- ثم انفجار ثانٍ أقرب، وبعد ذلك إطلاق نار. نظر ديتمان من النافذة، وابتسم ابتسامة إنذار عريضة.

فسأل أحد الحاضرين: «هل يجيب ذلك عن السؤال؟».

قال ديتمان: «أنا لست من الحكومة. أنا من المعهد الوطني للديمقراطية. علينا أن نذهب لتناول الغداء. هل يمكن أن نتحدث عن هذا فيما بعد؟».

وبعد الغداء عاد ديتمان إلى السؤال، فقال: «برأيي أنه إذا كانت أمريكة قد قامت بغزو العراق فقط لتضع ديكتاتوراً صديقاً لها، فستكون أرواح العراقيين والأمريكيين التي فقدت

جميعها قد ضاعت سدى. لقد أيّدت الغزو؛ لأنني أعمل في مجال الديمقراطية. أنا لا أعرف شيئاً عن أسلحة الدمار الشامل -ولا أعرف إن كان أحد يقول الصدق أم لا- لكنني أعرف بالفعل أن الشعب العراقي يستحق الحرية. لا أستطيع أن أقول: إن الأمريكيين لن يفعلوا شيئاً خطأ؛ لأنهم قد فعلوا كثيراً من الأخطاء في هذا الاحتلال. وأنا آسف لذلك، لكن هناك سبب لوجود المعهد الوطني للديمقراطية هنا، وهناك سبب لأننا لم نحضر دبابة. نحن أقل الأمريكيين تسليحاً في الحلة. نحن هنا لثقتنا في كرمكم. لأن الديمقراطية شيء جيد وصحيح». وتابع قائلاً: «وإذا كان هناك سبب آخر لخوض هذه الحرب المؤلمة، فسأغضب جدًّا. المشكلة أنني لا أستطيع فعل الكثير. أنا مجرّد أمريكي متغطرس يرتدي بذلة، ويقف أمامكم. وأنا لم أعانِ بقدر ما عانيتم. أنتم وحدكم تستطيعون بناء الديمقراطية هنا. لكن لو فكرت مجرد تفكير في أن أمريكة ستسرق الحرية التي نحارب لأجلها، لكنت بقيت في بلادي مع زوجي وقضيت وقتاً طيباً».

سأله أحدهم: «ألا تقضي وقتاً طيباً هنا؟».

«بلى، أنا أمضي وقتاً طيباً. لكنني أفتقد زوجي».

كان خطاباً من القلب، واستقبل بالتصفيق. ثم تمتم رجل يجلس بجانبي قائلاً: «وضع شخص بريطاني اسمه هامفر خططاً قبل عقود للرؤساء الذين سيتعاقبون على حكم العراق».

كان الناس في القاعة ينتمون إلى ما سمّاه د. شاكر، الطبيب الشرعي في مشرحة بغداد، «مستوى التفكير المتوسط». لم يكونوا من رجال الدين، ولا من رجال الميليشيات، وكانت بعض الأحزاب التي ينتمون إليها لا تضم أكثر من سبع مئة عضو. لم يكونوا يشبهون الليبراليين الغربيين؛ كانوا يريدون في حكومتهم ديناً أكثر مما قد يفضّله أعضاء مجلس المعهد الوطني الديمقراطي. لم يكن هناك إلا ثلاث نساء في الحضور. وكان ذكر هامفر الجاسوس البريطاني المفترض الذي يلقى عليه اللوم لكثير من المشكلات في العالم الإسلامي، يظهر أن هؤلاء العراقيين كانوا عرضة للشعور بانعدام القوة ونظريات المؤامرة التي يبرزها كمعظم الآخرين. لكن الأهم هو أنهم قرروا بالفعل أن يكون لهم دور في الحياة السياسية.

كان من بين المشاركين جودت العبيدي، ضابط الجيش السابق من الحلة. كان قد هرب من العراق بعد اشتراكه في التمرد الشيعي عام 1991 وانتهى به المطاف في بورتلاند بأوريغون. فأنشأ شركة ليموزين صغيرة هناك، وفي عام 2003، باعها وعاد إلى العراق عضواً في ميليشيا جمّعتها قوة الغزو الأمريكي. وفي العراق، أنفق العبيدي 150.000 دولار من مدّخراته لإقامة ائتلاف من نحو مئتي حزب سياسي صغير لمنافسة الأحزاب الكبيرة في الانتخابات الوطنية. جمع برنامج الائتلاف بين برنامج عمل إسلامي معتدل وبين الوطنية العراقية واحترام الحقوق الفردية، وهو مزيج معتدل بشكل مقصود بدا مصمّماً ليحصل على دعم واسع.

كان في الاجتماع أيضاً زوجان من قرية المحاويل، ذات الشوارع القذرة والمستنقعات المالحة التي تقع على بعد بضعة أميال شمال الحلة: عماد داود الذي كان يعمل في محل يبيع مواد البناء، وزوجته سعاد التي حصلت على شهادة في إدارة الأعمال في بغداد، لكنها لم تستطع إيجاد عمل، وهي الآن تقوم بتربية أولادها الثلاثة. شأنها شأن بقية النساء في الاجتماع، وكانت تغطي رأسها.

شرح زوجها الأمر لي قائلاً: «نحن نذهب إلى كل مكان معاً».

فقالت سعاد: «أي زوجين مثقفين يفعلان ذلك».

وأضاف عماد: «طبعاً لدينا دين، ونحن نسير وفق القواعد. لا يقول دين الإسلام: إن المرأة لا يمكنها الاختلاط بالرجال، لكن لكل شيء حدود».

أشارت سعاد إلى أن الإسلام لا يحرم النساء من المشاركة في السياسة: «ينبغي أن يكون للنساء دور في كل شيء».

كان قمع الانتفاضة الشيعية عام 1991 وحشياً، وبصورة خاصة في الحلة. وفي عام 2003 اكتُشفت مقابر جماعية تضم آلاف الضحايا في محيط المدينة. وقد فقد كل من سعاد وعماد شقيقاً وعدداً من الأصدقاء. لم يكونا يعرفان إلا القليل عن مضمون الدستور الانتقالي للعراق، لكنهما كانا يعرفان جيداً معنى العيش في ظل حكم صدام. قال عماد: «كان الأمر أشبه بمطرقة تنزل على رؤوسنا كل يوم، ثم قاموا بتخليصنا منها».

كانت عائلة داود تنظر في وقت من الأوقات إلى الأمريكيين بوصفهم أبطالاً محررين، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً. فحسب قول عماد، بينما كان الاحتلال يستقر، ومع الانقطاع المستمر للتيار الكهربائي وانتشار الجرائم، كان الشعور بالتعاسة يتحول إلى نوع من الجنون. وأضافت سعاد: «الأمور تسير نحو الأسوأ هنا. طبعاً لو كانت هنالك ديمقراطية لاختلفت الأمور».

قال عماد: «لكن الديمقراطية تحتاج إلى وقت طويل، لأننا نعيش منذ زمن طويل تحت حكم صدام».

قالت سعاد: «معظم الناس لا يفهمون فكرة الديمقراطية. إذا سألت أي شخص عن الديمقراطية، فستجد معظم الناس يقولون: وماذا سأفعل بالديمقراطية؟ أعطني الأمن أولاً».

قال عماد: «أعرف شخصاً أطلق رصاصتين عشوائياً، وقال: أليست هذه حرية؟» أما فيما يخص محاضرة ديتمان، فمن الواضح أن هذين الزوجين كانا يعتقدان أن حضور الأمريكيين للقائهم في الحلة يعني شيئاً. فقد شعرا أن ديتمان قدم لهما الكثير من المعلومات المفيدة. كانت شكايتهما الوحيدة هي عدم وجود امتحان في النهاية، لاختبار كم تعلما عن الديمقراطية.

كانت فرص حصول الأشخاص الذين حضروا الاجتماع في الحلة على أي نجاح فوري في المرحلة السياسية ضعيفة. وقد قالت مارينا أوتوويه، الخبيرة في منحة معهد كارنيجي للسلام الدولي في واشنطن: إنه بعد سقوط الديكتاتوريات: «تجد دائماً كثيراً من الأحزاب السياسية التي تتشكل، ولا تصل إلى شيء، ولهذا السبب -تضيف أوتوويه- كان المعهد الوطني للديمقراطية «يقوم بشجاعة بشيء لا جدوى منه أبداً». لكن النجاح في الانتخابات لم يكن المقياس الوحيد لتأثير المعهد. فقد شعرت في الحلة أن مجرد إقامة نقاش عن الديمقراطية، وسط إطلاق النار، يتم فيه الأخذ والعطاء بين العراقيين والأجانب، هو إنجاز بذاته. وقد قال ليس كامبل، مدير المعهد الوطني للديمقراطية في الشرق الأوسط: «حتى بوجود جميع المشكلات في العراق، هناك مساحة في المجتمع المدني، وتنظيم للأحزاب أكثر من أي دولة عربية ذات نظام وسيادة». ووصف كيف كان الموظفون الأعضاء في المعهد الوطني العراقي، مثل ميساء النعيمي قد بدؤوا بالازدهار الفكري. «حتى وسط القتل الرهيب، ومع

أن التخطيط والإدارة لا يزالان مجرد نكتة، فهناك شيء مهم يجري هنا. وأنا أشعر بالمرض إذا فكرت أنه قد لا ينجح».

عدت إلى العراق مرة أخرى في يناير/ كانون الثاني 2005. كانت الانتخابات التي طالب بها آية الله السيستاني منذ سقوط النظام ستُجرى أخيراً. حيث أصبحت إدارة بوش من أقوى المدافعين عنها، بعد أن قاومتها نحو سنة ونصف السنة وتم تحديد تاريخ 30 يناير/ كانون الثاني 2005 موعداً نهائياً لإجرائها.

كانت هناك أسباب وجيهة لتأجيل الانتخابات، فقد كانت أكثر الجماعات تسليحاً وتنظيماً، التي تحصل على التمويل من إيران وسورية والسعودية متفوقة بكل معنى الكلمة على المجموعات الأقل طائفية أو تشدداً، كتلك التي رأيتها في الحلة، وهناك أمثلة في التاريخ الحديث -منها البوسنة- حيث أبقت الانتخابات المندفعة لما بعد الحرب ببساطة أقل القوى ديمقراطيةً في السلطة سنوات قادمة. كان خبراء الأمم المتحدة حذرين من الانتخابات المبكرة شأنهم شأن المسؤولين الأمريكيين. لكن كما في كل الخطط الأخرى المتعلقة بالعراق، خرجت الأمور عن السيطرة وغطت على الأفكار البراقة للناس في واشنطن وبغداد. وبدأ المسؤولون السابقون في سلطة الائتلاف المؤقتة يقولون في جلساتهم الخاصة: إن الخطأ الكبير كان الإخفاق في إجراء انتخابات محلية في بداية الاحتلال. فلو استطاع العراقيون انتخاب مجالسهم المحلية بعد سقوط النظام مباشرةً، ثم انتخاب مجالس المحافظات، وأخيراً حكومة وطنية، لأصبحوا مشاركين في السياسة العراقية بطريقة لم تحدث من قبل، وربما كان الاحتلال قد سار بشكل مختلف تماماً. لكن الوقت كان متأخراً جدًّا لوضع تصوّرات بديلة.

بدلاً من ذلك، كانت الانتخابات الديمقراطية الأولى في البلاد ستُجرى بعد نحو سنتين من الغزو، في ظروف أقل من مثالية. وحتى بعد أن خلّص هجوم القوات البحرية في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 الفلوجة من سيطرة الجهاديين، بدا أن المتمرّدين قد اكتسبوا مزيداً من القوة، حيث وسّعوا من حجم عملياتهم من محافظة الأنبار إلى الموصل، وسيطروا على مناطق كبيرة من بغداد. كان في واشنطن معرفة تقليدية جديدة: وهي أن حرب العصابات مشتعلة في العراق كاملًا، كما أن أمريكة تخسرها (نقل عن كولن باول أنه قال ذلك لأصدقائه). كان على العراقيين الانتخاب تحت التهديدات المباشرة. سجّل الإرهابي الأردني أبو مصعب

الزرقاوي تصريحاً، تم نشره على شبكة الإنترنت، أعلن فيه الحرب على الانتخابات العراقية، ووصف فيه الديمقراطية بأنها شكل شرير من أشكال الشرك الذي يستبدل بالله سياسيين، وأنها مؤامرة «صليبية» و«رافضية» شيعية. انتشرت أوراق مجهولة في العاصمة العراقية تهدّد بـ «غسل شوارع بغداد بدماء الناخبين. إلى من يظن أن بإمكانه أن ينتخب ويهرب، سنتبعكم كظلّكم ونمسك بكم، وسنقطع رؤوسكم ورؤوس أطفالكم». في معظم أنحاء العراق، كانت العناصر الرئيسة للحملة الانتخابية -كالاجتماعات العامة، والتثقيف الانتخابي، والاستعراضات، وجمع الأصوات من البيوت- شبه مستحيلة. أبقت القوائم البرلمانية أسماء معظم المرشحين سرّية لحماية أرواحهم، وكان الناخبون لا يكادون يعرفون من يختارون لتمثيلهم. أعلن فريق من المراقبين الدوليين أنهم سيقومون بمراقبة الانتخابات العراقية من عمان، التي تبعد مئات الأميال في بلد آخر. عرّفت الإدارة مشروعها للديمقراطية في الشرق الأوسط بانحدار شديد لدرجة أنه بدا أن الانتخابات ستكون ممارسة دموية.

كانت عمان نقطة الدخول والخروج في رحلاتي إلى بغداد. وكانت لحسن الحظ مدينة مملّة تعمل فيها إشارات المرور، وليس فيها نقاط تفتيش. في فندق الفور سيزنز، كانت موسيقا المصعد وأغطية السرير المقلوبة والإفطار المفتوح رفاهية كما في الأحلام. كان موظفو الاستقبال مدرّبين أن يقولوا: «أهلاً بعودتك، سيد باكر»، وكنت أشعر براحة دائماً حين يرحّب بي شخصياً في مكان لا أحتاج فيه إلى حارسي. كانت مدينة عمان الوديعة، بجوّها الجبلي الجميل ونسائها العربيات اللواتي تضعن صبغة شقراء، تبدو للعراق في مدة مثل بانكوك. في قاعة الاستقبال الفاخرة لفندق الفور سيزنز تجد دوماً الصحافيين في طريقهم لدخول العراق أو الخروج منها، وموظفي الإغاثة الذين يقضون أوقاتهم في أثناء متابعتهم أعمال العنف، ومسؤولي الحكومة العراقية الذين يعقدون الاجتماعات التي يمكن أن تكون خطرة جدًّا في بغداد، والمغتربين العراقيين الذين يغطسون في الكنبات، ويحتسون القهوة التركية، وينظرون حولهم بنظرات تآمرية غامضة.

مع حلول عام 2005 كان في الأردن ما لا يقل عن ثلاث مئة ألف عراقي، وكانت أسعار الإقامة في عمان قد ارتفعت بشكل كبير. كان بعضهم من الفارّين من العنف، بعد تجربة قاسية عادة كالسرقة أو الاختطاف في الماضي القريب. وكان آخرون يأتون للحصول على

متنفس، وكأن الأردن منتجع يستطيع العراقيون الأثرياء الذهاب إليه؛ ليريحوا أعصابهم. كما كان هناك آخرون من السنة غير الراضين عن النظام الجديد للأمور في العراق الذي يتم فيه الموازنة بين الشيعة والأكراد في السيطرة على البلاد. كان لبعض هؤلاء السنيين ارتباطات بالتمرّد؛ وكان بعضهم من قادته.

مكثت في عمان بضعة أيام هذه المرة قبل الذهاب إلى بغداد. أردت أن أتحدّث إلى السنيين، الأمر الذي أصبح صعباً وخطراً داخل العراق. كان معظم قادتهم -الذين كانوا تشكيلة من سياسيي الأحزاب والأئمة المحافظين- مقاطعين للانتخابات. وكان بعض المرشحين قد انسحبوا تحت التهديد، كما أجرى بعضهم حسابات سياسية فوجدوا أن المقاطعة والعنف سيخفضان عدد الأصوات إلى مستويات مهينة. أما المتشدّدون فقد رفضوا فكرة إجراء انتخابات تحت الاحتلال كلياً. لكن خسارة الجماعة السنيّة للسلطة كانت دوماً جزءاً من الأسباب المحرّكة للتمرّد، ومع اقتراب موعد الانتخابات كانت صفتها الطائفية تزداد وضوحاً. كان الجنوب الشيعي والشمال الكردي متحمّسين للتصويت. أما في الوسط السنّي، إذا أراد الناس أن يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، فقد كانوا يخفون خططهم الخاصة بيوم الانتخابات. لم تتوافر بعد لدى السنّة، القيادة السياسية الحقيقية القادرة على إقناع الجماعات المسلحة والناس غير المنخرطين في العمل المسلح بأن اللعبة السياسية كانت أملهم الوحيد. تناولت العشاء مع غسان سلامة، المستشار السياسي السابق لسيرجيو فييرا ديميللو، في إحدى الأمسيات في عمّان. وحين ذكرت الحالة السياسية غير المتطورة عند السنّة في العراق مقارنة بمثيلتها عند كل من الأكراد والشيعة، أجاب سلامة طالباً مني أن أسمّي قائد الطرف السنّي في الحرب الأهلية اللبنانية، وقال لي: «لن تستطيع؛ لأن السنة لا يرون أنفسهم طرفاً بين الأطراف المتنازعة. إنهم يرون أنفسهم قوة. ويعدّون أنفسهم ورثة الإمبراطورية العثمانية، وهذا لن يتغير».

قابلت مجموعة من السنّة من محافظة الأنبار كانوا على علاقة بشكل ما بالتمرد، عن طريق موظف في السفارة كان بعثياً سابقاً مقرباً من عدي. كان اثنان منهم شيوخ عشائر من الرمادي، أما الثالث فكان رجل أعمال شاباً، كانت هناك أقاويل بأنه كان أحد التجار الذين استفادوا من صدام. كان لقاؤنا في مكتبه في شركته في شارع هادئ من شوارع عمان. كان

رجل الأعمال، طلال الكَعود، حاصلاً على شهادة ماجستير في إدارة أعمال البناء من جامعة USG، يرتدي الجينز وحمالات للبنطال، وكان على اطلاع على أحدث المقالات في الصحافة الأمريكية. ذكروا جميعاً أنهم حريصون على بناء عراق ديمقراطي. لم يكن لديهم شيء ضد الأمريكان؛ لقد حلموا طويلاً بالأشياء الجيدة التي يمكن لأمريكة أن تجلبها للعراق، ورحّبوا بسقوط النظام، قال الكَعود: «أنا مؤمن بالنوايا الطيبة لدى الأمريكيين، ولكن شيئاً ما قد حدث في الطريق من واشنطن إلى بغداد». حرب العصابات هذه كلها سوء حظ، ولم تكن لتحدث لو أنصت الأمريكيون لأناس مثلهم بدل غزو بيوتهم والعبث بكرامة نسائهم وإرغام العراقيين على طلب الثأر.

أقرّ الكعود بأن بعض المتمرّدين يعيشون في القرون الوسطى، وهم المتطرفون الذين أساؤوا إلى سمعة الباقين. لكن المقاومة الشرعية، كما كانوا يسمّونها، كانت مقاومة عراقية ضد الاحتلال. وكانت تضم مئتي ألف شخص، وإذا استمرّت الانتخابات فإن أعدادهم ستتضاعف عشرة أضعاف، حسب قول الكعود. وستصبح الحرب الأهلية حرباً فعلية. لم يكن هؤلاء هم السفاحين المقنّعين الذين تخيلتهم. كانوا عراقيين يسهل تمييزهم، من شيوخ العشائر التقليديين، ورجال الأعمال الحديثين، وكان لهم صلات بعالمي أكثر مما تصوّرت.

ثم بدأ ما تحت السطح بالظهور، فقد ادّعى الشيخ زيدان خلف العواد، أن السنّة هم الأكثرية في العراق (63 بالمئة). وقال الشيخ: «لو استقرّ السنة في أمريكة لحكموا أمريكة. نحن نمسك العصا من الوسط دوماً. نحن نستطيع تحريكها بأي شكل فنحن نتحكم بها». أما السياسيون الذين يسرعون للحصول على المنصب في العراق، من الأكراد والشيعة، فقد كانوا بيادق غير شرعية بيد الأمريكيين أو الإيرانيين، وإذا تعرّضوا للاغتيال فسيكون ذلك سيئاً جدًّا لهم.

وزّع الكعود نسخاً من بيانات المقاطعة الصادرة عن العشائر السنية الرئيسة.

سألته: «ماذا لو أراد بعض الناس من العشائر الانتخاب؟».

- «لا يستطيعون فعل ذلك».

- «ماذا سيحصل لهم؟».

- «إذا ذهب أحد للانتخاب فسيقتل».

نظر ضابط الهجرة في مطار عمان إلى جواز سفري، ونظر إلي، وأشار إلى صدغه قائلاً: «العراق، العراق. رأس، لا رأس». كان لذلك عدة تفسيرات لكن أياً منها لم يكن مطمئناً. ومع ذلك فقد كانت الطائرة المغادرة إلى بغداد بطاقمها الجنوب إفريقي ممتلئة، لقد كان هنالك دائماً أناس مستعدّون للذهاب إلى العراق في الغالب سعياً وراء المال. لاحظت في المقاعد حولي مجموعة من متعاقدي البناء الشقر يتحدثون بلهجة جنوبية، ويرتدون قبعات البيسبول، ومجموعة أخرى من حراس الأمن الأقوياء صغار السن مع أجهزة iPod، وفي الخلف كان هناك عراقيون وأشخاص من جنوب شرق آسية. في الصف الأول جلس هوشيار زيباري، وزير خارجية العراق الكردي، كانت الصحفية الجالسة بجانبي تمضغ قطعة من العلكة وكأنها كانت مصممة على تدميرها. لم يتكلم أحد، قال ربان الطائرة بمرح ولكن: «سنتبع طريقاً ملتوياً إلى أن نصل إلى بغداد، وعندما نصبح فوقها سنهبط».

كانت بغداد في حالة من الفزع. كان في الطريق حواجز أكثر من أي وقت مضى، وكان عدد أكبر من طائرات الأباتشي يحلق فوق المدينة على ارتفاع منخفض. وكانت عربات الهامفي الأخيرة من القوافل الأمريكية تعرض إشارات باللغتين العربية والإنكليزية تقول: «ابقوا على بعد 100 متر وإلا سنطلق النار». وكانت صورة حملة رئيس الوزراء علاوي والتحالف الذي شكله آية الله السيستاني تغطي الجدران وتتدلى من أنوار الشوارع، لكن حديث الانتخابات كان يدور كله حول التدابير الأمنية وحمامات الدم. قضيت ليلتين في فندق الرشيد، مما يعني أنني نمت أول مرة داخل المنطقة الخضراء، وكوني محجوباً عن العراق لم يزد إلا شعوري بالقلق. كان فندق الرشيد تحت إمرة الملازم إي. أي. ستروسكي، من الجيش الاحتياطي ومرفق بوفالو للكهرباء. كان ستروسكي رجلاً عصبياً ضعيف البنية له شاربان كبيران، وكان يسأل كل زائر جديد: «هل تريد غرفة في جانب الرصاص أو في جانب الهاون؟» وكانت قواعد الفندق تنص على عدم إدخال أجهزة اتصالات إلى الغرف، وعدم استقبال الزوّار، وعدم الحديث مع العسكريين، والابتعاد عن الطوابق الأخرى والبقاء خارج المطعم. وقال ستروسكي: «أنتم هنا للأكل والنوم في مكان آمن. إذا حدث هجوم بالصواريخ أو قذائف الهاون فادخلوا إلى الحمام. وسيأتي غورخا؛ ليشرح لكم ما يحدث.

لأسـباب أمنية، طُلب إلي أن أوقع باسـم «ستروسكي 494#». قال ستروسكي: «انسوا المنطق هنا»، بدا أن الحرب قد دخلت مرحلة فيلم M*A*S*H: ففي زيارتي اللاحقة، أتوقع أن أرى الملازم ستروسكي يرتدي ثوباً.

كانـت وجهتي مدينة البصـرة، المدينة الشـيعية الثانيـة في العراق، التي تقـع في الزاوية الجنوبيـة الشـرقية للبلاد. كنت أريد أن أرى الانتخابات في مـكان يمكن فيه التجوال ببعض الحرية، ويكون للناس فيه شـأن بالسياسـة أكثر من القتل. سافرت إلى البصرة بطائرة نقل عسكرية بريطانية. فقد كانت البصرة في القطاع البريطاني. وكان ذلك يهمّني أيضاً.

كان شـكل الأنوار يدل على أن الخليج العربي لا يبعد أكثر من سـاعة. كان مسـتوى الماء في منطقـة الأهـوار عاليـاً لدرجـة أن البصـرة كانت تعتمد علـى نظام الأقنيـة للري. لكن القنـوات كانت مسـدودة، وفي أحد أيام الشـتاء غمرت الأمطار الغزيـرة أحياء كاملة بعدة أقدام من الماء والصـرف الصـحي، وبعد أسبوع انحسر الفيضان، فصارت الشوارع مغطاة بالوحـل، وجعلت المدينة صـورة للإهمـال. كان الفقر في البصـرة المحاطة بمعظم خزانات النفط العراقية بالإضـافة إلى مزارع منتجات التصـدير، على مسـتوى إفريقية أو آسـية. كانت البيوت الطينية المنتشرة بشكل غير قانوني تتزاحم للحصول على مساحة وسط أكوام القمامة للشقق الشيعية، كانت تؤوي عائلات طردت من الأهوار التي جفّفها صدام بعد عام 1991. كان مركز المدينة يغص بالمتاجر المتهاوية وأنقاض المباني الإسـمنتية الحكومية التي قصـفتها الضـربات الجوية الأمريكية في أثناء الغزو. قرب مسـجد أشـار، كانت مجموعة إسـلامية قد سيطرت على حديقة فيها ناعورة وديناصور غيّـرت الشمس لونه. كانت المباني المنهوبـة تطل على ضـفاف شـط العرب الذي تصـب فيه ميـاه دجلة والفـرات إلى الخليج العربي. وباتجاه الخليج، كان القصـر الذي تغطيه القباب والذي بناه صـدام ويقال: إنه لم يزره إلا مرة واحدة. وتحتله الآن السفارتان الأمريكية والبريطانية.

في مساء معتدل منعش، زرت الكورنيش، وهو حي قديم على طول شط العرب، وكان خلفي صف من الجدران الإسمنتية التي أصابها القصف. كانت أسراب من طائر البلشون الأبيض تطير فوق سـفن صـيد المهرّبين الصـدئة التي تطفو بجانب حطام مركب للطيران البحري العراقي. كان القمر يرتفع فوق أشـجار النخيل على الضفة الأخرى، وقد اختفت إيران على

بعـد أميـال قليلة خلفها، وكان من الممكن أن أتخيل المدينة التي خلفي بصـفتها مركزاً غنياً للتجارة العالمية، كما كانت سـابقاً. ربما كان تاريخ البصـرة الحديث أكثر مأسـاويةً من أي مدينة أخرى، غير أن هذا التاريخ نفسه قد جعل البصرة مؤهلة لتكون أرض تجارب لمستقبل القوى السياسية في العراق.

في عـام 1982، في السـنة الثانيـة مـن أطـول الحـروب التقليديـة التي شـهدها القرن العشرون، تسلل ضابطان صغيرا السن من الجيش العراقي، يوسف الإمارة ومجيد الساري، وهما من البصـرة، كل على حدة، عبر الحدود وهربا إلى إيران، البلد المعادي للعراق. كان إمارة رائداً في الثالثة والثلاثين من العمر، وسـاري ملازماً في العشرين من عمره. كانا مثل أغلبية سـكان جنوب العراق من الشـيعة، لكن فيما عدا ذلك كانا مختلفين جدًّا عنهم. كان إمـارة ممتلئ الجسـم ملتحياً ذا رأس دائرية، مع طبع حـذر يميز الرجل الذي انخرط مدة طويلة في العمل السياسـي السـري، وهو مسلم ملتزم وتوجد لديه علامة من أثر الصلاة في منتصف جبينه. كان هدفه من اللجوء هو القتال لنشر الثورة الإسلامية الإيرانية في بلاده. أما سـاري، فقد كان غير ملتحٍ، متأنقاً في ملبسـه يضـحك ويبكي بسـهولة، وهو مثل بعض الشباب في مقتبل العمر كان يحب أن يشرب الخمر ويلاحق النساء. كانت البصرة في ذلك الوقـت ميناءً عالمياً وتحوي محال بيع البهارات مملوكة لتجار من جنوب آسـية ونوادي ليلية يعمل فيها عمال مصـريون وزبائنها كويتيون؛ كانت مكاناً مناسباً له، حتى اندلعت الحرب. غادر ساري العراق؛ هرباً من وحشية نظام صدام ومن الحرب العبثية التي نشبت.

التقى إمارة وسـاري أول مرة في بلدة إيرانية شـرق طهران، حيث قررا مع مجموعة من المنشـقّين العراقيين الآخرين تشـكيل مجموعة معارضـة، ولكنهما لم يستطيعا الاتفاق على تسميتها مجموعة الضباط الأحرار، أو كما أراد إمارة، حركة الضباط الإسلاميين الأحرار. وفي النهاية فاز جناح إمارة، وتمت تنحية سـاري من المنظمة التي أصـبحت تحت سـيطرة الحرس الثوري الإيراني وتمت تسـميتها فيلق بدر؛ تيمناً بالمعركة الحاسـمة التي جرت عام 624 للميلاد، حين اسـتطاع الرسـول محمد ﷺ وأتباعه هزيمة كفـار مكة، على الرغم من التفوق العددي لأعدائهم.

أصبح إمارة قائد المدفعية في جيش بدر. توسّعت الميليشيا مع انضمام سجناء الحرب: فقد ضغطت إيران التي أسرت في النهاية نحو سبعين ألف عراقي على الشيعة الذين أسرتهم للانضمام إلى إخوانهم الفرس ضد الطاغية المرتدّ الذي كان يقتل قادتهم الدينيين في مدينتي النجف وكربلاء المقدّستين. كان قلة من العراقيين الشيعة راغبين في تقديم عقيدتهم الطائفية أو مصالحهم الشخصية على ولائهم الوطني، على الرغم من أن أولئك الذين رفضوا واجهوا سنوات طويلة من السجن. قاد إمارة أولئك الذين غيّروا ولاءهم إلى المعركة، في الأهوار شمال البصرة. عرف لواء بدر بالشراسة، ولم يشعر إمارة بالندم لقتل العراقيين.

وجد ساري بسرعة أنه لا يحب إيران الثورية أكثر من العراق الفاشي، وانتقل إلى باكستان. وفي عام 1985 اعتقلته المخابرات الباكستانية وسلّمته للعراق. أمضى ساري سنتين في سجن «أبو غريب» وسجون أخرى أسوأ منه. كان في سجن انفرادي مدة سنة ونصف السنة، بعد أن حُكم عليه بالإعدام، كان يشاهد أصدقاءه يؤخذون للإعدام بينما كان ينتظر المصير ذاته. لكن في عام 1987، أصدر صدام الذي كان يخسر الحرب، وكان بحاجة إلى مزيد من القوة البشرية، عفواً عاماً، ووجد ساري نفسه من جديد جندياً في الجيش العراقي. خدم في الحرب في مدينته البصرة في وحدة للدفاع الجوي. كانت البصرة في ذلك اليوم على الخطوط الأمامية، فقد كانت القوات الإيرانية على بعد سبعة أميال فقط، وكانت باستمرار تقصف المدينة عبر شط العرب. كان صدام قد شنّ الحرب ليستولي على الممر المائي ولمنع آية الله الخميني من إثارة الغالبية الشيعية المضطهدة من الثورة وتكوين الجمهورية الإسلامية العراقية. لكن حين انتهت الحرب العراقية الإيرانية عام 1988، بعد ثماني سنوات من الموجات البشرية والهجوم بالغاز، ومع هطول الصواريخ على العاصمتين، ومع أكثر من مليون إصابة، بقيت الحدود حيث كانت عام 1980 تماماً: في منتصف الممر المائي. قال إمارة حين التقيته في مكتب ساري في البصرة قبل الانتخابات مباشرة: «لم يربح أحد، وسل صداماً لأجل ماذا كانت الحرب».

جاءت الحرب الثانية إلى البصرة عام 1991، حين طردت قوات التحالف بقيادة أمريكة قوات صدام من الكويت. كان ساري قد أمضى ثلاث سنوات في بيته يقرأ التاريخ والشعر،

وقد كان خائفاً من مغادرة المنزل، كما أن سجلّه جعل من الصعب أن يقبل في عمل. حين بدأ جنود الجيش العراقي المهزوم بالعودة نحو الشمال سيراً على الأقدام من الكويت إلى المدينة، منهكين وجائعين، باع بعضهم أسلحتهم لأهل البصرة مقابل علبة من السجائر أو مبلغ مالي يكفي للوصول إلى بيوتهم في الشمال. وفي صباح 2 آذار، وصل قريب ساري إلى بيته ومعه أخبار بأن شباباً كانوا يحاولون في أثناء الليل إطلاق سراح مجموعة من أصدقائهم من السجن في الحبانية، الحي الفقير الواسع جنوب المدينة، قد استولوا على قسم الشرطة وبدؤوا بمهاجمة مكاتب حزب البعث. كانت النساء في الشوارع تصرخن: «يسقط صدام!» انجرف ساري في انتفاضة عفوية. لم يكن لديه ما يخسره، وفجأة، لم يعد هناك ما يخشاه. قال ساري: «لم يكن ذلك قراراً، وإنما كان كحركة تاريخية لي. فيما يتعلق بي سمعت أن الناس بدؤوا يتحرّكون ضد النظام وتحركت أنا بدوري. هاجمت مبنى المخابرات». سمّى ساري الانتفاضة العراقية «عشرة أيام من السعادة».

في اليوم الرابع من الثورة التي امتدت إلى مدن أخرى، ظهر رجلان يرتديان بذلات سوداء أمام جمع من الناس قرب مسجد في منطقة التميمية. وصلا بسيارة تويوتا لاند كروزر تحمل لوحات من طهران. كانا يتحدثان بلهجة منطقة الحدود الإيرانية، حثّ الرجلان سكان المنطقة على تشكيل نقاط تفتيش حول المدينة وإيقاف تقدّم جنود الحرس الجمهوري الذين أرسلهم صدام لإحباط الثورة. كما طلبا من نساء البصرة ارتداء عباءات سوداء طويلة. في الوقت نفسه تقريباً، تم إرسال خلية استخبارات من لواء بدر عبر الحدود من قبل المعارضة الشيعية المنفية في طهران، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، لتنظيم الانتفاضة الفوضوية ولإعطائها تركيزاً أيدلوجياً. ظهرت صور آية الله محمد باقر الحكيم، القائد الديني، في أنحاء البصرة، مع صور آية الله الخميني.

بعد سبعة أيام من بداية الانتفاضة، مع اقتراب الحرس الجمهوري من مركز المدينة، كان ساري يشرف على المعارك المنظمة في الشوارع، حين لمح وجهاً مألوفاً عن بعد: كان ذلك وجه يوسف الإمارة الذي كان في مهمة استطلاع للتحضير لهجوم مئتي مقاتل من لواء بدر على الساحة الرئيسة في البصرة وساحة البحرية. كان ساري يشك في لواء بدر، وكان قلقاً من أن الانتفاضة التي بدأت حركة شعبية دون قالب طائفي - التي كان أول شهدائها،

حسب قوله، شخص سني من الرمادي- سيسيطر عليها الشيعة المتدينون تحت السيطرة الإيرانية. ومع ذلك رحّب برؤية إمارة بعد قرابة عقد من الزمن. قال ساري: «كنا في حرب. وكنا بحاجة لأي مساعدة». كان إمارة بعيداً، فلم يستطع ساري أن يتحدث إليه، لكن ساري كان يعتقد أن إمارة وغيره من أفراد بدر سيمدّون المقاتلين المحليين بقاذفات صواريخ الكاتيوشا. ولم يتحقق هذا أبداً.

في الواقع، أمر قائد من قادة لواء بدر إمارة بسحب رجاله من البصرة والعودة إلى طهران. قيل له: إن مروحيات الجيش العراقي كانت تضرب المدينة بالنابالم. يتذكر إمارة: «فكّرت: لماذا علينا أن نعود إذا تم استهداف عدد من الأفراد؟ كان الوضع مثالياً، وحين قلت هذا لقائدي، وجدت أنه لم يهتم. كان بارداً. لم أفهم ذلك حتى هذا اليوم». لكن ساري رأى أن إيران كان لها دور في الانسحاب. كانت الحكومة في طهران تخشى أن يكون صدام قد نصب فخاً لعملاء إيران.

في اليوم العاشر، انسحب إمارة وخلية بدر، وحسب قول قائد الانتفاضة، فقد منع الجيش الإيراني معارضي صدام العراقيين من عبور الحدود. بقي بضع مئات من العراقيين المحليين في البصرة لمقاومة الحرس الجمهوري، فيما وصل إلى مهمة انتحارية. كان الرجال يشنقون في سبطانات الدبابات، وأطلقت النار على آخرين حتى الموت، ودفنت جثثهم في مقابر جماعية. سمح وقف إطلاق النار بين الولايات المتحدة والعراق لصدام باستئناف استخدام الطائرات المروحية المسلحة وقصف المدنيين الفارّين. ذُبح عشرات الآلاف من العراقيين في الجنوب. وكتب على دبابات الحرس الجمهوري شعار ساخر: «لا شيعة بعد اليوم».

في 17 مارس/ آذار، هرب ساري إلى الكويت، ووصل أخيراً إلى معسكر سجن أمريكي في السعودية، ومن هناك ذهب إلى المهجر في السويد، حيث ألّف كتاباً عن الانتفاضة بعنوان (الموت القادم من الغرب). كان العنوان يشير إلى غرب العراق، الأراضي العراقية السنّية التي كانت مركزاً لقادة الحرس الجمهوري. لكن كان هناك إشارة أكبر. فقد شعر ساري، شأنه شأن جميع من حدّثوني قصة الانتفاضة في البصرة، بالخيانة من أمريكة وإيران. قبل الانتفاضة بأسبوعين، كان بوش الأب قد طلب إلى العراقيين الإطاحة بصدام، وكانت النشرات التي تسقطها الطائرات الأمريكية تحث على الأمر ذاته. في الأيام الأولى

للانتفاضــة ظـن العراقيون المنشـقّون أن الجيش الأمريكــي كان في صــفّهم. قدّم الجنود الأمريكيون المتمركزون جنوب البصرة في البداية المساعدة الطبية والغذائية للناس الذين يغادرون البصــرة، وهاجمت الطائرات الأمريكية الدبابات العراقية. لكن المنشـقّين الذين تحدّثت إليهم قالوا: إن الولايات المتحدة توقفت عن دعمهم فجأة. قال لي شخص عراقي: «طلب منا بوش أن نثور. وحين قمنا بالثورة، تم اصطيادنا». سأل بصراوي هرب إلى الحدود الكويتيــة الضــباط الأمريكيين هناك: «هل تسـتطيعون مسـاعدة الناس الذيـن يموتون؟» فأجاب أحد الضباط: «نحن جيش ليس هناك ما نستطيع فعله. هذه هي السياسة».

لم تكن منطقة حظر الطيران التي سمحت للأكراد في الجبال الشمالية بالنجاة وتشكيل منطقة مسـتقلة ذاتياً ذات فائدة للشـيعة في الأهوار والصـحراء المنبسـطة. قال أحد قواد الانتفاضــة واسـمه مفيد عبدالزهراء: «لم يدخل صــدام حســين البيـوت بالطائرات، كان يدخل ســيراً علــى الأقدام، وبالســيارات». كان مفيد يدير مجموعة مــن المحاربين القدماء الذين تؤكد شـهادات عضويتهم أنهم «من المشاركين في الانتفاضة، وقد أسهم بكل ما يملك وضحى بروحه، وبما يملك لإنقاذ المدينة، حتى اللحظة الأخيرة التي انتهت فيها الانتفاضة، حـين اتّحدت قوى الشــر، الأمريكيون والبعثيون». بقيت المرارة حــول أحداث 1991 قوية في البصــرة، وســاعدت في تفسـير الحذر الذي اسـتقبل به الشـيعة، الأكثر فقراً وحرماناً من الحقــوق، الغزو الأمريكي عــام 2003. وفي رأي الكثير منهم، جاءت هزيمة صــدام متأخرة اثني عشر عاماً.

عاد كل من إمارة وســاري إلى بلدهما بعد ســقوط صــدام، لكن كما أنهما قد حاولا دفع الانتفاضــة في اتجاهــين منفصــلين، فقد عادا من طهــران وأسـتوكهولم برؤيتين مختلفتين بشــدة للعراق الجديد: إحداهما إسلامية، والأخرى علمانية. أصبح إمارة وساري، الثائران الســابقان، رجلين في منتصف العمر يرتديان بذلات مقلّمة. كان لواء بدر الذي أصبح اسمه منظمة بدر، يعمل بحرّية في البصــرة -فالمحافظ عضــو في منظمة بدر- وأصــبح إمارة من كبار المســؤولين فيها. قبل أسابيع قليلة من يوم الانتخابات، تم تعيينه في مكتب وزارة الدفاع في المحافظــة، الــذي كان ســاري موظفاً فيه أيضــاً. كان مــن أولى تحركات إمــارة في عمله الجديد زيارة لمكتب ســاري قبل ثلاثة أيام من الانتخابات. كان لديه عمل سياســي يناقشه.

جلسا تحت لوحة جدارية تحيي ذكرى الانتفاضة، بعد إقناع ساري نفسه: كانت الصور التي فيها تؤكد على الصفة الوطنية للانتفاضة، حيث كان عليها شمس سومرية وسيف عربي وخنجر كردي، ورموز العمال والفلاحين. لم يلحظ إمارة أنه كان يعرف الرجل الجالس خلف المكتب، ولديهما تاريخ مشترك، إلى أن ذكّره ساري، ثم أمضيا عدة ساعات يتحدثان عن الماضي التعيس.

بعد أن انتهى الحديث، وصل إمارة إلى النقطة التي أراد طرحها. كان يريد من ساري أن يوقف اتهامات الوزارة لإيران بالتدخل في الانتخابات. كان من المحتمل أن تحصل الأحزاب الدينية الشيعية على السلطة بعد الانتخابات، قال إمارة، مضيفاً: إن من مصلحة ساري أن يتعاون إذا أراد الاحتفاظ بمنصبه. لكن تجربة البصرة منذ سقوط صدام جعلت ساري يشك في الأحزاب السياسية. قال ساري لإمارة: «هذه هي الحقائق، نحن لا نختلق الأمر. إيران تتدخل». ولأنه وطني عراقي، لم يكن يرغب في التظاهر بالتحالف مع أناس يعملون عملاء لإيران. قال ساري بعد أن أوصل إمارة إلى خارج المكتب: «نحن ننظر إلى الأحزاب التي من إيران، نحن نأخذ العراقيين الصالحين. ونترك الآخرين».

بعد غزو عام 2003، عاد أكثر من مئة ألف من العراقيين الشيعة الذين هربوا أو أبعدوا إلى إيران، في أثناء حكم صدام، إلى جنوب العراق. وجاءت معهم الأحزاب السياسية الإسلامية التي كانت تمثل المعارضة الشيعية في الخارج: المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وجناحه العسكري، منظمة بدر، حزب الدعوة، الحزب الشيعي الأقدم الذي أبيدت كوادره داخل العراق تقريباً في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته وأحزاب أصغر مثل منظمة ثأر الله، وكان بعضهم مسلحين تابعين للمخابرات الإيرانية.

احتلت الأحزاب الدينية المباني الحكومية في البصرة، وشكّلوا ميليشياتهم، وانتظموا أسرع من أي من المجموعات المحلية الأخرى، باستثناء أتباع مقتدى الصدر ذوي الأغلبية الفقيرة والعنيفة. اتصلت الأحزاب الدينية بسرعة مع الجيش البريطاني، وملأت قوات الشرطة الجديدة بكوادرها، وسيطرت على الحكومة المحلية في المحافظة. قال لي مسؤول بريطاني: «كانت لدى الأحزاب المدعومة من إيران رؤية إستراتيجية، هي الاستيلاء على الجنوب سياسياً، والتعاون مع الائتلاف، ودعم مركزها الديني في النجف، ثم احتلال مركز

للحصول على القوة الوطنية، أعتقد أنهم نجحوا دون دعم واسع، ولهذا فقد توسّعوا كثيراً. وليس بسبب دعم كثير من الناس في الجنوب للأحزاب».

فرضت الأحزاب الدينية أيدلوجيتها الصارمة على البصرة، حيث عزلت كثيراً من السكان الذين كانوا حذرين من رجال الميليشيات الذين وقفوا في صف إيران في أثناء الحرب التي سببت كثيراً من المعاناة للمدينة. كانت الميليشيات تغتال البعثيين، وتتحرش بالنساء اللواتي يجرؤن على خلع الحجاب، وتغلق بالقوة متاجر الأقراص المضغوطة في البصرة ومتاجر الخمر التي يملكها النصارى. طالب أساتذة الجامعة المتحمّسون بفصل الرجال عن النساء في الفصول الدراسية، وأخبرني طالب يدرس الموسيقى أنه لا يستطيع إلا أن يدرس النظريات الآن؛ لأن العزف على الآلات الموسيقية يعدّ غير أخلاقي من قبل الإسلاميين. لم تتقبل الطبقات ذات الثقافة العالمية في البصرة الأعراف الاجتماعية القسرية بسهولة، على الرغم من أن المدينة قد أصبحت محافظة بشكل متزايد تحت ثقل الحرب والحصار وتأثير إيران. كانت حكومة المحافظة تعد عاجزة وفاسدة على نطاق واسع، حيث يروى أن منتجات النفط كانت تهرّب إلى أسواق الخليج. كانت لدى البصرة التي طالما أهملتها بغداد فرصة لتصبح محرّك ازدهار اقتصادي في العراق؛ لكونها تحوي احتياطياً كبيراً من النفط، ومزارع النخيل، وميناء له موقع إستراتيجي. في مكتب المحافظ التقيت ممثلاً لشركة كويتية تخطط لإنشاء برج مكاتب من ثمانية وستين طابقاً -ليسمى برج التجارة العالمي- واستثمار بقيمة 5.5 مليار دولار. لكن العنف والحكومة السيئة كانت تعوق ذلك في الوقت الحاضر.

قضيت عدة أيام مع الجيش البريطاني في البصرة وحولها. كان معظم الجنود مدربين على تكتيكات مكافحة التمرّد في إيرلندة الشمالية، وكان وضعهم في جنوب العراق مختلفاً تماماً عن وضع الأمريكيين في الشمال. كانت عرباتهم أصغر وأقل تسليحاً، وكانوا يضعون قبعات في الدوريات التي يسيرون فيها على الأقدام، وكانوا بشكل عام يبدون مرتاحين أكثر جدًّا بين العراقيين. كان بإمكان السيارات المحلية العبور بين قوافلهم دون الخوف من إطلاق النار عليها. حتى إن بعض الجنود البريطانيين كانوا يهزّون رؤوسهم لرؤية حادث على الطريق السريع قرب النصيرية، حيث أطلقت قافلة أمريكية تسير دون أضواء النار على

مركبات بريطانية تسـير خلفهـا. في حانة الجنود خارج القاعدة الجويـة البريطانية (فعلى عكس الأمريكيين، كان يسمح للبريطانيين بالخروج لتناول البيرة مرتين في الليلة، وكان ذلك يبدو أساسـياً للمحافظة علـى معنوياتهم العالية)، قال لي عريـف: «الأمريكيون لا يفكّرون. إنهم فقط يقومون بردود أفعال. وحين يأتون إلى هنا للتبادل فعلينا أن نقول لهم: ليس هناك خطر بعد. حين يصبح هناك خطر، سنخبركم. وحتى ذلك الوقت، اهدؤوا».

«سأشـعر بخيبـة الأمل إذا رأيـت جندياً بريطانياً يشـارك في محادثـة أو تفاوض، وهو لا يـزال يرتـدي النظارات الشمسـية»، قال لي الرائد ألان ريتشـموند من الحرس الملكي في رحلة إلى جنوب البصـرة إلى ميناء أم قصـر. كان التدريب البريطاني للعراق يشمل بعض التعليمات اللغوية والتعريف ببعض الأمور الثقافية الحساسـة (لا تظهر أسـفل حذائك، ولا تمدّ يدك اليسرى، ولا تنظر إلى النساء). «أنت تريد أن تكون مقبولاً -بلطف، بلطف- تريد أن تكون قادراً على الكلام مع الناس؛ لأن الأمور تتم بهذا الشكل».

قـال الرائـد سـايمون جونز: «هـذا يأتي أيضـاً من خمسـين عامـاً من الانسـحاب من الإمبراطوريـة، هناك مخاطـر فيما نفعله هنا، لكن الفائدة على المـدى البعيد مهمة مقارنة بالمواجهة المطلقة. ومع ذلك، في نقطة معينة، عليك أن تقاتل». وأضاف بسرعة أن البريطانيين ربمـا لم يكونـوا ليحققوا هذا النجاح في مدن معادية أكثر مثل بغداد أو الموصـل التي يتعرض الأمريكيون فيها للهجوم بشـكل مستمر. حين انتقلت إحدى وحدات الحرس الملكي إلى قطاع قريـب من الفلوجة تمهيداً لهجوم أمريكي على المدينـة، قتل انتحاري ثلاثة جنود عند نقطة تفتيش، وعلى الفور شدّد البريطانيون قواعد الاشتباك لديهم.

كان من الواضح أن التصور في العراق -الاحتلال، وإعادة الإعمار، ومكافحة التمرّد- كان أسهل للجنود البريطانيين مما كان للأمريكيين. أخبرني عدد من الضباط أن هذه الأنواع من العمليات كانت في صلب التعاليم العسكرية البريطانية ودورها في عالم ما بعد الحرب العالمية البـاردة. في المقابل، كان الضـباط الأمريكيون في العراق يريدون العـودة إلى العمل الحقيقي للجيش، وهو التدريب على الحرب وخوضـها، أو أنهم فهمـوا أن العراق هو عملهم الحقيقي، لكنهم اعترفوا أيضـاً بأن هذا لم يصـل تماماً إلى قيادتهم العليـا. كان للعراق تأثير جوهري

بين صغار الضباط من ملازمين ونقباء ومساعدين، وكان كثير ممن التقيتهم يعلّمون أنفسهم ويعلّمون بعضـهم كيفية القيام بذلك بالشكل الصحيح. لكن حتى جون بريور عاد من العراق، وهو يعرف أن تجربته الطويلة في الزعفرانية ستحقق له بعض الفوائد في مهنته.

كانـت النتيجة وجود احتـكاك أكبر بين الجنود الأجانب والمدنيين العراقيين في البصـرة مما في المناطق التي تحتلها القوات الأمريكية. في الوقت نفســه، كان بعض السـكان المحليين يتذمّرون من أن البريطانيين لم يكونوا راغبين في فرض النظام في البصـرة. في أغسـطس/ آب 2004 في أثنـاء ثـورة عمّت البلاد لجيش المهدي، تخلى الجيش البريطاني عن سـيطرته على المدينة لأتباع الصـدر الذين كانوا مدعومين من قبل رئيس الشرطة. وفي جنوب العراق، الذي كان تحت سـيطرة غير أمريكية منذ عام 2003، كانت سـلطة الحكومة ضـعيفة بشدة، وكانت عدة ميليشيات شيعية تتمتع بحرية الدخول والخروج في الشوارع.

كان موضوع الدور الإيراني في العنف السياسي والاضطهاد الديني في البصرة موضوعاً كئيباً. على حد زعم ماجد الساري كانت الإجابة بسيطة، فقد قال: «ليس هنا (تأثير) إيراني في البصرة. هناك احتلال إيراني غير مباشر في البصرة». كانت الأحزاب الدينية العراقية عميلة للاحتلال، أضاف ساري، بالرغم من أنه ميّز بين المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة، اللذين يعتمدان على طهران مثلاً، وبين الأحزاب الأصغر التي كانت تعمل بصـفة أسلحة مسـتأجرة. وقال: إن إيران كانت تريد أن تمنع إقامة ديمقراطية ودولة علمانيــة في البلـد المجاور لها، كما أنها كانت تأمل «أن تضـع قـوات الجيش الأمريكي داخل غيمة من الفوضــى العراقية؛ حتى لا تستطيع ضرب إيران بالقوة العسكرية». وقد زعم عدد من الناس في البصرة أن منزل الحاكم الاستعماري القديم في الكورنيش كان محتلاً من قبل عناصـر الاستخبارات الإيرانية. وحسب قول مسؤول غربي، فقد كانت حقائب الأموال تنقل باسـتمرار عبر ما كان يفترض أنه حدود دولية. وحين قام رئيس الوزراء إياد علاوي بزيارة للبصــرة في نوفمبر/ تشـرين الثاني 2004، سـأل المحافظ: «لماذا لا ترفعون العلم الإيراني فـوق مكاتبكـم؟» ومع ذلك لم يبدُ أن أحداً كان يعرف من هم الإيرانيون. قال مزارع اسـمه ماجد موسى، كان يحضر اجتماعاً تثقيفياً للناخبين في حرم جامعة البصرة: «إنهم لا يأتون إلى هنا على هيئة إيرانيين يحملون الأعلام».

كان المسؤولون البريطانيون يرون أن لدى إيران مصلحة شرعية في العراق: وهي تأسيس دولة جوار مستقرة وصديقة. قال سايمون كوليز، القنصل البريطاني في البصرة، عن الأحزاب الدينية: «هذه المنظمات لها ارتباطات مع إيران بالفعل. هل هي ملك لإيران؟ لا أعتقد ذلك. إذا أردت أن تحارب الاستبداد في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، فإن إيران هي العنوان. ليس من الواضح لي أن هذه الروابط التي كانت ولاتزال بينها وبين إيران بلا شك تعني أن هناك رجال دين في (قم) يستطيعون تحريكها عن بعد». كما أقرّ مسؤول بريطاني لم يكشف عن اسمه: «لقد وصلت إلى رأي أننا لا نستطيع أن نعرف الغرباء. فأنظمة اتصالاتهم أكثر سرعة ودقة من أنظمة اتصالاتنا. نحن نفخر بالبريد الإلكتروني وأجهزة الحاسوب التي لدينا. لكنها أبطأ جدًّا من الكلام المنقول شفهياً».

في مشفى الأمومة والطفولة في البصرة بمنطقة الجزار، كان د. محمد نصير، مدير المشفى، يقاوم الأحزاب الدينية التي استولت على المشافي الأخرى في المدينة وعلى الحرم الجامعي فيها. كان لنصير وجه قاسٍ وشعر ناعم من الخلف، فكان يبدو كويليس ستارك في رواية «كل رجال الملك / All the King's Men لبروديريك كروفورد، كان يبدو أشبه بسياسي منه بمدير مشفى. لم تكن في مشفاه صور دينية، ولم تكن هناك إلا الملصقات التي تدعو إلى الانتخابات التي تحمل صور اللجنة الانتخابية ومناظر المروج المبهجة داخل إطارات ذهبية كانت فيها في الماضي صور صدام حسين. في عام 2004، كانت إحدى الميليشيات الدينية قد طلبت استخدام جدار من الآجر؛ لتغطيه بالإعلانات السياسية. فقال نصير: «عودوا صباح الغد». وفي ذلك اليوم هدم الجدار. وبعد بضعة أشهر، تم ضبط إحدى الممرضات، وهي تشاهد فيلماً خليعاً مع صديقها موظف الاستقبال. وحين أمر نصير بنقل موظف الاستقبال إلى مشفى آخر، ذهب أصدقاء الموظف إلى مكتب الصدر في المدينة، وشكوا أن نصيراً قام بتمزيق صور محمد صادق الصدر، والد مقتدى الشهيد. تحدّى رجال الميليشيا الطبيب وطالبوه بإلغاء أمر النقل. ذكر نصير بتسلية: «قالوا: إنه يجب محاكمتي من قبل محكمة دينية في النجف»، سلّح نصير نفسه، واستخدم قوة الأمن في المشفى، وواجه الدخلاء بأعصاب قوية.

أصبح المشفى الآن نموذجاً للنظام. قال نصير حين كنا نمشي في الممرات، وزرنا جناح التغذية الجديد الذي بنته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ضمن مشروع إنقاذ الأطفال:

«نحـن بحاجـة إلى أناس محترفين لديهم خبرة في عملهـم، ولا ينتمون إلا للعراق، وليس لأي مجموعة، ويتمتعون بالشجاعة»، كان الدكتور يعلّق الآمال على انتخابات ديمقراطية وحكومة قوية لإنقاذ العراق من الفوضـى. وكان ذلك النوع من العلمانية يدور حول القانون والنظام: كان يريـد أن يمارس الطب دون تدخّل ديني. وقال: «ليس لدينا حل وسـط. فإما أن تسـتمر الحرية أو أن البلاد كلها سـتدمّر. إذا تكلمت فسـأتكلم. إذا حاربت فسأحارب؛ لأن عليك أن تحمي نفسك. وإذا متّ فعليك أن تموت بشرف. يجب ألا تموت جباناً».

على بعد نصـف ميل في الشـارع نفسـه، أمام مقر حزب الفضـيلة، وضـع أحدهم لافتة كبيرة ذات ألوان زاهية: عليها صـورة رجل عجوز له لحية بيضاء، يقف أمام سماء مشتعلة، ويدفع قارباً محملاً بالمهاجرين عبر محيط بلون الصحراء نحو مرقد الإمام علي ذي القبة الذهبيـة في النجـف. كان ذلك الرجل هو والد مقتدى الصـدر. فمؤسـس حزب الفضـيلة، آيـة الله محمـد اليعقوبي، ادّعى أن والد مقتدى اختاره خليفـة له، قبل قتله على يد العملاء البعثيـين، وبذلـك يكـون اليعقوبـي، وليس مقتدى، هـو الوريث الأصـلي للشـيعية العراقية المتشـددة. كان لحزب الفضـيلة العدد الأكبر من الأتباع من الطبقات المثقفة المتدينة الذين كانوا يريدون حكومة إسلامية صارمة، ولكنها مستقلة عن إيران.

جلس د. حيدر محسـن الطبيب الشاب المتحمّس المختص في الطب الباطني تحت صورة لآية الله يعقوبي وشـرح فلسفة حزب الفضيلة، بينما كان في الغرفة المجاورة موظفو الحملة مـن الرجال ذوي اللحى والسـتر الجلدية يأتون ويذهبون في موجة نشـاط قبل الانتخابات. قال محسن: «فكرة جان جاك روسو، وأفكار الثورة الفرنسية: نعتقد أن هذه الأفكار مناسبة للمجتمع الأوروبي، لكن المسـافة بعيدة جدًّا بين العراق والمجتمعات الأوروبية، بين الإسـلام والثورة الفرنسـية». وقـال إن الإمبريالية الثقافية هي أخطر أنـواع الإمبريالية، وإن العراق بحاجـة إلى مقاومـة موجـة المعنويات المنخفضـة والفردية المنتشـرة القادمة مـن الغرب. قال محسـن: «من الأسـباب التي أدت إلى خسارة فرنسـة في الحرب العالمية الثانية الحرية الجنسية»، وأضاف بسرعة أن أسلمة العراق يجب أن تتم بوسائل ديمقراطية دستورية كاملة تحترم حقوق الأقليات الدينية. كان محسـن أيضـاً لا يثق في التصـميم الإيراني والأمريكي للعـراق، وقال: إنه ليس هناك بلد سـوى العراق، يمكن أن يحوي كل هذه المصـالح بداخله.

ويعتقد محسن أن الانتخابات ستسمح للعراق بأن يجد التوازن المثالي بين الدولة والمسجد، بموافقة الشعب كاملاً.

كان ماجد الساري يعبّر عن الرأي المعارض بقوة. قال ساري: «جميع التشريعات الإسلامية منذ زمن النبيﷺ وحتى يومنا هذا لا تظهر قبولاً للديمقراطية، أروني أي بلد فيه قيادة إسلامية يمكن أن يقبل أشخاصاً ديمقراطيين. أين يمكن أن يحدث ذلك؟ في السعودية؟ في إيران؟ لا أعتقد ذلك، لا. أما العلمانيون والشيوعيون، فقد قبلوا الديمقراطية. لا أعتقد أن الأحزاب الإسلامية ستقبل من يعارضها». وشبّه ساري فكرة الحكم الشيعي القائم على حزب واحد في العراق باستبداد حزب البعث. وقال لهذا السبب: «الدين شيء بين الإنسان وبين الله، ويجب أن يكون بعيداً عن السياسة». وأضاف ساري الذي كان محاطاً بما لا يقل عن ستة من رجال الحرس الوطني لحمايته: «أنا الوحيد الذي يستطيع أن يقول هذا في البصرة، وأنا أعلم ذلك، في أي وقت، يمكن أن أتحول إلى دخان؛ لأنهم يمكن أن يفجّروا مكتبي».

كلمة «علماني» هي تعبير جديد مشتق من كلمة «عالم». ولم تكن تسمع غالباً على الملأ؛ لأنها لدى كثير من العراقيين تعني «ملحداً». وكما قال هاشم الجزائري، عميد كلية الحقوق في جامعة البصرة: «هذا ليس وقتاً مناسباً للإلحاد. الله يغفر، لكن الناس لا يغفرون. لا أدري إن كنت سأذهب إلى الجنة أم النار، لكنني أستطيع أن أقول: اللهم، اغفر لي. أما هنا فإن الناس لا يغفرون».

في البصرة، لم تكن المواجهة بين الأطباء ورجال الميليشيات، وبين التكنوقراط والأحزاب الدينية، مجرد أسلحة وملصقات. في الأيام التي سبقت الانتخابات، أصبحت البصرة مسرحاً لصراع سياسي ملتهب بين لغات وأفكار متنافسة. فكرة مجتمع قائم على القيم الإسلامية والسلطة الدينية التي كانت تعني من كل بدّ رؤية طائفية شيعية، جسّدتها القائمة رقم 169 التي كان الناس يسمونها قائمة السيستاني؛ لأن آية الله العظمى كان قد تنبأ بتشكيل ائتلاف شيعي. وفكرة مجتمع قائم على القانون المدني، تكون الأسبقية للعراقيين

على الهوية الإثنية والدينية، في محاولة لمعالجة الانقسامات العميقة في البلاد، كانت تمثلها القائمة رقم 285، التي يرأسها إياد علاوي. لم يكن الناس يحبّون علاوي نفسه كثيراً، لكنهم ببساطة كانوا يقولون: إنه رجل مثقف، طبيب، مما بدا تجسيداً لمجتمع علماني. لكن السيستاني كان أكثر رجل موقّر في العراق، بالرغم من أنه كان إيرانياً، ولم يكن مرشحاً لأي شيء. كانت هناك تناقضات وأوهام في كلا الطرفين. كان مؤيدو علاوي يتحدّثون عن حكومة جيدة بالرغم من أن إدارته كانت متّهمة بالفساد بشكل كبير، أما مؤيدو القائمة 169 فكانوا يتحدّثون عن اتباع المرجعية، بالرغم من أن السيستاني الذي تظهر صورته على كثير من ملصقات القائمة 169، لم يدعم رسمياً القائمة التي كان له دور كبير في تشكيلها. لم تقل فتواه إلا أنه على المسلمين والمسلمات واجب ديني هو أن ينتخبوا.

كانت البصرة بشكل ما تسبق بقية مدن العراق. ففي المدن الأخرى كان السؤال هل ننتخب أم لا؟ أما في البصرة فقد كان السؤال هو هل ننتخب السيستاني أو علاوي، حيث كان فيها العنف على مستوى يمكن التحكم فيه نسبياً، حيث وقعت جريمتا قتل لمرشحين علمانيين، وثلاثة أو أربعة تفجيرات لسيارات، وبعض الهجمات على مراكز انتخابية، وإشاعات عن توجه الجهاديين نحو الجنوب من المناطق السنّية لإثارة الفوضى في يوم الانتخابات.

كتبت الأحزاب الدينية أغنية لحملتها الانتخابية مع الآلات الموسيقية، وكانت تذيعها عبر مكبرات الصوت من قوافل من الشاحنات الصغيرة:

على جميع الناس انتخاب القائمة 169

لأنها تضم من كانوا في السجون

الذين دفن آباؤهم وإخوانهم في المقابر الجماعية،

والنساء اللواتي قدّمن أبناءهن

الذين ضحّوا من أجل العراق.

هذا ما يريده علماء الدين.

169 كالحديقة للعراقيين

والعراقيون كالزهور

وهذه الزهور تنمو من دماء

أولئك الذين قدّموا أرواحهم للعراق

الله أكبر!

هذا هو اليوم الذي يعطي فيه الشيعة أصواتهم

أما علاوي، فقد كان بدوره يغرق القنوات التلفازية العربية بالإعلانات الانتخابية البارعة التي يدفع لها من الصناديق الرسمية، وكانت حكومته قد وعدت مؤخراً بزيادة أجور العمال المدنيين وضباط الشرطة. كانت بطاقته تكسب أرضية في مناطق الأقليات السنية والمسيحية في البصرة، وكذلك في صفوف المهنيين المتعلمين. في الأيام التي سبقت الانتخابات، أخبرني عدد من البصريين أنهم شعروا باندفاع نحو علاوي. كان اليوم السابق للانتخابات عيداً يدعى غدير خم. في عام 632، حين كان محمد ﷺ عائداً إلى المدينة من حجة الوداع، ويُعتقد أنه توقف عند بركة ماء راكد، أو غدير، في الصحراء وأمسك بيد ابن عمه وصهره علي، وقال النبي ﷺ للعالم: «من كنت مولاه فعلي مولاه». المسلمون الذين فسّروا كلمة مولى بمعنى «سيد» واعتقدوا أن علياً هو الخليفة الذي اختاره الرسول ﷺ أصبحوا شيعة لعلي وابنه الحسين وجميع الأئمة من سلالته حتى الإمام الثاني عشر والأخير، المهدي المنتظر الذي سيبشّر ظهوره بنهاية العالم. أما أولئك الذين فسّروا كلمة مولى بمعنى «صديق»، الذين آمنوا برواية مختلفة تماماً لمن يخلف محمداً ﷺ، فقد أصبحوا من السنة. لذا فإن غدير خم يحدّد بداية انشقاق كبير بين المسلمين، وكان الشيعة العرب هم الخاسرين منه عبر التاريخ، حيث عاشوا قروناً تحت السلطة الدينية للخلفاء السنيين، وأخيراً تحت السلطة الدنيوية للسياسيين السنيين حتى في العراق ذي الأغلبية الشيعية. لم ينجح الشيعة في الانضمام إلى الحكومة العراقية الأولى، في ظل الاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن العشرين، بسبب فتوى، وفي أثناء حكم نظام صدام قُتل قادتهم بشكل منظّم. فيما يخص العراقيين العلمانيين، كانت الانتخابات الديمقراطية الفعلية الأولى في

البلاد تعني أنهم يستطيعون أخيراً النجاة من كابوس سنوات صدام والانضمام إلى العالم المتحضّر. أما ما يتعلق بالشيعة المتدينين بعد فاستشهاد علي والحسين، وبعد قرون من الندم والانعزال والمعاناة، فستمنحهم الانتخابات نصيبهم الشرعي من القوة وتصحح خطأ تاريخياً يعود إلى ألف عام.

في يوم الجمعة الذي سبق الانتخابات، في مسجد الحاكمية، الذي يقع أمام شارع تجاري مزدحم قرب مبنى المخابرات المدمّر، قدّم الإمام محمد البصري خطبة الجمعة للرجال الذين احتشدوا في المسجد الصغير. كانت كلماته تدوي عبر مكبّر الصوت إلى الحي المجاور. كان في الحادية والثلاثين من عمره، وكان متخصصاً في علم الأحياء، يضع نظارات ذات إطار مربع، وقد فقد إحدى أسنانه الأمامية. حرص على أن يفهم قومه أهمية أن يوم الانتخابات هو اليوم اللاحق لغدير خم. فالشيعة عادةً يذهبون إلى النجف في يوم غدير خم لزيارة مرقد الإمام علي، لكن هذا العام، بصفة جزء من الجهود الأمنية للانتخابات، سيكون هناك حظر في جميع أنحاء البلاد على سير المركبات بدءاً من ليلة الانتخابات. قال الإمام: «يمكنكم أن تفعلوا شيئاً قد يكون أهم من هذه الزيارة. سنوضّح حقوقنا. وهذا أهم كثيراً من زيارة النجف في اليوم المناسب».

ارتفع صوت الإمام، بينما كان يحاول أن يثير الرجال الجاثين أمامه: «بعد غد يوم الانتخابات، سيكون يوماً عظيماً، وعلينا أن نستعد لهذا اليوم، كما نستعد لأي عيد إسلامي آخر؛ لأن هذا اليوم سيجلب النصر للذين عانوا الظلم. في هذا اليوم ستنتهي معاناة الناس. وفي هذا اليوم سيتخلص الضحية من الشخص الذي أساء إليه». وأعلن الإمام أن الشيعة في يوم الانتخابات سيتبعون مرجعيتهم، علماء الدين، ورثة علي وآله، الورثة الحقيقيين للنبي ﷺ. كانت كلمة مرجع تشبه كلمة النبي، وكان اتّباع المرجعية يعني القبول بخلافة علي، كان هذا هو الرابط الشرعي بين غدير خم ويوم الانتخابات. ثم وصل الإمام إلى النقطة المهمة في الخطبة: «وضعت المرجعية قائمة ودعمتها، وهي الائتلاف العراقي الموحد، الذي يحمل الرقم 169، ورمزه الشمعة، هل من أحد لم يسمعني؟ أريد أن تصل هذه الكلمة حتى إلى مكبرات الصوت الخارجية؛ حتى لا يستطيع أحد أن يقول: إن هذا كذب. ولا أريد أن أسمع أن المرجعية لم تدعم هذه القائمة».

كان الإمام يغامر على أرضية متناقضة (وحين التقيته بعد ذلك، رفض أن يناقش أياً من ذلك). ادّعت الأحزاب الأخرى أن السيستاني الذي لا يشك أحد في أنه ساعد في وضع القائمة رقم 169، بارك جميع القوائم، ورفضت بشدة أن ترى صورته قد بدأت بالظهور على شعارات حملة القائمة 169. لم يقل السيستاني نفسه شيئاً لحسم الخلاف. كان رجال الدين قد ابتعدوا عن ذلك سابقاً. والآن لم يكن الإمام البصري راضياً عن مجرد توضيح الشك بدعم السيستاني للقائمة 169؛ بل إنه أشار إلى أن حكومة علاوي كانت تحاول رشوة الناخبين، وذلك عن طريق زيادة الأجور. قال الإمام: «أنا أذكرك أن الموت قريب من الجميع. لا أحد يعلم متى سيموت، ربما يموت في أي لحظة. فماذا سيقول لله؟ هل سيقول: إنه انتخب قائمة محددة؛ لأنهم أعطوه المال؟ كيف سيقابل ربه بهذه الإجابة؟».

ثم أخبر الإمام قومه بوقت بدء الانتخابات وانتهائها، وبعدد الهويات التي عليهم إحضارها، وكيفية إيجاد القائمة 169 على أوراق الاقتراع، وكيفية الإشارة على المربع الصحيح. وحين بدا راضياً عن توضيح هذه التعليمات ختم الخطبة بقوله: «سيكون الله معكم في ذلك اليوم، فلا تخافوا من أي شيء، لا تخافوا من الإرهابيين. على شيعة الحسين أن يذكروا هذا القول: هيهات منا الذلة وسنذهب للانتخاب».

كان صباح يوم الأحد غريباً وجميلاً. كانت شوارع البصرة هادئة، لدرجة أن الناس قالوا فيما بعد: إنه كان كيوم عيد. كانت الأسر، بمن فيها الأطفال الصغار والشيوخ، يمشون في الدروب، الجميع يرتدي ملابس مرتبة. كان كثير من البصريين الذين تحدّثت إليهم قد ناقشوا مع أسرهم ما سيفعلونه يوم الانتخابات، وهل من الآمن أكثر الذهاب في الصباح أو المساء، وهل من الأفضل خسارة واحد أو اثنين من أفراد الأسرة فقط أو أن تموت الأسرة معاً. وقف رجال الشرطة ورجال الحرس الوطني في تقاطعات الطرق كل بضع مئات من الياردات، وجثم القناصة على سطوح المباني الحكومية في المحافظة. دُهش الناس الذين كانوا في طريقهم لمراكز الانتخابات لرؤية الرجال بالزي العسكري يقومون بأعمالهم بالفعل. بحلول الساعة السابعة والنصف صباحاً، في المدارس التي تم اختيارها مراكز انتخابية، كان الناخبون في صفوف، وكانت الصفوف منظمة والوجوه جادة بعض الشيء. تقدّم الناس للتفتيش دون شكوى كانوا يخفضون أصواتهم باحترام. كان العاملون

في المراكـز الانتخابية –من مدرّسـين وربّات بيوت وخريجين جامعيـين عاطلين عن العمل– يضعون شارات على قمصانهم. سلّموا أوراق الاقتراع بجدّية فيها بعض المبالغة، حيث كانوا يؤدّون عملاً صغيراً لكنه مهم، كأساتذة الجامعة الذين يوزعون أوراق الامتحانات النهائية. كانوا يرشـدون الناخبين؛ ليضعوا السبابة اليمنى في زجاجة الحبر البنفسجي المملوءة حتى المنتصـف. وكان العاملون في مراكز الانتخاب أشخاصاً عاديين في أي يوم آخر، لكن الناس شـكروهم وكأنهـم أبطال عـام 1991. كانت أوراق الاقـتراع ذات اللون البيـج للانتخابات الوطنيـة، والأزرق لانتخابـات المحافظة – كبيرة ومليئة برموز الاحـزاب. كانت تبدو نظيفة وجديدة أكثر من أي شيء آخر رأيته في العراق.

في المدرسـة الجمهورية التي تقع قريباً من شـارع الاسـتقلال، ذهبت شذا محمد علي، وهي ربة بيت في الخمسـين من العمر ترتدي وشاحاً أنيقاً أحمر وأسود، للانتخاب في اليوم الأول. قالت شذا: «أمضيت خمساً وثلاثين سنة من عمري أنتقل من حرب إلى أخرى. والآن آمـالي لأولادي. نحن فقدنا مسـتقبلنا، لكننا نبحث عن مسـتقبل أطفالنا». وقال محسـن هاشـم، وهو مدرّس للغة العربية في المدرسـة ومدير المركز الانتخابي: «لقد عشت أكثر من خمسين عاماً، ولم أشعر بشعور كهذا. أشعر بقشعريرة تسري في جلدي. كان لدينا حضارة عظيمة منذ ستة آلاف عام، وأنا أشعر أننا نثبت إنسانيتنا الآن. نرجو أن تأتي هذه التجربة الديمقراطيـة بهـذه النتيجة، إن الناس هـم المالكون الحقيقيون للقـرارات في هذا البلد». كان يرتـدي سـترةً باليـةً بعض الشـيء وربطة عنق زهريـة، وكان وجهه متوتراً، وشـارباه مقصوصان بعناية. قال هاشم، مشيراً إلى الحي السني في جنوب البصرة: «هناك إشاعة أنهم سمّموا مخزون المياه في الزبير هذا الصباح»، (ثبت أن الإشاعة كاذبة)، «لا يهمنا ما يفعله الإرهابيون. فقد جرّبوا كل شيء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء. وتسميم المياه يظهر أنهم يائسون».

نحو الساعة 8:20، اهتزت المدرسة قليلاً، حين سقطت قذيفة هاون على بعد بضع مئات الأميـال. تمتم أحدهم: قال ليث محمد شـاكر، وهو شـرطي مـرور في الثانية والثلاثين من عمره كان قد أحضـر معه أولاده: «يللا، لا مشـكلة، لا مشكلة؛ ما نفعله الآن هـو عمل عظيم ضد الإرهاب. إنه تحدٍّ لهم: نحن ننتخب، مـاذا بإمكانهم أن يفعلوا؟».

تذكر بعض الناخبين الانتخابات الوحيدة التي عرفوها، المهازل التي كانت تؤكد شعبية صدام. كان لديهم خيار بين مربع يحمل كلمة نعم، وآخر يحمل كلمة لا، وفي بعض الأحيان، كان العاملون في المركز الانتخابي يقومون بالتصويت عنهم ببساطة. أما هذه المرة فإن كثيراً من الناس يمارسون حقهم المكتسب حديثاً بالاحتفاظ بخياراتهم لأنفسهم. لم يقبل فيصل جاسم، وهو عامل متقاعد في شركة نفط أن يكشف عن اختياره. وقد كان من بين المصلين الذين استمعوا إلى تعليمات الإمام البصري. كان الأمر الذي يهمه هو تجربة الانتخاب بحرّية للمرة الأولى في سن السبعين. قال جاسم: «معظم العراقيين لا يعرفون معنى الديمقراطية، هل هي حلوة أم مرّة؟ هل لها مذاق أو رائحة؟ نحن لا نعرف. لكننا سنعرف بعد الانتخابات».

في أحد مراكز الاقتراع، التقيت عبد الكاظم حسين عبود، وهو عقيد في الحرس الوطني يرتدي الزي العسكري، هش البنية، مهيب الوجه، له عينان سوداوان ثاقبتان. كان في السادسة والخمسين من عمره، وقد كان أسير حرب في إيران مدة سبع عشرة سنة، في مقتبل حياته؛ أُطلق سراحه وعاد إلى البصرة قبل يومين من بداية الحرب عام 2003 وكان شديد السعادة لرؤية أولاده الصغار قد كبروا، وأصبح منهم المهندس والطبيب. رفع العقيد عبود أصابعه الأربع، مشيراً إلى أن لديه أربعة أولاد: كانت سبابته ملطخة بالحبر.

كان مترجمي في البصرة طبيباً شاباً حزيناً يعاني السمنة، وكان من بغداد واسمه عمر. بعد سقوط القذائف الأولى على المدينة في آذار عام 2003، بقي عمر في المشفى الذي كان يعمل فيه ثلاثة أسابيع لمعالجة الجرحى، ثم لطرد الناهبين حين انهار النظام؛ وفي النهاية كان واحداً من خمسة أطباء لم يتركوا الخدمة. كان يملّ بسهولة، حتى في أثناء الاحتلال، حين كانت الانفجارات التي لا تنتهي والأعداد الكبيرة للإصابات تعني أن كل طبيب شاب يصبح مختصاً في الجروح الصعبة. قال عمر، السني العلماني الذي لا يملك آراء سياسية قوية: إن يوم الانتخابات كان «مجرد يوم آخر». كان يشعر كذلك إلى أن قال فجأة، بينما كنا على وشك مغادرة أحد مراكز الاقتراع، بعد الحديث مع عدد من الناخبين: «انتظر أرجوك!» عاد إلى الداخل، وطلب من موظفي المركز أن يسمحوا له بالانتخاب، على الرغم من أنه مسجّل في بغداد. خرج عمر البارد متوهجاً، وقال: «لدي شعور رائع!».

عاش والده في العامرية، وهو حي يقع غرب بغداد قرب طريق المطار الخطر الذي كان يُعرف بأنه مُستنبت التمرّد. لم يكن أحد في الأسرة يعرف أن عمر يعمل مع الغربيين للحصول على الرزق. كان طوال الصباح يحاول الاتصال بالبيت؛ ليعرف إن كانت أسرته قد انتخبت، وفي الظهيرة دهش حين سمع أن والدته وإخوته، بعد أن نظروا من الباب الأمامي فوجدوا جيرانهم يخرجون إلى الشارع، أسرعوا إلى مركز الانتخاب هم أيضاً. عادوا إلى البيت بأمان، وقبل أن يحل الليل حتى والده، الضابط المتقاعد الذي أصبح متطرفاً سنياً في السنوات الأخيرة، حسدهم على أطراف أصابعهم الأرجوانية، وعلى الإثارة الهائلة التي تنتشر في بغداد وفي معظم مدن العراق، لدرجة أنه ذهب أيضاً للانتخاب. أما علي، صديق عمر المقرّب، الذي كان يعيش أيضاً في العامرية، فقد قام بثلاث محاولات للانتخاب، في المرة الأولى، وصل علي إلى منتصف الطريق حين رأى صديقاً له يُعرف بتعاطفه مع التمرّد فحيّاه بشك وسأله: «أين أنت ذاهب؟». فقال علي: «سأحضر بعض الخبز». قال صديقه: «سأذهب معك. فذهب علي إلى المخبز؛ ليحضر رغيفاً من الخبز لم يكن بحاجة إليه. وبعد بضع ساعات، حاول مجدداً، فأوقفه بعض الرجال الخارجين من المسجد قائلين: «أين أنت ذاهب؟» فقال: «إلى الصيدلية، لأحضر الدواء لعمتي». قال الرجال: «سنذهب معك». وحين وصلوا إلى الصيدلية ادّعى علي أنه نسي الوصفة في البيت. وفي وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، حين كانت مراكز الاقتراع تستعد لإغلاق أبوابها، حزن علي الذي كان يشاهد الناس على شاشة التلفاز طوال اليوم يصطفّون للاقتراع، واتصل بعمر في البصرة. أرشده عمر بصبر إلى مركز انتخابي على بعد ميلين في الشوارع الخلفية للعامرية، وحين وصل علي وجد أنه ليس مركزه الانتخابي: فقد كان من المفترض أن ينتخب في المدرسة التي خلف بيته. وما إن وصل إلى البيت حتى مسحت أمه بذعر الحبر عن إصبعه بالكلور.

عدت إلى المدرسة الجمهورية في البصرة قبل إقفال مراكز الانتخاب، عند الغسق. كان آخر الناس في الصف هو عبيد حميد، وهو شرطي كان مشغولاً طوال اليوم لدرجة أنه كاد ينسى الانتخاب. قال حميد: «ليس المهم من أختار. أنا أريد المشاركة فقط». أغلقت البوابة الخارجية، وسمح لي بالبقاء لمشاهدة فرز الأصوات. تم جمع أوراق الاقتراع في حزم من خمس وعشرين ورقة، ثم وضعت، واحدة تلو الأخرى على طاولة خشبية وسط غرفة

رياضيات للصف السادس. كانت يد الشخص الذي يقوم بالعدّ، وهو مدرس رياضيات اسمه صالح يونس مهدي، مشوّهة: لم يكن لديه إلا الأصابع الثلاث الوسطى وكانت ذات غشاء واحد. كانت يده تمر بسرعة على الأوراق كالمسطرة، وكان يضرب الورقة حين يصل إلى المربع، ثم يقول الرقم. أما أحمد صالح مهدي، وهو مدرّس عجوز للصف الأول، فقد وقف بصمت عند السبورة، وكان يسجّل الأصوات في مجموعات من خمسة أصوات. ووقف المراقبون من الأحزاب ومن لجنة الانتخابات ينظرون إليهم. وحين انقطع التيار الكهربائي، كما هو متوقع، أشعلت المصابيح الزيتية، وأصبحت في غرفة الصف ظلال طويلة ووجوه مضاءة.

كان العدد النهائي في المدرسة الجمهورية 721 لقائمة علاوي، و595 لقائمة السيستاني، وعدد من الأصوات الموزعة على الآخرين. كان العدد الكلي لأوراق الاقتراع الموزّعة أكثر من الأصوات التي تم إحصاؤها باثنين، وهكذا وقف الرجال حول الطاولة التي في وسط الغرفة نصف ساعة أخرى، يعيدون الحسابات مراراً، إلى أن اكتشفوا أن هناك ورقتين فارغتين. وهكذا انتهى كل شيء على النحو الصحيح.

حرّر وصول الأمريكيين والبريطانيين عام 2003 العراقيين من صدام، لكنه لم يحرّرهم من شكوكهم وأحزانهم ومخاوفهم. كان نصراً للأجانب. واستغرب المحتلون سبب الترحيب بهم بخشونة وليس بامتنان. كان التحرير، بشكل ما، مذلاً، وجلب في السنتين اللاحقتين مزيداً من الكوارث. في يوم الانتخابات، لم تكن القوات الأجنبية تُرى في أي مكان، وحين ذهب العراقيون للتصويت، كان ذلك أخيراً إنجازاً لهم.

بعد يومين من الانتخابات، عدت لرؤية ماجد الساري، ووجدته مبتهجاً. بعد سقوط النظام، مع كل النهب والعنف، كان خجلاً من بلده، لدرجة أنه لم يحضر أسرته إلى البصرة، وكان يفكر في العودة إلى السويد إذا كانت نتيجة الانتخابات تعني خسارته لوظيفته في وزارة الدفاع. أما الآن فقد صمّم على البقاء: فقد علم أن العراقيين يستحقون أن يحارب لأجلهم. «أظهرت الانتخابات قوة الأفكار الدينية هنا. سأبقى وأحارب تلك الأفكار السيئة. فالحرب تتغير من حرب ضد العنف والتفجيرات إلى نوع جديد، هو حرب الأفكار».

بعد بضعة أيام، بدأت الغبطة من الانتخابات تزول مع زوال الحبر عن السبابات. كسبت قائمة السيستاني نصف الأصوات في جميع أنحاء العراق، وربحت 70% في البصرة. أما قائمة علاوي فقد نالت 15% في أنحاء العراق و20% في البصرة. في انتخابات المحافظة، فاز الائتلاف الشيعي المحلي بثلث الأصوات، واحتل حزب الفضيلة الدرجة الثانية، واحتلت قائمة علاوي الدرجة الثالثة. أما ائتلاف الأحزاب الصغيرة التي جمعها جودت العبيدي، صاحب شركة الليموزين السابق من بورتلاند، الذي حضر ورشة العمل في الحلة، فلم يسجّل حتى في النتائج الوطنية. جعل نجاح الأحزاب الدينية مؤيدي علاوي وغيره من المرشحين العلمانيين مذهولين، وعزا بعضهم النتيجة إلى إساءة استخدام اسم السيستاني وصورته. وقال بعض العراقيين: إن محمد رضا، ابن السيستاني والمتحدث باسمه، قد اضطرب عشية الانتخابات، وأمر الأئمة بالموافقة على القائمة 169 بشكل رسمي. (لكن مكتب السيستاني أنكر ذلك). كانت تلك مفاجأة غدير الخم. وفي الفرصة الأولى «لإعطاء أصواتهم» أطاع معظم الشيعة قادتهم الدينيين.

زرت مكتب الباشجي في بغداد؛ لأرى كيف سيمر العراق بهذا الحدث الخلافي، الذي أصبح فيه الخاسرون التاريخيون في البلاد رابحين، وأصبح فيه الرابحون خاسرين. كان هناك شعور بالتحوّل خارج العراق: فالدول العربية المجاورة للعراق كانت قلقة من ظهور الشبح الإيراني والتأثير الشيعي في الشرق الأوسط، مما يفسد النظام السني. قال لي الباشجي، الرجل ذو الأفكار الليبرالية: «آمل ألا تعود هناك سياسة سنية في العراق. لا أعتقد أنه يجب أن يكون هناك سياسة شيعية، أيضاً. لا نريد أن نكون كلبنان. أعتقد أن سيطرة الشيعة أمر مؤقت. فالغالبية الشيعية ستبتعد في النهاية عن الأحزاب الدينية. إنه ضلال. وسترى. أعتقد أن العراقيين سيعودون إلى جذورهم العلمانية عاجلاً غير آجل».

كان الباشجي مشغولاً بعقد اجتماعات مع السياسيين والقادة الدينيين من السنة؛ ليبحث فيما يمكن فعله لإدخالهم وناخبيهم في اللعبة السياسية. قال الباشجي ضاحكاً: «قالوا: إنهم متحمّسون لتصحيح هذا الخطأ الذي ارتكبوه بعدم المشاركة في الانتخابات دون أن يعترفوا بذلك طبعاً»، كان الباشجي يعمل وسيطاً بين المجموعات المهمّشة وبين المراكز الجديدة للقوة، محاولاً إيجاد صيغة يستطيع القادة السنة عبرها المشاركة في كتابة دستور عراقي

جديد على الرغم من افتقادهم للتمثيل في المجموعة. وهذا من شأنه أن يكبح الطائفية الشيعية، ويقدّم طريقة للسنة الذين تعبوا من القتال؛ ليشاركوا في السياسة. زاد التصويت من الانقسامات الإثنية والدينية، وأبعد الأمريكيين أكثر عن مركز الحياة السياسية في العراق. في اجتماع لشيوخ العشائر في بغداد بعد عدة أسابيع من الانتخابات، قال عربي سنّي من كركوك: «ليس الأمريكيون هم المشكلة. نحن نعيش تحت احتلال الأكراد والشيعة. وقد حان الوقت لمحاربتهم». أصبحت كركوك من جديد نقطة الصفر للحرب الأهلية المخيفة والمهددة والمرجوّة. وأعلن زعيم عشيرة أخرى في الاجتماع أن: «الأكراد يطالبون بكركوك. وبعد ذلك سيبدؤون بالمطالبة ببغداد. إن صدام حسين هو الذي أعطى الأكراد أكثر مما يستحقون». وقال: إن العرب سيثورون قريباً: «آخر الدواء الكي».

لم يشارك د. باهر بطي في الانتخاب، فقد كان حي الدورة الذي يعيش فيه في بغداد خطراً جدًّا. لكن حين التقيته بعد الانتخابات كان لديه بعض الأخبار: فقد كانت فكرته القديمة عن مركز جلجامش للتفكير الإبداعي ستأخذ شكل عيادة نفسية جديدة توشك أن تفتتح، بتمويل عراقي أمريكي، قرب الملعب الأولمبي في نادي عدي الاجتماعي. وسيسمح مركز الجنة الذي يضم عشرين سريراً للمرضى الداخليين وخمسين مريضاً خارجياً، للبطي بتدريس التقنيات المتطورة لعشرة من المختصين النفسيين والعاملين الاجتماعيين من الموظفين لديه، وبتقديم رعاية جيدة لأمراض العقول العراقية.

بعد نحو عامين، كان البطي لا يزال يضمر شكوكاً بشأن الأمريكيين. وقبل أن نفترق، سألني للمرة الخامسة أو العاشرة إن كان هناك خطة خلف الفوضى التي سمح لها المحتلون بالسيطرة على بلاده. وقال: «أنا لست مذعوراً، لكن هذا مجرد سؤال». فاتفقت معه على أنه سؤال، وقلت: إن الفوضى على حد علمي كانت أسوأ من جريمة، وإنها خطأ فاحش. لكن الأمريكيين كانوا أمراً واقعاً في العراق، وكان البطي يعوّل عليهم لمنع الشيعة المتدينين من الحصول على كثير من السلطة، ولحماية المصالح الأمريكية التي تلاقت مع مصالحه.

قال البطي: «إنها لعبة روليت روسية، نحن نغادر كل صباح، ولا نعرف إن كنا سنعود للبيت. لقد اعتدنا هذه اللعبة؛ لذا فنحن نستمر فيها».

أدلت أسـيل بصـوتها في الانتخابات. مشـت هي ووالداها ست سـاعات عبر المدينة إلى الأدهمية، حيّهم القديم، حيث تم تسجيل بطاقاتهم التموينية، وعادوا بعد ذلك. كانت أسيل ترتدي عباءة سـوداء طويلة وحذاء رياضـياً، ومشت الأسرة في شـوارع الأدهمية بعد صدام وسـط النظـرات غير الودية من شـباب المنطقة. كانت أسـيل خائفة لكنهـا متحدّية، وحين وصـلوا أخيراً إلى مركزهم الانتخابي، منحت صـوتها لقائمة السيستاني؛ لمجرّد أنها كانت تضم أحمد الجلبي، الذي كانت تعوّل عليه للقضاء على البعثيين إلى الأبد.

وحـين رأيتها بعد الانتخابات، كانت قد اسـتبدلت بالعباءة بذلة زرقـاء متألقة، تنورتها إلى الركبة وسـترة ذات حشـوة للكتفـين، وكنزة كريم ذات قبة عالية، وجـوارب، وحذاء ذا كعـب عـالٍ. كما أنها كانت تضـع أحمر شـفاه ومسـكارا والكثير من الحلي. جلسـنا معاً في حديقة فندق فلسـطين، واستمتعنا بشمس الشـتاء المعتدلة، وحلّت ضفيرتها وتركت شعرها ينسـاب في الضـوء الذهبي. كان هناك شـيء مختلف في أسـيل، وكأنها تخلصت من عبء ثقيل. كانت تعمل سكرتيرة في وزارة بالمنطقة الخضراء (لم تكن هناك متابعة، لمقابلتها مع كنعـان مكيـة)، وقد عرض عليها رجل يعمل معها في المكتب الزواج. كان وسـيماً لكنه ممل، فعرفت أنها لن تستطيع أن تحبه وأخبرته بذلك، لكنها قبلت أن تدعه يأتي مع أسرته لزيارة أسرتها. جلسوا في غرفة الجلوس في بيت أهلها الذي شيّدوه حديثاً، وبينما كان أهلها وأهله يناقشـون موضـوع المهر، تخيلت أسـيل الحياة مع هذا الرجل: حالما يتزوجان، سيخلف بكل وعوده لاحترام اسـتقلالهما الروحي، ويبدأ بجعلها ربة بيـت عراقية، فانهمرت الدموع من عينيهـا، وملأتهـا الفكرة بالخوف لدرجة أنها تخيلت أن الأمر سـيكون أشـبه بالعيش تحت حكم صـدام من جديد. وللمرة الأولى من شـهور، تذكرت بالضبط كيف شعرت. لم تستطع أن تدع ذلك يحدث. لم تقل شيئاً في ذلك اليوم، لكنها عرفت أنها سترفض العرض.

قالت أسيل، بينما كانت تخرج من الفندق لتودعني في الشارع: «أريد أن أسافر، عقلي لا يتناسب مع هذا المجتمع؛ فأنا أريد مزيداً من الحرية».

خاتمة الكتاب

في الأيام الأولى من عام 2005، حزم درو إردمان أشياءه من مكتبه في مجلس الأمن القومي، وترك الخدمة في الحكومة، والتحق بزوجه وابنته الرضيعة في سانت لويس، حيث خطط للحصول على عمل في القطاع الخاص. كان إردمان يعمل حول موضوع العراق، في بغداد وواشنطن، منذ نحو ثلاثة أعوام. كان عمله صعباً ومتطلباً. كان يستطيع النوم ليلاً. لكنه مع ذلك كان يذهب إلى بيته، ولديه شعور بأنه لم يقدّم ما يكفي. كان ثمن أرواح الناس عبئاً ثقيلاً. خسر أصدقاء من الأمريكيين والعراقيين، وكان يرى نفسه محظوظاً، لكن لو كان عازباً لبقي في العراق.

في سانت لويس، حاول إردمان، ألا يتابع الأخبار عن ذلك الجزء من العالم. وعلى الرغم من أنه لن يعود مؤرخاً محترفاً، فقد أراد أن يكون على مسافة كافية ليفكر في الحرب بشكل تاريخي، مما قد يستغرق سنوات. كانت الأسئلة الكبرى تنتظره وآخرين مثله، منها: هل سينجح الأمر؟ كيف كان يمكن فعل هذا بشكل أفضل؟ إذا لم يتم فعل هذا بالطريقة الصحيحة، فهل كان من الضروري القيام بذلك أصلاً؟، لكن إردمان لم يكن مستعداً بعد للإجابة عنها.

ومع ذلك، فقد قام بالفعل بقراءة كتاب -من الغلاف إلى الغلاف، أول مرة منذ مدة- في موضوع له صلة. كان ذلك الكتاب هو Bureaucracy Does Its Thing/ البيروقراطية تقوم بدورها، بقلم «Blowtorch» بوب كومر، الذي كان يدير برنامج التهدئة في فييتنام في عهد جونسون. كانت نسخ منه توزّع في بغداد، وقال بعض الناس هناك: «إن كنت تريد أن تفهم ما يجري هنا؟ فاقرأ هذا التقرير». حطّت نسخة من الكتاب على مكتبه في واشنطن. كان إردمان يرفض في السابق تشبيه الوضع بفييتنام، ولا يزال: فالعراق من الناحية الإستراتيجية مركزي أكثر جدًّا، كما أن طبيعة التمرّد مختلفة، وفرص النجاح في العراق أكبر: الحكومة الأمريكية المستمرة، والجهود الجارية لجعل الفرعين المدني والعسكري يعملان بتناغم،

والعوائق المؤسساتية التي جعلت الأمر صعباً جدًّا، والجهود المتعثرة للتكيف بشكل تخيلي مع أنواع جديدة من الحرب، والصعوبة التنظيمية التامة لإنجاز شيء على مقياس العراق. تناول إردمان هذا كله في أطروحته، وحين أعاده كتاب كومر إليه، اكتشف أنه كان قد تنبأ بجزء كبير من تجربته. قال إردمان: «هناك أشياء كثيرة حول العراق تناسب نمط الأشياء التي كنت أفكر فيها وأعمل عليها سابقاً». فمثلاً، في عام 1917، بينما كانت القوة الأمريكية الاستطلاعية تستعد للإبحار إلى أوروبة، بحث الجنرال جون بيرشينغ حوله عن خطة فلم يجد: «لذا لم يكن الموضوع مفاجئاً لي، والآن فقط حين أصبح لدي قليل من الوقت أستطيع أن أجمع الأشياء مع بعضها في لوحة فسيفسائية، وأرى بعض الاستمراريات بوضوح أكبر».

كانت أطروحته قد ركّزت على مراوغة النصر. فهزيمة الجيش الياباني لم تأتِ مع الاستسلام في أغسطس/ آب 1945 على متن السفينة الحربية USS Missouri، وإنما بعد ست سنوات من ذلك، مع نهاية الاحتلال الأمريكي وولادة اليابان الديمقراطية؛ لأن النصر عملية وليس حدثاً، وله أهداف سياسية جوهرية، وليس أهدافاً عسكرية. والنصر في العراق، بما في ذلك تغيير السياسة العراقية، ليس في متناول السلطة الأمريكية وحدها. قال إردمان: «بشكل أساسي، إنه دوماً يتعلق بالعراقيين»، فالأهداف الرئيسة لا يمكن أن يحققها إلا العراقيون. قد تكون هذه الأهداف أهدافاً أمريكية بشكل غريب. نحن نستطيع المساعدة. لكننا في وضع لا يمكن فيه تحقيق النصر إلا عبر جهود الآخرين. إنه وضع متناقض. قد تكون لدينا القوة، لكن بسبب طبيعة أهدافنا تحديداً، لا نستطيع استخدام قوتنا لفرض نتيجة محددة. إن مصيرنا مرتبط بالآخرين ارتباطاً أساسياً».

في الأسبوع ذاته من شهر يناير/ كانون الثاني الذي غادر فيه إردمان واشنطن، تم استدعاء كولن باول إلى البيت الأبيض لمحادثة وداعية بينه وبين الرئيس. كان باول طوال الوقت المعارض المطيع الهادئ بشأن العراق، وكان قلقاً بشأن ضرر التحالفات، ومشككاً (ولكن ليس بالقدر الكافي) بادّعاءات الإدارة المحمومة أكثر حول الأسلحة والإرهاب، وواقعياً بشأن صعوبات ما بعد الحرب. لكن سمعته تشوّهت بشكل سيئ، حين ثبت أن خطابه للأمم المتحدة قبل الحرب حول الأسلحة العراقية زائف في معظمه. وبالرغم من أن العراق

أصبح أكثر فأكثر مسؤولية بالنسبة لوزارته، إلا أن باول قد خسر كل معركة تم فيها اتخاذ قرارات حاسمة. كانت مدة خدمته وزيراً للخارجية خيبة أمل كبيرة. في الأشهر الأخيرة لباول في وزارة الخارجية، نقل أحد مساعديه عنه إجابة تشرشل لشخص علّق على جحود الشعب البريطاني لتصويتهم ضده حتى قبل الفوز بالحرب العالمية الثانية، قال تشرشل: «لا تبحث عن الامتنان ولا تتوقعه، لكن احصل على الراحة التي تستطيع الحصول عليها من اعتقادك بأن جهودك بناءة للهدف الذي تريد». وكما يعتقد المساعد، فإن باول كان يخدم هدفاً بنّاءً. ربما كان هذا الهدف أقل مستوى مما التزم به باول. والآن، أسرع مما أراد، تُستبدل بهكوندوليزا رايس، الناجية البيروقراطية الفطنة.

بعد بضع دقائق صعبة في المكتب البيضاوي، أدرك باول أن بوش لم يكن لديه فكرة عما كان يفعله وزير خارجيته هناك. تم استدعاء رئيس أركان البيت الأبيض، أندرو كارد، لكنه كان يجهل الموضوع أيضاً. من الذي دعا إلى الاجتماع؟ بدأ يظهر أن من الممكن تماماً أن نائب الرئيس الشبح قد رتّب لإذلال زميله القديم وعدوّه الحالي عند مغادرته. سحب باول نفسه، وأعلم الرئيس أنه لم يأتِ لأجل اجتماعهما الأسبوعي، وإنما ليودّعه. وحين وجد أنه وحده مع الرئيس ربما للمرة الأخيرة، قرّر باول أن يقول ما في ذهنه دون قيد. فناقشه بأن وزارة الدفاع لديها سلطة أكثر من اللازم في تشكيل السياسة الخارجية، وحين طلب منه بوش مثالاً على ذلك، لم يذكر باول رامسفيلد، الوزير الذي انتصر عليه بشكل بيروقراطي، ولم يذكر وولفوفيتز، الرجل الأول في الشأن العراقي، وإنما ذكر المسؤول الثالث في الوزارة، دوغلاس فيث، الذي سمّاه باول العضو الحامل لبطاقة حزب الليكود. وللتمهيد لكلامه، انتقل باول إلى المفاوضات حول كورية الشمالية، ثم عاد إلى الشأن العراقي: فإذا لم يتحسن الوضع هناك بحلول الأول من إبريل/ نيسان بشكل كبير، فسيكون الرئيس بحاجة إلى إستراتيجية جديدة وأناس جدد لتنفيذها. بدا أن بوش عاد لرشده: لم يكلمه أحد بهذه الطريقة في المكتب البيضاوي. لكن لأن تلك كانت المرة الأخيرة، فقد تجاهل باول كل مثال للاستياء، وتابع إلى أن قال ما كان عليه أن يقوله، وما كان عليه أن يقوله منذ وقت طويل ربما.

في الأسابيع اللاحقة بدا أن باول كان مخطئاً بشأن العراق. فقد كانت الانتخابات هي أكثر حدث حاسم منذ الإطاحة بالنظام، وظهر أن إصرار بوش على عدم تأجيلها كان أحد

أفضل قراراته. أعطى التصويت العراقيين ثقة جديدة بأنفسهم وحتى بمؤسساتهم، إلى حد ما. في صحوة الانتخابات، بدا أن التمرد فقد قوته. لكن الحكومة العراقية الأولى المنتخبة، والرئيس الكردي الأول في تاريخ البلاد، واجها مع ذلك أكثر المهام الرهيبة: ألا وهي بناء القوات الأمنية، بحيث تستطيع الديمقراطية الهشة الدفاع عن نفسها، واكتساب ثقة الشعب، وكتابة دستور، وفرز أكثر المشكلات صعوبة، كمكان البعثيين السابقين في الحكومة والجيش، ودور الإسلام في المجتمع والقانون، ووضع كركوك. كان درو إردمان يحب أن يقول: إن هذا كله يتعلق بقدرة القادة الجدد للعراق على رسم الخطوط على الخريطة.

خارج العراق، كانت هناك ريح تاريخية أخرى تبدأ بالهبوب عبر الشرق الأوسط. تجمّع اللبنانيون بأعداد كبيرة في بيروت؛ للمطالبة بانسحاب القوات السورية، فوافق الرئيس المصري حسني مبارك بتردد على انتخاب رئاسي متنازع عليه، فازدادت جرأة المعارضة في سورية، والمفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية المتوقفة عادت للحركة للمرة الألف. كان مبلغ الاعتماد الذي ذهب للعراق، والمبلغ الذي ذهب للحركات الداخلية لكل بلد، والمبلغ المخصص للحظ يعتمد على من تطلب منه والوضع الذي يريد تسويغه. كان المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية قد تعلموا من عام 2003 لم يكرروا الإعلان عن النصر إلا سراً، حتى حين عاد العنف في العراق أقوى من السابق.

عاد كاليف سيب، الضابط المتقاعد في القوات الخاصة الذي كان قد درّب الجنود في السلفادور، إلى العراق في نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 بعد اجتماع مع الجنرال جورج كاسي الذي خلف سانشير في القيادة، وطلب خبيراً في مكافحة التمرّد، فقوبل بصمت رهيب: لم يكن هناك خبير في مكافحة التمرّد. وفي بغداد مجدداً، وجد سيب أن الجيش الأمريكي لا يملك خطة فاعلة تعالج التمرد بطريقة جادّة. ساعد مع فريق من ضباط أمريكيين وبريطانيين وغيرهم في إعداد إستراتيجية جديدة تركز أول مرة على قوات الأمن العراقية، مع آلاف المستشارين الأمريكيين الذين يعملون بشكل مكثف مع الكتائب الجديدة. وفي فبراير/ شباط 2005، نقل عن مسؤول لم يكشف عن اسمه قوله: «تتضح مما يتعامل معه الآن القادة رفيعو المستوى الحاجة إلى خطة لحملة مكافحة الإرهاب». بعد نحو سنتين من سقوط النظام، قبل الجيش أخيراً حقيقة أن حرب العراق لم تنتهِ. لكن سيب لم يكن

يتوهم بنصر سهل. «ستكون هذه حرباً طويلة. سيُقتل الأمريكيون في شوارع بغداد بعد خمس سنوات من الآن».

ظل معظم مهندسي الحرب في السلطة: بوش وتشيني، ورامسفيلد ورايس. كانوا نادراً ما يتحدثون عن العراق الآن لدرجة أن المرء كان يمكن أن يظن أن الأمريكيين لم يعودوا يموتون في العراق، وأن المهمة قد أُنجزت أخيراً. في منتصف عام 2005، ومع دخول العراق من جديد في العنف الذي كان يقتل عشرات من الناس أو أعداداً كبيرة كل يوم، كسر تشيني صمته ليعلن أن التمرد كان في «النزع الأخير». وكان قد قال الشيء ذاته بعد أسر صدام، قبل سنة ونصف السنة. كانت سياسة الإدارة بشأن العراق عائمة تماماً، ووصل الأمر إلى قول هذه الأشياء، أملاً في تحقيقها.

أعلن البنتاغون أن دوغلاس فيث سيغادر؛ ليقضي مزيداً من الوقت مع أسرته. وبعد رحيل دوغلاس فيث بوقت قصير، وصف نفسه لصحافي بأنه أحد أتباع إدموند بروك، فيلسوف الثبات والتقاليد البريطاني المحافظ من القرن الثامن عشر. وقال: إن إدارة بوش لم ترغب قط بفرض القيم الأمريكية في العراق الذي كانت فيه «الديمقراطية الشيعية» بديلاً مقبولاً بشكل ممتاز. من الناحية الفلسفية، بدا ذلك عذراً، حوّل الفوضى والعنف الذي يحمل فيث المسؤولية الكبرى فيه إلى مثال للحكمة وضبط النفس من قبل أمريكة في السماح للعراقيين بالقيام بالأمور بطريقتهم. لكن كان من المحتمل أيضاً أن فيث وغيره في الإدارة، لم يكن لديهم نية من البداية بالقيام بأي شيء أكثر من إزالة المستبد والرحيل بعد ذلك.

أصبح بول وولفوفيتز رئيس المصرف «البنك» الدولي، وهو المنصب الذي لجأ إليه روبرت ماكنمارا بعد مغادرته للبنتاغون في ذروة حرب فييتنام. لكن فييتنام كانت حرب ليبراليين، كما أشارت ليسلي جيلب. أخذ وولفوفيتز المنصب بصفة تبرئة له وليس تكفيراً عن ذنبه. قال مسؤول سابق رفيع المستوى: «قد يكون بول أكثر الناس في هذه الإدارة الذين كانوا يجدون صعوبة في النوم ليلاً؛ لأن لديه ضميراً. لست متأكداً إن كان الآخرون لهم ضمير». وحين سألته مَن أيضاً كان يجد صعوبة في النوم؟ قال المسؤول السابق: «هذا سؤال جيد»، ثم أعاد ما قال. لكن مهما كان وولفوفيتز يقوم به من البحث عن الروح، فإنه يؤمن دوماً بضرورة الحرب، وقد يثبت أنه محق بعد خمسين عاماً «وإذا أريقت بعض الدماء،

ومــات بعضــ الناس فهذا جزء من الحيــاة». هل كان وولفوفيتز يشــعر بإراقة الدماء؟ قال المســؤول الســابق: «أظن ذلك على أي حال، أود أن أظن ذلك. لا أظن أنه سيعجبني إن كان لا يشعر بذلك».

لما كان مصير أمريكة مرتبطاً بمصير العراق الآن، فقد تمر سنوات قبل أن يمكن أخيراً الحكم على حكمة الحرب. حين سئل الرجل الثاني في ماو، شاو إن لاي، عام 1972 عن رأيه في أثر الثورة الفرنسـية؟ أجاب: «إن من المبكر معرفة ذلك». أخذ بول وولفوفيتز وغيره من كبار منظّري الحرب بالنظرة الطويلة للتاريخ أيضاً؛ وإلا لما كان هناك غزو أمريكي للعراق، أو على الأقل، ليس بهذه السرعة. أما المسؤولون البراغماتيون الذين سألوا أسئلة صعبة عن الحلفاء والدليل والتوقيت والخطط، ولا سيما أولئك الذين تم تغييرهم في المعركة، مثل باول فلم يكن من المحتمل أن يخاطروا من أجل فكرة، وإن كانت مهمة، كتغيير الشــرق الأوســط مــن حاضــنة للقتل الجماعــي إلى مجموعة من الــدول العادية شــبه الديمقراطية. لم يكن هناك تهديد فوري من العراق، لم يكن هناك خطر محدق. كان يمكن للحرب أن تنتظر.

من له حق أن يقرر إن كان الأمر يستحق أو لا؟ يسأل كريس فروشيسر، الذي فقد الكثير في العراق، نفسه هذا السؤال كل يوم، لكنه لم يصل إلى إجابة أقرب من الفخر بخدمة ابنه والحــزن لموته. لم يكن ليختار أن يتخلى عن كيرت لأجل الديمقراطية في الشــرق الأوســط، وهــو الآن يريــد أن يكون موت كيرت جــزءاً من خير تاريخي. ومع ذلك، على فروشيســر أن ينســحب دوماً، كما قال، كلما أصبحت الرؤية كبيرة جدًّا، واللغة مجرّدة جدًّا، وإلا فسيفقد الشيء الأكثر أهمية: حياة واحدة، وموتاً واحداً.

يبقى الوجود اليومي في العراق كابوساً. في الديمقراطية الأحدث في العالم، معظم الناس ليســوا أحــراراً في التعبير عما يــدور بأذهانهــم، أو في الانتماء إلى مجموعــة محددة، أو في ارتداء ما يريدون، أو حتى في المشي في الشوارع دون المخاطرة بحياتهم. في أسوأ أيام العنف، قــال بعضــ العراقيين: إنهم كانوا بحال أفضــل في عهد صــدام، وإن أمريكة كان يجب عليها ألا تطيــح به إذا كانت النتيجة ســتكون الكثــير من إراقة الدم. على الرغــم من أن قليلاً من العراقيــين الذيــن عرفتهم قالوا ذلك، ولكونهــم خبراء في المعاناة، فهم أقــدر من الناس في

القاهرة أو روما أو لبنان أو واشنطن على مقارنة الثمن بالمكسب. حين قلت لأسيل: إنه بعد أن اتضح عدم وجود الأسلحة شعر بعض الأمريكيين بالخيانة من قبل إدارة بوش وأحمد الجلبي، صاحت: «نحن أهم من الصواريخ!» فما قدّمته الحرب لأمثالها من الناس هو الأمل.

جعلت النظرة الطويلة للتاريخ الحرب ممكنة، ومكلفة. انشغل درو إردمان خارج الحكومة بالصفة المؤسساتية لأخطاء الإدارة، لكنه في بغداد في صيف عام 2003 كان قد قال: إن النجاح أو الإخفاق يعتمد بشكل كبير على تقدير الأفراد. وقد وصلت إلى اعتقاد بأن أصحاب المناصب الذين يحملون المسؤولية الأكبر عن العراق قد أظهروا لا مبالاة بحياة البشر وصلت إلى الإهمال الإجرامي. ولأنهم كانوا مقيّدين بأفكار مجرّدة، ومقتنعين بأنهم على حق، وعاجزين عن نقد الذات، وغير مهتمين بالمحاسبة، فقد حوّلوا تعهداً صعباً إلى تعهد قاتل بلا مسوغ. وحين سارت الأمور بشكل خاطئ، وجدوا أشخاصاً آخرين يلقون عليهم اللوم. كان من الممكن دائماً الفوز في حرب العراق، ومازال ذلك ممكناً. ولهذا السبب تحديداً، فإن تهوّر مؤلفيها يصعب أن يغتفر.

في أحد أيام شهر يناير/ كانون الثاني، التقيت ثلاثة رجال عراقيين كانوا يتناولون الغداء في ردهة فندق فور سيزنز في عمان: شيعي وسني وكردي. كانوا في الأردن في رحلة عمل، لكنهم كانوا يعيشون في بغداد أيام حكم صدام. كانوا يرتدون سترات مع ربطات عنق، ويتحلون بالأسلوب اللطيف للجيل العراقي الأقدم، وقد دعوني إلى مائدتهم. كان الكردي وهو خبير مالي واسمه محمود، والسني وهو مهندس معماري واسمه هشام، صديقين لوالد كنعان مكية. وقد ذكر هشام وهو أكبر الثلاثة سناً مع ابتسامة خفيفة أنه قد ورد ذكره في كتاب مكية النُّصب. كان المهندس المستشار في إنشاء نصب تذكاري للعراقيين الذين قضوا في الحرب مع إيران، نُصب الشهداء، وكتب ثناءً متملقاً «للرئيس القائد» عند إزاحة الستار في عام 1983، الذي اقتبسه مكية بكامله.

قال محمود: «كان كنعان مكية مثالياً جدًّا وبعيداً عن الواقع. لقد أتى إلى بغداد، ورأى أن كل شيء كان مختلفاً».

قال هشام: «كل من كان يعيش في الخارج كان يظن أن العراق مختلف».

قال محمود: «كان هنالك فرق واضح، من أول يوم، بين طريقة تفكير من عاشوا في الداخل وطريقة تفكير المغتربين، يمكنك رؤية ذلك. الآتون من الخارج، التحرريون المثاليون، أرادوا أن يتقلد السلطة أولئك المعتنقون لفكر جيفرسون. كان ذلك شيئاً جيداً. ولكن على الأرض، يوجد أناس مازالوا يعيشون في العصور الوسطى، العشائر والمحرومون والمجرمون والمتدينون. يجب أن يتم استرضاء كل هؤلاء أو أن يفوزوا. لا يمكن استبعادهم ببساطة. نحن نعرف هؤلاء الناس، كنا نعيش بينهم».

في عهد صدام، كلما سافر هشام من بغداد إلى لندن، كان المغتربون هناك يفترضون أنه عميل للنظام. هشام الذي سُجن وحكم عليه بالإعدام بعد أن بدأت كتل البلاط الإسمنتية لنصب الشهداء تلتف من الأطراف بشكل غير متوقع، كان يقول لهم: «بعد أن تقوموا بثورتكم وتتخلصوا من صدام، سيكون هناك مليون بعثي. ماذا ستفعلون معهم؟ هل هم جميعاً أعداء، يجب وضعهم جانباً؟» لم تكن لدى المغتربين إجابات، وإلا لكانت لديهم كلمة واحدة هي اجتثاث البعث. قال هشام: «لم يكونوا مستعدّين لما يواجهون الآن، لم يفكروا في حل لمليون بعثي». وأضاف أن كنعان مكية قد أعطي بعد سقوط النظام دوراً أكبر من اللازم في السياسة العراقية.

قال محمود: «أنا لا أوافقك الرأي، نحن بحاجة إليه في العراق. نحن بحاجة إلى أفكاره».

قال هشام: «أنا أتفق معك، لكن هذا الموقف يجب ألا يحكم البلاد. أنا بحاجة إلى شخص كهذا لأناقشه، لأسمع أفكاره، لأتعلم منه. لكنني لا أستطيع أن أقبله مشرعاً».

قال محمود: «حين تُقطع رؤوس الناس، ويكون هناك كثير من القسوة في البلاد، تكون سعيداً لوجود شخص مثل كنعان مكية؛ لأنه مثالي جدًّا. أفكاره جيدة جدًّا، فنحن بحاجة إليه، ولو كان حالماً».

بعد شهرين، في مارس/ آذار، ذهبت لرؤية مكية في بيته المكسو بالألواح الخشبية في شارع جانبي في كامبريدج. لم يكن هذا هو المكان الذي كان لنا فيه كثير من المحادثات قبل

الحرب: فقد اشترى هذا البيت بعد طلاقه وملأه بالكتب. حين وصلت، كان العمال يضعون الطبقة الأخيرة من الطلاء على الخشب قبل صقل الأرضيات. لم يكن مكية وحده في بيته الجديد. كانت معه ولادة الصراف. قبل ستة أسابيع، كانت ولادة قد حزمت حقيبتين صغيرتين، وتركت زوجها وكل شيء آخر، لتأتي إلى أمريكة وتلتحق بمكية. كان ذلك تصرفاً غريباً فيما يتعلق بامرأة عراقية، لم يستطع أصدقاؤها أن يفهموا لماذا لم تفعل الشيء العادي، بأن تبقي علاقتها سراً وتستمر في العيش على أنها امرأة محترمة في المجتمع العراقي. ولأن الإشاعات تسري الآن في أنحاء بغداد، فقد رفض ابناها الأكبر سناً أن يتكلما معها، وكانت ولادة بائسة. ومع ذلك فقد اتخذت قراراً، وكانت مرتاحة لهذا القرار.

قالت ولادة: «لقد تعبت من الكذب، لم أعد أستطيع التظاهر». كان مكية لا يزال يسافر إلى بغداد ويعود، لكنها كانت تريده أن يتوقف عن الذهاب، لأجلها ولأجله. قالت ولادة: «إنهم منافقون. إنهم يستغلونه، إنهم لا يستحقون شخصاً ساذجاً وطيباً مثل كنعان. أنا أعرف الثقافة العربية، أما هو فلا يعرفها».

ذهبنا لتناول العشاء. كان الثلج يهطل محولاً جوانب الطرقات إلى برك من الثلوج الذائبة. عدت بالذاكرة إلى الليلة المثلجة في كامبريدج عام 2002 حين أمضيت أنا ومكية ساعات ونحن نناقش مستقبل العراق بعد صدام، حين كان كل شيء لا يزال مُنتظراً. كان حالماً، وكان لأفكاره في تلك الليلة نقاء الأفكار غير المدروسة/ غير المجرّبة، التي لا أزال بعد أكثر من عامين أربطها بالثلج الأبيض خارج نافذته. حدث الكثير منذ ذلك الوقت، بحيث لا يمكن أن يبقى شيء نقي. سبق أن رأيت مكية مرات كثيرة، في كامبريدج ونيويورك وواشنطن ولندن وبغداد، لكن لم أستطع أن أصنف مشاعري. كان صديقي وكنت أحبه. كان قد كرّس حياته لفكرة عن العراق كنت أحملها. وقد ربط تلك الفكرة بآلية الحرب، وقد قُتل كثير من الناس. لا تبقى أي فكرة سليمة، بعد أن يلطخها التاريخ بالدماء، والتاريخ لم يتبع مخطط مكية. في بعض الأوقات، كانت رؤيته للعراق مخالفة جدًّا لما رأيت وسمعت هناك، لدرجة أن الحلم بدا غير مسؤول وخطير. أردت أن أعرف ما فعلته به السنتان الماضيتان.

بـدا أن مكية يخمن أفكاري. بينما كنا نتناول حساء العدس، فذكر صديقه مصطفى الكاظمي المغترب الذي التقيته في لندن وعاد إلى بغداد، وكان يعمل الآن في مؤسسة مكية التذكارية. لم يكن مصطفى مثقفاً، لكنه كان واحداً من المغتربين الذين أظهروا حكمة حقيقية حين كان يناقش الحقائق على أرض العراق. كان الأكثر أهمية هو العامل البشري المحيّر. قال مكية، وشعرت أنه كان يتكلم عن نفسه: «لم يكن الاختبار الأكبر الذي واجهه المغتربون العراقيون العائدون اختباراً للأفكار كانت جميع الأفكار أساساً موجودة وصحيحة. نعم الأفكار مهمّة. لكن الامتحان كان امتحاناً للشخصية. وهنا أخفقوا جميعاً في التطبيق العملي». كانت البرامج والتصريحات تهيمن على عالم السياسة في المهجر، بما فيها كثير مما كتب عنه مكية أو وقّع عليه. «لكن في الأداء الفعلي لهذه السياسة منذ إبريل/ نيسان 2003، أصبحت الشخصية الإنسانية فجأة، والميزات الشخصية الفردية، مهمة جدًّا. لم يسقط الناس على وجوههم أو يلمعوا بسبب أفكارهم العظيمة، وإنما لميزات محددة في الشخصية اكتسبت فجأة أهمية كبيرة في الممارسة الفعلية للسياسة في هذه الأوقات الصاخبة جدًّا».

قال مكية: إن الأفكار مثل اجتثاث البعث وحل الجيش لم تكن خاطئة. وهو لا يزال يؤمن بها. لكنه قد أمضى حتى الآن نحو سنتين في العراق، وكان العاملون في مؤسسة الذكرى في بيته في بغداد يفحصون شهرياً بين خمسين ومئة ألف وثيقة من وثائق البعث. أظهرت هاتان السنتان وتلك الوثائق لمكية تعقيد العراق سواء في عهد صدام أو حتى اليوم. كانت الأفكار بحاجة إلى هذه المعرفة البشرية العميقة. كان اللوم غامضاً في الغالب. وكان الناس يقومون بأشياء لأسباب أكثر تعقيداً، وكانت السياسة أضيق من أن تفسر تصرفاتهم وتحكم عليهم جميعاً، فقد كان الفهم الحقيقي يتطلب من مكية حباً حقيقياً، وأدباً.

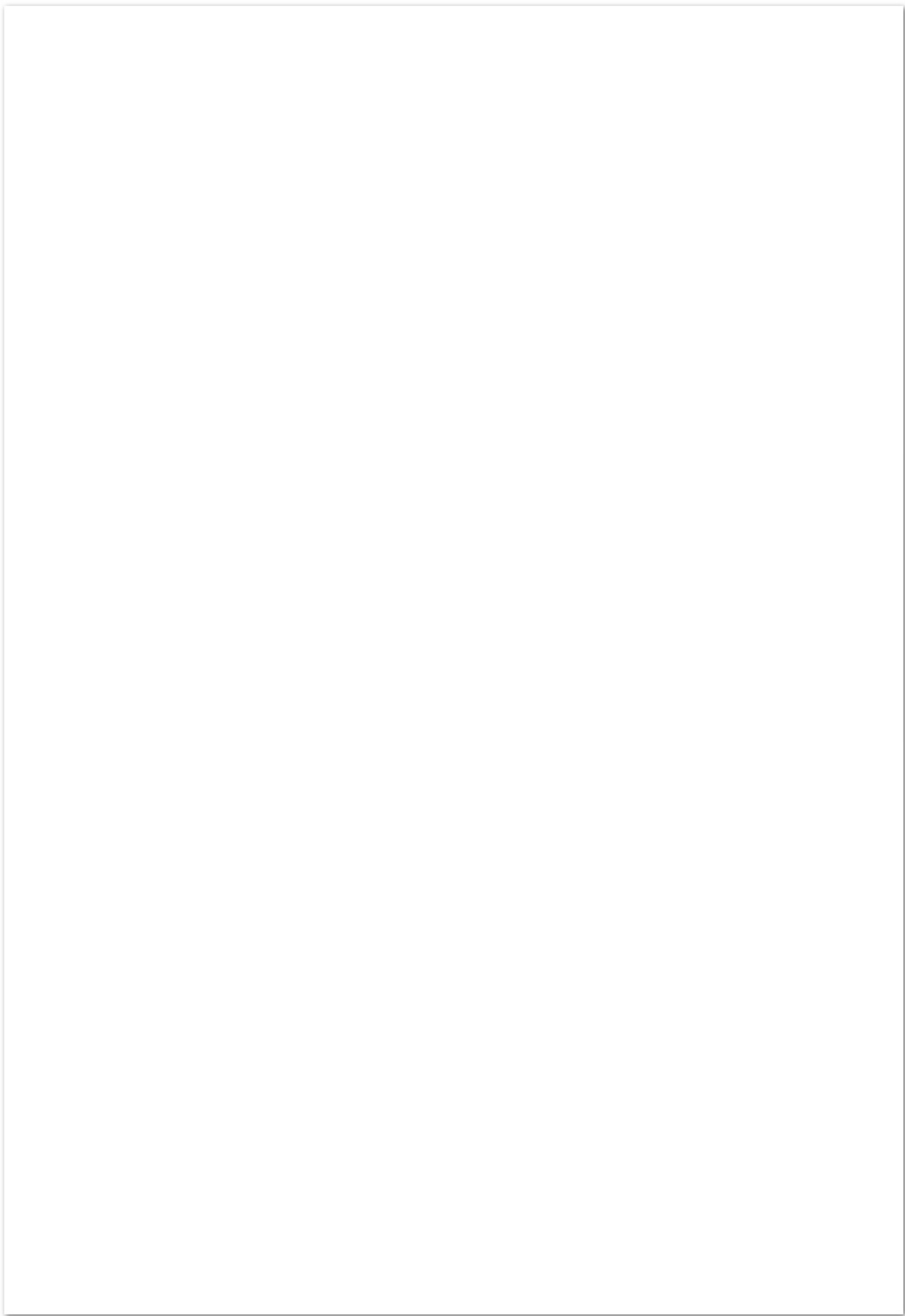
أدرك أنه غير مناسب للسياسة، وانسحب من العراق، وابتعد عن صديقه القديم أحمد الجلبي. كان مكية يضع طاقته في مؤسسة الذكرى التي أجّرتها مدينة بغداد مساحة كيلو متر مربع في وسطها، حيث كان السيفان المتصالبان وأرض الاستعراض تعرض رؤية صدام بكل ما فيها من وحشية. أراد مكية في الواقع أن يقلب معنى النصب رأساً على عقب، جاعلاً منه تذكاراً لضحايا صدام.

بينما كنا نتحدث وضعت ولادة رأسها على كتف مكية. كانت منهكة، وعدنا إلى بيتهما مشياً على الأقدام تحت الثلج. شغل عمال التمديدات الصحية الماء في الحمّام الجديد، وأصرّ مكية بحماسه الذي يميزه أن نشاهده أنا وولادة بينما يفتح الدُّوش. كان رأس الدُّوش موضوعاً في الزاوية، وحين أتت المياه، تناثرت في نصف مساحة الحمّام. ضحكت ولادة قائلة: «هذا هو كنعان».

ذهبت ولادة لقضاء قيلولة، وأعدّ مكية قهوة تركية. بعد وقت قصير، كان سيذهب لإحضار ابنته؛ لتقضي معه عطلة نهاية الأسبوع. وبينما كنا نقف في المطبخ، كان يفكر في مشروعه حول نصب السيفين المتصالبين. كان يأمل أن يزور جيل جديد من العراقيين التذكار بعد أن ينتهي ويعلموا ما تم فعله في بلادهم. لم يرد منهم أن يشيروا بإصبع اللوم، ولكن أن يستخلصوا درساً بشرياً ويقولوا: «يا إلهي، ماذا حدث هنا؟ أي شخص في ظروف معينة يمكن أن يفعل أشياء رهيبة للآخرين. يجب ألا نسمح لتلك الظروف أن تحدث في بلادنا مجدداً». يمكن أن تولد شخصية عراقية جديدة من هذه الاعترافات ومراقبة الذات.

كانت القهوة التركية تغلي وتفور على الموقد.

قال مكية: «أعتقد أن أحمد هو الذي قال عني مرة: إنني أجسّد انتصار الأمل على التجربة».



كلمة ختامية

في شهر يناير / كانون الثاني 2006، مع اقتراب نهاية السنة الثالثة لحرب العراق، وصلتُ إلى بغداد في عيد الأضحى، العيد الذي يأتي في أعقاب الحج إلى بيت الله الحرام في مكة. كانت شوارع المدينة فارغة، إلا من الصفوف الطويلة من السيارات التي تنتظر أمام محطات الوقود، فقد كانت بغداد تعاني أزمة وقود، سببها الأساسي الهجمات على محطات التكرير وأنابيب النفط، مما أدى بدوره إلى زيادة عجز الكهرباء الذي أصبح يقطع التيار الكهربائي الآن ثماني عشرة أو عشرين ساعة يومياً في العاصمة. في الليل، كانت أحياء كاملة يعمّها الظلام. كانت الدوريات الأمريكية أقل مما اعتدت مشاهدته، وكان هناك عدد أكبر من رجال الشرطة والجنود العراقيين عند نقاط التفتيش. كان فندق فلسطين الذي كان من الصعب على الصحافيين والمتعهدين في السنة الأولى بعد سقوط النظام أن يجدوا غرفة فيه، أصبح فارغاً إلا أربعة من طوابقه الثمانية عشر. ففي بداية شهر ديسمبر / كانون الأول كاد انتحاري يقود شاحنة إسمنت محمّلة بالمتفجرات يُسقط البرج، وبعد شهر كانت نوافذ مبنى الإدارة، المقصوفة مغطاة بالنايلون، والأسلاك تتدلى من السقف. كان معظم العاملين في الصحافة الأجنبية قد عادوا إلى بلادهم. جلس المدير وحيداً إلى مكتبه في مبنى الإدارة وكأنه يتوقع عودة الزبائن في أي لحظة. وفي الخارج، كانت هناك لوحة تعرض أسعار المشروبات الكحولية. مرّ بي صبي في نحو العاشرة من عمره، وسألني بلهجة جنوبية عدوانية قد تكون آخر إسهام لجندي أمريكي في تغيير العراق: «هل تبحث عن شيء؟».

شعرت، وكأن الأمريكيين قد تخلّوا عن العراق لمديري الفنادق الذين ليس لديهم عمل، ولأطفال الشوارع، ورجال الميليشيات المسلّحة. يكاد المرء يتخيل أنه بعد ثلاث سنوات من الاحتلال، وبعد عشرات المليارات من الدولارات وآلاف الأرواح والجهود المحمومة التي بذلها الأجانب والعراقيون لانتشال البلاد من تاريخها، انتهى فاصل الرؤى الكبرى، وها هو العراق يعود إلى طبيعته الطائفية والشريرة.

الحقيقــة أن الأمريكيــين لا يزالــون هنا، معظمهــم مختبئ الآن بعيــداً في مجمعات عالية الأســوار أو في الصــحراء في القواعد النائية التي تشــبه المدن الصــغيرة. كمــا أن العراق لم يُعــد شــبيهاً بما كان. لقد كان يدخل حقبــة لم يعرفها العراقيون، وكانــوا يخافونها جدًّا. كان قادتهم المنتخبون في ديسمبر/ كانون الأول 2005 في انتخابات عمّت البلاد ووصلت إلى إجماع المجموعات الثلاث الأساسـية في البلاد، يحاولون تشكيل أول حكومة تمثيلية في تاريخ البلاد، في تلك الأثناء كان العراقيون في كل شارع، وفي كل قرية يقتلون مواطنيهم بأعداد رهيبة.

كان التمــرد الســنّي دموياً بلا هوادة كما كان. وكانت بعض الميليشــيات الشــيعية الآن، المتخفية بمظهر قوات الأمن الرســمية التي اخترقوها، يشــنّون غارات على الأحياء السنّية ويجمعون الشــباب الســنة الذين يختفون في ســجون ســريّة أو يظهرون مقيّدين، معصوبي العيــون، وأمواتــاً في الشــارع أو في قبور ســطحية، وقد أحرقــت جثثهم، وملئــت بالثقوب، وشــوّهت، وأطلــق عليها النــار في الرؤوس. بعد ســنوات من التفجــيرات الانتحارية والقتل الجماعي للمدنيين الشيعة على يد المتمردين السنة، بدأ رجال الميليشيات الشيعية بتجاهل مشورة آية الله السيستاني بضبط النفس، وكانوا ينتقمون، ناشرين الخوف بشكل واسع بين الســنة أول مرة. وفي دورة الانتقام، كان الشــيعة يُطردون من الأحياء ذات الغالبية السنية في غرب بغداد والمدن المختلطة المحيطة بالعاصمة، بينما يقف جيرانهم الذين قضوا معهم شــطراً طويــلاً من حياتهــم دون أن يقولوا شــيئاً. كانت آلاف العائلات المشــرّدة تتجمع في المخيمات والملاجئ حول بغداد، حتى وصــل الأمر إلى حملة للتطهير العرقي في حرب أهلية ذات درجة منخفضة.

كان العراقيون يتجنبون دوماً عبارة «حرب أهلية» كأن مجرد النطق بها قد ينشــر روحاً خبيثة في الجو. وكانوا يصرّون أن الهويات الإثنية والطائفية أُحضرت إلى العراق بعد الغزو علــى يد الأمريكيــين وحلفائهم المغتربين. وكان العراقيون ســابقاً يعيشــون معاً، في عائلات مختلطة وأحياء مختلطة، طوال عقود وقرون. وإشعال حرب أهلية يعني تحويل أسرة واحدة أو زوجــين إلى أعــداء. كانوا يقولــون: إن هذا لا يمكــن أن يحدث هنا، بمعنــى: «لا نريد أن يحدث هذا هنا»، ولم يكن الموضوع موضع ترحاب لدرجة أن حتى ذكر كلمة «سني» و«شيعي»

كانت تعد قلة أدب. لكن بعد ثلاث سنوات من السياسة والعنف الممتد على طول الخطوط الطائفية أصبحت هذه الكلمات تستعمل بشكل مفتوح، مع خوف وكراهية.

أصبح حي الدورة حي الطبقة الوسطى من السنة والشيعة والمسيحيين في جنوب بغداد، نقطة الصفر للعنف الطائفي. بدأ ذلك بقتل الحلاقين، كما أخبرني رجل أعمال من الدورة: قرّر المتطرفون السنة أن حلق اللحى ضد الإسلام، ووسّعوا المنع ليشمل قصات الشعر الغربية. قال رجل الأعمال: «بعد الحلاقين، انتقلوا إلى وكلاء العقارات»، فقد صدرت فتوى بأنه لم يكن هناك بيع أو شراء للعقارات على زمن النبيﷺ. ثم صار بائعو الثلج يُقتلون في الشوارع؛ لأن الثلج لم يكن يباع في القرن السابع. ثم استهدفوا أصحاب محال البقالة، وأصحاب محال الصرافة، وأصحاب محال الثياب. قال رجل الأعمال: «في ذلك الوقت، كانوا يعطون أسباباً، لكن بعد ذلك تطوّرت الأمور وأصبحوا يقتلون دون سبب»، كل يوم في وسط المنطقة، حول السوق الآشورية، كانت تُوزّع شفهياً قائمة بأسماء الدفعة اللاحقة من الضحايا المقرر قتلهم -وهم في الغالب من التجار ودائماً من الشيعة- وأثناء أيام، كان أولئك الذين لا يأخذون احتياطات يُقتلون رمياً بالرصاص في وضح النهار على يد رجال مسلّحين من خارج الدورة. لا يتدخل رجال الشرطة في أقسام الشرطة المحلية، أما الأمريكيون فلا يدخلون المنطقة إلا فيما ندر، على الرغم من أن رجل الأعمال قال إنه يذهب للنوم ليلاً مع أصوات إطلاق الرصاص والطائرات المروحية التي تحوم فوق المدينة وإسقاط القنابل، وكأنه يعيش على الخط الأمامي للمعركة، وقال: «الدورة خارج سيطرة الحكومة»، ولم يبقَ فيها أحد من الشيعة تقريباً.

قال مسؤول عراقي رفيع المستوى على اتصال بالاستخبارات السرّية: إن حملة القتل في الدورة هي جزء من جهد إستراتيجي من المتمردين السنة «لإعادة تشكيل أرض المعركة»، لإخلاء المنطقة من الأعداء المحتملين واستخدامها منطقة إستراتيجية للهجمات في بغداد. كان في الدورة بنية تحتية أساسية -مصفاة النفط ومحطة توليد الكهرباء- وهي تقع على الطريق من المناطق التي تهيمن عليها العشائر السنية جنوب بغداد إلى قلب المدينة. وقال المسؤول: إن أعمال القتل هناك جزء من أسلوب، ينتقل من الهجمات على الوحدات العراقية والأمريكية التي كانت تعرّض المتمردين لمخاطر كبيرة إلى قتل الأفراد من المسؤولين

والمواطنين العاديين، بهدف زعزعة ثقة الشعب بقدرة الحكومة على حمايتهم. وقال: إنه في شهر يناير/ كانون الثاني، كان هناك سبع مئة من هؤلاء القتلة ذوي الدم البارد، وهو الرقم الأعلى في مدة الحرب حتى ذلك الشهر. «لذا فقد يكون عام 2006 عام الاغتيالات والهجمات على البنية التحتية».

مهما كانت الأسباب الإستراتيجية لأعمال القتل، فقد خلقت هستيريا طائفية لم يعرفها سكان بغداد من قبل.

التقيت جزّاراً اسمه محمد كريم جاسم، يملك متجراً في طريق مزدحم، كان المدخل مسدوداً بالخراف المذبوحة المعلّقة. وكان أخوه جزّاراً أيضاً، ولديه محل في الدورة. في صباح أحد أيام شهر يناير/ كانون الثاني، كان أخوه يقطع اللحم لزبونتين حين دخل رجل إلى المحل، واستأذن من المرأتين، وتقدّم إلى الطاولة قائلاً: «صباح الخير». نظر الأخ إليه وقال: «صباح الخير»، وقُتل برصاصة في أنفه. أسرع ابنه إلى الغرفة، وهو يصرخ: «أبي، أبي!» فقُتل هو أيضاً. وجاء أخوه الثاني، وهو جزار أيضاً، جرياً من محل مجاور وبيده سكين؛ فأردي قتيلاً أيضاً.

حين جلست بعد عشرة أيام مع الأخ الذي نجا، وهو رجل شجاع ملتحٍ في الخمسينيات من عمره، كان يلهث من الغضب. «الأوغاد القذرون. ليس لهم إيمان ولا قادة دينيون، منذ عهد أبي بكر وعمر حتى الآن»، قال الأخ، عائداً إلى القرن السابع مباشرة: «السبب الوحيد لذلك هو أننا شيعة وأننا نحب الإمام علي». عبّر عن مرارة كبيرة، لأن القادة السياسيين والدينيين السنة نادراً ما يدينون قتل الشيعة، وكان يائساً من حماية القوات الأمريكية أو قوات الأمن العراقية. تنهّد الجزّار وقال: «لو أعطى قادتنا الدينيون فتوى، لما بقي هناك سنة في العراق. فمن يبقى منهم سيُقتل، كان على الجميع أن يغادروا؛ لأن الجميع هنا كسير القلب. أتمنى لو أستطيع أن أمسكهم بيديّ وأذبحهم. أنا أستطيع ذلك، فأنا جزّار».

لكل مجموعة قصة عن وقوعها ضحية، في منافسة شرسة مع مجموعة أخرى. في أحد الأيام، زرت مقر الحزب الإسلامي العراقي في غرب بغداد، وهو أكبر الأحزاب السنية

في البلاد، وله جذور في الإخوان المسلمين. كان على جدران مكتب حقوق الإنسان في مقر الحزب صور لجثث تحمل علامات تعذيب، على يد قوات وزارة الداخلية، حسب قول مسؤول في الحزب. وبينما كنت في المكتب، وصل زوجان عجوزان في حالة ذعر. فقبل أسبوع، في الساعة السادسة صباحاً، اقتحم خمسة عشر رجلاً من كوماندوز الشرطة بيتهم وعلى وجوههم أقنعة سوداء، وأخذوا ابنهما من فراش الزوجية. ومنذ ذلك الوقت لم يستطع الوالدان الحصول على أي معلومات عنه. وصفت المرأة العجوز رجال الكوماندوز بأنهم من عناصر منظمة بدر، أكبر الميليشيات الشيعية في العراق. كان أحد قادتها، بيان جبر، وزيراً للداخلية في السنة الماضية واتُّهم بالسماح للميليشيات الشيعية بالتسلل إلى المكاتب المهمة في الوزارة، وإحداث وحدات شريرة ضمن قوات الشرطة. وأصبح السنة الآن بشكل روتيني يدعون السياسيين الشيعيين مثل بيان جبر بالإيرانيين؛ حتى إن الأم أسمته باسم فارسي. وصاحت الأم: «عمري خمس وخمسون سنة ولم أرَ شيئاً كهذا. إنهم يأتون به من إيران، من الفرس، إيران، التي تحاول الآن الحصول على القنبلة الذرّية لتدمير العالم».

قال مسؤول الحزب عمر هاشل الجبوري للزوجين: إنه سيتصل بوزارة الداخلية للاستعلام عن الموضوع، ولمنع قتل ابنهما في أثناء التحقيق والتعذيب. وقال: إن هناك مئة شخص يأتون إلى مكتبه كل يوم لتقديم شكاوى، وإن كثيراً منهم قد نام على السرير الذي في زاوية الغرفة. وقال: «المشكلة الرئيسة هي أن إخواننا الشيعة بارعون في البكاء على معاناتهم. أما نحن الآخرون فلسنا بهذه البراعة».

كان العراق يتفكك، ليس إلى ثلاث مناطق مستقلة، كما يحلم بعض السياسيين، وإنما حي بعد حي، إلى آلاف القطع. لم يكن هذا صحيحاً فقط في بغداد والمناطق المحيطة بها، أو في المدن المختلطة كالموصل وكركوك، وإنما في الجنوب أيضاً. فانتخابات يناير / كانون الثاني 2005، التي صنعت للمواطنين العراقيين يوم انتصار واحد، أعطت القوة للمجموعات الشيعية التي كانت تحكم كمنظمات مافيا، وليس بوصفها أحزاباً وطنية. بعد عام، أصبحت البصرة مليئة بالميليشيات: أجزاء من منظمتي الصدر وبدر، مع عصابات غامضة ذات إدارة إيرانية، ولكل منها رجل دين خاص بها، حتى أصبحت تسمى فرق الموت، واستلمت

إدارة الشوارع. وقد روى لي مسؤول التقيته في أثناء الانتخابات في البصرة أن خمسين شخصاً -من الأطباء والمدرّسين والمسؤولين وطلاب الجامعات- تم اغتيالهم في يوم واحد في أنحاء المدينة. كانت فرق الموت تتحرك في أزواج من السيارات التي تعرف باسم بطة، وقد كتب مسؤول: «لهذه السيارة قصة مروعة، وعلى أي شخص أن يتجنب هذا النوع من السيارات، التي لها نوافذ زجاجية سوداء، وبها أربعة رجال مسلّحين، ودوماً هناك سيارة أخرى تتبعها، ويجلس فيها بعض الأشباح غير المرئيين»، وفي صباح أحد الأيام، بينما كان المسؤول يقود سيارته إلى العمل، وجد نفسه عالقاً بين سيارتين من نوع بطة، وحين خرج المسلّحون بهدوء واقتربوا منه، ظن أن فرق الموت قد أتت لاغتياله، لكنه شاهد إعداماً للرجل في السيارة التي بجانب سيارته. وكتب: «هناك آلاف الناس مثلي. نحن في العراق قلوبنا من خشب، وعيوننا مليئة بالرمل، ونحن كالخراف تحت أمر الراعي، في انتظار سكين الجزّار».

كان تفكك العراق قد بدأ منذ وقت طويل، وقد بدأ بشكل ما قبل عبور الأمريكيين للحدود الكويتية في آذار 2003. لكن في عام 2006 كان يحدث بسرعة تنذر بالخطر، وكانت له جميع الإشارات التي تدل على أنه لن يتوقف. وأصبح العراقيون الذين كانوا يقولون: إن العراق بحاجة إلى سنة أو اثنتين ليخرج من العنف، ولكنهم يتحدثون عن عقد من الزمن أو أكثر، مما يعني جيلاً من الفوضى بعد أجيال الاستبداد.

لم يتوقف العراق يوماً عن تقديم التناقضات. فقد أسهمت السياسات والتكتيكات العسكرية الأمريكية في زيادة قوة التمرد وانتشار العنف الطائفي الذي أعقبه. ومع ذلك، في الشهر نفسه الذي رأيت فيه كم تدهورت بغداد، رأيت أيضاً دليلاً على أن الجيش الأمريكي كان يتعلم أخيراً كيف يحارب التمرد بطريقة فاعلة. في مدينة تلعفر التي تقع في الشمال الغربي، التي سقطت مراراً في قبضة المتطرفين السنة بعد إخفاق الأمريكيين في السيطرة عليها، أمضت كتيبة مسلحة من سلاح الفرسان بقيادة كولونيل متألق اسمه هـ. ر. ماكماستر، معظم عام 2005 في المدينة، وهي تقوم بتطوير العلاقات مع السكان المحليين، وتدريب شركائها في الجيش العراقي، وتتدرب على الإستراتيجية التقليدية لمكافحة التمرّد، وتفصل المدنيين عن التمرد، وتقدّم الأمن وتنشئ المؤسسات الحكومية التي تستطيع أن

تكسب دعماً شعبياً. كان هذا كله يتطلب وجوداً كبيراً طويل الأمد للأمريكيين في المدينة واستعداداً للمخاطرة وتحمل الإصابات. كان ماكماستر والضباط الشباب في كتيبته قد تدربوا على هذا المنهج في كولورادو وتولّوا مسؤوليته في تلعفر بمبادرة خاصة منهم، بصفته ثورة ضد الإخفاق الفكري لقادتهم المدنيين والعسكريين رفيعي المستوى. في تلعفر التي كانت كالفلوجة في الشمال، استطاعت القوات الأمريكية والعراقية أن تحقق سلاماً هشاً. وقد رأيت ما كان يمكن أن يحدث لو تم القيام بهذه الأمور منذ البداية.

كان الإنجاز قليلاً ومتأخراً. فبعد سنوات الأخطاء والإستراتيجية المفككة من البنتاغون والبيت الأبيض، ضعف نفوذ أمريكة في العراق بشكل كبير. كان عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين الذين لا يزالون هناك، الذين كانوا يُقتلون فرادى أو ثنائيات، يتمسكون بأماكنهم، ويحاولون صدّ الهجمات، في محاولة لتشكيل حكومة وطنية، حتى تستطيع أن تصبح حقيقة واقعة على الأرض، بينما يقومون بمكافحة أسوأ أشكال التمرد: خيال الحرب الطائفية الكاملة والحرب الإقليمية التي يمكن أن تستنفد الشرق الأوسط كله، وتترك العراق في قبضة الميليشيات والإرهابيين والجيران اللصوص. قد تكون أمريكة قادرة على تجنّب أسوأ ما في العراق، لكن ليس هناك أمل في بلد مستقر ومحترم قبل سنوات من الآن. كانت هذه الفرصة تضيع حين ذهبت إلى هناك أول مرة في صيف عام 2003 المليء بالأمل والمتاعب؛ أما الآن فكانت قد ضاعت منذ وقت طويل.

أثار إخفاق السياسة الأمريكية في العراق أكبر الأسئلة وأصعبها عن الحرب. هل كان التمرد لا مفر منه؟ هل يمكن توقع بقاء مجتمع معطوب ومفكك كهذا جزءاً واحداً، إن لم نقل إيجاد طريقة للديمقراطية؟ فهل كان من الممكن لإدارة الرئيس جورج بوش أن تنجح في مشروع صعب كهذا، يتم إنجازه بمثل هذا التكبر والعمى، مع قليل من الأصدقاء وكثير من الاستخفاف بالمجتمع الدولي؟ وقد ثبت أن السبب المعلن للحرب -وهو أسلحة الدمار الشامل والارتباطات بالإرهاب الدولي غير صحيح- أو مبالغ فيه. هل كان من الممكن لأي سبب آخر -كإنقاذ بلد كانت أمريكة توقعه في المكائد منذ سنوات، أو إنهاء الاستبداد، أو بداية لإصلاح عربي- أن يسوغ ذلك؟

ما زال من الممكن تحقيق أهم آمال مهندسي الحرب في أثناء جيل أو جيلين، وأن يؤدي تغيير النظام في العراق إلى تقدّم الديمقراطية وتراجع التطرف في الشرق الأوسط. لكن صنّاع السياسة خاضعون للمساءلة ضمن معايير هيئاتهم الرقابية. أما في الوقت الحاضر، وفي المستقبل المنظور، فقد تضررت المصالح الغربية الأمريكية والليبرالية بشكل بالغ، بسبب حرب العراق. كانت الحرب كارثة لجيشنا الذي عانى القتل والإصابات المحزنة، وخسر الكثير من شرفه في «أبو غريب»، وفي موت عدد كبير جدًّا من المدنيين العراقيين، ووصل إلى نقطة قد يكون فيها الانسحاب ضرورياً ببساطة بسبب نقص القوات. قام معظم الجنود بكل ما طُلب إليهم، لكن كثيراً من أفضلهم -بمن فيهم جون بريور- قرّروا أن يتركوا مؤسسة يحبّونها. تميز الإخفاق في العراق بقلة المساءلة في واشنطن التي أرسلت أخيراً عدداً من الجنرالات المتقاعدين الكتومين للقيام بشيء لم يسبق له مثيل تقريباً في التاريخ العسكري الأمريكي: أن يتحدثوا علناً، ويشيروا بإصبع اللوم إلى مديرهم السابق، دونالد رامسفيلد.

يسهل تقدير التكاليف المباشرة التي تحملتها الخزينة الوطنية، التي تجاوزت الآن 300 مليار دولار، أما انهيار التحالفات، وخسارة القوة والسمعة الأمريكية، واستنزاف الاهتمام والموارد من أزمات أخرى، ولا سيما النزاع ضد الخطرين المتلازمين في العالم، وهما الجهاد والانتشار النووي، فهي خسائر صعبة التقدير، لكنها لا تقل واقعية. أثبتت نتائج الحرب أنها كانت خطأً كبيراً، لا يحدث إلا مرة كل بضعة أجيال.

أنهت حرب العراق عصر التدخل الإنساني الذي ساعد في جعلها قابلة للتفكير فيها. كشفت الحرب عما كان واضحاً مسبقاً للجنود ذوي الخبرة وكان يجب أن يكون واضحاً أيضاً للمثاليين المدنيين، وهو أن الهدف الأخلاقي المصحوب بالقوة، دون المعرفة والحكمة، يمكن أن يكون أكثر خطورة من غير المبالاة. لا يمكن معرفة نتائج أي حرب، باستثناء الموت الذي لا مفر منه، وقد كانت الأرض في العراق لا تساعد في بناء شيء جيد ومتين. إن الحرب لإنهاء الاستبداد هناك -وإن كان وحشياً كاستبداد صدام حسين الذي تتحمل الولايات المتحدة مسؤولية تاريخية عنه، أولاً بتسليحه ضد إيران، ثم بتركه في السلطة عام 1991، وأخيراً بفرض العقوبات التي دمّرت حياة ملايين العراقيين- يجب عدم القيام بها كما كانت بشرعية قليلة في نظر العالم. ليس هناك شيء لا مفر منه؛ فالبشر المنظمون في

أنشـطة تدعي السياسـة والحرب، يجعلون الأمور تحدث بالشكل الذي تحدث به، وربما كان من الممكن أن يتحول العراق على نحو مختلف لو تصرف البشر المعنيون بشكل مختلف. لكن الحرب أداة غير حادة، بحيث يجب عدم استخدامها، حين تكون فرص النجاح ضئيلة.

أثارت الحرب وجهة نظر مشـككة جـدًّا: بأن العراقيين كانوا دومـاً عاجزين عن العيش معاً، وعن تشـكيل أمة، وإنشاء ديمقراطية؛ وأن لديهم الثقافة الخطأ. صحيح أنه ما إن رُفع الغطـاء حتى ظهـر أن العراق أكثر تديناً وأكثر قبلية وأكثر غموضـاً وأكـثر عنفاً مما تخيّله معظـم الغربـاء. لم يكن لهذا علاقة بشـيء موروث وثابـت يدعى «الثقافـة العراقية» بقدر مـا كان لـه علاقة بتاريخ حكومة بالقوة، مـن الحدود العراقية التي رسـمها الأوروبيون إلى الضـرر الذي أوقعته خمس وثلاثون سـنة من حكم البعثيين. فإذا سـيطرت الفئات الأفضل تسـليحاً والأقل تسـامحاً على عراق ما بعد صـدام، فلا يمكن لهذا أن يعكس الإرادة الحرة للشـعب العراقي. كان الخطأ الأصـلي للأمريكيين هو إيجاد الظروف المواتية للفوضى. من لحظة سـقوط النظام السـابق لم يسـلم أحد من التخويف العنيف، وكانت المسـألة مسـألة وقت فقط حتى أصـبح المتمردون والميليشـيات أقوياء. لم يسمح للمواطنين العراقيين، مهما كان المجتمع الذي أرادوا أن يعيشـوا فيه -الذي لم يكن كثير منهم يعرفونه بعد- بممارسـة فـن المواطنة. أظهـرت الانتخابات الثلاثة عـام 2005 أن العراقيين قادرون على الشـجاعة والنضوج السياسـيين، لكن الانتخابات أقرّت أيضاً ما أصبح أمراً واقعاً في الشوارع مسبقاً؛ فالعنف الطائفي أدى إلى تصـويت طائفي. تبع حكم المسـتبد حكم المسـلّحين. حين أخفق الأمريكيون في ضـمان أمن العراق، أخفقوا أيضـاً في إعطاء العـراقيين الحـرية الحقيقيـة لتقريـر مستقبلهم بأنفسهم.

سـواء كان ذلك للأفضـل أم للأسوأ، فإن مصـيرنا مرتبط بمصيرهم الآن. لا يمكن أن يكون هناك انسـحاب على مراحل من العراق المسـتقبلي. يبدو أن الانسحاب الكبير للقوات الامريكية في عامي 2006 و2007 كان حتمياً. سواء حصل وفق جدول زمني قرره السياسيون الأمريكيون، عبر خطة تمت مناقشتها بين الحكومتين الأمريكية والعراقية، أو حسب نصيحة قـادة الجيشـ تحت الضـغط الكبير لإظهـار النجاح علـى الأرض، فإن للانسـحاب علاقة بالسياسـة الأمريكيـة أكثر من علاقتـه بالحرب في العراق. إن النقاش في واشـنطن مغطى

بالتحيّز والوهم، لدرجة أنه لم يعد له معنى تقريباً. وكي يكون للعراق أي فرصة حقيقية للاستقرار سيكون هناك حاجة لبقاء أعداد كبيرة من القوات في العراق، تشترك بشكل كبير في الأمن وإعادة الإعمار، سنوات قادمة. ربما ستقرر الحكومة الأمريكية أن الالتزام الأمريكي واسع النطاق قد حقق كل ما يستطيع في العراق، وأن مصالحنا الوطنية تتطلب نقل القوات إلى الكويت أو قطر، حيث تحاول تأمين موارد النفط، ومنع الدول المجاورة من التجاوز، والتصرف بصفة قوة تدخل فقط كملاذ أخير إذا حقق التمرد مكاسب كبرى، وكانت الحكومة العراقية توشك على السقوط. وإذا جاء ذلك اليوم، فلن يكون له علاقة بالنجاح في العراق. ستعلن الإدارة الفوز، وتعلن المعارضة التبرئة، لكن العراقيين سيعرفون أنهم تُركوا لتسوية أمورهم فيما بينهم. وعلى الرغم من أن الوجود الأمريكي في العراق قد أثار الاضطراب في الشرق الأوسط، فإن مغادرة الأمريكيين الآن لن تؤدي إلا إلى تحسين وضع القوى الإقليمية -إيران والسعودية وتركية- وتغريهم لملء الفراغ الذي خلّفته. كما أن هناك احتمالاً كبيراً أن يصبح غرب العراق خارج السيطرة الحكومية سواء العراقية أو الأجنبية، ويصبح قاعدة لعمليات الجهاد الإقليمية. كما أن محاولة إقامة حكومة تمثيلية وجمع العراق ضد قوى العنف والتقسيم سيكون لها نتائج دائمة للأمريكيين، أكبر كثيراً من نتائج فييتنام. ففكرة أننا نستطيع سحب قواتنا والاكتفاء بذلك، تاركين العراقيين لحلّ أمورهم، ضرب من الخيال.

أظهر العراقيون صبراً ومرونة في أثناء الكابوس الجديد الذي وجدوا أنفسهم فيه بعد أن صحوا من كابوس صدام، وهي صفات اكتسبوها من سنوات المعاناة الطويلة، وهذا أحد المصادر القليلة للأمل التي أستطيع أن أجدها في العراق اليوم. فالناس البسطاء الذين أعرفهم هناك ويتوقون لعيش حياة لائقة، دون تفجيرات انتحارية أوانقطاع للتيار الكهربائي أو شرطة سرّية، يجعلون من الصعب علي أن أكتب عما يجري على أنه كارثة لا علاج لها. استغرقت وقتاً طويلاً؛ حتى أستطيع التفكير في الأسئلة التاريخية الكبرى المتعلقة بالحرب؛ فهي بحاجة للبعد عن الأمل والمعاناة في العراق، وهذا ما لم أستطع تحقيقه. فما إن سقط النظام، وبدأت بالسفر إلى هناك، حتى سقطت جميع الحجج حول ميزات الحرب. كان الأكثر أهمية هو الصراع الذي يتم تمثيله في أرجاء العراق، ولم يكن لدي شك في المكان الذي

يقع فيه تعاطفي: كنت أريد أن يكون لدى العراقيين فرصة لعيش حياة لائقة كانوا قد حُرموها طويلاً. كنت أريد ما أطلق الغزو الأمريكي العنان لنجاحه. كما كنت أريد أن أفهم سبب إخفاقه، لكن مشاعري جعلت الانفصال الذي يحتاجه التحليل الموضوعي أمراً مستحيلاً.

بسبب كل الرعب الذي يسود الحياة اليومية في بغداد، أردت دائماً أن أعود إلى هناك، حين كنت هناك لم أكن أرغب في المغادرة. كان هناك شيء مثير بشكل غريب حول المكان حتى بعد أن بدأت أسوأ أعمال العنف. كانت اللقاءات بالناس أقوى، وكانت العلاقات تتشكل بسرعة، والمحادثات تسير مباشرة نحو الموضوع، لم يخجل العراقيون الذين عرفتهم من التعبير عن المشاعر القوية، وكذلك الأمريكيون، بمن فيهم الجنود. وكان الناس الذين لم يمضِ على تعارفهم إلا وقت قصير مستعدين أحياناً للمخاطرة بحياتهم لأجل بعضهم. وكانت الأخبار في العراق مليئة بوحشية لا يمكن التحدث عنها، لكن تجربتي هناك تميزت بالكرم واللطف بقدر أكبر كثيراً، وكنت دوماً أجد صعوبة في أن أترك ورائي أصدقاء عليهم مواصلة الحياة هناك، وتصبح حياتهم في خطر يزيد كل يوم.

وصلت إلى شعور بأن ردّ الفعل تجاه أحداث السنوات القليلة الماضية لم يكن التسويغ أو اللوم، وإنما مجرد الحزن على آمال وتضحيات العراقيين والأمريكيين على حد سواء. ليست حرب العراق مناظرة يتم ربحها أو خسارتها؛ إنها مأساة.

في شارع هادئ شرقي بغداد، خلف حديقة ذات كراسٍ مرتبة في صفوف وسط العشب، كان هناك بناء صغير عادي من طابقين. كانت اللوحة التي على بابه الأمامي التي كتب عليها «مركز الجنة» لا تكاد ترى من الطريق، للمحافظة على السلامة. وقد تلقى د. باهر بطي، مدير العيادة، تحذيراً من أصوليين مجهولين بأن الجنة لا يمكن أن توجد على الأرض.

في الأعوام الثلاثة التي عرفته فيها، كان د. بطي يشكك بشكل دائم ومتزايد بدوافع الأمريكيين والسياسيين العراقيين والقادة الدينيين والدول المجاورة للعراق؛ ومع ذلك فقد تابع بإصرار كبير الفكرة الأولى التي خطرت بذهنه بعد سقوط النظام السابق: كان يريد أن يفتح «عيادة نفسية لإعادة التأهيل» تعيد بناء إنسانية أبناء بلده. كان د. بطي يؤمن بأن العراقيين بحاجة أن يتحدثوا ويفكروا ويتسامحوا بعد عقود من الديكتاتورية والحروب

والعقوبات والاحتلال. قدّم عرضاً لإقامة العيادة إلى سلطة الاحتلال والوزارات العراقية المتعاقبة، لكن أحداً منهم لم يقدّم له الدعم. وفي عام 2005، تبرّع مالك صحيفة في بغداد بالمال، وفي يناير 2006، قبل زيارتي مباشرة، تم افتتاح مركز الجنة أخيراً.

في غرفة الانتظار، علّقت رسومات تجريدية ذات ألوان زاهية رسمها المرضى. وفي أعلى الدرج الضيق، كانت هناك عدّة غرف انتظار صغيرة، خطط د. بطي أن يقيم فيها محاضرات، وأمسيات شعرية ودورات تدريب على الحاسوب واجتماعات لمجموعات الصحة العقلية النسائية. كان المركز متواضعاً وقليل الأثاث، لكنه كان يعطي شعوراً بأنه واحة للسكينة وسط القبح والعنف الطاحن في بغداد. قال د. بطي: «إذا كسبنا العناية الإنسانية لمرضانا فسيكون انعكاس ذلك حركة إنسانية في المجتمع كله، هذا المكان ليس مجرد معهد علمي. إنه أيضاً مكان للأدب والفن. نحن نحاول تثقيف الناس في مجال الاتصالات».

كان د. بطي يعيش في الدورة، الحي المختلط في جنوب بغداد الذي يسود فيه العنف بشكل خاص. «لا توجد اشتباكات مباشرة في الشوارع، لكن حين يُقتل واحد أو اثنان من معارفك كل يوم، فهذه حرب أهلية». كان معظم أصدقائه وزملائه يغادرون العراق، مع غالبية الطبقة المتعلمة في البلاد.

حين جلسنا في مكتبه، نحتسي الشاي، قال لي: «دعني أخبرك عن صراعي». كان صراعه بسيطاً: بين البقاء أو الرحيل. في أيار 2005، تعرّضت ابنته الصغيرة لإصابات بالغة حين أصيبت حافلة مدرستها بسيارة مفخخة. بعد ذلك أصرّت زوجه على أن تنتقل العائلة إلى أبوظبي. ومع ذلك كان د. بطي قد حقق أخيراً شيئاً ملموساً في العراق، وكان الرحيل الآن كالتخلي عن طفل. قال بطي: «أشعر كأنني شخص قُطع من جذوره».

كان قرار د. بطي يعتمد ما سيحدث في الأشهر القليلة القادمة، وعلى تشكيل حكومة جديدة. لم يكن لديه كثير من الأمل بالتحسن في أي وقت قريب، لكنه كان يبحث عن إشارة على الاستقرار. أضاف بطي: «وإلا فإنها ستتحول إلى حرب أهلية، وسنخسر كل شيء، ولن يكون هناك شيء يمكن فعله هنا. إما أن يحدث شيء هذه السنة أو لن يحدث أبداً، لا يعتقد أي من العراقيين بأن عليكم الرحيل غداً. صدّقني. حتى القادة السنيين، إنهم يعلنون ذلك

في وسائل الإعلام، لكن ذلك للاستخدام الشعبي، إن جاز التعبير. إنهم يعرفون أننا لا نستطيع أن نجعل الجيش الأمريكي يغادر البلاد الآن؛ لأن جورج بوش قد أحدث الفوضى، وعليه أن ينظفها، اعذرني لقولي ذلك». استهجن وابتسم بطريقته المتألمة: «لقد ارتبطنا مع المحتلين بزواج كاثوليكي. ولا يمكن الحصول على الطلاق».

مشى معي إلى الحديقة التي أضاءتها الشمس. كانت هناك سيارة تمرّ أمامنا ببطء. وقد نسيت ساعةً أن أخاف، ولأننا كنا نودّع بعضنا فقد كنت متردداً بالذهاب. في السابق كنا نتصافح دوماً، لكن هذه المرة قبّلني د. بطي من وجنتيّ، حسب الطريقة العراقية. ربما شعر، كما شعرت، أننا قد لا نلتقي مجدداً إلا بعد وقت طويل.

أيار 2006

تنويه بالمصادر

هذا الكتاب هو كتاب إخباري بشكل أساسي. وقد سمح لي عشرات الأمريكيين والعراقيين وغيرهم بأن أقابلهم وأتبعهم وأتعلم منهم. أعطاني بعض الأشخاص ساعات كثيرة أو حتى أياماً من وقتهم. إنهم أكثر من أن أذكر أسماءهم جميعاً هنا، وبعضهم قد لا يريد ذلك؛ لذا سيبقى الشكر الذي سأنشره شاملاً ودون ذكر أسماء.

بالإضافة للمقابلات، اعتمدت على تغطية الصحافة العالمية للحرب على العراق للحصول على المعلومات، وخاصة The New York Times، The Washington Post ، Los Angeles Times، The Boston Globe، Newsweek، Time، The New Yorker، The Atlantic Monthly، Knight-Ridder، The Associated Press، Reuters، The Telegraph، The Guardian، و The Observer، Le Monde، Corriere della Sera، The Daily Star of Beirut، the Stanhope Centre's Iraqi Media Developments Newsletter و Iraqi Press Monitor التابع لمعهد أخبار الحرب والسلام. كما ساعد تنيس المنشورات والمواقع الإلكترونية لمركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ومجلس العلاقات الخارجية، ومعهد الولايات المتحدة للسلام، ومؤسسة بروكينغز، والمعهد الملكي للشؤون الدولية، ومعهد الشرق الأوسط للبحث الإعلامي. كما أنني أقرأ بانتظام عدداً من المواقع العراقية الخاصة على الإنترنت، وخاصة www.healingiraq.blogspot.com، كما استفدت من المعلومات والروابط على موقع www.andrewsullivan.com، www.juancole.com، وwww.warandpiece.com، و موقع «Iraq'd» على The New Republic.

وكذلك كانت الكتب والمقالات الآتية مفيدة أيضاً:

- Fouad Ajami, The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey. New York: Pantheon, 1998.

- Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. London, Saqi Books, 2004 (3rd edition)

- Gertrude Bell, The Letters of Gertrude Bell: Vols. I and II. London: Ernest Benn, 1927.

- Paul Berman, Terror and Liberalism. New York: Norton, 2003.

- Richard A. Clarke, Against All Enemies: Inside America's War on terror. New York: Free Press, 2004.

- Ivo H. Daalder and James M. Lindsay, America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy. Washington, D.C.: Brookings Institution Press, 2003.

- Larry Diamond, Squandered Victory: The American Occupation and the Bungled Effort to Bring Democracy to Iraq. New York: Times Books, 2005.

- David Dudley, "Paul's Choice," Cornell Alumni Magazine, July/August 2004.

- James Fallows, "Blind into Baghdad," The Atlantic Monthly, January/February 2004.

- Franklin Foer and Spencer Ackerman, "The Radical," The New Republic, December I, 2003.

- David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East. New York: Henry Holt, 1989.

- Thomas X. Hammes, The Sling and the Stone: On War in the 21st Century. Osceola, WI: Zenith Press, 2004.

- Seymour M. Hersh, Chain of Command: The Road from 911/ to Abu Ghraib. New York: HarperCollins, 2004.

- Robert Kagan, Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order. New York: Knopf, 2003.

- Robert Kagan and William Kristol (eds), Present Dangers: Crisis and Opportunity in American Foreign and Defense Policy. San Francisco: Encounter Books, 2000.

- Mark Lilla, "Leo Strauss: The European" and "The Closing of the Straussian Mind," The New York Review of Books, October 21 and November 4, 2004.

- Kanan Makiya, Cruelty and Silence: War, Tyranny, Uprising, and the Arab World. New York: W. W. Norton, 1993.

- Republic of Fear: The politics of Modern Iraq. Berkeley: University of California Press, 1991 (rev. ed).

- James Mann, Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet. New York: Viking Books, 2004.

- Jane Mayer, "The Manipulator," The New Yorker, June 7, 2004.

- Yitzhak Nakash, The Shi'is of Iraq. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

- David Rieff, "Blueprint for a Mess," The New York Times Magazine, November I, 2003.

- Micah L. Sifry and Christopher Cerf (eds), The Iraq War Reader: History, Documents, Opinions. New York: Touchstone, 2003.

- Sam Tanenhaus, "Bush's Brain Trust," Vanity Fair, July 2003.

- Charles Tripp, A History of Iraq. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2002 (2nd ed.).

- Lawrance Weschler, Calamities of Exile: Three Nonfiction Novellas. Chicago: University of Chicago Press, 1996.

- Bob Woodward, Plan of Attack. New York: Simon & Schuster, 2004.

- David Wurmser, Tyranny's Ally: America's Failure to Defeat Saddam Hussein. Washington, D.C.: American Enterprise Institute Press, 1999.



شكر وتقدير

إنني بادئ ذي بدء ممتن لجميع العراقيين الذين عملوا معي في تلطيف الظروف في العراق. يمكن هنا أن أذكر عمر عبد القادر، وعلي فاضل، وعلي حسين، وقيس الجليلي، ودحيا اللامي، وعمر صالح، و«سروان». فقد حافظوا على حياتي، وأتاحوا لي معرفة بلادهم، ولهم شكري العميق لذلك. كما أنني ممتن لكرم أصدقائي في مكتب بغداد للإذاعة الوطنية ومجلة The New York Times. وأشكر كذلك توم رودز وتمام زيدان في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية على كرمهما في البصرة. وقد كانت رانية قدري في عمان تقوم بإدخالي إلى العراق وإخراجي منه بأمان.

قام المحرّرون في مجلة The New York Times أولاً بلفت انتباهي لقصة العراق، ولذلك أشكر كاثرين بوتون، وميغان ليبرمان، وجيري مارزوراتي، وآدم موس. كما أنني أدين بالكثير في رحلاتي الأربع إلى العراق وفرصة الكتابة عن الموضوع بشكل مطوّل وعميق لمجلة The New Yorker، وخاصة رئيس التحرير ديفيد ريمنيك، ولدوروثي ويكيندين، ولرئيس التحرير في مجلّتي دانييل زاليوسكي. وأشكر أيضاً فيرجينيا كانون، وبروس ديونز، وبام ماك كارثي، ولورين بوركارو، وقسم تدقيق الحقائق، خاصة نانا عصفور، وجيتا دانيشجو، وأليسون هوفمان، وراي خاتشادوريان، ونَاندي رودريغو، وآندي يونغ.

لقد قامت كاثي أندرسون، وكيلة أعمالي، بتقديم المساعدة لي باستمرار. كما عمل دوغلاس غيليسون بضمير حي بوصفه مساعداً في الأبحاث. وفي فارار وشتراوس وغيروكس أشكر عمل واه مينغ شانغ، وكاري غولدشتاين، وديبرا هيلفاند، وسينثيا ميرمان، وجيف سيروي، وآني ويدكايند، وأخص بالشكر جوناثان غالاسي، الصديق العظيم ورئيس التحرير.

أشكر هؤلاء الأصدقاء على مشاركتهم لي هاجس العراق وإثرائهم لهذا الهاجس: ديب آموس، وجون لي آندرسون، ودان بيرغنر، وبول بيرمان، وروبين كريسويل، وديكستر فيلكينز، وبيل فينيغان، وآني غاريلز، ومارسيلا غافيريا، وجيف غولدبيرغ، وفيليب غورفيتش، وفيصل

إسترابادي، ومصطفى الكاظمي، وفريد كابلان، وكنعان مكية، وسكوت مالكومسون، وعمار الشهبندر. أشكر والدتي وأختي على حبهما ودعمهما لي في حقب غيابي المتعبة للأعصاب ولاهتمامهما الدائم بعملي. وقد أعطت لورا سيكور هذا الكتاب ومؤلفه أكبر قدر من حبها وذكائها؛ لذا فإنني أدين لها بالشكر الجزيل.



بوابة الحشّاشين

أمريكة في العراق

جورج باكر

دليل مجموعة القراءة

حول هذا الدليل

لقد تم تصميم الأسئلة وموضوعات النقاش الآتية لدعم قراءتك لكتاب جورج باكر بوابة الحشّاشين: أمريكة في العراق. نأمل أن تثري تجربتكم للتاريخ والأخبار الرائدة التي تقدمها هذه الصورة المقلقة للحرب.

مقدمة

يقدّم كتاب بوابة الحشاشين تبصراً غير مسبوق لأكثر قرارات السياسة الخارجية الأمريكية إثارة للجدل منذ فيتنام، ويروي كيف شرعت إدارة بوش تغيّر تاريخ منطقة الشرق الأوسط، وتورطت في حرب عصابات في العراق. في أثناء أربع رحلات في مهمات لمجلة النيويوركر، لاحظ جورج باكر المراسل الحائز على الجوائز بشكل مباشر الصراعات المعقدة للجنود والمدنيين من خلفيات كثيرة. وقد بعث باكر الحياة في الناس والأفكار والتاريخ التي قادت أمريكة إلى بوابة الحشّاشين -نقطة الدخول الرئيسة إلى المنطقة الأمريكية في بغداد- وكشف الحقائق القاسية لبناء الأمة والتمرّد في حرب لم تتبع أياً من النصوص التي تم تصورها سابقاً. وقد كانت النتيجة تحفة صحفية، تقدم إجابات على موضوع ندرت معالجته بوضوح، بينما تطرح أسئلة جديدة مهمة عن المستقبل.

أسئلة للمناقشة

1. ما الحكمة التي تظهرها العبارة المقتبسة عن شاعر وديبلوماسي سوري؟

2. يصف تمهيد الكتاب الحشود التي تجمعت على بوابة الحشاشين، ويقدّم تاريخ البوابة (التي بناها صدام حسين تقليداً للعصور القديمة). كيف تشكل البوابة استعارة للوضع الحالي في العراق، ودور أمريكة في العالم؟

3. يذكر جورج باكر تاريخ إنشاء بغداد، وكذلك السياسة الخارجية الأمريكية في القرن العشرين، ويذكر صوراً للمحافظين الجدد الأصليين. أي هذه الجوانب لم تكن مفاجئة فيما يتعلق بك؟ ما الذي يجب أن يكون القادة في العالم قد تعلموه من هذا التاريخ؟

4. ناقش الرجال الذين دافعوا عن غزو العراق في مرحلة مبكرة، مثل روبرت كاغان وبول وولفويتز. هل هناك قاسم مشترك (المثالية حول الديمقراطية، شد عضلة حربية) في الأسباب التي عرضوها؟ حسب رواية باكر، لماذا كان جورج و. بوش مصمماً على الإطاحة بنظام صدام؟

5. يبدأ الفصل الثالث بقرار كنعان مكية عدم المشاركة في مشروع مستقبل العراق الذي تقوم به وزارة الخارجية. هل تم تضليل آرائه حول الحرب؟ ماذا تقول قصته عن آراء المغتربين؟

6. ما الذي اكتشفته عن سلطة التحالف المؤقتة بقراءتك عن رجال إدارة مثل درو إردمان، الذي تستهل قصته الفصل الرابع؟ ما هو دافع درو وميغان أو. سوليفان وكثير من الرجال والنساء أمثالهم الذين كانوا يأملون إنشاء حكومة نموذجية في العراق؟

7. يصف الفصل السادس انتقال السلطة من جاي غارنر إلى بول بريمر الذي سرعان ما أصدر أمراً متصلباً باجتثاث حزب البعث. هل تعتقد أن التمرّد المتزايد هو نتيجة لقلة خبرة بول بريمر، أو أن الوضع كان سيتدهور بالقدر نفسه تحت سلطة جاي غارنر؟

8. كيف تتم مقارنة إعادة إعمار العراق بإعادة إعمار اليابان وألمانية والبوسنة وغيرها من السيناريوهات التي أعقبت الحروب في التاريخ؟ إلى أي درجة يجب أن نعزو الفوضى الحالية في العراق إلى حقبة لورنس العرب والاستعمار البريطاني؟ ما رأيك في العراقيين الذين قالوا لجورج باكر: إنهم يعتقدون أن البريطانيين كانوا أفضل من الأمريكيين كمحتلين؟

9. يلاحظ باكر مشكلة الاتهامات دون دليل، مقترنة بالرغبة في الانتقام، التي انتشرت في كثير من الفصائل العراقية. ما المطلوب للتغلب على مثل هذه المواقف ذات الجذور الثقافية العميقة؟

10. هل تعد السلب والتخريب والفوضى العامة في العراق نتيجة لإرسال عدد قليل من القوات الأمريكية لنقل البلاد من المرحلة الثالثة إلى المرحلة الرابعة (المقاومة لعملية الاستقرار)؟

11. يقدّم الفصل الثامن أسيل، المرأة العراقية المتحررة التي تسأل: «هل تظن أن أحلامي ستتحقق؟» كيف يمكن أن تجيب عن سؤالها؟

12. يقدّم كتاب بوابة الحشاشين قدراً كبيراً من المعلومات حول موقف العراقيين تجاه الجنس. إلامَ تعزو الهاجس باختبارات إثبات عذرية النساء؟ كيف تمثل هذه المواقف جوانب أخرى من الثقافة العراقية؟ هل ستقوّض هذه المواقف أي أمل في السلام وحقوق الإنسان في المنطقة؟

13. ناقش تجربة الصحافيين، كما وصفها كتاب بوابة الحشاشين. ما الذي اكتشفته عن العملية التي جمع بها باكر الحقائق، وتنوع خلفيات مترجميه؟ كيف قام انتشار الصحافيين من جميع أنحاء العالم، والتقنيات التي أتاحت للجنود والمدنيين إرسال ملاحظاتهم الشخصية عبر البريد الإلكتروني إلى أصدقائهم في بلادهم، بتغيير وجه الحرب؟ كيف تمت مقارنة التغطية الصحفية لهذه الحرب التي أصبح فيها الصحافيون أهدافاً، بحرب الخليج وفيتنام؟

14. كيف تحكي قصة الجندي كيرت فروشيسر عن الانشقاق بين المؤيدين للحرب ومنتقديها؟ ما رأيك في الاختلافات الكبيرة بين طريقتي رد فعل والد كيرت ووالدته على موته؟

15. ما هي نتائج الغزو سواء على الأمريكيين أو العراقيين على المدى البعيد؟ ما الذي قد يقوله الأشخاص المختلفون المذكورون في الكتاب لو قابلهم باكر ثانية بعد عشرين عاماً؟

16. هل تعتقد أن القوات الأمريكية ستغادر العراق كلها في يوم من الأيام؟ وإن كنت ترى ذلك، متى وكيف؟

لمزيد من القراءة

- A Pretext for War: 911/, Iraq , and the Abuse of America's Intelligence Agencies

بقلم جيمس بامفورد؛

- My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope

بقلم ل. بول بريمر III؛

- Squandered Victory: The American Occupation and the Bungled Effort to Bring Democracy to Iraq

بقلم لاري دياموند؛

- Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq

بقلم مايكل ر. غوردون والجنرال بيرنارد إي. ترينور؛

- Cruelty and Silence: War, Tyranny, Uprising, and the Arab World

بقلم كنعان مكية؛

- Republic of Fear: The Politics of Modern Iraq

بقلم كنعان مكية؛

- American Theocracy; The Peril and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21st Century

بقلم كيفين فيليبس

- Understanding Iraq: The Whole Sweep of Iraqi History, from Genghis Khan's Mongols to the Ottoman Turks to the British Mandate to the American Occupation

بقلم ويليام ر.بولك؛

- The Prince of the Marshes: And Other Occupational Hazards of a Year in Iraq

بقلم روري ستيوارت

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بوابة الحشاشين

أمريكا في العراق

جورج باكر

نقلته إلى العربية

مها سليمان



العبيكان
Obekan